الكشـــــاف

(الجزء الثالث)

أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري

- سورة مريم
- سورة طه
- سورة الأنبياء
- سورة الحج
- سورة المؤمنون
- سورة النور
- سورة الفرقان
- سورة الشعراء
- سورة النمل
- سورة القصص
- سورة العنكبوت
- سورة الروم
- سورة لقمان
- سورة السجدة
- سورة الأحزاب
- سورة سبأ
- سورة الملائكة

سورة مريم

مكية وآياتها ثمان وتسعون

بسم الله الرحمن الرحيم " كهيعص ذكرَ رحمَتِ رَبك عَبدَهُ زَكَرِيا إذ نَاد ربه نداءً خفياً " " كهيعص " قرأ بفتح الهاء وكسر الياء حمزة وبكسرهما عاصم وبضمهما الحسن وقرأ الحسن " ذَكرَ رَحمَةَ رَبَّكَ " أي: هذا المتلو من القرآن ذَكرَ رحمةَ ربكَ وقرىء: ذكر على الأمر.

راعى سنة الله في إخفاء دعوته لأن الجهر والإخفاء عند الله سيان فكان الإخفاء أولى لأنه أبعد من الرياء وأدخل في الإخلاص.

وعن الحسن: نداء لا رياء فيه أو أخفاه لئلا يلام على طلب الولد في إبان الكبرة والشيخوخة.

أو أسره من مواليه الذين خافهم.

أو خفت صوته لضعفه وهرمه كما جاء في صفة الشيخ: صوته خفات وسمعه تارات.

واختلف في سن زكريا عليه السلام فقيل: ستون وخمس وستون وسبعون وخمس وسبعون وخمس وثمانون.

قرىء " وهن " بالحركات الثلاث وإنما ذكر العظم لأنه عمود البدن وبه قوامه وهو أصل بنائه فإذا وهن تداعى وتساقطت قوته ولأنه أشد ما فيه وأصلبه فإذا وهن كان ما وراءه أوهن.

ووحده لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية وقصده إلى أن هذا الجنس الذي هو العمود والقوام وأشد ما تركب منه الجسد قد أصابه الوهن ولو جمع لكان قصداً إلى معنى آخر وهو أنه لم يهن منه بعض عظامه ولكن كلها " واشتعل الرأس شيباً ".

إدغام السين في الشين عن أبي عمرو.

شبه الشيب بشواظ النار في بياضه وإنارته وانتشاره في الشعر وفشوه فيه وأخذه منه كل مأخذ باشتعال النار ثم أخرجه مخرج الاستعارة ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس

وأخرج الشيب مميزاً ولم يضف الرأس: اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا فمن ثم فصحت هذه الجملة وشهد لها بالبلاغة.

توسل إلى الله بما سلف له معه من الاستجابة.

وعن بعضهم أن محتاجاً سأله وقال: أنا الذي أحسنت إلي وقت كذا.

فقال: مرحباً بمن توسل بنا إلينا وقضى حاجته.

" وإني خفت الموالي مِن ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من ءال يعقوب واجعله رب مرضياً ".

كان مواليه - وهم عصبته إخوته وبنو عمه - شرار بني إسرائيل فخافهم على الدين أن يغيروه

ويبدلوه وأن لا يحسنوا الخلافة على أمته فطلب عقباً من صلبه صالحاً يقتدى به في إحياء الدين ويرتسم مراسمه فيه: " مِن وَرَاءِى " بعد موتي.

وقرأ ابن كثير: " من وراي " بالقصر وهذا الظرف لا يتعلق ب " خفت " لفساد المعنى ولكن بمحذوف.

أو بمعنى الولاية في الموالي: أي خفت فعل الموالي وهو تبديلهم وسوء خلافتهم من ورائي.

أو خفت الذين يلون الأمر من ورائي.

وقرأ عثمان ومحمد بن علي وعلي بن الحسين رضي اللّه عنهم " خَفَّتِ الموالي من ورائي " وهذا على معنيين أحدهما: أن يكون " وَرَاءِى " بمعنى خلفي وبعدي فيتعلق الظرف بالموالي: أي قلوا وعجزوا عن إقامة أمر الدين فسأل ربه تقويتهم ومظاهرتهم بولي يرزقه.

والثاني: أن يكون بمعنى قدامي فيتعلق ب " خفت " ويريد أنهم خفوا قدامه ودرجوا ولم يبق منهم من به تقو واعتضاد " مِن لدنك " تأكيد لكونه ولياً مرضياً بكونه مضافاً إلى اللّه تعالى وصادراً من عنده وإلا - فهب لي ولياً يرثني - كاف أو أراد اختراعاً منك بلا سبب لأني وامرأتي لا نصلح للولادة " يَرِثُنِى ويرِثُ " الجزم جواب الدعاء والرفع صفة.

ونحوه: " رِدءاً يصدقني " القصص: 34 وعن ابن عباس والجحدري: يرثني وارث آل يعقوب نصب على الحال.

وعن الجحدري: أو يرث على تصغير وارث وقال: غليم صغير.

وعن علي رضي الله عنه وجماعة: وارث من آل يعقوب: أي يرثني به وارث ويسمى التجريد في علم البيان والمراد بالإرث إرث الشرع والعلم لأن الأنبياء لا تورث المال.

وقيل: يرثني الحبورة وكان حبراً ويرث من آل يعقوب الملك.

يقال: ورثته وورثت منه لغتان.

وقيل: " من " للتبعيض لا للتعدية لأن آل يعقوب لم يكونوا كلهم أنبياء ولا علماء وكان زكريا عليه السلام من نسل يعقوب بن إسحاق.

وقيل: هو يعقوب بن ماتان أخو زكريا.

وقيل: يعقوب هذا وعمران أبو مريم أخوان من نسل سليمان بن داود.

" يَزَكريا إنَا نُبَشرك بِغلام اَسمهُ يحيى لم نجعل له من قبل سمياً.

" سَمِياً " لم يسم أحد ب " يحيى " قبله وهذا شاهد على أن الأسامي السنع جديرة بالأثرة وإياها كانت العرب تنتحي في التسمية لكونها أنبه وأنوه وأنزه عن النبز حتى قال

القائل في مدح قوم: سُنع الأَسَامِي مُسبِلِي أُزُر حُمر تمس الأَرضَ بِالهدْبِ وقال رؤبة للنسابة البكري - وقد سأله عن نسبه -: أنا ابن العجاج فقال: قصَرت وعرفت.

وقيل: مثلاً وشبيهاً عن مجاهد كقوله: " هل تعلم له سمياً " مريم: 65 وإنما قيل للمثل " سَمي " لأن كل متشاكلين يسمى كل واحد منهما باسم المثل والشبيه والشكل والنظير فكل واحد منهما سمي لصاحبه ونحو: يحيى في أسمائهم يعمر ويعيش إن كانت التسمية عربية وقد سموا بيموت أيضاً وهو يموت بن المزرع قالوا: لم يكن له مثل في أنه لم يعص ولم يهم بمعصية قط وأنه ولد بين"قَالَ رَب أَنى يَكُونُ لِى غُلَم وَكَانَتِ امرَأتيِ عاقر وقد بلَغتُ مِنَ الكبَرِ عِتياً ".

أي كانت على صفة العقر حين أنا شاب وكهل فما رزقت الولد لاختلال أحد السببين أفحين اختل السببان جميعاً أرزقه فإنْ قلت: لم طلب أولاً وهو وامرأته على صفة العتي والعقر فلما أسعف بطلبتهِ استبعد واستعجب قلت: ليجاب بما أجيب به فيزداد المؤمنون إيقاناً ويرتدع المبطلون وإلا فمعتقد زكريا أولاً وآخراً كان على منهاج واحد: في أن اللّه غني عن الأسباب أي بلغت عتياً: وهو اليبس والجساوة في المفاصل والعظام كالعود القاحل يقال: عتا العود وعسا من أجل الكبر والطعن في السن العالية.

أو بلغت من مدارج الكبر ومراتبه ما يسمى عتياً.

وقرأ ابن وثاب وحمزة والكسائي بكسر العين وكذلك " صلياً " مريم: 70 وابن مسعود بفتحهما فيهما.

وقرأ أبي ومجاهد " عُسياً ".

" قَالَ كَذلِك قَالَ رَبك هُو عَلى هَين وقد ظَّقئثَ مِن قبلُ وَلَم تك شَيئاً ".

" كَذلِك " الكاف رفع أي الأمر كذلك تصديق له ثم ابتدأ " قَالَ ربكَ " أو نصب ب " قال " وذلك إشارة إلى مبهم يفسره " هُوَ عَلىَ هَين " ونحوه: " وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين " الحجر: 66 وقرأ الحسن " وهو علي هين " ولا يخرج هنا إلا على الوجه الأول: أي الأمر كما قلت وهو على ذلك يهون علي.

ووجه آخر: وهو أن يشار بذلك إلى ما تقدم من وعد الله لا إلى قول زكريا.

و " قال " محذوف في كلتا القراءتين: أي قال هو علي هين قال وهو علي هين وإن شئت لم تنوه لأن اللّه هو المخاطب والمعنى: أنه قال ذلك ووعده وقوله الحق " وَقَد خَلقتُكَ مِن قبلُ وَلَم تَكُ شيئاً " لأن المعدوم ليس بشيء.

أو شيئاً يعتد به كقولهم: عجبت من لا شيء وقوله: إذَا رَأَى غَيرَ شيء ظَنهُ رَجُلاً وقرأ الأعمش والكسائي وابن وثاب " خلقناك ".

" قَالَ رَب اجعل لي آيَةَ قَالَ ءايتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً ".

أي اَجعل لي علامة أعلم بها وقوع ما بشرت به.

قال: علامتك أن تمنع الكلام فلا تطيقه وأنت سليم الجوارح سوي الخلق ما بك خرس ولا بكم.

دل ذكر الليالي هنا والأيام في آل عمران على أن المنع من الكلام استمر به ثلاثة أيام ولياليهن

" فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرةً وعشياً ".

أوحى: أشار عن مجاهد ويشهد له " إلا رمزاً " آل عمران: 41 وعن ابن عباس: كتب لهم على الأرض " سَبحوُا " صلوا أو على الظاهر وأن: هي المفسرة.

" يَيَحيَى خُذِ الكِتب بِقُوة وءاتينَهُ اَلحكُمَ صبِياً ".

وَاحكم كَحُكمِ فَتَاةِ الحَي يقال: حكم حكماً كحلم حلماً وهو الفهم للتوراة والفقه في الدين عن ابن عباس.

وقيل: دعاه الصبيان إلى اللعب وهو صبي فقال: ما للعب خلقنا عن الضحاك.

وعن معمر: العقل وقيل: النبوة لأنّ الله تعالى أحكم عقله في صباه وأوحى إليه.

" وَحَنَاناً مِن لدنا وَزَكَوة وَكاَنَ تَقِياً وَبَرَا بواَلَديهِ وَلَم يَكنُ جبارًا عَصِياً " " وَحَنَاناً " رحمة لأبويه وغيرهما وتعطفاً وشفقة.

أنشد سيبويه: وَقَالَت حَنَانْ مَا أتى بِكَ ههُنَا أذُو نَسَب أَم أَنتَ بِالحَي عَارِفُ وقيل: حناناً من الله عليه.

وحن: في معنى ارتاح واشتاق ثم استعمل في العطف والرأفة وقيل لله: " حنان " كما قيل: " رحيم " على سبيل الاستعارة.

والزكاة: الطهارة وقيل: الصدقة أي: يتعطف على الناس ويتصدق عليهم.

" وَسلام عَلَيهِ يومَ وُلدَ ويومَ يَمُوتُ وَيومَ يُبعَثُ حياً ".

سلم الله عليه في هذه الأحوال قال ابن عيينة: إنها أوحش المواطن.

" وَاَذكر فِى الكِتب مَريَمَ إذِ اَنتَبَذَت مِن أَهلِهَا مَكاناَ شَرقِياً فاَتخذَت مِن دونِهِم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً ".

" إذ " بدل من " مَريَمَ " بدل اشتمال لأن الأحيان مشتملة على ما فيها.

وفيه أن المقصود بذكر مريم ذكر وقتها هذا لوقوع هذه القصة العجيبة فيه.

والانتباذ: الاعتزال والانفراد تخلت للعبادة في مكان مما يلي شرقي بيت المقدس أو من دارها معتزلة عن الناس.

وقيل: قعدت في مشرفة للاغتسال من الحيض محتجبة بحائط أو بشيء يسترها وكان موضعها المسجد فإذا حاضت تحولت إلى بيت خالتها فإذا طهرت عادت إلى المسجد فبينا هي في مغتسلها أتاها الملك في صورة آدمي شاب أمرد وضيء الوجه جعد الشعر سوي الخلق لم ينتقص من الصورة الآدمية شيئاً.

أو حسن الصورة مستوي الخلق وإنما مثل لها في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه ولو بدا لها في الصورة الملكية لنفرت ولم تقدر على استماع كلامه.

ودل على عفافها وورعها أنها تعوذت بالله من تلك الصورة الجميلة الفائقة الحسن وكان تمثيله على تلك الصفة ابتلاء لها وسبراً لعفتها.

وقيل: كانت في منزل زوج أختها زكريا ولها محراب على حدة تسكنه وكان زكريا إذا خرج أغلق عليها الباب فتمنت أن تجد خلوة في الجبل لتفلي رأسها فانفجر السقف لها فخرجت فجلست في المشرفة وراء الجبل فأتاها الملك.

وقيل: قام بين يديها في صورة ترب لها اسمه يوسف من خدم بيت المقدس.

وقيل: إن النصارى اتخذت المشرق قبلة لانتباذ مريم مكاناً شرقياً الروح: جبريل لأن الدين يحيا به وبوحيه.

أو سماه اللّه روحه على المجاز محبة له وتقريباً كما تقول لحبيبك: أنت روحي.

وقرأ أبو حيوة: " رَوحنا " بالفتح لأنه سبب لما فيه رَوح العباد وإصابة الروح عند الله الذي هو عدة المقربين في قوله: " فأما إن كان من المقربين فروح وريحان " الواقعة: 89 أو لأنه من المقربين وهم الموعودون بالروح أي مقربنا وذا روحنا.

" قَالَت إِنِي أَعُوذُ بِاَلرحمن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِياً ".

أرادت إن كان يرجى منك أن تتقي الله وتخشاه وتحفل بالاستعاذة " به " فإني عائذة به منك كقوله تعالى: " بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين " أهود: 86.

" قَالَ إِنَمَآ أَنا رَسُولُ رَبكِ لأَهَبَ لَكِ غُلماً زَكياً ".

أي إنما أنا رسول من استعذت به " لِأَهَبَ لَكِ " لأكون سبباَ في هبة الغلام بالنفخ في الدرع.

وفي بعض المصاحف: إنما أنا رسول ربك أمرني أن أهب لك.

أو هي حكاية لقول الله تعالى.

" قَالَت أنى يكُونُ لي غلم وَلَم يَمسسنِي بَشَر وَلَم أَكُ بَغِياً قَالَ كَذَلِك قَالَ رَبك هُو عَلى هَيِن وَلنَجعَله ءاية للناس وَرَحمةَ منا وكَاَن أمراً مقضيَّاً ".

جعل المس عبارة عن النكاح الحلال لأنه كناية عنه كقوله تعالى: " من قبل أن تمسوهن " البقرة: 37 " أو لامستم النساء " النساء: 43 والزنا ليس كذلك إنما يقال فيه: فَجَرَ بها وخبث بها وما أشبه ذلك وليس يقمن أن تراعى فيه الكنايات والآداب.

والبغي: الفاجرة التي تبغي الرجال وهي فعول عند المبرد " بغوي " فأدغمت الواو في الياء.

وقال ابن جنى في كتاب التمام: هي فعيل ولو كانت فعولاً لقيل: " بغو " كما قيل: فلان نهو عن المنكر " وَلنَجعَلهُ ءَايَة " تعليل معلله محذوف أي: ولنجعله آية للناس فعلنا ذلك.

أو هو معطوف على تعليل مضمر أي لنبين به قدرتنا ولنجعله آية.

ونحوه: " وخلق الله السماوات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت " الجاثية: 23
وقوله: " وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه " يوسف: 21 " مَقضِياً " مقدراً مسطوراً في اللوح لا بد لك من جريه عليك.

أو كان أمراً حقيقاً بأن يكون ويقضي لكونه آية ورحمة.

والمراد بالآية: العبرة وللبرهان على قدرة الله تعالى.

وبالرحمة: الشرائع والألطاف وما كان سبباً في قوة الاعتقاد والتوصل إلى الطاعة والعمل الصالح فهو جدير بالتكوين.

" فَحَمَلَتهُ فَاَنتَبذَت بِهِ مَكاناً قصياً ".

عن ابن عباس: فاطمأنت إلى قوله فدنا منها فنفخ في جيب درعها فوصلت النفخة إلى بطنها فحملت.

وقيل: كانت مدة الحمل ستة أشهر.

وعن عطاء وأبي العالية والضحاك: سبعة أشهر.

وقيل: ثمانية ولم يعش مولود وضع لثمانية إلا عيسى عليه الصلاة والسلام.

وقيل: ثلاث ساعات.

وقيل: حملته في ساعة وصور في ساعة ووضعته في ساعة حين زالت الشمس من

يومها.

وعن ابن عباس: كانت مدة الحمل ساعة واحدة كما حملته نبذته.

وقيل: حملته وهي بنت ثلاث عشرة سنة.

وقيل: بنت عشر وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل.

وقالوا: ما من مولود إلا يستهل غيره " فانتبذت به " أي اعتزلت وهو في بطنها كقوله: تَدُوسُ بِنَا الجمَاجِمَ وَالترِيبا أي تدوس الجَماجم ونحن على ظهورها ونحوه قوله تعالى: " تنبت بالدهن " المؤمنون: 20 أي تنبت ودهنها فيها: الجار والمجرور في موضع الحال " قَصِياً بعيداً من أهلها وراء الجبل.

وقيل: أقصى الدار.

وقيل: كانت سميت لابن عم لها اسمه يوسف فلما قيل: حملت من الزنا خاف عليها قتل الملك فهرب بها فلما كان ببعض الطريق حدثته نفسه بأن يقتلها فأتاه جبريل فقال له: إنه من روح القدس فلا تقتلها فتركها.

" فأجاءها المخاض إلى جذع النَّخْلَةَ قَالَت يَلتتَي مِتُ قبلَ هَذَا وَكنت نسياً منسِياً " " فأجاءها " أجاء: منقول من جاء إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء.

ألا تراك تقول: جئت المكان وأجاءنيه زيد كما تقول: بلغته وأبلغنيه.

ونظيره " آتي " حيث لم يستعمل إلا في الإعطاء ولم تقل: أتيت المكان وآتانيه فلان.

قرأ ابن كثير في رواية " المِخَاضُ " بالكسر.

يقال: مخضت الحامل مَخاضاً ومِخاضاً وهو تمخض الولد في بطنها.

طلبت الجذع لتستتر به وتعتمد عليه عند الولاعة وكان جذع نخلة يابسة في الصحراء ليس لها رأس ولا ثمرة ولا خضرة وكان الوقت شتاء والتعريف لا يخلو: إما أن يكون من تعريف الأسماء الغالبة كتعريف النجم والصعق كأن تلك الصحراء كان فيها جذع نخلة متعالم عند الناس فإذا قيل: جذع النخلة فهم منه ذلك دون غيره من جذوع النخل.

وإما أن يكون تعريف الجنس أي: جذع هذه الشجرة خاصة كأن الله تعالى إنما أرشدها إلى النخلة ليطعمها منها الرطب الذي هو حرسة النفساء الموافقة لها.

ولأن النخلة أقل شيء صبراً على البرد وثمارها إنما هي من جمارها فلموافقتها لها مع جمع الآيات فيها اختارها لها وألجأها إليها " قالَت يلَيتَني مِتُ قَبلَ هَذَا " قرىء " مِت " بالضم والكسر يقال: مات يموت ومات يمات.

النسيئ: ما من حقه أن يطرح وينسى كخرقة الطامث ونحوها كالذبح: اسم ما من شأنه أن يذبح في قوله تعالى: " وفديناه بذبح عظيم " الصافات: 107 وعن يونس: العرب إذا ارتحلوا عن الدار قالوا: انظروا أنساءكم أي: الشيء اليسير نحو العصا والقدح والشظاظ تمنت لو كانت شيئاً تافهاً لا يؤبه له من شأنه وحقه أن ينسى في العادة وقد نسي وطرح فوجد فيه النسيان الذي هو حقه وذلك لما لحقها من فرط الحياء والتشور من الناس على حكم العادة البشرية لا كراهة لحكم الله أو لشدة التكليف عليها إذا بهتوها وهي عارفة ببراءة الساحة وبضد ما قرفت به من اختصاص الله إياها بغاية الإجلال والإكرام لأنه مقام دحض قلما تثبت عليه الأقدام: أن تعرف اغتباطك بأمر عظيم وفضل باهر تستحق به المدح وتستوجب التعظيم ثم تراه عند الناس لجهلهم به عيباً يعاب به ويعنف بسببه أو لخوفها على الناس أن يعصوا اللّه بسببها.

وقرأ ابن وَثاب والأعمش وحمزة وحفص " نسياً " بالفتح.

قال الفراء: هما لغتان كالوتر والوتر والجسر والجسر.

ويجوز أن يكون مسمى بالمصدر.

كالحمل.

وقرأ محمد بن كعب القرظي " نسأ " بالهمز وهو الحليب المخلوط بالماء ينسؤه أهله لقلته ونزارته.

وقرأ الأعمش " منسياً " بالكسر على الإتباع كالمغيرة والمنخر.

" فَنَادَاهَا مِن تَحِتهآ أَلا تَحزَني قد جَعَلَ رَبُكِ تَحتكِ سَرِياً ".

" مِن تحتها " هو جبريل عليه السلام.

قيل: كان يقبل الولد كالقابلة.

وقيل: هو عيسى وهي قراءة عاصم وأبي عمرو.

وقيل: " تَحتها " أسفل من مكانها كقوله: " تجري من تحتها الأنهار " البقرة: 25 وقيل: كان أسفل منها تحت الأكمة فصاح بها لا تحزني وقرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص " مِن تحتها " وفي ناداها ضمير الملك أو عيسى.

وعن قتادة: الضمير في تحتها للنخلة.

وقرأ زر وعلقمة: فخاطبها من تحتها.

سُئل النبي صلى الله عليه وسلم عن السري فقال: " هُوَ الجدولُ " قال لبيد:

وقيل: هو من السرو.

والمراد: عيسى وعن الحسن: كان والله عبداً سرياً.

فإن قلت: ما كان حزنها لفقد الطعام والشراب حتى تسلى بالسري والرطب قلت: لم تقع التسلية بهما من حيث أنهما طعام وشراب ولكن من حيث أنهما معجزتان تريان الناس أنها من أهل العصمة والبعد من الريبة وأن مثلها مما قرفوها به بمعزل وأن لها أموراً إلهية خارجة عن العادات خارقة لما ألفوا واعتادوا حتى يتبين لهم أن ولادها من غير فحل ليس ببدع من شأنها.

" وَهُزِى إلَيك بِجِذع اَلنخلَةَ تسقط عليك رطباً جنياً فكلي واشربي وَقَرِى عَيناً فَإمَا تَرِيِنَّ مِنَ البشَرِ أَحَداً فَقُولي إِني نَذَرتُ لِلرَّحمَن صوَماً فَلَن أكلمَ اليوم إنسياً ".

" تُسَقِط " فيه تسع قراءات: " تساقط " بإدغام التاء.

و " تتساقط " بإظهار التاءين.

و " تساقط " بطرح التاء الثانية.

و " يساقط " بالياء وإدغام التاء.

و " تساقط " و " تسقط " و " يسقط " و " تسقط " و " يسقط " التاء للنخلة والياء للجذع.

ورطباً تمييز أو مفعول على حسب القراءة.

وعن المبرد: جواز انتصابه ب " هزي " وليس بذاك.

والباء في " بِجذع اَلنَخلَةَ " صلة للتأكيد كقوله تعالى: " ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة " البقرة: 195 أو على معنى: افعلي الهز به كقوله: يَخرَحُ فِي عَرَاقِيبِهَا نَصلي قالوا: التمر للنفساء عادة من ذلك الوقت وكذلك التحنيك وقالوا: كان من العجوة.

وقيل: ما للنفساء خير من الرطب ولا للمريض خير من العسل وقيل: إذا عسر ولادها لم يكن لها خير من الرطب.

عن طلحة بن سليمان " جنِياً " بكسر الجيم للإتباع أي جمعنا لك في السري والرطب فائدتين إحداهما: الأكل والشرب والثانية سلوة الصدر لكونهما معجزتين.

وهو معنى قوله: " فَكلي وَاَشرَبي وَقَرى عَينَاً " أي وطيبي نفساً ولا تغتمي وارفضي عنك ما أحزنك وأهمكِ.

وقرىء و " قِري ": بالكسر لغة نجد " فَإمَا تَرِينَ " بالهمز: ابن الرومي.

عن أبي عمرو: وهذا من لغة من يقول: لبأت بالحج وحلأت السويق وذلك لتآخِ بين الهمزة وحرف اللين في الإبدال " صَومَاً " صمتاً.

وفي مصحف عبد الله: صمتاً.

وعن أنس بن مالك مثله.

وقيل: صياماً إلا أنهم كانوا لا يتكلمون في صيامهم وقد " نهى رسول اللّه صلى الله عليه وسلم عن صوم الصمت " لأنه نسخ في أمته أمرها الله بأن تنذر الصوم لئلا تشرع مع البشر المتهمين لها في الكلام لمعنيين أحدهما: أن عيسى صلوات الله عليه يكفيها الكلام بما يبريء به ساحتها.

والثاني: كراهة مجادلة السفهاء ومناقلتهم.

وفيه أن السكوت عن السفيه واجب.

ومن أذل الناس: سفيه لم يجد مسافهاً.

قيل: أخبرتهم بأنها نذرت الصوم بالإشارة.

وقيل: سوغ لها ذلك بالنطق " إِنسِياً " أي أكلم الملائكة دون الإنس.

" فَأَتتَ بِهِ قَومَهَا تَحمِلُه قَالوُا يا مريمُ لَقَد جِئتِ شيئاً فَرِياً يأخُتَ هرونَ مَا كَاَنَ أَبوُكِ امرَأَ سَوء وَمَاَ كانَت أمُكِ بَغِياً ".

الفري: البديع وهو من فري الجلد " يأخُتَ هرونَ " كان أخاها من أبيها من أمثل بني إسرائيل.

وقيل: هو أخو موسى صلوات اللّه عليهما.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: " إنما عنوا هرونَ النبي " وكانت من أعقابه في طبقة الإخوة بينها وبينه ألف سنة وأكثر.

وعن السدي: كانت من أولاده.

وإنما قيل: يا أخت هرون كما يقال: يا أخا همدان أي: يا واحداً منهم.

وقيل: رجل صالح أو طالح في زمانها شبهوها به أي: كنت عندنا مثله في الصلاح أو شتموها به ولم ترد إخوة النسب ذكر أن هرون الصالح تبع جنازته أربعون ألفاً كلهم يسمي هرون تبركاً به وباسمه فقالوا: كنا نشبهك بهرون هذا وقرأ عمر بن لجاء التيمي " ما كان أباكِ أمرؤ سوء " وقيل: احتمل يوسف النجار مريم وابنها إلى غار فلبثوا فيه أربعين يوماً حتى تعلت من نفاسها ثم جاءت تحمله فكلمها عيسى في الطريق فقال: يا أماه أبشري فإني عبد اللّه ومسيحه فلما دخلت به على قومها وهم أهل بيت صالحون تباكوا وقالوا ذلك.

وقيل: هموا برجمها حتى تكلم عيسى عليه السلام.

فتركوها.

" فَأَشَارَت إليه قَالوُا كَيف نُكلمُ مَن كانَ فِى المَهدِ صبياً ".

" فَأَشَارَت إليه " أي هو الذي يجيبكم إذا ناطقتموه.

وقيل: كان المستنطق لعيسى زكريا عليه السلام.

وعن السدي: لما أَشارت إليه غضبوا وقالوا: لسخريتها بنا أشد علينا من زناها.

وروي أنه كان يرضع فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه واتكأ على يساره وأشار بسبابته.

وقيل: كلمهم بذلك ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغاً يتكلم فيه الصبيان " كان " لإيقاع مضمون الجملة في زمان ماض مبهم يصلح لقريبه وبعيده وهو ههنا لقريبه خاصة والمال عليه مبنى الكلام وأنه مسوق للتعجب.

ووجه آخر: أن يكون " نُكَلِّمُ " حكاية حال ماضية أي: كيف عهد قبل عيسى أن يكلم الناس صبياً في المهد فيما سلف من الزمان حتى نكلم هذا " قَالَ إني عَبدُ اَللَهِ ءَاتنِىَ الكتب وَجعلَنِى نبياً وَجعَلَنِى مُبَارَكاً أين مَا كُنتُ وَأوصنِى بالصلوة وَاَلزَكوَةِ مَا دُمتُ حَياً وَبَراً بِوَالدتي وَلَم يجعلنِى جَباراً شَقِياً وَاَلسَلَمُ عَلي يَومَ ولدت وَيَومَ أَمُوتُ وَيَومَ أُبعَثُ حَياً ".

أنطقه الله أولاً بأنه عبد الله رداً لقول النصارى و " الكتبَ " هو الإنجيل.

واختلفوا في نبوته فقيل: أعطيها في طفوليته: أكمل الله عقله واستنبأه طفلاً نظراً في ظاهر الآية.

وقيل: معناه إن ذلك سبق في قضائه.

أو جعل الآتي لا محالة كأنه قد وجد " وَجعلَنِى مُبَارَكاَ أَين مَا كُنتُ " عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " نفاعاً حيثُ كنتُ " وقيل: معلماً للخير.

وقرىء " وَبِراً " عن أبي نهيك جعل ذاته براً لفرط بره.

أو نصبه بفعل في معنى أوصاني وهو كلفني لأن أوصاني بالصلاة وكلفنيها واحد " وَاَلسَلَمُ عَلي " قيلْ: أدخل لام التعريف لتعرفه بالذكر قبله كقولك: جاءنا رجل فكان من فعل الرجل كذا والمعنى: ذلك السلام الموجه إلى يحيى في المواطن الثلاثة موجه إلي.

والصحيح أن يكون هذا التعريف تعريضاً باللعنة على متهمي مريم عليها السلام وأعدائها من اليهود.

وتحقيقه أن اللام للجنس فإذا قال: وجنس السلام علي خاصة فقد عرض بأن ضده عليكم.

ونظيره قوله تعالى: " والسلام على من اتبع الهدى " طه: 47 يعني أن العذاب على من كذب وتولى وكان المقام مقام مناكرة وعناد فهو مئنة لنحو هذا من التعريض.

" ذَلِكَ عِيسىَ ابنُ مَريم قَول الذي فِيهِ يَمترونَ ".

قرأ عاصم وابن عامر " قول الحق " بالنصب.

وعن ابن مسعود " قالُ الحق " وقال اللّه.

وعن الحسن: " قُولُ الحق " بضم القاف وكذلك في الأنعام " قُولُهُ الحق " الأنعام: 73 والقُول والقال والقول بمعنى واحد كالرهبِ والرهَبِ والرهب.

وارتفاعه على أنه خبر بعد خبر أو بدل أو خبر مبتدأ محذوف.

وأما انتصابه فعلى المَدح إن فسر بكلمة اللّه وعلى أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة إن أريد قول الثبات والصدق كقولك: هو عبد اللّه حقاً.

والحق لا الباطل وإنما قيل لعيسى " كلمة الله " و " قول الحق " لأنه لم يولد إلا بكلمة الله وحدها وهي قوله: " كن " من غير واسطة أب تسمية للمسبب باسم السبب كما سمى العشب بالسماء والشحم بالندى.

ويحتمل إذا أريد بقول الحق عيسى أن يكون الحق اسم الله عز وجل وأن يكون بمعنى الثبات والصدق ويعضده قوله: " الذي فِيهِ يَمترونَ " أي أمره حق يقين وهم فيه شاكون " يَمترونَ " يشكون.

والمرية: الشك.

أو يتمارون: يتلاحون قالت اليهود: ساحر كذاب وقالت النصارى: ابن اللّه وثالث ثلاثة.

وقرأ علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه: " تمترون " على الخطاب.

وعن أبي بن كعب: " قول الحق الذي كان الناس فيه يمترون ".

" مَا كانَ لِلَهِ أَن يتخذَ مِن وَلَد سُبحَنُه إِذَا قَضى أَمراً فَإِنَمَا يَقُولُ لَهُ كنُ فَيَكوُنُ ".

كذب النصارى وبكتهم بالدلالة على انتفاء الولد عنه وأنه مما لا يتأتى ولا يتصور في العقول وليس بمقدور عليه إذ من المحال غير المستقيم أن تكون ذاته كذات من ينشأ منه الولد ثم بين إحالة ذلك بأن من إذا أراد شيئاً من الأجناس كلها أوجده ب " كن " كان منزهاً من شبه الحيوان الوالد.

والقول ههنا مجاز ومعناه: أنّ إرادته للشيء يتبعها كونه لا محالة من غير توقف فشبه ذلك بأمر الآمر المطاع إذا ورد على المأمور الممتثل.

" وإنَ اَللَهَ رَبي وًربكم فَاَعبدوه هذا صِرَط مُستَقِيم ".

قرأ المدنيون وأبو عمرو بفتح إن ومعناه: ولأنه ربي وربكم فاعبدوه كقوله: " وأن المساجد لله

فلا تدعوا مع الله أحداً " الجن: 18 والأستار وأبو عبيد بالكسر على الابتداء.

وفي حرف أبي " إن الله " بالكسر بغير واو و " بأن الله " أي: بسبب ذلك ما عبدوه.

" فاختلفت الأَحزَابُ مِن بينهم فَويل للَذِينَ كَفَرُوا مِن مشهَدِ يوم عَظِيم ".

" الأَحزَابُ " اليهود والنصارى عن الكلبي.

وقيل النصارى لتحزبهم ثلاث فرق: نسطورية ويعقوبية وملكانية.

وعن الحسن: الذين تحزبوا على الأنبياء لما قص عليهم قصة عيسى اختلفوا فيه من بين الناس " من مشَهَدِ يوم عَظِيمٍ " أي من شهودهم هول الحساب والجزاء في يوم القيامة أو من مكان الشهود فيه وهو الموقف.

أو من وقت الشهود أو من شهادة ذلك اليوم عليهم وأن تشهد عليهم الملائكة والأنبياء وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بالكفر وسوء الأعمال.

أو من مكان الشهادة أو وقتها.

وقيل: هو ما قالوه وشهدوا به في عيسى وأمه.

" أسمِع بِهِم وَأَبصِر يومَ يَأتُونَنَا لَكِنِ الظلمُونَ فِى ضَلَل مبين وَأَنذرهم يَومَ اَلحسرة إذ قضُىَ اَلأمر وَهُم فِى غَفلَةَ وَهُم لا يؤمنون إِنَا نَحنُ نَرِثُ الأرضَ وَمَن عَليهَا وَإلينَا يُرجعوَن ".

لا يوصف الله تعالى بالتعجب وإنما المراد أن إسماعهم وإبصارهم يومئذ جدير بأن يتعجب منهما بعد ما كانوا صماً وعمياً في الدنيا.

وقيل: معناه التهديد بما سيسمعون ويبصرون مما يسوءهم ويصدع قلوبهم أوقع الظاهر أعني الظالمين موقع الضمير: إشعاراً بأن لا ظلم أشد من ظلمهم حيث أغفلوا الاستماع والنظر حين يجدي عليهم ويسعدهم.

والمراد بالضلال المبين: إغفال النظر والاستماع " قُضِىَ اَلأَمرُ " فرغ من الحساب وتصادر الفريقان إلى الجنة والنار.

وعن النبيً صلى الله عليه وسلم أنه سُئلَ عنه - أي عن قضاءِ الأمرِ - فقال: " حين يُذبحُ الكبشُ والفريقان ينظران " وإذ بدل من يوم الحسرة.

أو منصوب بالحسرة " وهُم فِى غَفلة " متعلق بقوله في ضلال مبين عن الحسن.

وأنذرهم: اعتراض.

أو هو متعلق بأنذرهم أي: وأنذرهم على هذه الحال غافلين غير مؤمنين يحتمل أنه يميتهم ويخرب ديارهم وأنه يفني أجسادهم ويفني الأرض ويذهب بها.

" وَاذكرُ فِى الكتب إبرَاهِيم إنه كان صديقاً نبياً إذ قال لأبيه يأبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً يأبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صرطاً سوياً يأبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً ".

الصديق: من أبنية المبالغة.

ونظيره الضحيك والنطيق.

والمراد فرط صدقه وكثرة ما صدق به من غيوب الله وآياته وكتبه ورسله وكان الرجحان والغلبة في هذا التصديق للكتب والرسل أي: كان مصدقاً بجميع الأنبياء وكتبهم وكان نبياً في نفسه كقوله تعالى: " بل جاء بالحق وصدق المرسلين " الصافات: 37 أو كان بليغاً في الصدق لأن ملاك أمر النبوة الصدق ومصدق الله بآياته ومعجزاته حري أن يكون كذلك وهذه الجملة وقعت اعتراضاً بين المبدل منه وبدله أعني إبراهيم.

و " إذ قال " نحو قولك: رأيت زيداً ونعم الرجل أخاك.

ويجوز أن يتعلق إذ ب " كان " أو ب " صديقاً نبياً " أي: كان جامعاً لخصائص الصديقين والأنبياء حين خاطب أباه تلك المخاطبات.

والمراد بذكر الرسول إياه وقصته في الكتاب أن يتلو ذلك على الناس ويبلغه إياهم كقوله: " واتل عليهم نبأ إبراهيم " الشعراء: 69 وإلا فالله عز وجل هو ذاكره ومورده في تنزيله.

التاء في " يأبتِ " عوض من ياء الإضافة ولا يقال: يا أبتي لئلا يجمع بين العوض والمعوض منه.

وقيل: يا أبتا لكون الألف بدلاً من الياء وشبه ذلك سيبويه بأينق وتعويض الياء فيه عن الواو الساقطة.

انظر حين أراد أن ينصح أباه ويعظه فيما كان متورطاً فيه من الخطأ العظيم والارتكاب الشنيع الذي عصى فيه أمر العقل وانسلخ عن قضية التمييز ومن الغباوة التي ليس بعدها غبارة: كيف رتب الكلام معه في أحسن اتساق وساقه أرشق مساق مع استعمال المجاملة واللطف والرفق واللين والأدب الجميل والخلق الحسن منتصحاً في ذلك بنصيحة ربه عز وعلا حدّث أبو هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام: إنك خليلي حسن خلقك ولو مع الكفار تدخل مداخل الأبرار فإن كلمتي سبقت لمن حسن خلقه: أظله

تحت عرشي وأسكنه حظيرة القدس وأُدنيه من جواري " وذلك أنه طلب منه أولاً العلة في خطئه طلب منبه على تماديه موقظ لإفراطه وتناهيه لأن المعبود لو كان حياً مميزاً سميعاً بصيراً مقتدراً على الثواب والعقاب نافعاً ضاراً إلا أنه بعض الخلق: لاستخف عقل من أهله للعبادة ووصفه بالربوبية ولسجل عليه بالغي المبين والظلم العظيم وإن كان أشرف الخلق وأعلاهم منزلة كالملائكة والنبيين قال الله تعالى: " ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون " آل عمران: 80 وذلك أن العبادة هي غاية التعظيم فلا تحق إلا لمن له غاية الإنعام: وهو الخالق الرازق المحي المميت المثيب المعاقب الذي منه أصول النعم وفروعها.

فإذا وجهت إلى غيره - وتعالى علواً كبيراً أن تكون هذه الصفة لغيره - لم يكن إلا ظلماً وعتواً وغياً وكفراً وجحوداً وخروجاً عن الصحيح النير إلى الفاسد المظلم فما ظنك بمن وجه عبادته إلى جماد ليس به حس ولا شعور فلا يسمع - يا عابده - ذكرك له وثناءك عليه ولا يرى هيئات خضوعك وخشوعك له.

فضلاً أن يغني عنك بأن تستدفعه بلاء فيدفعه أو تسنح لك حاجة فيكفيكها.

ثم ثنى بدعوته إلى الحق مترفقاً به متلطفاً فلم يسم أباه بالجهل المفرط ولا نفسه بالعلم الفائق ولكنه قال: إن معي طائفة من العلم وشيئاً منه ليس معك وذلك علم الدلالة على الطريق السوي فلا تستنكف وهب أني وإياك في مسير وعندي معرفة بالهداية دونك فاتبعني أنجك من أن تضل وتتيه.

ثم ثلث بتثبيطه ونهيه عما كان عليه: بأن الشيطان - الذي استعصى على ربك الرحمن الذي جميع ما عندك من النعم من عنده وهو عدوك الذي لا يريد بك إلا كل هلاك وخزي ونكال وعدو أبيك آدم وأبناء جنسك كلهم - هو الذي ورطك في هذه الضلالة وأمرك بها وزينها لك فأنت إن حققت النظر عابد الشيطان إلا أن إبراهيم عليه السلام لإمعانه في الإخلاص ولارتقاء همته في الربانية لم يذكر من جنايتي الشيطان إلا التي تختص منهما برب العزة من عصيانه واستكباره ولم يلتفت إلى ذكر معاداته لآدم وذريته كأن النظر في عظم ما ارتكب من ذلك غمر فكره وأطبق على ذهنه.

ثم ربع بتخويفه سوء العاقبة وبما يجره ما هو فيه من التبعة والوبال ولم يخل ذلك من حسن الأدب حيث لم يصرح بأن العقاب لاحق له وأن العذاب لاصق به ولكنه قال: أخاف أن يمسك عذاب فذكر الخوف والمس ونكر العذاب وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه وأوليائه كبر من العذاب وذلك أن رضوان الله أكبر من الثواب نفسه وسماه الله تعالى المشهود له بالفوز العظيم حيث قال: " ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم " التوبة: 72 فكذلك ولآية الشيطان التي هي معارضة رضوان الله أكبر من العذاب نفسه وأعظم وصدر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله: " يأبتِ " توسلاً إليه واستعطافاً ف " ما " في " مَا لا يسَمَعُ " و " مَا لَم يَأتِكَ " يجوز أن تكون موصولة وموصوفة والمفعول في " لا يسَمَعُ وَلا يبصرُ " منسي غير منوي كقولك: ليس به استماع ولا إبصار " شيئاً " يحتمل وجهين أحدهما: أن يكون في موضع المصدر أي: شيئاً من الغناء ويجوز أن يقدر نحوه مع الفعلين السابقين.

والثاني: أن يكون مفعولاً به من قولهم: أغن عني وجهك " إني قد جَآءني مِنَ اَلعِلمِ مَا لَم يأتِكَ " فيه تجدد العلم عنده.

" قَالَ أراغب أنتَ عَن ءالِهَتِى يإِبرَهِيم لَئن لم تَنتَهَ لأرجُمنك وَاهجُرني ملياً ".

لما أطلعه على سماجة صورة أمره وهدم مذهبه بالحجج القاطعة وناصحه المناصحة العجيبة مع تلك الملاطفات أقبل عليه الشيخ بفظاظة الكفر وغلظة العناد فناداه باسمه ولم يقابل " يأبتَ " ب " يا بني " وقدم الخبر على المبتدأ في قوله: " أَرَاغِب أنتَ عَن ءالهتي يإبرهيم " لأنه كان أهم عنده وهو عنده أعنى وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبته عن آلهته وأن آلهته ما ينبغي أن يرغب عنها أحد.

وفي هذا سلوان وثلج لصدر رسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان يلقى من مثل ذلك من كفار قومه " لأرجمنك " لأرمينك بلساني يريد الشتم والذم ومنه " الرجيم " المرمي باللعن.

أو لأقتلنك من رجم الزاني.

ولأطردنك رمياً بالحجارة.

وأصل الرجم الرمي بالرجام " مَلِيياً " زماناً طويلاً من الملاوة: أو ملياً بالذهاب عني والهجران قبل أن أثخنك بالضرب حتى لا تقدر أن تبرح.

يقال: فلان ملي بكذا إذا كان مطيقاً له مضطلعاً به.

فإن قلت: علام عطف " وَاهجُرني " قلت: على معطوف عليه محذوف يدل عليه " لأرجمنك " أي فاحذرني واهجرني لأن " لأرجمُنَكَ " تهديد وتقريع.

" قَالَ سَلمُ عَلَيك سَأستَغْفِرُ لَكَ رَبِي إنَه كانِ بى حَفِياً وَأَعتَزِلُكمُ وَمَا تَدعُون مِن دُونِ اَللَهِ وَأَدعُوا رَبي عَسى أَلا أَكوُنَ بدُعَاء ربي شقياً ".

" قَالَ سَلم عَلَيك " سلام توديع ومتاركة كقوله تعالى: " لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين " القصص: 55 وقوله: " وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً " الفرقان: 63 وهذا دليل على جواز متاركة المنصوح له والحال هذه.

ويجوز أن يكون قد دعا له بالسلامة استمالة له.

ألا ترى أنه وعده الاستغفار.

فإن قلت: كيف جاز له أن يستغفر للكافر وأن يعده ذلك.

قلت: قالوا أراد اشتراط التوبة عن الكفر كما ترد الأوامر والنواهي الشرعية على الكفار والمراد اشتراط الإيمان وكما يؤمر المحدث والفقير بالصلاة والزكاة ويراد اشتراط الوضوء والنصاب.

وقالوا: إنما استغفر له بقوله: " واغفر لأبي إنه كان من الضالين " الشعراء: 86 لأنه وعده أن يؤمن.

واستشهدوا عليه بقوله تعالى: " وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه " التوبة: 114 ولقائل أن يقول: إن الذي منع من الاستغفار للكافر إنما هو السمع فأما القضية العقلية فلا تأباه فيجوز أن يكون الوعد بالاستغفار والوفاء به قبل ورود السمع بناء على قضية العقل والذي يدل على صحته قوله تعالى: " إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك " الممتحنة: 4 فلو كان شارطاً للإيمان لم يكن مستنكراً ومستثنى عما وجبت فيه الأسوة.

وأما عن موعدة وعدها إياه فالواعد هو إبراهيم لا آزر أي: ما قال: واغفر لأبي إلا عن قوله: لأستغفرن لك وتشهد له قراءة حماد الراوية: وعدها أباه.

والله أعلم " حَفِياً " الحفي: البليغ في البر والإلطاف حفى به وتحفى به " وَأَعتزِلُكُم " أراد بالاعتزال المهاجرة إلى الشام.

وأدعو ربي المراد بالدعاء العبادة لأنه منها ومن وسائطها.

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: " الدعاءُ هُوَ العبادةُ " ويدل عليه قولُه تعالى: " فلما اعتزلهم وما يعبدون من دونِ اللّه " ويجوز أن يراد الدعاء الذي حكاه الله في سورة الشعراء.

عرض بشقاوتهم بدعاء آلهتهم في قوله: " عَسَى ألا أَكوُنَ بدُعَاء ربي شَقياً " مع التواضع لنّه بكلمة " عَسى " وما فيه من هضم النفس.

" فَلمَا اَعْتزَلَهُم وَمَا يعبدُونَ مِن دون اَللَهِ وَهبنا لَهُ إسحق وَيعَقُوب وكلاً جعلنا نبياً ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق علينا " ما خسر على الله أحد ترك الكفار الفسقة لوجهه فعوضه أولاداً مؤمنين أنبياء.

" مِن رَحمتنا " هي النبوة عن الحسن.

وعن الكلبي: المال والولد وتكون عامة في كل خير ديني ودنيوي أوتوه.

لسان الصدق: الثناء الحسن.

وعبر باللسان عما يوجد باللسان كما عبر باليد عما يطلق باليد إني أتتني لِسَان لاَ أُسَر بِهَا يريد الرسالة.

ولسان العرب: لغتهم وكلامهم.

استجاب اللّه دعوته " واجعل لي لسان صدق في الآَخرين " الشعراء: 84 فصيره قدوة حتى ادعاه أهل الأديان كلهم.

وقال عز وجل: " ملة أبيكم إبراهيم " الحج: 78 و " ملة إبراهيم حنيفاً " البقرة: 135 " ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً " النحل: 123 وأعطى ذلك ذريته فأعلى ذكرهم وأثنى عليهم كما أعلى ذكره وأثنى عليه.

" واذكر في الكتب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً ".

المخلص - بالكسر -: الذي أخلص العبادة عن الشرك والرياء.

أو أخلص نفسه وأسلم وجهه للّه.

وبالفتح: الذي أخلصه الله.

الرسول: الذي معه كتاب من الأنبياء: والنبي الذي ينبىء عن الله عز وجل وإن لم يكن معه كتاب كيوشع.

" وَندينه مِن جَانِبِ اَلطُورِ الأيمَنِ وَقربنه نجياً ".

الأيمن من اليمين: أي من ناحيته اليمنى.

أو من اليمن صفة للطور أو للجانب.

شبهه بمن قربه بعض العظماء للمناجاة حيث كلمه بغير واسطة ملك.

وعن أبي العالية قربه حتى سمع صريف القلم الذي كتبت به التوراة.

" من رحمتنا " من أجل رحمتنا له وترأفنا عليه: وهبنا له هرون.

أو بعض رحمتنا كما في قوله: " وَوَهبنا لَهَمُ مِن رَحمَتِنَا ".

و " أَخَاهُ " على هذا الوجه بدل.

و " هرونَ " عطف بيان كقولك: رأيت رجلاً أخاك زيداً.

وكان هرون أكبر من موسى فوقعت الهبة على معاضدته وموازرته كذا عن ابن عباس رضي الله عنه.

" وَاذكُر فِى الكتب إسمعيل إنه كان صادقَ الوعد وكان رسولاً نبياً وكان يأمر أهله بالصلوة والزكوة وكان عند ربه مرضياً ".

ذكر إسماعيل عليه السلام بصحق الوعد وإن كان ذلك موجوداً في غيره من الأنبياء تشريفاً له وإكراماً كالتلقيب بنحو: الحليم والأواه والصديق.

ولأنه المشهور المتواصف من خصاله.

عن ابن عباس رضي الله عنه: أنه وعد صاحباً له أن ينتظره في مكان فانتظره سنة.

وناهيك أنه وعد من نفسه الصبر على الذبح فوفى حيث قال: " ستجدني إن شاء الله من الصابرين " الصافات: 102 كان يبدأ بأهله في الأمر بالصلاح والعبادة ليجعلهم قدوة لمن وراءهم ولأنهم أولى من سائر الناس " وأنذر عشيرتك الأقربين " الشعراء: 214 " وأمر أهلك بالصلاة " طه: 32 " قوا أنفسكم وأهليكم ناراً " التحريم: 6 ألا ترى أنهم أحق بالتصدق عليهم فالإحسان الديني أولى.

وقيل: " أهله " أمته كلهم من القرابة وغيرهم لأن أمم النبيين في عداد أهاليهم.

وفيه أن من حق الصالح أن لا يألو نصحاً للأجانب فضلاً عن الأقارب والمتصلين به وأن يحظيهم بالفوائد الدينية ولا يفرط في شيء من ذلك.

" واذكر فِى الكتب إدريس إنه كان صديقاً نبياً ورفعنه مكاناً علياً ".

قيل: سمي إدريس لكثرة دراسته كتاب الله عز وجل وكان اسمه أخنوخ وهو غير صحيح لأنه لو كان أفعيلاً من المرس لم يكن فيه إلا سبب واحد وهو العلمية فكان منصرفاً فامتناعه من الصرف دليل العجمة.

وكذلك إبليس أعجمي.

وليس من الإبلاس كما يزعمون ولا يعقوب من العقب ولا إسرائيل بإسرال كما زعم ابن السكيت ومن لم يحقق ولم يتدرب بالصناعة كثرت منه أمثال هذه الهنات.

ويجوز أن يكون معنى " إدريس " في تلك اللغة قريباً من ذلك فحسبه الراوي مشتقاً من الدرس " وَرَفَعنَهُ مَكَانًا عَلِياً ".

المكان العلي: شرف النبوة والزلفى عند الله وقد أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة وهو أول من خط بالقلم ونظر في علم النجوم والحساب وأول من خاط الثياب ولبسها وكانوا يلبسون الجلود.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه يرفعه: " إنه رفع إلى السماء الرابعة " وعن ابن عباس رضي اللّه عنهما: إلى السماء السادسة.

وعن الحسن رضي الله عنه: إلى الجنة لا شيء أعلى من الجنة.

وعن النابغة الجعدي: أنه لما أنشد

بَلغنَا السمَاءَ مَجدُنَا وَسَنَاؤُنَا**وَإنا لَنَرجُو فَوقَ ذَلِكَ مَظهَرَا

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إلى أينَ يا أبا لَيلَى " قالَ: إلى الجنةِ.

" أُولَئكَ الذِينَ أنعم الله عليهم من ذرية ءادم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبرهيم وإسرءيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم ءايت الرحمن خروا سجداً وبكياً ".

" أولئك " إشارة إلى المذكورين في السورة من لدن زكريا إلى إدريس عليه السلام.

و من في " مِنَ النبِينَ " للبيان مثلها في قوله تعالى في آخر سورة الفتح " وعد اللّه الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة " الفتح: 29 لأن جميع الأنبياء منعم عليهم.

و " من " الثانية للتبعيض وكان إدريس من ذرية آدم لقربه منه لأنه جد أبي نوح.

وإبراهيم عليه السلام من ذرية من حمل مع نوح لأنه من ذرية سام بن نوح وإسماعيل من ذرية إبراهيم.

وموسى وهرون وزكريا ويحيى من ذرية إسرائيل.

وكذلك عيسى لأن مريم من ذريته " وَممَن هديَنا " يحتمل العطف على من الأولى والثانية.

إن جعلت الذين خبراً لأولئك كان " إذَا تُتلى " كلاماً مستأنفاً.

وإن جعلته صفة له كان خبراً.

قرأ شبل بن عباد المكي " يتلى " بالتذكير لأن التأنيث غير حقيقي مع وجود الفاصل البكي: جمع باك كالسجود والقعود في جمع ساجد وقاعد.

عن " اتلُوا القرآنَ وابكُوا.

فإن لمَ تبكُوا فَتَباكَوا " وعن صالح المري رضي الله عنه: قرأتُ القرآنَ على رسولِ اللّه صلى الله عليه وسلم في المنام فقال لي: " هِذِه القراءةُ يا صالحُ فأينَ البكاءُ ".

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إذا قرأتُم سجدةَ سبحانَ فلا تعجلُوا بالسجود حتى تبكُوا فإن لم تبكِ عينُ أحدكم فليبكِ قلبُهُ.

وعن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم: " إن القرآنَ أُنزِلَ بحزنٍ فإذَا قرأتمُوهُ فتحازَنُوا " وقالوا: يدعو في سجدة التلاوة بما يليق بآيتها فإن قرأ آية تنزيل السجدة قال: اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك.

وإن قرأ سجدة سبحان قال: اللهم اجعلني من الباكين إليك الخاشعين لك.

وإن قرأ هذه قال: اللهم اجعلني من عبادك المنعم عليهم المهتدين الساجدين لك الباكين عند تلاوة آياتك.

" فخلف من بعدهم خلف أَضَاعُوا الصلوة وَاَتبَعُوا اَلشَهَوَت فَسَوفَ يَلقَون غَيا ".

خلفه: إذا عقبه ثم قيل في عقب الخير " خلف " بالفتح وفي عقب السوء: خلف بالسكون كما قالوا " وعد " في ضمان الخير و " وعيد " في ضمان الشر.

عن ابن عباس رضي اللّه عنه: هم اليهود تركوا الصلاة المفروضة وشربوا الخمر واستحلوا نكاح الأخت من الأب.

وعن إبراهيم ومجاهد رضي الله عنهما: أضاعوها بالتأخير.

وينصر الأول قوله: " إلا مَن تَابَ وءامنَ " يعني الكفار.

وعن علي رضي الله عنه في قوله: " واتبعوا الشهوت " من بني الشديد وركب المنظور ولبس المشهور.

وعن قتادة رضي الله عنه: هو في هذه الأمة.

وقرأ ابن مسعود والحسن والضحاك رضي الله عنهم: " الصلوات " بالجمع.

كل شر عند العرب: غيئ وكل خير: رشاد.

قال المرقش: فَمَن يَلقَ خَيراً تَحمَدِ الناس أمرَه وَمَن يَغوَ لاَ يعدم عَلَى الغَيٌ لاَئِمَا وعن الزجاج: جزاء غي كقوله تعالى: " يلق أثاماً " الفرقان: 168 أي مجازاة أثام.

أو غياً عن طريق الجنة.

وقيل: " غي " واد في جهنم تستعيذ منه أوديتها.

وقرأ الأخفش " يلقون ".

" إلا مَن تَابَ وءامنَ وَعملَ صَلِحَا فأولَئكَ يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً ".

قرىء: " يدخلون " " ويدخلون " أي لا ينقصون شيئاً من جزاء أعمالهم ولا يمنعونه بل يضاعف لهم بياناً لأن تقدم الكفر لا يضرهم إذا تابوا من ذلك من قولك: ما ظلمك أن تفعل كذا بمعنى: ما منعك أو لا يظلمون البتة أي شيئاً من الظلم.

" جَنَت عدنٍ التَي وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتياً ".

لما كانت الجنة مشتملة على جنات عدن أبدلت منها كقولك: أبصرت دارك القاعة والعلالي.

و " عدن " معرفة علم بمعنى العدن وهو الإقامة كما جعلوا فينة وسحر وأمس - فيمن لم

يصرفه - أعلاماً لمعاني: الفينة والسحر والأمس فجرى مجرى العدن لذلك.

أو هو علم لأرض الجنة لكونها مكان إقامة ولولا ذلك لما ساغ الإبدال لأن النكرة لا تبدل من المعرفة إلا موصوفة ولما ساغ وصفها بالتي.

وقرىء " جنات عدن " " وجنةُ عدن " بالرفع على الابتداء.

أي: وعدها وهي غائبة عنهم غير حاضرة.

أو هم غائبون عنها لا يشاهدونها.

أو بتصديق الغيب والإيمان به.

قيل في لأنه مطاوع نزل ونزل يكون بمعنى أنزل وبمعنى التدريج واللائق بهذا الموضع هو النزول على مهل والمراد أن نزولنا في الأحايين وقتا غب وقت ليس إلا بأمر الله وعلى ما يراه صواباً وحكمة وله ما قدامنا " وَمَا خَلقَنَا " من الجهات والأماكن " وَمَا بين ذلك " وما نحن فيها فلا نتمالك أن ننتقل من جهة إلى جهة ومكان إلى مكان إلا بأمر المليك ومشيئته وهو الحافظ العالم بكل حركة وسكون وما يحدث ويتجدد من الأحوال لا يجوز عليه الغفلة والنسيان فأنى لنا أن نتقلب في ملكوته إلا إذا رأى ذلك صلحة وحكمة وأطلق لنا الإذن فيه.

وقيل: ما سلف من أمر الدنيا وما يستقبل من أمر الآخرة وما بين ذلك: ما بين النفختين وهو أربعون سنة.

وقيل: ما مضى من أعمارنا وما غبر منها والحال التي نحن فيها.

وقيل: ما قبل وجودنا وما بعد فنائنا.

وقيل: الأرض التي بين أيدينا إذا نزلنا والسماء التي وراءنا وما بين السماء والأرض والمعنى: أنه المحيط بكل شيء لا تخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة فكيف نقدم على فعل نحدثه إلا صادراً عما توجبه حكمته ويأمرنا به ويأذن لنا فيه.

وقيل: معنى " وَمَا كان رُبكَ نَسِياً وما كان تاركاً لك كقوله تعالى: " ما ودعك ربك وما قلى " الضحى: 3 أي: ما كان امتناع النزول إلا لامتناع الأمر به.

وأما احتباس الوحي فلم يكن عن ترك الله لك وتوديعه إياك ولكن لتوقفه على المصلحة وقيل: هي حكاية قول المتقين حين يدخلون الجنة أي: وما ننزل الجنة إلا بأن من اللّه علينا بثواب أعمالنا وأمرنا بدخولها وهو المالك لرقاب الأمور كلها السالفة.

والمترقبة والحاضرة اللاطف في أعمال الخير والموفق لها والمجازي عليها ثم قال اللّه تعالى - تقريراً لقولهم -: وما كان ربك نسياً لأعمال العاملين غافلاً عما يجب أن يثابوا به وكيف يجوز النسيان والغفلة على في ملكوت السماء والأرض وما بينهما.

ثم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: فحين عرفته على هذه الصفة فأقبل على العمل واعبده: يثبك كما أثاب غيرك من المتقين.

وقرأ الأعرج رضي الله عنه " وما يتنزل " بالياء على الحكاية عن جبريل عليه السلام والضمير للوحي.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: " إلا بقول ربك " يجب أن يكون الخلاف في النسي مثله في البغي.

" رَب السموت والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبدته هل تعلم له سمياً ".

" رَب اَلسمَوَت وَالأرضِ " بدل من ربك ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي هو رب

وَقَائِلَة خَولاَنُ فَانكِح فَتَاتَهُم وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون " وما كان ربك نسياً " مريم: 64 من كلام المتقين وما بعده من كلام رب العزة.

فإن قلت: هلا عدي " وَاصطبر " بعلى التي هي صلته كقوله تعالى: " واصطبر عليها " طه: 132.

قلت: لأن العبادة جعلت بمنزلة القرن في قولك للمحارب: اصطبر لقرنك أي اثبت له فيما يورد عليك من شداته.

أريد أن العبادة تورد عليك شدائد ومشاق فاثبت لها ولا تهن ولا يضق صدرك عن إلقاء عداتك من أهل الكتاب إليك الأغاليط وعن احتباس الوحي عليك مدة وشماتة المشركين بك.

أي: لم يسم شيء باللّه قط وكانوا يقولون لأصنامهم آلهة والعزى إله وأما الذي عوض فيه الألف واللام من الهمزة فمخصوص به المعبود الحق غير مشارك فيه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لا يسمى أحد الرحمن غيره.

ووجه آَخر: هل تعلم من سمي باسمه على الحق دون الباطل لأن التسمية على الباطل في كونها غير معتد بها كلا تسمية.

وقيل: مثلاً وشبيهاً أي: إذا صح أن لا معبود يوجه إليه العباد العبادة إلا هو وحده لم يكن بد من عبادته والاصطبار على مشاقها وتكاليفها.

" وِيَقُول الإنسن أءذا مَا مِتُ لَسوفَ أُخرَجُ حَياً أَوَلا يَذكُرُ الإنسن أنا خلقنه مِن قَبل وَلَم يكُ شَيئاً " يحتمل أن يراد بالإنسان الجنس بأسره وأن يراد بعض الجنس وهم الكفرة.

فإن قلت: لم جازت إرادة الأناسي كلهم وكلهم غير قائلين ذلك.

قلت: لما كانت هذه المقالة موجودة فيمن هو من جنسهم صح إسناده إلى جميعهم كما يقولون: بنو فلان قتلوا فلاناً وإنما القاتل رجل منهم.

قال الفرزدق: فَسَيف بَنِي عَبس وَقَد ضَرَبُوا بِهِ نَبَا بِيَدَي وَرقَاءَ عَن رَأسِ خالِدِ فقد أسند الضرب إلى بني عبس مع قوله: نبا بيدي ورقاء وهو ورقاء بن زهير بن جذيمة العبسي.

فإن قلت: بم انتصب " إذا " وانتصابه ب " أخرج " ممتنع لأجل اللام لا تقول: اليوم لزيد قائم قلت: بفعل مضمر يدل عليه المذكور.

فإن قلت: لام الابتداء الداخلة على المضارع تعطي معنى الحال فكيف جامعت حرف الاستقبال قلت: لم تجامعها إلا مخلصة للتوكيد كما أخلصت الهمزة في يا الله للتعويض واضمحل عنها معنى التعريف.

و " ما " في " أءذا مَا " للتوكيد أيضاً فكأنهم قالوا: أحقاً أنا سنخرج أحياء حين يتمكن فينا الموت والهلاك على وجه الاستنكار والاستبعاد.

والمراد الخروج من الأرض أو من حال الفناء.

أو هو من قولهم: خرج فلان عالماً وخرج شجاعاً: إذا كان نادراً في ذلك يريد: سأخرج حياً نادراً على سبيل الهزؤ.

وقرأ الحسن وأبو حيوة: " لسوف أخرج " وعن طلحة بن مصرف رضي الله عنه " لسأخرج " كقراءة ابن مسعود رضي الله عنه " ولسيعطيك " وتقديم الظرف وإيلاؤه حرف الإنكار من قبل أن ما بعد الموت هو وقت كون الحياة منكرة ومنه جاء إنكارهم فهو كقولك للمسيء إلى المحسن: أحين قدمت عليك نعمة فلان أسأت إليه.

الواو عطفت " أَوَلا يَذكُرُ " على " يَقُولُ " ووسطت همزة الإنكار بين المعطوف عليه وحرف العطف يعني: أيقول فاك ولا يتذكر حال النشأة الأولى حتى لا ينكر الأخرى فإن تلك أعجب وأغرب وأدل على قدرة الخالق حيث أخرج الجواهر والأعراض من العدم إلى الوجود ثم أوقع التأليف مشحوناً بضروب الحكم التي تحار الفطن فيها من غير حذو على مثال واقتداء بمؤلف.

ولكن اختراعاً وإبداعاً من عند قادر جلت قدرته ودقت حكمته.

وأما الثانية فقد تقدمت نظيرتها وعادت لها كالمثال المحتذى عليه وليس فيها إلا تأليف الأجزاء الموجودة الباقية وتركيبها وردها إلى ما كانت عليه مجموعة بعد التفكيك والتفريق.

وقوله تعالى: " وَلَم يَكُ شيئاً " دليل على هذا المعنى وكذلك قوله تعالى: " وهو أهون عليه " الروم: 27 على أن رب العزة سواء عليه النشأتان لا يتفاوت في قدرته الصعب والسهل ولا يحتاج إلى احتذاءٍ على مثال ولا استعانة بحكيم ولا نظر في مقياس ولكن يواجه جاحد البعث بذلك دفْعاً في بحر معاندته وكشفاً عن صفْحة جهله.

القراء كلهم على " لا يذكر " بالتشديد إلا نافعاً وابن عامر وعاصماً رضي اللّه عنهم فقد خففوا

وفي حرف أبي "فوربك لنحشرنهم والشيطين ثم لنحصرنهم حول جهنم جثياً ثم لننزعن من كل شيعة أيهم على الرحمن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً ".

في إقسام الله تعالى باسمه تقدست أسماؤه مضافاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: تفخيم لشأن رسول اللّه ورفع منه كما رفع من شأن السماء والأرض في قوله تعالى: " فورب السماء والأرض إنه لحق " الذاريات: 23 والواو في " وَالشَيطِينَ " يجوز أن تكون للعطف وبمعنى مع وهي بمعنى " مع " أوقع.

والمعنى: أنهم يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووهم يقرن كل كافر مع شيطان في سلسلة.

فإن قلت: هذا إذا أريد بالإنسان الكفرة خاصة فإن أريد الأناسي على العموم فكيف يستقيم حشرهم مع الشياطين.

قلت: إذا حشر جميع الناس حشراً واحداً وفيهم الكفرة مقرونين بالشياطين.

فقد حشروا مع الشياطين كم حشروا مع الكفرة.

فإن قلت: هلا عزل السعداء عن الأشقياء في الحشر كما عزلوا عنهم في الجزاء قلت: لم يفرق بينهم وبينهم في المحشر وأحضروا حيث تجاثوا حول جهنم وأوردوا معهم النار ليشاهد السعداء الأحوال التي نجاهم الله منها وخلصهم فيزدادوا لذلك غبطة إلى غبطة وسروراً إلى سرور ويشمتوا بأعداء الله وأعدائهم فتزداد مساءتهم وحسرتهم وما يغيظهم من سعادة أولياء وشماتتهم بهم.

فإن قلت: ما معنى إحضارهم جثياً قلت: أما إذا فسر الإنسان بالخصوص فالمعنى أنهم يقبلون من المحشر إلى شاطيء جهنم عتلا على حالهم التي كانوا عليها في الموقف جثاة على ركبهم غير مشاة على أقدامهم وذلك أن أهل الموقف وصفوا بالجثو.

قال الله تعالى: " وترى كل أمة جاثية " الجاثية: 28 على العادة المعهودة في مواقف المقاولات والمناقلات من تجاثي أهلها على الركب لما في ذلك من الاستيفاز والقلق وإطلاق الحبا وخلاف الطمأنينة.

أو لما يدهمهم من شدة الأمر التي لا يطيقون معها القيام على أرجلهم فيحبون على ركبهم حبواً

وإن فسر بالعموم فالمعنى أنهم يتجاثون عند موافاة شاطيء جهنم على أن " جثياً " حال مقدرة كما كانوا في الموقف متجاثين لأنه من توابع التواقف للحساب قبل التوصل إلى الثواب والعقاب والمراد بالشيعة - وهي " فعلة " كفرقة وفتية - الطائفة التي شاعت أي تبعت غاوياً من الغواة.

قال اللّه تعالى: " إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً " الأنعام: 159 يريد: نمتاز من كل طائفة من طوائف الغي والفساد أعصاهم فأعصاهم وأعتاهم فأعتاهم.

فإذا اجتمعوا طرحناهم في النار على الترتيب.

نقدم أولاهم بالعذاب فأولاهم.

أو أراد بالذين هم أولى به صلياً: المنتزعين كما هم كأنه قال: ثم لنحن أعلم بتصلية هؤلاء وهم أولى بالصلي من بين سائر الصالين وعركاتهم أسفل وعذابهم أشد.

ويجوز أن يريد بأشدهم عتياً: رؤساء الشيع وأئمتهم لتضاعف جرمهم بكونهم ضلالاً ومضلين.

قال الله تعالى: "الذين كفروا وصدوا عن سبيل اللّه زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون " النحل: 88 " وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم " العنكبوت: 13 واختلف في إعراب " أَيهمُ أشد " فعن الخليل أنه مرتفع على الحكاية.

تقديره: لننزعن الذين يقال فيهم أيهم أشد وسيبويه على أنه مبني على الضم لسقوط صدر الجملة التي هي صلته حتى لو جيء به لأعرب.

وقيل: أيهم هو أشد.

ويجوز أن يكون النزع واقعاً على " مِن كُلِ شِيعَةٍ " كقوله سبحانه: " ووهبنا لهم من رحمتنا " مريم: 50 أي لننزعن بعض كل شيعة فكأن قائلاً قال: من هم فقيل: أيهم أشد عتياً.

وأيهم أشد: بالنصب عن طلحة بن مصرف وعن معاذ بن مسلم الهراء أستاذ الفراء.

فإن قلت: بم يتعلق على والباء فإن تعلقهما بالمصدرين لا سبيل إليه.

قلت: هما للبيان لا الصلة.

أو يتعلقان بأفعل أي: عتوهم أشد على الرحمن وصليهم أولى بالنار كقولهم: هو أشد على خصمه وهو أولى بكذا.

" وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظلمين فيها جثياً ".

" وَإن مِنكمُ " التفات إلى الإنسان يعضده قراءة ابن عباس وعكرمة رضي الله عنهما: " وإن منهم " أو خطاب للناس من غير التفات إلى المذكور فإن أريد الجنس كله فمعنى الورود دخولهم فيها وهي خامدة فيعبرها المؤمنون وتنهار بغيرهم.

عن ابن عباس رضي اللّه عنه: يردونها كأنها إهالة؛ وروي: دواية.

وعن جابر بن عبد اللّه.

أنه سألَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك.

فقال: " إذا دخلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ قالَ بعضُهُم لبعض: أليسَ قد وعدَنَا رَبنا أن نردَ النارَ فيقالُ لهُم: قد وردتمُوها وهي خامدة " وعنه رضي الله عنه أنه سُئِل عن هذه الآية.

فقال: سمعتُ رسولَ اللّه صلى الله عليهِ وسلم يقول: " الورودُ الدخولُ لا يبقَى بَر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمِنينَ برَداً وسلاماً كَما كانَت على إبراهيمَ حتى إن للنارِ ضجيجاً مِن بردِها " وأما قوله تعالى: " أولئك عنها مبعدون " الأنبياء: 101 فالمراد عن عذابها.

وعن ابن مسعود والحسن وقتادة: هو الجواز على الصراط لأن الصراط ممدود عليها.

وعن ابن عباس: قد يرد الشيءُ الشيءَ ولا يدخله كقوله تعالى: " ولما ورد ماء مدين " القصص: 23 ووردت القافلة البلد وإن لم تدخله ولكن قربت منه.

وعن مجاهد: ورود المؤمن النار هو مس الحمى جسده في الدنيا بقوله عليه السلام: " الحمى من فيح جهنم " وفي الحديث " الحمى حظ كل مؤمن من النار " ويجوز أن يراد بالورود: جثوهم حولها.

وإن أريد الكفار خاصة فالمعنى بين.

" كَانَ على رَبك حتماً مقضياً " الحتم: مصدر حتم الأمر إذا أوجبه فسمى به الموجب كقولهم: خلق اللّه وضرب الأمير أي: كان ورودهم واجباً على اللّه أوجب على نفسه وقضى به وعزم على أن لا يكون غيره " ثُمَ ننجَّى اَلذًينَ اَتقَوا " قرىء " نُنِّى " و " ننجى " و " ينجى " و " ينجى " على ما لم يسم فاعله.

إن أريد الجنس بأسره فهو ظاهر وإن أريد الكفرة وحدهم فمعنى " ثم ننجِى اَلَذِينَ اَتَقَوا " أن المتقين يساقون إلى الجنة عقيب ورود الكفار لا أنهم يواردونهم ثم يتخلصون.

وفي قراءة ابن مسعود وابن عباس والجحدري وابن أبي ليلى " ثم ننجى " بفتح الثاء أي هناك.

وقوله: " ونَذَرُ اَلظلمِينَ فِيهَا جثياً " دليل على أن المراد بالورود الجثو حواليها وأن المؤمنين يفارقون الكفرة إلى الجنة بعد تجاثيهم وتبقى الكفرة في مكانهم جاثين.

" وإذا تتلى عليهم ءايتنا قال الذين كفروا للذين ءامنوا أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً ".

" بينت " مرتلات الألفاظ ملخصات المعاني: مبينات المقاصد: إما محكمات أو متشابهات قد تبعها البيان بالمحكمات.

أو بتبيين الرسول قولاً أو فعلاً.

أو ظاهرات الإعجاز تحدى بها فلم يقدر على معارضتها.

أو حججاً وبراهين.

والوجه أن تكون حالاً مؤكدة كقوله تعالى: " وهو الحق مصدقاً " البقرة: 91 لأن آيات الله لا تكون إلا واضحة وحججاً " للذين ءامنوا " يحتمل أنهم يناطقون المؤمنين بذلك ويواجهونهم به وأنهم يفوهون به لأجلهم وفي معناهم كقوله تعالى: " وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه " الأحقاف: 11.

قرأ ابن كثير " مقاماً " بالضم وهو موضع الإقامة والمنزل والباقون بالفتح وهو موضع القيام والمراد المكان والموضع.

والنديّ: المجلس ومجتمع القوم وحيث ينتدون.

والمعنى: أنهم إذا سمعوا الآيات وهم جهلة لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا وذلك مبلغهم من العلم قالوا: أي الفريقين من المؤمنين بالآيات والجاحدين لها أوفر حظاً من الدنيا حتى يجعل ذلك عياراً على الفضل والنقص والرفعة والضعة.

ويروى أنهم كانوا يرجلون شعورهم ويدهنون ويتطيبون ويتزينون بالزين الفاخرة ثم يدعون مفتخرين على فقراء المسلمين أنهم أكرم على اللّه منهم.

" وكم أَهلَكنا قَبلَهُم مِن قَرن هُم أحسَن أثثاً ورءياً ".

" كَم " مفعول " أَهلَكنَا " و " مِن " تبيين لإبهامها أي: كثيراً من القرون أهلكنا وكل أهل عصر قرن لمن بعدهم لأنهم يتقدمونهم.

و " هُم أحسَنُ " في محل النصب صفة ل " كم ".

ألا ترى أنك لو تركت " هُم " لم يكن لك بد من نصب " أَحسَنُ " على الوصفية.

الأثاث: متاع البيت.

وقيل: هو ما جد من الفرش.

والخرثي: ما لُبسَ منها.

وأنشد الحسن بن علي الطوسي: تَقَادَمَ العَهدُ مِنْ أُم الوَلِيدِ بنَا دهراً وَصَارَ أَثَاثُ البَيْتِ خُرثِيا

قريء على خمسة أوجه " رءياً " وهو المنظر والهيئة فعل بمعنى مفعول من رأيت " وريئاً " على القلب كقولهم: راء في رأى " ورياً " على قلب الهمزة ياء والإدغام أو من الرقي الذي هو النعمة والترفه من قولهم: ريان من النعيم.

" ورياً " على حذف الهمزة رأساً ووجهه أن يخفف المقلوب وهو " رئياً " بحذف همزته وإلقاء حركتها على الياء الساكنة قبلها " وزياً " واشتقاقه من الزقي وهو الجمع لأن الزي محاسن مجموعة والمعنى: أحسن من هؤلاء.

" قُل مَن كانَ فِى اَلضلَلَةَ فليمدد لَهُ الرَحمن مداً حَتى إذَا رَأَوا مَا يوُعَدُونَ إمَا اَلعذابَ وَإمَا الساعَة فَسَيَعلَمُونَ مَن هُوَ شَر مكاناً وأضعف جنداً ".

أي مد له الرحمن يعني: أمهله وأملى له في العمر فأخرج على لفظ الأمر إيذاناً بوجوب ذلك وأنه مفعول لا محالة كالمأمور به الممتثل لتقطع معاذير الضال ويقال له يوم القيامة " أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر " فاطر: 37 أو كقوله تعالى: " إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً " آل عمران: 78 أو " مَن كانَ فِى اَلضَلَلَةَ فليمددد لَهُ اَلرَحمن مَداً " في معنى الدعاء بأن يمهله اللّه وينفس في مدة حياته.

في هذه الآية وجهان أحدهما: أن تكون متصلة بالآية التي هي رابعتها والآيتان اعتراض بينهما أي قالوا: أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً.

" حَتى إذَا رَأَوا مَا يوُعدونَ " أي لا يبرحون يقولون هذا القول ويتولعون به لا يتكافون عنه إلى أن يشاهدوا الموعود رأي عين " إمَا اَلعذابَ " في الدنيا وهو غلبة المسلمين عليهم وتعذيبهم إياهم قتلاَ وأسراً وإظهار الله دينه على الدين كله على أيديهم.

وإما يوم القيامة وما ينالهم من الخزي والنكال فحينئذ يعلمون عند المعاينة أن الأمر على عكس ما قدروه وأنهم شر مكاناً وأضعف جنداً لا خير مقاماً وأحسن ندياً.

وأن المؤمنين على خلاف صفتهم.

والثاني: أن تتصل بما يليها.

والمعنى: أن الذين في الضلالة ممدود لهم في ضلالتهم والخذلان لاصق بهم لعلم اللّه بهم وبأن الألطاف لا تنفع فيهم وليسوا من أهلها.

والمراد بالضلالة: ما دعاهم من جهلهم وغلوهم في كفرهم إلى القول الذي قالوه.

ولا ينفكون عن ضلالتهم إلى أن يعاينوا نصرة الله المؤمنين أو يشاهدوا الساعة ومقدماتها.

فإن قلت: " حتى " هذه ما هي.

قلت: هي التي تحكى بعدها الجمل ألا ترى الجملة الشرطية واقعة بعدها وهي قوله: " إذَا رَأَوا مَا يوُعَدُونَ فَسَيَعلَمُونَ مَن هُوَ شَر مكاناً وأضعف جنداً " في مقابلة " خير مَقَاماً وَأحسَنُ نَدِياً " لأن مقامهم هو مكانهم ومسكنهم.

والندي: المجلس الجامع لوجوه قومهم وأعوانهم وأنصارهم.

والجند: هم الأنصار والأعوان.

" وَيَزِيد اَللَهُ الذين اهتدوا هدى والبقيت الصلحت خَيْرُ عِندَ رَبِكَ ثَوَاباً وَخَير مرداً ".

" وَيَزِيد " معطوف على موضع " فليمدد " لأنه واقع موقع الخبر تقديره: من كان في الضلالة مد أو يمد له الرحمن.

ويزيد: أي يزيد في ضلال الضال بخذلانه ويزيد المهتدين هداية بتوفيقه " وَالبقيت الصلحت " أعمال الآخرة كلها.

وقيل: الصلوات.

وقيل: سبحان اللّه والحمد للّه ولا إله إلا الله والله أكبر أي هي خَير ثَوَاباً من مفاخرات الكفار " وخير مرداً " أي مرجعاً وعاقبة أو منفعة من قولهم: ليس لهذا الأمر مرد: وَهَل يَرُد بكَايَ زَتدَا فإن قلت: كيف قيل خير ثواباً كان لمفاخراتهم ثواباً حتى يجعل ثواب الصالحات خيراً منه قلت: كأنه قيل: ثوابهم النار.

على طريقة قوله: فَاَعتَبُوا بِالصيلَمِ وقوله: شَجعَاءَ جِرتُهَا الذمِيلُ تَلُوكُه أُصُلاً إذا رَاحَ المطِي غِرَاثَا وقوله: تَحية بَينِهِم ضَربٌ وَجِيعُ ثم بنى عليه خير ثواباً.

وفيه ضرب من التهكم الذي هو أغيظ للمتهدد من أن يقال له: عقابك النار.

فإن قلت: فما وجه التفضيل في الخير كأن لمفاخرهم شركاً فيه.

قلت: هذا من وجيز كلامهم يقولون: الصيف أحر من الشتاء أي: أبلغ في حَرِّه من الشتاء في برده.

" أَفَرءيتَ الذي كفر بآيتنا وقال لأوتين مالاً وولداً أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مداً ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً ".

لما كانت مشاهدة الأشياء ورؤيتها طريقاً إلى الإحاطة بها علماً وصحة الخبر عنها استعملوا " أرأيت " في معنى " أخبر " والفاء جاءت لإفادة معناها الذي هو التعقيب كأنه

قال: أخبر أيضاً بقصة هذا الكافر واذكر حديثه عقيب حديث أولئك " أَطلَعَ الغَيبَ " من قولهم: أطلع الجبل: إذا ارتقى إلى أعلاه وطلع الثنية.

قال جرير: لاقَيتُ مُطلَعَ الجِبَالِ وُعُورَا ويقولون: مر مطلعاً لذلك الأمر أي عالياً له مالكاً له ولاختيار هذه الكلمة شأن يقول: أو قد بلغ من عظمة شأنه أن ارتقى إلى علم الغيب الذي توحد به الواحد القهار.

والمعنى: أن ما ادعى أن يؤتاه وتألى عليه لا يتوصل إليه إلا بأحد هذين الطريقين: إما علم الغيب وإما عهد من عالم الغيب فبأيهما توصل إلى ذلك قرأ حمزة والكسائي: " ولداً " وهو جمع ولد كأسد في أسد.

أو بمعنى الولد كالعرب في العرب.

وعن يحيى بن يعمر: " ولداً " بالكسر.

وقيل في العهد: كلمة الشهادة.

وعن قتادة: هل له عمل صالح قدمه فهو يرجو بذلك ما يقول.

وعن الكلبي: هل عهد الله إليه أنه يؤتيه ذلك عن الحسن رحمه الله: نزلت في الوليد بن المغيرة والمشهور أنها في كان لي عليه دين فاقتضيته فقال: لا والله حتى تكفر بمحمد.

قلت: لا والله لا كفر بمحمد حياً ولا ميتاً ولا حين تبعث.

قال: فإني إذا مت بعثت.

قلت: نعم.

قال: إذا بعثت جئتني وسيكون لي ثم مال وولد فأعطيك وقيل: " صاغ له خباب حلياً فاقتضاه الأجر فقال: إنكم تزعمون أنكم تبعثون وأن في الجنة ذهباً وفضة وحريراً فأنا أقضيك ثَم فإني أوتى مالاً وولداً حينئذ " كلا " ردع وتنبيه على الخطأ أي: هو مخطيء فيما يصوره لنفسه ويتمناه فليرتدع عنه.

فإن قلت: كيف قيل: " سَنَكتب " بسين التسويف وهو كما قاله كتب من غير تأخير قال الله تعالى: " ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد " ق: 18 قلت: فيه وجهان أحدهما: سنظهر له ونعلمه أنا كتبنا قوله على طريقة قوله: إِذَا مَا اَنتَسَبنَا لَم تَلدِني لِئيمَة أي تبين وعلم بالانتساب أني لست بابن لئيمة.

والثاني: أن المتوعد يقول للجاني: سوف أنتقم منك يعني أنه لا يخل بالانتصار وإن تطاول به الزمان واستأخر فجرد ههنا لمعنى الوعيد.

" وَنَمُدُ لَهُ مِنَ اَلعذاب مَداً " أي نطول له من العذاب ما يستأهله ونعذبه بالنوع الذي يعذب به الكفار المستهزؤون.

أو نزيده من العذاب ونضاعف له من المدد.

يقال: مده وأمده بمعنى وتدل عليه قراءة علي بن أبي طالب: " ونمد له " بالضم وأكد ذلك بالمصدر وذلك من فرط غضب الله نعوذ به من التعرض لما نستوجب به غضبه.

" وَنَرِثُه مَا يَقُولُ " أي نزوي عنه ما زعم أنه يناله في الآخرة ونعطيه ما يستحقه.

والمعنى مسمى ما يقول.

ومعنى " مَا يَقُولُ " وهو المال والولد.

يقول الرجل: أنا أملك كذا فتقول له: ولي فوق ما تقول ويحتمل أنه قد تمنى وطمع أن يؤتيه الله في الدنيا مالاً وولداً وبلغت به أشعبيته أن تألى على ذلك في قوله: " لأُوتَيَنَ " لأنه جواب قسم مضمر ومن يتأل على اللّه يكذبه فيقول الله عز وجل: هب أنا أعطيناه ما اشتهاه إما نرثه منه في العاقبة ويأتينا فرداً غداً بلا مال ولا ولد كقوله عز وجل: " ولقد جئتمونا فرادى 00 " الآية الأنعام: 94 فما يجدي عليه تمنيه وتأليه.

ويحتمل أن هذا القول إنما يقوله ما دام حياً فإما قبضناه حلنا بينه وبين أن يقوله ويأتينا رافضاً له منفرداً عنه غير قائل له أو لا ننسب قوله هذا ولا نلغيه بل نثبته في صحيفته لنضرب به وجهه في الموقف ونعيره به " ويأتينا " على فقره ومسكنته " فرداً " من المال والولد لم نوله سؤله ولم نؤته متمناه فيجتمع عليه الخطبان: تبعة قوله ووباله وفقد المطموع فيه.

فرداً على الوجه الأول: حال مقدرة نحو " فادخلوها خالدين " الزمر: 3 لأنه وغيره سواء في إتيانه فرداً حين يأتي ثم يتفاوتون بعد ذلك.

" واتخذوا من دون الله ءالهةً ليكونوا لهم عزاً كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً ". أي ليتعززوا بآلهتهم حيث يكونون لهم عند الله شفعاء وأنصاراً ينقذونهم من العذاب " كلا " ردع لهم وإنكار لتعززهم بالآلهة.

وقرأ ابن نهيك " كلا " " سَيَكفُرُونَ بِعِبَادَتهم " أي سيجحدون كلا سيكفرون بعبادتهم كقولك: زيداً مررت بغلامه.

وفي محتسب ابن جني: كلا بفتح الكاف والتنوين وزعم أن معناه كل هذا الرأي والاعتقاد كلا.

ولقائل أن يقول: إن صحت هذه الرواية فهي " كلا " التي هي للردع قلب الواقف عليها ألفها نوناً كما في قواريراً.

والضمير في " سَيَكفُرونَ " للآلهة أي: سيجحدون عبادتهم وينكرونها ويقولون: والله ما عبدتمونا وأنتم كاذبون.

قال اللّه تعالى: " وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون " النحل: 86 أو للمشركين: أي ينكرون لسوء العاقبة أن يكونوا قد عبدوها.

قال الله تعالى: " ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين " الأنعام: 23 " عَليهم ضِداً " في مقابلة " لَهُم عِزاً " والمراد ضد العز وهو الذل والهوان أي: يكونون عليهم ضداً لما قصدوه وأرادوه كأنه قيل: ويكونون عليهم ذلاً لا لهم عزاً أو يكونون عليهم عوناً والضد: العون.

يقال من أضدادكم: أي أعوانكم وكأن العون سمي ضداً لأنه يضاد عدوك وينافيه بإعانته لك عليه.

فان قلت: لم وحد قلت: وحد توحيده قوله عليه السلام:" وهم يد على من سواهم " لاتفاق كلمتهم وأنهم كشيء واحد لفرط تضامهم وتوافقهم ومعنى كون الآلهة عوناً عليهم: أنهم وقود النار وحَصَب جهنم ولأنهم عذبوا بسبب عبادتهم وإن رجعت الواو في سيكفرون ويكونون إلى المشركين فإن المعنى: ويكونون عليهم - أي أعداءهم - ضداً أي: كفرة بهم بعد أن كانوا يعبدونها.

" أَلَم تَرَ أَنآَ أَرسَلنَا الشيطن على الكفرين تؤزهم أزاً ".

الأز والهز والاستفزاز: أخوات ومعناها التهييج وشدة الإزعاج أي: تغريهم على المعاصي وتهيجهم لها بالوساوس والتسويلات.

والمعنى: خلينا بينهم وبينهم ولم نمنعهم ولو شاء لمنعهم قسراً والمراد تعجيب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الآيات التي ذكر فيها العتاة والمردة من الكفار وأقاويلهم وملاحتهم ومعاندتهم للرسل واستهزاؤهم بالدين: من تماديهم في الغي وإفراطهم في العناد وتصميمهم على الكفر واجتماعهم على دفع الحق بعد وضوحه وانتفاء الشك عنه وإنهماكم لذلك في اتباع الشياطين وما تسوَّل لهم.

" فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عداً ".

عجلت عليه بكذا: إذا استعجلته منه أي: لا تعجل عليهم بأن يهلكوا ويبيدوا حتى تستريح أنت والمسلمون من شرورهم وتطهر الأرض بقطع دابرهم فليس بينك وبين ما تطلب من هلاكهم إلا أيام محصورة وأنفاس معدودة كأنها في سرعة تقضيها الساعة التي تعد فيها لو عدت.

ونحوه قوله تعالى: " ولا تستعجل لهم " الأحقاف: 35 " كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار " الأحقاف: 35 وعن ابن عباس رضي الله عنه: أنه كان إذا قرأها بكى وقال: آخر العدد خروج نفسك آخر العدد فراق أهلك آخر العدد دخول قبرك.

وعن ابن السماك: أنه كان عند المأمون فقرأها فقال: إذا كانت الأنفاس بالعدد ولم يكن لها مدد فما أسرع ما تنفد.

" يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ".

نصب " يومَ " بمضمر أي يوم " نحشُرُ " ونسوق: نفعل بالفريقين ما لا يحيط به الوصف.

أو اذكر يوم نحشر.

ويجوز أن ينتصب ب " لا يملكون ".

ذكر المتقون بلفظ التبجيل.

وهو أنهم يجمعون إلى ربهم الذي غمرهم برحمته وخصهم برضوانه وكرامته كما يفد الوفاد على الملوك منتظرين للكرامة عندهم وعن علي رضي الله عنه.

ما يحشرون والله على أرجلهم ولكنهم على نوق رحالها ذهب وعلى نجائب سروجها ياقوت.

" ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً ".

وذكر الكافرون بأنهم يساقون إلى النار بإهانة واستخفاف كأنهم نعم عطاش تساق إلى الماء.

والورود: العطاش لأن من يرد الماء لا يرده إلا لعطش وحقيقة الورد: المسير إلى الماء قال: رِدِي رِدِي وِردَ قَطَاةِ صَما كذرِية أعجَبَهَا بَردُ المَا فسمى به الواردون.

وقرأ الحسن " يحشر المتقون " و " يساق المجرمون ".

" لا يَملِكوُنَ اَلشفعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً ".

الواو في " لا يَملِكوُنَ " إن جعل ضميراً فهو للعباد ودل عليه ذكر المتقين والمجرمين لأنهم على هذه القسمة.

ويجوز أن تكون علامة للجمع كالتي في " أكلوني البراغيث " والفاعل " مَنِ اتخذَ " لأنه في معنى الجمع ومحل " مَنِ اتخذ " رفع على البدل أو على الفاعلية.

ويجوز أن ينتصب على تقدير حذف المضاف أي إلا شفاعة من اتخذ والمراد: لا يملكون أن يشفع لهم واتخاذ العهد: الاستظهار بالإيمان والعمل.

وعن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه ذات يوم.

" أَيعجزُ أحدُكُم أَن يتخذَ كل صباحٍ ومساءٍ عندَ اللهِ عهداً قالوا: وكيفَ ذلكَ قالَ: " يقولَ كل صباح ومساءِ: اللهم فاطرَ السمواتِ والأرضِ عالمَ الغيبِ والشهادةِ إني أعهدُ إليكَ بأني أشهدُ أن لاَ إله إلا أنتَ وحدكَ لا شريكَ لكَ وأن محمداً عبدك ورسولُكَ وأنكَ إِن تكلني إلى نفسِي تقربني

منَ الشر وتباعدني منَ الخيرِ وأَني لاَ أَثِقُ إلا برحمتِكُ فاجعل لي عندكَ عهداً توفينيهِ يومَ القيامَةِ إِنكَ لا تخلفُ الميعادَ.

فإذَا قال ذلك طُبِعً عليهِ بطابع ووضعَ تحتَ العرشِ فإذَا كَانَ يومَ القيامةِ نادى منادِ: أينَ الذِينَ لهم عندَ الرحمنِ عهد فيدخلونَ الجنةَ " وقيلَ: كلمة الشهادة.

أو يكون مِن: عهد الأمير إلى فلان بكذا.

إذا أمره به أي لا يشفع إلا المأمور بالشفاعة المأذون له فيها.

ويعضده مواضع في التنزيل: " وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى " النجم: 26 " ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له " سبأ: 23 و " يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً " طه: 109.

" وَقَالوا اَتخذَ اَلرحمَنُ وَلداً لَقَد جِئتُم شَيئاً إداً تكادُ السموت يتفطرون مِنْهُ وَتَنشَق اَلارَض وَتَخِرُ الجبال هداً أن دَعَوا لِلرَحمن وَلداً ".

قرىء " إِداً " بالكسر والفتح.

قال ابن خالويه: الإد والأد: العجب.

وقيل: العظيم المنكر.

والإدة: الشدة.

وأدنَي الأمر وادني: أثقلني وعظم علي إداً " يكادُ " قراءة الكسائي ونافع بالياء.

وقرىء " ينفطرن " الانفطار: مِن فطره إذا شقه.

والتفطر: من فطره إذا شققه وكرر الفعل فيه.

وقرأ ابن مسعود: " ينصدعن " أي تهد هداً أو مهدودة أو مفعول له: أي: لأنها تهد.

فإن قلت: ما معنى انفطار السموات وانشقاق الأرض وخرور الجبال ومن أين تؤثر هذه الكلمة في الجمادات قلت: فيه وجهان أحدهما: أن الله سبحانه يقول: كدت أفعل هذا بالسموات والأرض والجبال عند وجود هذه الكلمة غضباً مني على من تفوه بها لولا حلمي ووقاري وأني لا أعجل بالعقوبة كما قال: " إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً " فاطر: 141 والثاني: أن يكون استعظاماً للكلمة وتهويلاً من فظاعتها وتصويراً لأثرها في الدين وهدمها لأركانه وقواعده وأن مثال ذلك الأثر في المحسوسات: أن يصيب هذه الأجرام العظيمة التي هي قوام العالم ما تنفطر منه وتنشق وتخر.

وفي قوله " لقد جِئتم " وما فيه من المخاطبة بعد الغيبة وهو الذي - يسمح الالتفات في علم البلاغة زيادة تسجيل عليهم بالجرأة على اللّه والتعرض لسخطه وتنبيه على عظم ما قالوا.

في " أَن دَعَوا " ثلاثة أوجه: أن يكون مجروراً بدلاً من الهاء في منه كقوله: عَلَى حَالَة لَو أن فِي القَومِ حَاتِمَاً عَلَى جُودِهِ لَضَن بِالمَاءِ حَاتِمُ ومنصوباً بتقدير سقوط اللام وإفضاء الفعل أي: هذا لأن دعوا علل الخرور بالهد والهد بِدُعَاءِ الولد للرحمن.

ومرفوعاً بأنه فاعل هداً أي هدها دعاء الولد للرحمن.

وفي اختصاص الرحمن وتكريره مرات من الفائدة أنه هو الرحمن وحده لا يستحق هذا الاسم غيره.

من قبل أن أصول النعم وفروعها منه: خلق العالمين وخلق لهم جميع ما معهم كما قال بعضهم: فلينكشف عن بصرك غطاؤه.

فأنت وجميع ما عندك عطاؤه.

فمن أضاف إليه ولداً فقد جعله كبعض خلقه وأخرجه بذلك عن استحقاق اسم الرحمن.

هو من دعا بمعنى سمى المتعدي إلى مفعولين فاقتصر على أحدهما الذي هو الثاني طلباً للعموم والإحاطة بكل ما دعى له ولداً.

أو من دعا بمعنى نسب الذي مطاوعه ما في قوله عليه السلام.

" مَن ادعى إلى غيرِ مواليهِ " وقول الشاعر: إنا بَنِي نَهشَل لاَ نَدعِي لأبٍ أي لا ننتسب إليه.

" وَمَا يَنبغَى لِلرَحمنِ أَن يَتخَذَ وَلَداً ".

انبغى: مطاوع " بغى " إذا طلب أي: ما يتأتى له اتخاذ الولد وما يتطلب لو طلب مثلاً لأنه محال غير داخل تحت الصحة.

أما الولادة المعروفة فلا مقال في استحالتها.

أما التبني فلا يكون إلا فيما هو من جنس المتبنى وليس للقديم سبحانه جنس تعال عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

" إن كل من في السموات و الأرض إلا ءاتي الرحمن عبداً لقد أحصهم وعدهم عداً وكلهم ءاتيه يوم القيامة فرداً ".

" من " موصفة لأنها وقعت بعد كل نكرة وقوعها بعد رب فى قوله: وقراء بن مسعود وأبو حيوة " آت الرحمن " على أصله قبل الإضافة.

الإحصاء الحصر والضبط يعني: حصرهم بعلمه وأحاط بهم " وعدهم عداً " الذين اعتقدوا في الملائكة - وعيسى وعزير أنهم أولاد اللّه كانوا بين كفرين أحدهما: القول بأن الرحمن يصح أن يكون والداً.

والثانى: شراك الذين زعموهم لله أولاداً في عبادته كما يخدم الناس أبناء الملوك خدمتهم لآبائهم فهدم الله الكفر الأول فيما تقدم من الآيات ثم عقبه بهدم الكفر الآخر.

والمعنى: ما من معبود لهم في السموات والأرض من الملائكة ومن الناس إلا وهو يأتي الرحمن أي: يأوي إليه ويلتجيء إلى ربوبيته عبداً منقاداً مطيعاً خاشعاً خاشياً راجياً كما يفعل العبيد وكما يجب عليهم لا يدعي لنفسه ما يدعيه له هؤلاء الضلال.

ونحوه قوله تعالى: " أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه " الإسراء: 57 وكلهم متقلبون في ملكوته مقهورون بقهره وهو مهيمن عليهم محيط بهم ويجمل أمورهم وتفاصيلها وكيفيتهم وكميتهم لا يفوته شيء من أحوالهم وكل واحد منهم يأتيه يوم القيامة منفرداً ليس معه من هؤلاء المشركين أحد وهم برآء منهم.

" إن الذين ءامنو وعملوا الصلحات سيجعل لهم الرحمن وداً " قرأ جناح بن حبيش " وِداً " بالكسر والمعنى: سيحدث لهم في القلوب مودة ويزرعها لهم فيها من غير تودد منهم ولا تعرض للأسباب التي توجب الود ويكتسب بها الناس مودات القلوب من قرابة أو صداقة أو اصطناع بمبرة أو غير ذلك وإنما هو اختراع منه ابتداء اختصاصاً منه لأوليائه بكرامة خاصة كما قذف في قلوب أعدائهم الرعب والهيبة إعظاماً لهم وإجلالاً لمكانهم والسين إما لأن السورة مكية وكان المؤمنون حينئذ ممقوتين بين الكفرة فوعدهم اللّه تعالى ذلك إذا دجا الإسلام.

وإما أن يكون ذلك يوم القيامة يحببهم الله إلى خلقه بما يعرض من حسناتهم وينشر من ديوان أعمالهم.

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي رضي الله عنه: " يا علي قل: اللهم اجعل لِي عندَكَ عهداً واجعل لِي في صدورِ المؤمنينَ مودة " فأنزل الله هذه الآية.

وعن ابن عباس رضي اللّه عنهما: يعني يحبهم الله ويحببهم إلى خلقه.

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يقول الله عز وجل: يا جبريل قد أحببت فلانَاً فأحبهُ فيحبهُ جبريل ثم ينادي في أهل السماء إن الله قد أحب فلانَاً فأحبوهُ فيحبهُ أهلُ السماءِ ثمَّ يضعُ لَهُ المحبة في أهلِ الأرضِ " وعن قتادة: ما أقبلَ العبدُ إلى اللهِ إلا أقبلَ اللهُ بقلوبِ العبادِ إليه.

" فإنما يسرنه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً .

هذه خاتمة السورة ومقطعها فكأنه قال: بلغ هذا المنزل أو بشر به وأنذر فإنما أنزلناه بلسانك أي بلغتك وهو اللسان العربي المبين وسهلناه وفصلناه " لتُبَشرَ به " وتنذر.

واللد: الشداد الخصومة بالباطل الآَخذون في كل لديدة أي في كل شق من المراء والجدال لفرط لجاجهم يريد أهل مكة.

وقوله: " وكم أهلكنا " تخويف لهم وإنذار.

وقرىء " تَحُس " من حسه إذا شعر به.

ومنه الحواس والمحسوسات.

وقرأ حنظلة " تسمع " مضارع أسمعت.

والركز: الصوت الخفي.

ومنه: ركز الرمح إذا غيب طرفه في الأرض.

والركاز: المال المدفون.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من قرأَ سورةَ مريم أعطيَ عشرَ حسناتٍ بعدد مَن كذبَ زكريا وصدق به ويحيىَ ومريمَ وعيسَى وابراهيمَ واسحاقَ ويعقوبَ وموسَى وهرونَ واسماعيل وإدريس وعشرَ حسناتِ بعدد من دَعَا اللّهَ في الدنيا وبعدد مَن لم يدع الله ".

سورة طه

مكية وهي مائة وخمس وثلاثون آَية

" طه ما أَنزلنا عليك القرآنَ لِتشقى إلا تذكرة لمن يغشى تنزِيلاً ممن خلقَ الأرض و السموات العلى
" " طه " أبو عمرو فخم الطاء لاستعلائها.

وأمال الهاء وفخمها ابن كثير وابن عامر على الأصل والباقون أمالوهما وعن الحسن رضي الله عنه: طه وفسر بأنه أمر بالوطء وأن النبي صلى الله عليه وسلم كانَ يقوم في تهجدِهِ على إحدى رجليه فأمِرَ بأن يطأَ الأرضَ بقدمَيهِ معاً وأن الأصل طأ فقلبت همزته هاء أو قلبت ألفاً في يطأ فيمن قال: لاَ هَنَاكَ المَرتَعُ ثم بنى عليه الأمر والهاء للسكت ويجوز أن يكتفى بشطري الاسمين وهما الدالان بلفظهما على المسميين والله أعلم بصحة ما يقال: إن " طاها " في لغة عك في معنى يا رجل ولعل عكاً تصرفوا في " يا هذا " كأنهم في لغتهم قالبون الياء طاء فقالوا في " يا ": " طا " واختصروا هذا فاقتصروا على ها وأثر الصنعة ظاهر لا يخفى في البيت المستشهد به: إن السفَاهَةَ طَاهَا في خَلاَئِقِكُم لا قدسَ اللهُ أخلاَقَ المَلاَعِينِ والأقوال الثلاثة في الفواتح: أعني التي قدمتها في أول الكاشف عن حقائق التنزيل هي التي يعوّل عليها الألباء المتقنون " مَا أنزلنا " إن جعلت " طه " تعديداً لأسماء الحروف على الوجه السابق ذكره

فهو ابتداء كلام.

وان جعلتها اسماً للسورة احتملت أن تكون خبراً عنها وهي في موضع المبتدأ و " القرءان " ظاهر أوقع موقع الضمير لأنها قرآن وأن يكون جواباً لها وهي قسم.

وقرىء " ما نزل عليك القرآن " " لِتَشقى " لتتعب بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم وتحسرك على أن يؤمنوا كقوله تعالى: " لعلك باخع نفسك " الشعراء: والشقاء يجيء في معنى التعب.

ومنه المثل: أشقى من رائض مهر أي ما عليك إلا أن تبلغ وتذكر ولم يكتب عليك أن يؤمنوا لا محالة بعد أن لم تفرط في أداء الرسالة والموعظة الحسنة.

وقيل: إن أبا جهل والنضر بن الحرث قالا له: إنك شقي لأنك تركت دين آبائك فأريد رد ذلك بأن دين الإسلام وهذا القرآن هو السلم إلى نيل كل فوز والسبب في درك كل سعادة وما فيه الكفرة هو الشقاوة بعينها.

وروي: أنه عليه الصلاة والسلام صلى بالليل حتى اسمغدَت قدماهُ فقالَ لَهُ جبريلُ عليه السلام: أبقِ على نفسِكَ فإن لهَا علَيكَ حَقاَ.

أي: ما أنزلناه لتنهك نفسك بالعبادة وتذيقها المشقة الفادحة وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة وكل واحد من لِتَشقى وتذكرة علة للفعل إلا أن الأول وجب مجيئه مع اللام لأنه ليس لفاعل الفعل المعلل ففاتته شريطة الانتصاب على المفعولية والثاني جاز قطع اللام عنه ونصبه لاستجماعه الشرائط.

فإن قلت: أما يجوز أن يقول: ما أنزلنا عليك القران أن تشقى كقوله تعالى.

"أن تحبط أعمالكم " الحجرات: قلت: بلى ولكنها نصبة طارئة كالنصبة في واختار

موسى قومه وأما النصبة في تذكرة فهي كالتي في ضربت زيداً لأنه أحد المفاعيل الخمسة التي هي أصول وقوانين لغيرها.

فإن قلت: هل يجوز أن يكون تذكرة بدلاً من محل لتشقى قلت: لا لاختلاف الجنسين ولكنها نصب على الاستثناء المنقطع الذي إلا فيه بمعنى لكن ويحتمل أن يكون المعنى: إنا أنزلنا عليك القرآن لتحتمل متاعب التبليغ ومقاولة العتاة من أعداء الإسلام ومقاتلتهم وغير ذلك من أنواع المشاق وتكاليف النبوة وما أنزلنا عليك هذا المتعب الشاق إلا ليكون تذكرة.

وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون تذكرة حالاً ومفعولاً له ِلمنَ يخشى لمن يؤول أمره إلى الخشية ولمن يعلم الله منه أنه يبدل بالكفر إيماناً وبالقسوة خشية.

في نصب تنزيلاً وجوه: أن يكون بدلاً من تذكرة إذا جعل حالاً لا إذا كان مفعولاً له لأن الشيء لا يعلل بنفسه وأن ينصب بنزل مضمراً وأن ينصب بأنزلنا لأن معنى: ما أنزلناه إلا تذكرة: أنزلناه تذكرة وأن ينصب على المدح والاختصاص وأن ينصب ب يخشى مفعولاً به.

أي: أَنزله الله تذكرة لمن يخشى تنزيل الله وهو معنى حسن وإعراب بين.

وقرىء تنزيل بالرفع على خبر مبتدأ محذوف.

ما بعد تنزيلاً إلى قوله: له الأسماء الحسنى تعظيم وتفخيم لشأن المنزل لنسبته إلى من هذه أفعاله وصفاته ولا يخلو من أن يكون متعلقه إما تنزيلاً نفسه فيقع صلة له وإما محذوفاً فيقع صفة له.

فان قلت: ما فائدة النقلة من لفظ المتكلم إلى لفظ الغائب قلت: غير واحدة: منها: عادة الافتنان في الكلام وما يعطيه من الحسن والروعة.

ومنها أن هذه الصفات إنما تسردت مع لفظ الغيبة.

ومنها أنه قال أولاً أنزلنا ففخم بالإسناد إلى ضمير الواحد المطاع ثم ثنى بالنسبة إلى المختص بصفات العظمة والتمجيد فضوعفت الفخامة عن طريقين: ويجوز أن يكون أنزلنا حكاية لكلام جبريل والملائكة النازلين معه.

والسموات العلى وصف السموات بالعلى: دلالة على عظم قدرة من يخلق مثلها في علوها وبعد مرتقاها.

" الرحمن على العرش استوى له مَا فِى السموات وَمَا فِى الأرض وَمَا بينهمَا وَمَا تَحتَ الثرى ".

قرىء الرحمن مجروراً صفة لمن خلق والرفع أحسن لأنه إما أن يكون رفعاً على المدح على تقدير: هو الرحمن وإما أن يكون مبتدأ مشاراً بلامه إلى من خلق.

فان قلت: الجملة التي هي " على العرش استوى " ما محلها - إذا جررت الرحمن أو رفعته على المدح قلت: إذا جررت فهي خبر مبتدأ محذوف لا غير وإن رفعت جاز أن تكون كذلك وأن تكون مع الرحمن خبرين للمبتدأ لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك مما يردف الملك جعلوه كناية عن الملك فقالوا: استوى فلان على العرش يريدون ملك وان لم يقعد على السرير البتة وقالوه أيضاً لشهرته في ذلك المعنى ومساواته ملك في مؤداه وان كان أشرح وأبسط وأدل على صورة الأمر.

ونحوه قولك: يد فلان مبسوطة ويد فلان مغلولة بمعنى أنه جواد أو بخيل لا فرق بين العبارتين إلا فيما قلت.

حتى أن من لم يبسط يده قط بالنوال أو لم تكن له يد رأساً قيل فيه يده مبسوطة لمساواته عندهم قولهم: هو جواد.

ومنه قول الله عز وجل: " وقالت اليهود يد الله مغلولة " أي هو بخيل " بل يداه مبسوطتان " أي هو جواد من غير تصور يد ولا غل ولا بسط والتفسير بالنعمة والتمحل للتثنية من ضيق العطن والمسافرة عن علم البيان مسيرة أعوام " وَمَا تحتَ اَلثرى " ما تحت سبع الأرضين عن محمد بن كعب وعن السدي: هو الصخرة التي تحت الأرض السابعة.

" وإن تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ".

أي يعلم ما أسررته إلى غيرك وأخفى من ذلك وهو ما أخطرته ببالك أو ما أسررته في نفسك " وَأَخفَى " منه وهو ما ستسره فيها.

وعن بعضهم أن أخفى فعل ماض لا أفعل تفضيل يعنى: أنه يعلم أسرار العباد وأخفى عنهم ما يعلمه هو كقوله تعالى: " يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما "ً وليس بذاك.

فإن قلت كيف طابق الجزاء الشرط قلت: معناه وإن تجهر بذكر الله من دعاء أو غيره فاعلم أنه غني عن جهرك فإما أن يكون نهياً عن الجهر كقوله تعالى: " واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول " وإما تعليماً للعباد أن الجهر ليس لإسماع الله وإنما هو لغرض آخر " اَلحسنَى " تأنيث الأحسن وصفت بها الأسماء لأن حكمها حكم المؤنث كقولك: الجماعة الحسنى ومثلها " مآرب أخرى " و " من آياتنا الكبرى ".

والذي فضلت به أسماؤه في الحسن على سائر الأسماء: دلالتها على معاني التقديس والتمجيد والتعظيم والربوبية والأفعال التي هي النهاية في الحسن.

" وَهَل أَتَكَ حدِيثُ مُوسى إِذ رءا نَاراً فَقَالَ لأهله امكثو إنى ءانست ناراً لعلي ءاتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ".

قفاه بقصة موسى عليه السلام ليتأسى به في تحمل أعباء النبؤة وتكاليف الرسالة والصبر على مقاساة الشدائد حتى ينال عند الله الفوز والمقام المحمود.

يجوز أن ينتصب إِذ ظرفاً للحديث لأنه حدث أو لمضمر أي: حين " رءا نَاراً " كان كيت وكيت.

أو مفعولاً ل " ذكر " استأذن موسى شعيباً عليهما السلام في الخروج إلى أمه وخرج بأهله فولد له في الطريق ابن في ليلة شاتية مظلمة مثلجة وقد ضل الطريق وتفرقت ماشيته ولا ماء عنده وقدح فصلد زنده فرأى النار عند ذلك.

قيل: كانت ليلة جمعة " امكثوا " أقيموا في مكانكم.

الإيناس: الإبصار البين الذي لا شبهة فيه ومنه إنسان العين لأنه يتبين به الشيء والإنس: لظهورهم كما قيل الجن لاستتارهم وقيل: هو إبصار ما يؤنس به.

لما وجد منه الإيناس فكان مقطوعاً متيقناً حققه لهم بكلمة إن ليوطن أنفسهم ولما كان الإتيان بالقبس ووجود الهدى مترقبين متوقعين بني الأمر

فيهما على الرجاء والطمع وقال لعلي ولم يقطع فيقول: إني " ءاتيكم " لئلا يعد ما ليس بمستيقن الوفاء به.

القبس النار المقتبسة في رأس عود أو فتيلة أو غيرهما.

ومنه قيل: المقبسة لما يقتبس فيه من سعفة أو نحوها " هدى " أي قوماً يهدونني الطريق أو ينفعونني بهداهم في أبواب الدين عن مجاهد وقتادة وذلك لأن أفكار الأبرار مغمورة بالهمة الدينية في جميع أحوالهم لا يشغلهم عنها شاغل.

والمعنى: ذوي هدى.

وإذا وجد الهداة فقد وجد الهدى.

ومعني الاستعلاء في " على النار " أن أهل النار يستعملون المكان القريب منها كما قال سيبويه في مررت بزيد: أنه لصوق بمكان يقرب من زيد.

أو لأن المصطلين بها والمستمتعين بها إذ تكنفوها قياماً وقعوداً كانوا مشرفين عليها ومنه قول الأعشى: وَبَاتَ عَلَى النار الندَى وَالمُحَلقُ " فَلَمَا آتها نودى يَموسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوىً وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكرى ".

قرأ أبو عمرو وابن كثير أني بالفتح أي: نودي بأني " أَنا ربك " وكسر الباقون أي: نودي فقيل يا موسى أو لأن النداء ضرب من القول فعومل معاملته.

تكرير الضمير في " إني أنا ربك " لتوكيد الدلالة وتحقيق المعرفة وإماطة الشبهة.

روي أنه لما نودي " يموسى " قال: من المتكلم فقال له اللّه عز وجل: " إني أنا ربك " وأن إبليس وسوس إليه فقال: لعلك تسمع كلام شيطان.

فقال: أنا عرفت أنه كلام اللّه بأني أسمعه من جميع جهاتي الست وأسمعه بجميع أعضائي.

وروي: أنه حين انتهى رأى شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها كأنها نار بيضاء تتقد.

وسمع تسبيح الملائكة ورأى نوراً عظيماً فخاف وبهت فألقيت عليه السكينة ثم نودي وكانت الشجرة عوسجة وروي: كلما دنا أو بعد لم يختلف ما كان يسمع من الصوت.

وعن ابن إسحاق: لما دنا استأخرت عنه فلما رأى ذلك رجع وأوجس في نفسه خيفة فلما أراد الرجعة دنت منه ثم كلم.

قيل: أُمر بخلع النعلين لأنهما كانتا من جلد حمار ميت غير مدبوغ عن السدي وقتادة.

وقيل: ليباشر الوادي بقدميه متبركاً به.

وقيل: لأن الحفوة تواضع للّه ومن ثم طاف السلف بالكعبة حافين ومنهم من استعظم دخول المسجد بنعليه وكان إذا ندر منه الدخول منتعلاً تصدق والقرآن يدل على أن ذلك احترام للبقعة وتعظيم لها وتشريف لقدسها.

وروي: أنه خلع نعليه وألقاهما من وراء الوادي " طُوًى " بالضم والكسر منصرف وغير منصرف بتأويل المكان والبقعة.

وقيل: مرتين نحو ثنى أي نودي نداءين أو قدس الوادي كرة بعد كرة " وَأَنَا اخترتك " اصطفيتك للنبوة.

وقرأ حمزة " وأنا اخترناك " لِمَا يوُحى للذي يوحى.

أو للوحي.

تعلق اللام باستمع أو باخترتك " لذكرى " لتذكرني فإن ذكري أن أعبد ويصلى لي.

أو لتذكرني فيها لاشتمال الصلاة على الأذكار عن مجاهد.

أو: لأني ذكرتها في الكتب وأمرت بها.

أو لأن أذكرك بالمدح والثناء وأجعل لك لسان صدق.

أو لذكري خاصة لا تشوبه بذكر غيري أو لإخلاص ذكري وطلب وجهي لا ترائي بها ولا تقصد بها غرضاً آخر.

أو لتكون لي ذاكراً غير ناس فعل المخلصين في جعلهم ذكر ربهم على بال منهم وتوكيل هممهم وأفكارهم به كما قال: " لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله " أو لأوقات ذكري وهي مواقيت الصلاة كقوله تعالى: " إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً " واللام مثلها في قولك: جئتك لوقت كذا وكان ذلك لست ليال خلون.

وقوله تعالى: " يا ليتني قد مت لحياتي " وقد حمل على ذكر الصلاة بعد نسيانها من قوله عليه الصلاة والسلام: " من نامَ عن صلاةِ أو نسيَها فليصلِها إذَا ذكرَهَا " وكان حق العبارة أن يقال: لذكرها كما قال رسول اللّه " إذَا ذكَرها " ومن يتمحلُ له يقول: إذا ذَكرَ الصلاةَ فقد ذكرَ اللهَ.

أو بتقدير حذف المضاف أي: لذكر صلاتي.

أو لأن الذكر والنسيان من الله عز وجل في الحقيقة.

وقرأ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم " للذكرى ".

" إنَ اَلسَّاعَةَ ءَاتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بِمَا تسعى ".

أي أكاد أخفيها فلا أقول هي آتية لفرط إرادتي إخفاءها ولولا ما في الإخبار بإتيانها مع تعمية

وقتها من اللطف لما أخبرت به.

وقيل: معناه أكاد أخفيها من نفسي ولا دليل في الكلام على هذا المحذوف ومحذوف لا دليل عليه مطرح.

والذي غرهم منه أن في مصحف أبي: أكاد أخفيها من نفسي.

وفي بعض المصاحف: أكاد أخفيها من نفسي فكيف أظهركم عليها وعن أبي الدرداء وسعيد بن جبير " أَخفيَها " بالفتح من خفاه إذا أظهره أي: قرب إظهارها كقوله تعالى: " اقتربت الساعة " وقد جاء في بعض اللغات: أخفاه بمعنى خفاه.

وبه فسر بيت امرىء القيس: فان تدفِنُوا الداءَ لا نَخفِه وَإن تبعَثُوا الحَربَ لا نقعُدِ فأكاد أخفيها محتمل للمعنيين " لِتجزَي " متعلق بآية " بِمَا تسعى " بسعيها.

" فلا يصدنكَ عنها مَن لا يؤمِنُ بِهَا وَاتبع هَوَاه فتردى ".

أي: لا يصدنك عن تصديقها والضمير للقيامة ويجوز أن يكون للصلاة.

فإن قلت: العبارة لنهي من لا يؤمن عن صد موسى والمقصود نهي موسى عن التكذيب بالبعث أو أمره بالتصديق فكيف صلحت هذه العبارة لأداء هذا المقصود قلت: فيه وجهان أحدهما: أن صد الكافر عن التصديق بها سبب للتكذيب.

فذكر السبب ليدل على المسبب.

والثاني: أن صد الكافر مسبب عن رخاوة الرجل في الدين ولين شكيمته فذكر المسبب ليدل على السبب كقولهم: لا أرينك ههنا المراد نهيه عن مشاهدته والكون بحضرته.

وذلك سبب رؤيته إياه فكان ذكر المسبب دليلاً على السبب كأنه قيل: فكن شديد الشكيمة صليب المعجم حتى لا يتلوح منك لمن يكفر بالبعث أنه يطمع في صدك عما أنت عليه يعني: أن من لا يؤمن بالآخرة هم الجم الغفير إذ لا شيء أطم على الكفرة ولا هم أشد له نكيراً من البعث فلا يهولنك وفور دهمائهم ولا عظم سوادهم ولا تجعل الكثرة مزلة قدمك واعلم أنهم وان كثروا تلك الكثرة فقدوتهم فيما هم فيه هو الهوى واتباعه لا البرهان وتدبره.

وفي هذا حث عظيم على العمل بالدليل وزجر بليغ عن التقليد وإنذار بأن الهلاك والردى مع التقليد وأهله.

" وَمَا تلك بيمِينِكَ يموسى قَالَ هِىَ عَصَاىَ أتوكوءا عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مئارب أخرى ".

" وَمَا تِلكَ بِيَمِينِكَ يمُوسَى " كقوله تعالى: " وهذا بعلي شيخاً " هود: 72 في انتصاب الحال بمعنى الإشارة: ويجوز أن تكون " تِلكَ " اسماً موصولاً صلته " بيمينك " إنما سأله ليريه عظم ما يخترعه عز وعلا في الخشبة اليابسة من قلبها حية نضناضة وليقرر في نفسه المباينة البعيدة بين المقلوب عنه والمقلوب إليه وينبهه على قدرته الباهرة.

ونظيره أن يريك الزراد زبرة من حديد ويقول لك: ما هي.

فتقول: زبرة حديد ثم يريك بعد أيام لبوساً مسرداً فيقول لك: هي تلك الزبرة صيرتها إلى ما ترى من عجيب الصنعة وأنيق السرد.

قرأ ابن أبي إسحاق " عصي " على لغة هذيل.

ومثله " يا بشرى " يوسف: 19 أرادوا كسر ما قبل ياء المتكلم فلم يقدروا عليه فقبلوا الألف إلى أخت الكسرة وقرأ الحسن " عصاي " بكسر الياء لالتقاء الساكنين وهو مثل قراءة حمزة " بمصرخي " إبراهيم: 22 وعن ابن أبي إسحاق سكون الياء " أَتوكَؤُا عَلَيهَا " أعتمد عليها إذا أعييت أو وقفت على رأس القطيع وعند الطفرة.

" وأهش بها على غنمي " هش الورق: خبطه أي: أخبطه على رؤس غنمي تأكله.

وعن لقمان بن عاد: أكلت حقاً وابن لبون وجذع وهشة نخب وسيلاً دفع والحمد لله من غير شبع سمعته من غير واحد من العرب.

ونخب: واد قريب من الطائف كثير السدر.

وفي قراءة النخعي: أهش وكلاهما من هش الخبز يهش: إذا كان ينكسر لهشاشته.

وعن عكرمة: أهس بالسين أي: أنحى عليها زاجراً لها.

والهس: زجر الغنم.

" وَلِىَ فِيهَا مئارِبُ أُخرَى " ذكر على التفصيل والإجمال المنافع المتعلقة بالعصا كأنه أحس بما يعقب هذا السؤال من أمر عظيم يحدثه الله تعالى فقال: ما هي إلا عصا لا تنفع إلا منافع بنات جنسها وكما تنفع العيدان.

ليكون جوابه مطابقاً للغرض الذي فهمه من فحوى كلام ربه ويجوز أن يريد عز وجل أن يعقد المرافق الكثيرة التي علقها بالعصا ويستكثرها ويستعظمها ثم يريه على عقب ذلك الآية العظيمة كأنه يقول له: أين أنت عن هذه المنفعة العظمى والمأربة الكبرى المنسية عندها كل منفعة ومأربة كنت تعتد بها وتحتفل بشأنها وقالوا: إنما سأله ليبسط منه ويقلل هيبته.

وقالوا: إنما أجمل موسى ليسأله عن تلك المآرب فيزيد في إكرامه وقالوا: انقطع لسانه بالهيبة فأجمل وقالوا: اسم العصا نبعة.

وقيل في المارب: كانت ذات شعبتين ومحجن فإذا طال الغصن حناه بالمحجن وإذا طلب كسره لواه بالشعبتين وإذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها أدواته من القوس والكنانة والحلاب وغيرها وإذا كان في البرية ركزها وعرض الزندين على شعبتيها وألقى عليها الكساء واستظل وإذا قصر رشاؤه وصله بها وكان يقاتل بها السباع عن غنمه.

وقيل: كان فيها من المعجزات أنه كان يمشي بها فتطول بطول البئر وتصير شعبتاها دلواً وتكونان شمعتين بالليل وإذا ظهر عدو حاربت عنه وإذا اشتهى ثمرة ركزها فأورقت وأثمرت وكان يحمل عليها زاده وسقاءه فجعلت تماشيه ويركزها فينبع الماء فإذا رفعها نضب وكانت تقيه الهوام.

" قَالَ أَلقهَا يَمُوسى فأَلقَهَا فَإذا هيَ حَية تسعى " السعي: المشي بسرعة وخفة حركة.

فإن قلت: كيف ذكرت بألفاظ مختلفة: بالحية والجان والثعبان قلت: أما الحية فاسم جنس يقع على الذكر والأنثى والصغير والكبير.

وأما الثعبان والجان فبينهما تناف لأن الثعبان العظيم من الحيات والجان الدقيق.

وفي ذلك وجهان: أحدهما أنها كانت وقت انقلابها حية تنقلب حية صفراء دقيقة ثم تتورم ويتزايد جرمها حتى تصير ثعباناً فأريد بالجان أول حالها وبالثعبان مآلها.

الثاني: أنها كانت في شخص الثعبان وسرعة حركة الجان.

والدليل عليه قوله تعالى: " فلما رآها تهتز كأنها جان " النمل: 10 وقيل: كان لها عرف كعرف الفرس.

وقيل: كان بين لحييها أربعون ذراعاً.

" قَالَ خذها وَلا تَخَف سَنُعِيدُها سِيرَتَهَا الأولى ".

لما رأى ذلك الأمر العجيب الهائل ملكه من الفزع والنفاز ما يملك البشر عند الأهوال والمخاوف وعن ابن عباس: انقلبت ثعباناً ذكراً يبتلع الصخر والشجر فلما رآه يبتلع كل شيء خاف ونفر.

وعن بعضهم: إنما خافها لأنه عرف ما لقي آدم منها.

وقيل: لما قال له ربه: " لا تَخَف " بلغ من ذهاب خوفه وطمأنينة نفسه أن أدخل يده في فمها وأخذ بلحيها.

" سِيرَتَهَا " السيرة: من السير كالركبة من الركوب.

يقال: سار فلان سيرة حسنة ثم اتسع فيها فنقلت إلى معنى المذهب والطريقة وقيل: سير الأولين فيجوز أن ينتصب على الظرف أي: سنعيدها في طريقتها الأولى أي: في حال ما كانت عصا وأن يكون " أعاد " منقولاً من " عاده " بمعنى عاد إليه.

ومنه بيت زهير: وعادك أَن تُلاَقِيَهَا عِدَاءَ فيتعدى إلى مفعولين.

ووجه ثالث حسن: وهو أن يكون " سَنُعِيدُها مستقلاً بنفسه غير متعلق بسيرتها بمعنى أنها أنشئت أول ما أنشئت عصا ثم ذهبت وبطلت بالقلب حية فسنعيدها بعد ذهابها كما أنشأناها أولاً.

ونصب سيرتها بفعل مضمر أي: تسير سيرتها الأولى: يعني سنعيدها سائرة سيرتها الأولى حيث كنت تتوكأ عليها ولك فيها المآرب التي عرفتها.

" وَاضمم يَدَكَ إِلى جَنَاحِكَ تَخرجُ بيضاء مِن غيرِ سوء ءايةً أخرَى لِنرُيك من ءَايتِنَا الكبرى ".

قيل لكل ناحيتين: جناحان كجناحي العسكر لمجنبتيه وجناحا الإنسان: جنباه والأصل المستعار منه جناحا الطائر.

سميا جناحين لأنه يجنحهما عند الطيران.

والمراد إلى جنبك تحت العضد دل علىذلك قوله: " تَخرجُ " السوء: الرداءة والقبح في كل شيء فكني به عن البرص كما كني عن العورة بالسوأة وكان جذيمة صاحب الزباء أبرص فكنوا عنه بالأبرش.

والبرص أبغض شيء إلى العرب.

وبهم عنه نفرة عظيمة وأسماعهم لاسمه مجاجة فكان جديراً بأن يكنى عنه ولا نرى أحسن ولا ألطف ولا أحز للمفاصل من كنايات القرآن وآدابه.

يروى: أنه كان آدم فأخرج يده من مدرعته بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس يعشي البصر.

" بيضاء " و " ءَايَة " حالان معاً.

و " مِن غيرِ سُوء " " من " صلة ل " بيضاء " كما تقول: ابيضت من غير سوء وفي نصب " ءَايَةً " وجه آخر وهو أن يكون بإضمار نحو: خذ ودونك وما أشبه ذلك.

حذف لدلالة الكلام وقد تعلق بهذا المحذوف " لِنريك " أي خذ هذه الآية أيضاً بعد قلب العصا حية لنريك بهاتين الاَيتين بعض اَياتنا الكبرى.

أو لنريك بهما الكبرى من آياتنا.

أو لنريك من آياتنا الكبرى فعلنا ذلك.

" اذهب إلى فرعون إنه طغى قال رب اشرح لي صدرى ويسر لى أمرى واحلل عقدة من لساني يفقهوا لي واجعل لي وزيراً من إهلي هرون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري كى نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً إنك كنت بصيراً ".

لما أمره بالذهاب إلى فرعون الطاغي لعنه اللّه عرف أنه كلف أمراً عظيماً وخطباً جسيماً يحتاج معه إلى احتمال ما لا يحتمله إلا ذو جأش رابط وصدر فسيح فاستوهب ربه أن يشرح صدره ويفسح قلبه ويجعله حليماً حمولاً يستقبل ما عسى يرد عليه من الشدائد التي يذهب معها صبر الصابر بجميل الصبر وحسن الثبات وأن يسهل عليه في الجملة أمره الذي هو خلافة الله في أرضه وما يصحبها من مزاولة معاظم الشؤون ومقاساة جلائل الخطوب.

فإن قلت: " لِى " في قوله: " اشرح لي صدري ويسر لي أمري " ما جدواه والكلام بدونه مستتب قلت: قد أبهم الكلام أولاً فقيل: اشرح لي ويسر لي فعلم أن ثم مشروحاً وميسراً ثم بين ورفع الإبهام بذكرهما فكان آكد لطلب الشرح والتيسير لصدره وأمره من أن يقول: اشرح صدري ويسر أمري على الإيضاح الساذج لأنه تكرير للمعنى الواحد من طريقي الإجمال والتفصيل.عن ابن عباس: كان في لسانه رتة لما روي من حديث الجمرة ويروى: أن يده احترقت وأن فرعون اجتهد في علاجها فلم تبرأ ولما دعاه قال: إلى أي رب تدعوني.

قال: إلى الذي أبرأ يدي وقد عجزت عنها.

وعن بعضهم: إنما لم تبرأ يده لئلا يدخلها مع فرعون في قصعة واحدة فتنعقد بينهما حرمة المواكلة.

واختلف في زوال العقدة بكمالها فقيل: ذهب بعضها وبقي بعضها لقوله تعالى: " وأخي هارون هو أفصح مني لساناً " القصص: 34 وقوله تعالى: " ولا يكاد يبين " الزخرف: 2 وكان في لسان الحسين بن علي رضي اللّه عنهما رتة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: - " ورثَها من عَمهِ مُوسىَ " وقيل: زالت بكمالها لقوله تعالى: " قد أوتيت سؤلك يا موسى " طه: 6 وفي تنكير العقدة - هان لم يقل عقدة لساني -: أنه طلب حل بعضها إرادة أن يفهم عنه فهماً جيداً ولم يطلب الفصاحة الكاملة و " من لساني " صفة للعقدة كأنه قيل: عقدة من عقد لساني.

" واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي " الوزير من الوزر لأنه يتجمل عن الملك أوزاره ومؤنه.

أو من الوزر لأن الملك يعتصم برأيه ويلتجىء إليه في أموره.

أو من المؤازرة وهي المعاونة.

عن الأصمعي قال: وكان القياس أزيراً فقلبت الهمزة إلى الواو ووجه قلبها أن فعيلاً جاء في معنى مفاعل مجيئاً صالحاً كقولهم: عشير وجليس وقعيد وخليل وصديق ونديم فلما قلبت في أخيه قلبت فيه وحمل الشيء على نظيره ليس بعزيز ونظراً إلى يوازر وأخواته وإلى الموازرة

" وزيراً " و " هرون " مفعولاً قوله " وَاجعَل " قدم ثانيهما على أولهما عناية بأمر الوزارة.

أو " لى وزيراً " مفعولاه وهرون عطف بيان للوزير.

و " أَخى " في الوجهين بدل من هرون وإن جعل عطف بيان آخر جاز وحسن.

قرؤوا جميعاً " اشدد " " وأشركه " على الدعاء.

وابن عامر وحده " اشدُد " و " أُشركه " على الجواب.

وفي مصحف ابن مسعود " أخي واشدد " وعن أبي بن كعب أشركه في أمري واشدد به أزري " ويجوز فيمن قرأ على لفظ الأمر: أن يجعل " أخي " مرفوعاً على الابتداء: و " اشدد به " خبره ويوقف على " هرونَ " الأزر: القوة.

وأزره: قواه أي: اجعله شريكي في الرسالة حتى نتعاون على عبادتك وذكرك فإن التعاون - لأنه مهيج الرغبات - يتزايد به الخير ويتكاثر " إِنَكَ كنُتَ بِنَا بصَيَراً " أي عالماً بأحوالنا وبأن التعاضد مما يصلحنا وأن هرون نعم المعين والشاد لعضدي بأنه أكبر مني سناً وأفصح لساناً.

" قَالَ قَد أوُتِيتَ سُؤلَكَ يمُوسَى " السؤل: الطلبة فعل بمعنى مفعول كقولك: خبز بمعنى مخبوز

وأكل بمعنى مأكول.

" وَلَقد مننا عليك مرةً أخرى إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في"

الوحي إلى أم موسى: إما أن يكون على لسان نبي في وقتها كقوله تعالى: " وإذ أوحيت إلى الحواريين " المائدة: 111 أو يبعث إليها ملكاً لا على وجه النبوة كما بعث إلى مريم.

أو يريها ذلكِ في المنام فتتنبه عليه أو يلهمها كقوله تعالى: " وأوحى ربك إلى النحل " النحل: 68 أي أوحينا إليها أمراً لا سبيل إلى التوصل إليه ولا إلى العلم به إلا بالوحي وفيه مصلحة دينية فوجب أن يوحي ولا يخل به أي: هو مما يوحى لا محالة وهو أمر عظيم مثله يحق بأن يوحي " أَنِ " هي المفسرة لأن الوحي بمعنى القول.

القذف مستعمل في معنى الإلقاء والوضع.

ومنه قوله تعالى: " وقذف في قلوبهم الرعب " الأحزاب: 26 وكذلك الرمي قال: غُلاَم رَمَاهُ اللهُ بِالحُسنِ يَافِعَا أي حصل فيه الحسن ووضعه فيه والضمائر كلها راجعة إلى موسى.

ورجوع بعضها إليه وبعضها إلى التابوت: فيه هجنة لما يؤدي إليه من تنافر النظم.

فإن قلت: المقذوف في البحر هو التابوت وكذلك الملقى إلى الساحل.

قلت: ما ضرك لو قلت: المقذوف والملقى هو موسى في جوف التابوت.

حتى لا تفرق الضمائر فيتنافر عليك النظم الذي هو أم إعجاز القرآن والقانون الذي وقع عليه التحدي ومراعاته أهم ما يجب على المفسر.

لما كانت مشيئة الله تعالى وإرادته أن لا تخطيء جرية ماء اليم الوصول به إلى الساحل وألقاه إليه سلك في ذلك سبيل المجاز وجعل اليم كأنه ذو تمييز أمر بذلك ليطيع الأمر ويمتثل رسمه فقيل: " فليلقه اَليَمُ بِاَلسَاحِلِ " روي أنها جعلت في التابوت قطناً محلوجاً فوضعته فْيه وجصصته وقيرته ثم ألقته في اليم وكان يشرع منه إلى بستان فرعون نهر كبير فبينا هو جالس على رأس بركة مع آسية إذا بالتابوت فأمر به فأخرج ففتح فإذا صبي أصبح الناس وجهاً فأحبه عدو الله حباً شديداً لا يتمالك أن يصبر عنه.

وظاهر اللفظ على أن البحر ألقاه بساحله وهو شاطئه: لأن الماء يسحله أي يقشره وقذف به ثمة فالتقط من الساحل إلا أن يكون قد ألقاه اليم بموضع من الساحل فيه فوهة نهر فرعون ثم أداه النهر إلى حيث البركة وألقيت عليك محبة مني " مِنِى " لا يخلو إما أن يتعلق بألقيت فيكون المعنى على: أني أحببتك ومن أحبه اللّه أحبته القلوب.

وإما أن يتعلق بمحذوف هو صفة لمحبة أي: محبة حاصلة أو واقعة مني قد ركزتها أنا في القلوب وزرعتها فيها فلذلك أحبك فرعون وكل من أبصرك.

روي: أنه كانت على وجهه مسحة جمال روي: وفي عينيه ملاحة لا يكاد يصبر عنه من رآه " وَلِتصنع عَلى عَيني " لتربى ويحسن إليك وأنا مراعيك وراقبك كما يراعي الرجل الشيء بعينيه إذا اعتنى به وتقول للصانع: اصنع هذا على عيني أنظر إليك لئلا تخالف به عن مرادي وبغيتي.

ولتصنع: معطوف على علة مضمرة مثل: ليتعطف عليك وترأم ونحوه.

أو حذف معلله أي: ولتصنع فعلت ذلك.

وقرئ: " ولتصنع و " لتصنع " بكسر اللام وسكونها.

والجزم على أنه أمر وقرىء: " ولتصنع " بفتح التاء والنصب أي: وليكون عملك وتصرفك على عين مني.

" إِذ تَمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعنك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفساً فنجينك من الغم وفتنك فتوناً فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يموسى واصطنعتك لنفسي ".

العامل في " إذ تمشي " " ألقيت " أو " لتصنع " ويجوز أن يكون بدلاً من " إذ أوحينا " فإن قلت: كيف يصح البدل والوقتان مختلفان متباعدان.

قلت: كما يصح - وإن اتسع الوقت وتباعد طرفاه - أن يقول لك الرجل: لقيت فلاناً سنة كذا فتقول: وأنا لقيته إذ ذاك.

وربما لقيه هو في أولها وأنت في آخرها.

يروى أن أخته واسمها مريم جاءت متعرفة خبره فصادفتهم يطلبون له مرضعة يقبل ثديها وذلك أنه كان لا يقبل ثدي امرأة فقالت: هل أدلكم فجاءت بالأم فقبل ثديها.

ويروى أن آسية استوهبته من فرعون وتبنته وهي التي أشفقت عليه وطلبت له المراضع.

" وَقَتلت نَفساً " هي نفس القبطي الذي استغاثه عليه الإسرائيلي.

قتله وهو ابن اثنتي عشرة سنة: اغتم بسبب القتل خوفاً من عقاب اللّه ومن اقتصاص فرعون فغفر اللّه له باستغفاره حين قال " ربي إني ظلمت نفسي فاغفر لي " القصص: 16 ونجاه من فرعون أن ينشب فيه أظفاره حين هاجر به إلى مدين " فُتُوناً " يجوز أن يكون مصدراً على فعول في المتعدي كالثبور والشكور والكفور.

وجمع فتن أو فتنة على ترك الاعتداد بتاء التأنيث كحجوز وبدور في حجرة وبدرة: أي فتناك ضروباً من الفتن.

سأل سعيد بن جبير ابن عباس رضي الله عنه فقال: خلصناك من محنة بعد محنة: ولد في عام كان يقتل فيه الولدان فهدفه فتنة يا ابن جبير.

وألقته أمه في البحر.

وهم فرعون بقتله.

وقتل قبطياً وأجر نفسه عشر سنين.

وضل الطريق وتفرقت غنمه في ليلة مظلمة وكان يقول عند كل واحدة: فهذه فتنة يا ابن جبير والفتنة: المحنة وكل ما يشق على الإنسان وكل ما يبتلي الله به عباده: فتنة قال: " ونبلوكم بالشر والخير فتنة " الأنبياء: 35 " مَديَنَ " على ثماني مراحل من مصر.

وعن وهب: أنه لبث عند شعيب ثمانياً وعشرين سنة منها مهر ابنته وقضى أوفى الأجلين " ثُمَّ جِئت عَلى قَدَر يمُوسَى " أي سبق في قضائي وقدري أن أكلمك وأستنبئك وفي وقت بعينه قد وقته لذلك فما جئت إلا على ذلك القدر غير مستقدم ولا مستأخر.

وقيل: على مقدار من الزمان يوحي فيه إلى الأنبياء وهو رأس أربعين سنة " وَاصطنعتك لِنَفسِى " هذا تمثيل لما خوله من منزلة التقريب والتكريم والتكليم.

مثل حاله بحال من يراه بعض الملوك لجوامع خصال فيه وخصائص أهلاً لئلا يكون أحد أقرب منزلة منه إليه ولا ألطف محلاً فيصطنعه بالكرامة والأثرة ويستخلصه لنفسه ولا يبصر ولا يسمع إلا بعينه وأذنه ولا يأتمن على مكنون سره إلا سواء ضميره.

" اذهب أَنتَ وَأخوكَ بئايتي وَلا تَنِيَا فِى ذكري اذهَبَا إلى فرعونَ إِنَهُ طَغَى فَقُولا لَهُ قولاً ليناً لعله يَتَذَكَر أَو يَخشَى ".

الونى: الفتور والتقصير.

وقرىء " تنيا " بكسر حرف المضارعة للإتباع أي: لا تنسياني ولا أزال منكما على ذكر حيثما تقلبتما واتخذا ذكري جناحاً تصيران به مستمدين بذلك العون والتأييد مني معتقدين أن أمراً من الأمور لا يتمشى لأحد إلا بذكري.

ويجوز أن يريد بالذكر تبليغ الرسالة فإن الذكر يقع على سائر العبادات وتبليغ الرسالة من أجلها وأعظمها فكان جديراً بأن يطلق عليه اسم الذكر.

روي: أن الله تعالى أوحى إلى هرون وهو بمصر أن يتلقى موسى.

وقيل: سمع بمقبله.

وليل: ألهم ذلك.

قرىء " لينا " بالتخفيف والقول اللين.

نحو قوله تعالى: " هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى " النازعات: 18 لأن ظاهره الاستفهام والمشورة وعرض ما فيه من الفوز العظيم.

وقيل: عداه شباباً لا يهرم بعده وملكاً لا ينزع منه إلا بالموت وأن تبقى له.

لذة المطعم والمشرب والمنكح إلى حين موته.

وقيل: لا تجبهاه بما يكره وألطفا له في القول لما له من حق تربية موسى عليه الصلاة والسلام ولما ثبت له من مثل حق الأبوة.

وقيل: كنياه وهو من ذوي الكنى الثلاث: أبو العباس وأبو الوليد وأبو مرة والترجي لهما أي: اذهبا على رجائكما وطمعكما وباشرا الأمر مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمر عمله ولا يخيب سعيه.

فهو يجتهد بطوقه ويحتشد بأقصى وسعه وجدوى إرسالهما إليه مع العلم بأن لن يؤمن إلزام الحجة وقطع المعذرة " ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك " طه: 134 أي: يتذكر ويتأمل فيبذل النصفة من نفسه والإذعان للحق " أو يَخشَى " أن يكون الأمر كما تصفان فيجره إنكاره إلى الهلكة.

" قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط أو أن يطغى ".

فرط: سبق وتقدم.

ومنه الفارط: الذي يتقدم الواردة.

وفرس فرط: يسبق الخيل أي: نخاف أن يعجل علينا بالعقوبة ويبادرنا بها.

وقرىء " يفرط " من أفرطه غيره إذا حمله على العجلة.

خافا أن يحمله حامل على المعاجلة بالعقاب من شيطان أو من جبروته واستكباره وادعائه الربوبية.

أو من حبه الرياسة أو من قومه القبط المتمردين الذين حكى عنهم رب العزة " قال الملأ من قومه " الأعراف: 60 " و قال الملأ من قومه " المؤمنون: 33 وقرىء " يفرط " من الإفراط في الأذية أي: نخاف أن يحول بيننا وبين تبليغ الرسالة بالمعاجلة.

أو يجاوز الحد في معاقبتنا إن لم يعاجل بناء على ما عرفا وجربا من شرارته وعتوه " أَو أَن يَطغَى " بالتخطي إلى أن يقول فيك ما لا ينبغي لجرأته عليك وقسوة قلبه.

وفي المجيء به هكذا على الإطلاق وعلى سبيل الرمز: باب حسن الأدب وتحاش عن التفوه بالعظيمة.

" قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى فأتياه فقولا إنا رسولا ربك معنا بني إسرءيل ولا تعذبهم قد جئنك بئاية من ربك والسلم على من اتبع الهدى إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ".

" معكما " أي حافظكما وناصركما " أَسمَعُ وَأَرَى " ما يجري بينكما وبينه من قول وفعل فأفعل ما يوجبه حفظي ونصرتي لكما فجائز أن يقدر أقوالكم وأفعالكم وجائز أن لا يقدر شيء وكأنه قيل: أنا حافظ لكما وناصر سامع مبصر.

وإذا كان الحافظ والناصر كذلك تم الحفظ وصحت النصرة وذهبت المبالاة بالعدو.

كانت بنو إسرائيل في ملكة فرعون والقبط يعذبونهم بتكليف الأعمال الصعبة: من الحفر والبناء ونقل الحجارة والسخرة في كل شيء مع قتل الولدان واستخدام النساء " قد جئناك بآية من ربك " جملة جارية من الجملة الأولى وهي " إنَّا رَسُولا رَبك " مجرى البيان والتفسير لأن دعوى الرسالة لا تثبت إلا ببينتها التي هي المجيء بالآية إنما وحد قوله " بآية " ولم يثن ومعه آيتان: لأن المراد في هذا الموضع تثبيت الدعوى ببرهانها فكأنه قال: قد جئناك بمعجزة وبرهان وحجة على ما ادعيناه من الرسالة وكذلك " قد جئتكم بينة من ربكم " الأعراف: 105 " فأت بآية إن كنت من الصادقين " الشعراء: 154 " أو لو جئتك بشيء مبين " الشعراء: 30 " والسلام على من اتبع الهدى " يريد: وسلام الملائكة الذين هم خزنة الجنة على المهتدين وتوبيخ خزنة النار والعذاب على المكذبين.

" قَالَ فَمَن رَبكما يَمُوسَى قَالَ رَبُنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ".

خاطب الاثنين ووجه النداء إلى أحدهما وهو موسى لأنه الأصل في النبوة وهرون وزيره وتابعه.

ويحتمل أن يحمله خبثه ودعارته على استدعاء كلام موسى دون كلام أخيه.

لما عرف من فصاحة هرون والرتة في لسان موسى.

ويدل عليه قوله: " أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين " الزخرف: 52 " خلقه " أول مفعولي أعطى أي: أعطى خليقته كل شيء يحتاجون إليه ويرتفقون به.

أو ثانيهما أي: أعطى كل شيء صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به كما أعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع وكذلك الأنف واليد والرجل واللسان: كل واحد منها مطابق لما علق به من المنفعة غير ناب عنه.

أو أعطى كل حيوان نظيره في الخلق والصورة حيث جعل الحصان والحِجر.

زوجين والبعير والناقة والرجل والمرأة فلم يزاوج منها شيئاً غير جنسه وما هو على خلاف خلقه.وقرىء " خَلَقَهُ " صفة للمضاف أو للمضاف إليه أي: كل شيء خلقه الله لم يخله من عطائه وإنعامه " ثُم هَدَى " أي عرف كيف يرتفق بما أعطى وكيف يتوصل إليه.

ولله در هذا الجواب ما أخصره وما أجمعه وما أبينه لمن ألقى الذهن ونظر بعين الإنصاف وكان طالباً للحق.

" قَالَ فَمَا بَالُ القرون الأولى قَالَ علمها عِندَ رَبي فِى كِتب لا يَضِل رَبِى وَلا يَنسى الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض مهداً وَسَلَكَ لكم فِيهَا سُبُلاً وأَنزَلَ مِنَ اَلسَمَاء ماءً فأَخرَجنَا بِهِ أزوَجاً من نبات شتى كلوا وارعوا أنعمكم إن في ذلك لأيت لأولى النهى ".

سأله عن حال من تقدم وخلا من القرون وعن شقاء من شقي منهم وسعادة من سعد فأجابه بأن هذا سؤال عن الغيب وقد استأثر الله به لا يعلمه إلا هو وما أنا إلا عبد مثلك لا أعلم منه إلا ما أخبرني به علام الغيوب وعلم أحوال القرون مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ لا يجوز على اللّه أن يخطيء شيئاً أو ينساه.

يقال: ضللت الشيء إذا أخطأته في مكانه فلم تهتد له كقولك: ضللت الطريق والمنزل.

وقرىء " يضل " من أضله إذا ضيعه.

وعن ابن عباس: لا يترك من كفر به حتى ينتقم منه ولا يترك من وحده حتى يجازيه.

ويجوز أن يكون فرعون قد نازعه في إحاطة اللّه بكل شيء وتبينه لكل معلوم فتعنت وقال: ما تقول في سوالف القرون وتمادي كثرتهم وتباعد أطراف عددهم كيف أحاط بهم وبأجزائهم وجواهرهم فأجاب بأن كل كائن محيط به علمه وهو مثبت عنده في كتاب ولا يجوز عليه الخطأ والنسيان كما يجوزان عليك أيها العبد الذليل والبشر الضئيل أي: لا يضل كما تضل أنت ولا ينسى كما تنسى يا مدعي الربوبية بالجهل والوقاحة " الذي " مرفوع صفة لربي.

أو خبر مبتدأ محذوف أو منصوب على المدح وهذا من مظانه ومجازه " مهداً " قراءة أهل الكوفة أي: مهدها مهداً.

أو يتمهدونها فهي لهم كالمهد وهو ما يمهد للصبي " وَسَلَكَ " من قوله تعالى: " ما سلككم في سقر " المدثر: 142 " سلكناه " الشعراء: 200 " نسلكه في قلوب المجرمين " الحجر: 12 أي حصل لكم فيها سبلاً ووسطها بين الجبال والأودية والبراري " فأخرجنا " انتقل فيه

من لفظ الغيبة إلى لفظ المتكلم المطاع لما ذكرت من الافتنان والإيذان بأنه مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لأمره وتذعن الأجناس المتفاوتة لمشيئته لا يمتنع شيء عن إرادته.

ومثله قوله تعالى: " وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء " الأنعام: 99 " ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها " فاطر: 27 " أم من خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة " النمل: 60 وفيه تخصيص أيضاً بأنا نحن نقدر على مثل هذا ولا يدخل تحت قدرة أحد.

" أزواجاً " أصنافاً سميت بذلك لأنها مزعوجة ومقترنة بعضها مع بعض " شَتى " صفة للأزواج جمع شتيت كمريض ومرضى.

ويجوز أن يكون صفة للنبات.

والنبات مصدر سمي به النابت كما سمي بالنبت فاستوى فيه الواحد والجمع يعني أنها شتى مختلفة النفع والطعم واللون والرائحة والشكل بعضها يصلح للناس وبعضها للبهائم.

قالوا: من نعمته عز وعلا أن أرزاق العباد إنما تحصل بعمل الأنعام.

وقد جعل الله علفها مما يفضل عن حاجتهم ولا يقدرون على أكله أي قائلين: " كلُوُا وَارعَوا " حال من الضمير في " فأخرجنا " المعنى: أخرجنا أصناف النبات آذنين في الانتفاع بها مبيحين أن تأكلوا بعضها وتعلفوا بعضها.

" مِنْهَا خلقنكم وَفيهَا نعُيدُكُم وَمنْهَا نُخرِجُكُم تَارَةً أُخرَى ".

أراد بخلقهم من الأرض خلق أصلهم هو آدم عليه السلام منها.

وقيل: إن الملك لينطلق فيأخذ من تربة المكان الذي يدفن فيه فيبددها على النطفة فيخلق من التراب والنطفة معاً.

وأراد بإخراجهم منها أنه يؤلف أجزاءهم المتفرقة المختلطة بالتراب ويردهم كما كانوا أحياء ويخرجهم إلى المحشر " يوم يخرجون من الأجداث سراعاً " المعارج: 43 عقد اللّه عليهم ما علق بالأرض من مرافقهم حيث جعلها لهم فراشاً ومهاداً يتقلبون عليها وسوى لهم فيها مسالك يترددون فيها كيف شاؤوا وأنبت فيها أصناف النبات التي منها أقواتهم وعلوفات بهائمهم وهي أصلهم الذي منه تفرعوا وأمهم التي منها ولدوا ثم هي كفاتهم إذا ماتوا ومن ثم قال رسول اللّه صلى الله "تمسحوا بالأرضِ فإنها بِكُم برة ".

" وَلَقَد أرَينه ءَايتنا كلها فكذب وَأَبَى ".

" أرَينَهُ " بصرناه أو عرفناه صحتها ويقناه بها.

وإنما كذب لظلمه كقوله تعالى: " وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً " النمل: 114 وقوله تعالى: " لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر " الإسراء: 102 وفي قوله تعالى: " ءايتنا كلها " وجهان أحدهما: أن يحذي بهذا التعريف الإضافي حذو التعريف باللام لو قيل الآيات كلها أعني أنها كانت لا تعطي إلا تعريف العهد والإشارة إلى الآيات المعلومة التي هي تسع الآيات المختصة بموسى عليه السلام: العصا واليد وفلق البحر والحجر والجراد والقمل والضفادع والدم ونتق الجبل.

والثاني: أن يكون موسى قد أراه آياته وعدد عليه ما أوتيه غيره من الأنبياء من آياتهم ومعجزاتهم وهو نبي صادق لا فرق بين ما يخبر عنه وبين ما يشاهد به فكذبها جميعاً " وَأبى " أن يقبل شيئاً منها.

وقيل: فكذب الآيات وأبى قبول الحق.

" قَالَ أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يموسى " يلوح من جيب قوله: " أَجئتَنَا لِتُخرِجَنَا مِن أرضنَا بِسِحرِكَ " أن فرائصه كانت ترعد خوفاً مما جاء به موسى عليه السلام لعلمه وإيقانه أنه على الحق وأن المحق لو أراد قود الجبال لانقادت وأن مثله لا يخذل ولا يقل ناصره وأنه غالبه على ملكه لا محالة.

وقوله: " بِسِحرِكَ " تعلل وتحير لمالا فكيف يخفى عليه أن ساحراً لا يقدر أن يخرج ملكاً مثله من أرضه ويغلبه على ملكه بالسحر.

" فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعد لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوىً قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحىً فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى ".

لا يخلو الموعد في قوله: " فَاجعَل بينَنَا وَبينَكَ مَوعداً " من أن يجعل زماناً أو مكاناً أو مصدراً

فإن جعلته زماناً نظراً في أن قوله تعالى: " مَوعِدُكمُ يومُ اَلزينَةِ " مطابق له لزمك شيئان أن تجعل الزمان مخلفاً وأن يعضل عليك ناصب مكاناً: وإن جعلته مكاناً لقوله تعالى: " مكاناً سُوَىً " لزمك.

أيضاً أن توقع الإخلاف على المكان وأن لا يطابق قوله: " مَوعدكم يومُ الزينَةِ " وقراءة الحسن غير مطابقة له مكاناً وزماناً جميعاً لأنه قرأ " يومُ الزينة " بالنصب فبقي أن يجعل مصدراً بمعنى الوعد ويقدر مضاف محذوف أي: مكان موعد ويجعل الضمير في " نُخلِفُه " للموعد و " مَكاناً " بدل من المكان المحذوف.

فإن قلت: فكيف طابقه قوله: " مَوعدكم يوم الزينةَ " ولا بد من أن تجعله زماناً والسؤال واقع عن المكان لا عن الزمان.

قلت: هو مطابق معنى وإن لم يطابق لفظاً لأنهم لا بد لهم من أن يجتمعوا يوم الزينة في مكان بعينه مشتهر باجتماعهم فيه في

ذلك اليوم فبذكر الزمان علم المكان.

وأما قراءة الحسن فالموعد فيها مصدر لا غير.

والمعنى: إنجاز وعدكم يوم الزينة.

وطباق هذا أيضاً من طريق المعنى.

ويجوز أن لا يقدر مضاف محذوف ويكون المعنى: اجعل بيننا وبينك وعداً لا نخلفه.

فإن قلت: فيم ينتصب مكاناً قلت: بالمصدر.

أو بفعل يدل عليه المصدر.

فإن قلت: فكيف يطابقه الجواب قلت: أما على قراءة الحسن فظاهر.

وأما على قراءة العامة فعلى تقدير: وعدكم وعد يوم الزينة.

ويجوز على قراءة الحسن أن يكون " موعدكم " مبتدأ بمعنى الوقت.

و " ضُحى " خبره على نية التعريف فيه لأنه ضحى ذلك اليوم بعينه.

وقيل في يوم الزينة: يوم عاشوراء ويوم النيروز ويوم عيد كان لهم في كل عام ويوم كانو يتخذون فيه سوقاً ويتزينون ذلك اليوم.

قرىء " نخلفه " بالرفع على الوصف للموعد وبالجزم على جواب الأمر.

وقرىء " سوى " و " سوى " بالكسر والضم ومنوناً وفي منون.

ومعناه: منصفاً بيننا وبينك عن مجاهد وهو من الاستواء لأن المسافة من الوسط إلى الطرفين مستوية لا تفاوت فيها.

ومن لم ينون فوجهه أن يجري الوصل مجرى الوقف.

قرىء: " وأن تحشر الناس " بالتاء والياء.

يريد: وأن تحشر يا فرعون.

وأن يحشر اليوم.

ويجوز أن يكون فيه ضمير فرعون ذكره بلفظ الغيبة إما على العادة التي يخاطب بها الملوك أو خاطب القوم بقوله: " مَوعِدُكُم " وجعل " يحشَرَ " لفرعون.

ومحل " وَأَن يُحشَرَ " الرفع أو الجر عطفاً على اليوم أو الزينة: وإنما واعدهم ذلك اليوم ليكون علو كلمة اللّه وظهور دينه وكبت الكافر وزهوق الباطل على رؤوس الأشهاد وفي المجمع الغاص لتقوى رغبة من رغب في اتباع الحق ويكل حد المبطلين وأشياعهم ويكثر المحدث بذلك الأمر العلم في كل بدو وحضر ويشيع في جميع أهل الوبر والمدر.

" قَالَ لَهُم مُوسَى وَيَلكُم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى ".

" لا تَفتروا عَلَى اَلله كذباً " أي لا تدعو آياته ومعجزاته سحراً قرىء " فيسحتكم " والسحت لغة أهل الحجاز.

والإسحات: لغة أهل نجد وبني تميم.

ومنه قول الفرزدق:

إلا مُسحِتاَ أو مُجَلفُ في بيت لا تزال الركب تصطك في تسوية إعرابه.

فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى قالوا إن هذن لسحرن يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفاً وقد أفلح اليوم من استعلى ".

عن ابن عباس: إن نجواهم: إن غلبنا موسى اتبعناه.

وعن قتادة: إن كان ساحراً فسنغلبه وإن كان من السماء فله أمر.

وعن وهب لما قال: " وَيلكَم " الآية قالوا: ما هذا بقول ساحر.

والظاهر أنهم تشاوروا في السر وتجاذبوا أهداب القول ثم قالوا: إن هذان لساحران.

فكانت نجواهم في تلفيق هذا الكلام وتزويره خوفاً من غلبتهما وتثبيطاً للناس عن اتباعهما.

قرأ أبو عمرو: " إن هذين لساحران " على الجهة الظاهرة المكشوفة.

وابن كثير وحفص " إن هذان لساحران " على قولك: إن زيد لمنطلق.

واللام هي الفارقة بين إن النافية والمخففة من الثقيلة.

وقرأ أبي " إن هذان إلا ساحران " وقرأ ابن مسعود " أن هذان ساحران " بفتح أن وبغير لام بدل من النجوى.

وقيل في القراءة المشهورة " إن هذن لسحرن " هي لغة بلحرث بن كعب جعلوا الاسم المثنى نحو الأسماء التي آخرها ألف كعصا وسعدى فلم يقلبوها ياء في الجر والنصب.

وقال بعضهم: " إِن " بمعنى نعم.

و " لسحرن " خبر مبتدأ محذوف واللام داخلة على الجملة تقديره: لهما ساحران.

وقد أعجب به أبو إسحاق سموا مذهبهم الطريقة " المثلى " والسنة الفضلى وكل حزب بما لديهم فرحون.

وقيل: أرادوا أهل طريقتهم المثلى وهم بنو إسرائيل لقول موسى: " فأرسل معنا بنى إسرءيل " وقيل: " الطريقة " اسم لوجوه الناس وأشرافهم الذين هم قدوة لغيرهم.

يقال: هم طريقة قومهم.

ويقال للواحد أيضاً: هو طريقة قومه: " فأجمعوا كيدكم " يعضده قوله: " فجمع كيده " وقرىء " فأجمعوا كيدهكم " أي أزمعوه واجعلوه مجمعاً عليه حتى لا تختلفوا ولا يخلف عنه واحد منكم كالمسألة المجمع عليها.

أمروا بأن يأتوا صفاً لأنه أهيب في صدور الرائين.

وروي: أنهم كانوا سبعين ألفاً مع كل واحد منهم حبل وعصا وقد أقبلوا إقبالة واحدة.

وعن أبي عبيدة أنه فسر الصف بالمصلى لأن الناس يجتمعون فيه لعيدهم وصلاتهم مصطفين

ووجه صحته أن يقع علماً لمصلى بعينه فأمروا بأن يأتوه.

أو يراد: ائتوا مصلى من المصليات " وَقَد أَفلَحَ اليومَ مَنِ استعَلى " اعتراض.

يعني: وقد فاز من غلب.

" قالوا يموسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ".

" أَن " مع ما بعده إما منصوب بفعل مضمر.

أو مرفوع بأنه خبر مبتدأ محذوف.

معناه: اختر أحد الأمرين أو الأمر إلقاؤك أو إلقاؤنا.

وهذا التخيير منهم استعمال أدب حسن معه وتواضع له وخفض جناح وتنبيه على إعطائهم النصفة من أنفسهم وكأن اللّه عز وعلا ألهمهم ذلك وعلم موسى صلوات الله عليه اختيار إلقائهم أولاً مع ما فيه من مقابلة أدب بأدب حتى يبرزوا ما معهم من مكايد السحر.

ويستنفدوا أقصى طوقهم ومجهودهم فإذا فعلوا: أظهر الله سلطانه وقذف بالحق على الباطل فدمغه وسلط المعجزة على السحر فمحقته وكانت آية نيرة للناظرين وعبرة بينة للمعتبرين.

يقال في " إذا " هذه: إذا المفاجأة والتحقيق فيها أنها إذا الكائنة بمعنى الوقت الطالبة ناصباً لها وجملة تضاف إليها خصت في بعض المواضع بأن يكون ناصبها فعلاً مخصوصاً وهو فعل المفاجأة والجملة ابتدائية لا غير فتقدير قوله تعالى:" فَإذا حبالهم وَعصيهُم " ففاجأ موسى وقت تخييل سعي حبالهم وعصيهم.

وهذا تمثيل.

والمعنى: على مفاجأته حبالهم وعصيهم مخيلة إليه السعي.

وقرىء: " عُصيهم " بالضم وهو الأصل والكسر إتباع ونحوه: دُلي ودِلي وقُسِي وقِسِي وقرىء " تخيل " على إسناده إلى ضمير الحبال والعصي وإبدال قوله: " أَنهَا تَسعَى " من الضمير بدل الاشتمال كقولك: أعجبني زيد كرمه وتخيل على كون الحبال والعصي مخيلة سعيها.

وتخيل.بمعنى تتخيل.وطريقه طريق تخيل.

ونخيل: على أن الله تعالى هو المخيل للمحنة والابتلاء.

يروى: أنهم لطخوها بالزئبق فلما ضربت عليها الشمس اضطربت واهتزت.

فخيلت ذلك.

" فأوجس في نفسه خيفةً موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد سحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ".

إيجاس الخوف: إضمار شيء منه وكذلك توجس الصوت: تسمع نبأة يسيرة منه وكان ذلك لطبع الجبلة البشرية وأنه لا يكاد يمكن الخلو من مثله.

وقيل: خاف أن يخالج الناس شك فلا يتبعوه " إِنَكَ أَنتَ الأَعلى " فيه تقرير لغلبته وقهره وتوكيد بالاستئناف وبكلمة التشديد وبتكرير الضمير وبلام التعريف وبلفظ العلو وهو الغلبة الظاهرة وبالتفضيل.

وقوله " مَا فِى يَمينك " ولم يقل عصاك: جائز أن يكون تصغيراً لها أي: لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم وألق العويد الفرد الصغير الجرم الذي في يمينك فإنه بقدرة اللّه يتلقفها على وحدته وكثرتها وصغره وعظمها وجائز أن يكون تعظيماً لها أي: لا تحتفل بهذه الأجرام الكبيرة الكثيرة فإن في يمينك شيئاً أعظم منها كلها وهذه على كثرتها أقل شيء وأنزره عنده فألقه يتلقفها بإذن الله ويمحقها.

وقرىء " تلقف " بالرفع على الاستئناف أو على الحال أي: ألقها متلقفة وقرىء " تلقف " بالتخفيف.

" صنعوا " ههنا بمعنى زوروا وافتعلوا كقوله تعالى: " تلقف ما يأفكون " الأعراف: 117 قرىء " كَيدُ سَحِرِ " بالرفع والنصب.

فمن رفع فعلى أن ما موصولة.

ومن نصب فعلى أنها كافة.

وقرىء: " كيد سحر " بمعنى: في سحر أو ذوي سحر.

أو هم لتوغلهم في سحرهم كأنهمالسحر بعينه وبذاته.

أو بين الكيد لأنه يكون سحراً وغير سحر كما تبين المائة بدرهم.

ونحوه: علم فقه وعلم نحو.

فإن قلت: لم وحد ساحر ولم يجمع.

قلت: لأن القصد في هذا الكلام إلى معنى الجنسية لا إلى معنى العدد فلو جمع لخيل أن المقصود هو العدد.

ألا ترى إلى قوله: " وَلا يُفلحُ الساحر " أي هذا الجنس.

فإن قلت: فلم نكر أولاً وعرف ثانياً.

قلت: إنما نكر من أجل تنكير المضاف لا من أجل تنكيره في نفسه كقول العَجاج: في سَعي دُنيَا طَالَمَا قَد مَدت وفي حديث عمر رضي الله عنه: لا في أمر دنيا ولا في أمر آخرة المراد تنكير الأمر كأنه قيل: إن ما صنعوا كيد سحري.

وفي سعي دنيوي.

وأمر دنيوي وأخروي " حَيث أَتَى " كقولهم: حيث سير وأية سلك وأينما كان.

" فألقى السحرة سجداً قالوا ءامنا برب هرون وموسى ".

سبحان الله ما أعجب أمرهم.

قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ثم ألقوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر والسجود فما أعظم الفرق بين الإلقاءين وروي: أنهم لم يرفعوا رؤوسهم حتى رأو الجنة والنار ورأوا ثواب أهلها.

وعن عكرمة: لما خروا سجداً أراهم الله في سجودهم منازلهم التي يصيرون إليها في الجنة.

" قال ءامنتم له قبل أن ءاذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى ".

" لكبَيركُم " لعظيمكم يريد: أنه أسحرهم وأعلاهم درجة في صناعتهم.

أو لمعلمكم من قول أهل مكة للمعلم: أمرني كبيري وقال لي كبيري: كذا يريدون معلمهم وأستاذهم في القرآن وفي كل شيء.

قرىء " فلأقطعن " " ولأصلبن " بالتخفيف والقطع من خلاف: أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى لأن كلى واحد من العضوين خالف الآخر بأن هذا يد وذاك رجل وهذا يمين وذاك شمال.

و " من " لابتداء الغاية.

لأن القطع مبتدأ وناشيء من مخالفة العضو العضو لا من وفاقه إياه.

ومحل الجار والمجرور النصب على الحال أي: لأقطعنها مختلفات لأنها إذا خالف بعضها بعضاً فقد اتصفت بالاختلاف.

شبه تمكن المصلوب في الجذع بتمكن الشيء الموعى في وعائه فلذلك قيل: " فِى جُذُوع اَلنخَلِ ".

" أَينا " يريد نفسه لعنه الله وموسى صلوات اللّه عليه بدليل قوله: " ءامنتم له " واللام مع الإيمان في كتاب الله لغير الله تعالى كقوله تعالى: " يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين " التوبة: 61 وفيه نفاجة باقتداره وقهره وما ألفه وضرى به: من تعذيب الناس بأنواع العذاب.

وتوضيع لموسى عليه السلام واستضعاف له مع الهزء به لأن موسى لم يكن قط من التعذيب في شيء.

" قَالُوا لَن نُؤثرَكَ عَلى مَا جَاءنَا مِن اَلبيِنَت وَالذَي فَطَرَنَا فَاَقضِ مَا أَنتَ قَاض إنَمَا تَقضِى هذه اَلحيوَةَ اَلدنياَ إنا ءامنا بربنَا ليغفرَ لَنَا خَطينَا وَما أكرهتنا عليه مِنَ السِحر ًواللهُ خَير وَأَبقى إنَهُ مَن يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ومن يأته مؤمناً قد عمل الصلحت فأولئك لهم الرجت العلى جنت عدن تجري من تحتها الأنهر خلدين فيها وذلك جزاء من تزكى "." والذي فطرنا " عطف على ما جاءنا أو قسم.

قرىء " تقضى هذه الحيوة الدنيا " ووجهها أن الحياة في القراءة المشهورة منتصبة على الظرف فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به كقولك في " صمت يوم الجمعة ": " صيم يوم الجمعة " وروي: أن السحرة - يعني رؤوسهم - كانوا اثنين وسبعين: الاثنان من القبط والسائر من بني إسرائيل وكان فرعون أكرههم على تعلم السحر.

وروي: أنهم قالوا لفرعون: أرنا موسى نائماً ففعل فوجدوه تحرسه عصاه فقالوا: ما هذا بسحر الساحرة لأن الساحر إذا نام بطل سحره فأبى إلا أن يعارضوه " تَزَكى " تطهر من أدناس الذنوب.

وعن ابن عباس: قال لا إله إلا اللّه.

قيل في هذه الآيات الثلاث: هي حكاية قولهم.

وقيل: خبر من اللّه لا على وجه الحكاية.

" ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخف دركاً ولا تخشى فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم وأضل فرعون قومه وما هدى ".

" فاضرِت لهَم طَرِيقاً " فاجعل لهم من قولهم: ضرب له في ماله سهما.

وضرب اللبن: عمله.

اليبس: مصدر وصف به.

يقال: يبس يبساً ويبساً ونحوهما: العدم والعدم.

ومن ثم وصف به المؤنث فقيل: شاتنا يبس وناقتنا يبس: إذا جف لبنها.

وقرىء: " يبساً " و " يابساً " ولا يخلو اليبس من أن يكون مخففاً عن اليبس.

أو صفه على فعل.

أو جمع يابس كصاحب وصحب وصف به الواحد تأكيداً كقوله ومعي جياعاً جعله لفرط جوعه كجماعة جياع " لا تَخَافَا " حال من الضمير في " فاضرب " وقرىء " لا تخف " على الجواب.

وقرأ أبو حيوة " دركاً " بالسكون.

والدرك والدرك: اسمان من الإدراك أي: لا يدركك فرعون وجنوده ولا يلحقونك.

في " وَلا تخشَى " إذا قرىء: " لا تخف " ثلاثة أوجه: أن يستأنف كأنه قيل وأنت لا تخشى أي: ومن شأنك أنك آمن لا تخشى وأن لا تكون الألف المنقلبة عن الياء هي لام الفعل ولكن زائدة للإطلاق من أجل الفاصلة كقوله: " فأضلونا السبيلا " الأحزاب: 67 " وتظنون بالله الظنونا " الأحزاب: 10 وأن يكون مثله قوله: كَأَن لَم تَرَى قَبلِي أسيراً يَمَا نِيَاً " مَا غَشيهمُ " من باب الاختصار.

ومن جوامع الكلم التي تستقل مع قلتها بالمعاني الكثيرة أي: غشيهم ما لا يعلم كنهه إلا الله.

وقرىء: " فغشاهم من اليم ما غشاهم " والتغشية: التغطية.

وفاعل غشاهم: إما اللّه سبحانه.

أو ما غشاهم.

أو فرعون لأنه الذي ورط جنوده وتسبب لهلاكهم.

وقوله: " وَمَا هدى " تهكم به في قوله: " وما أهديكم إلا سبيل الرشاد " غافر: 29.

" يبني إسرءيل قد أنجينكم من عدوكم ووعدنكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبت ما رزقنكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى ".

" يبني إسرءيل " خطاب لهم بعد إنجائهم من البحر وإهلاك آل فرعون وقيل: هو للذين كانوا منهم في عهد رسول اللّه صلى الله عليه وسلم من الله عليهم بما فعل بآبائهم والوجه هو الأول أي: قلنا يا بني إسرائيل وحذف القول كثير في القرآن.

وقرىء " أنجيتكم " إلى " رزقتكم " وعلى لفظ الوعد والمواعدة.

وقرىء " الأيمن " بالجر على الجوار نحو " جحر ضب خرب ".

ذكرهم النعمة في نجاتهم وهلاك عدوهم وفيما واعد موسى صلوات الله عليه من المناجاة بجانب الطور وكتب التوراة في الألواح.

وإنما عدى المواعدة إليهم لأنها لابستهم واتصلت بهم حيث كانت لنبيهم ونقبائهم وإليهم رجعت منافعها التي قام بها دينهم وشرعهم وفيما أفاض عليهم من سائر نعمه وأرزاقه أو لا تطغوا فيه طغيانهم في النعمة: أن يتعدوا حدود الله فيها بأن يكفروها ويشغلهم اللهو والتنعم عن القيام بشكرها وأن ينفقوها في المعاصي: وأن يزووا حقوق الفقراء فيها وأن يسرفوا في إنفاقها وأن يبطروا فيها ويأشروا ويتكبروا.

قرىء " فَيَحِل " وعن عبد الله " لا يحلن " " وَمَن تحلِل " المكسور في معنى الوجوب من حل الذين يحل إذا وجب أداؤه.

ومنه قوله تعالى: " حتى يبلغ الهدي محله " البقرة: 196 والمضموم في معنى النزول.

وغضب الله: عقوباته ولذلك وصف بالنزول " هَوَى " هلك.

وأصله أن يسقط من جبل فيهلك.

قالت: ويقولون: هوت أث.

أو سقط سقوطاً لا نهوض بعده.

" وإني لَغَفَار لِمَن تَابَ وءامنَ وَعملَ صَلِحاُ ثمَ اهتدى " الاهتداء: هو الاستقامة والثبات على الهدى المذكور وهو التوبة والإيمان والعمل الصالح ونحوه قوله تعالى: " إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا " فصلت: 30 وكلمة التراخي دلت على تباين المنزلتين دلالتها على تباين الوقتين في " جاءني زيد ثم عمرو " أعني أن منزلة الاستقامة على الخير مباينة لمنزلة الخير نفسه لأنها أعلى منها وأفضل.

" وَما أَعجَلَك عَن قَومكَ يمُوسَى قَالَ هُم أولاء عَلى أَثَرِى وَعَجلت إلَيك رَب لِتَرضَى ".

" وَما أَعجَلَك " أي شيء عجل بك عنهم على سبيل الإنكار وكان قد مضى مع النقباء إلى الطور على الموعد المضروب.

ثم تقدمهم شوقاً إلى كلام ربه وتنجز ما وعد به بناء على اجتهاده وظنه أن ذلك أقرب إلى رضا الله تعالى.

وزل عنه أنه عز وجل ما وقت أفعاله إلا نظراً إلى دواعي الحكمة وعلماً بالمصالح المتعلقة بكل وقت فالمراد بالقوم: النقباء.

وليس لقول من جوز أن يراد جميع قومه وأن يكون قد فارقهم قبل الميعاد وجه صحيح يأباه قوله: " هُم أُولاء على أَثَرِى " وعن أبي عمرو ويعقوب " إثري " بالكسر وعن عيسى بن عمر " أُثرى " بالضم.

وعنه أيضاً: " أولى " بالقصر.

والإثر أفصح من الأثر.

وأما الأثر فمسموع في فرند السيف مدون في الأصول يقال: إثر السيف وأثره وهو بمعنى الأثر غريب.

فإن قلت: " وَمَا أَعجلكَ " سؤال عن سبب العجلة فكان الذي ينطبق عليه من الجواب أن يقال: طلب زيادة رضاك أو الشوق إلى كلامك وتنجز موعدك.

وقوله: " هُم أُولاء على أَثَرِى " كما ترى غير منطبق عليه.

قلت: قد تضمن ما واجهه به رب العزة شيئين أحدهما: إنكار العجلة في نفسها.

والثاني: السؤال عن سبب المستنكر والحامل عليه فكان أهم الأمرين إلى موسى بسط العذر وتمهيد العلة في نفس ما أنكر عليه فاعتل بأنه لم يوجد مني إلا تقدم يسير مثله لا يعتد به في العادة ولا يحتفل به.

وليس بيني وبين من سبقته إلا مسافة قريبة يتقدم بمثلها الوفد رأسهم ومقدمهم ثم عقبه بجواب السؤال عن السبب فقال: " وَعَجِلتُ إليك رَب لترضى " ولقائل أن يقول: حار لما ورد عليه من التهيب لعتاب الله فأذهله ذلك عن الجواب المنطبق المرتب على حدود الكلام.

" قَالَ فإنَا قَد فَتَنَا قَومَكَ مِن بَعدِكَ وَأَضَلهم السامرى ".

أراد بالقوم المفتونين: الذي خلفهم مع هرون وكانوا ستمائة ألف ما نجا من عبادة العجل منهم إلا اثنا عشر ألفاً.

فإن قلت: في القصة أنهم أقاموا بعد مفارقته عشرين ليلة وحسبوها أربعين مع أيامها وقالوا: قد أكملنا العدة ثم كان أمر العجل بعد ذلك فكيف التوفيق بين هذا وبين قوله تعالى لموسى عند مقدمه " فَإِنَا قَد فَتَنا قوَمَكَ " قلت: قد أخبر الله تعالى عن الفتنة المترقبة.

بلفظ الموجودة الكائنة على عادته.

أو افترص السامري غيبته فعزم على إضلالهم غب انطلاقه وأخذ في تدبير ذلك.

فكان بدء الفتنة موجوداً.

قرىء: " وَأَضَلهُمُ السامِرِي " أي وهو أشدهم ضلالاً: لأنه ضال مضل وهو منسوب إلى قبيلة من بني إسرائيل يقال لها السامرة.

وقيل: السامرة قوم من اليهود يخالفونهم في بعض دينهم: وقيل كان من أهل باجرما.

وقيل: كان علجاً من كرمان.

واسمه موسى بن ظفر وكان منافقاً قد أظهر الإسلام وكان من قوم يعبدون البقر.

" فَرَجَعَ مُوسَى إلى قَومِهِ غَضبن أَسِفاً قَالَ يقَوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتكم موعدي قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفنها فكذلك ألقى السامري فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي ".

الأسف: الشديد الغضب.

ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في موت الفجأة.

" رحمة للمؤمن وأخذة أسف للكافر " وقيل: الحزين.

فإن قلت: متى رجع إلى قومه.

قلت: بعد ما استوفى الأربعين: ذا القعدة وعشر ذي الحجة.

وعدهم الله سبحانه أن يعطيهم التوراة التي فيها هدى ونور ولا وعد أحسن من ذاك وأجمل حكي لنا أنها كانت ألف سورة كل سورة ألف آية يحمل أسفارها سبعون جملاً " العهد " الزمان يريد: مدة مفارقته لهم.يقال: طال عهدي بك أي: طال زماني بسبب مفارقتك.

وعدوه أن يقيموا على أمره وما تركهم عليه من الإيمان فأخلفوا موعده بعبادتهم العجل " بملكنا " قرىء بالحركات الثلاث أي: ما أخلفنا موعدك بأن ملكنا أمرنا أي: لو ملكنا أمرنا وخلينا وراءنا لما أخلفناه ولكنا غلبنا من جهة السامري وكيده.

أي: حملنا أحمالاً من حلي القبط التي استعرناها منهم.

أو أرادوا بالأوزار: أنها آثام وتبعات لأنهم كانوا معهم في حكم المستأمنين في دار الحرب.

وليس للمستأمن أن يأخذ مال الحربي على أن الغنائم لم تكن تحل حينئذ " فَقَذَفنها " في نار السامري التي أوقدها من الحفرة وأمرنا أن نطرح فيها الحلي وقرىء: " حملنا " " فكذلك ألقى السامري " أراهم أنه يلقي حلياً في يده مثل ما ألقوا.

وإنما ألقى التربة التي أخذها من موطيء حيزوم فرس جبريل.

أوحى إليه وليه الشيطان أنها إذا خالطت.

مواتاً صار حيواناً " فأخرَجَ لَهُم " السامري من الحفرة عجلاً خلقه الله من الحلي التي سبكتها النار يخور كما تخور العجاجيل.

فإن قلت: كيف أثرت تلك التربة في إحياء الموات قلت: أما يصح أن يؤثر الله سبحانه روح القدس بهده الكرامة الخاصة كما آثره بغيرها من الكرامات.

وهي أن يباشر فرسه بحافره تربة إذا لاقت تلك التربة جماداً أنشأه الله إن شاء عند مباشرته حيواناً ألا ترى كيف أنشأ المسيح من غير أب عند نفخه فى الدرع.

فإن قلت: فلم خلق اللّه العجل من الحلي حتى صار فتنة لبني إسرائيل وضلالاً قلت: ليس بأول

محنة محن اللّه بها عباده ليثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين.

ومن عجب من خلق العجل فليكن من خلق إبليس أعجب.

والمراد بقوله: " فَإنَا قَد فَتَنا قوَمَكَ " هو خلق العجل للامتحان أي: امتحناهم بخلق العجل وحملهم السامري على الضلال وأوقعهم فيه حين قال لهم: " هَذَا إلَهُكم وَإلَهُ مُوسى فَنسَىَ " أي: فنسي موسى أن يطلبه ههنا وذهب يطلبه عند الطور.

أو فنسي السامري: أي ترك ما كان عليه من الإيمان الظاهر.

" أَفلا يَرَونَ أَلا يرَجعُ إلَيهم قولاً وَلا يملكُ لَهم ضَرَاً وَلا نفعاً وَلقد قَالَ لهُم هَرُونُ مِن قبلُ يقومِ إِنَّمَا فُتِنتم بِه وَإن ربكُمُ الَرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري قَالوُ لن نبرح عَليه عكفين حَتَى يرجع إلينا موسى ".

" يرجع " من رفعه فعلى أن أن مخففة من الثقيلة ومن نصب فعلى أنها الناصبة للأفعال " مِن قبل " من قبل أن يقول لهم السامري ما قال كأنهم أول ما وقعت عليه أبصارهم حين طلع من الحفرة افتتنوا به واستحسنوه فقبل أن ينطق السامري بادرهم هرون عليه السلام بقوله: " إِنمَا فُتِنتُم به وَإن ربكُمُ الرحمن ".

" قال يهرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن أفعصيت أمري ".

لا مزيدة.

والمعنى ما منعك أن تتبعني في الغضب لله وشدة الزجر عن الكفر والمعاصي وهلا

قاتلت من كفر بمن آمن ومالك لم تباشر الأمر كما كنت أباشره أنا لو كنت شاهداً أو مالك لم تلحقني.

" قَالَ يبنومَ لا تَأخذ بِلحيتي ولا برأسى إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرءيل ولم ترقب قولى ".

قرىء: " بِلحِيتى " بفتح اللام وهي لغة أهل الحجاز كان موسى صلوات اللّه عليه رجلاَ حديداً مجبولاً على الحدة والخشونة والتصلب في كل شيء شديد الغضب للّه ولدينه فلم يتمالك حين رأى قومه يعبدون عجلاً من دون الله بعد ما رأوا من الآيات العظام أن ألقى ألواح التوارة لما غلب ذهنه من الدهشة العظيمة غضبا للّه واستنكافاً وحمية وعنف بأخيه

وخليفته على قومه فأقبل عليه إقبال العدوّ المكاشف قابضاً على شعر رأسه - وكان أفرع - وعلى شعر وجهه يجره إليه.

أي: لو قاتلت بعضهم ببعض لتفرقوا وتفانوا فاستأنيتك أن تكون أنت المتدارك بنفسك المتلافي برأيك وخشيت عتابك على اطراح ما وصيتني به من ضمّ النشر وحفظ الدهماء ولم يكن لي بد من رقبة وصيتك والعمل على موجبها.

" قَالَ فَمَا خطبُك يسمرى قالَ بَصُرتُ بمَالم يبصرُوا بِهِ فَقَبَضتُ قبضةً من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى ".

الخطب: مصدر خطب الأمر إذا طلبه فإذا قيل لمن يفعل شيئاً: ما خطبك فمعناه: ما طلبك له قرىء: " بصرتُ بمَا لم يبصرُوا بِهِ " بالكسر والمعنى: علمت ما لم تعلموه وفطنت ما لم تفطنوا له.

قرأ الحسن " قبضةً " بضم القاف وهي اسم المقبوض كالغرفة والمضغة.

وأما القبضة فالمرة من القبض وإطلاقها على المقبوض من تسمية المفعول بالمصدر كضرب الأمير.

وقرأ أيضاً: فقبصت قبصة بالصاد المهملة.

الضاد: بجميع الكف.

والصاد: بأطراف الأصابع.

ونحوهما: الخضم والقضم: الخاء بجميع الفم والقاف بمقدمه قرأ ابن مسعود: " من أثر فرس الرسول " فإن قلت: لم سماه الرسول دون جبريل وروح القدس.

قلت: حين حل ميعاد الذهاب إلى الطور أرسل الله إلى موسى جبريل راكب حيزوم فرس الحياة ليذهب به فأبصره السامري فقال: إن لهذا شأناً فقبض قبضة من تربة موطئه فلما سأله موسى عن قصته قال: قبضت من أثر فرس المرسل إليك يوم حلول الميعاد.

ولعله لم يعرف أنه جبريل.

" قال فَاذهب فإن لَكَ فِى الحيوة أَن تَقُولَ لا مِسَاس وإن لك موعداً لن تخلفه وَانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفاً ".

عوقب في الدنيا بعقوبة لا شيء أطم منها وأوحش وذلك أنه منع من مخالطة الناس منعاً كلياً وحرم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته ومواجهته وكل ما يعايش به الناس بعضهم بعضاً وإذا

اتفق أن يماس أحداً رجلاً أو امرأة حم الماس والممسوس فتحامى الناس وتحاموه وكان يصيح: لا مساس وعاد في الناس أوحش من القاتل اللاجىء إلى الحرم ومن الوحشي النافر في البرية.

ويقال: إن قومه باق فيهم ذلك اليوم.

وقرىء: " لا مِسَاسَ " بوزن فجار.

ونحوه قولهم في الظباء: إذا وردت الماء فلا عباب وإن فقدته فلا أباب: وهي أعلام للمسة والعبة والأبة وهي المرة من الأب وهو الطلب " لَن تُخْلَفه " أي لن يخلفك الله موعده الذي وعدك على الشرك والفساد في الأرض ينجزه لك في الآخرة بعد ما عاقبك بذلك في الدنيا فأنت ممن خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين.

وقرىء: " لن تخلفه " وهذا من أخلفت الموعد إذا وجدته خلفاً.

قال الأعشى: أثوَى وَأقصَرَ لَيلَهُ لِيُزَودَا فَمَضَى وَأخلَفَ مِن قَتِيلَةَ مَوعِداً وعن ابن مسعود نخلفه بالنون أي: لن يخلفه اللّه كأنه حكى قوله عز وجل كما في " لأهب لك " مريم: 19.

" ظلّت " وظلت وظللت والأصل ظللت فحذفوا اللام الأولى ونقلوا حركتها إلى الظاء ومنهم من لم ينقل.

" لنحرقنه " ولنحرقنه ولنحرقنه.

وفي حرف ابن مسعود " لنذبحنه " ولنحرقنه ولنحرقنه القراءتان من الإحراق.

وذكر أبو علي الفارسي في لنحرقنه أنه يجوز أن يكون حرق مبالغة في حرق إذا برد بالمبرد.

وعليه القراءة الثالثة وهي قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه " لننسفنه " بكسر السين وضمها وهذه عقوبة ثالثة وهي إبطال ما افتتن به وفتن وإهدار سعيه وهدم مكره " ومكروا ومكر اللّه واللّه خير الماكرين " آل عمران: 54.

" إنمَا إلهكم اللَه الذى لا إله إلا هو وسع كل شيءٍ علماً " قرأ طلحة: اللّه الذي لا إله إلا هو الرحمن رب العرش الكريم " وَسعَ كُلَّ شيءٍ علماً " وعن مجاهد وقتادة: وسع ووجهه أن وسع متعد إلى مفعول واحد وهو " كل شيء ".

وأما " علماً " فانتصابه على التمييز.

وهو في المعنى فاعل فلما ثقل نقل إلى التعدية إلى مفعولين فنصبهما معاً على المفعولية لأن المميز فاعل في المعنى كما تقول في خاف زيد عمراً خوّفت زيداً عمراً فترد بالنقل ما كان فاعلاً مفعولاً.

" كَذَلِكَ نَقصُ عليك مِن أَنباء مَا قد سَبق وَقَد ءاتينك مِن لدنّا ذِكراً مَن أَعرَضَ عنه يحمل يوم القيامة وزراً خلدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملاً ".

الكاف في " كذلك " منصوب المحل وهذا موعد من اللّه عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم أي: مثل ذلك الاقتصاص ونحو ما اقتصصنا عليك قصة موسى وفرعون نقص عليك من سائر أخبار الأمم وقصصهم وأحوالهم تكثيراً لبيناتك وزيادة في معجزاتك وليعتبر السامع ويزداد المستبصر في دينه بصيرة.

وتتأكد الحجة على من عاند وكابر وأن هذا لذكر الذي آتيناك يعني القرآن مشتملاً على هذه الأقاصيص والأخبار الحقيقة بالتفكر والاعتبار لذكر عظيم وقرآن كريم فيه النجاة والسعادة لمن أقبل عليه ومن أعرض عنه فقد هلك شقي.

يريد بالوزر: العقوبة الثقيلة الباهظة سماها وزراً تشبيها في ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها بالحمل الذي يفدح الحامل وينقض ظهره ويلقي عليه بهره: أو لأنها جزاء الوزر وهو الإثم.

وقرىء: " يحمل " جمع.

" خَلِدِينَ " على المعنى لأن من مطلق متناول لغير معرض واحد.

وتوحيد الضمير في أعرض وما بعده للحمل على اللفظ.

ونحوه قوله تعالى: " ومن يعص اللّه ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها " الجن: 23 فيه أي في ذلك الوزر.

أو في احتماله " وَسَاء " في حكم بئس.

والضمير الذي فيه يجب أن يكون مبهماً يفسره " حملاً " والمخصوص بالذم محذوف لدلالة الوزر السابق عليه تقديره: ساء حملاً وزرهم كما حذف في قوله تعالى: " نعم العبد إنه أواب " ص: 0 44 أيوب هو المخصوص بالمدح.

ومنه قوله تعالى: " وساءت مصيرا " النساء: 97 115 أي وساءت مصيراً جهنم.

فإن قلت: اللام في الهم ما هي وبم تتعلق قلت: هي للبيان كما في " هيت لك " يوسف: 23.

فإن قلت: ما أنكرت أن يكون في ساء ضمير الوزر قلت: لا يصح أن يكون في ساء وحكمه حكم بئس ضمير شيء بعينه غير مبهم فإن قلت: فلا يكن ساء الذي حكمه حكم بئس وليكن ساء الذي منه قوله تعالى: " سيئت وجوه الذين كفروا " الملك بمعنى أهم وأحزن قلت: كفاك صاداً عنه أن يؤول كلام الله إلى قولك: وأحزن الوزر لهم يوم القيامة حملاً وذلك بعد أن تخرج عن عهدة هذا اللام وعهدة هذا المنصوب.

" يوم يُنفَخُ فِى الصُور وَنحشُرُ المُجرِمِينَ يومئذ زرقاً يَتَخفتوُنَ بينَهُم إِن لبثتُم إلا عَشراً نحنُ أَعلَمُ بمَا يَقُولوُنَ إذ يَقُولُ أمثَلُهُم طَرِيقَةً إِن لبثتم إِلا يوماً ".

أسند النفخ إلى الآمر به فيمن قرأ: ننفخ بالنون.

أو لأن الملائكة المقربين وإسرافيل منهم بالمنزلة التي هم بها من رب العزة فصح لكرامتهم عليه وقربهم منه أن يسند ما يتولونه إلى ذاته تعالى.

وقريء: " ينفخ " بلفظ ما لم يسم فاعله.

وينفخ ويجشر بالياء المفتوحة على الغيبة والضمير لله عز وجل أو لإسرافيل عليه السلام.

وأما يحشر المجرمون فلم يقرأ به إلا الحسن.

وقرىء: " في الصور " بفتح الواو جمع صورة وفي الصور: قولان أحدهما: أنه بمعنى الصور وهذه القراءة تدل عليه.

والثاني: أنه القرن.

قيل: في الزرق قولان أحدهما: أن الزرقة أبغض شيء من ألوان العيون إلى العرب لأن الروم أعداؤهم وهم زرق العيون ولذلك قالوا في صفة العدوّ: أسود الكبد أصهب السبال أزرق العين

والثاني: أن المراد العمى لأن حدقة من يذهب نور بصره تزراق يتخافتون تخافتهم لما يملأ صدورهم من الرعب والهول يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا: إما لما يعاينون من الشدائد التي تذكرهم أيام النعمة والسرور فيتأسفون عليها ويصفونها بالقصر لأن أيام السرور قصار وإما لأنها ذهبت عنهم وتقضت والذاهب وإن طالت مدته قصير بالانتهاء ومنه توقيع عبد الله بن المعتز تحت " أطال الله بقاءك " " كفى بالانتهاء قصراً " وإما لاستطالتهم الآخرة وأنها أبد سرمد يستقصر إليها عمر الدنيا ويقال لبث أهلها فيها بالقياس إلى لبثهم في الآخرة.

وقد استرجح الله قول من يكون أشدّ تقاولاً منهم في قوله تعالى: " إذ يَقُولُ أمثَلُهُم طَرِيقَةً إن لبثتم إلا يَوماً " ونحوه قوله تعالى: " قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فسأل العادين " المؤمنون: 112 - 113 وقيل: المراد لبثهم في القبور.

ويعضده قوله عز وجل: " ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون " الروم: 55 " وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب اللّه إلى يوم البعث " الروم: 56.

" ويسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ".

" يَنسِفُهَا " يجعلها كالرمل ثم يرسل عليها الرياح فتفرّقها كما يذرّى الطعام " فيَذرُهَا " أي فيذر مقارها ومراكزها.

أو يجعل الضمير للأرض وإن لم يجر لها ذكر كقوله تعالى: " ما ترك على ظهرها من دابة " فاطر: 45.

فإن قلت: قد فرقوا بين العوج والعوج فقالوا: العوج بالكسر في المعاني.

والعوج بالفتح في الأعيان والأرض عين فكيف صح فيها المكسور العين قلت: اختيار هذا اللفظ له موقع حسن بديع في وصف الأرض بالاستواء والملاسة ونفي الاعوجاج عنها على أبلغ ما يكون وذلك أنك لو عمدت إلى قطعة أرض فسويتها وبالغت في التسوية على عينك وعيون البصراء من الفلاحة واتفقتم على أنه لم يبق فيها اعوجاج قط ثم استطلعت رأي المهندس فيها وأمرته أن يعرض استواءها على المقاييس الهندسية لعثر فيها على عوج في غير موضع لا يدرك ذلك بحاسة البصر ولكن بالقياس الهندسي فنفى الله عز وعلا ذلك العوج الذي دقّ ولطف عن الادراك اللهم إلا بالقياس الذي يعرفه صاحب التقدير والهندسة وذلك الاعوجاج لما لم يدرك إلا بالقياس دون الإحساس لحق بالمعاني فقيل فيه: عوج بالكسر.

الأمت: النتو اليسير يقال: مد حبله حتى ما فيه أمت.

" يومئَذٍ يتبَعُونَ اَلدَاعِيَ لا عِوَجَ له وَخَشَعَتِ اَلأصَوَاتُ لِلرحمنِ فلا تسمع إلا همساً يومئذ لا تنفع الشَفَعَةُ إلا مَنْ أذنَ لَهُ اَلرحمن وَرَضَي لَهُ قولاً "

أضاف اليوم إلى وقت نسف الجبال في قوله: " يَومئذ " أي يوم إذ نسفت ويجوز أن يكون بدلاً بعد بدل من يوم القيامة.

والمراد: الداعي إلى المحشر.

قالوا: هو إسرافيل قائماً على صخرة بيت المقدس يدعو الناس فيقبلون من كل أوب إلى صوبه لا يعدلون " لاعِوَجَ له " أي لا يعوجّ له مدعوّ بل يستوون إليه من غير انحراف متبعين لصوته

أي: خفضت الأصوات من شدة الفزع وخفتت

" فلا تسمع إلا همساً " وهو الركز الخفي.

ومنه الحروف المهموسة.

وقيل: هو من همس الإبل وهو صوت أخفافها إذا مشت أي: لا يسمع إلا خفق الأقدام ونقلها إلى المحشر " مَن " يصلح أن يكون مرفوعاً ومنصوباً فالرفع على البدل من الشفاعة بتقدير حذف المضاف أي: لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة من " أذن لَهُ اَلرحمن " والنصب على المفعولية.

ومعنى أذن له " وَرضى له " لأجله.

أي: أذن للشافع ورضي قوله لأجله.

ونحو هذه اللام في قوله تعالى: " وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه " الأحقاف: 11.

" يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً " أي يعلم ما تقدمهم من الأحوال وما يستقبلونه ولا يحيطون بمعلوماته علماً.

" وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلماً " المراد بالوجوه وجوه العصاة وأنهم إذا عاينوا - يوم القيامة - الخيبة والشقوة وسوء الحساب صارت وجوههم عانية أي ذليلة خاشعة مثل وجوه العناة وهم الأسارى.

ونحوه قوله تعالى: " فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا " الملك: 27 " ووجوه يومئذ باسرة " القيامة: 24.

وقوله تعالى: " وَقَد خاب " وما بعده اعتراض كقولك: خابوا وخسروا.

وكل من ظلم فهو خائب خاسر.

الظلم: أن يأخذ من صاحبه فوق حقه.

والهضم: أن يكسر من حق أخيه فلا يوفيه له كصفة المطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ويسترجحون.

وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون.

أي: فلا يخاف جزاء ظلم ولا هضم لأنه لم يظلم ولم يهضم.

وقرىء: " فلا يخف " على النهي.

"وَكَذَلِكَ أَنزلنَهُ قرءاناً عربياً وَصَرفنَا فِيهِ مِنَ الوعيد لعلَّهُم يَتَقُونَ أو يُحدِثُ لَهم ذكراً " " وكذلِكَ " عطف على كذلك نقص أي: ومثل ذلك الإنزال وكما أنزلنا عليك هؤلاء الآيات المضمنة للوعيد أنزلنا القرآن كله على هذه الوتيرة.

مكرّرين فيه آيات الوعيد ليكونوا بحيث يراد منهم ترك المعاصي أو فعل الخير والطاعة.

والذكر - كما ذكرنا - يطلق على الطاعة والعبادة.

وقرىء نحدث وتحدث بالنون والتاء أي: تحدث أنت.

وسكن بعضهم الثاء للتخفيف كما في: فَاليَومَ أَشرب غَيرَ مستَحقِب إثماً مِنَ اللهِ وَلاَ واغِلِ " فَتعَلَى اللهِ المَلِكُ الحَق ولا تعجل بالقرءان من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل ربي زدنى علماً ".

" فتعَلَى الله الملك الحق " استعظام له ولما يصرف عليه عباده من أوامره ونواهيه ووعده ووعيده والإدارة بين ثوابه وعقابه على حسب أعمالهم وغير ذلك مما يجري عليه أمر ملكوته ولما ذكر القرآن وإنزاله قال على سبيل الاستطراد: وإذا لقنك جبريل ما يوحى إليك من القرآن فتأن عليه ريثما يسمعك ويفهمك.

ثم أقبل عليه بالتحفظ بعد ذلك.

ولا تكن قراءتك مساوقة لقراءته.

ونحوه قوله تعالى: " لا تحرك به لسانك لتعجل به " القيامة: 16.

وقيل معناه: لا تبلغ ما كان منه مجملاً حتى يأتيك البيان.

وقرىء: حتى تقضى إليك وحيه.

وقوله تعالى: " رب زدنيِ علماً " متضمن للتواضع لله تعالي والشكر له عندما علم من ترتيب التعلم أي علمتني يا رب لطيفة في باب التعلم وأدباً جميلاً ما كان عندي.

فزدني علماً إلى علم فإن لك في كل شيء حكمة وعلماً.

وقيل: ما أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم.

" وَلَقد عَهدنا إلى ءَادَمَ مِن قبلُ فَنسِىَ وَلَم نَجد لَه عزمَاً " يقال في أوامر الملوك ووصاياهم: تقدم الملك إلى فلان وأوعز إليه وعزم عليه وعهد إليه عطف الله سبحانه قصة آدم على قوله: " وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون " طه: 113 والمعنى: وأقسم قسماً لقد أمرنا أباهم آدم ووصيناه أن لا يقرب الشجرة وتوعدناه بالدخول في جملة الظالمين إن قربها وذلك من قبل وجودهم ومن قبل أن نتوعدهم فخالف إلى ما نهي عنه

وتوعد في ارتكابه مخالفتهم ولم يلتفت إلى الوعيد كما لا يلتفتون كأنه يقول: إن أساس أمر بني آدم على ذلك وعرقهم راسخ فيه.

فإن قلت: ما المراد بالنسيان قلت يجوز أن يراد النسيان الذي هو نقيض الذكر وأنه لم يعن بالوصية العناية الصادقة ولم يستوثق منها بعقد القلب عليها وضبط النفس حتى تولد من ذلك النسيان.

وأن يراد الترك وأنه ترك ما وصى به من الاحتراس عن الشجرة وأكل ثمرتها.

وقرىء فنسى أي: نساه الشيطان.

العزم: التصميم والمضيّ على ترك الأكل وأن يتصلب في ذلك تصلباً يؤيس الشيطان من التسويل له.

والوجود: يجوز أن يكون بمعنى العلم ومفعولاه له عَزماً وأن يكون نقيض العدم كأنه قال: وعدمنا له عزماً.

" وإذ قلنا للملائِكة اسجدوا لأدم فسجدوا إلا إبليس أبى " " إذ " منصوب بمضمر أي: واذكر وقت ما جرى عليه من معاداة إبليس ووسوسته إليه وتزيينه له الأكل من الشجرة وطاعته له بعد ما تقدّمت معه النصيحة والموعظة البليغة والتحذير من كيده حتى يتبين لك أنه لم يكن من أولي العزم والثبات.

فإن قلت: إبليس كان جنياً بدليل قوله تعالى: " أكان من الجن ففسق عن أمر ربه " الكهف: 50 فمن أين تناوله الأمر وهو للملائكة خاصة قلت كان في صحبتهم وكان يعبد الله عبادتهم فلما أمروا بالسجود لآدم والتواضع له كرامة له كان الجنى الذي معهم أجدر بأن يتواضع كما لو قام لمقبل على المجلس علية أهله وسراتهم كان القيام على واحد بينهم هو دونهم في المنزلة أوجب حتى إن لم يقم عنف.

وقيل له: قد قام فلان وفلان فمن أنت حتى تترفع عن القيام فإن قلت: فكيف صح استثناؤه وهو جني عن الملائكة قلت: عمل على حكم التغليب في إطلاق اسم الملائكة عليهم وعليه فأخرج

الاستثناء على ذلك كقولك: خرجوا إلا فلانة لامرأة بين الرجال " أبى " جملة مستأنفة كأنه جواب قائل قال: لم لم يسجد والوجه أن لا يقدّر له مفعول وهو السجود المدلول عليه بقوله: " فَسَجَدوا " وأن يكون معناه أظهر الإباء وتوقف وتثبط.

"فقلنا يا ءادم إن هذا عدوّ لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى " " فلا يُخرِجنكما " فلا يكونن سبباً لإخراجكما.

وإنما أسند إلى آدم وحده فعل الشقاء دون حوّاء بعد إشراكهما في الخروج لأن في ضمن شقاء الرجل وهو قيم أهله وأميرهم شقاءهم كما أن في ضمن سعادته سعادتهم فاختصر الكلام بإسناده إليه دونها.

مع المحافظة على الفاصلة.

أو أريد بالشقاء التعب في طلب القوت وذلك معصوب برأس الرجل وهو راجع إليه.

وروي أنه أهبط إلى آدم ثور أحمر فكان يحرث عليه ويمسح العرق من جبينه.

"إِنَ لَكَ ألا تجوع فيها ولا تعرى وَأَنكَ لا تَظمَؤا فِيهَا وَلا تضَحى ".

قرىء " وإنك " بالكسر والفتح.

ووجه الفتح العطف على أن لا تجوع.

فإن قلت: إن لا تدخل على أن فلا يقال: إن أن زيداً منطلق والواو نائبة عن إن وقائمة مقامها فلم أدخلت عليها قلت: الواو لم توضع لتكون أبداً نائبة عن إن إنما هي نائبة عن كل عامل فلما لم تكن حرفاً موضوعاً للتحقيق خاصة - كإن - لم يمتنع اجتماعهما كما امتنع اجتماع إن وأن.

الشبع والريّ والكسوة والكنّ: هي الأقطاب التي يدور عليها كفاف الإنسان فذكره استجماعها له في الجنة وأنه مكفيّ لا يحتاج إلى كفاية كاف ولا إلى كسب كاسب كما يحتاج إلى ذلك أهل الدنيا وذكرها بلفظ النفي لنقائضها التي هي الجوع والعري والظمأ والضحو ليطرق سمعه بأسامي أصناف الشقوة التي حذره منها حتى يتحامى السبب الموقع فيها كراهة لها.

"فَوَسوَسَ إِليهِ اَلشيطانُ قَالَ يا آدم هَل أَدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى " فإن قلت: كيف عدّى وسوس تارة باللام في قوله: " فوسوس لهما الشيطان " الأعراف: 20 وأخرى بإلى قلت: وسوسة الشيطان كولولة الثكلى ووعوعة الذئب ووقوقة الدجاجة في أنها حكايات للأصوات وحكمها حكم صوت وأجرس. ومنه: وسوس المبرسم وهو موسوس بالكسر.

والفتح لحن. وأنشد ابن الأعرابي: وسوَسَ يَدعُو مُخلِصاً رَبَّ الفلق فإذا قلت: وسوس له فمعناه لأجله كقوله: أجرِس لَهَا يَا ابن أَبي كِبَاشِ ومعنى وسوس إليه أنهى إليه الوسوسة كقولك: حدّث إليه وأسرّ إليه.

أضاف الشجرة إلى الخلد وهو الخلود لأن من أكل منها خلد بزعمه كما قيل لحيزوم: فرس الحياة لأن من باشر أثره حيي " وَملكَ لا يبلى " دليل على قراءة الحسن بن عليّ وابن عباس رضي الله عنهم: " إلا أن تكونا ملكين " الأعراف: 20 بالكسر.

" فأكلا منها فبدت لهما سوأتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى " طفق يفعل كذا مثل: جعل يفعل وأخذ وأنشأ.

وحكمها حكم كاد في وقوع الخبر فعلاً مضارعاً وبينها وبينه مسافة قصيرة هي للشروع في أوّل الأمر.

وكاد لمشارفته والدنوّ منه.

قرىء " يخصفان " للتكثير والتكرير من خصف النعل وهو أن يخرز عليها الخصاف أي: يلزقان الورق بسوآتهما للتستر وهو ورق التين.

وقيل: كان مدوراً فصار على هذا الشكل من تحت أصابعهما.

وقيل: كان لباسهما الظفر فلما أصابا الخطيئة نزع عنهما وتركت هذه البقايا في أطراف الأصابع عن ابن عباس: لا شبهة في أن آدم لم يمتثل ما رسم اللّه له وتخطى فيه ساحة الطاعة وذلك هو العصيان.

ولما عصى خرج فعله من أن يكون فعلاً رشداً وخيراً فكان غياً لا محالة لأن الغيّ خلاف الرشد ولكن قوله: " وَعَصَى آدَمُ ربه فَغَوَى " بهذا الإطلاق وبهذا التصريح وحيث لم يقل: وزل آدم وأخطأ وما أشبه ذلك مما يعبر به عن الزلات والفرطات: فيه لطف بالمكلفين ومزجرة بليغة وموعظة كافة وكأنه قيل لهم: انظروا واعتبروا كيف نعيت على النبي المعصوم حبيب اللّه الذي لا يجوز عليه إلا اقتراف الصغيرة غير المنفرة زلته بهذه الغلطة وبهذا اللفظ الشنيع فلا تتهاونوا بما يفرط منكم من السيئات والصغائر فضلاً أن تجسروا على التورط في الكبائر.

وعن بعضهم فغوى فبشم من كثرة الأكل وهذا - وإن صح على لغة من يقلب الياء المكسور ما قبلها ألفاً فيقول في " فني وبقي ": فنا وبقا وهم بنوطيّ - تفسير خبيث.

" ثُمَّ اَجتباَهُ ربه فتاب عليه وهدى " فإن قلت: ما معنى " ثم اجتباه ربه " قلت: ثم قبله بعد التوبة وقرّبه إليه من جبى إليّ كذا فاجتبيته.

ونظيره: جليت عليّ العروس فاجتليتها.

ومنه قوله عز وجل " وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها " الأعراف: 203 أي هلا جبيت إليك فاجتبيتها.

وأصل الكلمة الجمع.

ويقولون: اجتبت الفرس نفسها إذا اجتمعت نفسها راجعة بعد النفار.

و " هدى " أي وفقه لحفظ التوبة وغيره من أسباب العصمة والتقوى.

" قَالَ اهبطا منها جميعاً بعضُكُم لبعِض عَدُو فَإما يَأتينكم مِنِى هدى فَمَنِ اَتَّبَعَ هُدَاىَ فلا يضلُّ ولا يَشقَى ".

لما كان آدم وحوّاء عليهما السلام أصلي البشر والسببين اللذين منها نشؤوا وتفرعوا: جعلا كأنهما البشر في أنفسهما فخوطبا مخاطبتهم فقيل: " فإما يَأتِيَنكم " على لفظ الجماعة.

ونظيره إسنادهم الفعل إلى السبب وهو في الحقيقة للمسبب " هُدى " كتاب وشريعة.

وعن ابن عباس: ضمن الله لمن اتبع القرآن أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآَخرة ثم تلا قوله: " فَمَنِ اتبَعَ هدَاىَ فلا يضلَ ولا يَشقى " والمعنى أن الشقاء في الآخرة هو عقاب من ضلّ في الدنيا عن طريق الدين فمن اتبع كتاب اللّه وامتثل أوامره وانتهى عن نواهيه نجا من الضلال ومن عقابه.

" وَمن أعرَضَ عَن ذكرِى فإنَ لِه معَيشَةَ ضَنكاً وَنحشره يوم القيامة أعمى قال ربّ لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ".

الضنك: مصدر يستوي في الوصف به المذكر والمؤنث.

وقرىء: ضنكى على فعلى.

ومعنى ذلك: أن مع الدين التسليم والقناعة والتوكل على الله وعلى قسمته فصاحبه ينفق ما رزقه بسماح وسهولة فيعيش عيشاً رافعاً كما قال عز وجل: " فلنحيينه حياة طيبة " النحل: 97 والمعرض عن الدين مستول عليه الحرص الذي لا يزال يطمح به إلى الازدياد من الدنيا مسلط عليه الشحّ الذي يقبض يده عن الإنفاق فعيشه ضنك وحاله مظلمة كما قال بعض المتصوّفة: لا يعرض أحد عن ذكر ربه إلا أظلم عليه وقته وتشوّش عليه رزقه.

ومن الكفرة من ضرب اللّه عليه الذلة والمسكنة لكفره.

قال اللّه تعالى: " وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات اللّه " البقرة: 61 وقال: " ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم " المائدة: 66 وقال: " ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض " الأعراف: 96 وقال: " استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً " نوح: 11 وقال: " وألو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقاً " الجن: 16 وعن الحسن: هو الضريع والزقوم في النار.

وعن أبي سعيد الخدري: عذاب القبر وقرىء " وَنحشره " بالجزم عطفاً على محل " فإن له معيشةً ضنكاً " لأنه جواب الشرط.

وقرىء: " ونحشره " بسكون الهاء على لفظ الوقف وهذا مثل قوله: " ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً " الإسراء: 97 وكما فسر الزرق بالعمى كَذَلِكَ أي مثل ذلك فعلت أنت ثم فسر بأن آياتنا أتتك واضحة مستنيرة فلم تنظر إليها بعين المعتبر ولم تتبصر.

وتركتها وعميت عنها فكذلك اليوم نتركك على عماك ولا نزيل غطاءه عن عينيك.

" كذَلِكَ نجزِى مَن أَسرَفَ ولم يُؤمِن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ".

لما توعد المعرض عن ذكره بعقوبتين: المعيشة الضنك في الدنيا وحشره أعمى في الآخرة - ختم آيات الوعيد بقوله: " ولعذاب الوعيد أشد وأبقى " كأنه قال: وللحشر على العمى الذي لا يزول أبداً أشدّ من ضيق العيش المنقضي.

أو أراد: ولتركنا إياه في العمى أشدّ وأبقى من تركه لآياتنا.

فاعل " لَم يهد " الجملة بعده يريد: ألم يهد لهم هذا بمعناه ومضمونه ونظيره قوله تعالى: " وتركنا عليه في الآخرين سلام على نوح في العالمين " الصافات: 79 أي تركنا عليه هذا الكلام.

ويجوز أن يكون فيه ضمير الله أو الرسول ويدل عليه القراءة بالنون.

وقرىء: " يمشُونَ " يريد أن قريشاً يتقلبون في بلاد عاد وثمود ويمشون " فِى مَسَاكنهم " ويعاينون آثار هلاكهم.

" ولولا كلمة سبقَت مِن ربك لكان لزاماً وأجل مسمى ".

الكلمة السابقة: هي العدة بتأخير جزائهم إلى الآخرة يقول: لولا هذه العدة لكان مثل إهلاكنا عاداً وثموداً لازماً لهؤلاء الكفرة.

واللزام: إما مصدر لازم وصف به وإما فعال بمعنى مفعل أي ملزم كأنه آلة اللزوم لفرط لزومه كما قالوا: لزاز خصم " وَأَجل مُسمى " لا يخلو من أن يكون معطوفاً على كَلمَة أو على الضمير في كان أي لكان الأخذ العاجل وأجل مسمى لازمين لهم كما كانا لازمين لعاد وثمود ولم ينفرد الأجل المسمى دون الأخذ العاجل.

" فاصبر علىَ مَا يَقُولُونَ وَسبح بِحمدِ ربك قَبل طلوع الشمسِ وَقبلَ غُروبهَا ومن ءاناء اللّيل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ".

" بِحَمدِ ربك " في موضع الحال أي: وأنت حامد لربك على أن وفقك للتسبيح وأعانك عليه والمراد بالتسبيح الصلاة.

أو على ظاهره قدم الفعل على الأوقات أوّلاً والأوقات على الفعل آخراً فكأنه قال: صلّ للّه قبل طلوع الشمس يعني الفجر وقبل غروبها يعني الظهر والعصر لأنهما واقعتان في النصف الأخير من النهار بين زوال الشمس وغروبها وتعمد آناء الليل وأطراف النهار مختصاً لهما بصلاتك وذلك أن افضل الذكر ما كان بالليل لاجتماع القلب وهدوّ الرجل والخلوّ بالرب.

وقال اللّه عز وجل: " إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلاً " المزمل: 6 وقال: " أمَّن هو قانتَ آناء الليل ساجداً وقائماً " الزمر: 9 ولأن الليل وقت السكون والراحة فإذا صرف إلى العبادة كانتَ على النفس أشد وأشق وللبدن أتعب وأنصب فكانت أدخل في معنى التكليف وأفضل عند الله.

وقد تناول التسبيح في آناء الليل صلاة العتمة وفي أطراف النهار صلاة المغرب وصلاة الفجر على التكرار إرادة الاختصاص كما اختصت في قوله: " حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى " البقرة: 238 عند بعض المفسرين.

فإن قلت: ما وجه قوله: " وأطراف النهار " على الجمع وإنما هما طرفان كما قال: " أقم الصلاة طرفي النهار " هود: 114 قلت: الوجه أمن الإلباس وفي التثنية زيادة بيان.

ونظير مجيء الأمرين في الآيتين: مجيئهما في قوله: ظهراهما مثل ظهور الترسين وقرىء: وأطراف النهار عطفاً على آناء الليل لعلك ترضى.

ولعل للمخاطب أي: أذكر الله في هذه الأوقات طمعاً ورجاء أن تنال عند الله ما به ترضي نفسك ويسرّ قلبك.

وقرىء: " ترضى " أي يرضيك ربك.

" ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ".

" ولا تمدنّ عينيك " أي نظر عينيك: ومدّ النظر: تطويله وأن لا يكاد يرده استحساناً للمنظور إليه وإعجاباً به وتمنياً أن يكون له كما فعل نظارة قارون حين قالو: " يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم " القصص: 79 حتى واجههم أولو العلم والإيمان " ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً " القصص: 80 وفيه أن النظر غير الممدود معفوّ

عنه وذلك مثل نظر من باده الشيء بالنظر ثم غض الطرف ولما كان النظر إلى الزخارف كالمركوز في الطباع وأن من أبصر منها شيئاً أحب أن يمدّ إليه نظره ويملأ منه عينيه قيل: " ولا تمدَن عينيك " أي لا تفعل ما أنت معتاد له وضار به ولقد شدّد العلماء من أهل التقوى في وجوب غضّ البصر عن أبنية الظلمة وعدد الفسقة في اللباس والمراكب وغير ذلك لأنهم إنما اتخذوا هذه الأشياء لعيون النظارة فالناظر إليها محصل لغرضهم وكالمغري لهم على اتخاذها " أزواجاً منهم " أصنافاً من الكفرة ويجوز أن ينتصب حالاً من هاء الضمير والفعل واقع على منهم كأنه قال: إلى الذي متعنا به وهو أصناف بعضهم وناساً منهم.

فإن قلت: علام انتصب زهرة قلت: على أحد أربعة أوجه: على الفم وهو النصب على الاختصاص.

وعلى تضمين مَتَعنَا معنى أعطينا وخوّلنا وكونه مفعولاً ثانياً له.

وعلى إبداله من محل الجار والمجرور.

وعلى إبداله من أزواجاً على تقدير ذوي زهرة.

فإن قلت: ما معنى الزهرة فيمن حرّك قلت: معنى الزهرة بعينه وهو الزينة والبهجة كما جاء في الجهرة الجهرة.

وقرىء: " أرنا الله جهرة " النساء: 153.

وأن تكون جمع زاهر وصفاً لهم بأنهم زاهرو هذه الدنيا لصفاء ألوانهم مما يلهون ويتنعمون وتهلل وجوههم وبهاء زيهم وشارتهم بخلاف ما عليه المؤمنون والصلحاء: من شحوب الألوان والتقشف في الثياب لنفتنهم لنبلوهم حتى يستوجبوا العذاب لوجود الكفران منهم.

أو لنعذبهم في الآخرة بسببه " ورزق ربكَ " هو ما ادّخر له من ثواب الآخرة الذي هو خير منه في نفسه وأدوم.

وأو ما رزقه من نعمة الإسلام والنبوّة.

أو لأن أموالهم الغالب عليها الغصب والسرقة والحرمة من بعض الوجوه والحلال " خير وأبقى " لأن الله لا ينسب إلى نفسه إلا ما حل وطاب دون ما حرم وخبث والحرام لا يسمى رزقاً أصلاً وعن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبي رافع قال: بعثني رسولَ الله صلى الله عليه وسلم إلى يهودي وقال: " قل لَهُ يقولُ لَكَ رسولُ الله أقرضني إلى رجب فقالَ: واللهِ لا أقرضتُه إلا بِرَهن فقالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم " إني لأمينٌ في السماءِ وإني لأمين في الأرضِ احمل إليهِ درعِي الحديد " فنزلَت " ولا تمدن عينيك ".

" وأمُر أَهلك باَلصلاة واصبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى ".

" وأمر أهلك بالصلاة " أي وأقبل أنت مع أهلك على عبادة اللّه والصلاة واستعينوا بها على خصاصتكم ولا تهتم بأمر الرزق والمعيشة فإن رزقك مكفى من عندنا ونحن رازقوك ولا نسألك أن ترزق نفسك ولا أهلك ففرّغ بالك لأمر الآخرة.

وفي معناه قول الناس: من كان في عمل الله كان الله في عمله.

وعن عروة بن الزبير أنه كان إذا رأى ما عند السلاطين قرأ: ولا تمدن عينك ثم ينادي الصلاة الصلاة رحمكم الله.

وعن بكر بن عبد الله المزني كان إذا أصابت أهله خصاصة قال: قوموا فصلوا بهذا أمر الله رسوله ثم يتلو هذه الآية.

" وقالو لو لا يأتينا بآية من ربه أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى " اقترحوا على عادتهم في التعنت آية على النبوّة فقيل لهم: أو لم تأتكم آية هي أم الآيات وأعظمها في باب الإعجاز يعني القرآن من قبل أن القران برهان ما في سائر الكتب المنزلة ودليل صحته لأنه معجزة وتلك ليست بمعجزات فهي مفتقرة إلى شهادته على صحة ما فيها افتقار المحتج عليه إلى شهادة الحجة.

وقرىء: " الصحف " بالتخفيف.

ذكر الضمير الراجع إلى البينة لأنها في معنى البرهان والدليل.

" ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى " قرىء " نذل ونخزى " على لفظ ما لم يسمّ فاعله.

" قُل كُل مُتَربصِ فَتَرَبصَوا فَستعلَمُونَ مَن أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى " " كل " أي كل واحد منا ومنكم " متربص " للعاقبة ولما يؤول إليه أمرنا وأمركم.

وقرىء: " السواء " بمعنى الوسط والجيد.

أو المستوى والسوء والسوأي والسوي تصغير السوء.

وقرىء: " فتمتعوا فسوف تعلمون " قال أبو رافع: حفظتهُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من قرأ سورةَ طهَ أُعطيَ يومَ القيامةِ ثوابَ المهاجرين والأنصار ".

وقالَ: " لا يقرأُ أهلُ الجنةِ مِنَ القرآنِ إلا طهَ ويس ".

سورة الأنبياء

مكية وآياتها اثنتا عشرة ومائة

بسم الله الرحمن الرحيم " اقتربَ لِلناسِ حِسَابُهُم وَهم فِى غَفلَةَ معرِضُونَ ".

هذه اللام: لا تخلو من أن تكون صلة لاقتراب أو تأكيداً لإضافة الحساب إليهم كقولهم: أزف للحيّ رحيلهم الأصل أزف رحيل الحيّ ثم أزف للحيّ الرحيل ثم أزف للحىّ رحيلهم.

ونحوه ما أورده سيبويه في باب ما يثني فيه المستقرّ توكيداً عليك زيد حريص عليك.

وفيك زيد راغب فيك.

ومنه قولهم: لا أبالك لأن اللام مؤكدة لمعنى الإضافة وهذا الوجه أغرب من الأوّل.

والمراد اقتراب الساعة وإذا اقتربت الساعة فقد اقترب ما يكون فيها من الحساب والثواب والعقاب وغير ذلك.

ونحوه: " واقترب الوعد الحق " الأنبياء: 97 فإن قلت: كيف وصف بالاقتراب وقد عدّت دون هذا القول أ كثر من خمسمائة عام.

قلت: هو مقترب عند الله والدليل عليه قوله عز وجل: " ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإنّ يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون " الحج: 47 ولأن كلّ آت - وإن طالت أوقات استقباله وترقبه - قريب إنما البعيد هو الذي وجد وانقرض ولأن ما بقي في الدنيا أقصر وأقل مما سلف منها بدليل انبعاث خاتم النبيين الموعود مبعثه في آخر الزمان.

وقال عليه الصلاة والسلام: " حذاء ولم تبق إلا صبابة كصبابة الإناء.

وإذا كانت بقية الشيء وإن كثرت في نفسها قليلة بالإضافة إلى معظمه كانت خليقة بأن توصف بالقلة وقصر الذرع ".

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن المراد بالناس: المشركون.

وهذا من إطلاق اسم الجنس على بعضه للدليل القائم.

وهو ما يتلوه من صفات المشركين.

وصفهم بالغفلة مع الإعراض على معنى: أنهم غافلون عن حسابهم ساهون لا يتفكرون في عاقبتهم ولا يتفطنون لما ترجع إليه خاتمة أمرهم مع اقتضاء عقولهم أنه لا بد من جزاء للمحسن والمسيء.

لماذا قرعت لهم العصا ونبهوا عن سنة الغفلة وفطنوا لذلك بما يتلى عليهم من الآيات والنذر.

أعرضوا وسنوا أسماعهم ونفروا.

" ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ".

قرر إعراضهم عن تنبيه المنبه وايقاظ الموقظ: بأن الله يجدد لهم الذكر وقتاً فوقتاً ويحدث لهم الآية بعد الآية والسورة بعد السورة ليكرر على أسماعهم التنبيه والموعظة لعلهم يتعظون فما يزيدهم استماع الآيِ والسور وما فيها من فنون المواعظ والبصائر - التي هي أحق الحق وأجد الجد - إلا لعباً وتلهياً واستسخاراً.

والذكر: هو الطائفة النازلة من القرآن.

وقرأ ابن أبي عبلة " محدثٍ " بالرفع صفة على المحل.

قوله: " وهم يلعبون لاهية قلوبهم " حالان مترادفتان أو متداخلتان ومن قرأ: " لاهية " بالرفع فالحال واحدة لأن " لاهية قلوبهم " خبر بعد خبر لقوله: " وَهُم " واللاهية: من لهى عنه إذا ذهل وغفل يعني أنهم وإن فطنوا فهم في قلة جدوى فطنتهم كأنهم لم يفطنوا

أصلاً وثبتوا على رأس غفلتهم وذهولهم عن التأتل والتبصر بقلوبهم " وأسروا النجوى " فإن قلت: النجوى وهي اسم من التناجي لا تكون إلا خفية فما معنى قوله: " وَأَسَروا ".

قلت: معناه وبالغوا في إخفائها.

أو جعلوها بحيث لا يفطن أحد لتناجيهم ولا يعلم أنهم متناجون أبدل " الذين ظلموا " من واو وأسروا إشعاراً بأنهم الموسومون بالظلم الفاحش فيما أسروا به.

أو جاء على لغة من قال " أكلوني البراغيث " أو هو منصوب المحل على الفم.

أو هو مبتدأ خبره " وَأَسَرُوا النجوَى " قدم عليه.

والمعنى: وهؤلاء أسروا النجوى.

فوضع المظهر موضع المضمر تسجيلاً على فعلهم بأنه ظلم " هَل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تعلمون " هذا الكلام كله في محل النصب بدلاً من النجوى أي: وأسروا هذا الحديث.

ويجوز أن يتعلق بقالوا مضمراً: اعتقدوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكون إلا ملكاً وأن كل من ادعى الرسالة من البشر وجاء بالمعجزة هو ساحر ومعجزته سحر فلذلك قالوا على سبيل الإنكار: أفتحضرون السحر وأنتم تشاهدون وتعاينون أنه سحر.

فإن قلت: لم أسروا هذا الحديث وبالغوا في إخفائه.

قلت: كان ذلك شبه التشاور فيما بينهم والتحاور في طلب الطريق إلى هدم أمره وعمل المنصوبة في التثبيط عنه وعادة المتشاورين في خطب أن لا يشركوا أعداءهم في شوراهم ويتجاهدوا في طي سرهم عنهم ما أمكن واستطيع.

ومنه قول الناس: " استعينوا على حوائجكم بالكتمان " وَيُرفع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.ويجوز أن يسروا نجواهم بذلك ثم يقولوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين: إن كان ما تدعونه حقاً فأخبرونا بما أسررنا.

" قَالَ رَبي يَعلَمُ القول فِى السماء والأرض وهو السميع العليم ".

فإن قلت: هلا قيل: يعلم السر لقوله: " وأسروا النجوى " الأنبياء: 3 قلت: القول عام يشمل السر والجهر.

فكان في العلم به العلم بالسر وزيادة فكان آكد في بيان الاطلاع على نجواهم من أن يقول: يعلم السر كما أن قوله: يعلم السر آكد من أن يقول: يعلم سرهم.

ثم بين ذلك بأنه السميع العليم لذاته فكيف تخفى عليه خافية.

فإن قلت: فلم ترك هذا الآكد في سورة الفرقان في قوله: " قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض " الفرقان: 6.

قلت: ليس بواجب أن يجيء بالآكد في كل موضع.

ولكن يجيء بالوكيد تارة وبالآكد أخرى كما يجيء بالحسن في موضع وبالأحسن في غيره ليفتق الكلام افتناناً وتجمع الغاية وما دونها على أن أسلوب تلك الآية خلاف أسلوب هذه من قبل أنه قدم ههنا أنهم أسروا النجوى.

فكأنه أراد أن يقول: إن ربي يعلم ما أسروه فوضع القول موضع ذلك للمبالغة وثم قصد وصف ذاته بأن أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض فهو كقوله علام الغيوب " عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة " سبأ: وقرىء " قَالَ رَبِى " حكاية لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم.

أضربوا عن قولهم هو سحر إلى أنه تخاليط أحلام ثم إلى أنه كلام مفترى من عنده ثم إلى أنه قول شاعر وهكذا الباطل لجلج والمبطل متحير رجاع غير ثابت على قول واحد.

ويجوز أن يكون تنزيلاً من الله تعالى لأقوالهم في درج الفساد: وأن قولهم الثاني أفسد من الأول والثالث أفسد من الثاني وكذلك الرابع من الثالث صحة التشبيه في قوله: " كما أرسل الأولون " من حيث أنه في معنى: كما أتى الأولون بالآيات لأن إرسال الرسل متضمن للإتيان بالآيات ألا ترى أنه لا فرق بين أن تقول: أرسل محمد صلى الله عليه وسلم وبين قولك: أتى محمد بالمعجزة.

" مَا آمَنَت قبلَهُم مِن قَرية أهلكناهم أَفهم يُؤمِنون ".

" أَفَهُم يُؤمِنُون " فيه أنهم أعتى من الذين إقترحوا على أنبيائهم الآيات وعاهدوا أنهم يؤمنون عندها فلما جاءتهم نكثوا وخالفوا فأهلكهم الله.

فلو أعطيناهم ما يقترحون لكانوا أنكث وأنكث.

" وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ".

أمرهم أن يستعلموا أهل الذكر وهم أهل الكتاب حتى يعلموهم أن رسل الله الموحى إليهم كانوا بشراً ولم يكونوا ملائكة كما اعتقدوا وإنما أحالهم على أولئك لأنهم كانوا يشايعون المشركين في معاداة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال الله تعالى: " ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً " آل عمران: 186 فلا يكاذبونهم فيما هم فيه ردء لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

" وَمَا جَعَلنهم جَسَداً لا يأكلون الطعَامَ وَمَا كَانوا خلدين ".

" لا يأكلون الطعامَ " صفة لجسداً والمعنى: وما جعلنا الأنبياء عليهم السلام قبله ذوي جسد غير طاعمين.

ووحد الجسد لإرادة الجنس كأنه قال: ذوي ضرب من الأجساد وهذا رد لقولهم " ما لهذا الرسول يأكل الطعام " الفرقان: 7.

فإن قلت: نعم قد رد إنكارهم أن يكون الرسول بشراً يأكل ويشرب بما ذكرت فماذا رد من قولهم بقوله: " وَمَا كَانوا خلدينَ " قلت: يحتمل أن يقولوا إنه بشر مثلنا يعيش كما نعيش ويموت كما نموت.

أو يقولوا هلا كان ملكاً لا يطعم ويخلد: إما معتقدين أن الملائكة لا يموتون.

أو مسمين حياتهم المتطاولة وبقاءهم الممتد خلوداً.

" ثُمَ صدقنهم الوَعدَ فأنجينهم وَمَن نشاء وأهلكنا المسرفين ".

" صدقنهم الوعد " مثل واختار موسى قومه.

والأصل في الوعد: ومن قومه.

ومنه: صدقوهم القتال.

وصدقني سن بكره " وَمَن نشاء " هم المؤمنون ومن في بقائه مصلحة.

" لَقَد أنزلنا إليكم كتباً فيه ذكركم أفلا تعقلون ".

" ذكركم " شرفكم وصيتكم كما قال: " وإنه لذكر لك ولقومك " الزخرف: 44.

أو موعظتكم.

أو فيه مكارم الأخلاق التي كنتم تطلبون بها الثناء أو حسن الذكر كحسن الجوار.

والوفاء بالعهد وصدق الحديث وأداء الأمانة والسخاء وما أشبه ذلك.

" وَكَم قَصمَنَا مِن قَرتة كانت ظَالِمَة وَأَنشأنا بعدها قوماً ءاخرين فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومسكنكم لعلكم تسئلون قالوا يويلنا إنا كنا ظلمين فما زالت تلك دعواهم حتى جعلنهم حصيداً خمدين ".

" وَكَم قَصَمنا مِن قريَة " واردة عن غضب شديد ومنادية على سخط عظيم لأن القصم أفظع الكسر وهو الكسر الذي يبين تلاؤم الأجزاء بخلاف الفصم.

وأراد بالقرية: أهلها ولذلك وصفها بالظلم وقال: " قوماً آخرين " لأن المعنى: أهلكنا قوماً وأنشأنا قوماً آخرين.

وعن ابن عباس: أنها " حضور " وهي و " سحول " قريتان باليمن تنسب إليهما الثياب.

وفي الحديث.

"كفن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثوبين سحوليين " وروي " حضوريين ".

بعث الله إليهم نبياً فقتلوه فسلط الله عليهم بختنصر كما سلطه على أهل بيت المقدس فاستأصلهم.

وروي: أنهم لما أخذتهم السيوف ونادى مناد من السماء يا لثآرات الأنبياء.

ندموا واعترفوا بالخطأ.

وذلك حين لم ينفعهم الندم.

وظاهر الآية على الكثرة.

ولعل ابن عباس ذكر " حضور " بأنها إحدى القرى التي أرادها الله بهذه الآية.

فلما علموا شدة عذابنا وبطشتنا علم حس ومشاهدة لم يشكوا فيها ركضوا من ديارهم والركض: ضرب الدابة بالرجل.

ومنه قوله تعالى: " اركض برجلك " ص: 42 فيجوز أن يركبوا دوابهم يركضونها هاربين منهزمين من قريتهم لما أدركتهم مقدمة العذاب.

ويجوز أن يشبهوا في سرعة عدوهم على أرجلهم بالراكبين الراكضين لدوابهم فقيل لهم " لا تركضوا " والقول محذوف.

فإن قلت: من القائل قلت يحتمل أن يكون بعض الملائكة أو من ثم من المؤمنين أو يجعلوا خلقاء بأن يقال لهم ذلك وإن لم يقل.

أو يقوله رب العزة ويسمعه ملائكته لينفعهم في دينهم.

أو يلهمهم ذلك فيحدثوا به نفوسهم " وارجعوا إلى ما أترفتم فيه " من العيش الرافه والحال الناعمة.

والإتراف: إبطار النعمة وهي الترفة " لعلكم تسئلون " تهكم بهم وتوبيخ أي: ارجعوا إلى نعيمكم ومساكنكم لعلكم تسئلون غداً عما جرى عليكم ونزل بأموالكم ومساكنكم فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة.

أو ارجعوا واجلسوا كما كنتم في مجالسكم.

وترتبوا في مراقبكم حتي يسألكم عبيدكم وحشمكم ومن تملكون أمره وينفذ فيه أمركم ونهيكم ويقول لكم: بم تأمرون.

وبماذا ترسمون.

وكيف نأتي ونذر كعادة المنعمين المخدمين أو يسألكم الناس في أنديتكم المعاون في نوازل الخطوب ويستشيرونكم في المهمات والعوارض ويستشفون بتدابيركم ويستضيئون بآرائكم أو يسألكم الوافدون عليكم والطماع ويستمطرون سحائب أكفكم ويمترون أخلاف معروفكم وأياديكم: إما لأنهم كانوا أسخياء ينفقون أموالهم رئاء الناس وطلب الثناء.

أو كانوا بخلاء فقيل لهم ذلك تهكماً إلى تهكم وتوبيخاً إلى توبيخ " تلف " إشارة إلى يا ويلنا لأنها دعوى كأنه قيل: فما زالت تلك الدعوى " دعواهم " والدعوى بمعنى الدعوة.

قال تعالى: " وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين " يونس: 0.

فإن قلت: لم سميت دعوى قلت: لأن المولول كأنه يدعو الويل فيقول تعالى: يا ويل فهذا وقتك.

و " تلك " مرفوع أو منصوب اسماً أو خبراً وكذلك دعواهم.

حصيداً الحصيد: الزرع المحصود.

أي: جعلناهم مثل الحصيد شبههم به في استئصالهم واصطلامهم كما تقول: جعلناهم رماداً أي مثل الرماد.

والضمير المنصوب هو الذي كان مبتدأ والمنصوبان بعده كانا خبرين له فلما دخل عليها جعل نصبها جميعاً على المفعولية.

فإن قلت كيف ينصب " جعل " ثلاثة مفاعيل قلت: حكم الاثنين الآخرين حكم الواحد لأن معنى قولك " جعلته حلواً حامضاً " جعلته جامعاً للطعمين.

وكذلك معنى ذلك: جعلناهم جامعين لمماثلة الحصيد والخمود.

" وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لعبين لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذنه من لدنا إن كنا فعلين ".

أي: وما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من أصناف الخلائق مشحونة بضروب البدائع والعجائب كما تسوي الجبابرة سقوفهم وفرشهم وسائر زخارفهم للهو

واللعب وإنما سويناها للفوائد الدينية والحكم الربانية لتكون مطارح افتكار واعتبار واستدلال ونظر لعبادنا مع ما يتعلق لهم بها من المنافع التي لا تعد والمرافق التي لا تحصى.

ثم بين أن السبب في ترك اتخاذ اللهو واللعب وانتفائه عن أفعالي: هو أن الحكمة صارفة عنه وإلا فأنا قادر على اتخاذه إن كنت فاعلاً لأني على كل شيء قدير.

وقوله: " لاتخذنه منه لدنا " كقوله: " رزقاً من لدنا " القصص: 57 أي من جهة قدرتنا وقيل: اللهو الولد بلغة اليمن.

وقيل المرأة.

وقيل " من لدنا " أي من الملائكة لا من الإنس رداً لولادة المسيح وعزيز.

"بل نقذف بالحق على البطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون ".

"بل " إضراب عن اتخاذ اللهو واللعب وتنزيه منه لذاته كأنه قال: سبحاننا أن نتخذ اللهو واللعب بل من عادتنا وموجب حكمتنا واستغنائنا عن القبيح أن نغلب اللعب بالجد وندحض الباطل بالحق.

واستعار لذلك القذف والدمغ تصويراً لإبطاله وإهداره ومحقه فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلاً قذف به على جرم رخو أجوف فدمغه ثم قال: " ولكم الويل مما تصفون " به عما لا يجوز عليه وعلى حكمته.

وقرىء: " فيدمغه " بالنصب وهو في ضعف قوله: سأترك منزلي لبني تميم وألحق بالحجاز فأستريحا " وله من فى السموت والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون "ومن عنده " هم الملائكة.

والمراد أنهم مكرمون منزلون - لكرامتهم عليه - منزلة المقربين عند الملوكعلى طريق التمثيل والبيان لشرفهم وفضلهم على جميع خلقه.

فإن قلت: الاستحسار مبالغة في الحسور فكان الأبلغ في وصفهم أن ينفي عنهم أدنى الحسور.

قلت: في الاستحسار بيان أن ما هم فيه يوجب غاية لحسور وأقصاه وأنهم أحقاء لتلك العبادات الباهظة بأن يستحسروا فيما يفعلون.

" يسبحون اليل والنهار لا يفترون " أي: تسبيحهم متصل دائم في جميع أوقاتهم لا يتخلله فترة بفراغ أو شغل آخر.

" أم اتخذوا آلهةً من الأرض هم ينشرون ".

هذه أم المنقطعة الكائنة بمعنى بل والهمزة قد اذنت بالإضراب عما قبلها والإنكار لما بعدها والمنكر: هو اتخاذهم " ءالهةً من الأرض هم ينشرون " الموتى ولعمري أن من أعظم للمنكرات أن ينشر الموتى بعض الموات.

فإن قلت: كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة تنشر وما كانوا يدعون ذلك لآلهتهم.

وكيف وهم أبعد شيء عن هذه الدعوى وذلك أنهم كانوا مع إقرارهم به عز وجل بأنه خالق السموات والأرض " ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله " لقمان: 35 وبأنه القادر على المقدورات كلها وعلى النشأة الأولى - منكرين البعث ويقولون: من يحيى العظام وهي رميم وكان عندهم من قبيل المحال الخارج عن قدرة القادر كثاني القديم فكيف يدعونه

للجماد الذي لا يوصف بالقدرة رأساً قلت: الأمر كما ذكرت ولكنهم باذعانهم لها الإلهية يلزمهم أن يدعوا لها الإنشار لأنه لا يستحق خذا الاسم إلا القادر على كل مقدور والإنشار من جملة المقدورات.

وفيه باب من التهكم بهم والتوبيخ والتجهيل وإشعار بأن ما استبعدوه من الله لا يصح استبعاده لأن الإلهية لما صحت صح معها الاقتدار على الإبداء والإعادة.

ونحو قوله: " من الأرض " قولك: فلان من مكة أو من المدينة تريد: مكي أو مدني.

ومعنى نسبتها إلى الأرض: الإيذان بأنها الأصنام التي تعبد في الأرض: لأن الآلهة على ضربين: أرضية وسماوية.

ومن ذلك حديث الأمة التي قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أين ربك " فأشارت إلى السماء فقال: " إنها مؤمنة " لأنه فهم منها أن مرادها نفي الآلهة الأرضية التي هي الأصنام لا إثبات السماء مكاناً لله عز وجل.

ويجوز أن يراد آلهة من جنس الأرض.

لأنها إما أن تنحت من بعض الحجارة أو تعمل من بعض جواهر الأرض.

فإن قلت: لا بد من نكتة في قوله: " هم " قلت: النكتة فيه إفادة معنى الخصوصية كأنه قيل: أم اتخذوا آلهة لا يقدر على الإنشار إلا هم وحدهم.

وقرأ الحسن " ينشرون " وهما لغتان: أنشر الله الموتى ونشرها.

" لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون " وصفت آلهة بإلا كما توصف بغير لو قيل آلهة غير الله.

فإن قلت: ما منعك من الرفع على البدل.

قلت: لأن " لو " بمنزلة " إن " في الكلام معه موجب والبدل لا يسوغ إلا في الكلام غير الموجب كقوله تعالى: " ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك " هود: 81 وذلك لأن أعم العام يصح نفيه ولا يصح إيجابه.

والمعنى: لو كان يتولاهما ويدبر أمرهما آلهة شتى غير الواحد الذي هو فاطرهما لفسدتا.

وفيه دلالة على أمرين أحدهما: وجوب أن لا يكون مدبرهما إلا واحداً.

والثاني: أن لا يكون ذلك الواحد إلا إياه وحده لقوله: " إلا الله " فإن قلت: لم وجب الأمران قلت: لعلمنا أن الرعية تفسد بتدبير الملكين لما يحدث بينهما من التغالب والتناكر والاختلاف.

وعن عبد الملك بن مروان حين قتل عمرو بن سعيد الأشدق: كان والله أعز علي من دم ناظري ولكن لا يجتمع فحلان في شول وهذا ظاهر وأما طريقة التمانع فللمتكلمين فيها تجاول وطراد ولأن هذه الأفعال محتاجة إلى تلك الذات المتميزة بتلك الصفات حتى تثبت وتستقر.

"لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ".

إذا كانت عادة الملوك والجبابرة أن لا يسألهم من في مملكتهم عن أفعالهم وعما يوردون ويصدرون من تدبير ملكهم تهيباً واجلالاً مع جواز الخطأ والزلل وأنواع الفساد عليهم - كان ملك الملوك وربّ الأرباب خالقهم ورازقهم أولى بأن لا يسئل عن أفعاله مع ما علم واستقر في

العقول من أن ما يفعله كله مفعول بدواعي الحكمة ولا يجوز عليه الخطأ ولا فعل القبائح " وهم يسألون " أي هم مملوكون مستعبدون خطاؤن فما خلقهم بأن يقال لهم: لم فعلتم.

في كل شيء فعلوه.

"أم اتخذوا من دونه ءالهة قل هاتوا برهنكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون ".

كرر " أم اتخذوا من دونه ءالهة " استفظاعاً لشأنهم واستعظاماً لكفرهم أي: وصفتم الله تعالى بأن له شريكاً فهاتوا برهانكم على ذلك: إما من جهة العقل وإما من جهة الوحي فإنكم لا تجدون كتاباً من كتب الأولين إلا وتوحيد الله وتنزيهه عن الأنداد مدعو إليه والاشراك به منهي عنه متوعد عليه.

أي " هذا " الوحي الوارد في معنى توحيد الله ونفي الشركاء عنه كما ورد علي فقد ورد على جميع الأنبياء فهو ذكر: أي عظة للذين معي: يعني أمته وذكر للذين من قبلي: يريد أمم الأنبياء عليهم السلام.

وقرئ: " ذكر من معى وذكر من قبلى " بالتنوين ومن مفعول منصوب بالذكر كقوله: " أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً " البلد: 14 - 15 وهو الأصل والإضافة من إضافة المصدر إلى المفعول كقوله: " غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون " الروم: 3 وقرئ: " من معي " و " من قبلي " على من الإضافية في هذه القراءة.

وإدخال الجار على " مع " غريب والعذر فيه أنه اسم هو ظرف نحو: قبل وبعد وعند ولدن وما أشبه ذلك فدخل عليه " من " كما يدخل على أخواته.

وقرىء " ذكر معي وذكر قبلي " كأنه قيل: بل عندهم ما هو أصل الشر والفساد كله وهو الجهل وفقد العلم وعدم التمييز بين الحق والباطل فمن ثم جاء هذا الإعراض ومن هناك ورد هذا الإنكار.

وقرئ: " الحق " بالرفع على توسيط التوكيد بين السبب والمسبب.

والمعنى أن إعراضهم بسبب الجهل هو الحق لا الباطل.

ويجوز أن يكون المنصوب أيضاً على هذا المعنى كما تقول: هذا عبد الله الحق لا الباطل.

"وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ".

"يوحى " ونوحي: مشهورتان.

وهذه الآية مقررة لما سبقها منه آي التوحيد.

"وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحنه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظلمين ".

نزلت في خزاعة حيث قالوا: الملائكة بنات الله نزه ذاته عن ذلك ثم أخبر عنهم بأنهم عباد والعبودية تنافي الولادة إلا أنهم " مكرمون " مقربون عندي مفضلون على سائر العباد لما هم عليه منه أحوال وصفات ليست لغيرهم فذلك هو الذي غر منهم من زعم أنهم أولادي تعاليت عن ذلك علواً كبيراً.

وقريء " مكرمون " و " لا يسبقونه " بالضم من: سابقته فسبقته أسبقه.

والمعنى: أنهم يتبعون قوله ولا يقولوق شيئاً حتى يقوله فلا يسبق قولهم قوله.

والمراد: بقولهم فأنيب اللام مناب الإضافة أي لا يتقدمون قوله بقولهم كما تقول: سبقت بفرسي فرسه وكما أن قولهم تابع لقوله فعملهم أيضاً كذلك مبني على أمره: لا يعملون عملاً ما لم يؤمروا به.

وجميع ما يأتون ويذرون مما قدموا وأخروا بعين الله وهو مجازيهم عليه فلإحاطتهم بذلك يضبطون أنفسهم ويراعون أحوالهم ويعمرون أوقاتهم.

ومن تحفظهم أنهم لا يجسرون أن يشفعوا إلا لمن ارتضاه الله وأهله للشفاعة في ازدياد الثواب والتعظيم ثم أنهم مع هذا كله من خشية الله " مشفقون " أي متوقعون من أمارة ضعيفة كائنون على حذر ورقبة لا يأمنون مكر الله.

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه وأى جبريل عليه السلام ليلة المعراج ساقطاً كالحلس من خشية الله.

وبعد أن وصف كرامتهم عليه وقرب منزلتهم عنده وأثنى عليهم وأضاف إليهم تلك الأفعال السنية والأعمال المرضية.

فاجأ بالوعيد الشديد وأنذر بعذاب جهنم من أشرك منهم إن كان ذلك على سبيل الفرض

والتمثيل مع إحاطة علمه بأنه لا يكون كما قال: " ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون " الأنعام: 88 قصد بذلك تفظيع أمر الشرك وتعظيم شأن التوحيد.

" أولم ير الذين كفروا أن السموت والأرض كانتا رتقاً ففتقنهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ".

قرىء: " ألم ير " بغير واو و " رتقاً " بفتح التاء وكلاهما في معنى المفعول كالخلق والنقض أي: كانتا مرتوقتين.

فإن قلت: الرتق صالح أن يقع موقع مرتوقتين لأنه مصدر فما بال الرتق قلت: هو على تقرير موصوف أي: كانتا شيئاً رتقاً ومعنى ذلك: أن السماء كانت لاصقة بالأرض لا فضاء بينهما.

أو كانت السموات متلاصقات وكذلك الأرضون لا فرج بينها ففتقها الله وفرج بينها.

وقيل: ففتقناها بالمطر والنبات بعد ما كانت مصمتة ليانما قيل: كانتا دون كن لأن المراد جماعة السموات وجماعة الأرض ونحوه قولهم: لقاحان سوداوان أي: جماعتان فعل في المضمر نحو ما فعل في المظهر.

فإن قلت: متى رأوهما رتقاً حتى جاء تقريرهم بذلك.

قلت: فيه وجهان أحدهما: أنه وارد في القرآن الذي هو معجزة في نفسه فقام مقام المرئي المشاهد.

والثاني: أن تلاصق الأرض والسماء وتباينهما كلاهما جائز في العقل فلا بد للتباين دون التلاصق من مخصص وهو القديم سبحانه " وجعلنا " لا يخلو أن يتعدى إلى واحد أو اثنين فإن

تعدى إلى واحد فالمعنى: خلقنا من الماء كل حيوان كقوله: " والله خلق كل دابة من ماء " النور: 45 أو كأنما خلقناه من الماء لفرط احتياجه إليه وحبه له وقلة صبره عنه كقوله تعالى: " خلق الإنسان من عجل " الأنبياء: 37 وإن تعدى إلى اثنين فالمعنى: صيرنا كل شيء حي بسبب من الماء لا بد له منه.

و " من " هذا نحو " من " في قوله عليه السلام: " ما أنا من دد ولا الدد مني " وقرىء " حيا " وهو المفعول الثانى. والظرف لغو". وجعلنا فى الأرض روسى أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن ءايتها معرضون ".

أي كراهة " أن تميد بهم " وتضطرب.

أو لئلا تميد بهم فحذف " لا " واللام.

وإنما جاز حذف " لا " لعدم الالتباس كما تزاد لذلك في نحو قوله: " لئلا يعلم " الحديد: 29 وهذا مذهب الكوفيين.

" فجاجاً " الفج: الطريق الواسع.

فإن قلت: في الفجاج معنى الوصف فما لها قدمت على السبل ولم تؤخر كما في قوله تعالى: " لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً " نوح: 20 قلت: لم تقدم وهي صفة ولكن جعلت حالاً كقوله: لعزة موحشاً طلل قديم فإن قلت: ما الفرق بينهما من جهة المعنى قلت: أحدهما الإعلام بأنه جعل فيها طرقاً واسعة.

والثاني: يأت حين خلقها خلقها على تلك الصفة فهو بيان لما أبهم ثمة محفوظاً حفظه بالإمساك بقدرته من أن يقع على الأرض ويتزلزل أو بالشهب عن تسمع الشياطين على سكانه من الملائكة " عن ءايتها " أي عما وضع الله فيها من الأدلة والعبر بالشمس والقمر وسائر النيرات ومسايرها وطلوعها وغروبها على الحساب القويم والترتيب العجيب الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة وأي جهل أعظم من جهل من أعرض عنها ولم يذهب به وهمه إلى تدبرها والاعتبار بها والاستدلال على عظمة شأن من أوجدها عن عدم ودبرها ونصبها هذه النصبة وأودعها ما أودعها مما لا يعرف كنهه إلا هو عزت قدرقه ولطف علمه.

وقرىء " عن آيتها " على التوحيد اكتفاء بالواحدة في الدلالة على الجنس أي: هم متفطنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنيوية كالاستضاءة بقمريها والاهتداء بكواكبها وحياة الأرض والحيوان بأمطارها وهم عن كونها آية بينة على الخالق " معرضون ".

" وهو الذي خلق اليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون ".

" كل " التنوين فيه عوض من المضاف إليه أي: كلهم " فى فلك يسبحون " والضمير للشمس والقمر والمراد بهما جنس الطوالع كل يوم وليلة جعلوها متكاثرة لتكاثر مطالعها وهو السبب في جمعهما بالشموس والأقمار لمألا فالشمس واحدة والقمر واحد وإنما جعل الضمير واو العقلاء للوصف بفعلهم وهو السباحة.

فإن قلت: الجملة ما محلها.

قلت: محلها النصب على الحال من الشمس والقمر.

فإن قلت: كيف استبد بهما دون الليل والنهار بنصب الحال عنهما قلت: كما أقول: رأيت زيداً وهنداً متبرجة ونحو ذلك إذا جئت بصفة يختص بها بعض ما تعلق به العامل.

ومنه قوله تعالى في هذه السورة " ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة " الأنبياء: 72 أو لا محل لها لاستئنافها.

فإن قلت: لكل واحد من القمرين ذلك على حدة فكيف قيل: جميعهم يسبحون في فلك قلت: هذا كقولهم " كساهم الأمير حلة وقلدهم سيفاً " أي كل واحد منهم أو كساهم وقلدمم هذين الجنسين فاكتفى بما يدل على الجنس اختصاراً ولأن الغرض الدلالة على الجنس.

" وماجعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإين مت فهم خلدون كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنةً وإلينا ترجعون ".

كانوا يقدرون أنه سيموت فيشمتون بموته فنفى الله تعالى عنه الشماتة بهذا أي: قضى الله أن لا يخلد في الدنيا بشراً فلا أنت ولا هم إلا عرضة للموت فإذا كان الأمر كذلك فإن مت أنت أيبقى هؤلاء وفي معناه قول القائل: فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا "ونبلوكم " أي نختبركم بما يجب فيه الصبر عن البلايا وبما يجب فيه الشكر من النعم وإلينا مرجعكم فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم عن الصبر أو الشكر وإنما سمى ذلك ابتلاء وهو عالم بما سيكون عن أعمال العاملين قبل وجودهم لأنه في صورة الاختبار.

و " فتنة " مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه.

" وإذا رءاك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي يذكر ءالهتكم وهم بذكر الرحمن هم كفرون ".

الذكر يكون بخير وبخلافه فإذا دلت الحال على أحدهما أطلق ولم يقيد كقولك للرجل: سمعت فلاناً يذكرك فإن كان الذاكر صديقاً فهو ثناء وإن كان عدواً فذم.

ومنه قوله تعالى: " سمعنا فتاً يذكرهم " الأنبياء: 60 وقوله: " أَهَذّا أَلَّذى يّذكُرُ إلِهَتَكُمّ " والمعنى أنهم عاكفون على ذكر آلهتهم بهممهم وما يجب أن لا تذكر به من كونهم شفعاء وشهداء.

ويسوءه أن يذكرها ذاكر بخلاف ذلك.

وأما ذكر الله وما يجب أن يذكر به من الوحدانية فهم به كافرون لا يصدقون به أصلاً فهم أحق بأن يتخذوا هزؤا منك فإنك محق وهم مبطلون.

وقيل معنى " بِذِكّرِ الرَّحْمَنِ " قولهم: ما نعرف الرحمن إلا مسيلمة.

وقولهم " وما الرحمن أنسجد لم تأمرنا " الفرقان: 60 وقيل: " بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ " بما أنزل عليك من القرآن.

والجملة في موضع الحال "خُلِقَ الإنَسانُ مِنْ عَجَلِ سَأُوْرِيكُمْ آياَتيِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الوَعْدُ إن كُنتُمْ صَدِقِينَ " كانوا يستعجلون عذاب الله ونزول آياته الملجئة إلى العلم والإقرار " وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الوَعْدُ " فأراد نهيهم عن الاستعجال وزجرهم فقدم أولاً ذم الإنسان على إفراط العجلة وأنه مطبوع عليها ثم نهاهم وزجرهم كأنه قال: ليس ببدع منكم أن تستعجلوا فإنكم مجبولون على ذلك وهو طبعكم وسجيتكم.

وعن ابن عباس رضي الله عنه: أنه أراد بالإنسان آدم عليه السلام وأنه حين بلغ الروح صدره ولم يتبالغ فيه أراد أن يقوم.

وروي: أنه لما دخل الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة ولما دخل جوفه اشتهى الطعام.

وقيل خلقه الله تعالى في آخر النهار يوم الجمعة قبل غروب الشمس فأسرع في خلقه قبل مغيبها.

وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه النضر بن الحرث.

والظاهر أن المراد الجنس.

وقيل: العجل: الطين بلغة حمير.

وقال شاعرهم:

والنّخل ينبت بين الماء ** والعجل والله أعلم بصحته.

فإن قلت: لم نهاهم عن الاستعجال مع قوله: " خُلِقَ الإنسَانُ مِنْ عَجَلٍ " وقوله: " وكان الإنسان عجولا " الإسراء: 11 أليس هذا من تكليف ما لا يطاق قلت: هذا كما ركب فيه الشهوة وأمره أن يغلبها.

لأنه أعطاه القدرة التي يستطيع بها قمع الشهوة وترك

" لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةٌ فَتَبْهَتُهُمْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ " جواب " لَوْ " محذوف.

و"حِينَ " مفعول به ليعلم أي: لو يعلمون الوقت الذي يستعلمون عنه بقولهم " مَتَى هَذَا الوَعْدُ " وهو وقت صعب شديد تحيط بهم فيه النار من وراء وقدام فلا يقدرون على دفعها ومنعها من أنفسهم ولا يجدون ناصراً ينصرهم: لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ولكن جهلهم به هو الذي هونه عندهم.

ويجوز أن يكون " يَعْلَمُ " متروكاً بلا تعدية بمعنى: لو كان معهم علم ولم يكونوا جاهلين لما كانوا مستعجلين.

وحين: منصوب بمضمر أي حين " لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ " يعلمون أنهم كانوا على الباطل وينتفي عنهم هذا الجهل العظيم أي: لا يكفونها بل تفجؤهم فتغلبهم يقال للمغلوب في المحاجة: مبهوت ومنه: " فبهت الذي كفر " البقرة: 258 أي: غلب إبراهيم عليه السلام الكافر.

وقرأ الأعمش: يأتيهم.

فيبهتهم على التذكير.

والضمير للوعد أو للحين.

فإن قلت: فإلام يرجع الضمير المؤنث في هذه القراءة قلت: إلى النار أو إلى الوعد لأنه في معنى النار وهي التي وعدوها أو على تأويل العدة أو الموعدة.

أو إلى الحين لأنه في معنى الساعة.

أو إلى البغتة.

وقيل في القراءة الأولى: الضمير للساعة.

وقرأ الأعمش: بغتة بفتح الغين " وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ " تذكير بإنظاره إياهم وإمهاله

" وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنّ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مّاَ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءوُنَ " سلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن استهزائهم به بأن له في الأنبياء عليهم السلام أسوة وأن ما يفعلونه به يحيق بهم كما حاق بالمستهزئين بالأنبياء عليهم السلام ما فعلوا.

" قُلْ مَن يَكْلُؤُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبّهِمم مُعْرِضُونَ " " مِنَ الرَّحْمَنِ " أي من بأسه وعذابه " بَلْ هُمْ " معرضون عن ذكره لا يخطرونه ببالهم فضلاً أن يخافوا بأسه حتى إذا رزقوا الكلاءة منه عرفوا من الكاليء وصلحوا للسؤال عنه.

والمراد أنه أمر رسوله عليه الصلاة والسلام بسؤالهم عن الكاليء ثم بين أنهم لا يصلحون لذلك لإعراضهم عن ذكر من يكلؤهم.

" أَمْ لَهُمْ إلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِنّ دُونِنَا لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلاَ هُم مِنَّا يُصْحَبُونَ " ثم أضرب عن ذلك بما في " أم " من معنى " بل " وقال: " أم لهم ءالهة تمنعهم " من العذاب تتجاوز منعنا وحفظنا.

ثم استأنف فبين أن ما ليس بقادر على نصر نفسه ومنعها ولا بمصحوب من الله بالنصر والتأييد كيف يمنع غيره وينصره.

" بل متعنا هؤلاء وءاباءهم حتى طال عليهم الأمر أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغلبون ".

ثم قال: بل ما هم فيه من الحفظ والكلاءة إنما هو منا لا من مانع يمنعهم من إهلاكنا وما كلأناهم وآباءهم الماضين إلا تمتيعاً لهم بالحياة الدنيا وإمهالاً كما متعنا غيرهم من الكفار وأمهلناهم " حتى طال عليهم " الأمد وامتدت بهم أيام الروح والطمأنينة فحسبوا أن لا يزالوا على ذلك لا يغلبون ولا ينزع عنهم ثوب أمنهم واستمتاعهم وذلك طمع فارغ وأمد كاذب " أفلا يرون أنا " ننقص أرض الكفر ودار الحرب ونحذف أطرافها بتسليط المسلمين عليها وإظهارهم على أهلها وردها دار إسلام.

فإن قلت: أي فائدة في قوله: " نأتي الأرض " قلت: فيه تصوير ما كان الله يجريه على أيدي المسلمين وأن عساكرهم وسراياهم كانت تغزو أرض المشركين وتأتيها غالبة عليها ناقصة عن أطرافها.

" قل إنما أنذركم بالوحي ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظلمين ".

قرىء: " ولا يسمع الصم " ولا تسمع الصم بالتاء والياء أي: لا تسمع أنت الصم ولا يسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولا يسمع الصم من أسمع.

فإن قلت: الصن لا يسمعون دعاء المبشر كما لا يسمعون دعاء المنذر.

فكيف قيل: " إذا ما ينذرون " قلت: اللام في الصم إشارة إلى هؤلاء المنذرين كائنة للعهد لا للجنس.

والأصل: ولا يسمعون إذا ما ينذرون فوضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على تصامهم وسدهم أسماعهم إذا أنذروا.

أي: هم على هذه الصفة من الجراءة والجسارة على التصام من آيات الإنذار " ولئن مستهم " من هذا الذي ينذرون به أدنى شيء لأذعنوا وذلوا وأقروا بأنهم ظلموا أنفسهم حين تصاموا وأعرضوا.

وفي المس والنفحة ثلاث مبالغات لأن النفح في معنى القلة والنزارة.

يقال: نفحته الدابة وهو رمح يسير وففحه بعطية: رضخه.

ولبناء المرة.

" ونضع الموزين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ".

وصفت " الموزين " بالقسط وهو العدل مبالغة كأنها في أنفسها قسط.

أو على حذف المضاف أي: ذوات القسط.

واللام في " ليوم القيمة " مثلها في قولك: جئته لخمس ليال خلون من الشهر.

ومنه بيت النابغة: ترسمت آيات لها فعرفتها لستة أعوام وذا العام سابع وقيل: لأهل يوم القيامة أي لأجلهم.

فإن قلت: ما المراد بوضع الموازين قلت: فيه قولان أحدهما: إرصاد الحساب السوي والجزاء على حسب الأعمال بالعدل والنصفة من غير أن يظلم عباده مثقال ذرة فمثل ذلك بوضع الموازين لتوزن بها الموزونات.

والثاني: أنه يضع الموازين الحقيقية ويزن بها الأعمال.

عن الحسن: هو ميزان له كفتان ولسان.

ويروى: أن داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان فلما رآه غشي عليه ثم أفاق فقال: يا إلهي من الذي يقدر أن يملأ كفته حسنات.

فقال: يا داود إني إذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة.

فإن قلت: كيف توزن الأعمال وإنما هي أعراض قلت: فيه قولان أحدهما: توزن صحائف الأعمال.

والثاني: تجعل في كفة الحسنات جواهر بيض مشرقة وفي كفة السيئات جواهر سود مظلمة.

وقرىء: " مثقال حبة " على " كان " التامة كقوله تعالى: " وإن كان ذو عسرة " البقرة: 80 وقرأ ابن عباس ومجاهد: " آتينا بها " وهي مفاعلة من الإتيان بمعنى المجازاة والمكافأة لأنهم أتوه بالأعمال وأتاهم بالجزاء وقرأ حميد " أثبنا بها " من الثواب.

وفي حرف أبي " جئنا بها ".

وأنث ضمير المثقال لإضافته إلى الحبة كقولهم: ذهبت بعض أصابعه أي آتيناهما.

" ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياءً وذكراً للمتقين ".

أي: آتيناهما " الفرقان " وهو التوراة وأتينا به " وضياءً وذكراً للمتقين " والمعنى: أنه في نفسه ضياء وذكر.

أو آتيناهما بما فيه من الشرائع والمواعظ ضياء وذكراً.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الفرقان: الفتح كقوله: " يوم الفرقان " الأنفال: 41 وعن الضحاك: فلق البحر.

وعن محمد بن كعب: المخرج من الشبهات.

وقرأ ابن عباس: " ضياء " بغير واو: وهو حال عن الفرقان.

" الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون ".

محل " الذين " جر على الوصفية.

أو نصب على المدح.

أو رفع عليه.

" وهذا ذكر مبارك أنزلنه أفأنتم له منكرون ".

" وهذا ذكر مبارك " هو القرآن.

وبركته: كثرة منافعه وغزارة خيره.

" ولقد ءاتينا إبرهيم رشده من قبل وكنا به علمين إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عكفون قالوا وجدنا آباءنا لها عبدين قال لقد كنتم أنتم وءاباؤكم في ضلل مبين ".

الرشد: الاهتداء لوجوه الصلاح.

قال الله تعالى: " فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا من إليهم أموالهم " النساء: 6 وقرىء: " رشده " والرشد والرشد كالعدم والعدم.

ومعنى إضافته إليه: أنه رشد مثله.

وأنه رشد له شأن " من قبل " أي من قبل موسى وهرون عليهما السلام.

ومعني علمه به: أنه علم منه أحوالاً بديعة وأسراراً عجيبة وصفات قد رضيها وأحمدها حتى أهله لمخالته ومخالصته وهذا كقولك في خير من الناس: أنا لم بفلان فكلامك هذا من الاحتواء على محاسن الأوصاف بمنزل " إذ " إما أن يتعلق بآيتنا أو برشده أو بمحذوف أي: اذكر من أوقات رشده هذا الوقت.

قوله: " ما هذه التماثيل " تجاهل لهم وتغاب ليحقر آلهتهم ويصغر شأنها مع علمه بتعظيمهم وإجلالهم لها.

لم ينو للعاكفين مفعولاً وأجراه مجرى ما لا يتعدى كقولك:

فاعلون العكوف لها واقفون لها.

فإن قلت: هلا قيل: عليها عاكفون كقوله تعالى: " يعكفون على أصنام لهم " الأعراف: 138 قلت: لو قصد التعدية لعداه بصلته التي هي " على ".

ما أقبح التقليد والقول المتقبل بغير برهان وما أعظم كيد الشيطان للمقلدين حين استرجهم إلى أن قلدوا آباءهم في عبادة التماثيل وعفروا لها جباههم وهم معتقدون أنهم على شيء وجادون في نصرة مذهبهم ومجادلون لأهل الحق عن باطلهم وكفى أهل التقليد سبة أن عبدة الأصنام منهم " أنتم " من التأكيد الذي لا يصح الكلام مع الإخلال به لأن العطف على ضمير هو في حكم بعض الفعل ممتنع.

ونحوه: اسكن أنت وزوجك الجنة أراد أن المقلدين والمقلدين جميعاً منخرطون في سلك ضلال لا يخفى على من به أدنى مسكة لاستناد الفريقين إلى غير دليل بل إلى هوى متبع وشيطان مطاع لاستبعادهم أن يكون ما هم عليه ضلالاً.

" قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ".

بقوا متعجبين من تضليله إياهم وحسبوا أن ما قاله إنما قاله على وجه المزاح والمداعبة لا على طريق الجد.

فقالوا له: هذا الذي جئتنا به أهو جد وحق أم لعب وهزل " قال بل ربكم رب السموت والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشهدين ".

الضمير في " فطرهن " للسموات والأرض.

أو للتماثيل وكونه للتماثيل أدخل في تضليلهم وأثبت للاحتجاج عليهم.

وشهادته على ذلك: إدلاؤه بالحجة عليه.

وتصحيحه بها كما تصحح الدعوى بالشهادة كأنه قال: وأنا أبين ذلك وأبرهن عليه كما تبين الدعاوى بالبينات لأني لست مثلكم فأقول ما لا أقدر على إثباته بالحجة.

كما لم تقدروا على الاحتجاج لمذهبكم ولم تزيدوا على أنكم وجدتم عليه آباءكم.

" وتالله لأكيدن أصنمكم بعد أن تولوا مدبرين فجعلهم جذذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون ".

قرأ معاذ بن جبل " بالله " وقرىء " تولوا " بمعنى تتولوا.

ويقويها قوله: " فتولوا عنه مدبرين " الصافات: 90.

فإن قلت: ما الفرق بين الباء والتاء.

قلت: أن الباء هي الأصل والتاء بدل من الواو المبدلة منها وأن التاء فيها زيادة معنى وهو التعجب كأنه تعجب من تسهل الكيد على يده وتأتيه لأن ذلك كان أمراً مقنوطاً منه لصعوبته وتعذره.

ولعمري إن مثله صعب متعذر في كل زمان.

خصوصاً في زمن نمروذ مع عتوه واستكباره وقوة سلطانه وتهالكه على نصرة دينه ولكن: إذا الله سنى عقد شيء تيسرا روي أن آزر خرج به في يوم عيد لهم فبدؤوا ببيت الأصنام فدخلوه وسجدوا لها ووضعوا بينها طعاماً خرجرا به معهم وقالوا: بلى أن نرجع بركت الآلهة على طعامنا فذهبوا وبقي إبراهيم فنظر إلى الأصنام وكانت سبعين صنماً مصطفة وثم صنم عظيم مستقبل الباب وكان من ذهب وفي عينيه جوهرتان تضيئان بالليل فكسرها كلها بفأس في يده حتى إذا لم يبق إلا الكبير علق الفأس في عنقه عن قتادة: قال ذلك سراً من قومه وروي: سمعه رجل واحد " جذذاً " قطاعاً من الجذ وهو القطع.

وقرىء بالكسر والفتح.

وقرىء: " جذذاً " جمع جذيذ و " جذذاً " جمع جذة.

وإنما استبقى الكبير لأنه غلب في ظنه أنهم لا يرجعون إلا إليه لما تسامعوه من إنكاره لدينهم وسبه لآلهتهم فيبكتهم بما أجاب به من قوله: " بل فعله كبيرهم هذا فسئلوهم " وعن الكلبي " إليه " إلى كبيرهم.

ومعنى هذا: لعلهم يرجعون إليه كما يرجع إلى العالم في حل المشكلات يقولون له: ما لهؤلاء مكسورة ومالك صحيحاً والفأس على عاتقك قال هذا بناء على ظنه بهم لما جرب وذاق من مكابرتهم لعقولهم واعتقادهم في آلهتهم وتعظيمهم لها.

أو قاله مع علمه أنهم لا يرجعون إليه استهزاء بهم واستجهالاً وأن قياس حال من يسجد له يؤهله للعبادة أن يرجع إليه في حل كل مشكل.

فإن قلت: فإذا رجعوا إلى الصنم بمكابرتهم لعقولهم ورسوخ الإشراك في أعراقهم فإي فائدة دينية في رجوعهم إليه حتى جعله إبراهيم صلوات الله عليه غرضاً.

قلت: إذا رجعوا إليه تبين أنه عاجز لا ينفع ولا ضر وظهر أنهم في عبادته على جهل عظيم.

أي أن من فعل هذا الكسر والحطم لشديد الظلم معدود في الظلمة: إما لجرأته على الآلهة الحقيقية عندهم بالتوقير والإعظام وإقا لأنهم رأوا إفراطاً في حطمها وتمادياً في الاستهانة بها.

"قالوا سمعنا فتىً يذكهم يقال لهم إبرهيم قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ".

فإن قلت: ما حكم الفعلين بعد " سمعنا فتىً " وأي فرق بينهما.

قلت: هما صفتان لفتى إلا أن الأول وهو " يذكرهم " لا بد منه لسمع لأنك لا تقول: سمعت زيداً وتسكت حتى تذكر شيئاً مما يسمع.وأما الثاني فليس كذلك.فإن قلت: " إبرهيم " ما هو.

قلت: قيل هو خبر مبتدأ محذوف أو منادى.والصحيح أنه فاعل يقال لأن المراد الاسم لا المسمى " على أعين الناس " في محل الحال بمعنى معايناً مشاهداً أي: بمرأى منهم ومنظر.

فإن قلت: فما معنى الاستعلاء في على قلت: هو وارد على طريق المثل أي: يثبت إتيانه في الأعين ويتمكن فيها ثبات للراكب على المركوب وتمكنه منه " لعلهم يشهدون " عليه بما سمع منه.

وبما فعله أو يحضرون عقوبتنا له.

روي أن الخبر بلغ نمررذ وأشراف قومه فأمروا بإحضاره.

" قالوا أأنت فعلت هذا بئالهتنا يإبرهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فسئلوهم إن كانوا ينطقون ".

هذا من معاريض الكلام ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الراضة من علماء المعاني.

والقول فيه أن قصد إبراهيم صلوات الله عليه لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه

إلى الصنم وإنما قصد تقريره لنفسه لها على ثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم وهذا كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت كتاباً بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط: أأنت كتبت هذا وصاحبك أمي لا يحسنه الخط ولا يقدر إلا على خرمشة فاسدة! فقلت له: بل كتبته أنت كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به لا نفيه عنك وإثباته للأمي أو المخرمش لأن إثباته - والأمر دائر بينكما للعاجز منكما - استهزاء به وإثبات للقادر ولقائل أن يقول: غاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة مرتبة وكان غيظ كبيرها أكبر وأشد لما رأى من زيادة تعظيمهم له.

فأسند الفعل إليه لأنه هو الذي تسبب لاستهانته بها وحطمه لها والفعل كما يسند إلى مباشرة يسند إلى الحامل عليه ويجوز أن يكون حكاية لما يقود إلى تجويزه مذهبهم كأنه قال لهم: ما تنكرون أن يفعله كبيرهم.

فإن من حق من يعبد ويدعى إلهاً أن يقدر على هذا وأشد منه.

ويحكى أنه قال: فعله كبيرهم هذا غضب أن تعبد معه هذه الصغار وهو أكبر منها.

وقرأ محمد بن السميقع " فعله كبيرهم " يعني: فلعله أي فلعل الفاعل كبيرهم.

" فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظلمون ".

فلما ألقمهم الحجر وأخذ بمخانقهم رجعوا إلى أنفسهم فقالوا: أنتم الظالمون على الحقيقة لا من

" ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ".

نكسته: قلبته فجعلت أسفله أعلاه وانتكس: انقلب أي: استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم وجاؤوا بالفكرة الصالحة ثم انتكسوا وانقلبوا عن تلك الحالة فأخذوا في المجادلة بالباطل

والمكابرة وأن هؤلاء - مع تقاصر حالها عن حال الحيوان الناطق - آلهة معبودة مضارة منهم.

أو انتكسوا عن كونهم مجادلين لإبراهيم عليه السلام مجادلين عنه حين نفوا عنها القدرة على النطق.

أو قلبوا على رؤوسهم حقيقة لفرط إطراقهم سنن وانكساراً وانخزالاً مما بهتهم به إبراهيم عليه السلام فما أحاروا جواباً إلا ما هو حجة عليهم.

وقرىء: " نكسوا " بالتشديد ونكسوا على لفظ ما سمي فاعله أي: نكسوا أنفسهم على رؤوسهم.

قرأ به رضوان بن عبد المعبود.

" قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ".

" أف " صوت إذا صوت به علم أن صاحبه متضجر أضجره ما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم وبعد وضوح الحق وزهوق الباطل فتأفف بهم.

واللام لبيان المتأفف به.

أي: لكم ولآلهتكم هذا التأفف.

" قالوا حرقوه وانصروا ءالهتكم إن كنتم فعلين قلنا ينار كوني برداً وسلماً على إبرهيم وأرادوا به كيداً فجعلنهم خاسرين ".

أجمعوا رأيهم - لما غلبوا - بإهلاكه وهكذا المبطل إذا قرعت شبهته بالحجة وافتضح لم يكن أحد أبغض إليه من المحق.

ولم يبق له مفزع إلا مناصبته كما فعلت قريش برسول الله صلى الله عليه وسلم حين عجزوا عن المعارضة والذي أشار بإحراقه نمروذ.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: رجل من أعراب العجم يريد الأكراد.

وروي: أنهم حين هموا بإحراقه حبسوه ثم بنوا بيتاً كالحظيرة بكوثى وجمعوا شهراً أصناف الخشب الصلاب حتى إن كانت المرأة لتمرض فتقول: إن عافاني الله لأجمعن حطباً لإبراهيم عليه السلام ثم أشعلوا ناراً عظيمة كادت الطير تحترق في الجو من وهجها.

ثم وضعوه في المنجنيق مقيداً مغلولاً فرموا به فيها فناداها جبريل عليه السلام " ينار كونى برداً وسلماً " ويحكى.

ما أحرقت منه إلا وثاقه.

وقال له جبريل عليه السلام حين رمي به: هل لك حاجة فقال: أما إليك فلا.

قال: فسل ربك.

قال: حسبي من سؤالي علمه بحالى.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إنما نجا بقوله: حسبي الله ونعم الوكيل وأطل عليه نمروذ من الصرح فإذا هو في روضة ومعه جليس له من الملائكة فقال: إني مقرب إلى إلهك فذبح أربعة آلاف بقرة وكف عن إبراهيم وكان إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه إذ

ذاك ابن ست عشرة سنة.

واختاروا المعاقبة بالنار لأنها أهول ما يعاقب به وأفظعه ولذلك جاء: " لا يعذب بالنار إلا خالقها " ومن ثم قالوا: " إن كنتم فعلين " أي إن كنتم ناصرين آلهتكم نصراً مؤزراً فاختاروا له أهول المعاقبات وهي الإحراق بالنار وإلا فرطتم في نصرتها.

ولهذا عظموا النار وتكلفوا في تشهير أمرها وتفخيم شأنها ولم يألوا جهداً في ذلك.

جعلت النار لمطاوعتها فعل الله وإرادته كمأمور أمر بشيء فامتثله.

والمعنى: ذات برد وسلام فبولغ في ذلك كأن ذاتها برد وسلام.

والمراد: ابردي فيسلم منك إبراهيم.

أو ابردي برداً غير ضار.

وعن ابن عباس رضي الله عنه: لو لم يقل ذلك لأهلكته ببردها.

فإن قلت: كيف بردت النار وهي نار قلت: نزع الله عنها طبعها الذي طبعها عليه من الحر والإحراق وأبقاها على الإضاءة أوالإشراق والاشتعال كما كانت والله على كل شيء قدير.

ويجوز أن يدفع بقدرته عن جسم إبراهيم عليه السلام أذى حرها ويذيقه فيها عكس ذلك كما يفعل بخزنة جهنم ويدل عليه قوله: " على إبرهيم " وأرادوا أن يكيدوه ويمكروا به فما كانوا إلا مغلوبين مقهورين غالبوه بالجدال فغلبه الله ولقنه بالمبكت وفزعوا إلى القوة والجبروت فنصره وقواه.

" ونجينه ولوطاً إلى الأرض التي بركنا فيها للعلمين ".

نجيا من العراق إلى الشام.

وبركاته الواصلة إلى العالمين: أن أكثر الأنبياء عليهم السلام بعثوا فيه فانتشرت في العالمين شرائعهم وآثارهم الدينية وهي البركات الحقيقية.

وقيل: بارك الله فيه بكثرة الماء والشجر والثمر والخصب وطيب عيش الغني والفقير.

وعن سفيان أنه خرج إلى الشام فقيل له: إلى أين فقال: إلى بلد يملأ فيه الجراب بدرهم.

وقيل: ما من ماء عذب إلا وينبع أصله من تحت الصخرة التي ببيت المقدس وروي: أنه نزل بفلسطين ولوط بالمؤتفكة وبينهما مسيرة يوم وليلة.

"ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلةً وكلاً جعلنا صلحين ".

النافلة: ولد الولد.

وتيل سأل إسحاق فأعطيه وأعطي يعقوب نافلة أي: زيادة وفضلاً من غير سؤال.

" وجعلنهم أئمةً يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم الخيرت وإقام الصلوة وإيتاء الزكوة وكانوا لنا عبدين ".

" يهدون بأمرنا " فيه أن من صلح ليكون قدوة في دين الله فالهداية محتومة عليه مأمور هو بها من جهة الله ليس له أن يخل بها ويتثاقل عنها وأول ذلك أن يهتدي بنفسه لأن الانتفاع بهداه أعم والنفوس إلى الاقتداء بالمهدي أميل " فعل الخيرت " أصله أن تفعل الخيرات ثم فعلا الخيرات ثم فعل الخيرات.

وكذلك إقام الصلاه وإيتاء الزكاة.

" ولوطاً ءاتينه حكماً ونجينه من القرية التي كانت تعمل الخبئِث إنهم كانوا قوم فسقين وأدخلنه في رحمتنا إنه من الصلحين ".

" حكماً " حكمه وهو ما يجب فعله.

أو فصلاً بين الخصوم.

وقيل: هو النبوة.

والقرية: سدوم أي: في أهل رحمتنا أو في الجنة.

ومنه الحديث.

" هذه رحمتي أرحم بها من أشاء " " ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجينه وأهله من الكرب العظيم ونصرنه من القوم الذين كذبوا بئايتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقنهم أجمعين ".

" من قبل " من قبل هؤلاء المذكورين.

هو " نصر " الذي مطاوعه " انتصر " وسمعت هذلياً يدعو على سارق: اللهم انصرهم منه أي: اجعلهم منتصرين منه.

والكرب: الطوفان وما كان فيه من تكذيب قومه.

" وداود وسليمن إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شهدين ففهمنها سليمن وكلاً ءاتينا حكماً وعلماً وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فعلين وعلمنه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شكرون ".

أي: واذكرهما. وإذ: بدل منهما. والنفش: الانتشار بالليل. وجمع الضمير لأنه أرادهما

والمتحاكمين إليهما. وقرىء: " لحكمهما " والضمير في " ففهمنها " للحكومة أو الفتوى.

وقرىء: " فأفهمناها " حكم داود بالغنم لصاحب الحرث فقال سليمان عليه السلام وهو ابن إحدى عشرة سنة: غير هذا أرفق بالفريقين فعزم عليه ليحكمن فقال: أرى أن تدفع

الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بألبانها وأولادها وأصوافها والحرث إلى أرباب الشاء يقومون عليه حتى يعود كهيئته يوم أفسد ثم يترادان.

فقال: القضاء ما قضيت وأمضى الحكم بذلك.

فإن قلت: أحكما بوحي أم باجتهاد قلت: حكما جميعاً بالوحي إلا أن حكومة داود نسخت بحكومة سليمان.

وقيل: اجتهدا جميعاً فجاء اجتهاد سليمان عليه السلام أشبه بالصواب.

فإن قلت: ما وجه كل واحدة من الحكومتين قلت: أما وجه حكومة داود عليه السلام فلأن الضرر لما وقع بالغنم سلمت بجنايتها إلى المجني عليه كما قال أبو حنيفة رضي الله عنه في العبد إذ جنى على النفس: يدفعه المولى بذلك أو يفديه وعند الشافعي رضي الله عنه: يبيعه في ذلك أو يفديه.

ولعل قيمة الغنم كانت على قدر النقصان في الحرث.

ووجه حكومة سليمان عليه السلام أنه جعل الانتفاع بالغنم بإزاء ما فات من الانتفاع بالحرث من غير أن يزول ملك المالك عن الغنم وأوجب على صاحب الغنم أن يعمل في الحرث حتى يزول الضرر والنقصان مثاله ما قال أصحاب الشافعي فيمن غصب عبداً فأبق من يده: أنه يضمن القيمة فينتفع بها المغصوب منه بإزاء ما فوته الغاصب من منافع العبد فإذا ظهر ترادا فإن قلت: فلو وقعت هذه الواقعة في شريعتنا ما حكمها.

قلت: أبو حنيفة وأصحابه رضي الله عنهم لا يرون فيه ضماناً بالليل أو بالنهار إلا أن يكون مع البهيمة سائق أو قائد والشافعي رضي الله عنه يوجب الضمان بالليل.

وفي قوله: " ففهمنها سليمن " دليل على أن الأصوب كان مع سليمان عليه السلام.

وفي قوله " وكلاً ءاتينا حكماً وعلماً " دليل على أنهما جميعاً كانا على الصواب " يسبحن " حال بمعنى مسبحات.

أو استئناف.

كأن قائلاً قال: كيف سخرهن فقال: يسبحن " والطير " إما معطوف على الجبال أو مفعول معه فإن قلت: لم قدمت الجبال على الطير قلت: لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدل على القدرة وأدخل في الإعجاز لأنها جماد والطير حيوان إلا أنه غير ناطق.

روي: أنه كان يمر بالجبال مسبحاً وهي تجاوبه.

وقيل: كانت تسير معه حيث سار.

فإن قلت: كيف تنطق الجبال وتسبح.

قلت: بأن يخلق الله فيها الكلام كما خلقه في الشجرة حين كلم موسى وجواب آخر: وهو أن يسبح من رآها تسير بتسيير الله فلما حملت على التسبيح وصفت به " وكنا فعلين " أي قادرين على أن نفعل هذا.

وإن كان عجباً عندكم وقيل: وكنا نفعل بالأنبياء مثل ذلك.

اللبوس: اللباس.

قال:

والمراد الدرع قال قتادة: كانت صفائح فأول من سردها وحلقها داود فجمعت الخفة والتحصين " لتحصنكم " قرىء بالنون والياء والتاء وتخفيف الصاد وتشديدها فالنون لله عز وجل والتاء للصنعة أو للبوس على تأويل المرع والياء لداود أو للبوس.

" ولسليمن الريح عاصفةً تجري بأمره إلى الأرض التي بركنا فيها وكنا بكل شيء علمين ومن الشيطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك وكنا لهم حفظين ".

قرىء: " الريح " و " الرياح " بالرفع والنصب فيهما فالرفع على الابتداء والنصب على العطف على الجبال.

فإن قلت: وصفت هذه الرياح بالعصف تارة وبالرخاوة أخرى فما التوفيق بينهما قلت: كانت في نفسها رخية طيبة كالنسيم فإذا مرت بكرسيه أبعدت به في مدة يسيرة على ما قال: " غدوها شهر ورواحها شهر " سبأ: 12 فكان جمعها بين الأمرين أن تكون رخاء في نفسها وعاصفة في عملها مع طاعتها لسليمان وهبوبها على حسب ما يريد ويحتكم: آية إلى آية ومعجزة إلى معجزة.

وقيل كانت في وقت رخاء وفي وقت عاصفاً لهبوبها على حكم إرادته " وكنا بكل شيء عالمين " وقد أحاط علمنا بكل شيء فنجري الأشياء كلها على ما يقتضيه علمنا وحكمتنا.

أي: يغوصون له في البحار فيستخرجون الجواهر ويتجاوزون ذلك إلى الأعمال والمهن وبناء

المدائن والقصور واختراع الصنائع العجيبة كما قال: " يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل " سبأ: 13 والله حافظهم أن يزيغوا عن أمره أو يبدلوا أو يغيروا أو يوجد منهم فساد في الجملة فيما هم مسخرون فيه.

" وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الرحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وءاتينه أهله ومثلهم معهم رحمةً من عندنا وذكرى للعبدين ".

أي: ناداه بأني مسني الضر.

وقرىء: " إني " بالكسر على إضمار القول أو لتضمن النداء معناه والضر - بالفتح -: الضرر في كل شيء وبالضم: الضرر في النفس من مرض وهزال فرق بين البناءين لافتراق المعنيين.

ألطف في السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة وذكر ربه بغاية الرحمة ولم يصرح بالمطلوب.

ويحكى أن عجوزاً تعرضت لسليمان بن عبد الملك فقالت: يا أمير المؤمنين مشت جرذان بيتي على العصي! فقال لها: ألطفت في السؤال لا جرم لأردنها تثب وثب الفهود وملا بيتها حباً.

كان أيوب عليه السلام رومياً من ولد إسحاق بن يعقوب عليهم السلام وقد استنبأه الله وبسط عليه المنيا وكثر أهله وماله: كان له سبعة بنين وسبع بنات وله أصناف البهائم وخمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد لكل عبد امرأة وولد ونخيل فابتلاه الله بذهاب ولده - انهدم عليهم البيت فهلكوا - وبذهاب ماله وبالمرض في بدنه ثماني عشرة سنة.

وعن قتادة: ثلاث عشرة سنة.

وعن مقاتل: سبعاً وسبعة أشهر وسبع ساعات وقالت له أمرأته يوماً: لو دعوت الله فقال لها: كم كانت مدة الرخاء فقالت ثمانين سنة فقال: أنا أستحي من الله أن أدعوه وما بلغت مدة بلائي مدة رخائي فلما كشف الله عنه أحيا ولده ورزقه مثلهم ونوافل منهم.

وروي: أن امرأته ولدت بعد ستة وعشرين ابناً.

أي: لرحمتنا العابدين وأنا نذكرهم بالإحسان لا ننساهم أو رحمة منا لأيوب وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر حتى يثابوا كما أثيب في الدنيا والآخرة.

" وإسمعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصبرين وأدخلنهم في رحمتنا إنهم من الصلحين ".

قيل في ذي الكفل: هو إلياس.

وقيل: زكريا.

وقيل: يوشع بن نون وكأنه سمي بذلك لأنه ذو الحظ من الله والمجدود على الحقيقة.

وقيل: كان له ضعف عمل الأنبياء في زمانه وضعف ثوابهم.

وقيل: خمسة من الأنبياء ذوو اسمين: إسرائيل ويعقوب.

إلياس وذو الكفل.

عيس والمسيح.

يونس وذو النون.

محمد وأحمد: صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

" وذا النون إذ ذهب مغضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمت أن لا إله إلا أنت سبحنك إني كنت من الظالمين ".

" النون " الحوت فأضيف إليه.

برم بقومه لطول ما ذكرهم فلم يذكروا وأقاموا على كفرهم

فراغمهم وظن أن ذلك يسوغ حيث لم يفعله إلا غضباً لله وأنفةً لدينه وبغضاً للكفر وأهله وكان عليه أن يصابر وينتظر الإذن من الله في المهاجرة عنهم فابتلي ببطن الحوت.

ومعنى مغاضبته لقومه: أنه أغضبهم بمفارقته لخوفهم حلول العقاب عليهم عندها.

وقرأ أبو شرف " مغضباً " قرىء: " نقدر " و " نقدر " مخففاً ومثقلاً ويقدر بالياء بالتخفيف.

ويقدر.

ويقدر على البناء للمفعول مخففاً ومثقلاً.

وفسرت بالتضييق عليه وبتقدير الله عليه عقوبة.

وعن ابن عباس: أنه دخل على معاوية فقال: لقد ضربتني أمواج القرآن البارحة فغرقت فيها فلم أجد لنفسي خلاصاً إلا بك قال: وما هي يا معاوية فقرأ هذه الآية وقال: أو يظن نبي الله أن لا يقدر عليه.

قال: هذا من القدر لا من القدرة.

والمخفف يصح أن يفسر بالقدرة على معنى: أن لن نعمل فيه قدرتنا وأن يكون من باب التمثيل بمعنى: فكانت حاله ممثلة بحال من ظن أن لن نقدر عليه في مراغمته قومه من غير انتظار لأمر الله.

ويجوز أن يسبق ذلك إلى وهمه بوسوسة الشيطان ثم يردعه ويرده بالبرهان كما يفعل المؤمن المحقق بنزغات الشيطان وما يوسوس إليه في كل وقت.

ومنه قوله تعالى: " وتظنون بالله الظنونا " الأحزاب: 10 والخطاب للمؤمنين " فى الظلمت " أي في الظلمة الشديدة المتكاثفة في بطن الحوت كقوله: " ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات " البقرة: 17 وقوله: " يخرجونهممن النور إلى الظلمات " البقرة: 257 وقيل: ظلمات بطن

الحوت والبحر والليل - وقيل: ابتلع حوته حوت أكبر منه فحصل في ظلمتي بطني الحوتين وظلمة البحر.

" أن " أي بأنه " لا إله إلا أنت " أو بمعنى " أي " عن النبي صلى الله عليه وسلم: " ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له " وعن الحسن: ما نجاه والله إلا إقراره على نفسه بالظلم.

" فاستجبنا له ونجينه من الغم وكذلك نجي المؤمنين ".

" نجي " " وننجي " " نجي " والنون لا تدغم في الجيم ومن تمحل لصحته فجعله فعل وقال نجى النجاء المؤمنين - فأرسل الياء وأسنده إلى مصدره ونصب المؤمنين بالنجاء - فمتعسف بارد التعسف.

" وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسرعون في الخيرت ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خشعين ".

سأل ربه أن يرزقه ولداً يرثه ولا يدعه وحيداً بلا وارث ثم رد أمره إلى الله مستسلماً فقال: " وأنت خير الوارثين " أي إن لم ترزقني من يرثني فلا أبالي فإنك خير وارث.

إصلاح زوجه: أن جعلها صالحة للولادة بعد عقرها.

وقيل: تحسين خلقها وكانت سيئة الخلق " إنهم " الضمير للمذكورين من الأنبياء عليهم السلام يريد أنهم ما استحقوا الإجابة إلى طلباتهم إلا لمباشرتهم

أبواب الخير ومسارعتهم في تحصيلها كما يفعل الراغبون في الأمور الجادون.

وقرىء " رغباً ورهباً " بالإسكان وهو كقوله تعالى: " يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه " الزمر: 9.

" خشعين " قال الحسن: ذللاً لأمر الله.

وعن مجاهد: الخشوع الخوف الدائم في القلب.

وقيل: متواضعين.

وسئل الأعمش فقال: أما إني سألت إبراهيم فقال: ألا تدري قلت: أفدني.

قال: بينه وبين الله إذا أرخى ستره وأغلق بابه فلير الله منه خيراً لعلك ترى أنه أن يأكل خشناً ويلبس خشناً ويطأطىء رأسه.

" والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلنها وابنها ءاية للعلمين ".

" أحصنت فرجها " إحصاناً كلياً من الحلال والحرام جميعاً كما قالت: " ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا " مريم: 20 فإن قلت: نفخ الروح في الجسد عبارة عن إحيائه.

قال الله تعالى: " فإذا سويته ونفخت فيه من روحي " الحجر: 29 أي أحييته.

وإذا ثبت ذلك كان قوله: " فنفخنا فيها من روحنا " ظاهر الإشكال لأنه يدل على إحياء مريم قلت: معناه نفخنا الروح في عيسى فيها أي: أحييناه في جوفها.

ونحو ذلك أن يقول الزمار: نفخت في بيت فلان أي: نفخت في المزمار في بيته.

ويجوز أن يراد: وفعلنا النفخ في مريم من جهة روحنا وهو جبريل عليه السلام لأنه نفخ في جيب درعها فوصل النفخ إلى جوفها.

فإن قلت: هلا قيل آيتين كما قال: " وجعلنا الليل

والنهار آيتين " الإسراء: 12 قلت: لأن حالهما بمجموعهما آية واحدة وهي ولادتها إياه من غير فحل.

" إن هذه أمتكم أمة وحدة وأنا ربكم فاعبدون ".

الأمة: الملة و " هذه " إشارة إلى ملة الإسلام أي: إن ملة الإسلام هي ملتكم التي يجب أن تكونوا عليها لا تنحرفون عنها يشار إليها ملة واحدة غير مختلفة " وأنا " إلهكم إله واحد " فاعبدون " ونصب الحسن أمتكم على البدل من هذه ورفع أمة خبراً.

وعنه رفعهما جميعاً خبرين لهذه.

أو نوى للثاني مبتدأ والخطاب للناس كافة.

" وتقطعوا أمرهم كل إلينا رجعون ".

والأصل: وتقطعتم إلا أن الكلام حرف إلى الغيبة على طريقة الالتفات كأنه ينعي عليهم ما أفسدوه إلى آخرين ويقبح عندهم فعلهم ويقول لهم: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله.

والمعنى: جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً كما يتوزع الجماعة الشيء ويتقسمونه فيطير لهذا نصيب ولذاك نصيب تمثيلاً لاختلافهم فيه وصيرورتهم فرقاً وأحزاباً شتى.

ثم توعدهم بأن هؤلاء الفرق المختلفة إليه يرجعون فهو محاسبهم ومجازيهم.

" فمن يعمل من الصلحت وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كتبون ".

الكفران: مثل في حرمان الثواب كما أن الشكر مثل في إعطائه إذا قيل لله: شكور.

وقد نفى نفي الجنس ليكون أبلغ من أن يقول: فلا نكفر سعيه " وإنا له كتبون " أي نحن كاتبو ذلك السعي ومثبتوه في صحيفة عمله وما نحن مثبتوه فهو غير ضائع ومثاب عليه صاحبه.

" وحرم علي قرية أهلكنها أنهم لا يرجعون حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ".

استعير الحرام للممتنع وجوده.

ومنه قوله عز وجل: " إن الله حرمهما على الكافرين " الأعراف: 0 أي منعهما منهم وأبى أن يكونا لهم.

وقرىء: " حرم " و " حرم " بالفتح والكسر.

وحرم وحرم.

ومعنى " أهلكنها " عزمنا على إهلاكها.

أو قدرنا إهلاكها.

ومعنى الرجوع: الرجوع من الكفر إلى الإسلام والإنابة ومجاز الآية: أن قوماً عزم الله على إهلاكهم غير متصور أن يرجعوا وينيبوا " إلى أن تقوم القيامة فحينئذ يرجعون ويقولون: " يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين " الأنبياء: 97 يعني: أنهم مطبوع على قلوبهم فلا يزالون على كفرهم ويموتون عليه حتى يروا العذاب.

وقرىء: " إنهم " بالكسر.

وحق هذا أن يتتم الكلام قبله فلا بد من تقدير محذوف كأنه قيل: وحرام على قرية أهلكناها ذاك.

وهو المذكور في الآية المتقدمة من العمل الصالح والسعي المشكور غير المكفور ثم علل فقيل: إنهم لا يرجعون عن الكفر فكيف لا يمتنع ذلك

والقراءة بالفتح يصح حملها على هذا أي: لأنهم لا يرجعون ولا صلة على الوجه الأول.

فإن قلت: بم تعلقت " حتى " واقعة غاية له وأية الثلاث هي قلت: هي متعلقة بحرام وهي غاية له لأن امتناع رجوعهم لا يزول حتى تقوم القيامة وهي " حتى " التي يحكى بعدها الكلام والكلام المحكي: الجملة من الشرط والجزاء أعني: " إذا " وما في حيزها حذف المضاف إلى " يأجوج ومأجوج " وهو سدهما كما حذف المضاف إلى القرية وهو أهلها.

وقيل: فتحت كما قيل: " أهلكنها " وقرىء " آجوج " وهما قبيلتان من جنس الإنس يقال: الناس عشرة أجزاء تسعة منها يأجوج ومأجوج " وهم " راجع إلى الناس المسوقين إلى المحشر وقيل: هم يأجوج ومأجوج يخرجون حين يفتح السد.

الحدب: النشز من الأرض.

وقرأ ابن عباس رضي الله عنه " من كل جدث " وهو القبر الثاء: حجازية والفاء: تميمية.

وقرىء: " ينسلون " بضم السين ونسل وعسل: أسرع.

" واقترب الوعد فإذا هي سخصة أبصر الذين كفروا يويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظلمين ".

و " إذا " هي إذا المفاجأة وهي تقع في المجازاة سادة مسد الفاء كقوله تعالى: " إذا هم ينصلون ".

الروم: 36 فإذا جاءت الفاء معها تعاونتا على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد ولو قيل: إذا هي شاخصة.

أو فهي شاخصة كان سديداً " هي " ضمير مبهم توضحه الأبصار وتفسره كما

فسر الذين ظلموا وأسروا " يويلنا " متعلق بمحذوف تقديره: يقولون يا ويلنا ويقولون في موضع الحال من الذين كفروا.

" إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها وردون لو كان هؤلاء ءالهةً ما وردوها وكل فيها خلدون لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون ".

" ما تعبدون من دون الله " يحتمل الأصنام وإبليس وأعوانه لأنهم بطاعتهم لهم واتباعهم خطواتهم في حكم عبدتهم.

ويصدقه ما روي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد وصناديد قريش في الحطيم وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً فجلس إليهم فعرض له النضر بن الحرث فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أفحمه ثم تلا عليهم " إنكم وما تعبدون من دون الله " الآية فأقبل عبد الله بن الزبعرى فرآهم يتهامسون فقال: فيم خوضكم.

فأخبره الوليد بن المغيرة بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عبد الله: أما والله لو وجدته لخصمته فدعوه.

فقال ابن الزبعرى: أأنت قلت ذلك.

قال: نعم.

قال: قد خصمتك ورب الكعبة.

أليس اليهود عبدوا عزيراً والنصارى عبدوا المسيح وبنو مليح عبدوا الملائكه فقال صلى الله عليه وسلم: بل هم عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك.

فأنزل الله تعالى: " إن الذين سبقت لهم منا الحسنى " الأنبياء: 101 يعني

عزيراً والمسيح والملائكة عليهم السلام.

فإن قلت: لم قرنوا بآلهتهم قلت: لأنهم لا يزالون لمقارنتهم في زيادة غم وحسرة حيث أصابهم ما أصابهم بسببهم.

والنظر إلى وجه العدو باب من العذاب ولأنهم قدروا أنهم يستشفعون بهم في الآخرة ويستشفعون بشفاعتهم فإذا صادفوا الأمر على عكس ما قدروا لم يكن شيء أبغض إليهم منهم.

فإن قلت إذا عنيت بما تعبدون الأصنام فما معنى " لهم فيها زفير " قلت: إذا كانوا هم وأصنامهم في قرن واحد جاز أن يقال: لهم زفير وإن لم يكن الزافرين إلا هم عون الأصنام للتغليب ولعدم الإلباس.

والحصب: المحصوب أي يحصب بهم في النار.

والحصب: الرمي.

وقرىء بسكون الصاد وصفاً بالمصدر.

وقرىء " حطب " و " حضب " بالضاد متحركاً وساكناً وعن ابن مسعود: يجعلون في توابيت من نار فلا يسمعون.

ويجوز أن يصمهم الله كما يعميهم.

إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم في ما اشتهت أنفسهم خلدون لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقهم الملئكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون ".

" الحسنى " الخصلة المفضلة في الحسن تأنيث الأحسن: إما السعادة وإما البشرى بالثواب وإما التوفيق للطاعة يروى أن علياً رضي الله عنه قرأ هذه الآية ثم قال: أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف ثم أقيمت الصلاة فقام يجر

رداءه وهو يقول: " لا يسمعون حسيسها " والحسيس: الصوت يحس والشهوة: طلب النفس اللذة.

وقرىء: " لا يحزنهم " من أحزن.

و " الفزع الأكبر " قيل: النفخة الأخيرة لقوله تعالى: " يوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض " النمل: 87 وعن الحسن: الانصراف إلى النار.

وعن الضحاك: حين يطبق على النار.

وقيل: حين يذبح الموت على صورة كبش أملح " وتتلقاهم " أي تستقبلهم " الملئكة " مهنئين على أبواب الجنة.

ويقولون: هذا وقت ثوابكم الذي وعدكم ربكم قد حل.

" يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فعلين ".

العامل في " يوم نطوي " لا يحزنهم.

أو الفزع.

أو تتلقاهم.

وقرىء " تطوى السماء " على البناء للمفعول و " السجل " بوزن العتل والسجل بلفظ الدلو.

وروي فيه الكسر: وهو الصحيفة أي: كما يطوى الطومار للكتابة أي: ليكتب فيه أو: لما يكتب فيه لأن الكتاب أصله المصدر كالبناء ثم يوقع على المكتوب ومن جمع فمعناه: للمكتوبات أي: لما يكتب فيه من المعاني الكثيرة.

وقيل " الشجل ": ملك يطوي كتب بني آدم إذا رفعت إليه.

وقيل: كاتب كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

والكتاب - على هذا - اسم الصحيفة المكتوب فيها " أول خلق " مفعول نعيد الذي يفسره " نعيده " والكاف مكفوفة بما.

والمعنى: نعيد أول الخلق كما بدأناه

تشبيها للإعادة بالإبداء في تناول القدرة لهما على السواء: فان قلت: وما أول الخلق حتى يعيده كما بدأه قلت: أوله إيجاده عن العدم فكما أوجده أولاً عن عدم يعيده ثانياً عن عدم فإن قلت: ما بال " خلق " منكراً.

قلت: هو كقولك: هو أول رجل جاءني تريد أول الرجال ولكنك وحدته ونكرته إرادة تفصيلهم رجلاً رجلاً فكذلك معنى " أول خلق ": أول الخلق بمعنى: أول الخلائق لأن الخلق مصدر لا يجمع.

ووجه آخر وهو أن ينتصب الكاف بفعل مضمر يفسره " نعيده " وما موصولة أي: نعيد مثل الذي بدأناه نعيده.

وأول خلق: ظرف لبدأنا أي: أول ما خلق أو حال من ضمير الموصول الساقط من اللفظ الثابت في المعنى " وعداً " مصدر مؤكد لأن قوله: " نعيده " عدة للإعادة " إنا كنا فعلين " أي قادرين على أن نفعل ذلك.

" ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصلحون ".

عن الشعبي رحمة الله عليه: زبور داود عليه السلام والذكر: التوراة.

وقيل اسم لجنس ما أنزل على الأنبياء من الكتب.

والذكر: أم الكتاب يعني اللوح أي: يرثها المؤمنون بعد إجلاء الكفار كقوله تعالى: " وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها " الأعراف: 137 " قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين " الأعراف: 128
وعن ابن عباس رضي الله عنه: هي أرض الجنة.

" إن في هذا لبلغاً لقوم يعبدون ".

الإشارة إلى المذكور في هذه السورة من الأخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة.

والبلاغ: الكفاية وما تبلغ به البغية.

" وما أرسلنك إلا رحمةً للعلمين ".

أرسل صلى الله عليه وسلم " رحمةً للعلمين " لأنه جاء بما يسعدهم إن اتبعوه.

ومن خالف ولم يتبع.

فإنما أتى من عند نفسه حيث ضيع نصيبه منها.

ومثاله: أن يفجر الله عيناً غديقة فيسقي ناس زروعهم ومواشيهم بمائها فيفلحوا ويبقى ناس مفرطون عن السقي فيضيعوا فالعين المفجرة في نفسها نعمة من الله ورحمة للفريقين ولكن الكسلان محنة على نفسه حيث حرمها ما ينفعها.

وقيل: كونه رحمة للفجار من حيث أن عقوبتهم أخرت بسببه وأمنوا به عذاب الاستئصال.

" قل إنما يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون ".

إنما لقصر الحكم على شيء أو لقصر الشيء على حكم كقولك: إنما زيد قائم وإنما يقوم زيد.

وقد اجتمع المثالان في هذه الآية لأن " إنما يوحى إلى " مع فاعله بمنزلة: إنما يقوم زيد.

و " أنما إلهكم إله وحد " بمنزلة: إنما زيد قائم.

وفائدة اجتماعهما: الدلالة على أن الوحي إلى

رسول الله صلى الله عليه وسلم مقصور على استئثار الله بالوحدانية: وفي قوله: " فهل أنتم مسلمون " أن الوحي الوارد على هذا السنن موجب أن تخلصوا التوحيد لله وأن تخلعوا الأنداد.

وفيه أن صفة الوحدانية يصح أن تكون طريقها السمع.

ويجوز أن يكون المعنى: أن الذي يوحي إلي فتكون " ما " موصولة.

" فإن تولوا فقل ءاذنتكم على سواء وإن أدري أقريب أم بعيد ما توعدون إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون وإن أدري لعله فتنة لكم ومتع إلى حين ".

آذن منقول من أذن إذا علم ولكنه كثر استعماله في الجري مجرى الإنذار.

ومنه قوله تعالى: " فأذنوا بحرب من الله ورسوله " البقرة: 279 وقول ابن حلزة: آذنتنا ببينها أسماء والمعنى: أني بعد توليكم وإعراضكم عن قبول ما عرض عليكم من وجوب توحيد - الله وتنزيهه عن الأنداد والشركاء كرجل بينه وبين أعدائه هدنة فأحس منهم بغدرة فنبذ إليهم العهد وشهر النبذ وأشاعه وآذنهم جميعاً بذلك " على سواء " أي مستوين في الإعلام به لم يطوه عن أحد منهم وكاشف كلهم وقشر العصا عن لحائها و " ما يوعدون " من غلبة المسلمين عليكم كائن لا محالة ولا بد من أن يلحقكم بذلك الذلة والصغار وإن كنت لا أدري متى يكون ذلك

لأن الله لم يعلمني علمه ولم يطلعني عليه والله عالم لا يخفى عليه ما تجاهرون به من كلام الطعانين في الإسلام و " ما تكتمون " في صدوركم من الإحن والأحقاد للمسلمين وهو يجازيكم عليه.

وما أدري لعل تأخير هذا الموعد امتحان لكم لينظر كيف تعلمون.

وتمتيع لكم " إلى حين " ليكون ذلك حجة عليكم وليقع الموعد في وقت هو فيه حكمة.

" قل رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ".

قرىء " قل " وقال على حكاية قول رسول الله صلى الله عليه وسلم.

و " رب احكم " على الاكتفاء بالكسرة " وربي احكم " على الضم " وربي أحكم " على أفعل التفضيل " وربي أحكم " من الإحكام أمر باستعجال العذاب لقومه فعذبوا ببدر.

ومعنى " بالحق " لاتحابهم وشدد عليهم كما هو حقهم كما قال: " اشدد وطأتك على مضر " قرىء " تصفون " بالتاء والياء.

كانوا يصفون الحال على خلاف ما جرت عليه وكانوا يطمعون أن تكون لهم الشوكة والغلبة فكذب الله ظنونهم وخيب آمالهم ونصر رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وخذلهم.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " من قرأ اقترب للناس حسابهم حاسبه الله حساباً يسيراً وصافحه وسلم عليه كل نبي ذكر

سورة الحج مدنية وهي ثمان وسبعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم " يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم ".

الزلزلة: شدة التحريك والإزعاج وأن يضاعف زليل الأشياء عن مقارها ومراكزها ولا تخلو " الساعة " من أن تكون على تقدير الفاعلة لها كأنها هي التي تزلزل الأشياء على المجاز الحكمي فتكون الزلزلة مصدراً مضافاً إلى فاعله أو على تقدير المفعول فيها على طريقة الاتساع في الظرف وإجرائه مجرى المفعول به كقوله تعالى: " بل مكر الليل والنهار " سبأ: 33 وهي الزلزلة المذكورة في قوله: " إذا زلزلت الأرض زلزالها " الزلزلة: ا واختلف في وقتها فعن الحسن أنها تكون يوم القيامة وعن علقمة والشعبي: عند طلوع الشمس من مغربها.

أمر بني آدم بالتقوى ثم علل وجوبها عليهم بذكر الساعة ووصفها بأهول صفة لينظروا إلى تلك الصفة ببصائرهم ويتصوروها بعقولهم حتى يبقوا على أنفسهم ويرحموها من شدائد ذلك اليوم بامتثال ما أمرهم به ربهم من التردي بلباس التقوى الذي لا يؤمنهم من تلك الأفزاع إلا أن يترديوا به وروي:

أن هاتين الآيتين نزلتا ليلاً في غزوة بني المصطلق فقرأهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ير أكثر باكياً من تلك الليلة فلما أصبحوا لم يحطوا السروج عن الدواب ولم يضربوا الخيام وقت النزول ولم يطبخوا قدراً وكانوا ما بين حزين وباك ومفكر.

" يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكرى وما هم سكرى ولكن عذاب الله شديد ".

" يوم ترونها " منصوب بتذهل.

والضمير للزلزلة.

وقرىء " تذهل كل مرضعة " على البناء للمفعول: وتذهل كل مرضعة أي: تذهلها الزلزلة.

والذهول: الذهاب عن الأمر مع دهشة فإن قلت: لم قيل: " مرضعة " دون مرضع.

قلت: المرضعة التي هي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبي.

والمرضع: التي شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به فقيل: مرضعة ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الدهشة " عما أرضعت " عن إرضاعها أو عن الذي أرضعته وهو الطفل وعن الحسن: تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام وتضع الحامل ما في بطنها لغير تمام.

قرىء " وترى " بالضم من أريتك قائماً.

أو رؤيتك قائماً.

و " الناس " منصوب ومرفوع والنصب ظاهر.

ومن رفع جعل الناس اسم ترى وأنثه على تأويل الجماعة.

وقرىء " سكرى " و " بسكرى " وهو نظير:

جوعى وعطشى في جوعان وعطشان.

وسكارى وبسكارى نحو كسالى وعجالى.

وعن الأعمش " سكرى " و " بسكرى " بالضم وهو غريب.

والمعنى: وتراهم سكارى على التشبيه وما هم بسكارى على التحقيق ولكن ما رهقهم من خوف عذاب الله هو الذي أذهب عقولهم وطير تمييزهم وردهم في نحو حال من يذهب السكر بعقله وتمييزه.

وقيل: وتراهم سكارى من الخوف وما هم بسكارى من الشراب.

فإن قلت: لم قيل أولاً: ترون ثم قيل: ترى على الإفراد قلت لأن الرؤية أولاً علقت بالزلزلة فجعل الناس جميعاً رائين لها وهي معلقة أخيراً بكون الناس على حال السكر فلا بد أن يجعل كل واحد منهم رائياً لسائرهم.

" ومن الناس من يجدل فى الله بغير علم ويتبع محل شيطن مريد كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير ".

قيل: نزلت في النضر بن الحرث وكان جدلاً يقول: الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين والله غير قادر على إحياء من بلي وصار تراباً.

وهي عامة في كل من تعاطى الجدال فيما يجوز على الله وما لا يجوز من الصفات والأفعال ولا يرجع إلى علم ولا يعض فيه بضرس قاطع وليس فيه اتباع للبرهان ولا نزول على النصفة فهو يخبط خبط عشواء غير فارق بين الحق والباطل " ويتبع " في ذلك خطوات " كل شيطن " عات علم من حاله وظهر وتبين أنه من جعله

ولياً له لم تثمر له ولايته إلا الإضلال عن طريق الجنة والهداية إلى النار.

وما أرى رؤساء أهل الأهواء والباع والحشوية المتلقبين بالإمامة في دين الله إلا داخلين تحت كل هذا دخولاً أولياً بل هم أشد الشياطين إضلالاً وأقطعهم لطريق الحق حيث دونوا الضلال تدويناً ولقنوه أشياعهم تلقيناً وكأنهم ساطوه بلحومهم ودمائهم وإياهم عنى من قال: ويا رب مقفو الخطا بين قومه طريق نجاة عندهم مستو نهج ولو قرؤا في اللوح ما خط فيه من بيان اعوجاج في طريقته عجوا اللهم ثبتنا على المعتقد الصحيح الذي رضيته لملائكتك في سمواتك وأنبيائك في أرضك وأدخلنا.

برحمتك في عبادك الصالحين.

والكتبة عليه مثل أي: كأنما كتب إضلال من يتولاه عليه ورقم به لظهور ذلك في حاله.

وقرىء " أنه " فأنه بالفتح والكسر فمن فتح فلان الأول فاعل كتب والثاني عطف عليه.

ومن كسر فعلى حكاية المكتوب كما هو كأنما كتب عليه هذا الكلام كما تقول: كتبت: إن الله هو الغني الحميد.

أو على تقدير: قيل أو على أن كتب فيه معنى القول.

" يأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقنكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً

ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدةً فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ".

قرأ الحسن " من البعث " بالتحريك ونظيره: الجلب والطرد في الجلب والطرد كأنه قيل: إن ارتبتم في البعث فمزيل ريبكم أن تنظروا في بدء خلقكم.

والعلقة: قطعة الدم الجامدة.

والمضغة: اللحمة الصغيرة قدر ما يمضغ.

والمخلقة: المسواة الملساء من النقصان والعيب.

يقال: خلق السواك والعود إذا سواه وملسه من قولهم: صخرة خلقاء وإذا كانت ملساء كأن الله تعالى يخلق المضغ متفاوتة: منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب ومنها ما هو على عكس ذلك فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس في خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم.

وإنما نقلناكم من حال إلى حال ومن خلقة إلى خلقة " لنبين لكم " بهذا التدريج قدرتنا وحكمتنا وأن من قدر على خلق البشر من تراب أولاً ثم من نطفة ثانياً ولا تناسب بين الماء والتراب وقدر على أن يجعل النطفة علقة وبينهما تباين ظاهر ثم يجعل العلقة مضغة والمضغة عظاماً: قدر على إعادة ما أبدأه بل هذا أدخل في القدرة من تلك وأهون في القياس.

وورود الفعل غير معدي إلى المبين: إعلام بأن أفعاله هذه يتبين بها من قدرته وعلمه ما لا يكتنهه الذكر ولا يحيط به الوصف وقرأ ابن أبي عبلة: ليبين لكم.

ويقر بالياء وقرىء " ونقر " ونخرجكم

بالنون والنصب ويقر ويخرجكم ويقر ويخرجكم: بالنصب والرفع.

وعن يعقوب: " نقر " بالنون وضم القاف من قر الماء إذا صبه فالقراءة بالرفع إخبار بأنه يقر " في الأرحام ما يشاء " أن يقره من ذلك " إلى أجل مسمى " وهو وقت الوضع آخر ستة أشهر أو تسعة أو سنتين أو أربع أو كما شاء وقدر.

وما لم يشأ إقراره محته الأرحام أو أسقطته.

والقراءة بالنصب: تعليل معطوف على تعليل.

ومعناه: خلقناكم مدرجين هذا التدريج لغرضين أحدهما: أن نبين قدرتنا.

والثاني: أن نقر في الأرحام من نقر حتى يولدوا وينشؤوا ويبلغوا حد التكليف فأكلفهم.

ويعضد هذه القراءة قوله: " ثم لتبلغوا أشدكم " وحده لأن الغرض الدلالة عل الجنس.

ويحتمل: نخرج كل واحد منكم طفلاً.

الأشد: كمال القوة والعقل والتمييز وهو من ألفاظ الجموع التي لم يستعمل لها واحد كالأسدة والقتود والأباطيل وغير ذلك وكأنها شدة في غير شيء واحد فبنيت لذلك على لفظ الجمع.

وقرىء " ومنكم من يتوفى " أي يتوفاه الله " أرذل العمر " الهرم والخرف حتى يعود كهيئته الأولى في أوان طفولته: ضعيف البنية سخيف العقل قليل الفهم بين أنه كما قدر على أن يرقيه في درجات الزيادة حتى يبلغه حد التمام فهو قادر على أن يحطه حتى ينتهي به إلى الحالة السفلى " لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً " أي: ليصير نساء بحيث إذ كسب علماً في شيء لم ينشب أن ينساه ويزل عنه علمه حتى يسأل عنه من ساعته يقول لك: من هذا

فتقول: فلان فما يلبث لحظة إلا سألك عنه.

وقرأ أبو عمرو: العمر بسكون الميم.

الهامدة: الميتة اليابسة.

وهذه دلالة ثانية على البعث ولظهورها وكونها مشاهدة معاينة كررها الله في كتابه " اهتزت وربت " تحركت بالنبات وانتفخت وقرىء " ربأت " أي ارتفعت.

البهيج: الحسن السار للناظر إليه.

" ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحى الموتى وأنه على كل شئ قدير وأن الساعة ءاتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ".

أي: ذلك الذي ذكرنا من خلق بني آدم وإحياء الأرض مع ما في تضاعيف ذلك من أصناف الحكم واللطائف حاصل بهذا وهو السبب في حصوله ولولاه لم يتصور كونه وهو " بأن الله هو الحق " أي الثابت الموجود وأنه قادر على إحياء الموتى وعلى كل مقدور وأنه حكيم لا يخلف ميعاده وقد وعد الساعة والبعث فلا بد أن يفي بما وعد.

" ومن الناس من يجدل فى الله بغير علم ولا هدىً ولا كتب منير ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيمة عذاب الحريق ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلم للعبيد ".

عن ابن عباس أنه أبو جهل بن هشام.

وقيل: كرر كما كررت سائر الأقاصيص.

وقيل: الأول

في المقلدين وهذ في المقلدين.

والمراد بالعلم: العلم الضروري.

وبالهدى: الاستدلال والنظرة لأنه يهدي إلى المعرفة.

وبالكتاب المنير: الوحي أي يجادل بظن وتخمين لا بأحد هذه الثلاثة.

وثنى العطف: عبارة عن الكبر والخيلاء كتصعير الخد ولي الجيد.

وقيل: عن الإعراض عن الذكر.

وعن الحسن: ثاني عطفه بفتح العين أي: مانع تعطفه " ليضل " تعليل للمجادية.

قرئء بضم الياء وفتحها.

فإن قلت: ما كان غرضه من جداله الضلال " عن سبيل الله " فكيف علل به.

وما كان أيضاً مهتدياً حتى إذا جادل خرج بالجدال من الهدى إلى الضلال.

قلت: لما أدى جداله إلى الضلال جعل كأنه غرضه ولما كان الهدى معرضاً له فتركه وأعرض عنه وأقبل على الجدال بالباطل جعل كالخارج من الهدى إلى الضلال.

وخزيه: ما أصابه يوم بدر من الصغار والقتل والسبب فيما مني به من خزي الدنيا وعذاب الآخرة: هو ما قدمت يداه وعدل الله في معاقبته الفجار وإثابته الصالحين.

" ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصاب خير اطمأن به ولمن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين يدعوا من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلل البعيد يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس المصير ".

" على حرف " على طرف من الدين لا في وسطه وقلبه.

وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب

في دينهم لا على سكون وطمأنينة كالذي يكون على طرف من العسكر فإن أحس بظفر وغنيمة قر واطمأن وإلا فر وطار على وجهه.

قالوا: نزلت في أعاريب قدموا المدينة وكان أحدهم إذا صح بدنه ونتجت فرسه مهراً سرياً وولدت امرأته غلاماً سوياً وكثر ماله وماشيته قال: ما أصبت منذ دخلت في ديني هذا إلا خيراً واطمأن.

وإن كان الأمر بخلافه قال: ما أصبت إلا شراً وانقلب وعن أبي سعيد الخدري أن رجلا من اليهود أسلم فأصابته مصائب فتشاءم بالإسلام فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أقلني فقال " إن الإسلام لا يقال: فنزلت.

المصاب بالمحنة بترك التسليم لقضاء الله والخروج إلى ما يسخط الله: جامع على نفسه محنتين إحداهما: ذهاب ما أصيب به.

والثانية: ذهاب ثواب الصابرين فهو خسران الدارين.

وقرئء " خاسر الدنيا والآخرة " بالنصب والرفع فالنصب على الحال والرفع على الفاعلية.

ووضع الظاهر موضع الضمير وهو وجه حسن.

أو على أنه خبر مبتدأ محذوف استعير " الضلل البعيد " من ضلال من أبعد في التيه ضالاً فطالت وبعدت مسافة ضلالته.

فإن قلت: الضرر والنفع منفيان عن الأصنام مثبتان لها في الآيتين وهذا تناقض قلت: إذا حصل المعنى ذهب هذا الوهم وذلك أن الله تعالى سفه الكافر بأنه يعبد جماداً لا يملك ضراً ولا نفعاً وهو يعتقد فيه بجهله وضلاله أنه يستنفع به حين يستشفع به ثم قال: يوم

القيامة يقول هذا الكافر بدعاء وصراخ حين يرى استضراره بالأصنام ودخوله النار بعبادتها ولا يرى أثر الشفاعة التي ادعاها لها " لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير " وكرر يدعو كأنه قال: يدعو يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ثم قال: لمن ضره بكونه معبوداً أقرب من نفعه بكونه شفيعاً لبئس المولى.

وفي حرف عبد الله " من ضره " بغير لام.

المولى: الناصر.

والعشير: الصاحب كقوله: " فبئس القرين " الزخرف: 38.

" إن الله يدخل الذين ءامنوا وعملوا الصلحت جنت تجرى من تحتها الأنهر إن الله يفعل ما يريد من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والأخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ ".

هذا كلام قد دخله اختصار.

والمعنى: إن الله ناصر رسوله في الدنيا والأخرة فمن كان يظن من حاسديه وأعاديه أن الله يفعل خلاف ذلك ويطمع فيه ويغيظه أنه يظفر بمطلوبه فليستقص وسعه وليستفرغ مجهوده في إزالة ما يغيظه بأن يفعل ما يفعل من بلغ منه الغيظ كل مبلغ حتى مد حبلاً إلى سماء بيته فاختنق فلينظر وليصور في نفسه أنه إن فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذي يغيظه وسمي الاختناق قطعاً لأن المختنق يقطع نفسه بحبس مجاريه.

ومنه قيل للبهر: القطع وسمي فعله كيداً لأنه وضعه موضع الكيد حيث لم يقدر على غيره.

أو على سبيل

الاستهزاء لأنه لم يكد به محسوده إنما كاد به نفسه.

والمراد: ليس في يده إلا ما ليس بمذهب لما يغيظه.

وقيل: فليمدر بحبل إلى السماء المظلة وليصعد عليه فليقطع الوحي أو ينزل عليه.

وقيل: كان قوم من المسلمين لشدة غيظهم وحنقهم على المشركين يستبطؤون ما وعد الله رسوله من النصر وآخرون من المشركين يريدون اتباعه ويخشون أن لا يثبت أمره.

فنزلت.

وقد فسر النصر: بالرزق وقيل: معناه أن الأرزاق بيد الله لا تنال إلا بمشيئته ولا بد للعبد من الرضا بقسمته فمن ظن أن الله غير رازقه وليس به صبر واستسلام فليبلغ غاية الجزع وهو الاختناق فإن ذلك لا يقلب القسمة ولا يرده مرزوقاً.

" وكذلك أنزلنه ءايت بينت وأن الله يهدي من يريد ".

أي: ومثل ذلك الإنزال أنزلنا القرآن كله " آيات بينات و " ل " أن الله يهدي " به الذين يعلم أنهم يؤمنون.

أو يثبت الذين آمنوا ويزيدهم هدى أنزله كذلك مبيناً.

" إن الذين ءامنوا والذين هادوا والصبئين والنصرى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيمة إن الله على كل شئ شهيد ".

الفصل مطلق يحتمل الفصل بينهم في الأحوال والأماكن جميعاً فلا يجازيهم جزاء واحداً بغير تفاوت ولا يجمعهم في موطن واحد.

وقيل: الأديان خمسة: أربعة للشيطان وواحد للرحمن جعل

الصابئون مع النصارى لأنهم نوع منهم.

وقيل: " يفصل بينهم " يقضي بينهم أي بين المؤمنين والكافرين.

وأدخلت " إن " على كل واحد من جزأي الجملة لزيادة التوكيد.

ونحوه قول جرير: إن الخليفة إن الله سربله سربال ملك به ترجى الخواتيم " ألم تر أن الله يسجد له من فى السموت ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء ".

سميت مطاوعتها له فيما يحدث فيها من أفعاله ويجريها عليه من تدبيره وتسخيره لها: سجوداً له تشبيهاً لمطاوعتها بإدخال أفعال المكلف في باب الطاعة والانقياد وهو السجود الذي كل خضوع دونه فإن قلت: فما تصنع بقوله: " وكثير من الناس " وبما فيه من الاعتراضين أحدهما: أن السجود على المعنى الذي فسرته به لا يسجده بعض الناس دون بعض.

والثاني: أن السجود قد أسند على سبيل العموم إلى من في الأرض من الإنس والجن أولاً فإسناده إلى كثير منهم آخراً مناقضة قلت: لا أنظم كثيراً في المفردات المتناسقة الداخلة تحت حكم الفعل وإنما أرفعه بفعل مضمر يدل عليه قوله: " يسجد " أي ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة.

ولم أقل: أفسر يسجد الذي هو ظاهر بمعنى الطاعة والعبادة في حق هؤلاء لأن اللفظ الواحد لا يصح

استعماله في حالة واحدة على معنيين مختلفين أو أرفعه على الابتداء والخبر محذوف وهو مثاب لأن خبر مقابله يدل عليه وهو قوله: " حق عليه العذاب " ويجوز أن يجعل "

من الناس " خبراً له أي: من الناس الذين هم الناس على الحقيقة وهم الصالحون والمتقون.

ويجوز أن يبالغ في تكثير المحقوقين بالعذاب فيعطف كثير على كثير ثم يخبر عنهم بحق عليهم العقاب كأنه قيل: وكثير وكثير من الناس حق عليهم العذاب وقرىء " حق " بالضم.

وقرىء: " حقاً " أي حق عليهم العذاب حقاً.

ومن أهانه الله - بأن كتب عليه الشقاوة لما سبق في علمه من كفره أو فسقه - فقد بقي مهاناً لن تجد له مكرماً.

وقرىء: " مكرم " بفتح الراء بمعنى الإكرام.

إنه " يفعل ما يشاء " من الإكرام والإهانة ولا يشاء من ذلك إلا ما يقتضيه عمل العاملين واعتقاد المعتقدين.

" هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رءوسهم الحميم يصهر به ما فى بطونهم والجلود ولهم مقمع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق ".

الخصم: صفة وصف بها الفوج أو الفريق فكأنه قيل: هذان فوجان أو فريقان مختصمان وقوله: " هذان " للفظ.

و " اختصموا " للمعنى كقوله: " ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا " محمد: 6 ولو قيل: هؤلاء خصمان.

أو اختصما: جاز يراد المؤمنون والكافرون.

قال ابن عباس رجع

إلى أهل الأديان الستة " فى ربهم " أي في دينه وصفاته.

وروي: أن أهل الكتاب قالوا للمؤمنين: نحن أحق بالله وأقدم منكم كتاباً نبينا قبل نبيكم.

وقال المؤمنون: نحن أحق بالله آمنا بمحمد وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله من كتاب وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم تركتموه وكفرتم به حسداً فهذه خصومتهم في ربهم " فالذين كفروا " هو فصل الخصومة المعني بقوله تعالى: " إن الله يفصل بينهم يوم القيامة " الحج: 17 وفي رواية عن الكسائي: " خصمان " بالكسر وقرىء: " قطعت " بالتخفيف كأن الله تعالى يقدر لهم نيراناً على مقادير جثثهم تشتمل عليهم كما قطع الثياب الملبوسة.

ويجوز أن تظاهر على كل واحد منهم تلك النيران كالثياب المظاهرة على اللابس بعضها فوق بعض.

ونحوه " سرابيلهم من قطران " إبراهيم: 50 " الحميم " الماء الحار عن ابن عباس رضي الله عنه: لو سقطت منه نقطة على جبال الدنيا لأذابتها " يصهر " يذاب وعن الحسن بتشديد الهاء للمبالغة أي: إذا صب الحميم على رؤوسهم كان تأثيره في الباطن نحو

تأثيره في الظاهر فيذيب أحشاءهم وأمعاءهم كما يذيب جلودهم وهو أبلغ من قوله: " وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم " محمد: 15 والمقامع: السياط.

في الحديث: " لو وضعت مقمعة منها في الأرض فاجتمع عليها الثقلان ما أقلوها " وقر الأعمش: " ردوا فيها " والإعادة والرد لا يكون إلا بعد الخروج.

فالمعنى: كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم

فخرجوا أعيدوا فيها.

ومعنى الخروج: ما يروى عن الحسن أن النار تضربهم بلهبها فترفعهم حتى إذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفاً وقيل لهم " ذوقوا عذاب الحريق " والحريق: الغليظ من النار المنتشر العظيم الإهلاك.

" إن الله يدخل الذين ءامنوا وعملوا الصلحت جنت تجرى من تحتها الأنهر يحلوت فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صرط الحميد إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلنه للناس سواءً العكف فيه والباد ومن يرد فيه يإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ".

" يحلون " عن ابن عباس: من حليت المرأة فهي حال " ولؤلؤاً " بالنصب على: ويؤتون لؤلؤاً كقوله: وحوراً عيناً.

ولؤلؤاً بقلب الهمزة الثانية واواً.

ولولياً بقلبهما واوين ثم بقلب الثانية ياء كأدل.

ولول كأدل فيمن جر.

ولولؤ وليلياً بقلبهما ياءين عن ابن عباس: وهداهم الله وألهمهم أن يقولوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وهداهم إلى طريق الجنة.

يقال: فلان يحسن إلى الفقراء وينعش المضطهدين لا يراد حال ولا استقبال وإنما يراد استمرار وجود الإحسان منه والنعشة في جميع أزمنته وأوقاته.

ومنه قوله تعالى: " ويصدون عن سبيل الله " أي الصدود منهم مستمر دائم " للناس " أي الذين يقع عليهم اسم الناس من غير فرق بين حاضر وباد وتانيء وطاريء ومكي

وآفاقي.

وقد استشهد به أصحاب أبي حنيفة قائلين: إن المراد بالمسجد الحرام: مكة على امتناع جواز بيع دور مكة وإجارتها.

وعند الشافعي: لا يمتنع ذلك.

وقد حاور إسحاق بن راهويه فاحتج بقوله: " الذين أخرجوا من ديارهم " الحج: 40 الحشر: 8 وقال: أنسب الديار إلى مالكيها أو غير مالكيها.

واشترى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه دار السجن من مالكيه أو غير مالكيه.

" سواءً " بالنصب: قراءة حفص.

والباقون على الرفع.

ووجه النصب أنه ثاني مفعولي جعلناه أي: جعلناه مستوياً " العكف فيه والباد " وفي القراءة بالرفع.

الجملة مفعول ثان.

الإلحاد: العدول عن القصد وأصله إلحاد الحافر.

وقوله: " بإلحاد بظلم " حالان مترادفتان.

ومفعول " يرد " متروك ليتناول كل متناول كأنه قال: ومن يرد فيه مراداً ما عادلاً عن القصد ظالماً " نذقه من عذاب أليم " يعني أن الواجب على من كان فيه أن يضبط نفسه ويسلك طريق السداد والعدل في جميع ما يهم به ويقصده.

وقيل: الإلحاد في الحرم: منع الناس عن عمارته.

وعن سعيد بن جبير: الاحتكار.

وعن عطاء: قول الرجل في المبايعة: " لا والله وبلى والله " وعن عبد الله بن عمرو أنه كان له فسطاطان أحدهما: في الحل والآخر في الحرم فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الحل فقيل له فقال: كنا نحدث أن من الإلحاد فيه أن يقول الرجل: لا والله وبلى والله ".

وقرىء: " يرد " بفتح الياء من الورود ومعناه من أتى فيه بإلحاد ظالماً.

وعن الحسن:

ومن يرد إلحاده بظلم.

أراد: إلحاداً فيه فأضافه على الاتساع في الظرف كمكر الليل: ومعناه من يرد أن يلحد فيه ظالماً.

وخبر إن محذوف لدلالة جواب الشرط عليه تقديره: إن الذين كفروا ويصدون عن المسجد الحرام نذيقهم من عذاب أليم وكل من ارتكب فيه ذنباً فهو كذلك.

عن ابن مسعود: الهمة في الحرم تكتب ذنباً.

" وإذ بوأنا لإبرهيم مكان البيت لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود ".

واذكر حين جعلنا " لإبرهيم مكان البيت " مباءة أي: مرجعاً يرجع إليه للعمارة والعبادة.

رفع البيت إلى السماء أيام الطوفان وكان من ياقوتة حمراء فأعلم الله إبراهب مكانه بريح أرسلها يقال لها: الخجوج كنست ما حوله فبناه على أسه القديم.

وأن هي المفسرة.

فإن قلت: كيف يكون النهي عن الشرك والأمر بتطهير البيت تفسيراً للتبوئة قلت: كانت التبوئة مقصودة من أجل العبادة فكأنه قيل: تعبدنا إبراهيم قلنا له: " لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتى " من الأصنام والأوثان والأقذار أن تطرح حوله.

وقرىء " يشرك " بالياء على الغيبة.

" وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى محل ضامر يأتين من كل فج عميق ".

" وأذن فى الناس " ناد فيهم.

وقرأ ابن محيصن: " وآذن " والنداء بالحج: أن يقول حجوا أو عليكم

بالحج.

وروي أنه صعد أبا قبيس فقال: يا أيها الناس حجوا بيت ربكم.

وعن الحسن أنه خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أن يفعل ذلك في حجة الوداع " رجالاً " مشاة جمع راجل كقائم وقيام.

وقرىء: " رجالاً " بضم الراء مخفف الجيم ومثقلة ورجالى كعجالى عني ابن عباس " وعلى كل ضامر " حال معطوفة على حال كأنه قال: رجالاً وركباناً " يأتين " صفة لكل ضامر لأنه في معنى الجمع.

وقرىء " يأتون " صفة للرجال والركبان.

والعميق: البعيد وقرأ ابن مسعود: " معيق ".

يقال: بئر بعيدة العمق والمعق.

" ليشهدوا منفع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومت على ما رزقهم من بهيمة الأنعم فكلوا منها وأطعموا البائس والفقير ".

نكر المنافع لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادات.

وعن أبي حنيفة رحمه الله: أنه كان يفاضل بين العبادات قبل أن يحج فلما حج فضل الحج على العبادات كلها لما شاهد من تلك الخصائص وكني عن النحر والذبح بذكر اسم الله لأن أهل الإسلام لا ينفكون عن ذكر اسمه إذا نحروا أو ذبحوا.

وفيه تنبيه على أن الغرض الأصلي فيما يتقرب به إلى الله أن يذكر اسمه وقد حسن الكلام تحسيناً بيناً أن جمع بين قوله: " ويذكروا اسم الله " وقوله: " على ما رزقهم " ولو قيل: لينحروا في أيام معلومات بهيمة الأنعام لم تر شيئاً من

ذلك الحسن الروعة.

الأيام المعلومات: الأيام العشر عند أبي حنيفة وهو قول الحسن وقتادة.

وعند صاحبيه: أيام النحر.

البهيمة: مبهمة في كل ذات أربع في البر والبحر فبينت بالأنعام: هي الإبل والبقر والضأن والمعز.

" فكلوا " الأمر بالأكل منها أمر إباحة لأن أهل جاهلية كانوا لا يأكلون من نسائكهم ويجوز أن يكون ندباً لما فيه من مساواة الفقراء مواساتهم ومن استعمال التواضع.

ومن ثمة استحب الفقهاء أن يأكل الموسع من أضحيته مقدار الثلث.

وعن ابن مسعود أنه بعث بهدي وقال فيه: إذا نحرته فكل وتصدق وابعث منه إلى عتبة يعني ابنه.

وفي الحديث: " كلوا وادخروا وائتجروا ".

" البائس " الذي أصابه بؤس أي شدة: و " الفقير " الذي أضعفه الإعسار.

" ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ".

قضاء التفث: قص الشارب والأظفار ونتف الإبط والاستحداد والتفث: الوسخ فالمراد قضاء إزالة التفث.

" وليوفوا " وقرىء: " وليوفوا " بتشديد الفاء " نذورهم " مواجب حجهم أو ما عسى ينذرونه من أعمال البر في حجهم " وليطوفوا " طواف الإفاضة وهو طواف الزيارة الذي هو من أركان الحج ويقع به تمام التحلل.

وقيل: طواف الصدر وهو طواف الوداع " العتيق " القديم لأنه أول بيت وضع للناس عن الحسن.

وعن قتادة: أعتق من الجبابرة كم من

جبار سار إليه ليهدمه فمنعه الله.

وعن مجاهد: لم يملك قط.

وعنه: أعتق من الغرق.

وقيل: بيت كريم من قولهم: عتاق الخيل والطير.

فإن قلت: قد تسلط عليه الحجاج فلم يمنع.

قلت: ما قصد التسلط على البيت وإنما تحصن به ابن الزبير فاحتال لإخراجه ثم بناه.

ولما قصد التسلط عليه أبرهة فعل به ما فعل.

" ذلك ومن يعظم حرمت الله فهو خير له عند ربه وأحلت لكم الأنعم إلا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ".

" ذلك " خبر مبتدأ محذوف أي: الأمر والشأن ذلك كما يقدم الكاتب جملة من كتابه في بعض المعاني ثم إذا أراد الخوض في معنى آخر قال: هذا وقد كان كذا.

" ومن يعظم حرمات الله " والحرمة: ما لا يحل هتكه.

وجميع ما كلفه الله تعالى بهذه الصفة من مناسك الحج وغيرها فيحتمل أن يكون عاماً في جميع تكاليفه ويحتمل أن يكون خاصاً فيما يتعلق بالحج.

وعن زيد بن أسلم: الحرمات خمس: الكعبة الحرام والمسجد الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام والمحرم حتى يحل.

" فهو خير " أي فالتعظيم خير له.

ومعنى التعظيم: العلم بأنها واجبة المراعاة والحفظ والقيام بمراعاتها.

المتلو لا يستثنى من الأنعام ولكن المعنى " إلا ما يتلى عليكم " آية تحريمه وذلك

قوله في سورة المائدة: " حرمت عليكم الميتة والدم " المائدة: 3 والمعنى: أن الله قد أحل لكم الأنعام كلها إلا ما استثناه في كتابه فحافظوا على حدوده وإياكم أن تحرموا مما أحل شيئاً كتحريم عبدة الأوثان البحيرة والسائبة وغير ذلك وأن تحلوا مما حرم الله كإحلالهم أكل الموقوذة والميتة وغير ذلك.

" فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به " لما حث على تعظيم حرماته وأحمد من يعظمها أتبعه الأمر باجتناب الأوثان وقول الزور لأن توحيد الله ونفي الشركاء عنه وصدق القول أعظم الحرمات وأسبقها خطواً.

وجمع الشرك وقول الزور في قران واحد وذلك أن الشرك من باب الزور لأن المشرك زاعم أن الوثن تحق له العبادة فكأنه قال: فاجتنبوا عبادة الأوثان التي هي رأس الزور واجتنبوا قول الزور كله لا تقربوا شيئاً منه لتماديه في القبح والسماجة.

وما ظنك بشيء من قبيله عبادة الأوثان.

وسمى الأوثان رجساً وكذلك الخمر والميسر والأزلام على طريق التشبيه.

يعني: أنكم كما تنفرون بطباعكم عن الرجس وتجتنبونه فعليكم أن تنفروا عن هذه الأشياء مثل تلك النفرة.

ونبه على هذا المعنى بقوله: " رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه " المائدة: 90 جعل العلة في اجتنابه أنه رجس والرجس مجتنب " من الأوثن " بيان للرجس وتمييز له كقولك: عندي عشرون من الدراهم لأن

الرجس مبهم يتناول غير شيء كأنه قيل: فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان.

والزور " من الزور " والأزورار وهو الانحراف كما أن الإفك من أفكه إذا صرفه.

وقيل: " قول الزور " الحج: 5 قولهم: هذا حلال وهذا حرام وما أشبه ذلك من افترائهم.

وقيل: شهادة الزور.

عن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه صلى الصبح فلما سلم قام قائماً واستقبل الناس بوجهه وقال: " عدلت شهادة الزور الإشراك بالله عدلت شهادة الزور الإشراك بالله عدلت شهادة الزور الإشراك بالله " وتلا هذه الآية.

وقيل: الكذب والبهتان.

وقيل: قول أهل الجاهلية في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك.

ويجوز في هذا التشبيه أن يكون من المركب والمفرق.

فإن كان تشبيهاً مركباً فكأنه قال: من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده نهاية بأن صور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير فتفرق مزعاً في حواصلها أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح البعيدة.

وإن كان مفرقاً فقد شبه الإيمان في علوه بالسماء والذي ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط من السماء والأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة والشيطان الذي يطوح به في وادي الضلالة بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة.

وقرىء: " فتخطفه " بكسر الخاء والطاء.

وبكسر التاء مع كسرهما وهي قراءة

" ذلك ومن يعظم شعئر الله فإنها من تقوى القلوب لكم فيها منفع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق ".

تعظيم الشعائر - وهي الهدايا لأنها من معالم الحج -: أن يختارها عظام الأجرام حساناً سماناً غالية الأثمان ويترك المكاس في شرائها فقد كانوا يغالون في ثلاث - ويكرهون المكاس فيهن -: الهدي والأضحية والرقبة.

وروى ابن عمر عن أبيه رضي الله عنهما: أنه أهلى نجيبة طلبت منه بثلثمائة دينار فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيعها ويشتري بثمنها بدناً فنهاه عن ذلك وقال: " بل أهدها ".

وأهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة بدنة فيها جمل لأبي جهل في أنفه بزة من ذهب.

وكان ابن عمر يسوق البدن مجللة بالقباطي فيتصدق بلحومها وبجلالها ويعتقد أن طاعة الله في التقرب بها وإهدائها إلى بيته المعظم أمر عظيم لا بد أن يقام به ويسارع فيه " فإنها من تقوى القلوب " أي فإن تعظيمها من أفعال ذوي تقوى القلوب فحذنت هذه المضافات ولا يستقيم المعنى إلا بتقديرها لأنه لا بد من راجع من الجزاء إلى " من " ليرتبط به وإنما ذكرت القلوب لأنها مراكز التقوى التي إذا ثبتت فيها وتمكنت ظهر أثرها في سائر الأعضاء.

" إلى أجل مسمى " إلى أن تنحر ويتصدق بلحومها ويؤكل منها.

و " ثم " للتراخي في الوقت.

فاستعيرت للتراخي في الأحوال.

والمعنى: أن لكم في الهدايا منافع كثيرة في دنياكم ودينكم وإنما يعتد الله بالمنافع الدينية قال سبحانه: " تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة " الأنفال: 67.

وأعظم هذه المنافع وأبعدها شوطاً في النفع: " محلها إلى البيت " أي وجوب نحرها.

أو وقت وجوب نحرها في الحرم منتهية إلى البيت كقوله: " هدياً بالغ الكعبة " المائدة: 95 والمراد نحرها في الحرم الذي هو في حكم البيت لأن الحرم هو حريم البيت.

ومثل هذا في الاتساع قولك: بلغنا البلد وإنما شارفتموه واتصل مسيركم بحدوده.

وقيل: المراد بالشعائر: المناسك كلها و " محلها إلى البيت العتيق " يأباه.

" ولكل أمة جعلنا منسكاً ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعم فإلهكم إله وحد فله أسلموا وبشر المخبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصبرين على ما أصابهم والمقيمى الصلوة ومما رزقنهم ينفقون ".

شرع الله لكل أمة أن ينسكوا له: أي يذبحوا لوجهه على وجه التقرب وجعل العلة في ذلك أن يذكر اسمه تقدست أسماؤه على النسائك: قرىء " منسكاً " بفتح السين وكسرها وهو مصدر بمعنى النسك والمكسور يكون بمعنى الموضع " فله أسلموا " أي أخلصوا له الذكر خاصة واجعلوه لوجهه سالماً أي: خالصاً لا تشوبوه بإشراك.

" وبشر المختين " المخبتون: المتواضعون الخاشعون من الخبت وهو المطمئن من الأرض.

وقيل:

هم الذين لا يظلمون لهاذا ظلموا لم ينتصروا.

وقرأ الحسن: " والمقيمي الصلاة " بالنصب على تقدير النون.

وقرأ ابن مسعود: " والمقيمين الصلاة " على الأصل.

" والبدن جعلنها لكم من شعئر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صوآف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرنها لكم لعلكم تشكرون ".

" والبدن " جمع بدنة سميت لعظم بدنها وهي الإبل خاصة ولأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألحق البقر بالإبل حين قال: " البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة " فجعل البقر في حكم الإبل صارت البدنة في الشريعة متناولة للجنسين عند أبي حنيفة وأصحابه وإلا فالبدن هي الإبل وعليه تدل الآية وقرأ الحسن: " والبدن " بضمتين كثمر في جمع ثمرة.

وابن أبي إسحاق بالضمتين وتشديد النون على لفظ الوقف.

وقرىء بالنصب والرفع كقوله: " والقمر قدرناه " يس: 39.

" من شعئر الله " أي من أعلام الشريعة التي شرعها الله.

وإضافتها إلى اسمه: تعظيم لها " لكم فيها خير " كقوله: " لكم فيها منافع " ومن شأن الحاج أن يحرص على شيء فيه خير ومنافع بشهادة الله تعالى.

عن بعض السلف أنه لا يملك إلا تسعة دنانير فاشترى بها بدنة فقيل له في ذلك فقال: " إني " سمعت ربي يقول: " لكم فيها خير " وعن ابن عباس: دنيا وآخرة.

وعن إبراهيم: من احتاج إلى ظهرها ركب

ومن احتاج إلى لبنها شرب.

وذكر اسم الله: أن يقول عند النحر: الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر اللهم منك وإليك " صوآف " قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن.

وقرىء: " صوافن " لا من صفون الفرس وهو أن يقوم على ثلاث وينصب الرابعة على طرف سنبكه لأن البدنة تعقل إحدى يديها فتقوم على ثلاث.

وقرىء: " صوافي " أي: خوالص لوجه الله.

وعن عمرو بن عبيد: صوافنا بالتنوين عوضاً من حرف الإطلاق عند الوقف.

وعن بعضهم: صواف نحو مثل العرب: أعط القوس باريها بسكون الياء.

" فإذا وجبت جنوبها ".

وجوب الجنوب: وقوعها على الأرض ومن وجب الحائط وجبة إذا سقط.

ووجبت الشمس جبة: غربت.

والمعنى: فإذا وجبت جنوبها وسكنت نسائسها حل لكم الأكل منها والإطعام " القانع " السائل من قنعت إليه وكنعت: إذا خضعت له وسألته قنوعاً " والمعتر " المعترض بغير سؤال أو القانع الراضي بما عنده وبما يعطى من غير سؤال من قنعت قنعاً وقناعة.

والمعتر: المعترض بسؤال.

وقرأ الحسن: والمعتري.

وعره وعراه واعتراه واعتره: بمعنى.

وقرأ أبو رجاء: القنع وهو الراضي لا غير.

يقال: قنع فهو قنع وقانع.

" كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون ".

من الله على عبادة واستحمد إليهم بأن سخر لهم البدن مثل التسخير الذي رأوا وعلموا ويأخذونها منقادة للأخذ طيعة فيعقلونها ويحبسونها صافة قوائمها ثم يطعنون في لبانها.

ولولا تسخير الله لم تطق ولم تكن بأعجز من بعض الوحوش التي هي أصغر منها جرماً وأقل قوة وكفى بما يتأبد من الإبل شاهداً وعبرة.

" لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين ".

أي: لن يصيب رضا الله اللحوم المتصدق بها ولا الدماء المهراقة بالنحر والمراد أصحاب اللحوم والدماء والمعنى: لن يرضي المضحون والمقربون ربهم إلا بمراعاة النية والإخلاص والاحتفاظ بشروط التقوى في حل ما قرب به وغير ذلك من المحافظات الشرعية وأوامر الورع.

فإذا لم يراعوا ذلك لم تغن عنهم التضحية والتقريب وإن كثر ذلك منهم.

وقرىء: " لن تنال الله ولكن تناله " بالتاء والياء.

وقيل: كان أهل الجاهلية إذا نحروا البدن نضحوا الدماء حول البيت ولطخوه بالدم فلما حج المسلمون أرادوا مثل ذلك فنزلت.

كرر تذكير النعمة بالتسخير ثم قال: لتشكروا الله على هدايته إياكم لأعلام دينه ومناسك حجه بأن تكبروا وتهللوا فاختصر الكلام بأن ضمن التكبير معنى الشكر وعدى تعديته.

خص المؤمنين بدفعه عنهم ونصرته لهم كما قال: " إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا " غافر: 51 وقال: " إنهم لهم المنصورون " الصافات: 172 وقال: " وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب " الصف: 13 وجعل العلة في ذلك أنه لا يحب أضدادهم: وهم الخونة الكفرة الذين يخونون الله والرسول ويخونون أماناتهم ويكفرون نعم الله ويغمطونها.

ومن قرأ: " يدفع " فمعناه يبالغ في الدفع عنهم كما يبالغ من يغالب فيه لأن فعل المغالب يجيء أقوى وأبلغ.

" أذن للذين يقتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديرهم بغير حق إلا أن قالوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صومع وبيع وصلوت ومسجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز الذين إن مكنتهم في الأرض أقاموا الصلوة وءاتوا الزكوة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ".

" وأذن " و " يقتلون " قرئا على لفظ المبني للفاعل والمفعول جميعاً: والمعنى أذن لهم في القتال فحذف المأذون فيه لدلالة يقاتلون عليه " بأنهم ظلموا " أي بسبب كونهم مظلومين وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: كان مشركو مكة يؤذونهم أذىً شديداً وكانوا يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه فيقول لهم: " اصبروا فإني لم أومر بالقتال " حتى هاجر فأنزلت

هذه الآية وهي أول آية أذن فيها بالقتال بعد ما نهى عنه في نيف وسبعين آية.

وقيل: نزلت في قوم خرجوا مهاجرين فاعترضهم مشركو مكة فأذن لهم في مقاتلتهم.

والإخبار بكونه قادراً على نصرهم عدة منه بالنصر واردة على سنن كلام الجبابرة وما مر من دفعه عن الذين آمنوا مؤذن بمثل هذه العدة أيضاً: " أن يقولوا " فبم محل الجر على

الإبدال من " حق " أي بغير موجب سوى التوحيد الذي ينبغي أن يكون موجب الإقرار والتمكين لا موجب الإخراج والتسيير.

ومثله: " هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله " المائدة: 59.

دفع الله بعض الناس ببعض: إظهاره وتسليطه المسلمين منهم على الكافرين بالمجاهدة ولولا ذلك لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمنتهم وعلى متعبداتهم فهدموها ولم يتركوا للنصارى بيعاً ولا لرهبانهم صوامع ولا لليهود صلوات ولا للمسلمين مساجد.

أو لغلب المشركون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم على المسلمين وعلى أهل الكتاب الذين في ذمتهم وهدموا متعبدات الفريقين.

وقرىء: " دفاع " ولهدمت: بالتخفيف.

وسميت الكنيسة " صلاة " لأنه يصلى فيها.

وقيل: هي كلمة معربة أصلها بالعبرانية: صلوثاً " من ينصره " أي ينصر دينه وأولياءه: هو إخبار من الله عز وجل بظهر الغيب عما ستكون عليه سيرة المهاجرين رضي الله عنهم إن مكنهم في الأرض وبسط لهم في الدنيا وكيف يقومون بأمر الدين.

وعن عثمان رضي

الله عنه: هذا والله ثناء قبل بلاء.

يريد: أن الله قد أثنى عليهم قبل أن يحدثوا من الخير ما أحدثوا.

وقالوا: فيه دليل على صحة أمر الخلفاء الراشدين لأن الله لم يعط التمكين ونفاذ الأمر مع السيرة العادلة غيرهم من المهاجرين لاحظ في ذلك للأنصار والطلقاء.

وعن الحسن: هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

وقيل: " الذين " منصوب بدل من قوله من ينصره.

والظاهر أنه مجرور تابع للذين أخرجوا " ولله عقبة الأمور " أي مرجعها إلى حكمه وتقديره.

وفيه تأكيد لما وعده من إظهار أوليائه وإعلاء كلمتهم.

" وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبرهيم وقوم لوط وأصحب مدين وكذب موسى فأمليت للكفرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير ".

يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم تسلية له: لست بأوحدي في التكذيب فقد كذب الرسل قبلك أقوامهم وكفاك بهم أسوة.

فإن قلت: لم قيل: " وكذب موسى " ولم يقل: قوم موسى قلت: لأن موسى ما كذبه قومه بنو إسرائيل وإنما كذبه غير قومه وهم القبط.

وفيه شيء آخر كأنه قيل بعد ما ذكر تكذيب كل قوم رسولهم: وكذب موسى أيضاً مع وضوح آياته وعظم معجزاته فما ظنك بغيره.

" نكير " التنكير: بمعنى الإنكار والتغيير حيث أبدلهم بالنعمة محنة وبالحياة هلاكاً وبالعمارة

" فكأين من قرية أهلكنها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ".

كل مرتفع أظلك من سقف بيت أو خيمة أو ظلة أو كرم فهو " عرش " والخاوي الساقط من خوى النجم إذا سقط.

أو الخالي من خوى المنزل إذا خلا من أهله وخوى بطن الحامل وقوله: " على عروشها لا يخلو من أن يتعلق بخاوية فيكون المعنى أنها ساقطة على سقوفها أي خرت سقوفها على الأرض ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف.

أو أنها ساقطة أو خالية مع بقاء عروشها وسلامتها.

وإما أن يكون خبراً بعد خبر كأنه قيل: هي خالية وهي على عروشها أي قائمة مطلة على عروشها على معنى أن السقوف سقطت إلى الأرض فصارت في قرار الحيطان وبقيت الحيطان ماثلة فهي مشرفة على السقوف الساقطة.

فإن قلت: ما محل الجملتين من الإعراب أعني: " وهي ظالمة فهى خاوية " قلت: الأولى في محل النصب على الحال والثانية لا محل لها لأنها معطوفة على أهلكناها وهذا الفعل ليس له محل " وبئر معطلة " وقرأ الحسن: معطلة من أعطله بمعنى عطله.

ومعنى المعطلة: أنها عامرة فيها الماء ومعها آلات الاستقاء إلا أنها عطلت أي: تركت لا يستقى منها لهلاك أهلها " وقصر مشيد " والمشيد: المجصص أو المرفوع البنيان.

والمعنى: كم قرية أهلكنا وكم بئر عطلنا عن سقاتها وقصر مشيد أخليناه عن ساكنيه فترك ذلك لدلالة معطلة عليه وفي هذا دليل على أن " على عروشها " بمعنى " مع " أوجه.

روي: أن هذه بئر نزل عليها صالح عليه السلام مع أربعة آلاف نفر ممن آمن به.

ونجاهم الله من العذاب وهبم بحضرموت.

وإنما سميت بذلك لأن صالحاً حين حضرها مات وثمة بلدة عند البئر اسمها " حاضوراء " بناها قوم صالح وأمروا عليهم جلهس بن جلاس وأقاموا بها زماناً ثم كفروا وعبدوا صنماً وأرسل الله إليهم حنظلة بن صفوان نبياً فقتلوه فأهلكهم الله وعطل بئرهم وخرب قصورهم.

" أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو ءاذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصر ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ".

يحتمل أنهم لم يسافروا فحثوا على السفرة ليروا مصارع من أهلكهم الله بكفرهم ويشاهدوا آثارهم فيعتبروا.

وأن يكونوا قد سافروا ورأوا ذلك ولكن لم يعتبروا فجعلوا كأن لم يسافروا ولم يروا.

وقرىء: " فيكون لهم قلوب " بالياء أي: يعقلون ما يجب أن يعقل من التوحيد ويسمعون ما يجب سماعه من الوحي " فإنها " الضمير ضمير الشأن والقصة يجيء مذكراً ومؤنثاً وفي قراءة ابن مسعود: فإنه.

ويجوز أن يكون ضميراً مبهماً يفسره " الأبصر " وفي تعمى ضمير راجع إليه.

والمعنى: أن أبصارهم صحيحة سالمة لا عمى بها.

وإنما العمى بقلوبهم.

أولا يعتد بعمى الأبصار فكأنه ليس بعمى بالإضافة إلى عمى القلوب.

فإن قلت: أي فائدة في ذكر الصدور.

قلت: الذي قد تعورف واعتقد أن العمى على الحقيقة مكانه البصر وهو أن تصاب الحدقة بما يطمس نورها.

واستعماله في القلب استعارة ومثل فلما أريد إثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة ونفيه عن الأبصار احتاج هذا التصوير إلى زيادة تعيين وفضل تعريف ليتقرر أن مكان العمى هو القلوب لا الأبصار كما تقول: ليس المضاء للسيف ولكنه للسانك الذي بين فكيك فقولك: " الذي بين فكيك " تقرير لما ادعيته للسانه وتثبيت لأن محل المضاء هو هو لا غير وكأنك قلت: ما نفيت المضاء عن السيف وأثبته للسانك فلتة ولا سهواً مني ولكن تعمدت به إياه بعينه تعمداً.

" ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير ".

أنكر استعجالهم بالمتوعد به من العذاب العاجل أو الآجل كأنه قال: ولم يستعجلون به كأنهم يجوزون الفوت وإنما يجوز ذلك على ميعاد من يجوز عليه الخلف والله عز وعلا لا يخلف الميعاد وما وعده ليصيبنهم ولو بعد حين وهو سبحانه حليم لا يعجل ومن حلمه ووقاره واستقصاره المدد الطوال أن يوماً واحداً عنده كألف سنة عندكم.

قيل: معناه كيف يستعجلون بعذاب من يوم واحد من أيام عقابه في طول ألف سنة من سنيكم لأن أيام الشدائد مستطالة.

أو كأن ذلك اليوم الواحد لشدة عذابه كألف سنة من سني العذاب.

وقيل: ولن يخلف الله وعده في النظرة والإمهال.

وقرىء: " تعدون " بالتاء والياء ثم قال: وكم من أهل قرية كانوا مثلكم ظالمين قد أنظرتهم حيناً ثم أخفتهم بالعذاب والمرجع إلي وإلى حكمي.

فإن قلت: لم كانت الأولى معطوفة بالفاء وهذه بالواو قلت: الأولى وقعت بدلاً عن قوله: " فكيف كان نكير " الحج: 44 سبأ: 45 فاطر: 26 الملك: 18 وأما هذه فحكمها حكم ما تقدمها من الجملتين المعطوفتين بالواو أعني قوله: " ولن يخلف الله وعده وإن يوماً عند ربك كألف سنة ".

" قل يأيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين فالذين ءامنوا وعملوا الصلحت لهم مغفرة ورزق كريم والذين سعوا فى ءايتنا معجزين أولئك أصحب الجحيم ".

يقال: سعيت في أمر فلان إذا أصلحه أو أفسده بسعيه.

وعاجزه: سابقه لأن كل واحد منهما في طلب إعجاز الآخر عن اللحاق به فماذا سبقه قيل: أعجزه وعجزه.

والمعنى: سعوا في معناها بالفساد من الطعن فيها حيث سموها: سحراً وشعراً وأساطير ومن تثبيط الناس عنها سابقين أو مسابقين في زعمهم وتقديرهم طامعين أن كيدهم للإسلام يتم لهم.

فإن قلت: كأن القياس أن يقال: إنما أنا لكن بشير ونذير لذكر الفريقين بعده قلت: الحديث مسوق إلى المشركين.

و " يأيها الناس ": نداء لهم وهم الذين قيل فيهم: " أفلم يسيروا في الأرض " يوسف:90 الحج: 46. غافر: 82 محمد: 10 ووصفوا بالاستعجال.

وإنما أفحم المؤمنون وثوابهم ليغاظوا.

" وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطن فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطن ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ".

" من رسول ولا نبي " دليل بين على تغاير الرسول والنبي.

وعن النبي صلىالله عليه وسلم أنه سئل عن الأنبياء فقال: " مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً " قيل: فكم الرسل منهم قال: " ثلثمائة وثلاثة عشر جماً غفيراً ".

والفرق بينهما أن الرسول من الأنبياء: من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه.

والنبي غير الرسول: من لم ينزل عليه كتاب وإنما أمر أن يدعو الناس إلى شريعة من قبله.

والسبب في نزول هذه الآية: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أعرض عنه قومه وشاقوه وخالفه عشيرته ولم يشايعوه على ما جاء به: تمنى لفرط ضجره من إعراضهم ولحرصه وتهالكه على إسلامهم أن لا ينزل عليه ما ينفرهم لعله يتخذ ذلك طريقاً إلى استمالتهم واستنزالهم عن غيهم وعنادهم فاستمر به ما تمناه حتى نزلت عليه سورة " والنجم " وهو في نادي قومه وذلك التمني في نفسه فأخذ يقرؤها فلما بلغ قوله: " ومناة الثالثة الأخرى " النجم: 20: " ألقى الشيطن في أمنيته " التي تمناها أي: وسوس إليه بما شيعها به فسبق لسانه على سبيل السهو والغلط إلى أن قال: تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى.

وروي: الغرانقة ولم يفطن له حتى أدركته العصمة فتنبه عليه وقيل: نبهه جبريل عليه السلام.

أو تكلم الشيطان بذلك فأسمعه الناس قيل فلما سجد في آخرها سجد معه جميع من في النادي وطابت نفوسهم وكان تمكين الشيطان من ذلك محنة من الله وابتلاء زاد المنافقون به شكاً وظلمة والمؤمنون نوراً وإيقاناً.

والمعنى: أن الرسل والأنبياء من قبلك كانت هجيراهم كذلك إذا تمنوا مثل ما تمنيت مكن الله الشيطان ليلقي في أمانيهم مثل ما ألقى في أمنيتك إرادة امتحان من حولهم والله سبحانه له أن يمتحن عباده بما شاء من صنوف المحن وأنواع الفتن ليضاعف ثواب الثابتين ويزيد في عقاب المذبذبين.

وقيل: " تمنى ": قرأ.

وأنشد: تمنى كتاب الله أول ليلة تمني عاود الربور على رسل وأمنيته: قراءته.

وقيل: تلك الغرانيق: إشارة إلى الملائكة أي: هم الشفعاء لا الأصنام " فينسخ الله ما يلقى الشيطن " أي يذهب به ويبطله " ثم يحكم الله ءايته " أي يثبتها.

" ليجعل ما يلقى الشيطن فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظلمين لفى شقاق

بعيد وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صرط مستقيم ".والذين " فى قلوبهم مرض " المنافقون والشاكون " والقاسية قلوبهم " المشركون المكذبون " وإن الظلمين " يريد: وإن هؤلاء المنافقين والمشركين.

وأصله: وإنهم فوضع الظاهر موضع الضمير قضاء عليهم بالظلم " أنه الحق من ربك " أي ليعلموا أن تمكين الشيطان من الإلقاء: هو الحق من ربك والحكمة " وإن الله لهاد الذين ءامنوا إلى " أن يتأولوا ما يتشابه في الدين بالتأويلات الصحيحة ويطلبوا لما أشكل منه المحمل الذي تقتضيه الأصول المحكمة والقوانين الممهدة حتى لا تلحقهم حيرة ولا تعريهم شبهة ولا تزل أقدامهم.

وقرىء: " لهاد الذين آمنوا " بالتنوين.

" ولا يزال الذجن كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم ".

الضمير في " مرية منه " للقرآن أو الرسول صلى الله عليه وسلم.

اليوم العقيم: يوم بدر وإنما وصف يوم الحرب بالعقيم لأن أولاد النساء يقتلون فيه فيصرن كأنهن عقم لم يلدن أو لأن المقاتلين يقال لهم أبناء الحرب فإذا قتلوا وصف يوم الحرب بالعقيم على سبيل المجاز.

وقيل: هو الذي لا خير فيه يقال: ريح عقيم إذا لم تنشىء مطراً ولم تلقح شجراً.

وقيل: لا مثل له في عظم أمره لقتال الملائكة عليهم السلام فيه.

وعن الضحاك أنه يوم القيامة وأن المراد بالساعة مقدماته ويجوز أن يراد بالساعة وبيوم عقيم: يوم القيامة كأنه قيل: حتى تأتيهم الساعة أو يأتيهم عذابها فوضع " يوم عقيم " موضع الضمير.

" الملك يومئذ لله يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنت النعيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين ".

فإن قلت: التنوين في " يومئذ " عن أي جملة ينوب قلت: تقديره: الملك يوم يؤمنون.

أو يوم تزول مريتهم لقوله: " ولا يزال الذين كفروا في مرية حتى تأتيهم الساعة ".

الحج: 55.

" والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقهم الله رزقاً حسناً وإن الله لهو خير الرزقين ليدخلهم مدخلاً يرضونه وإن الله لعليم حليم ".

لما جمعتهم المهاجرة في سبيل الله سوي بينهم في الموعد وأن يعطى من مات منهم مثل ما يعطي من قتل تفضلاً منه وإحساناً.

والله عليم بدرجات العاملين ومراتب استحقاقهم " حليم " عن تفريط المفرط منهم بفضله وكرمه روي أن طوائف من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم قالوا: يا نبي الله هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله من الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فما لنا إن متنا معك.

فأنزل الله هاتين الآيتين.

" ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله إن الله لعفو غفور ".

تسمية الابتداء بالجزاء لملابسته له من حيث أنه سبب وذاك مسبب عنه كما يحملون النظير على النظير والنقيض على النقيض للملابسة.

فإن قلت: كيف طابق ذكر العفو الغفور هذا الموضع قلت: المعاقب مبعوث من جهة الله عز وجل على الإخلال بالعقاب والعفو عن الجاني - على طريق التنزيه لا التحريم - ومندوب إليه ومستوجب عند الله المدح إن آثر ما ندب إليه وسلك سبيل التنزيه فحين لم يؤثر ذلك وانتصر وعاقب ولم ينظر في قوله تعالى: " فمن عفا وأصلح فأجره على الله " الشورى: 40 " وأن تعفو أقرب للتقوى " البقرة: 237 " ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور " الشورى: 43: " إن الله لعفو غفور " أي: لا يلومه على ترك ما بعثه عليه وهو ضامن لنصره قي كرته الثانية من إخلاله بالعفو وانتقامه من الباغي عليه.

ويجوز أن يضمن له النصر على الباغي ويعرض مع ذلك بما كان أولى به من العفو ويلوح به بذكر هاتين الصفتين.

أو دل بذكر العفو والمغفرة على أنه قادر على العقوبة لأنه لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده.

" ذلك بأن الله يولج اليل فى النهار ويولج النهار فى اليل وأن الله سميع بصير ".

" ذلك " أي ذلك النصر بسبب أنه قادر.

ومن آيات قدرته البالغة أنه " يولج اليل فى النهار ويولج النهار فى اليل " أو بسبب أنه خالق الليل والنهار ومصرفهما فلا يخفى عليه ما يجري فيهما على

أيدي عباده من الخير والشر والبغي والإنصاف وأنه " سميع " لما يقولون " بصير " بما يفعلون.

فإن قلت: ما معنى إيلاج أحد الملوين في الآخر قلت: تحصيل ظلمة هذا في مكان ضياء ذاك بغيبوبة الشمس.

وضياء ذاك في مكان ظلمة هذا بطلوعها كما يضيء السرب بالسراج ويظلم بفقده.

وقيل: هو زيادته في أحدهما ما ينقص من الآخر من الساعات.

" ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو البطل وأن الله هو العلي الكبير ".

وقرىء: " تدعون " بالتاء والياء.

وقرأ اليماني.

وأن ما تدعون.

بلفظ المبني للمفعول والواو راجعة إلى " ما " لأنه في معنى الآلهة أي: ذلك الوصف بخلق الليل والنهار والإحاطة بما يجري فيهما وإدراك كل قول وفعل بسبب أنه الله الحق الثابت إلهيته وأن كل ما يدعى إلهاً دونه باطل الدعوة وأنه لا شيء أعلى منه شأناً وأكبر سلطاناً.

" ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فتصبح الأرض مخضرةً إن الله لطيف خبير له ما فى السموت وما في الأرض وإن الله لهو الغني الحميد ".

قرىء: " مخضرةً " أي ذات خضر على مفعلة كمقبلة ومسبعة.

فإن قلت: هلا قيل: فأصبحت ولم صرف إل لفظ المضارع قلت: لنكتة فيه وهي إفادة بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان كما تقول: أنعم علي فلان عام كذا فأروح وأغدوا شاكراً له.

ولو قلت: فرحت وغدوت ولم يقع ذلك الموقع فإن قلت: فما له رفع لم ينصب جواباً للاستفهام قلت: لو نصب لأعطى ما هو عكس الغرض لأن معناه إثبات الاخضرار فينقلب بالنصب إلى نفي الاخضرار مثاله أن تقول لصاحبك: ألم تر أني أنعمت عليك فتشكر: إن نصبته فأنت ناف لشكره شاك تفريطه فيه وإن رفعته فأنت مثبت للشكر.

وهذا وأمثاله مما يجب أن يرغب له من اتسم بالعلم في علم الإعراب وتوقير أهله " لطيف " وأصل علمه أو فضله إلى كل شيء " خبير " بمصالح الخلق ومنافعهم.

" ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع كل الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسن لكفور ".

" ما في الأرض " من البهائم مذللة للركوب في البر ومن المراكب جارية في البحر وغير ذلك من سائر المسخرات.

وقرىء: " والفلك " بالرفع على الابتداء " أن تقع " كراهة أن تقع " إلا " بمشيئته " أحياكم " بعد أن كنتم جماداً تراباً ونطفة وعلقة ومضغة " لكفور " لجحود لما أفاض عليه من ضروب النعم.

" لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه فلا ينزعنك فى الأمر وادع إلى ربك إنك لعلى هدىً

عظيم ".

هو نهي لرسول الله صلى الله عليه وسلم أي: لا تلتفت إلى قولهم ولا تمكنهم من أن ينازعوك.

أو هو زجر لهم عن التعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالمنازعة في الدين وهم جهال لا علم عندهم وهم كفار خزاعة.

روى: أن بديل بن ورقاء وبشر بن سفيان الخزاعيين وغيرهما قالوا للمسلمين: ما لكم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتله الله! يعنون الميتة.

وقال الزجاج: هو نهي له صلى الله عليه وسلم عن منازعتهم كما تقول: لا يضاربنك فلان أي: لا تضاربه.

وهذا جائز في الفعل الذي لا يكون إلا بين اثنين " في الأمر " في أمر الدين.

وقيل: فبم أمر النسائك وقرىء: "فلا ينزعنك " أي اثبت في دينك ثباتاً لا يطمعون أن يجذبوك ليزيلوك عنه.

والمراد: زيادة التثبيت للنبي صلى الله عليه وسلم بما يهيج حميته ويلهب غضبه لله ولدينه.

ومنه قوله: " ولا يصدنك عن آيات الله " القصص: 87 " ولا تكونن من المشركين " الأنعام: 4 يونس: 105 القصص: 87 " فلا تكونن ظهيراً للكافرين " القصص: 86.

وهيهات أن ترتع همة رسول الله صلى الله عليه وسلم حول ذلك الحمى ولكنه وارد على ما قلت لك من إرادة التهييج والإلهاب.

وقال الزجاج: هو من نازعته فنزعته أنزعه أي: غلبته أي: لا يغلبنك في المنازعة.

فإن قلت: لم جاءت نظيرة هذه الآية معطوفة بالواو وقد نزعت عن هذه.

قلت: لأن تلك وقعت مع ما يدانيها ويناسبها من الآي الواردة في أمر النسائك فعطفت على أخواتها.

" وإن جدلوك فقل الله أعلم بما تعملون ".

أي: وإن أبوا للجاجهم إلا المجادلة بعد اجتهادك أن لا يكون بينك وبينهم تنازع فادفعهم بأن الله أعلم بأعمالكم وبقبحها وبما تستحقون عليها من الجزاء فهو مجازيكم به.

وهذا وعيد وإنذار ولكن برفق ولين.

" الله يخكم بينكم يوم القيمة فيما كنتم فيه تختلفون ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض إن ذلك فى كتب إن ذلك على الله يسير ".

" الله يحكم بينكم " خطاب من الله للمؤمنين والكافرين أي: يفصل بينكم بالثواب والعقاب ومسلاة للنبي صلى الله عليه وسلم مما كان يلقى منهم وكيف يخفى عليه ما يعملون ومعلوم عند العلماء بأن الله يعلم كل ما يحدث في السموات والأرض وقد كتبه في اللوح قبل حدوثه.

والإحاطة بذلك وإثباته وحفظه عليه " يسير " لأن العالم بالذات لا يتعذر عليه ولا يمتنع تعلق بمعلوم.

" ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطناً وما ليس لهم علم وما للظلمين من نصير ".

" ويعبدون من دون " ما لم يتمسكوا في صحة عبادته ببرهان سماوي من جهة الوحي والسمع ولا ألجأهم إليها علم ضروري ولا حملهم عليها دليل عقلي " وما " للذين ارتكبوا مثل هذا الظلم

" وإذ تتلى عليهم ءايتنا بينت تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم ءايتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير ".

" المنكر " الفظيع من التجهم والبسور.

أو الإنكار كالمكرم بمعنى الإكرام.

وقرىء: " يعرف " والمنكر.

والسطو: الوثب والبطش.

وقرىء: " النار " بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف كأن قائلاً قال: ما هو فقيل: النار أي: هو النار.

وبالنصب علىالاختصاص.

وبالجر على البدل من " بشر من ذلم " من غيظكم على التالين وسطوكم عليهم.

أو مما أصابكم من الكراهة والضجر بسبب ما تلي عليكم " وعدها الله " استئناف كلام.

ويحتمل أن تكون " النار " مبتدأ و " وعدها " خبراً وأن يكون حالاً عنها إذا نصبتها أو جررتها بإضمار " قد ".

" يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ".

فإن قلت: الذي جاء به ليس بمثل فكيف سماه مثلاً قلت: قد سميت الصفة أو القصة الرائعة المتلقاة بالاستحسان والاستغراب: مثلاً تشبيهاً لها ببعض الأمثال المسيرة لكونها مستحسنة مستغربة عندهم.

قرىء: " تدعون " بالتاء والياء ويدعون: مبنياً للمفعول " لن " أخت " لا " في نفي المستقبل إلا أن " لن " تنفيه نفياً مؤكداً وتأكيده ههنا الدلالة على أن خلق الذباب

منهم مستحيل مناف لأحوالهم كأنه قال: محال أن يخلقوا فإن قلت: ما محل.

" ولو اجتمعوا له " قلت: النصب على الحال كأنه قال: مستحيل أن يخلقوا الذباب مشروطاً عليهم اجتماعهم جميعاً لخلقه وتعاونهم عليه وهذا من أبلغ ما أنزله الله في تجهيل قريش واستركاك عقولهم والشهادة على أن الشيطان قد خزمهم بخزائمه حيث وصفوا بالإلهية - التي تقتضي الاقتدار على المقدورات كلها والإحاطة بالمعلومات عن آخرها - صوراً وتماثيل يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه الله وأذله وأصغره وأحقره ولو اجتمعوا لذلك وتساندوا.

وأدل من ذلك على عجزهم وانتفاء قدرتهم: أن هذا الخلق الأقل الأذل لو اختطف منهم شيئاً فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه لم يقدروا.

وقوله: " ضعف الطالب والمطلوب " كالتسوية بينهم وبين الفباب في الضعف.

ولو حققت وجدت الطالب أضعف وأضعف لأن الذباب حيوان وهو جماد وهو غالب وذاك مغلوب.

وعن ابن عباس: أنهم كانوا يطلونها بالزعفران ورؤوسها بالعسل ويغلقون عليها الأبواب فيدخل الذباب من الكوى فيأكله.

" ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز ".

" ما قدروا الله حق قدره " أي ما عرفوه حق معرفته حتى لا يسموا باسمه من هو منسلخ عن صفاته بأسرها ولا يؤهلوه للعبادة ولا يتخذوه شريكاً له: إن الله قادر غالب فكيف يتخذ

" الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس إن الله سميع بصير يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور ".

هذا رد لما أنكروه من أن يكون الرسول من البشر وبيان أن رسل الله على ضربين: ملائكة وبشر ثم ذكر أنه تعالى دراك للمدركات عالم بأحوال المكلفين ما مضي منها وما غبر لا تخفى عليه منهم خافية.

وإليه مرجع الأمور كلها والذي هو بهذه الصفات لا يسأل عما يفعل وليس لأحد أن يعترض عليه في حكمه وتدابيره واختيار رسله.

" يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ".

للذكر شأن ليس لغيره من الطاعات.

وفي هذه السورة دلالات على ذلك فمن ثمة دعا المؤمنين أولاً إلى الصلاة التي هي ذكر خالص ثم إلى العبادة بغير الصلاة كالصوم والحج والغزو ثم عم بالحث على سائر الخيرات.

وقيل: كان الناس أول ما أسلموا يسجدون بلا ركوع ويركعون بلا سجود فأمروا أن تكون صلاتهم بركوع وسجود.

وقيل: معنى: " واعبدوا ربكم " اقصدوا بركوعكم وسجودكم وجه الله.

وعن ابن عباس في قوله: " وافعلوا الخير " صلة الأرحام ومكارم الأخلاق " لعلكم تفلحون " أي افعلوا هذا كله وأنتم راجون للفلاح طامعون فيه غير مستيقنين ولا تتكلوا على أعمالكم وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله في صورة الحج سجدتان.

قال: " نعم " إن لم تسجدهما فلا تقرأهما " وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فضلت سورة الحج بسجدتين.

وبذلك احتج الشافعي رضي الله عنه فرأى سجدتين في سورة الحج وأبو حنيفة وأصحابه رضي لله عنهم لا يرون فيها إلا سجدة واحدة لأنهم يقولون: قرن السجود بالركوع فدل ذلك على أنها سجدة صلاة لا سجدة تلاوة.

" وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبرهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيداً وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلوة وآتوا الزكوة واعتصموا بالله هو مولكم فنعم المولى ونعم النصير "

" وجهدوا " أمر بالغزو وبمجاهدة النفس والهوى وهو الجهاد الأكبر.

عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه رجع من بعض غزواته فقال: " رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر " " فى الله " أي في ذات الله ومن أجله.

يقال: هو حق عالم وجد عالم أي: عالم حقاً وجداً.

ومنه " حق جهاده ".

فإن قلت: ما وجه هذه الإضافة وكان القياس: حق الجهاد فيه أو حق جهادكم فيه كما قال: " وجهدوا فى الله" قلت: الأضافة تكون بأدنى ملابسة واختصاص فلما كان الجهاد مختصاً بالله من حيث أنه مفعول لوجهه ومن أجله صحت إضافته إليه.

ويجوز أن يتسع في الظرف كقوله: ويوماً شهدناه سليماً عامراً " اجتبكم " اختاركم لدينه ولنصرته " وما جعل عليكم فى الدين من حرج " فتح باب التوبة للمجرمين وفسح بأنواع الرخص والكفارات والديات والأروش.

ونحوه قول تعالى: " يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر " البقرة: 185 وأمة محمد صلى الله عليه وسلم هي الأمة المرحومة الموسومة بذلك في الكتب المتقدمة.

نصب الملة بمضمون ما تقدمها كأنه قيل: وسع دينكم توسعة ملة أبيكم ثم حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه.

أو على الاختصاص أي: أعني بالدين ملة أبيكم كقولك: الحمد الله الحميد.

فإن قلت: لم يكن " إبرهيم " أبا للأمة كلها.

قلت: هو أبو رسول الله صلىالله عليه وسلم فكان أباً لأمته لأن أمة الرسول في حكم أولاده " هو " يرجع إلى الله تعالى.

وقيل: إلى إبراهيم.

ويشهد للقول الأول قراءة أبي بن كعب: " الله سماكم " " من قبل وفى هذا " أي من قبل القرآن في سائر الكتب وفي القرآن أي: فضلكم على الأمم وسماكم بهذا الاسم الأكرم " ليكون الرسول شهيداً عليكم " أنه قد بلغكم " وتكونوا شهداء على الناس " بأن الرسل قد بلغتهم وإذ خصكم بهذه الكرامة والأثرة.

فاعبدوه وثقوا به ولا تطلبوا النصرة والولاية إلا منه فهو خير مولى وناصر.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من قرأ سورة الحج أعطي من الأجر كحجة حجها وعمرة اعتمرها بعدد من حج واعتمر فيما مضى وفيما بقي ".

سورة المؤمنون

مكية وهي مائة وتسع عشرة آية وثماني عشرة عند الكوفيين بسم الله الرحمن الرحيم " قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خشعون ".

" قد " نقيضه " لما " هي تثبت المتوقع و " لما " تنفيه ولا شك أن المؤمنين كانوا متوقعين لمثل هذه البشارة وهي الإخبار بثبات الفلاح لهم فخوطبوا بما دل على ثبات ما توقعوه.

والفلاح: الظفر بالمراد وقيل: البقاء في الخير.

و " أفلح " دخل في الفلاح كأبشر: دخل في البشارة.

ويقال: أفلحه: أصاره إلى الفلاح.

وعليه قراءة طلحة بن مصرف: أفلح على البناء للمفعول.

وعنه: " أفلحوا " على: أكلوني البراغيث.

أو على الإبهام والتفسير.

وعنه: " أفلح " بضمة بغير واو اجتزاء بها عنها كقوله: فلؤ أن الأطبا كان حولي فإن قلت: ما المؤمن قلت: هو في اللغة المصدق.

وأما في الشريعة فقد اختلف فيهعلىقولين أحدهما: أن كل من نطق بالشهادتين مواطئاً قلبه لسانه فهو مؤمن.

والآخر أنه صفة مدح لا يستحقها إلا البر التقي دون الفاسق الشقي.

" خشعون " الخشوع في الصلاة: خشية القلب وإلباد البصر - عن قتادة: وهو إلزامه موضع السجود.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه كان يصلي رافعاً بصره إلى السماء فلما نزلت هذه الآية رمى ببصره نحو مسجده وكان الرجل من العلماء إذا قام إلى الصلاة هاب الرحمن أن يشد بصره إلى شيء أو يحدث نفسه بشأن من شأن الدنيا.

وقيل: هو جمع الهمة لها والإعراض عما سواها.

ومن الخشوع: أن يستعمل الآداب فيتوقى كف الثوب والعبث بجسده وثيابه والالتفات والتمطي والتثاؤب والتغميض وتغطية الفم والسدل والفرقعة والتشبيك والاختصار وتقليب الحصا.

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه أبصر رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة فقال: " لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه " ونظر الحسن إلى رجل يعبث بالحصا وهو يقول: اللهم زوجني الحور العين فقال: بئس الخاطب أنت تخطب وأنت تعبث.

فإن قلت: لم أضيفت الصلاة إليهم قلت: لأن الصلاة دائرة بين المصلي والمصلى له فالمصلي هو المنتفع بها وحده وهي عدته وذخيرته فهي صلاته: وأما المصلى له فغني متعال عن الحاجة إليها والانتفاع بها.

" والذين هم عن اللغو معرضون ".

اللغو: ما لا يعنيك من قول أو فعل كاللعب والهزل وما توجب المروءة إلغاءه وإطراحه يعني أن بهم من الجد ما يشغلهم عن الهزل.

لما وصفهم بالخشوع في الصلاة أتبعه الوصف بالإعراض عن اللغو ليجمع لهم الفعل والترك الشاقين على الأنفس اللذين هما قاعدتا بناء التكليف.

" والذين هم للزكوة فعلون ".

الزكاة اسم مشترك بين عين ومعنى فالعين: القمر الذي يخرجه المزكي من النصاب إلى الفقير

والمعنى: فعل المزكي الذي هو التزكية وهو الذي أراده الله فجعل المزكين فاعلين له ولا يسوغ فيه غيره لأنه ما من مصدر إلا يعبر عن معناه بالفعل ويقال لمحدثه فاعل لقول للضارب: فاعل الضرب وللقاتل: فاعل القتل وللمزكي: فاعل التزكية.

وعلى هذا الكلام كله والتحقيق فيه أنك تقول في جميع الحوادث: من فاعل هذا فيقال لك: فاعله الله أو بعض الخلق.

ولم يمتنع الزكاة الحالة على العين أن يتعلق بها فاعلون لخروجها من صحة أن يتناولها الفاعل ولكن لأن الخلق ليسوا بفاعليها.

وقد أنشد لأمية بن أبي الصلت: المطعمون الطعام في السنة الأزمة والفاعلون للزكوات ويجوز أن يراد بالزكاة: العين ويقدر مضاف محذوف وهو الأداء وحمل البيت على هذا أصح لأنها فيه مجموعة.

" والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ".

" على أزوجهم " في موضع الحال أي الأوالين على أزواجهم: أو قوامين عليهن من قولك: كان فلان على فلانة فمات عنها فخلف عليها فلان.

ونظيره: كان زياد على البصرة أي: والياً عليها.

ومنه قولهم: فلانة تحت فلان ومن ثمة سميت المرأة فراشاً: والمعنى: أنهم لفروجهم حافظون في كافة الأحوال إلا في حال تزوجهم أو تسريهم أو تعلق " على " بمحذوف يدل عليه " غير ملومين " المعارج: 30 كأنه قيل: يلامون إلا على أزواجهم أي: يلامون على كل مباشر إلا على على ما أطلق لهم فإنهم غير ملومين عليه.

أو تجعله صلة لحافظين من قولك: احفظ علي عنان فرسي على تضمينه معنى النفي كما ضمن قولهم: نشدتك بالله إلا فعلت معنى ما طلبت منك إلا فعلك.

فإن قلت: هلا قيل: من ملكت قلت: لأنه أريد من جنس العقلاء ما يجري مجرى غير العقلاء وهم الإناث جعل المستثنى حداً أوجب الوقوف عنده ثم قال: فمن أحدث ابتغاء وراء هذا الحد مع فسحته واتساعه وهو إباحة أربع من الحرائر ومن الإماء ما شئت " فأولئك هم " الكاملون في العدوان المتناهون فيه.

فإن قلت: هل فيه دليل على تحريم المتعة.

قلت: لا لأن المنكوحة نكاح المتعة من جملة الأزواج إذا صح النكاح.

" والذين هم لأمنتهم عهدهم رعون ".

وقرىء: " لأمانتهم " سمى الشيء المؤتمن عليه والمعاهد عليه أمانة وعهداً.

ومنه قوله تعالى: " إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها " النساء: 58 وقال: " وتخونوا أماناتكم " الأنفال: 27 وإنما تؤدى العيون لا المعاني ويخان المؤتمن عليه لا الأمانة في نفسها.

والراعي: القائم على الشيء بحفظ وإصلاح كراعي الغنم وراعي الرعية.

ويقال: من راعي هذا الشيء.

أي متوليه وصاحبه: ويحتمل العموم في كل ما ائتمنوا عليه وعوهدوا من جهة الله تعالى ومن جهة الخلق والخصوص فيما حملوه من أمانات الناس وعهودهم.

" والذين هم على صلوتهم يحافظون ".

وقرىء: " على صلاتهم ".

فإن قلت: كيف كرر ذكر الصلاة أولاً وآخراً.

قلت: هما ذكران مختلفان فليس بتكرير.

وصفوا أولاً بالخشوع في صلاتهم وآخراً بالمحافظة عليها.

وذلك أن لا يسهوا عنها ويؤدوها في أوقاتها ويقيموا أركنها ويوكلوا نفوسهم بالاهتمام بها وبما ينبغي أن تتم به أوصافها.

وأيضاً فقد وحدت أولاً ليفاد الخشوع في جنس الصلاة أي صلاة كانت وجمعت آخراً لتفاد المحافظة على أعدادها: وهي الصلوات الخمس والوتر والسنن المرتبة مع كل صلاة وصلاة الجمعة والعيدين والجنازة والاستسقاء والكسوف والخسوف وصلاة الضحى والتهجد وصلاة التسبيح وصلاة الحاجة.

وغيرها من النوافل.

" أولئك هم الورثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خلدون ".

أي " أولئك " الجامعون لهذه الأوصاف " هم الورثون " الأحقاء بأن يسقوا وراثاً دون من عداهم ثم ترجم الوارثين بقوله: " الذين يرثون الفردوس " فجاء بفخامة وجزالة لإرثهم لا تخفى على الناظر.

ومعنى الإرث: ما مر في سورة مريم.

أنث الفردوس على تأويل الجنة وهو: البستان

الواسع الجامع لأصناف الثمر.

روي أن الله عز وجل بنى جنة الفردوس لبنة من ذهب ولبنة من فضة وجعل خلالها المسك والأذفر.

وفي رواية: ولبنة من مسك مذري وغرس فيها من جيد الفاكهة وجيد الريحان.

" ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلنه نطفةً فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقةً فخلقنا العلقة مضغةً فخلفنا المضغة عظماً فكسونا العظم لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخلقين ".

السلالة: الخلاصة لأنها تسل من بين الكدر وفعالة بناء للقلة كالقلامة والقمامة.

وعن الحسن: ماء بين ظهراني الطين.

فإد قلت: ما الفرق بين من ومن قلت: الأول للابتداء والثاني للبيان كقوله: " من الأوثان " الحج: 3.

فإن قلت: ما معنى: جعلنا الإنسان نطفة.

قلت: معناه أنه خلق جوهر الإنسان أولاً طيناً ثم جعل جوهره بعد ذلك نطفة.

القرار: المستقر والمراد الرحم.

وصفت بالمكانة التي هي صفة المستقر فيها كقولك: طريق سائر.

أو بمكانتها في نفسهاة لأنها مكنت بحيث هي وأحرزت.

قرىء: " عظماً فكسونا العظم " و " عظاماً فكسونا العظام " و " عظماً فكسونا العظام " وضع الواحد مكان الجمع لزوال اللبس لأن الإنسان ذو عظام كثيرة " خلقاً ءاخر " أي خلقاً مبايناً للخلق الأول مباينة ما أبعدها حيث جعله حيواناً وكان جماداً وناطقاً وكان أبكم وسميعاً وكان أصم وبصيراً وكان أكمه وأودع باطنه وظاهره - بل كل عضو من أعضائه وكل جزء من أجزائه - عجائب فطرة وغرائب حكمة لا تحرك بوصف الواصف ولا تبلغ بشرح الشارح: وقد احتج به أبو حنيفة فيمن غصب بيضة فأفرخت عنده قال: يضمن البيضة ولا يرد الفرخ: لأنه خلق أخر سوى البيضة " فتبارك الله " فتعالى أمره في قدرته وعلمه " أحسن الخلقين " أي: أحسن المقدرين تقديراً فترك ذكر المميز لدلالة الخالقين عليه.

ونحوه: طرح المأذون فيه في قوله: " أذن للذين يقاتلون " الحج: 39 لدلالة الصلة.

وروي عن عمر رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغ قوله خلقاً آخر قال: " فتبارك الله أحسن الخالقين ".

وروي: أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم فنطق بذلك قبل إملائه فقال: له النبي صلى الله عليه وسلم: " اكتب هكذا نزلت " فقال: عبد الله: إن كان محمد نبياً يوحى إليه فأنا نبي يوحى إلي فلحق بمكة كافراً ثم أسلم يوم الفتح.

" ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيمة تبعثون ".

قرأ ابن أبي عبلة وابن محيصن: لمائتون.

والفرق بين الميت والمائت: أن الميت كالحي صفة ثابتة.

وأما المائت فيدل على الحدوث.

تقول: زيد مائت الآن ومائت غداً كقولك يموت.

ونحوهما: ضيق وضائق وفي قوله تعالى: " وضائق به صدرك " هود: 12 " لميتون " جعل الإماتة التي هي إعدام الحياة والبعث الذي هو إعادة ما يفنيه ويعدمه: دليلين أيضاً على اقتدار عظيم بعد الإنشاء والاختراع.

فإن قلت: فإذاً لا حياة إلا حياة الإنشاء وحياة البعث.

قلت: ليس في ذكر الحياتين نفي الثالثة وهي حياة القبر كما لو ذكرت ثلثي ما عندك وطويت ذكر ثلثه لم يكن دليلاً على أن الثلث ليس عندك.

وأيضاً فالغرض ذكر هذه الأجناس الثلاثة: الإنشاء والإماتة والإعادة والمطوي ذكرها من جنس الإعادة.

" ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين ".

الطرائق: السموات لأنه طورق بعضها فوق بعض كمطارقة النعل وكل شيء فوقه مثله فهو طريقة: أو لأنها طرق الملائكة ومتقلباتهم: وقيل: الأفلاك لأنها طرائق الكواكب فيها مسيرها: أراد بالخلق السموات كأنه قال: خلقناها فوقهم " وما كنا " عنها " غفلين " وعن حفظها وإمساكها أن تقع فوقهم بقدرتنا: أو أراد به الناس وأنه إنما خلقها فوقهم ليفتح عليهم الأرزاق والبركات منها وينفعهم بأنواع منافعها وما كان غافلاً عنهم وما يصلحهم.

" وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون ".

" بقدر " بتقدير يسلمون معه من المضرة ويصلون إلى المنفعة.

أو بمقدار ما علمناه من حاجاتهم ومصالحهم.

" فأسكنه فى الأرض " كقوله: " فسلكه ينابيع في الأرض " الزمر: 21 وقيل: جعلناه ثابتاً في الأرض.

وقيل: إنها خمسة أنهار: سيحون.

نهر الهند.

وجيحون: نهر بلخ ودجلة والفرات: نهرا العراق.

والنيل: نهر مصر أنزلها الله من عين واحدة من عيون الجنة فاستودعها الجبال وأجراها في الأرض وجعل فيها منافع للناس في أصناف معيشهم.

وكما قدر على أنزاله فهو قادر على رفعه وإزالته.

وقوله: " على ذهاب به " من أوقع النكرات وأحزها للمفصل.

والمعنى: على وجه من وجوه الذهاب به وطريق من طرقه.

وفيه إيذان باقتدار المذهب وأنه لا يتعايى عليه شيء إذا أراده وهو أبلغ في الإيعاد من قوله: " قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين " الملك: 30 فعلى العباد أن يستعظموا النعمة في الماء ويقيدوها بالشكر الدائم ويخافوا نفارها إذا لم تشكر.

" فأنشأنا لكم به جنت من نخيل وأعنب لكم فيها فوكه كثيرة ومنها تأكلون وشجرةً تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للأكلين ".

خص هذه الأنواع الثلاثة لأنها أكرم الشجر وأفضلها وأجمعها للمنافع.

ووصف النخل والعنب بأن ثمرهما جامع بين أمرين: بأنه فاكهة يتفكه بها وطعام يؤكل رطباً ويابساً رطباً وعنباً وتمراً وزبيباً.

والزيتون بأن دهنه صالح للاستصباح والاصطباغ جميعاً ويجوز أن يكون قوله: " ومنها تأكلون " من قولهم: يأكل فلان من حرفة يحترفها ومن ضيعة يغتلها ومن تجارة يتربح بها: يعنون أنها طعمته وجهته التي منها يحصل رزقه كأنه قال: وهذه الجنات وجوه أرزاقكم ومعايشكم منها ترتزقون وتتعيشون " وشجرة " عطف على جنات.

وقرئت مرفوعة على الابتداء أي: ومما أنشيء لكم شجرة و " طور سيناء " وطور سينين لا يخلو إما أن يضاف فيه الطور إلى بقعة اسمها سيناء وسينون وإما أن يكون اسماً للجبل مركباً من مضاف ومضاف إليه كامريء القيس وكبعلبك فيمن أضاف.

فمن كسر سين سيناء فقد منع الصرف للتعريف والعجمة أو التأنيث لأنها بقعة وفعلاء لا يكون ألفه للتأنيث كحلباء وحرباء.

ومن فتح فلم يصرف لأن الألف للتأنيث كصحراء.

وقيل: هو جبل فلسطين.

وقيل: بين مصر وأيلة.

ومنه نودي موسى عليه السلام.

وقرأ الأعمش: " سينا " على القصر " بالدهن " في موضع الحال أي: تنبت وفيها الحصن.

وقرىء: " تنبت " وفيه وجهان أحدهما: أن أنبت بمعنى نبت.

وأنشد لزهير: رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم قطيناً لهم حتى إذا أنبت البقل والثاني: أن مفعوله محذوف أي: تنبت زيتونها وفيه الزيت.

وقرىء: " تنبت " بضم التاء وفتح الباء وحكمه حكم تنبت.

وقرأ ابن مسعود: تخرج الدهن وصبغ الآكلين.

وغيره: تخرج بالدهن: وفي حرف أبي: " تثمر الدهن " وعن بعضهم: تنبت بالدهان.

وقرأ الأعمش: " وصبغاً " وقرىء: " وصباغ " ونحوهما: دبغ ودباغ.

والصبغ: الغمس للائتدام.

وقيل: هي أول شجرة نبتت بعد الطوفان ووصفها الله تعالى بالبركة في قوله: " يوقد من شجرة مباركة " النور: 35.

" وإن لكم في الأنعام لعبرةً نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون وعليها وعلى الفلك تحملون ".

قرىء: " تسقيكم " بتاء مفتوحة أي: تسقيكما الأنعام " ومنها تأكلون " أي تتعلق بها منافع من الركوب والحمل وغير ذلك كما تتعلق بما لا يؤكل لحمه من الخيل والبغال والحمير.

وفيها منفعة زائدة وهي أكل الذي هو انتفاع بذواتها والقصد بالأنعام إلى الإبل لأنها هي المحمول عليها في العادة وقرنها بالفلك - التي هي السفائن - لأنها سفائن البر.

قال ذو الرمة: سفينة بر تحت خدي زمامها يريد صيدحه.

" ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون فقال الملؤا الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء

الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين ".

" غيره " بالرفع على المحل وبالجر على اللفظ والجملة استئناف تجري مجرى التعليل للأمر بالعبادة " أفلا تتقون " أفلا تخافون أن ترفضوا عبادة الله الذي هو ربكم وخالقكم ورازقكم وشكر نعمته التي لا تحصونها واجب عليكم ثم تذهبوا فتعبدوا غيره.

مما ليس من استحقاق العبادة في شيء " أن يتفضل عليكم " أن يطلب الفضل عليكم ويرأسكم كقوله تعالى: " وتكون لكما الكبرياء في الأرض " يونس: 78.

" بهذا " إشارة إلى نوح عليه السلام أو إلى ما كلمهم به من الحث على عبادة الله أي: ما سمعنا بمثل هذا الكلام أو بمثل هذا الذي يدعي وهو بشر أنه رسول الله وما أعجب شأن الضلال لم يرضوا للنبوة ببشر وقد رضوا للإلهية بحجر: وقولهم: " ما سمعنا بهذا " يدل على أنهم وآباؤهم كانوا في فترة متطاولة.

أو تكذبوا في ذلك لأنهماكهم في الغي وتشمرهم لأن يدفعوا الحق بما أمكنهم وبما عن لهم من غير تمييز منهم بين صدق وكذب.

ألا تراهم: كيف جننوه وقد علموا أنه أرجح الناس عقلاً وأوزنهم قولاً.

والجنة: الجنون أو الجن أي: به جن يخبلونه " حتى حين " أي احتملوه واصبروا عليه إلى زمان حتى ينجلي أمره عن عاقبة فإن أفاق من جنونه وإلا قتلتموه.

" قال ربي انصرني بما كذبون فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجنا من القوم الظلمين وقل رب أنزلنى منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين إن في ذلك لأيت وإن كنا لمبتلين ".

في نصرته إهلاكهم فكأنه قال: أهلكهم بسبب تكذيبهم إياي أو انصرني بدل ما كذبوني كما تقول: هذا بذاك أي بدل ذاك ومكانه.

والمعنى: أبدلني من غم تكذيبهم سلوة النصرة عليهم أو انصرني بإنجاز ما وعدتهم من العذاب وهو ما كذبوه حين قال لهم: " إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم " الأعراف: 59 الشعراء: 135 الأحقاف: 21 " بأعيننا " بحفظنا وكلاءتنا كأن معه من الله حفاظاً يكلؤونه بعيونهم لئلا يتعرض له ولا يفسد عليه مفسد عمله.

ومنه قولهم: عليه من الله عين كالئة " ووحينا " أي نأمرك كيف تصنع ونعلمك.

روي أنه أوحى إليه أن يصنعها على مثال جؤجؤ الطائر.

روي أنه قيل لنوح عليه السلام: إذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت ومن معك في السفينة فلما نبع الماء من التنور أخبرته امرأته فركب.

وقيل: كان تنور آدم عليه السلام وكان من حجارة فصار إلى نوح.

واختلف في مكانه فعن الشعبي: في مسجد الكوفة عن يمين الداخل مما يلي باب كندة وكان نوح عمل السفينة وسط المسجد.

وقيل: بالشام بموضع يقال له: عين وردة.

وقيل: بالهند.

وعن ابن عباس رضي الله عنه: التنور وجه الأرض.

وعن قتادة: أشرف موضع في الأرض أي أعلاه.

وعن علي رضي الله عنه: فار التنور: طلع الفجر.

وقيل: معناه أن فوران التنور كان عند تنوير الفجر.

وقيل: هو مثل كقولهم: حمي الوطيسى.

والقول هو الأول.

يقال: سلك فيه: دخله.

وسلك غيره وأسلكه.

قال: حتى إذا أسلكوهم في قتائده " من كل زوجين " من كل أمتي زوجين وهما أمة الذكر وأمة الأنثى كالجمال والنوق والحصن والرماك " اثنين " واحدين مزدوجين كالجمل والناقة والحصان والرمكة: روي أنه لم يحمل إلا ما يلد ويبيض.

وقرئ: " من كل " بالتنوين أي: من كل أمة زوجين.

واثنين: تأكيد وزيادة بيان.

جيء بعلى مع سبق الضار كما جيء باللام مع سبق النافع.

قال الله تعالى: " إن الذين سبقت لهم منا الحسنى " الأنبياء: 101 " ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين " الصافات: 171 ونحو قوله تعالى: " لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت " البقرة: 286 وقول عمر رضي الله عنه: ليتها كانت كفافاً لا علي ولا لي.

فإن قلت: لم نهاه عن الدعاء لهم بالنجاة قلت: لما تضمنته الآية من كونهم ظالمين وإيجاب الحكمة أن يغرقوا لا محالة لما عرف من المصلحة في إغراقهم والمفسدة في استبقائهم وبعد أن أملى لهم الدهر المتطاول فلم يزيدوا إلا ضلالاً ولزمتهم الحجة البالغة لم يبق إلا أن يجعلوا عبرة للمعتبرين.

ولقد بالغ في ذلك حيث أتبع النهي عنه الأمر بالحمد على هلاكهم والنجاة منهم كقوله: " فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين " الأنعام: 45 ثم أمره أن يدعوه بدعاء هو أهم وأنفع له وهو طلب أن ينزله في السفينة أو في الأرض عند خروجه منها منزلاً يبارك له فيه ويعطيه الزيادة في خير الدارين وأن يشفع الدعاء بالثناء عليه المطابق لمسألته وهو قوله: " وأنت خير المنزلين ".

فإن قلت: هلا قيل: فقولوا لقوله: " فإذا استويت أنت ومن معك " لأنه في معنى: فإذا استويتم.

قلت: لأنه نبيهم وإمامهم فكان قوله قولهم مع ما فيه من الإشعار بفضل النبوة وإظهار كبرياء الربوبية وأن رتبة تلك المخاطبة لا يترقى إليها إلا ملك أو نبي.

وقرىء: " منزلاً " بمعنى إنزالاً أو موضع إنزال كقوله: " ليدخلنهم مدخلاً يرضونه ".

" إن " هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بين النافية وبينها في المعنى وإن الشأن والقصة " كنا لمبتلين " أي مصيبين قوم نوح ببلاء عظيم وعقاب شديد.

أو مختبرين بهذه الآيات عبادنا لننظر من يعتبر ويذكر كقوله لعالى: " ولقد تركناها آية فهل من مدكر " القمر: 15.

" ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين فأرسلنا فيهم رسولاً منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ".

" قرناً ءاخرين " هم عاد قوم هود: عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وتشهد له حكاية الله تعالى قول هود: " واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح " الأعراف: 69 ومجيء قصة هود على أثر قصة نوح في سورة الأعراف وسورة هود والشعراء.

فإن قلت: حق أرسل أن يعدى بإلى كأخواته التي هي: وجه وأنفذ وبعث.

فما باله عدي في القرآن بإلى تارةً وبفي أخرى كقوله: " كذلك أرسلناك في أمة " الرعد: 30 و " وما أرسلنا في قرية من نذير " سبأ: 34.

" فأرسلنا فيهم رسولاً " أي في عاد.

وفي موضع آخر " وإلى عاد أخاهم هوداً " الأعراف: 65 هود: 50 قلت: لم يعد بفي كما عدي بإلى ولم يجعل صلة مثله ولكن الأمة أو القرية جعلت موضعاً للإرسال كما قال رؤبة: أرسلت فيها مصعباً ذا إقام وقد جاء " بعث " على ذلك في قوله: " ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً " الفرقان: 51.

" أن " مفسرة لأرسلنا أي: قلنا لهم على لسان الرسول: " اعبدوا الله ".

" وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفنهم فى الحيوة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخسرون ".

فإن قلت: ذكر مقال قوم هود في جوابه في سورة الأعراف وسورة هود بغير واو: " قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة " الأعراف: 66 " قالوا يا هود ما جئتنا بينة"هود: 3 وههنا مع الواو فأي فرق بينهما قلت: الذي بغير واو على تقدير سؤال سائل قال: فما قال قومه.

فقيل له: قالوا كيت وكيت.

وأما الذي مع الواو فعطف لما قالوه على ما قاله.

ومعناه: أنه اجتمع في الحصول هذا الحق وهذا الباطل وشتان بينهما " بلقاء الأخرة " بلقاء ما فيها من الحساب والثواب والعقاب كقولك: يا حبذا جوار مكة: أي جوار الله في مكة.

حذف الضمير والمعنى: من مشروبكم أو حذف منه لدلالة ما قبله عليه " إذاً " واقع في جزاء الشرط وجواب للذين قاولوهم من قومهم أي: تخسرون عقولكم وتغبنون في آرائكم.

" أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظماً أنكم مخرجون هيهات هيهات لما توعدون إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً وما نحن بمؤمنين ".

ثنى " أنكم " للتوكيد وحسن ذلك لفصل ما بين الأول والثاني بالظرف.

ومخرجون: خبر عن الأول.

أو جعل " أنكم مخرجون " مبتدأ و " إذا متم " خبراً على معنى: إخراجكم إذا متم ثم أخبر بالجملة عن إنكم أو رفع " أنكم مخرجون " بفعل هو جزاء للشرط كانه قيل: إذا متم وقع إخراجكم.

ثم أوقعت الجملة الشرطية خبراً عن إنكم.

وفي قراءة ابن مسعود: " أيعدكم إذا متم ".

قرىء: " هيهات " بالفتح والكسر والضم كلها بتنوين وبلا تنوين وبالسكون على لفظ الوقف فإن قلت: ما توعدون هو المستبعد ومن حقه أن يرتفع بهيهات كما ارتفع في قوله: فهيهات هيهات العقيق وأهله فما هذه اللام قلت قال الزجاج في تفسيره: البعد لما توعدون أو بعد لما توعدون فيمن نون فنزله منزلة المصدر.

وفيه وجه آخر: وهو أن يكون اللام لبيان المستبعد ما هو بعد التصويت بكلمة الاستبعاد كما جاءت اللام في " هيت لك " يوسف: 23 لبيان المهيت به.

" إن هى " هذا ضمير لا يعلم ما يعني به إلا بما يتلوه من بيانه.

وأصله: إن الحياة " إلا حياتنا الدنيا " ثم وضع " هي " موضع الحياة لأن الخبر يدل عليها ويبينها.

ومنه: هي النفس تتحمل ما حملت وهي العرب تقول ما شاءت.

والمعنى: لا حياة إلا هذه الحياة لأن " إن " النافية دخلت على " هي " التي في معنى الحياة الدالة على الجنس فنفتها فوازنت " لا " التي نفت ما بعدها نفي الجنس " نموت ونحيا " أي يموت بعض ويولد بعض ينقرض قرن ويأتي قرن آخر ثم قالوا: ما هو إلا مفتر على الله فيما يدعيه من استنبائه له وفيما يعدنا منه البعث وما نحن بمصدقين.

" قال رب انصرني بما كذبون قال عما قليل ليصبحن ندمين فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلنهم غثاءً فبعداً للقوم الظلمين ".

" قيل " صفة للزمان كقديم وحديث في قولك: ما رأيته قديماً ولا حديثاُ.

وفي معناه: عن قريب.

و " ما " توكيد قلة المدة وقصرها " الصيحة " صيحة جبريل عليه السلام: صاح عليهم فدمرهم " بالحق " بالوجوب لأنهم قد استوجبوا الهلاك.

أو بالعدل من الله من قولك: فلان يقضي بالحق إذا كان عادلاً في قضاياه: " فجعلنهم غثاء " شبههم في دمارهم بالغثاء: وهو حميل السيل مما بلي واسود عن العيدان والورق.

ومنه قوله تعالى: " فجعله غثاء أحوى " الأعلى: 5 وقد جاء مشدداً في قول امرىء القيس: من السيل والغثاء فلكة مغزل بعداً وسحقاً ودفراً ونحوها مصادر موضوعة مواضع أفعالها وهي من جملة المصادر التي قال سيبويه: نصبت بأفعال لا يستعمل إظهارها.

ومعنى " فبعداً ": بعدوا أي: هلكوا يقال: بعد بعداً وبعداً نحو رشد رشداً ورشداً.

و " للقوم الظلمين " بيان لمن دعي عليه بالبعد نحو: " هيت لك " يوسف: 23.

و " لما توعدون " المؤمنون: 36.

" ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين ما تسبق من أمة أجهلها وما يستخرجون ".

" قروناً " قوم صالح ولوط وشعيب وغيرهم.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: بني إسرائيل " أجلها " الوقت الذي حد لهلاكها وكتب.

" ثم أرسلنا رسلنا تتراً كل ما جاء أمةً رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلنهم أحاديث فبعداً لقوم لا يؤمنون ".

" تترى " فعلى: الألف للتأنيث لأن الرسل جماعة.

وقرىء: " تترىً " بالتنوين والتاء بدل من الواو كما في: تولج وتيقور أي: متواترين واحداً بعد واحد من الوتر وهو الفرد: أضاف الرسل إليه تعالى وإلى أممهم " ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات " المائدة: 32 " ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات " الأعراف: 101 لأن الإضافة تكون بالملابسة والرسول ملابس المرسل والمرسل إليه جميعاً بالملابسة " فأتبعنا " الأمم أو القرون " بعضهم بعضاً " في الإهلاك " وجعلنهم " أخباراً يسمر بها ويتعجب منها.

الأحاديث: تكون اسم جمع للحديث.

ومنه: أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وتكون جمعاً للأحدوثة: التي هي مثل الأضحوكة والألعوبة والأعجوبة.

وهي: مما يتحدث به الناس تلهياً وتعجباً وهو المراد ههنا.

" ثم أرسلنا موسى وأخاه هرون بئايتنا وسلطن مبين إلى فرعون وملإيه فاستكبروا وكانوا قوماً عالين ".

فإن قلت: ما المراد بالسلطان المبين قلت: يجوز أن تراد العصا لأنها كانت أم آيات موسى وأولاها وقد تعلقت بها معجزات شتى: من انقلابها حية وتلقفها ما أفكته السحرة وانفلاق

البحر وانفجار العيون من الحجر بضربهما بها وكونها حارساً وشمعة وشجرة خضراء مثمرة ودلواً ورشاء.

وجعلت كأنها ليست بعضها لما استبدت به من الفضل فلذلك عطفت عليها كقوله تعالى: " وجبريل وميكال " البقرة: 98 ويجوز أن تراد الآيات أنفسها أي: هي آيات وحدة بينة " عالين " متكبرين " إن فرعون علا في الأرض " القصص: 4 ألا يريدون علواً في الأرض " القصص: 83 أو متطاولين على الناس قاهرين بالبغي والظلم.

" فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عبدون فكذبوهما فكانوا من المهلكين ".

البشر يكون واحداً وجمعاً: " بشراً سوياً " مريم: 17 " لبشرين " " فإما ترين من البشر " مريم:6 و " مثل " و " غير " يوصف بهما: الاثنان والجمع والمذكر والمؤنث: " إنكم إذا مثلهم " النساء: 40 " ومن الأرض مثلهن " الطلاق: 12 ويقال أيضاً: هما مثلاه وهم أمثاله: " إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم " الأعراف: 194 " وقومهما " يعني بني إسرائيل كأنهم يعبدوننا خضوعاً وتذللاً.

أو لأنه كان يدعي الإلهية فادعى للناس العبادة وأن طاعتهم له عبادة على الحقيقة.

" ولقد ءاتينا موسى الكتب لعلهم يهتدون ".

" موسى الكتب " أي قوم موسى التوراة " لعلهم " يعملون بشرائعها ومواعظها كما قال: " على خوف من فرعون وملئهم " يونس: 83 يريد آل فرعون وكما يقولون: هاشم وثقيف وتميم

ويراد قومهم.

ولا يجوز أن يرجع الضمير في " لعلهم " إلى فرعون وملئه لأن التوراة إنما أوتيها بنو إسرائيل بعد إغراق فرعون وملئه: " ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى " القصص: 43.

" وجعلنا ابن مريم وأمه ءايةً وءاوينهما إلى ربوة ذات قرار ومعين ".

فإن قلت: لو قيل آيتين هل كان يكون له وجه قلت: نعم لأن مريم ولدت من غير مسيس وعيسى روح من الله ألقي إليها وقد تكلم في المهد وكان يحيي الموتى مع معجزات أخر فكان آية من غير وجه واللفظ محتمل للتثنية على تقدير " وجعلنا ابن مريم " آية " وأمه ءايةً " ثم حذفت الأولى لدلالة الثانية عليها.

الربوة والرباوة في رائهما الحركات.

وقرىء: " ربوة ورباوة " بالضم.

و " رباوة " بالكسر وهي الأرض المرتفعة.

قيل: هي إيليا أرض بيت المقدس وأنها كبد الأرض وأقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً عن كعب.

وقيل: دمشق وغوطتها.

وعن الحسن: فلسطين والرملة.

وعن أبي هريرة: الزموا هذه الرملة رملة فلسطين فإنها الربوة التي ذكرها الله.

وقيل: مصر.

والقرار: المستقر من أرض مستوية منبسطة.

وعن قتادة: ذات ثمار وماء يعني أنه لاجل الثمار: يستقر فيها ساكنوها.

والمعين: الماء الظاهر الجاري على وجه الأرض.

وقد اختلف في زيادة ميمه وأصالته لوجه من جعله مفعولاً أنه مدرك بالعين لظهوره من عانه: إذا أدركه بعينه نحو: ركبه إذا ضربته بركبته.

ووجه من جعله فعيلاً: أنه نفاع بظهوره وجريه من الماعون: وهو المنفعة.

" يأيها الرسل كلوا من الطيبت واعملوا صلحاً إني بما تعملون عليم ".

هذا النداء والخطاب ليسا على ظاهرهما وكيف والرسل إنما أرسلوا متفرقين في أزمنة مختلفة.

وإنما المعنى: الإعلام بأن كل رسول في زمانه نودي لذلك ووصى به ليعتقد السامع أن أمراً نودي له جميع الرسل ووصوا به حقيق أن يؤخذ به ويعمل عليه.

والمراد بالطيبات: ما حل وطاب.

وقيل: طيبات الرزق حلال وصاف وقوام فالحلال: الذي لا يعصى الله فيه والصافي: الذي لا ينسى الله فيه والقوام: ما يمسك النفس ويحفظ العقل.

أو أريد ما يستطاب ويستلذ من المآكل والفواكه.

ويشهد له مجيئه على عقب قوله: " وءاويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين " المؤمنون: 50 ويجوز أن يقع هذا الإعلام عند إيواء عيسى ومريم إلى الربوة فذكر على سبيل الحكاية أي: آويناهما وقلنا لهما هذا أي: أعلمناهما أن الرسل كلهم خوطبوا بهذا فكلا مما رزقناكما واعملا صالحاً اقتداء بالرسل.

" وإن هذه أمتكم أمةً وحدةً وأنا ربكم فاتقون ".

قرىء: " وإن " بالكسر على الاستئناف.

وأن بمعنى ولأن.

وأن مخففة من الثقيلة و " أمتكم " " فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون ".

وقرىء: " زبراً " جمع زبور أي: كتباً مختلفة يعني: جعلوا دينهم أدياناً وزبراً قطعاً: استعيرت من زبر الفضة والحديد وزبراً: مخففة الباء كرسل في رسل أي: كل فرقة من فرق هؤلاء المختلفين المتقطعين دينهم فرح بباطله مطمئن النفس معتقد أنه على الحق.

" فذرهم فى غمرتهم حتى حين ".

الغمرة.

الماء الذي يغمر القامة فضربت مثلاً لما هم مغمورون فيه من جهلهم وعمايتهم.

أو شبهوا باللاعبين في غمرة الماء لما هم عليه من الباطل.

قال: كأنني ضارب في غضرة لعب وعن علي رضي الله عنه: في غمراتهم " حتى حين " إلى أن يقتلوا أو يموتوا.

" أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرت بل لا يشعرون ".

سلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلم بذلك ونهى عن الاستعجال بعذابهم والجزع من تأخيره.

وقرىء: " يمدهم " ويسارع ويسرع بالياء والفاعل الله سبحانه وتعالى.

ويجوز في: يسارع ويسرع: أن يتضمن ضمير الممد به.

ويسارع مبنياً للمفعول.

والمعنى: أن بنا الإمداد ليس إلا استدراجاً لهم إلى المعاصي واستجراراً إلى زيادة الإثم وهم يحسبونه مسارعة لهم في الخيرات وفيما لهم فيه نفع وإكرام ومعاجلة بالثواب قبل وقته.

ويجوز أن يراد في جزاء الخيرات كما يفعل بأهل الخير من المسلمين.

و " بل " استدراك لقوله: " أتحسبون " يعني: بل هم أشباه البهائم لا فطنة بهم ولا شعور حتى يتأملوا ويتفكروا في ذلك: أهو استدراج أم مسارعة في الخير.

فإن قلت: أين الراجح من خبر أن إلى اسمها إذا لم يستكن فيه ضميره.

قلت: هو محذوف تقديره: نسارع به ويسارع به ويسارع الله به كقوله: " إن ذلك لمن عزم الأمور " الشورى: 43 أي إن ذلك منه وذلك لاستطالة الكلام مع أمن الإلباس.

" إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون والذين هم بئايت ربهم يؤمنون " والذين هم بربهم لا يشركون والذين يؤتون مآ ءاتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم رجعون أولئك يسرعون فى الخيرت وهم لها سبقون ".

" يؤتون مآ ءاتوا " يعطون ما أعطوا وفي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعائشة: " يأتون ما أتوا " أي يفعلون ما فعلوا.

وعنها أنها قالت: قلت: يا رسول الله هو الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر وهو على ذلك يخاف الله قال: قال: " لا يا ابنة الصديق ولكن هو الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو على ذلك يخاف الله أن لا يقبل منه ": " يسرعون فى الخيرت " يحتمل معنيين أحدهما: أن يراد يرغبون في الطاعات أشد الرغبة فيبادرونها.

والثاني: أنهم يتعجلون في الدنيا المنافع ووجوه الإكرام كما قال: " فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة " آل عمران: 148 " وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين " العنكبوت: 27 لأنهم إذا سورع بها لهم فقد سارعوا في نيلها وتعجلوها وهذا الوجه أحسن طباقاً للآية المتقدمة لأن فيه إثبات ما نفي عن الكفار للمؤمنين.

وقرىء: " يسرعون في الخيرات " " لها سبقون " أي فاعلون السبق لأجلها أو سابقون الناس لأجلها أو إياها سابقون أي: ينالونها قبل الآخرة حيث عجلت لهم في الدنيا.

ويجوز أن يكون " لها سبقون " خبراً بعد خبر.

ومعنى " وهم لها " كمعنى قوله: أنت لها أحمد من بين البشر " ولا نكلف نفساً إلا وسعها ولدينا كتب ينطق بالحق وهم لا يظلمون بل قلوبهم في غمرة من هذا ولهم أ عمل من دون ذلك هم لها عملون ".

يعني أن هذا الذي وصف به الصالحين غير خارج من حد الوسع والطاقة وكذلك كل ما كلفه عباده وما عملوه من الأعمال فغير ضائع عنده بل هو مثبت لديه في كتاب يريد اللوح أو صحيفة الأعمال ناطق بالحق لا يقرؤون منه يوم القيامة إلا ما هو صدق وعدل لا زيادة فيه ولا نقصان ولا يظلم منهم أحد.

أو أراد أن الله لا يكلف إلا الوسع فإن لم يبلغ المكلف أن يكون على صفة هؤلاء السابقين بعد أن يستفرغ وسعه ويبذل طاقته فلا عليه ولدينا كتاب فيه عمل السابق والمقتصد ولا نظلم أحداً من حقه ولا نحطه دون درجته بل قلوب الكفرة في غفلة غامرة لها " من هذا " أي مما عليه هؤلاء الموصوفون من المؤمنين " ولهم أعمل " متجاوزة متخطية لذلك أي: لما وصف به المؤمنون " هم لها عملون " معتادون وبها ضارون لا يفطمون عنها حتى يأخذهم الله بالعذاب.

" حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجئرون لا تجئروا اليوم إنكم لا تنصرون قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقبكم تنكصون مستكبرين به سامراً تهجرون ".

حتى هذه هي التي يبتدأ بعدها الكلام والكلام: الجملة الشرطية والعذاب.

قتلهم يوم بدر.

أو الجوع حين دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف " فابتلاهم الله بالقحط حتى أكلوا الجيف والكلاب والعظام المحترقة والقذ والأولاد.

يجئرون الجؤار: الصراخ باستغاثة قال: جئار ساعات النيام لربه أي يقال لهم حينئذ " لا تجئروا " فإن الجؤار غير نافع لكم " منا لا تنصرون " لا تغاثون ولا تمنعون منا أو من جهتنا لا يلحقكم نصر ومغوثة.

قالوا: الضمير في " به " للبيت العتيق أو للحرم كانوا يقولون: لا يظهر علينا أحد لأنا أهل الحرم.

والذي سوغ هذا الإضمار شهرتهم بالاستكبار بالبيت وإنه لم تكن لهم مفخرة إلا أنهم ولاته والقائمون به.

ويجوز أن يرجع إلى آياتي إلا أنه ذكر لأنها في معنى كتابي ومعنى استكبارهم بالقرآن: تكذيبهم به استكباراً.

ضمن مستكبرين معنى مكذبين فعدي تعديته.

أو يحدث لكم استماعه استكباراً وعتواً فأنتم مستكبرون بسببه أو تتعلق الباء بسامراً أي: يسمرون بذكر القرآن وبالطعن فيه وكانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون.

وكانت عامة سمرهم ذكر القرآن وتسميته سحراً وشعراً وسب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أو يتهجرون.

والسامر: نحو الحاضر في الإطلاق على الجمع.

وقرىء: " سمراً " وسماراً " وتهجرون وتهجرون من أهجر في منطقه إذا أفحش.

والهجر - بالضم -: الفحش ومن هجر الذي هو مبالغة في هجر إذا هذي.

والهجر - بالفتح -: الهذيان.

" أفلم يدبروا القول أم جآءهم ما لم يأت آبآءهم الأولين أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ".

" القول " القرآن يقول: أفلم يتدبروه ليعلموا أنه الحق المبين فيصدقوا به وبمن جاء به بل أ " جآءهم ما لم يأت ءابآءهم " فلذلك أنكروه واستبدعوه كقوله: " لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون " يس: 6 أو ليخافوا عند تدبر آياته وأقاصيصه مثل ما نزل بمن قبلهم من المكذبين أم جاءهم من الأمن ما لم يأت أباءهم حين خافوا الله فآمنوا به وبكتبه ورسله وأطاعوه وآباؤهم: إسماعيل وأعقابه من عدنان وقحطان.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: " لا تسبوا مضر ولا ربيعة فإنهما كانا مسلمين ولا تسبوا قساً فإنه كان مسلماً ولا تسبوا الحارث بن كعب ولا أسد بن خزيمة ولا تميم بن مر.

فإنهم كانوا على الإسلام وما شككتم فيه من شيء فلا تشكوا في أن تبعاً كان مسلماً ".

وروي في أن ضبة كان مسلماً وكان على شرطة سليمان بن داود " أم لم يعرفوا " محمداً وصحة نسبه وحلوله في سطة هاشم وأمانته وصدقه وشهامته وعقله واتسامه

بأنه خير فتيان قريش والخطبة التي خطبها أبو طالب في نكاح خديجة بنت خويلد كفى برغائها منادياً.

" أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كرهون ".

الجنة: الجنون وكانوا يعلمون أنه بريء منها وأنه أرجحهم عقلاً وأثقبهم ذهناً ولكنه جاءهم بما خالف شهواتهم وأهواءهم ولم يوافق ما نشأوا عليه وسيط بلحومهم ودمائهم من اتباع الباطل ولم يجدوا له مرداً ولا مدفعاً لأنه الحق الأبلج والصراط المستقيم فأخلدوا إلى البهت وعولوا على الكذب من النسبة إلى الجنون والسحر والشعر.

فإن قلت: قوله: " وأكثركم " فيه أن أقلهم كانوا لا يكرهون الحق.

قلت: كان فيهم من يترك الإيمان به أنفة واستنكافاً من توبيخ قومه وأن يقولوا صبأ وترك دين آبائه لا كراهة للحق كما يحكى عن أبي طالب.

فإن قلت: يزعم بعض الناس أن أبا طالب صح إسلامه.

قلت: يا سبحان الله كأن أبا طالب كان أخمل أعمام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يشتهر إسلام حمزة والعباس رضي الله عنهما ويخفى إسلام أبي طالب.

" ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموت والأرض ومن فيهن بل أتينهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون ".

دل بهذا على عظم شأن الحق وأن السموات والأرض ما قامت ولا من فيهن إلا به فلو اتبع أهواءهم لانقلب باطلاً ولذهب ما يقوم به العالم فلا يبقى له بعده قوام.

أو أراد أن الحق الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وهو الإسلام لو اتبع أهواءهم وانقلب شركاً لجاء الله بالقيامة ولأهلك العالم ولم يؤخر.

وعن قتادة: أن الحق هو الله.

ومعناه: لو كان الله إلهاً يتبع أهواءهم ويأمر بالشرك والمعاصي لما كان إلهاً ولكان شيطاناً ولما قدر أن يمسك السموات والأرض " بذكرهم " أي بالكتاب الذي هو ذكرهم أي: وعظهم أو وصيتهم وفخرهم: أو بالذكر الذي كانوا يتمنونه ويقولون: لو أن عندنا ذكراً من الأولين لكنا عباد الله المخلصين.

وقرئ: " بذكراهم ".

قرئ: " خراجاً فخراج " و " خرجاً فخرج " و " خرجاً فخراج " وهو ما تخرجه إلى الإمام من زكاة أرضك.

وإلى كل عامل من أجرته وجعله.

وقيل: الخرج: ما تبرعت به.

والخراج: ما لزمك أداؤه.

والوجه أن الخرج أخص من الخراج كقولك: خراج القرية وخرج الكردة زيادة اللفظ لزيادة المعنى ولذلك حسنت قراءة من قرأ: خرجا فخراج ربك يعني: أم تسألهم على هدايتك لهم قليلاً من عطاء الخلق فالكثير من عطاء الخالق خير.

" وإنك لتدعوهم إلى صرط مستقيم وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصرط لنكبون ".

قد ألزمهم الحجة في هذه الآيات وقطع معاذيرهم وعللهم بأن الذي أرسل إليهم رجل معروف أمره وحاله مخبور سره وعلنه خليق بأن يجتبى مثله للرسالة من بين ظهرانيهم وأنه لم يعرض له حتى يدعي بمثل هذه الدعوى العظيمة بباطل ولم يجعل ذلك سلماً إلى النيل من دنياهم واستعطاء أموالهم ولم يدعهم إلا إلى دين الإسلام الذي هو الصراط المستقيم مع إبراز المكنون من أدوائهم وهو إخلالهم بالتدبر والتأمل واستهتارهم بدين الآباء الضلال من غير برهان وتعللهم بأنه مجنون بعد ظهور الحق وثبات التصديق من الله بالمعجزات والآيات النيرة وكراهتهم للحق وإعراضهم عما فيه حظهم من الذكر يحتمل أن هؤلاء وصفتهم أنهم لا يؤمنون بالآخرة " لنكبون " أي عادلون عن هذا الصراط المذكور وهو قوله: " إلى صرط مستقيم " وأن كل من لا لما أسلم ثمامة بن أثال الحنفي ولحق باليمامة ومنع الميرة من أهل مكة وأخذهم الله بالسنين حتى أكلوا العلهز جاء أبو سفيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: أنشدك الله والرحم ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين فقال: بلى فقال: قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع.

" ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون ".

والمعنى: لو كشف الله عنهم هذا الضر وهو الهزال والقحط الذي أصابهم برحمته عليهم ووجدوا الخصب لارتدوا إلى ما كانوا عليه من الاستكبار وعداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وإفراطهم فيها ولذهب عنهم هذا الإبلاس وهذا التملق بين يديه ويسترحمونه واستشهد على ذلك بأنا أخذناهم أولاً بالسيوف وبما جرى عليهم يوم بدر من قتل صناديدهم وأسرهم فما وجدت منهم بعد ذلك استكانة ولا تضرع حتى فتحنا عليهم باب الجوع الذي هو أشد من الأسر والقتل وهو أطم العذاب فأبلسوا الساعة وخضعت رقابهم وجاء أعتاهم وأشدهم شكيمة في العناد يستعطفك.

أو محناهم بكل محنة من القتل والجوع فما رؤي فيهم لين مقادة وهم كذلك حتى إذا عذبوا بنار جهنم فحينئذ يبلسون كقوله: " ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون " الروم: 12 " لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون " الزخرف: 75.

والإبلاس: اليأس من كل خير.

وقيل: السكوت مع التحير.

فإن قلت: ما وزن استكان.

قلت: استفعل من الكون أي: انتقل من كون إلى كون كما قيل.

استحال إذا افتعل من حال إلى حال.

ويجوز أن يكون افتعل من السكون أشبعت فتحة عينه كما جاء: بمنتزاح.

فإن قلت: هلا قيل: وما تضرعوا.

أو: فما يستكينون قلت: لأن المعنى: محناهم فما وجدت منهم عقيب المحنة استكانة.

وما من ضادة هؤلاء أن يستكينوا ويتضرعوا حتى يفتح عليهم باب العذاب الشديد.

وقرىء: " فتحنا ".

" وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصر والأفئدة قليلاً ما تشكرون وهو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون وهو الذي يحي ويميت وله اختلف اليل والنهار أفلا تعقلون ".

إنما خص السمع والأبصار والأفئدة لأنه يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية ما لا يتعلق بغيرها.

ومقدمة منافعها أن يعملوا أسماعهم وأبصارهم في آيات الله وأفعاله ثم ينظروا ويستحلوا بقلوبهم.

ومن لم يعملها فيما خلقت له فهو بمنزلة عادمها كما قال الله تعالى: " فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء " الأحقاف: 26 إذ كانوا يجحدون بآيات الله ومقدمة شكر النعمة فيها الإقرار بالمنعم بها وأن لا يجعل له ند ولا شريك " قليلاً ما تشكرون " أي: تشكرون شكرا قليلاً و " ما " مزيدة للتأكيد بمعنى حقاً " ذرأكم " خلقكم وبثكم بالتناسل " وإليه " تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم " وله اختلف اليل والنهار " أي هو مختص به

" بل قالوا مثل ما قال الأولون قالوا إذا متنا وكنا تراباً وعظماً أإنا لمبعوثون لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أسطير الأولين ".

أي: قال أهل مكة كما قال الكفار قبلهم.

الأساطير: جمع أسطار: جمع سطر.

قال رؤبة: إني وأسطار سطرن سطراً وهي ما كتبه الأولون مما لا حقيقة له.

وجمع أسطورة أوفق.

" قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون قل من رب السموت السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون ".

أي: أجيبوني عما استعلمتكم منه إن كان عندكم فيه علم وفيه استهانة بهم وتجويز لفرط جهالتهم بالديانات: أن يجهلوا مثل هذا الظاهر البين.

وقرىء: " تذكرون " بحذف التاء الثانية ومعناه: أفلا تتذكرون فتعلموا أن من فطر الأرض ومن فيها اختراعاً كان قادراً على إعادة الخلق وكان حقيقاً بأن لا يشرك به بعض خلقه في الربوبية.

قرىء: الأول باللام لا غير.

والأخيران باللام وهو هكذا في مصاحف أهل الحرمين والكوفة والشام وبغير اللام وهو هكذا في مصاحف أهل البصرة فباللام على المعنى لأن قولك من ربه ولمن هو في معنى واحد وبغير اللام على اللفظ.

ويجوز قراءة الأول بغير لام ولكنها لم تثبت في الرواية " أفلا تتقون " أفلا تخافونه فلا تشركوا به وتعصوا رسله.

أجرت فلاناً على فلان: إذا أغثته منه ومنعته يعني: وهو يغيث من يشاء ممن يشاء ولا يغيث أحد منه أحداً " تسحرون " تخدعون عن توحيده وطاعته.

والخادع: هو الشيطان والهوى.

" بل أتينهم بالحق وإنهم لكذبون ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ".

وقرىء: " أتيتهم " و " أتيتهم " بالفتح والضم " بالحق " بأن نسبة الولد إليه محال والشرك باطل " وإنهم لكذبون " حيث يدعون له ولداً ومعه شريكاً " لذهب كل إله بما خلق " لانفرد كل واحد من الآلهة بخلقه الذي خلقه واستبد به ولرأيتم ملك كل واحد منهم متميزاً من ملك الآخرين ولغلب بعضهم بعضاً كما ترون حال ملوك الدنيا ممالكهم متمايزة وهم متغالبون وحين لن تروا أثراً لتمايز الممالك وللتغالب فاعلموا أنه إله واحد بيده ملكوت كل شيء.

فإن قلت: إذاً لا تدخل إلا على كلام هو جزاء وجواب فكيف وقع قوله لذهب جزاء وجواباً ولم يتقدمه شرط ولا سؤال سائل قلت: الشرط محذوف تقديره: ولو كان معه آلهة.

وإنما حذف لدلالة قوله: " وما كان ممه من إله " عليه.

وهو جواب لمن معه المحاجة من المشركين " عما يصفون " من الأنداد والأولاد " علم الغيب " بالجر صفة لله.

وبالرفع: خبر مبتدأ محذوف.

" قل رب إما تريني ما يوعدون رب فلا تجعلني في القوم الظلمين وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون ".

ما والنون: مؤكدتان أي: إن كان لا بد من أن تريني ما تعدهم من العذاب في الدنيا أو في الآخرة " فلا تجعلني " قريناً لهم ولا تعذبني بعذابهم.

عن الحسن: أخبر الله أن له في أمته نقمة ولم يخبره أفي حياته أم بعد موته فأمره أن يدعو بهذا الدعاء فإن قلت: كيف يجوز أن يجعل الله نبيه المعصوم مع الظالمين حتى يطلب أن لا يجعله معهم.

قلت: يجوز أن يسأل العبد ربه ما علم أنه يفعله وأن يستعيذ به مما علم أنه لا يفعله إظهاراً للعبودية وتواضعاً لربه وإخباتاً له.

واستغفاره صلى الله عليه وسلم إذا قام من مجلسه سبعين مرة أو مائة مرة لذلك وما أحسن قول الحسن في قول أبي بكر الصديق رضي الله عنهما: " وليتكم ولست بخيركم ": كان يعلم أنه خيرهم ولكن المؤمن يهضم نفسه وقرىء: " إما ترئنهم " بالهمز مكان تريني كما قرىء: " فإما ترئن " و " لترؤن الجحيم " وهي ضعيفة.

وقوله: " رب " مرتين قبل الشرط وقبل الجزاء حث على فضل تضرع وجؤار.

كانوا ينكرون الموعد بالعذاب ويضحكون منه واستعجالهم له لذلك فقيل لهم إن الله قادر على إنجاز ما وعد إن تأملتم فما وجه هذا الإنكار.

" إدفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون ".

هو أبلغ من أن يقال: بالحسنة السيئة لما فيه من التفضيل كأنه قال: ادفع بالحسنى السيئة.

والمعنى: الصفح عن إساءتهم ومقابلتها بما أمكن من الإحسان حتى إذا اجتمع الصفح والإحسان وبذل الاستطاعة فيه: كانت حسنة مضاعفة بإزاء سيئة.

وهذه قضية قوله: " بالتي هي أحسن ".

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هي شهادة أن لا إله إلا الله.

والسيئة: الشرك.

وعن مجاهد: السلام: يسلم عليه إذا لقيه.

وعن الحسن: الإغضاء والصفح.

وقيل: هي منسوخة بآية السيف.

وقيل: محكمة لأن المداراة محثوث عليها ما لم تؤد إلى ثلم دين وإزراء بمروءة " بما يصفون " بما يذكرونه من أحوالك بخلاف صفتها.

أو بوصفهم لك وسوء ذكرهم والله أعلم بذلك منكم وأقدر على جزائهم.

" وقل رب أعوذ بك من همزت الشيطين وأعوذ بك رب أن يحضرون ".

الهمز: النخس.

والهمزات: جمع المرة منه.

ومنه: مهماز الرائض.

والمعنى: أن الشياطين يحثون الناس على المعاصي ويغرونهم عليها كما تهمز الراضة الدواب حثاً لها على المشي.

ونحو الهمز الأز في قوله تعالى: " تؤزهم أزاً " مريم: 83 أمر بالتعوذ من نخساتهم بلفظ المبتهل إلى ربه المكرر لندائه وبالتعوذ من أن يحضروه أصلاً ويحوموا حوله.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: عند تلاوة القرآن.

وعن عكرمة: عند النزع.

" جتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي أعمل صلحاً فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ".

" حتى " يتعلق ب " يصفون " أي: لا يزالون على سوء الذكر إلى هذا الوقف.

والآية فاصلة بينهما على وجه الاعتراض والتأكيد للإغضاء عنهم مستعيناً بالله على الشيطان أن يستزله عن الحلم ويغريه على الانتصار منهم.

أو على قوله: وإنهم لكاذبون.

" قال رب ارجعون " خطاب الله بلفظ الجمع للتعظيم كقوله: فإن شئت حرمت النساء سواكم وقوله: ألا فارحموني يا إله محمد إذا أيقن بالموت واطلع على حقيقة الأمر أدركته الحسرة على ما فرط فيه من الإيمان والعمل الصالح فيه فسأل ربه الرجعة وقال: " لعلى أعمل صلحاً " في الإيمان الذي تركته.

سورة النور

مدنية وهي اثنتان وستون آية وقيل أربع وستون

بسم الله الرحمن الرحيم

{سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون} {سورة} خبر مبتدأ محذوف. و {أنزلناها} صفة. أو هي مبتدأ موصوف والخبر محذوف أي: فيما أوحينا إليك سورة أنزلناها. وقرئ بالنصب على: زيداً ضربته ولا محل لأنزلناها لأنها مفسرة للمضمر فكانت في حكمه. أو على: دونك سورة أو اتل سورة وأنزلناها: صفة . ومعنى: {وفرضناها} فرضنا أحكامها التي فيها. وأصل الفرض: القطع أي: جعلناها واجبة مقطوعاً بها والتشديد للمبالغة في الإيجاب وتوكيده. أو لأن فيها فرائض شتى وأنك تقول: فرضت الفريضة وفرضت الفرائض. أو لكثرة المفروض عليهم من السلف ومن بعدهم {تذكرون} بتشديد الذال وتخفيفها رفعهما على الابتداء والخبر محذوف عند الخليل وسيبويه على معنى: فيما فرض عليكم.

{الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم}

{الزانية والزاني} أي جلدهما. ويجوز أن يكون الخبر: {فاجلدوا} وإنما دخلت الفاء لكون الألف واللام بمعنى الذي وتضمينه معنى الشرط تقديره: التي زنت والذي زنى فاجلدوهما كما تقول: من زنى فاجلدوه وكقوله: {والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم} النور: 4. وقرئ بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر وهو أحسن من سورة أنزلناها لأجل الأمر. وقرئ {والزان} بلا ياء. والجلد: ضرب الجلد يقال: جلده كقولك: ظهره وبطنه ورأسه. فإن قلت: أهذا حكم جميع الزناة والزواني أم حكم بعضهم قلت: بل هو حكم من ليس بمحصن منهم فإن المحصن حكمة الرجم.

وشرائط الإحصان عند أبي حنيفة ست: الإسلام والحرية والعقل والبلوغ والتزوج بنكاح صحيح والدخول. إذا فقدت واحدة منها فلا إحصان. وعند الشافعي: الإسلام ليس بشرط لما روي: أن النبي صلى الله عليه وسلم رجم يهوديين زنياً. وحجة أبي حنيفة قوله صلى الله عليه وسلم: (من أشرك بالله فليس بمحصن) فإن قلت: اللفظ يقتضي تعليق الحكم بجميع الزناة والزواني لأن قوله {الزانية والزاني} عام في الجميع يتناول المحصن وغير المحصن. قلت: الزانية والزاني يدلان على الجنسين المنافيين لجنسي العفيف والعفيفة دلالة مطلقة والجنسية قائمة في الكل والبعض جميعاً فأيهما قصد المتكلم فلا عليه كما يفعل بالسم المشترك ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله. وقرئ: (ولا يأخذكم) بالياء. ورأفة بفتح الهمزة. ورآفة على فعالة.

والمعنى: أن الواجب على المؤمنين أن يتصلبوا في دين الله ويستعملوا الجد والمتانة فيه ولا يأخذهم اللين والهوادة في استيفاء حدوده. وكفى برسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة في ذلك حيث قال: (لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها) وقوله {إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الأخر} من باب التهييج وإلهاب الغضب لله ولدينه وقيل: لا تترحموا عليهما حتى لا تعطلوا الحدود أو حتى لا توجعوهما ضرباً. وفي الحديث: (يؤتى بوال نقص من الحد سوطاً فيقول: رحمة لعبادك فيقال له: أأنت أرحم بهم مني فيؤمر به إلى النار. ويؤتى بمن زاد سوطاً فيقول لينتهوا عن معاصيك فيؤمر به إلى النار)

وعن أبي هريرة: (إقامة حد بأرض خير لأهلها من مطر أربعين ليلة). وعلى الإمام أن ينصب للحدود رجلاً عالماً بصيراً يعقل كيف يضرب. والرجل يجلد قائماً على مجرده ليس عليه إلا إزاره ضرباً وسطاً لا مبرحاً ولا هيناً مفرقاً على الأعضاء كلها لا يستثنى منها إلا ثلاثاً: الوجه والرأس والفرج وفي لفظ الجلد: إشارة إلى أنه ينبغي أن يتجاوز الألم إلى اللحم. والمرأة تجلد قاعدة ولا ينزع من ثيابها إلا الحشو والفرو وبهذه الآية استشهد أبو حنيفة على أن الجلد حد غير المحصن بلا تغريب. وما احتج به الشافعي على وجوب التغريب من قوله صلى الله عليه وسلم: (البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام) وما يروى عن الصحابة: أنهم جلدوا ونفوا منسوخ عنده وعند أصحابه بالآية أو محمول على وجه التعزير والتأديب من غير وجوب. وقول الشافعي في تغريب الحر واحد وله في العبد ثلاثة أقاويل: يغرب سنة كالحر ويغرب نصف سنة كما يجلد خمسين جلدة ولا يغرب كما قال أبو حنيفة. وبهذه الآية نسخ الحبس والأذى في قوله تعالى {فأمسكوهن في البيوت} [النساء: 15] وقوله تعالى {فآذوهما}. قيل: تسميته عذاباً دليل على أنه عقوبة. ويجوز أن يسمى عذاباً لأنه يمنع من المعاودة كما سمي نكالاً.

الطائفة: الفرقة التي يمكن أن تكون حلقة وأقلها ثلاثة أو أربعة وهي صفة غالبة كأنها الجماعة الحافة حول الشيء. وعن ابن عباس في تفسيرها: أربعة إلى أربعين رجلاً من المصدقين بالله. وعن الحسن: عشرة. وعن قتادة: ثلاثة فصاعداً. وعن عكرمة: رجلان فصاعداً. وعن مجاهد: الواحد فما فوقه. وفضل قول ابن عباس لأن الأربعة هي الجماعة التي يثبت بها هذا الحد والصحيح أن هذه الكبيرة من أمهات الكبائر ولهذا قرنها الله بالشرك وقتل النفس في قوله {ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً} [الفرقان: 68] وقال {ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا} [الإسراء: 32] وعن النبي صلى الله عليه وسلم: (يا معشر الناس اتقوا الزنى فإن فيه ست خصال: ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة. فأما اللاتي في في الدنيا: فيذهب البهاء: ويورث الفقر وينقص العمر وأما اللاتي في الآخرة: فيوجب السخطة وسوء الحساب والخلود في النار) ولذلك وفى الله فيه عقد المائة بكماله بخلاف حد القذف وشرب الخمر. وشرع فيه القتلة الهولة وهي الرجم ونهى المؤمنين عن الرأفة على المجلود فيه.

وأمر بشهادة الطائفة للتشهير فوجب أن تكون طائفة يحصل بها التشهير والواحد والثنان ليسوا بتلك المثابة واختصاصه المؤمنين لأن ذلك أفضح والفاسق بين صلحاء قومه أخجل. ويشهد له قول ابن عباس رضي الله عنهما: إلى أربعين رجلاً من المصدقين بالله .

{الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين} الفاسق الخبيث الذي من شأنه الزنى والتقحب لا يرغب في نكاح الصوالح من النساء اللاتي على خلاف صفته وإنما يرغب في فاسقة خبيثة من شكله أو في مشركة والفاسقة الخبيثة المسافحة كذلك لا يرغب في نكاحها الصلحاء من الرجال وينفرون عنها وإنما يرغب فيها من هو من شكلها من الفسقة أو المشركين. ونكاح المؤمن الممدوح عند الله الزانية ورغبته فيها وانخراطه بذلك في سلك الفسقة المتسمين بالزنى: محرم عليه محظور لما فيه من التشبه بالفساق وحضور موقع التهمة والتسبب لسوء القالة فيه والغيبة وأنواع المفاسد. ومجالسه الخطائين كم فيها من التعرض لاقتراف الآثام فكيف بمزاوجه الزواني والقحاب وقد نبه على ذلك بقوله {وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم} [النور: 32] وقيل: كان بالمدينة موسرات من بغايا المشركين فرغب فقراء المهاجرين في نكاحهن فاستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت. وعن عائشة رضي الله عنها أن الرجل إذا زنى بامرأة ليس له أن يتزوجها لهذه الآية وإذا باشرها كان زانياً. وقد أجازه ابن عباس رضي الله عنهما وشبهه بمن سرق ثمر شجرة ثم اشتراه.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن ذلك فقال: (أوله سفاح وآخره نكاح والحرام لا يحرم الحلال) وقيل: المراد بالنكاح الوطء وليس بقول لأمرين أحدهما: أن هذه الكلمة أينما وردت في القرآن لم ترد إلا في معنى العقد. والثاني: فساد المعنى وأداؤه إلى قولك: الزاني لا يزني إلا بزانية والزنية لا يزني بها إلا زان. وقيل: كان نكاح الزانية محرماً في أول الإسلام ثم نسخ والناسخ قوله {وأنكحوا الأيامى منكم} [النور: 32].

وقيل: الإجماع وروي ذلك عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه. فإن قلت: أي فرق بين الجملة الأولى ومعنى الثانية قلت: معنى الأولى صفة الزاني بكونه غير راغب في العفائف ولكن في الفواجر.

ومعنى الثانية: صفة الزانية بكونها غير مرغوب فيها للأعفاء ولكن للزناة وهما معنيان مختلفان. فإن قلت: كيف قدمت الزانية على الزاني أولاً ثم قدم عليها ثانياً قلت: سيقت تلك الآية لعقوبتهما على ما جنيا والمرأة هي المادة التي منها نشأت الجناية لأنها لو لم تطمع الرجل ولم تومض له ولم تمكنه لم يطمع ولم يتمكن. فلما كانت أصلاً وأولاً في ذلك بديء بذكرها. وأما الثانية فمسوقة لذكر النكاح والرجل أصل فيه لأنه هو الراغب والخاطب ومنه يبدأ الطلب. وعن عمرو بن عبيد رضي الله عنه: لا ينكح بالجزم على النهي.

والمرفوع فيه أيضاً معنى النهي ولكن أبلغ وآكد كما أن (رحمك الله) و (يرحمك) أبلغ من (ليرحمك) ويجوز أن يكون خبراً محضاً على معنى: أن عادتهم جارية على ذلك وعلى المؤمن أن لا يدخل نفسه تحت هذه العادة ويتصون عنها. وقرئ: (وحرم) بفتح الحاء.

{والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم} القذف يكون بالزنى وبغيره والذي دل على أن المراد قذفهن بالزنى شيئان أحدهما: ذكر المحصنات عقيب الزواني. والثاني: اشتراط أربعة شهداء لأن القذف بغير الزنى يكفي فيه شاهدان والقذف بالزنى أن يقول الحر العاقل البالغ لمحصنة: يا زانية أو لمحصن: يا زاني يا ابن الزاني يا ابن الزانية يا ولد الزنا لست لأبيك لست لرشدة.

والقذف بغير الزنا أن يقول: يا آكل الربا يا شارب الخمر يا يهودي يا مجوسي يا فاسق يا خبيث يا ماص بظر أمه. فعليه التعزير ولا يبلغ به أدنى حد العبيد وهو أربعون بل ينقص منه. وقال أبو يوسف: يجوز أن يبلغ به تسعة وسبعون. قال: للإمام أن يعزر إلى المائة. وشروط إحصان القذف خمسة: الحرية والبلوغ والعقل والإسلام والعفة. وقرئ: (بأربعة شهداء) بالتنوين. وشهداء صفة. فإن قلت: كيف يشهدون مجتمعين أو متفرقين قلت: الواجب عند أبي حنيفة وأصحابه رضي الله عنهم أن يحضروا في مجلس واحد وإن جاءوا متفرقين كانوا قذفة. وعند الشافعي رضي الله عنه: يجوز أن يحضروا متفرقين. فإن قلت: هل يجوز أن يكون زوج المقذوفة واحداً منهم قلت: يجوز عند أبي حنيفة خلافاً للشافعي.

فإن قلت: كيف يجلد القاذف قلت كما جلد الزاني إلا أنه لا ينزع عنه من ثيابه إلا ما ينزع عن المرأة من الحشو والفرو: والقاذفة أيضاً كالزانية وأشد الضرب ضرب التعزير ثم ضرب

الزنا ثم ضرب شرب الخمر ثم ضرب القاذف. قالوا: لأن سبب عقوبته محتمل للصدق والكذب إلا أنه عوقب صيانة للأعراض وردعاً عن هتكها. فإن قلت: فإذا لم يكن المقذوف محصناً قلت: يعزر القاذف ولا يحد إلا أن يكون المقذوف معروفاً بما قذف به فلا حد ولا تعزير. رد شهادة القاذف معلق عند أبي حنيفة رضي الله عنه باستيفاء الحد فإذا شهد قبل الحد أو قبل تمام استيفائه قبلت شهادته فإذا استوفى لم تقبل شهادته أبداً وإن تاب وكان من الأبرار الأتقياء. وعند الشافعي رضي الله عنه: يتعلق رد شهادته بنفس القذف فإذا تاب عن القذف بأن رجع عنه عاد مقبول الشهادة وكلاهما متمسك بالآية فأبو حنيفة رضي الله عنه جعل جزاء الشرط الذي هو الرمي: الجلد ورد الشهادة عقيب الجلد على التأبيد فكانوا مردودي الشهادة عنده في أبدهم وهو مدة حياتهم وجعل قوله {وأولئك هم الفاسقون} كلاماً مستأنفاً غير داخل في حيز جزاء الشرط كأنه حكاية حال الرامين عند الله بعد انقضاء الجملة الشرطية. و{إلا الذين تابوا} استثناء من الفاسقين. ويدل عليه قوله {فإن الله غفور رحيم} والشافعي رضي الله عنه جعل جزاء الشرط الجملتين أيضاً غير أنه صرف الأبد إلى مدة كونه قاذفاً وهي تنتهي بالتوبة والرجوع عن القذف وجعل الاستثناء متعلقاً بالجملة الثانية. وحق المستثنى عنده أن يكون مجروراً بدلاً من (هم في} لهم} وحقه عند أبي حنيفة رضي الله عنه أن يكون منصوباً لأنه عن موجب والذي يقتضيه ظاهر الآية ونظمها أن تكون الجمل الثلاث بمجموعهن جزاء الشرط كأنه قيل: ومن قذف المحصنات فاجلدوهم وردوا شهادتهم وفسقوهم أي: فاجمعوا لهم الجلد والرد والتفسيق إلا الذين تابوا عن القذف وأصلحوا فإن الله يغفر لهم فينقلبون غير مجلودين ولا مردودين ولا مفسقين. فإن قلت: الكافر يقذف فيتوب عن الكفر فتقبل شهادته بالإجماع والقاذف من المسلمين يتوب عن القذف فلا تقبل شهادته عند أبي حنيفة رضي الله عنه. كأن القذف مع الكفر أهون من القذف مع الإسلام قلت: المسلمون لا يعبئون بسب الكفار لأنهم شهروا بعداوتهم والطعن فيهم بالباطل فلا يلحق المقذوف بقذف الكافر من الشين والشنار ما يلحقه بقذف مسلم مثله فشدد على القاذف من المسلمين ردعاً وكفاً عن إلحاق الشنار. فإن قلت: هل للمقذوف أو للإمام أن يعفو عن حد القاذف قلت لهما ذلك قبل أن يشهد الشهود ويثبت الحد والمقذوف مندوب إلى أن لا يرافع القاذف ولا يطالبه بالحد. ويحسن من الأمام أن يحمل

المقذوف على كظم الغيظ ويقول له: أعرض عن هذا ودعه لوجه الله قبل ثبات الحد: فإذا ثبت لم يكن لواحد منهما أن يعفو لأنه خالص حق الله ولهذا لم يصح أن يصالح عنه بمال. فإن قلت: هل يورث الحد قلت: عند أبي حنيفة رضي الله عنه لا يورث لقوله صلى الله عليه وسلم: (الحد لا يورث) وعند الشافعي رضي الله عنه يورث وإذا تاب القاذف

قبل أن يثبت الحد سقط. وقيل: نزلت هذه الآية في حسان بن ثابت رضي الله عنه حين تاب مما قال في عائشة رضي الله عنها.

{والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهما أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين والخمسة أن لعنت الله عليه إن كان من الكاذبين ويدرؤا عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين} قاذف امرأته إذا كان مسلماً حراً بالغاً عاقلاً غير محدود في القذف والمرأة بهذه الصفة مع العفة: صح اللعان بينهما إذا قذفها بصريح الزنى وهو أن يقول لها: يا زانية أوزنيت أو رأيتك تزنين. وإذا كان الزوج عبداً أو محدوداً في قذف والمرأة محصنة: حدكما في قذف الأجنبيات وما لم ترافعه إلى الإمام لم يجب اللعان. واللعان: أن يبدأ الرجل فيشهد أربع شهادات بالله إنه امن الصادقين فيما رماها به من الزنى. وتقول المرأة أربع مرات: أشهد بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماني به من الزنى ثم تقول في الخامسة: أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين فيما رماني به من الزنى. وعند الشافعي رضي الله عنه: يقام الرجل قائماً حتى يشهد والمرأة قاعدة وتقام المرأة والرجل قاعد حتى تشهد ويأمر الأمام من يضع يده على فيه ويقول له: إني أخاف إن لم تكن صادقاً أن تبوء بلعنة الله وقال: اللعان بمكة بين المقام والبيت وبالمدينة على المنبر وبيت المقدس في مسجده ولعان المشرك في الكنيسة وحيث يعظم وإذا لم يكن له دين ففي مساجدنا إلا في المسجد الحرام لقوله تعالى {إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام} [التوبة: 28] ثم يفرق القاضي بينهما ولا تقع الفرقة بينهما إلا بتفريقه عند أبي حنيفة وأصحابه رضي الله عنهم إلا عند زفر فإن الفرقة تقع باللعان. وعن عثمان البتي: لا فرقة أصلاً. وعند الشافعي رضي الله عنه تقع بلعان الزوج وتكون هذه الفرقة في حكم التطليقة البائنة عند أبي حنيفة ومحمد رضي الله عنهما ولا يتأبد حكمها فإذا أكذب

الرجل نفسه بعد ذلك فحد جاز أن يتزوجها. وعند أبي يوسف وزفر والحسن بن زياد والشافعي رضي الله عنهم: هي فرقة بغير طلاق توجب تحريماً مؤبداً ليس لهما أن يجتمعا بعد ذلك بوجه. وروي: أن آية القذف لما نزلت قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فقام عاصم بن عدي الأنصاري رضي الله عنه فقال: جعلني الله فداك إن وجد رجل مع امرأته رجلاً فأخبر جلد ثمانين وردت شهادته أبداً وفسق وإن ضربه بالسيف قتل وإن سكت سكت على غيظ وإلى أن يجئ بأربعة شهداء فقد قضى الرجل حاجته ومضى: اللهم افتح.

وخرج فاستقبله هلال بن أمية أو عويمر فقال: ما وراءك قال: شر وجدت على بطن امرأتي خولة - وهي بنت عاصم - شريك بن سحماء فقال: هذا والله سؤالي ما أسرع ما ابتليت به فرجعا فأخبر عاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلم خولة فقالت: لا أدري ألغيرة أدركته أم بخلاً على الطعام - وكان شريك نزيلهم - وقال هلال: لقد رأيته على بطنها. فنزلت ولا عن بينهما. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند قوله وقولها: أن لعنة الله عليه ن أن غضب الله عليها: آمين وقال القوم: آمين وقال لها: إن كنت ألممت بذنب فاعترفي به فالرجم أهون عليك من غضب الله إن غضبه هو النار. وقال: تحينوا بها الولادة فإن جاءت به أصيهب أثيبج يضرب إلى السواد فهو لشريك وإن جاءت به أورق جعداً جمالياً خدلج الساقين فهو لغير الذي رميت به) قال ابن عباس رضي الله عنهما: فجاءت بأشبه خلق الله لشريك. فقال صلى الله عليه وسلم: (لولا الأيمان لكان لي ولها شأن) . وقرئ: (ولم تكن) بالتاء لأن الشهداء جماعة أو لأنهم في معنى الأنفس التي هي بدل.

ووجه من قرأ أربع أن ينتصب لأنه في حكم المصدر والعامل فيه المصدر الذي هو {فشهادة أحدهم} وهي مبتدأ محذوف الخبر تقديره: فواجب شهادة أحدهم أربع شهادات بالله.

وقرئ أن لعنة الله وأن غضب الله: على تخفيف أن ورفع ما بعدها. وقرئ: (أن غضب الله) على فعل الغضب. وقرئ: بنصب الخامستين على معنى: وتشهد الخامسة. فإن قلت: لم خصت الملاعنة بأن تخمس بغضب الله قلت: تغليظاً عليها لأنها هي أصل الفجور ومنبعه بخلابتها وإطماعها ولذلك كانت مقدمة في آية الجلد. ويشهد لذلك قوله صلى الله عليه وسلم: لخولة: (فالرجم أهون عليك من غضب الله).

{ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم} الفضل: التفضل وجواب (لولا) متروك وتركه دال على أمر عظيم لا يكتنه ورب مسكوت عنه أبلغ من منطوق به.

{إن الذين جاءو بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم} الإفك: أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء. وقيل: هو البهتان لا تشعر به حتى يفجأك.

وأصله: الأفك وهو القلب لأنه قول مأفوك عن وجهه. والمراد: ما أفك به على عائشة رضي الله عنها. والعصبة: الجماعة من العشرة إلى الأربعين وكذلك العصابة.
واعصوصبوا: اجتمعوا وهم عبد الله بن أبي رأس النفاق وزيد بن رفاعة وحسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وجمنة بنت جحش ومن ساعدهم. وقرئ: (كبره) بالضم والكسر وهو عظمه. والذي تولاه عبد الله لإمعانه في عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتهازه الفرص وطلبه سبيلاً إلى الغميزة.

أي يصيب كل خائض في حديث الإفك من تلك العصبة نصيبه من الإثم على مقدار خوضه.

والعذاب العظيم لعبد الله لأن معظم الشر كان منه. يحكى أن صفوان رضي الله عنه مر بهودجها عليه وهو في ملأ من قومه فقال: من هذه فقالوا: عائشة رضي الله عنها فقال: والله ما نجت منه ولا نجا منها وقال: امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقودها. والخطاب في قوله {هو خير لكم} لمن ساءه ذلك من المؤمنين وخاصة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعائشة وصفوان بن المعطل رضي الله عنهم.
ومعنى كونه خيراً لهم: أنهم اكتسبوا فيه الثواب العظيم لأنه كان بلاء مبيناً ومحنة ظاهرة وأنه نزلت فيه ثماني عشرة آية كل واحدة منها مستقلة بما هو تعظيم لشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتسلية له وتنزيه لأم المؤمنين رضوان الله عليها وتطهير لأهل البيت وتهويل لمن تكلم في ذلك أو سمع به فلم تمجه أذناه وعدة ألطاف للسامعين والتالين إلى يوم القيامة وفوائد دينية وأحكام وآداب لا تخفى على متأمليها.

{لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين} {بأنفسهم} أي بالذين منهم من المؤمنين والمؤمنات كقوله {ولا تلمزوا أنفسكم} [الحجرات: 11].

وذلك نحو ما يروى أن أبا أيوب الأنصاري قال لأم أيوب: ألا ترين ما يقال فقال: لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم سوداً قال: لا. قالت: ولو كنت أنا بدل عائشة رضي الله عنها ما خنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعائشة خير مني وصفوان خير منك. فإن قلت: هلا قيل: لولا إذ سمعتموه ظننتم بإنفسكم خيراً وقلتم ولم عدل عن الخطاب إلى الغيبة وعن الضمير إلى الظاهر قلت: ليبالغ في التوبيخ بطريقة الألتفات وليصرح بلفظ الإيمان دلالة على أن الاشتراك فيه مقتض أن لا يصدق مؤمن على أخيه ولا مؤمنة على أختها قول عائب ولا طاعن. وفيه

تنبيه على أن حق المؤمن إذا سمع قالة في أخيه أن يبني الأمر فيها على الظن لا على الشك. وأن يقول بملء فيه بناء على ظنه بالمؤمن الخير {هذا إفك مبن} هكذا بلفظ المصرح ببراءة ساحته كما يقول المستيقن المطلع على حقيقة الحال. وهذا من الأدب الحسن الذي قل القائم به والحافظ له وليتك تجد من يسمع {لولا جاءو عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون} جعل الله التفصلة بين الرمي الصادق والكاذب: ثبوت شهادة الشهود الأربعة وانتفاءها والذين رموا عائشة رضي الله عنها لم تكن لهم بينة على قولهم فقامت عليهم الحجة وكانوا {عند الله} أي في حكمه وشريعته كاذبين. وهذا توبيخ وتعنيف للذين سمعوا الإفك فلم يجدوا في دفعه وإنكاره واحتجاج عليهم بما هو ظاهر مكشوف في الشرع: من وجوب تكذيب القاذف بغير بينة والتنكيل به إذا قذف امرأة محصنة من عرض نساء المسلمين فكيف بأم المؤمنين الصديقة بنت الصديق حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحبيبة حبيب الله.

{ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والأخرة لمسكم في ما أفضتم فيه عذاب عظيم إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم} لولا الأولى للتحضيض وهذه لامتناع الشيء لوجود غيره. والمعنى: ولولا أني قضيت أن أتفضل عليكم في الدنيا بضروب النعم التي من جملتها الإمهال للتوبة وأن أترحم عليكم في الآخرة بالعفو والمغفرة لعاجلتكم بالعقاب على ما خضتم فيه من حديث الإفك يقال: أفاض في الحديث واندفع وهضب وخاض {إذ} ظرف لمسكم أو لأفضتم {تلقونه} يأخذه بعضكم من بعض. يقال: تلقى القول وتلقنه وتلقفه. ومنه قوله تعالى {فتلقى آدم من ربه كلمات} {البقرة: 37} وقرئ على الأصل: (تتلقونه) وإذ تلقونه بإدغام الذال في التاء. و (تلقونه)

من لقيه بمعنى لقفه و (تلقونه) من إلقائه بعضهم على بعض. و (تلقونه) و (تألقونه) من الولق والألق: وهو الكذب و (تلقونه): محكية عن عائشة رضي الله عنها وعن سفيان: سمعت أمي تقرأ: إذ تثقفونه وكان أبوها يقرأ بحرف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. فإن قلت: ما معنى قوله {بأفواهكم} والقول لا يكون إلا بالفم قلت: معناه أن الشيء المعلوم يكون علمه في القلب فيترجم عنه اللسان. وهذا الإفك ليس إلا قولاً يجري على ألسنتكم ويدور في أفواهكم من غير ترجمة عن علم به في القلب كقوله تعالى {يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم} {آل عمران: 167} وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم أي: تحسبونه صغيرة وهو عند الله كبيرة وموجبة. وعن بعضهم أنه جزع عند الموت فقيل له فقال: أخاف ذنبالم يكن مني على بال وهو عند الله عظيم. وفي كلام بعضهم: لا تقولن لشيء من سيئاتك حقير فلعله عند الله نخلة وهو عندك نقير. وصفهم بارتكاب ثلاثة آثام وعلق مس العذاب العظيم بها أحدها: تلقى الإفك بألسنتهم وذلك أن الرجل كان يلقى الرجل فيقول له: ما وراءك فيحدثه بحديث الإفك حتى شاع وانتشر فلم يبق بيت ولا ناد إلا طار فيه. والثاني: التكلم بما لا علم لهم به. والثالث: استصغارهم لذلك وهو عظيمة من العظائم.

فإن قلت: كيف جاز الفصل بين لولا وقلتم قلت: للظروف شأن وهو تنزلها من الأشياء منزلة أنفسها لوقوعها فيها وأنها لا تنفك عنها فلذلك يتسع فيها ما لا يتسع في غيرها. فإن قلت: فأي فائدة في تقديم الظرف حتى أوقع فاصلاً قلت: الفائدة فيه بيان أنه كان الواجب عليهم أن يتفادوا أول ما سمعوا بالإفك عن التكلم به فلما كان ذكر الوقت أهم وجب التقديم . فإن قلت: فما معنى يكون والكلام بدونه متلئب لو قيل: ما لنا أن نتكلم بهذا قلت: معناه معنى ينبغي ويصح أي: ما ينبغي لنا أن نتكلم بهذا وما يصح لنا. ونحوه: ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق. و{سبحانك} للتعجب من عظم الأمر. فإن قلت: ما معنى التعجب في كلمة التسبيح قلت: الأصل في ذلك أن يسبح الله عند رؤية العجيب من صنائعه ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه أو لتنزيه الله تعالى من أن تكون

حرمة نبيه عليه السلام فاجرة. فإن قلت: كيف جاز أن تكون امرأة النبي كافرة كامرأة نوح ولوط عليهما الصلاة والسلام ولم يجز أن تكون فاجرة قلت: لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مبعوثون إلى الكفار ليدعوهم ويستعطفوهم فيجب أن لا يكون معهم ما ينفرهم عنهم ولم يكن الكفر

عندهم مما ينفر. وأما الكشخنة فمن أعظم المنفرات.

{يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين} أي كراهة {أن تعودوا} أو في أن تعودوا من قولك: وعظت فلاناً في كذا فتركه. وأبدهم ما داموا أحياء مكلفين. و{إن كنتم مؤمنين} فيه تهييج لهم ليتعظوا وتذكير بما يوجب ترك العود وهو اتصافهم بالإيمان الصاد عن كل مقبح.

{ويبن الله لكم الأيات والله عليم حكيم} ويبين الله لكم الدلالات على علمه وحكمته بما ينزل عليكم من الشرائع ويعلمكم من الآداب الجميلة ويعظكم به من المواعظ الشافية والله عالم بكل شيء فاعل لما يفعله بدواعي الحكمة.

{إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والأخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون} المعنى: يشيعون الفاحشة عن قصد إلى الإشاعة وإرادة ومحبة لها وعذاب الدنيا الحد ولقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبي وحسناً ومسطحاً وقعد صفوان لحسان فضربه ضربة بالسيف وكف بصره. وقيل: هو المراد بقوله {والذي تولى كبره منهم} {النور: 11} {والله يعلم} ما في القلوب من الأسرار والضمائر} وأنتم لا تعلمون} يعني أنه قد علم محبة من أحب الإشاعة وهو معاقبه عليها.

وكرر المنة بترك المعالجة بالعقاب حاذفاً جواب لولا كما حذفه ثمة. وفي هذا التكرير مع حذف الجواب مبالغة عظيمة وكذلك في التواب والرءوف والرحيم.

{يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم} الفحشاء والفاحشة: ما أفرط قبحه. قال أبو ذؤيب: ضرائر حرمي تفاحش غارها أي: أفرطت غيرتها. والمنكر: ما تنكره النفوس فتنفر عنه ولا ترضيه. وقرئ: (خطوات) بفتح الطاء وسكونها. وزكى بالتشديد والضمير لله تعالى ولولا أن الله تفضل عليكم بالتوبة

الممحصة لما طهر منكم أحد آخر الدهر من دنس إثم الإفك ولكن الله يطهر التائبين بقبول توبتهم إذا محضوها وهو {سميع} لقولهم {عليم} بضمائرهم وإخلاصهم.

{ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم} وهو من ائتلى إذا حلف: افتعال من الألية. وقيل: من قولهم: ما ألوت جهداً إذا لم تدخر منه شيئاً. ويشهد للأول قراءة الحسن: ولا يتأل. والمعنى: لا يحلفوا على أن لا يحسنوا إلى المستحقين للإحسان. أو لا يقصروا في أن يحسنوا إليهم وإن كانت بينهم وبينهم شحناء لجناية اقترفوها فليعودوا عليهم بالعفو والصفح وليفعلوا بهم مثل ما يرجون أن يفعل بهم ربهم مع كثرة خطاياهم وذنوبهم نزلت في شأن مسطح وكان ابن خالة أبلي بكر الصديق رضي الله عنهما وكان فقيراً من فقراء المهاجرين وكان أبو بكر ينفق عليه فلما فرط منه ما فرط: آلى أن لا ينفق عليه وكفى به داعياً إلى المجاملة وترك الاشتغال بالمكافأة للمسئ. ويروى: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأها على أبي بكر فقال: بلى

أحب أن يغفر الله لي ورجع إلى مسطح نفقته وقال: والله لا أنزعها أبداً. وقرأ أبو حيوة وابن قطيب: (أن تؤتوا) بالتاء على الالتفات. ويعضده قوله {ألا تحبون أن يغفر الله لكم}.

{إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والأخرة ولهم عذاب عظيم}
{الغافلات} السليمات الصدور النقيات القلوب اللاتي ليس فيهن دهاء ولا مكر لأنهن لم يجربن الأمور ولم يرزن الأحوال فلا يفطن لما تفطن له المجربات العرافات. قال:

بلهاء تطلعني على أسرارها **ولقد لهوت بطفلة ميالة

وكذلك البله من الرجال في قوله عليه الصلاة والسلام {يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون يؤمئذ الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين} وقرئ: (يشهد) بالياء. والحق: بالنصب صفة للدين وهو الجزاء وبالرفع صفة لله ولو فليت القرآن كله وفتشت عما أوعد به العصاة لم تر الله تعالى قد غلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة رضوان الله عليها ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد والعتاب البليغ والزجر العنيف واستعظام ما ركب من ذلك واستفظاع ما أقدم عليه ما أنزل فيه

على طرق مختلفة وأساليب مفتنة. كل واحد منها كاف في بابه ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث لكفى بها حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعاً وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الواجب الذي هم أهله حتى يعلموا عند ذلك} أن الله هو الحق المبين} فأوجز في ذلك وأشبع وفصل وأجمل وأكد وكرر وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الأوثان إلا ما هو دونه في الفظاعة وما ذاك إلا لأمر. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه كان بالبصرة يوم عرفة وكان يسأل عن تفسير القرآن حتى سئل عن هذه الآيات فقال: من أذنب ذنباً ثم تاب منه قبلت توبته إلا من خالص في أمر عائشة وهذه منه مبالغة وتعظيم لأمر الإفك. ولقد برأ الله تعالى أربعة بأربعة: برأ يوسف بلسان الشاهد} وشهد شاهد من أهلها} يوسف: 26. وبرأ موسى من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه. وبرأ مريم بإنطاق ولدها حين نادى من حجرها: إني عبد الله. وبرأ عائشة بهذه الآيات العظام في كتابه المعجز المتلو على وجه الدهر مثل هذه التبرئة بهذه المبالغات. فانظر كم بينها وبين تبرئة أولئك وما ذاك إلا لإظهار علو منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتنبيه على إناقة محل سيد ولد آدم وخيرة الأولين والآخرين وحجة الله على العالمين. ومن أراد أن يتحقق عظمة شأنه صلى الله عليه وسلم وتقدم قدمه وإحرازه لقصب السبق دون كل سابق فليتلق ذلك من آيات الإفك وليتأمل كيف غضب الله في حرمته وكيف بالغ في نفي التهمة عن حجابه. فإن قلت: إن كانت عائشة هي المرادة فكيف قيل المحصنات قلت: فيه وجهان أحدهما: أن يراد بالمحصنات أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن يخصصن بأن من قذفهن فهذا الوعيد لاحق به وإذا أردن عائشة كبراهن منزلة وقربة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت المرادة أولاً والثاني: أنها أم المؤمنين فجمعت إرادة لها ولبناتها من نساء الأمة الموصوفات بالإحصان والغفلة والإيمان كما قال: قدني من نصر الخبيبين قدي أراد عبد الله بن الزبير وأشياعه وكان أعداؤه يكنونه بخبيب ابنه وكان مضعوفاً وكنيته المشهورة أبو بكر إلا أن هذا في الاسم وذاك في الصفة فإن قلت: ما معنى قوله {هو الحق المبن} [النور: 25] قلت: معناه: ذو الحق البين أي: العادل الظاهر العدل الذي لا ظلم في حكمه والمحق الذي لا يوصف بباطل. ومن هذه صفته لم تسقط عنده إساءة مسيء ولا إحسان محسن فحق مثله أن يتقى ويجتنب محارمه.

{الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم} أي {الخبيثات} من القول تقال أو تعد {للخبيثين} من الرجال والنساء {والخبيثون} منهم يتعرضون {للخبيثات} من القول وكذلك الطيبات والطيبون. و{أولئك} إشارة إلى الطيبين وأنهم مبرؤون مما يقول الخبيثون من خبيثات الكلم وهو كلام جار مجرى المثل لعائشة وما رميت به من قول لا يطابق حالها في النزاهة والطيب. ويجوز أن يكون {أولئك} إشارة إلى أهل البيت وأنهم مبرؤون مما يقول أهل الإفك وأن يراد بالخبيثات والطيبات: النساء أي: الخبائث يتزوجن الخباث والخباث الخبائث. وكذلك أهل الطيب. وذكر الرزق الكريم ها هنا مثله في قوله {وأعتدنا لها رزقاً كريماً} [الأحزاب: 31] وعن عائشة: لقد أعطيت تسعاً ما أعطيتهن امرأة: لقد نزل جبريل عليه السلام بصورتي في راحته حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتزوجني ولقد تزوجني بكراً وما تزوج بكراً غيري ولقد توفي وإن رأسه لفي حجري ولقد قبر في بيتي ولقد حفته الملائكة في بيني وإن الوحي لينزل عليه في أهله فيتفرقون عنه وإن كان لينزل عليه وأنا معه في لحافه وإني لابنة خليفته وصديقه ولقد نزل عذري من السماء ولقد خلقت طيبة عند طيب ولقد وعدت مغفرة ورزقاً كريماً.

{يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذالكم خير لكم لعلكم تذكرون} {تستأنسوا} فيه وجهان: أحدهما: أنه من الاستئناس الظاهر الذي هو خلاف الاستيحاش لأن الذي يطرق باب غيره لا يدري أيؤذن له أم لا فهو كالمستوحش من خفاء الحال عليه فإذا أذن له استأنس فالمعنى: حتى يؤذن لكم كقوله {لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم} [الأحزاب: 53] وهذا من باب الكناية والإرداف لأن هذا النوع من الاستئناس يردف الإذن. فوضع موضع الإذن.

والثاني: أن يكون من الاستئناس الذي هو الاستعلام والاستكشاف: استفعال من أنس الشيء إذا أبصره ظاهراً مكشوفاً. والمعنى حتى تستعلموا وتستكشفوا الحال هل يراد

دخولكم أم لا ومنه قولهم: استأنس هل ترى أحداً واستأنست فلم أر أحداً أي: تعرفت واستعلمت. ومنه بيت النابغة: على مستأنس وحد ويجوز أن يكون من الإنس وهو أن يتعرف هل ثمة إنسان وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه: قلنا: يا رسول الله ما الاستئناس قال: يتكلم الرجل بالتسبيحة والتكبيرة والتحميدة ويتنحنح: يؤذن أهل البيت. والتسليم أن يقول: السلام عليكم أأدخل ثلاث مرات فإن أذن له وإلا رجع.

وعن أبي موسى الأشعري أنه أتى باب عمر رضي الله عنهما فقال: السلام عليكم أأدخل قالها ثلاثاً ثم رجع وقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (الاستئذان ثلاثاً).

واستأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أألج فقال صلى الله عليه وسلم لا مرأة يقال لها روضة: (قومي إلى هذا فعلميه فإنه لا يحسن أن يستأذن. قولي له يقول: السلام عليكم أأدخل) فسمعها الرجل فقالها فقال: (ادخل). وكان أهل الجاهلية يقول الرجل منهم إذا دخل بيتاً غير بيته: حييتم صباحاً وحييتم مساء ثم يدخل فربما أصاب الرجل مع امرأته في لحاف واحد فصد الله عن ذلك وعلم الأحسن والأجمل وكم من باب من أبواب الدين هو عند الناس كالشريعة المنسوخة قد تركوا العمل به وباب الاستئذان من ذلك: بينا أنت في بيتك إذا رعف عليك الباب. بواحد من غير استئذان ولا تحية من تحايا إسلام ولا جاهلية وهو ممن سمع ما أنزل الله فيه وما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن أين الأذن الواعية وفي قراءة عبد الله: (حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا). وعن ابن عباس وسعيد بن جبير: إنما هو حتى تستأذنوا فأخطأ الكاتب. ولا

يعول على هذه الرواية . وفي قراءة أبي: (حتى تستأذنوا) {ذالكم} الاستئذان والتسليم {خير لكم} من تحية الجاهلية والدمور - وهو الدخول بغير إذن - واستقاقه من الدمار وهو الهلاك كأن صاحبه دامر لعظم ما ارتكب. وفي الحديث: (من سبقت عينه استئذانه فقد دمر). وروي: أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أأستأذن على أمي قال: (نعم) قال: إنها ليس لها خادم غيري أأستأذن عليها كلما دخلت قال: (أتحب أن تراها عريانة) قال الرجل: لا . قال: (فاستأذن).} لعلكم تذكرون} أي أنزل عليكم أو قيل لكم هذا إرادة أن تذكروا وتتعظوا وتتعلموا بما أمرتم به في باب الاستئذان.

{فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم} يحتمل {فإن لم تجدوا فيها أحداً} من الآذنين {فلا تدخلوها} واصبروا حتى تجدوا من يأذن لكم . ويحتمل: فإن لم تجدوا فيها أحداً من أهلها ولكم فيها حاجة فلا تدخلوها إلا بإذن أهلها وذلك أن الاستئذان لم يشرع لئلا يطلع الدامر على عورة ولا تسبق عينه إلى ما لا يحل النظر إليه فقط وإنما شرع لئلا يوقف على الأحوال التي يطويها الناس في العادة عن غيرهم ويتحفظون من اطلاع أحد عليها ولأنه تصرف في ملك غيرك فلا بد من أن يكون برضاه وإلا أشبه الغصب والتغلب {فارجعوا} أي لا تلحوا في إطلاق الإذن ولا تلجوا في تسهيل الحجاب ولا تقفوا على الأبواب منتظرين لأن هذا مما يجلب الكراهة ويقدح في قلوب الناس خصوصاً إذا كانوا ذوي مروءة ومرتاضين بالآداب الحسنة وإذا نهى عن ذلك لأدائه إلى الكراهة وجب الانتهاء عن كل ما يؤدي إليها: من قرع الباب بعنف والتصييح بصاحب الدار وغير ذلك مما يدخل في عادات من لم يتهذب من أكثر الناس وعن أبي عبيد: والله ما قرعت باباً على عالم قط.

وكفى بقصة بني أسد زاجرة وما نزل فيها من قوله {إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون} [الحجرات: 4]. فإن قلت: هل يصح أن يكون المعنى: وإن لم يؤذن لكم وأمرتم بالرجوع فامتثلوا ولا تدخلوا مع كراهتهم قلت: بعد أن جزم النهي عن الدخول مع فقد الإذن وحده من أهل الدار حاضرين وغائبين لم تبق شبهة في كونه منهياً عنه مع انضمام الأمر بالرجوع إلى فقد الإذن فإن قلت: فإذا عرض أمر في دار: من حريق أو هجوم سارق أو ظهور منكر يجب إنكاره قلت: ذاك مستثنى بالدليل هو أزكى لكم أي: الرجوع أطيب لكم وأطهر لما فيه من سلامة الصدور والبعد من الريبة أو أنفع وأنمى خيراً. ثم أوعد المخاطبين بذلك بأنه عالم بما يأتون وما يذرون مما خوطبوا به فموت جزاءه عليه.

{ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون}

استثنى من البيوت التي يجب الاستئذان على داخلها: ما ليس بمسكون منها وذلك نحو الفنادق وهي الخانات والربط وحوانيت البياعين. والمتاع: المنفعة كالاستكنان من الحر والبرد وإيواء الرحال والسلع والشراء والبيع. ويروى: أن أبا بكر رضي الله عنه قال: يا رسول الله إن الله تعالى قد أنزل عليك آية في الاستئذان وإنا نختلف في تجاراتنا فننزل هذه الخانات أفلا ندخلها إلا بإذن فنزلت وقيل: الخربات يتبرز فيها. والمتاع: التبرز {والله يعلم ما تبدون وما تكتمون} وعيد للذين يدخلون الخربات {قل للمؤمنين بغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون} من للتبعيض والمراد غض البصر عما يحرم والاقتصار به على ما يحل وجوز الأخفش أن تكون مزيدة وأباه سيبويه. فإن قلت: كيف دخلت في غض البصر دون حفظ الفروج قلت: دلالة على أن أمر النظر أوسع. ألا ترى أن المحارم لا بأس بالنظر إلى شعورهن وصدورهن وثديهن وأعضادهن وأسوقهن وأقدامهن وكذلك الجواري المستعرضات والأجنبية ينظر إلى وجهها وكفيها وقدميها في إحدى الروايتين. وأما أمر الفرج فمضيق وكفاك فرقاً أن أبيح النظر إلا ما استثنى منه وحظر الجماع إلا ما استثنى منه ويجوز أن يراد - مع حفظها عن

الإفضاء إلى ما لا يحل - حفظها عن الإبداء. وعن ابن زيد: كل ما في القرآن من حفظ الفرج فهو عن الزنا إلا هذا فإنه أراد به الاستتار. ثم أخبر أنه} خبير} بأفعالهم وأحوالهم وكيف يجيلون أبصارهم وكيف يصنعون بسائر حواسهم وجوارحهم فعليهم - إذا عرفوا ذلك - أن يكونوا منه على تقوى وحذر في كل حركة وسكون.

{وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون لعلكم تفلحون} النساء مأمورات أيضاً بغض الأبصار ولا يحل للمرأة أن تنظر من الأجنبي إلى ما تحت سرته إلى ركبته وإن اشتهت غضت بصرها رأساً ولا تنظر من المرأة إلا إلى مثل ذلك. وغضها بصرها من الأجانب أصلاً أولى بها وأحسن. ومنه حديث ابن أم مكتوم عن أم سلمة رضي

الله عنها قالت: كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده ميمونة فأقبل ابن مكتوم - وذلك بعد أن أمرنا بالحجاب - فدخل علينا فقال: احتجبا فقلنا: يا رسول الله أليس أعمى لا يبصر قال: (أفعمياوان أنتما ألستما تبصرانه). فإن قلت: لم قدم غض الأبصار على حفظ الفروج قلت: لأن النظر بريد الزنى ورائد الفجور والبلوى فيه أشد وأكثر ولا يكاد يقدر على الاحتراس منه الزينة: ما تزينت به المرأة من حلي أو كحل أو خضاب فما كان ظاهراً منها كالخاتم والفتخة والكحل والخضاب فلا بأس بإبدائه للأجانب وما خفي منها كالسوار والخلخال والدملج والقلادة والإكليل والوشاح والقرط فلا تبديه إلا لهؤلاء المذكورين. وذكر الزينة دون مواقعها: للمبالغة في الأمر بالتصون والتستر لأن هذه الزين واقعة على مواضع من الجسد لا يحل النظر إليها لغير هؤلاء وهي الذراع والساق والعضد والعنق والرأس والصدر والأذن فنهى عن إبداء الزين نفسها. ليعلم أن النظر إذا لم يحل إليها لملابستها تلك المواقع - بدليل أن النظر إليها غير ملابسة لها لا مقال في حله - كان النظر إلى المواقع أنفسها متمكناً في الحظر ثابت القدم في الحرمة شاهداً على أن النساء حقهن أن يحتطن في سترها ويتقين الله في الكشف عنها. فإن قلت: ما تقول في القراميل هل يحل نظر هؤلاء إليها قلت: نعم.

فإن قلت: أليس موقعها الظهر ولا يحل لهم النظر إلى ظهرها وبطنها وربما ورد الشعر فوقعت القراميل على ما يحاذي ما تحت السرة قلت: الأمر كما قلت ولكن أمر القراميل خلاف أمر سائر الحلي لأنه لا يقع إلا فوق اللباس ويجوز النظر إلى الثوب الواقع على الظهر والبطن للأجانب فضلاً عن هؤلاء. إلا إذا كان يصف لرقته فلا يحل النظر إليه فلا يحل النظر إلى القراميل واقعة عليه. فإن قلت: ما المراد بموقع الزينة ذلك العضو كله أم المقدار الذي تلبسه الزينة منه قلت: الصحيح أنه العضو كله كما فسرت مواقع الزينة الخفية وكذلك مواقع الزينة الظاهرة: الوجه موقع الكحل في عينيه والخضاب بالوسمة في حاجبيه وشاربيه والغمرة في خديه والكف والقدم موقعا الخاتم والفتخة والخضاب بالحناء. فإن قلت: لم سومح مطلقاً في الزينة الظاهرة قلت: لأن سترها فيه حرج فإن المرأة لا تجد بداً من مزاولة الأشياء بيديها ومن الحاجة إلى كشف وجهها خصوصاً في الشهادة والمحاكمة والنكاح وتضطر إلى المشي في الطرقات وظهرو قدميها وخاصة الفقيرات منهن وهذا معنى قوله:

{إلا ما ظهر منها} يعني إلا ما جرت العادة والجبلة على ظهوره والأصل فيه الظهور وإنما سومح في الزينة الخفية أولئك المذكورون لما كانوا مختصين به من الحاجة المضطرة إلى مداخلتهم ومخالطتهم ولقلة توقع الفتنة من جهاتهم ولما في الطباع من النفرة عن

مماسة القرائب وتحتاج المرأة إلى صحبتهم في الأسفار للنزول والركوب وغير ذلك. كانت جيوبهن واسعة تبدو منها نحورهن وصدورهن وما حواليها وكن يسدلن الخمر من ورائهن فتبقى مكشوفة فأمرن بأن يسدلنها من قدامهن حتى يغطينها ويجوز أن يراد بالجيوب: الصدور تسمية بما يليها ويلابسها. ومنه قولهم: ناصح الجيب وقولك: ضربت بخمارها على جيبها كقولك: ضربت بيدي على الحائط إذا وضعتها عليه وعن عائشة رضي الله عنها: ما رأيت نساءاً خيراً من نساء الأنصار لما نزلت هذه الآية قامت كل واحدة منهن إلى مرطها المرحل فصدعت منه صدعة فاختمون فأصبحن كأن على رؤوسهن الغربان. وقرئ: (جيوبهن) بكسر الجيم لأجل الياء وكذلك {بيوتاً غير بيوتكم} قيل في {نسائهن}: هن المؤمنات لأنه ليس للمؤمنة أن تتجرد بين يدي مشركة أو كتابية. عن ابن عباس رضي الله عنهما. والظاهر أنه عنى بنسائهن وما ملكت أيمانهن: من في صحبتهن وخدمتهن من الحرائر والإماء والنساء كلهن سواء في حل نظر بعضهن إلى بعض. وقيل: ما ملكت أيمانهن هم الذكور والإناث جميعاً.

وعن عائشة رضي الله عنه أنها أباحت النظر إليها لعبدها وقالت لذكوان: إنك إذا وضعتني في القبر وخرجت فأنت حر. وعن سعيد بن المسيب مثله ثم رجع وقال: لا تغرنكم آية النور فإن المراد بها الإماء. وهذا هو الصحيح لأن عبد المرأة بمنزلة الأجنبي منها خصياً كان أو فحلاً. وعن ميسون بنت بحدل الكلبية: أن معاوية دخل عليها ومعه خصي فتقنعت منه فقال: هو خصي فقالت: يا معاوية أترى أن المثلة به تحلل ما حرم الله وعند أبي حنيفة: لا يحل استخدام الخصيان وإمساكهم وبيعهم وشراؤهم ولم ينقل عن أحد من السلف إمساكهم. فإن قلت: روي: أنه أهدي لرسول الله صلى الله عليه وسلم خصي فقبله. قلت: لا يقبل فيما تعم به البلوى إلا حديث مكشوف فإن صح فلعله قبله ليعتقه أو لسبب من الأسباب.{الإربة} الحاجة قيل: هم الذين يتبعونكم ليصيبوا من فضل طعامكم ولا حاجة لهم في النساء لأنهم بله لا يعرفون شيئاً من أمرهن. أو شيوخ صلحاء إذا كانوا معهن غضوا أبصارهم أو بهم عنانة وقرئ {غير} بالنصب على الاستثناء أوز الحال والجر على الوصفية. وضع الواحد موضع الجمع لأنه يفيد الجنس ويبين ما بعده أن المراد به الجمع. ونحوه {نخرجكم طفلاً} [الحج: 5] {لم يظهروا} إما من ظهر على الشيء إذا اطلع عليه أي: لا يعرفون ما العورة ولا يميزون بينها وبين غيرها وإما من ظهر على فلان إذا قوي عليه وظهر على القرآن: أخذه وأطاقه أي: لم يبلغوا أوان القدرة على الوطء. وقرئ: (عورات) وهي لغة هذيل. فإن قلت: لم لم يذكر الله الأعمام والأخوال قلت: سئل الشعبي عن ذلك فقال: لئلا يصفها العم عند ابنه والخال كذلك. ومعناه: أن سائر القرابات يشترك الأب والابن في المحرمية إلا العم والخال وأبناءهما.

فإذا رآها الآب فربما وصفها لابنه وليس بمحرم فيداني تصوره لها بالوصف نظره إليها وهذا أيضاً من الدلالات البليغة على وجوب الاحتياط عليهن في التستر. كانت المرأة تضرب الأرض برجلها ليتقعقع خلخالها فيعلم أنها ذات خلخال. وقيل: كانت تضرب بإحدى رجليها الأخرى ليعلم أنها ذات خلخالين. وإذا نهين عن إظهار صوت الحلي بعد ما نهين عن إظهار الحلي علم بذلك أن النهي عن إظهار مواضع الحلي أبلغ وأبلغ. وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون أوامر الله ونواهيه في كل باب لا يكاد العبد الضعيف يقدر على مراعاتها. وإن ضبط نفسه واجتهد ولا يخلو من تقصير يقع منه فلذلك وصى المؤمنين جميعاً بالتوبة والاستغفار وبتأميل الفلاح إذا تابوا واستغفروا. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: توبوا مما كنتم تفعلونه في الجاهلية لعلكم تسعدون في الدنيا والآخرة. فإن قلت: قد صحت التوبة بالإسلام والإسلام يجب ما قبله فما معنى هذه التوبة قلت: أراد بها ما يقوله العلماء: إن من أذنب ذنباً ثم تاب عنه يلزمه كلما تذكره أن يجدد عنه التوبة لأنه يلزمه أن يستمر على ندمه وعزمه إلى أن يلقى ربه. وقرئ: (أيه المؤمنون) بضم الهاء ووجهه أنها كانت مفتوحة لوقوعها قبل الألف فلما سقطت الألف لالتقاء الساكنين أتبعت حركتها حركة ما قبلها.

{وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمآئكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم} {الأيامى} واليتامى: أصلهما أيائم ويتائم فقلبا والأيم: للرجل والمرأة وقد آم وآمت وتأيماً: إذا لم يتزوجا بكرين كانا أو ثيبين. قال:

وإن كنت أفتى منكم أتأيم**فإن تنكحي أنكح وإن تتأيمي

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اللهم إنا نعوذ بك من العيمة والغيمة والأيمة والكزم والقرم) والمراد: أنكحوا من تأيم منكم من الأحرار والحرائر ومن كان فيه صلاح من غلمانكم وجواريكم. وقرئ: (من عبيدكم) وهذا الأمر للندب لما علم من أن النكاح أمر مندوب إليه وقد يكون للوجوب في حق الأولياء عند طلب المرأة ذلك وعند أصحاب الظواهر: النكاح واجب. ومما يدل على كونه مندوباً إليه قوله صلى الله عليه وسلم: (من أحب فطرتي فليستن بسنتي وهي النكاح) وعنه عليه الصلاة والسلام: (من كان له ما يتزوج به فلم يتزوج فليس منا). وعنه عليه الصلاة والسلام: (إذا تزوج أحدكم عج شيطانه: يا ويله عصم ابن آدم مني ثلثي دينه). وعنه عليه الصلاة والسلام: (يا عياض لا تزوجن عجوزاً ولا عاقراً فإني مكاثر) والأحاديث فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم والآثار كثيرة. وربما كان واجب الترك إذا أدى إلى معصية أو مفسدة. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا أتى على أمتي مائة وثمانون سنة فقد حلت لهم العزوبة والعزلة والترهب على رؤوس الجبال). وفي الحديث: (يأتي على الناس زمان لا تنال المعيشة فيه إلا بالمعصية فإذا كان ذلك الزمان حلت العزوبة) . فإن قلت: لم خص الصالحين قلت: ليحصن دينهم ويحفظ عليهم صلاحهم ولأن الصالحين من الأرقاء هم الذين مواليهم يشفقون عليهم وينزلونهم منزلة الأولاد في الأثرة والمودة فكانوا مظنة للتوصية بشأنهم والاهتمام بهم وتقبل الوصية فيهم. وأما المفسدون منهم فحالهم عند مواليهم على عكس ذلك. أو أريد بالصلاح: القيام بحقوق النكاح. إن يكونوا فقراء يغنيهم الله من فضله ينبغي أن تكون شريطة الله غير منسية في هذا الموعد ونظائره وهي مشيئته ولا يشاء الحكيم إلا ما اقتضته الحكمة وما كان مصلحة ونحوه {ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب} [الطلاق: 3]. وقد جاءت الشريطة منصوصة في قوله تعالى {وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم} [التوبة: 28] ومن لم ينس هذه الشريطة لم ينتصب معترضاً بعزب كان غنياً فأفقره النكاح وبفاسق تاب واتقى الله وكان له شيء ففني وأصبح مسكيناً. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: (التمسوا الرزق بالنكاح).

وشكا إليه رجل الحاجة فقال: (عليك بالباءة) وعن عمر رضي الله عنه: عجبت لمن لا يطلب الغنى بالباءة. ولقد كان عندنا رجل رازح الحال ثم رأيته بعد سنين وقد انتعشت حاله وحسنت فسألته فقال: كنت في أول أمري على ما علمت وذلك قبل أن أرزق ولداً فلما رزقت بكر ولدي تراخيت عن الفقر فلما ولد لي الثاني زدت خيراً فلما تتاموا ثلاثة صب الله علي الخير صباً فأصبحت إلى ما ترى {والله واسع} أي غني ذو سعة لا يرزؤه إغناء الخلائق ولكنه {عليم} يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر.

{وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم} {وليستعفف} وليجتهد في العفة وظلف النفس كأن المستعف طالب من نفسه العفاف وحاملها عليه {الذين لا يجدون نكاحاً} أي استطاعة تزوج. ويجوز أن يراد بالنكاح: ما ينكح به من المال {حتى يغنيهم الله} ترجية للمستعفين وتقدمة وعد بالتفضل عليهم بالغنى ليكون انتظار ذلك وتأميله لطفاً لهم في استعفافهم وربطاً على قلوبهم وليظهر بذلك أن فضله أولى بالأعفاء وأدنى من الصلحاء وما أحسن ما رتب هذه الأوامر: حيث أمر أولاً بما يعصم من الفتنة ويبعد من مواقعة المعصية وهو غض البصر ثم بالنكاح الذي

يحصن به الدين ويقع به الاستغناء بالحلال عن الحرام ثم بالحمل على النفس الأمارة بالسوء وعزفها عن الطموح إلى الشهرة عند العجز عن النكاح إلى أن يرزق القدرة عليه {والذين يبتغون} مرفوع على الابتداء.

أو منصوب بفعل مضمر يفسره {فكاتبوهم} كقولك: زيداً فاضربه ودخلت الفاء لتضمن معنى الشرط. والكتاب والمكاتبة كالعتاب والمعاتبة: وهو أن يقول الرجل لمملوكه: كاتبتك على ألف درهم فإن أداها عتق. ومعناه: كتب لك على نفسي أن تعتق مني إذا وفيت بالمال وكتبت لي على نفسك أن تفي بذلك. أو كتبت عليك الوفء بالمال وكتبت علي العتق.

ويجوز عند أبي حنيفة رضي الله عنه حالاً ومؤجلاً ومنجماً وغير منجم لأن الله تعالى لم يذكر التنجيم وقياساً على سائر العقود. وعند الشافعي رضي الله عنه: لا يجوز إلا مؤجلاً منجماً. لا يجوز عنده بنجم واحد لأن العبد لا يملك شيئاً فعقده حالاً منع من حصول الغرض لأنه لا يقدر على أداء البدل عاجلاً ويجوز عقده على مال قليل وكثير وعلى خدمة في مدة معلومة وعلى عمل معلوم مؤقت: مثل حفر بئر في مكان بعينه معلومة الطول والعرض وبناء دار قد أراه آجرها وجصها وما تبنى به. وإن كاتبه على قيمته لم يجز.

فإن أداها عتق وإن كاتبه على وصيف جاز لقلة الجهالة ووجب الوسط وليس له أن يطأ المكاتبة وإذا أدى عتق وكان ولاؤه لمولاه لأنه جاد عليه بالكسب الذي هو في الأصل له وهذا الأمر للندب عند عامة العلماء. وعن الحسن رضي الله عنه: ليس ذلك بعزم إن شاء كاتب وإن شاء لم يكاتب. وعن عمر رضي الله عنه: هي عزمة من عزمات الله.

وعن ابن سيرين مثله وهو مذهب داود {خيراً} قدرة على أداء ما يفاقون عليه. وقيل: أمانة وتكسباً. وعن سلمان رضي الله عنه أن مملوكاً له ابتغى أن يكاتبه فقال: أعندك مال قال: لا قال: أفتأمرني أن آكل غسالة أيدي الناس {وآتوهم} أمر للمسلمين على وجه الوجوب بإعانة المكاتبين وإعطائهم سهمهم الذي جعل الله لهم من بيت المال كقوله تعالى {وفي الرقاب} [البقرة: 177 التوبة: 60] عند أبي حنيفة وأصحابه رضي الله عنهم. فإن قلت: هل يحل لمولاه إذا كان غنياً أن يأخذ ما تصدق به عليه قلت: نعم. وكذلك إذا لم تف الصدقة بجميع البدل وعجز عن أداء الباقي طاب للمولى ما أخذه لأنه لم يأخذه بسبب الصدقة ولكن بسبب عقد المكاتبة كمن اشترى الصدقة من الفقير أو ورثها أو وهبت له ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في حديث بريرة: (هو لها صدقة ولنا هدية) وعند الشافعي رضي الله عنه: هو إيجاب على الموالي أن يحطوا لهم من مال الكتابة. وإن لم يفعلوا أجبروا. وعن علي رضي الله عنه: يحط له الربع. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: يرضخ له من كتابته شيئاً وعن عمر رضي الله عنه أنه كاتب عبداً له يكنى أبا أمية وهو أول عبد كوتب في الإسلام فأتاه بأول نجم فدفعه إليه عمر رضي الله عنه وقال: استعن به على مكاتبتك فقال: لو أخرته إلى آخر نجم قال: أخاف أن لا أدرك ذلك. وهذا عند أبي حنيفة رضي الله عنه على وجه الندب وقال: إنه عقد

معاوضة فلا يجبر على الحطيطة كالبيع. وقيل: معنى {وآتوهم}: أسلفوهم. وقيل: أنفقوا عليهم بعد أن يؤدوا ويعتقوا. وهذا كله مستحب. وروي أنه كان لحويطب بن عبد العزي مملوك يقال له الصبيح: سأل مولاه أن يكاتبه فأبى فنزلت. ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتتبغوا عرض الحياة الدنيا كانت إماء أهل الجاهلية يساعين على مواليهن وكان لعبد الله بن أبي رأس النفاق ست جوار معاذة ومسيكة وأميمة وعمرة وأروى وقتيلة يكرههن على البغاء وضرب عليهن ضرائب فشكت ثنتان منهن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فنزلت ويكنى بالفتي والفتاة: عن العبد والأمة. وفي الحديث: (ليقل أحدكم فتاي وفتاتي ولا يقل عبدي وأمتي) والبغاء: مصدر البغي. فإن قلت: لم

أقحم قوله {إن أردن تحصنا} قلت: لأن الإكراه لا يتأتى إلا مع إرادة التحصن وآمر الطيعة المواتية للبغاء لا يسمى مكرهاً ولا أمره إكراهاً. وكلمة {إن} وإيثارها على (إذا) إيذان بأن المساعيات كن يفعلن ذلك برغبة وطواعية منهن وأن ما وجد من معاذة ومسيكة من حيز الشاذ النادر {غفور رحيم} لهم أو لهن أو لهم ولهن إن تابوا وأصلحوا. وفي قراءة ابن عباس: (لهن غفور رحيم) فإن قلت: لا حاجة إلى تعليق المغفرة بهن لأن المكرهة على الزنى بخلاف المكره عليه في أنها غير آثمة. قلت: لعل الإكراه كان دون ما اعتبرته الشريعة من إكراه بقتل أو بما يخاف منه التلف أو ذهاب العضو من ضرب عنيف أو غيره حتى تسلم من الإثم وربما قصرت عن الحد الذي تعذر فيه فتكون آثمة.

{ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين} {مبينات} هي الآيات التي بينت في هذه السورة وأوضحت في معاني الأحكام والحدود.

ويجوز أن يكون الأصل مبيناً فيها فاتسع في الظرف. وقرئ بالكسر أي: بينت هي الأحكام والحدود جعل الفعل لها على المجاز أو من (بين) بمعنى تبين. ومنه المثل قد بين الصبح لذي عينين. {مثلاً من} أمثال من} قبلكم} أي قصة عجيبة من قصصهم كقصة يوسف ومريم يعني: قصة عائشة رضي الله عنها.} وموعظة} ما وعظ به في الآيات والمثل من نحو قوله {ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله} [النور: 2] [لولا إذ سمعتموه} [النور: 12] {ولولا إذ سمعتموه} [النور: 16] {يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً} [النور: 17].

{الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكوة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه} نظير قوله {الله نور السماوات والأرض} مع قوله {مثل نوره} و {يهدي الله لنوره}: قولك: زيد كرم وجود ثم تقول: ينعش الناس بكرمه وجوده. والمعنى: ذو نور السماوات.

وصاحب نور السماوات ونور السماوات والأرض الحق شبهه بالنور في ظهوره وبيانه كقوله تعالى {الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور} [البقرة: 257]: أي من الباطل إلى الحق. وأضاف النور إلى السماوات والأرض لأحد معنيين: إما للدلالة على سعة إشراقه وفشو إضاءته حتى تضيء له السماوات والأرض. وإما أن يراد أهل السماوات والأرض وأنهم يستضيئون به {مثل نوره} أي صفة نوره العجيبة الشأن في الإضاءة {كمشكاة} كصفة مشكاة وهي الكوة في الجدار غير النافذة} فيها مصباح {سراج ضخم ثاقب} في زجاجة} أراد قنديلاً من زجاج شامي أزهر. شبهه في زهرته بأحد الدراري من الكواكب وهي المشاهير كالمشتري والزهرة والمريخ وسهيل ونحوها {يوقد} هذا المصباح {من شجرة} أي ابتدأ ثقوبه من شجرة الزيتون يعني: زويت ذبالته بزيتها {مباركة} كثيرة المنافع. أو: لأنها تنبت في الأرض التي بارك فيها للعالمين. وقيل: بارك فيها سبعون نبياً منهم إبراهيم عليه السلام.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: (عليكم بهذه الشجرة زيت الزيتون فتداووا به فإنه مصحة من الباسور) {لا شرقية ولا غربية} أي منبتها الشام. وأجود الزيتون: زيتون الشام. وقيل: لا في مضحى ولا في مقنأة.

ولكن الشمس والظل يتعاقبان عليها وذلك أجود لحملها وأصفى لدهنها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا خير في شجرة في مقنأة ولا نبات في مقنأة ولا خير فيهما في مضحى). وقيل: ليست مما تطلع عليه الشمس في وقت شروقها أو غروبها فقط بل تصيبها بالغداة والعشي جميعاً فهي شرقية وغربية ثم وصف الزيت بالصفاء والوبيص وأنه لتلألئه {يكاد} يضيء من غير نار {نور على نور} أي هذا الذي شبهت به الحق نور متضاعف قد تناصر فيه المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت حتى لم يبق مما يقوى النور

ويزيده إشراقاً ويمده بإضاءة: بقية وذلك أن المصباح إذا كان في مكان متضايق كالمشكاة كان أضوأ له وأجمع لنوره بخلاف المكان الواسع فإن الضوء ينبث فيه وينتشر والقنديل أعون شيء على زيادة الإنارة وكذلك الزيت وصفاؤه {يهدى الله} لهذ النور الثاقب {من يشاء} من عباده أي: يوفق لإصابة الحق من نظر وتدبر بعين عقله والإنصاف من نفسه ولم يذهب عن الجادة الموصلة إليه يميناً وشمالاً. ومن لم يتدبر فهو كالأعمى الذي سواء عليه جنح الليل الدامس وضحوة النهار الشامس. وعن علي رضي الله عنه: (الله نور السماوات والأرض) أي نشر فيها الحق وبثه فأضاءت بنوره أو نور قلوب أهلها به وعن أبي بن كعب رضي الله عنه: مثل نور من آمن به. وقرئ: (زجاجة الزجاجة) بالفتح والكسر: ودري: منسوب إلى الدر أي: أبيض متلألئ. ودرئ: بوزن سكيت: يدرأ الظلام بضوئه. ودرئ كمريق. ودري كالسكينة عن أبي زيد. وتوقد: بمعنى تتوقد. والفعل للزجاجة. ويوقد وتوقد بالتخفيف. ويوقد بالتشديد. ويوقد بحذف التاء وفتح الياء لا جتماع حرفين زائدين وهو غريب. ويمسه بالياء لأن التأنيث ليس بحقيقي والضمير فاصل.

{في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والأصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتآء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب} {في بيوت} يتعلق بما قبله. أي: كمشكاة في بعض بيوت الله وهي المساجد كأنه قيل: مثل نوره كما يرى في المسجد نور المشكاة التي من صفتها كيت وكيت. أو بما بعده وهو يسبح أي: يسبح له رجال في بيوت. وفيها تكرير كقولك: زيد في الدار جالس فيها أو بمحذوف كقوله {في تسع آيات} [النمل: 27] أي سبحوا في بيوت. والمراد بالإذن: الأمر.

ورفعها: بناؤها كقوله {بناها رفع سمكها فسواها} [النازعات: 27 - 28] {وإذ يرفع إبراهيم القواعد} [البقرة: 127] وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هي المساجد أمر الله أن تبنى أو تعظيمها والرفع من قدرها. وعن الحسن رضي الله عنه: ما أمر الله أن ترفع بالبناء ولكن بالتعظيم} ويذكر فيها اسمه} أوفق له وهو عام في كل ذكر. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: وأن يتلى فيها كتابه. وقرئ: (يسبح) على البناء للمفعول ويسند إلى أحد الظروف الثلاثة أعني {له فيها بالغدو} و{رجال} مرفوع بما دل عليه {يسبح} وهو يسبح له وتسبح بالتاء وكسر الباء. وعن أبي جعفر رضي الله عنه بالتاء وفتح الباء. ووجهها أن يسند إلى أوقات الغدو والآصال على زيادة الباء وتجعل الأوقات مسبحة. والمراد ربها كصيد عليه يومان. والمراد وحشهما. والآصال: جمع أصل وهو العشي. والمعنى: بأوقات الغدو أي: بالغدوات. وقرئ: (والإيصال) وهو الدخول في الأصل. يقال: آصل كأظهر وأعتم. التجارة: صناعة التاجر وهو الذي يبيع ويشتري للربح فإما أن يريد: لا يشغلهم نوع من هذه الصناعة ثم خص البيع لأنه في الإلهاء أدخل. من قبل أن التاجر إذا اتجهت له بيعة رابحة وهي طلبته الكلية من صناعته: ألهته ما لا يلهيه شراء شيء يتوقع فيه الربح في الوقت الثاني لأن هذا يقين وذاك مظنون وإما أن يسمى الشراء تجارة إطلاقاً لاسم الجنس على النوع كما تقول: رزق فلان تجارة رابحة إذا اتجه له بيع صالح أو شراء. وقيل: التجارة لأهل الجلب اتجر فلان في كذا: إذا جلبه. التاء في إقامة عوض من العين الساقطة للإعلال والأصل: (إقوام) فلما أضيفت أقيمت الأضافة مقام حرف التعويض فأسقطت ونحوه: وأخلفوك عد الأمر الذي وعدوا وتقلب القلوب والأبصار: إما أن تتقلب وتتغير في أنفسها: وهو أن تضطرب من الهول والفزع وتشخص كقوله {وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر} [الأحزاب: 10]. وإما أن تتقلب أحوالها وتتغير فتفقه القلوب بعد أن كانت مطبوعاً عليها لا تفقه وتبصر الأبصار بعد أن كانت عمياً لا تبصر {أحسن ما عملوا} أي أحسن جزاء أعمالهم كقوله {للذين أحسنوا الحسنى} [يونس: 26] والمعنى يسبحون ويخافون ليجزيهم ثوابهم مضاعفاً ويزيدهم على الثواب تفضلاً. وكذلك معنى قوله {الحسنى وزيادة} [يونس: 26] المثوبة وزيادة عليها من التفضل.

وعطاء الله تعالى: إما تفضل وإما ثواب وإما عوض} والله يرزق} ما يتفضل به} بغير حساب} فأما الثواب فله حساب لكونه على حسب الاستحقاق.

{والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمأن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب} السراب ك ما يرى في الفلاة من ضوء الشمس وقت الظهيرة يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجري. والقيعة: بمعنى القاع أو جمع قاع وهو المنبسط المستوي من الأرض كجيرة في جار. وقرئ: (بقيعات): بتاء ممطوطة كديمات وقيمات في ديمة وقيمة. وقد جعل بعضهم بقيعاء بتاء مدورة كرجل عزهاة شبه مايعمله من لا يعتقد الإيمان ولا يتبع الحق من الأعمال الصالحة التي يحسبها تنفعه عند الله وتنجيه من عذابه ثم تخيب في العاقبة أمله ويلقى خلاف ما قدر بسراب يراه الكافر بالساهرة وقد غلبه المطش يوم القيامة فيحسبه ماء فيأتيه فلا يجد ما رجاه ويجد زبانية الله عنده يأخذونه فيعتلونه إلى جهنم فيسقونه الحميم والغساق وهم الذين قال الله فيهم {عاملة ناصبة} [الغاشية: 3] {وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً} [الكهف: 104] {وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً} [الفرقان: 23] وقيل: نزلت في عتبة بن ربيعة بن أمية وقد كان تعبد ولبس المسموح والتمس الدين في الجاهلية ثم كفر في الإسلام.

{أو كظلمات في بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور} اللجي: العميق الكثير الماء. منسوب إلى اللج وهو معظم ماء البحر. وفي {أخرج} ضمير الواقع فيه {لم يكد يراها} مبالغة في لم يرها أي: لم يقرب أن يراها فضلاً عن أن يراها. ومثله قول ذي الرمة:

رسيس الهوى من حب مية يبرح ** إذا غير النأي المحبين لم يكد

أي لم يقرب من البراح فما باله يبرح شبه أعمالهم أولاً في فوات نفعها وحضور ضررها بسراب لم يجده من خدعه من بعيد شيئاً ولم يكفه خيبة وكمداً أن لم يجد شيئاً كغيره من السراب حتى وجد عنده الزبانية تعتله إلى النار ولا يقتل ظمأه بالماء. وشبهها ثانياً في ظلمتها وسوادها لكونها باطلة وفي خلوها عن نور الحق بظلمات متراكمة من لج البحر والأمواج والسحاب ثم قال: ومن لم يوله نور توفيقه وعصمته ولطفه فهو في ظلمة الباطل لا نور له. وهذا الكلام مجراه مجرى الكنايات لأن الألطاف إنما تردف الإيمان والعمل الصالح. أو كونهما مترقبين ألا ترى إلى قوله {والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا} [العنكبوت: 69] وقوله {ويضل الله الظالمين} [إبراهيم: 7] وقرئ: (سحاب ظلمات) على الإضافة. وسحاب ظلمات برفع} سحاب} وتنوينه وجر} ظلمات} بدلاً من} ظلمات} الأولى.

{ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون ولله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير} {صافات} يصففن أجنحتهن في الهواء. والضمير في} علم} لكل أو لله. وكذلك في} صلاته

وتسبيحه} والصلاة: الدعاء. ولا يبعد أن يلهم الله الطير دعاءه وتسبيحه كما ألهمها سائر العلوم الدقية التي لا يكاد العقلاء يهتدون إليها.

{ألم تر أن الله يزجى سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار يقلب الله اليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار}

{يزجى} يسوق. ومنه: البضاعة المزجاة: التي يزجيها كل أحد لا يرضاها. والسحاب يكون واحداً كالعماء وجمعاً كالرباب. ومعنى تأليف الواحد: أنه يكون قزعاً فيضم بعضه إلى بعض.

وجاز بينه وهو واحد لأن المعنى بين أجزائه كما قيل في قوله: ... بين الدخول فحومل والركام: المتراكم بعضه فوق بعض. والودق: المطر} من خلاله} من فتوقه ومخارجه: جمع خلل كجبال في جبل. وقرئ: (من خلله) {وينزل} بالتشديد ويكاد سنا: على الإدغام. وبرقه: جمع برقة وهي المقدار من البرق كالغرفة واللقمة. وبرقه: بضمتين للإتباع كما قيل: في جمع فعلة: فعلات كظلمات. و (سناء برقه) على المد المقصور بمعنى الضوء والممدود: بمعنى العلو والارتفاع من قولك: سني مرتفع. و} يذهب بالأبصر} على زيادة الباء كقوله {ولا تلقوا بأيديكم} [البقرة: 195] عن أبي جعفر المدني: وهذا من تعديد الدلائل على ربوبيته وظهور أمره حيث ذكر تسبيح من في السماوات والأرض وكل ما يطير بين السماء والأرض ودعاءهم له وابتهالهم إليه وأنه سخر السحاب التسخير الذي وصفه وما يحدث فيه من أفعاله حتى ينزل المطر منه وأنه يقسم رحمته بين خلقه ويقبضها ويبسطها على ما تقتضيه حكمته ويريهم البرق في السحاب الذي يكاد يخطف أبصارهم ليعتبروا ويحذروا. ويعاقب بين الليل والنهار ويخالف بينهما بالطول والقصر. وما هذه إلا براهين في غاية الوضوح على وجوده وثباته. ودلائل منادية على صفاته. لمن نظر وفكر وتبصر وتدبر. فإن قلت: متى رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسبيح من في السماوات ودعاءهم. وتسبيح الطير ودعاءه وتنزيل المطر من جبال برد في السماء حتى قيل له: ألم تر قلت: علمه من جهة إخبار الله إياه بذلك على طريق الوحي. فإن قلت: ما الفرق بين من الأولى والثانية والثالثة في قوله {من السماء من جبال} {من برد} قلت: الأولى لابتداء الغاية والثانية للتبعيض. والثالثة للبيان. أو الأوليان للابتداء:

والآخرة للتبعيض. ومعناه: أنه ينزل البرد من السماء من جبال فيها وعلى الأول مفعول (ينزل): (من جبال). فإن قلت: ما معنى {من جبال فيها من برد} قلت: فيه معنيان. أحدهما: أن يخلق الله في السماء جبال برد كما خلق في الأرض جبال حجر. والثاني: أن يريد الكثرة بذكر الجبال كما يقال: فلان يملك جبالاً من ذهب.

{والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير} وقرئ: (خالق كل دابة). ولما كان اسم الدابة موقعاً على المميز وغير المميز غلب المميز فأعطى ما وراءه حكمه كأن الدواب كلهم مميزون فمن ثمة قيل: فمنهم وقيل: من يمشي في الماشي على بطن والماشي على أربع قوائم. فإن قلت: لم نكر الماء في قوله {من ماء} قلت: لأن المعنى أنه خلق كل دابة من نوع من الماء مختص بتلك الدابة أو خلقها من ماء مخصوص وهو النطفة ثم خالف بين المخلوقات من النطفة فمنها هوام ومنها بهائم ومنها ناس. ونحوه قوله تعالى {يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل} [الرعد: 4]. فإن قلت: فما باله معرفاً في قوله {وجعلنا من الماء كل شيء حي} [الأنبياء: 30] قلت: قصد ثمة معنى آخر: وهو أن أجناس الحيوان كلها مخلوقة من هذا الجنس الذي هو جنس الماء وذلك أنه هو الأصل وإن تخللت بينه وبينها وسائط قالوا: خلق الملائكة من ريح خلقها من الماء والجن من نار خلقها منه وآدم من تراب خلقه منه. فإنقلت: لم جاءت الأجناس الثلاثة على هذا الترتيب قلت: قدم ما هو أعرق في القدرة وهو الماشي بغير آلة مشي من أرجل أو قوائم ثم الماشي على رجلين ثم الماشي على أربع: فإن قلت: لم سمي الزحف على البطن مشياً قلت على سبيل الاستعارة كما قالوا في الأمر المستمر: قد مشى هذا الأمر ويقال: فلان لا يتمشى له أمر.

ونحوه استعارة الشقة مكان الجحفلة والمشفر مكان الشفة. ونحو ذلك. أو على طريق المشاكلة لذكر الزاحف مع الماشين.

{لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين} {وما أولئك بالمؤمنين} إشارة إلى القائلين آمنا وأطعنا. أو إلى الفريق المتولي فمعناه على الأول: إعلام من الله بأن جميعهم متنف عنهم الإيمان لا الفريق المتولي وحده. وعلى الثاني: إعلام بأن

الفريق المتولي لم يكن ما سبق لهم من الإيمان إيماناً إنما كان ادعاء باللسان من غير مواطأة القلب لأنه لو كان صادراً عن صحة معتقد وطمأنينة نفس لم يتعقبه التولي والإعراض. والتعريف في قوله {بالمؤمنين} دلالة على أنهم ليسوا بالمؤمنين الذين عرفت: وهم الثابتون المستقيمون على الإيمان والموصوفون في قوله تعالى {إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا} [الحجرات: 5].

{وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين} معنى {إلى الله ورسوله} إلى رسول الله كقولك: أعجبني زيد وكرمه تريد: كرم زيد. ومنه قوله: غلسته قبل القطا وفرطه أراد: قبل فرط القطا. روي: أنها نزلت في بشر المنافق وخصمه اليهودي حين اختصما في أرض فجعل اليهودي يجره إلى رسول الله والمنافق يجره إلى كعب بن الأشرف ويقول: إن محمداً يحيف علينا. وروي: أن المغيرة بن وائل كان بينه وبين علي بن أبي طالب رضي الله عنه خصومة في ماء وأرض فقال المغيرة: أما محمد فلست آتيه ولا أحاكم إليه فإنه يبغضني وأنا أخاف أن يحيف علي {إليه} صلة يأتوا لأن (أتى) و (جاء) قد جاآ معديين بإلى أو يتصل بمذعنين لأنه في معنى مسرعين في الطاعة. وهذا أحسن لتقدم صلته ودلالته على الاختصاص. والمعنى: أنهم لمعرفتهم أنه ليس معك إلا الحق المر والعدل البحت. يزورون عن المحاكمة إليك إذا ركبهم الحق لئلا تنتزعه من أحداقهم بقضائك عليهم لخصومهم وإن ثبت لهم حق على خصم أسرعوا إليك ولم يرضوا إلا} أفيقلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون} ثم قسم الأمر في صدودهم عن حكومته إذا كان الحق عليهم بين أن يكونوا مرضى القلوب منافقين أو مرتابين في أمر نبوته أو خائفين الحيف في قضائه. ثم أبطل خوفهم حيفه بقوله {بل أولئك هم الظالمون} أي لا يخافون أن يحيف عليهم لمعرفتهم بحاله وإنما هم ظالمون يريدون أن يظلموا من له الحق عليهم ويتم لهم جحوده وذلك شيء لا يستطيعونه في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن ثمة يأبون المحاكمة إليه.

{إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون} وعن الحسن: (قول المؤمنين). بالرفع والنصب أقوى لأن أولى الاسمين بكونه اسماً لكان. أو غلهما في التعريف وأن يقولوا: أوغل لأنه لا سبيل عليه للتنكير بخلاف قول المؤمنين وكان هذا من قبيل كان في قوله {ما كان لله أن يتخذ من ولد} [مريم: 35] {ما يكون لنا أن نتكلم بهذا} [النور: 16] وقرئ: (ليحكم) على البناء للمفعول. فإن قلت: إلام أسند يحكم ولا بد له من فاعل. قلت: هو مسند إلى مصدره لأن معناه: ليفعل الحكم بينهم ومثله: جمع بينهما وألف بينهما. ومثله} لقد تقطع بينكم} [الأنعام: 94] فيمن قرأ (بينكم) منصوباً: أي وقع التقطع بينكم.

{ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون} قرئ: (ويتقه) بكسر القاف والهاء مع الوصل وبغير وصل. وبسكون الهاء وبسكون القاف وكسر الهاء: شبه تقه بكتف فخفف كقوله: قالت سليمى اشترلنا سويقا ولقد جمع الله في هذه الآية أسباب الفوز:

وعن ابن عباس في تفسيرها {ومن يطع الله} في فرائضه {ورسوله} في سننه {ويخش الله} على ما مضى من ذنوبه {ويتقه} فيما يستقبل. وعن بعض الملوك أنه سأل عن آية كافية فتليت له هذه الآية.

{وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن قل لا تقسموا طاعة معروفة إن الله خبير بما تعملون} جهد يمينه: مستعار من جهد نفسه: إذا بلغ أقصى وسعها وذلك إذا بالغ في اليمين وبلغ غاية شدتها ووكادتها. وعن ابن عباس رضي الله عنه: من قال بالله فقد جهد يمينه. وأصل: أقسم جهد اليمين: أقسم يجهد اليمين جهداً فحذف الفعل وقدم المصدر فوضع موضعه مضافاً إلى المفعول كقوله {فضرب الرقاب} [محمد: 4] وحكم هذا المنصوب حكم الحال كأنه قال: جاهدين أيمانهم. و{طاعة معروفة} خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ محذوف الخبر أي: أمرهم والذي يطلب منكم طاعة معروفة معلومة لايشك فيها ولا يرتاب كطاعة الخلص من المؤمنين الذين طابق باطن أمرهم ظاهره لا أيمان تقسمون بها بأفواهكم وقلوبكم على خلافها أو طاعتكم طاعة معروفة بأنها القول دون الفعل. أو طاعة معروفة أمثل وأولى بكم من هذه

الإيمان الكاذبة. وقرأ اليزيدي: (طاعة معروفة) بالنصب على معنى: أطيعوا طاعة} إن الله خبير} يعلم ما في ضمائركم ولا يخفى عليه شيء من سرائركم وأنه فاضحكم لا محالة ومجازيكم عل نفاقكم.

{قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوا تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين} صرف الكلام عن الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات وهو أبلغ في تبكيتهم. يريد: فإن تتولوا فما ضررتموه وإنما ضررتم أنفسكم فإن الرسول ليس عليه إلا ما حمله الله وكلفه من أداء الرسالة فإذا أدى فقد خرج عن عهدة تكليفه وأما أنتم فعليكم ما كلفتم من التلقي بالقبول والإذعان فإن لم تفعلوا وتوليتم فقد عرضتم نفوسكم لسخط الله وعذابه وإن أطعتموه فقد أحرزتم نصيبكم من الخروج عن الضلالة إلى الهدى فالنفع والضرر عائدان إليكم وما الرسول إلا ناصح وهاد وما عليه إلا إن يبلغ ما له نفع في قبولكم ولا عليه ضرر في توليكم والبلاغ {وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون} الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن معه. ومنكم: للبيان كالتي في آخر سورة الفتح: وعدهم الله أن ينصر الإسلام على الكفر ويورثهم الأرض ويجعلهم فيها خلفاء كما فعل ببني إسرائيل حين أورثهم مصر والشام بعد إهلاك الجبابرة وأن يمكن لهم الدين المرتضى وهو دين الإسلام. وتمكينه: تثبيته وتوطيده وأن يؤمن سربهم ويزيل عنهم الخوف الذي كانوا عليه وذلك: أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه مكثوا بمكة عشر سنين خائفين ولما هاجروا كانوا بالمدينة يصبحون في السلاح ويمسون فيه حتى قال رجل: ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح فقال صلى الله عليه وسلم: (لا تغبرون) إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبياً ليس معه حديدة. فأنجز الله وعده وأظهرهم على جزيرة العرب وافتتحوا بعد بلاد المشرق والمغرب ومزقوا ملك الأكاسرة وملكوا خزائنهم واستولوا على الدنيا ثم خرج الذين على خلاف سيرتهم فكفروا بتلك الأنعم وفسقوا وذلك قوله صلى الله عليه وسلم:

(الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم يملك الله من يشاء فتصير ملكاً ثم تصير بزيزى قطع سبيل وسفك دماء وأخذ أموال بغير حقها) وقرئ: (كما استخلف) على البناء للمفعول (وليبدلنهم) بالتشديد. فإن قلت: أين القسم الملتقى باللام والنون في} ليستخلفنهم} قلت: هو محذوف تقديره: وعدهم الله وأقسم ليستخلفنهم أو نزل وعد الله في تحققه منزلة القسم فتلقى بما يتلقى به القسم كأنه قيل: أقسم الله ليستخلفنهم. فإن قلت: ما

محل {يعبدونني} قلت: إن جعلته استئنافاً لم يكن له محل كأن قائلاً قال: ما لهم يستخلفون ويؤمنون فقال: يعبدونني.

وإن جعلته حالاً عن وعدهم أي وعدهم الله ذلك في حال عبادتهم وإخلاصهم فمحله النصب {ومن كفر} يريد كفران النعمة كقوله {فكفرت بأنعم الله} [النحل: 112]. {فأولئك هم الفاسقون} أي: هم الكاملون في فسقهم حيث كفروا تلك النعمة العظيمة وجسروا على غمطها. فإن قلت: هل في هذه الآية دليل على أمر الخلفاء الراشدين قلت: أوضح دليل وأبينه لأن المستخلفين الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم هم.

{وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون} {وأقيموا الصلاة} معطوف على {أطيعوا الله وأطيعوا الرسول} وليس ببعيد أن يقع بين المعطوف والمعطوف عليه فاصل وإن طال: لأن حق المعطوف أن يكون غير المعطوف عليه. وكررت {لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض ومأواهم النار ولبئس المصير} وقرئ: (لا يحسبن) بالياء. وفيه أوجه: أن يكون {معجزين في الأرض} هما المفعولان. والمعنى: لا يحسبن الذين كفروا أحداً يعجز الله في الأرض حتى يطمعوا هم في مثل ذلك. وهذا معنى قوي جيد. وأن يكون فيه ضمير الرسول لتقدم ذكره في قوله {وأطيعوا الرسول} وأن يكون الأصل: لا يحسبنهم الذين كفروا معجزين ثم حذف الضمير الذي هو المفعول الأول وكان الذي سوغ ذلك أن الفاعل والمفعولين لم كانت لشيء واحد اقتنع بذكر الثالث وعطف قوله {ومأواهم النار} على لا يحسبن الذين كفروا معجزين كأنه قيل: الذين كفروا لا يفوتون الله ومأواهم النار. والمراد بهم: المقسمون جهد أيمانهم.

{يا أيها الذين آمنوا ليستئذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الأيات والله عليم حكيم} أمر بأن يستأذن العبيد. وقيل: العبيد والإماء والأطفال الذين لم يحتلموا من الأحرار {ثلاث مرات} في اليوم والليلة: قبل صلاة الفجر لأنه وقت القيام من المضاجع وطرح ما ينام فيه من الثياب ولبس ثياب اليقظة.
وبالظهيرة: لأنها وقت وضع الثياب للقائلة. وبعد صلاة العشاء لأنه وقت التجرد من ثياب اليقظة والالتحاف بثياب النوم.

وسمى كل واحدة من هذه الأحوال عورة لأن الناس يختل تسترهم وتحفظهم فيها.
والعورة: الخلل. ومنها: أعور الفارس وأعور المكان والأعور: المختل العين. ثم عذرهم في ترك الاستئذان وراء هذه المرات وبين وجه العذر في قوله {طوافون عليكم} يعني أن بكم وبهم حاجة إلى المخالطة والمداخلة: يطوفون عليكم بالخدمة ويطوفون عليهم للاستخدام فلو جزم الأمر بالاستئذان في كل وقت لأدى إلى الحرج. وروي: أن مدلج بن عمرو: وكان غلاماً أنصارياً أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم وقت الظهر إلى عمر ليدعوه فدخل عليه وهو نائم وقد انكشف عنه ثوبه فقال عمر: لوددت أن الله عز وجل نهى آباءنا وأبناءنا وخدمنا أن لا يدخلوا علينا هذه الساعات إلا بإذن ثم انطلق معه إلى النبي صلى الله عليه وسلم. فوجده وقد أنزلت عليه هذه الآية.

وهي إحدى الآيات المنزلة بسبب عمر رضي الله تعالى عنه.

وقيل: نزلت في أسماء بنت أبي مرثد قالت: إنا لندخل على الرجل والمرأة ولعلهما يكونان في لحاف واحد. وقيل: دخل عليها غلام لها كبير في وقت كرهت دخوله فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا في حال نكرهها.

وعن أبي عمرو {الحلم} بالسكون وقرئ {ثلاث عورات} بالنصب بدلاً عن ثلاث مرات أي: أوقات ثلاث عورات. وعن الأعمش: عورات على لغة هذيل. فإن قلت: ما محل ليس عليكم قلت: إذا رفعت ثلاث عورات كان ذلك في محل الرفع على الوصف. والمعنى: هن ثلاث عورات مخصوصة بالاستئذان وإذا نصبت: لم يكن له محل وكان كلاماً مقرراً للأمر بالاسئذان في تلك الأحوال خاصة: فإن قلت: بم ارتفع} بعضكم} قلت: بالابتداء وخبره} على بعض} على معنى: طائف على بعض وحذف لأن طوفان يدل عليه. ويجوز أن يرتفع بيطوف

مضمراً لتلك الدلالة.

{وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستئذنوا كما استئذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم} {الأطفال منكم} أي من الأحرار دون المماليك} الذين من قبلهم} يريد: الذين بلغوا الحلم من قبلهم وهم الرجال. أو الذين ذكروا من قبلهم في قوله {يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا} [الآية النور: 27]: والمعنى أن الأطفال مأذون لهم في الدخول بغير إذن إلا في العورات الثلاث فإذا اعتاد الأطفال ذلك ثم خرجوا عن حد الطفولة بأن يحتلموا أو يبلغوا السن التي يحكم فيها عليهم بالبلوغ وجب أن يفطموا عن تلك العادة ويحملوا على أن يستأذنوا في جميع الأوقات كما الرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدخول عليكم إلا بإذن: وهذا مما الناس منه في غفلة وهو عندهم كالشريعة المنسوخة وعن ابن عباس: آية لا يؤمن بها أكثر الناس: آية الإذن وإني لآمر جارتي أن تستأذن علي. وسأله. عطاء: أأستأذن على أختي قال: نعم وإن كانت في حجرك تمونها وتلا هذه الآية. وعنه: ثلاث آيات جحدهن الناس: الإذن كله. وقوله {إن أكرمكم عند الله أتقاكم} [الحجرات: 13] فقال ناس: أعظمكم بيتاً. وقوله {وإذا حضر القسمة} [النساء: 8]. وعن ابن مسعود: عليكم أن تستأذنوا على آبائكم وأمهاتكم وأخواتكم.

وعن الشعبي: ليست منسوخة فقيل له: إن الناس لا يعلمون بها فقال: الله المستعان. وعن سعيد بن جبير يقول: هي منسوخة لا والله ما هي منسوخة ولكن الناس تهاونوا بها. فإن قلت: ما السن التي يحكم فيها بالبلوغ قلت: قال أبو حنيفة ثماني عشرة سنة في الغلام وسبع عشرة في الجارية. وعامة العلماء على خمس عشرة فيهما. وعن علي رضي الله عنه أنه كان يعتبر القامة ويقدره بخمسة أشبار وبه أخذ الفرزدق في قوله:

فسما فأدرك خمسة الأشـبـار**ما زال معقدت يداه إزاره

واعتبر غيره الإنبات. وعن عثمان رضي الله عنه أنه سئل عن غلام فقال: هل اخضر إزاره.

{والقواعد من النساء التي لا يرجون نكاحاً فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم} القاعد: التي قعدت عن الحيض والولد لكبرها{لا يرجون نكاحاً} لا يطمعن فيه: والمراد بالثياب

الظاهرة كالملحفة والجلباب الذي فوق الخمار {غير متبرجات بزينة} غير مظهرات زينة يريد: الزينة الخفية التي أرادها في قوله {ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن} [النور: 31] أو غير قاصدات بالوضع التبرج ولكن التخفف إذا احتجن إليه. والاستعفاف من الوضع خير لهن لما ذكر الجائز عقبه بالمستحب بعثاً منه عن اختيار أفضل الأعمال وأحسنها كقوله {وأن تعفوا أقرب للتقوى} [البقرة: 237] {وأن تصدقوا خير لكم} [البقرة: 280]. فإن قلت: ما حقيقة التبرج قلت: تكلف إظهار ما يجب إخفاءه من قولهم: سفينة بارج لا غطاء عليها. والبرج: سعة العين يرى بياضها محيطاً بسوادها كله لا يغيب منه شيء إلا أنه اختص بأن

تتكشف المرأة للرجال بإبداء زينتها وإظهار محاسنها. وبدأ وبرز بمعنى: ظهر من أخوات: تبرج وتبلج كذلك.

{ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الأيلت لعلكم تعقلون} كان المؤمنون يذهبون بالضعفاء وذوي العاهات إلى بيوت أزواجهم وأولادهم وإلى بيوت قراباتهم وأصدقائهم فيطعمونهم منها فخالج قلوب المطعمين والمطعمين ريبة في ذلك وخافوا أن يلحقهم فيه حرج وكرهوا أن يكون أكلاً بغير حق لقوله تعالى {ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل} [البقرة: 188] فقيل لهم: ليس على الضعفاء ولا على أنفسكم يعني: عليكم وعلى من في مثل حالكم من المؤمنين حرج في ذلك. وعن عكرمة: كنت الأنصار في أنفسها قزازة. فكانت لا تأكل من هذه البيوت إذا استغنوا وقيل: كان هؤلاء يتوقون مجالسة الناس ومؤاكلتهم لما عسى يؤدي إلى الكراهة من قبلهم ولأن الأعمى ربما سبقت يده إلى ما سبقت عين أكليه وهو لا يشعر والأعرج يتفسح في مجلسه ويأخذ أكثر من موضعه فيضيق على جليسه والمريض لا يخلو من رائحة تؤذي أو جرح يبض أو أنف يذن ونحو ذلك. وقيل: كانوا يخرجون إلى الغزو ويخلفون الضعفاء في بيوتهم ويدفعون إليهم المفاتيح ويأذنون لهم أن يأكلوا من بيوتهم فكانوا يتحرجون.

حكى عن الحرث بن عمرو أنه خرج غتزياً وخلف مالك بن زيد في بيته وماله فلما رجع رآه مجهوداً فقال: ما أصابك قال: لم يكن عندي شيء ولم يحل لي أن آكل من مالك فقيل: ليس على هؤلاء الضعفاء حرج فيما تحرجوا عنه ولا عليكم أن تأكلوا من هذه البيوت وهذا كلام صحيح وكذلك إذا فسر بأن هؤلاء ليس عليهم حرج في القعود عن الغزو ولا عليكم أن تأكلوا من البيوت المذكورة لالتقاء الطائفتين في أن كل واحدة منهما منفي عنها الحرج. ومثال هذا أن يستفتيك مسافر عن الإفطار في رمضان. وحاج مفرد عن تقديم الحلق على النحر فقلت: ليس على المسافر حرج أن يفطر ولا عليك يا حاج أن تقدم الحلق على النحر فإن قلت: هلا ذكر الأولاد قلت: دخل ذكرهم تحت قوله {من بيوتكم} لأن ولد الرجل بعضه وحكمه حكم نفسه. وفي الحديث: (إن أطيب ما يأكل المرء من كسبه) وإن ولده من كسبه ومعنى {من بيوتكم} من البيوت التي فيها أزواجكم وعيالكم ولأن الولد أقرب ممن عدد من القرابات فإذا كان سبب الرخصة هو القرابة: كان الذي هو أقرب منهم أولى. فإن قلت: ما معنى {أو ما ملكتم مفاتحه} قلت: أموال الرجل إذا كان له عليها قيم ووكيل يحفظها له: أن يأكل من ثمر بستانه ويشرب من لبن ماشيته. وملك المفاتح: كونها في يده وحفظه. وقيل: بيوت المماليك لأن مال العبد لمولاه.

وقرئ: (مفتاحه) فإن قلت: فما معنى {أو صديقكم} قلت: معناه: أو بيوت أصدقائكم.

والصديق يكون واحداً وجمعاً وكذلك الخليط والقطين والعدو يحكى عن الحسن أنه دخل داره وإذا حلقة من أصدقائه وقد استلو سلالاً من تحت سريره فيها الخبيص وأطايب الأطعمة وهم مكبون عليها يأكلون فتهللت أسارير وجه سروراً وضحك وقال: هكذا وجدناهم هكذا وجدناهم. يريد كبراء الصحابة ومن لقيهم من البدريين رضي الله عنهم. وكان الرجل منهم يدخل دار صديقه وهو غائب فيسأل جاريته كيسه فيأخذ منه ما شاء فإذا حضر مولاها فأخبرته أعتقها سروراً بذلك. وعن جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما: من عظم حرمة الصديق أن جعله الله من الأنس والثقة والإنبساط وطرح الحشمة بمنزلة النفس والأب والأخ والابن وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الصديق أكبر

من الوالدين إن الجهنميين لما استغاثوا لم يستغيثوا بالآباء والأمهات فقالوا: فما لنا من شافعين ولا صديق حميم. وقالوا: إذا دل ظاهر الحال على رضا المالك قام ذلك مقام الإذن الصريح وربما سمج الاستئذان وثقل كمن قدم إليه طعام فاستأذن صاحبه في الأكل منه {جميعاً أو أشتاتاً} أي مجتمعين أو متفرقين. نزلت في

بني ليث بن عمرو من كنانة كانوا يتحرجون أن يأكل الرجل وحده فربما قعد منتظراً نهاره إلى الليل فإذ لم يجد من يواكله أكل ضرورة. وقيل: في قوم من الأنصار: إذا نزل بهم ضيف لا يأكلون إلا مع ضيفهم وقيل: تحرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الناس في الأكل وزيادة بعضهم على بعض {فإذا دخلتم بيوتاً} من هذه البيوت لتأكلوا فبدئوا بالسلام على أهلها الذين هم منكم ديناً وقرابة {تحية من عند الله} أي ثابتة بأمره مشروعة من لدنه. أو لأن التسليم والتحية طلب سلامة وحياة للمسلم عليه والمحيا من عند الله مباركة طيبة ووصفها بالبركة والطيب: لأنها دعوة مؤمن لمؤمن يرجى بها من الله زيادة الخير وطيب الرزق. وعن أنس رضي الله عنه قال: خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين - وروي: تسع سنين - فما قال لي لشيء فعلته لم فعلته ولا قال لي لشيء كسرته لم كسرته وكنت وافقاً على رأسه أصب الماء على يديه فرفع رأسه فقال: (ألا أعلمك ثلاث خصال تنتفع بها قلت: بلى بأبي وأمي يا رسول الله.

قال: متى لقيت من أمتي أحداً فسلم عليه يطل عمرك وإذا دخلت بيتك فسلم عليهم يكثر خير بيتك وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الآبرار والأوابين). وقالوا: إن لم يكن في البيت أحد فليقل: السلام علينا من ربنا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين السلام على أهل البيت ورحمة الله. وعن ابن عباس: إذا دخلت المسجد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين} إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستئذنوه إن الذين يستئذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استئذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم} أراد عز وجل أن يريهم عظم الجنابة في ذهاب الذاهب عن مجلس رسول الله بغير إذنه} وإذا كانوا معه على أمر جامع} فجعل ترك ذهابهم حتى يستأذنوه ثالث الإيمان بالله والإيمان برسوله وجعلهما كالتشبيب له والبساط لذكره وذلك مع تصدير الجملة بإنما وإيقاع المؤمنين مبتدأ مخبراً عنه بموصول أحاطت صلته بذكر الأيمانين ثم عقبه بما يزيده توكيداً وتشديداً حيث أعاده على أسلوب آخر وهو قوله {إن الذين يستئذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله} وضمنه شيئاً آخر وهو: أنه جعل الاستئذان كالمصداق لصحة الإيمانين وعرض بحال المنافقين وتسللهم لو اذاً.

ومعنى قوله {لم يذهبوا حتى يستئذنوه} لم يذهبوا حتى يستأذنوه ويأذن لهم ألا تراه كيف علق

الأمر بعد وجود استئذانهم بمشيئته وإذنه لمن استصوب أن يأذن له. والأمر الجامع: الذي يجمع له الناس فوصف الأمر بالجمع على سبيل المجاز وذلك نحو مقاتلة عدو أو تشاور في خطب مهم أو تضام إرهاب مخالف أو تماسح في حلف وغير ذلك. أو الأمر الذي يعم بضرره أو بنفعه. وقرئ: (أمر جميع) وفي قوله {وإذا كانوا معه على أمر جامع} أنه خطب جليل لابد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيه من ذوي رأي وقوة يظاهرون عليه ويعاونونه ويستضيء بآرتائهم ومعارفهم وتجاربهم في كفايته فمفارقة أحدهم في مثل تلك الحال مما يشق على قلبه ويشعث عليه رأيه فمن ثمة غلظ عليهم وضيق عليهم ويعنيهم وذلك قوله {لبعض شأنهم ".

وذكر الاستغفار للمستأذنين: دليل على أن الأحسن الأفضل أن لا يحدثوا أنفسهم بالذهاب ولا يستأذنوا فيه. وقيل: نزلت في حفر الخندق وكان قوم يتسللون بغير إذن. وقالوا:

كذلك ينبغي أن يكون الناس مع أئمتهم ومقدميهم في الدين والعلم يظاهرونهم ولا يخذلونهم في نازلة من النوازل ولايتفرقون عنهم. والأمر في الإذن مفوض إلى الإمام: إن شاء أذن وإن شاء لم يأذن على حسب ما اقتضاه رأيه.

{لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لو اذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم} إذا احتاج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اجتماعكم عنده لأمر فدعاكم فلا تفرقوا عنه إلا بإذنه ولا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم بعضاً ورجوعكم عن المجمع بغير إذن الداعي أو لا تجعلوا تسميته ونداءه بينكم كما يسمي بعضكم بعضاً ويناديه باسمه الذي سماه به أبواه ولا تقولوا: يا محمد ولكن: يا نبي الله ويا رسول الله مع التوقير و التعظيم والصوت المخفوض والتواضع. ويحتمل: لا تجعلوا دعاء الرسول ربه مثل ما يدعو صغيركم وكبيركم وفقيركم وغنيكم يسأله حاجة فربما أجابه وربما رده فإن دعوات رسول الله صلى الله عليه وسلم مسموعة مستجابة} يتسللون} ينسلون قليلاً قليلاً. ونظير (تسلل): (تدرج وتدخل): واللواذ: الملاوذة وهو أن يلوذ هذا بذاك وذاك بهذا يعني: ينسلون عن الجماعة في الخفية على سبيل الملاوذة واستتار بعضهم ببعض. و} لواذاً} حال أي: ملاوذين وقيل: كان بعضهم يلوذ بالرجل إذا استأذن فيأذن له فينطلق الذي لم يؤذن له معه. وقرئ: (لو اذاً) بالفتح فليحذر الذين يخالفونه عن أمره يقال: خالفه إلى الأمر إذا ذهب إليه دونه ومنه قوله تعالى {وما أريد

أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه} [هود: 88] وخالفه عن الأمر: إذا صد عنه دونه. ومعنى} الذين يخالفون عن أمره} الذين يصدون عن أمره دون المؤمنين وهم المنافقون فحذف المفعول لأن الغرض ذكر المخالف والمخالف عنه. الضمير في أمره لله سبحانه أو للرسول صلى الله عليه وسلم. والمعنى: عن طاعته ودينه {فتنة} محنة في الدنيا {أو يصيبهم عذاب أليم} في الآخرة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: فتنة قتل. وعن عطاء: زلازل وأهوال. وعن جعفر بن محمد: يسلط عليهم سلطان جائر.

{ألا إن لله ما في السماوات والأرض قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا} أدخل {قد} ليؤكد علمه بما هم عليه من المخالفة عن الدين والنفاق ومرجع توكيد العلم إلى توكيد الوعيد وذلك أن {قد} إذا دخلت على المضارع كانت بمعنى (ربما) فوافقت (ربما) في خروجها إلى معنى التكثير في نحو قوله:

أقام به بعد الوفود وفود ** فإن تمس مهجور الفناء فربما

ونحوه قول زهير:

ولكنه قد يهلك المال نائله ** أخي ثقة لا تملك الخمر ماله

والمعنى: أن جميع ما في السماوات والأرض مختصة به خلقاً وملكاً وعلماً فكيف يخفى عليه أحوال المنافقين وإن كانوا يجتهدون في سترها عن العيون وإخفائها وسينبئهم يوم القيامة بما أبطنوا من سوء أعمالهم وسيجازيهم حق جزائهم. والخطاب والغيبة في قوله {قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه} يجوز أن يكونا جميعاً للمنافقين على طريق الالتفات. ويجوز أن يكون {ما أنتم عليه} عاماً و{يرجعون} للمنافقين والله أعلم.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من قرأ سورة النور أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كل مؤمن ومؤمنة فيما مضى وفيما بقي).

سورة الفرقان

مكية وآياتها سبع وسبعون

بسم الله الرحمن الرحيم

{تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً}

البركة: كثرة الخير وزيادته. ومنها {تبارك الله} الأعراف: 54 وفيه معنيان: تزايد خيره وتكاثر. أو تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله. والفرقان: مصدر فرق بين الشيئين إذا فصل بينهما وسمي به القرآن لفصله بين الحق والباطل. أو لأنه لم ينزل جملة واحدة ولكن مفروقاً مفصولاً بين بعضه وبعض في الإنزال. ألا ترى إلى قوله {وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً} [الإسراء: 106] وقد جاء الفرق بمعناه. قال: ومشركي كافر بالفرق وعن ابن الزبير رضي الله عنه: على عباده وهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته كما قال {لقد أنزلنا إليكم} [الأنبياء: 10] {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا} [البقرة: 136]. والضمير في} ليكون} لعبده أو للفرقان. ويعضد رجوعه إلى الفرقان قراءة ابن الزبير {للعالمين} للجن والإنس {نذيراً} منذراً أي مخوفاً أو إنذاراً كالنكير بمعنى الإنكار. ومنه قوله تعالى {فكيف كان عذابي ونذر} [القمر: 16 18 21 30] {الذي له} رفع على الإبدال من الذي نزل أو رفع على المدح أو نصب عليه. فإن قلت: كيف جاز الفصل بين البدل والمبدل منه قلت: ما فصل بينهما بشيء لأن المبدل منه صلته نزل. و (ليكون) تعليل له فكأن المبدل منه لم يتم إلا به. فإن قلت: في الخلق معنى التقدير فما معنى قوله {وخلق كل شيء فقدره تقديراً} كأنه قال: وقدر كل شيء فقدره قلت: المعنى أنه أحدث كل شيء إحداثاً مراعاً فيه التقدير والتسوية فقدره وهيأه لما يصلح له مثاله: أنه خلق الإنسان على هذا الشكل المقدر المسوى الذي تراه فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة به في بابي الدين والدنيا وكذلك كل حيوان وجماد جاء به على الجبلة المستوية المقدرة بأمثله الحكمة والتدبير فقدره لأمر ما ومصلحة مطابقاً لما قدر له غير متجاف عنه أو سمي إحداث الله خلقاً لأنه لا يحدث شيئاً لحكمته إلا على وجه التقدير من غير تفاوت فإذا قيل: خلق الله كذا فهو بمنزلة قولك: أحدث وأوجد من غير نظر إلى وجه الاشتقاق فكأنه قيل: وأوجد كل شيء فقدره في إيجاده لم يوجده متفاوتاً. وقيل: فجعل له غاية ومنتهى. ومعناه: فقدره للبقاء إلى أمد معلوم.

{واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً} ولا الخلق بمعنى الافتعال كما في قوله تعالى {إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً} [العنكبوت: 17] والمعنى: أنهم آثروا على عبادة الله سبحانه عبادة آلهة لا عجز أبين من عجزهم لا يقدرون على شيء من أفعال الله ولا من أفعال العباد حيث لا يفتعلون شيئاً وهم يفتعلون لأن عبدتهم يصنعونهم بالنحت والتصوير {ولا يملكون} أي: لا يستطيعون لأنفسهم دفع ضرر عنها أو جلب نفع إليها وهم يستطيعون وإذا عجزوا عن الافتعال ودفع الضرر وجلب النفع التي يقدر عليها العباد كانوا عن الموت والحياة والنشور التي لا يقدر عليها إلا الله أعجز.

{وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرونفقد جاءو ظلماً وزوراً} {قوم آخرون} قيل: هم اليهود. وقيل: عداس مولى حويطب بن عبد العزى ويسار مولى العلاء بن الحضرمي وأبو فكيهة الرومي: قال ذلك النضر بن الحرث بن عبد الدار. (جاء) و (أتى) يستعملان في معنى فعل فيعديان تعديته وقد يكون على معنى: وردوا ظلماً كما

تقول: جئت المكان. ويجوز أن يحذف الجار ويوصل الفعل. وظلمهم: أن جعلوا العربي يتلقن من العجمي الرومي كلاماً عربياً أعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب. والزور: أن بهتوه بنسبة ما هو بريء منه إليه.

{وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تمل عليه بكرة وأصيلاً} {أساطير الأولين} ما سطره المتقدمون من نحو أحاديث رستم وإسفنديار جمع: أسطار أو أسطورة كأحدوثه} اكتتبها} كتبها لنفسه وأخذها كما تقول: استكب الماء واصطبه: إذا سكبه وصبه لنفسه وأخذه. وقرئ: (اكتتبها) على البناء للمفعول. والمعنى: اكتتبها كاتب له لأنه كان أمياً لا يكتب بيده وذلك من تمام إعجازه ثم حذفت اللام فأفضى الفعل إلى الضمير فصار اكتتبها إياه كاتب كقوله {واختار موسى قومه} [الأعراف: 155] ثم بنى الفعل للضمير الذي هو إياه فانقلب مرفوعاً مستتراً بعد أن كان بارزاً منصوباً وبقي ضمير الأساطير على حاله فصار {اكتتبها} كما ترى. فإن قلت: كيف قيل: اكتتبها {فهي تملى عليه} وإنما يقال: أمليت عليه فهو يكتتبها قلت: فيه وجهان أحدهما: أراد اكتتابها أو طلبه فهي تملى عليه. أو كتب له وهو أمكي فهي تملى عليه: أي تلقى عليه من كتابه يتحفظها: لأن صورة الإلقاء على الحافظ كصورة الإلقاء على الكاتب. وعن الحسن: أنه قول الله سبحانه يكذبهم وإنما يستقيم أن لو فتحت الهمزة للاستفهام الذي في معنى الإنكار. ووجهه أن يكون نحو قوله:

أورث ذوداً شصائصاً نبلا ** أفرح أن أرزأ الكرام وأن

وحق الحسن أن يقف على الأولين} بكرة وأصيلاً} أي دائماً أو في الخفية قبل أن ينتشر الناس

وحين يأوون إلى مساكنهم.

أي يعلم كل سر خفي في السماوات والأرض ومن جملته ما تسرونه أنتم من الكيد لرسوله صلى الله عليه وسلم مع علمكم أن ما تقولونه باطل وزور وكذلك باطن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وبراءته مما تبهتونه به وهو يجازيكم ويجازيه على ما علم منكم وعلم منه. فإن قلت: كيف طابق قوله {إنه كان غفوراً رحيماً} هذا المعنى قلت: لما كان ما تقدمه في معنى الوعيد عقبه بما يدل على القدرة عليه لأنه لا يوصف بالمغفرة والرحمة إلا القادر على العقوبة أو هو تنبيه على أنهم استوجبوا بمكابرتهم هذه أن يصب عليهم العذاب صباً ولكن صرف ذلك عنهم إنه غفور رحيم: يمهل ولا يعاجل.

{وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً} وقعت اللام في المصحف مفصولة عن هذا خارجة عن أوضاع الخط العربي وخط المصحف سنة لا تغير. وفي هذا استهانة وتصغير لشأنه وتسميته بالرسول سخرية منهم وطنز كأنهم قالوا: ما لهذا الزاعم أنه رسول. ونحوه قول فرعون {إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون} [الشعراء: 27] أي: إن صح أنه رسول الله فما باله حاله مثل حالنا} يأكل الطعام} كما نأكل ويتردد في الأسواق لطلب المعاش كما نتردد يعنون أنه كان يجب أن يكون ملكاً مستغنياً عن الأكل والتعيش. ثم نزلوا عن اقتراحهم أن يكون إنساناً معه ملك حتى يتساندا في الإنذار والتخويف ثم نزلوا أيضاً فقالوا: وإن لم يكن مرفوداً بملك فليكن مرفوداً بكنز يلقى إليه السماء يستظهر به ولا يحتاج إلى تحصيل المعاش. ثم نزلوا فاقتنعوا بأن يكون رجلاً له بستان يأكل منه ويرتزق كما الدهاقين والمياسير أو يأكلون هم من ذلك البستان فينتفعوا به في دنياهم ومعاشهم.

وأراد بالظالمين: إياهم بأعيانهم: وضع الظاهر موضع المضمر ليسجل عليهم بالظلم فيما قاولا: وقرئ: فيكون بالرفع أو يكون له جنة بالياء يأكل بالنون فإن قلت: كا وجها الرفع والنصب في فيكون قلت: النصب لأنه جواب لولا بمعنى هلا وحكمه حكم الاستفهام. والرفع على أنه معطوف على أنزل ومحله الرفع ألا تراك تقول: لولا ينزل بالرفع وقد عطف عليه: يلقى وتكون مرفوعين ولا يجوز النصب فيهما لأنهما في حكم الواقع بعد لولا ولا يكون إلا مرفوعاً.

والقائلون هم كفار قريش النضر بن الحرث وعبد الله بن أبي أمية ونوفل بن خويلد ومن ضامهم

{مسحوراً} سحر فغلب على عقله. أو ذا سحر وهو الرئة: عنوا أنه بشر ملك {انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا} {ضربوا لك الأمثال} أي: قالوا فيك تلك الأقوال واخترعوا لك تلك الصفات والأحوال النادرة.

من نبوة مشتركة بين إنسان وملك. وإلقاء كنز عليك من السماء وغير ذلك فبقوا متحيرين{تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً} تكاثر خير {الذي إن شاء} وهب لك في الدنيا {خيراً} مما قالوا وهو أن يعجل لك مثل ما وعدك في الآخرة من الجنات والقصور. وقرئ: ويجعل بالرفع عطفاً على جعل لأن الشرط إذا وقع ماضياً جاز في جزائه الجزم والرفع كقوله:

يقول لا غائب مالي ولا حرم ** وإن أتاه خليل يوم مسئلة

ويجوز في {ويجعل لك} إذا أدغمت: أن تكون اللام في تقدير الجزم والرفع جميعاً. وقرئ بالنصب على أنه جواب الشرط والواو.

{بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً وإذا ألقوا منه مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً} {بل كذبوا} عطف على ما حكي عنهم: يقول: بل أتوا بأعجيب من ذلك كله وهو تكذيبهم بالساعة. ويجوز أن يتصل بما يليه كأنه قال: بل كذبوا بالساعة فكيف يلتفتون إلى هذا الجواب وكيف يصدقون بتعجيل مثل ما وعدك في الآخرة وهم لا يؤمنون بالآخرة. السعير: النار الشديدة الاستعار. وعن الحسن رضي الله عنه: أنه اسم من أسماء جهنم} رأتهم من قولهم: دورهم تترآ أي: وتتناظر. ومن قوله صلى الله عليه وسلم: لا تراءى نارهما كأن بعضهما يرى بعضاً على سبيل المجاز. والمعنى: إذا كانت منهم بمرأى الناظر في البعد سمعوا صوت غليانها. وشبه ذلك بصوت المتغيظ والزافر. ويجوز أن يراد: إذا رأتهم زبانيتها تغيظوا وزفروا غضباً على الكفار وشهوة للإنتقام منهم. الكرب مع الضيق كما أن الروح مع السعة ولذلك وصف الله الجنة بأن عرضها السموات والأرض. وجاء في الأحاديث: أن لكل مؤمن من القصور والجنان كذا وكذا. ولقد جمع الله على أهل النار أنواع التضييق والإرهاق حيث ألقاهم في مكان ضيق يترابصوا فيه تراصاً كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيره أن يضيق عليهم كما يضيق الزج في الرمح وهم مع ذلك الضيق مسلسلمون مقرنون في السلاسل قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الجوامع. وقيل: يقرن مع كل كافر شيطانه في سلسلة وفي أرجلهم الأصفاد. والثبور: الهلاك ودعاؤه أن يقال: واثبوراه أي: تعال يا ثبور فهذا حينك وزمانك} لا تدعوا} أي يقال لهم ذلك: أو هم أحقاء بأن يقال لهم وإن لم يكن ثمة قول ومعنى {وادعوا ثبوراً كثيراً} أنكم وقعتم فيما ليس ثبور لشدته وفظاعته أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها فلا غاية لهلاكهم.

{قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيراً لهم فيها ما يشاؤون خالدين كان على ربك وعداً مسئولاً} الراجع إلى الموصولين محذوف يعني وعدها المتقون وما يشاؤونه. وإنما قيل: كانت لأن ما وعده الله وحده فهو في تحقيقه كأنه قد كان. أو كان مكتوباً في اللوح قبل أن برأهم بأزمنة متطاولة: أن الجنة جزاؤهم ومصيرهم. فإن قلت: ما معنى قوله {كانت لهم جزاء ومصيراً} قلت: هو كقوله {نعم الثواب وحسنت مرتفقاً} [الكهف: 29] قدم العقاب ومكانه لأن النعيم لا يتم للمتنعم إلا بطيب المكان وسعته وموافقته للمراد والشهوة وأن لا تنغص وكذلك العقاب يتضاعف بغثاثة الموضع وضيقه وظلمته وجمعه لأسباب الإجتواء والكراهة فلذلك ذكر المصير مع ذكر الجزاء. والضمير في {كان} لما يشاؤون. والوعد: الموعود أي: كان ذلك موعوداً واجباً على ربك إنجازه حقيقاً أن يسئل ويطلب لأنه جزاء وأجر مستحق. وقيل: قد سأله الناس والملائكة في دعواتهم {ربنا وآتينا ما وعدتنا على رسلك} [آل عمران: 194] {ربنا أتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة} [البقرة: 201] {ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم} [غافر: 8].

{ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول آنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً} يحشرهم. فيقول: كلاهما بالنون والياء وقرئ: يحشرهم بكسر الشين{وما يعبدون} يريد المعبودين من الملائكة والمسيح وعزيز. وعن الكلبي} الأصنام ينطقها الله.

ويجوز أن يكون عاماً لهم جميعاً. فإن قلت: كيف صح استعمال} ما} في العقلاء قلت: هو موضوع على العموم للعقلاء وغيرهم بدليل قولك - إذا رأيت شبحاً من بعيد -: ما هو فإذا قيل لك: إنسان قلت حينئذ: من هو ويدلك قولهم من لما يعقل. أو أريد به الوصف كأنه قيل: ومعبوديهم ألا تراك تقول إذا أردت السؤال عن صفة زيد ما زيد: تعني: أطويل أم قصير أفقيه أم طبيب فإن قلت: ما فائدة أنتم وهم وهلا قيل أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل قلت: ليس السؤال عن الفعل وووده لأنه لولا وجوده لما توجه هذا العتاب وإنما هو عن متوله فلا بد من ذكره وإيلائه حرف الاستفهام حتى يعلم أنه المسؤول عنه فإن قلت: فالله سبحانه قد سبق علمه بالمسؤول عنه فما فائدة هذا السؤال قلت: فائدته أن يجيبوا بما أجابوا به حتى يبكت عبدتهم بتكذيبهم إياهم فيبهتوا وينخذلوا وتزيد حسرتهم ويكون ذلك نوعاً مما يلحقهم من غضب الله وعذابه ويغتبط المؤمنون ويفرحوا بحالهم ونجاتهم من فضيحة يلحقهم من غضب الله وعذابه ويغتبط المؤمنون ويفرحوا بحالهم بحالهم ونجاتهم من فضيحة أولئك وليكون حكاية ذلك في القرآن لطفاً للمكلفين. وفيه كسر بين لقول من يزعم أن الله يضل عباده على الحقيقة حيث يقول للمعبودين من دونه: أأنتم أضللتموهم أم هم ضلوا بإنفسهم فيتبرؤون من لإضلالهم ويستعذبون به أن يكون مضلين ويقولن: بل أنت تفضلت من غير سابقة على هؤلاء وآبائهم تفضل جواد كريم فجعلوا النعمة التي حقها أن تكون سبب الشكر سبب الكفر ونسيان الذكر وكان ذلك سبب هلاكهم فإذا برأت الملائكة والرسل أنفسهم من نسبة الإضلال الذي هو عمل الشياطين إليهم واستعاذوا منه فهم لربهم الغني العدل أشد تبرئة وتنزيهاً منه ولقد نزهوه حين أضافوا إليه التفضيل بالنعمة والتمتيع بها. وأسندوا نسيان الذكر والتسبب به للبوار إلى الكفرة فشرحوا الإضلال المجازي الذي أسنده الله تعالى إلى ذاته في قوله {يضل من يشاء} [الرعد: 27 النحل: 93 فاطر: 8] ولو كان هو المضل على الحقيقة لكان الجواب العتيد أن يقولوا: بل أنت أضللتهم. والمعنى: أأنتم أوقعتموهم في الضلال عن طريق الحق أم هم ضلوا عنه بأنفسهم وضل: مطاوع أضله وكان القياس: ضل عن السبيل إلا أنهم تركوا الجار كما تركوه في هذه الطريق. والأصل: إلى الطريق وللطريق. وقولهم: أضل البعير في معنى: جعله ضالاً أي ضائعاً لما كان أكثر ذلك بتفريط من صاحبه وقلة احتياط في حفظه قيل: أضله سواء كان منه فعل أو لم

يكن {سبحانك} تعجب منهم قد تعجبوا مما قيل لهم لأنهم ملائكة وأنبياء معصومون فما أبعدهم عن الإضلال الذي هو مختص بإبليس وحزبه. أو نطقوا بسبحانك ليدلوا على أنهم المسبحون المتقدسون الموسومون بذلك. فكيف يليق بحالهم أن يضلوا عباده أو قصدوا به تنزيهه عن الأنداد وأن يكون له نبي أو ملك أو غيرهما نداً ثم قالوا: ما كان يصح لنا ولا يستقيم ونحن معصومون أن نتولى أحداً دونك فكيف يصح لنا أن نحكل غيرنا على أن يتولونا دونك. أو ما كان ينبغي لنا أن نكون أمثال الشياطين في توليهم الكفار كما تولاهم الكفار. قال الله تعالى {فقاتلوا أولياء الشياطين} [النساء: 76] يريد الكفرة وقال {والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت} [البقرة: 257] وقرأ أبو جعفر المدني: نتخذ على البناء للمفعول. وهذا الفعل أعني اتخذ يتعدى إلى مفعول واحد كقولك اتخذ ولياً وإلى مفعولين كقولك: اتخذ فلاناً ولياً. قال الله تعالى {أم اتخذوا آلهة من الأرض} [الأنبياء: 1] وقال {واتخذ الله إبراهيم خليلا} [النساء: 125] القراءة الأولى من المتعدي إلى واحد وهو {من أولياء} والأصل: أن نتخذ أولياء فزيدت {من} لتأكيد معنى النفي والثانية: من المتعدي إلى مفعولين. فالأول ما بني له الفعل. والثاني {من أولياء ". ومن للتبعيض أي: لانتخذ بعض أولياء. وتنكير {أولياء} من حيث أنهم أولياء مخصوصون وهم الجن والأصنام. والذكر: ذكر الله والإيمان به أو القرآن والشرائع. والبور {فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبراً} هذه المفاجأة بالاحتجاج والإلزام حسنة رائعة وخاصى إذا انضم إليها الالتفاف وحذف القول ونحوها قوله تعالى {يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير} [المائدة: 19] وقول القائل:

ثم القفول فقد جئنا خراسانا **

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا

وقرئ: يقولون بالتاء والياء. فمعنى من قرأ بالتاء فقد كذوكم بقولكم أنهم آلهة. ومعنى من قرأ بالياء: فقد كذبوكم بقولهم {سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء} [الفرقان: 18]. فإن قلت: هل يختلف حكم الباء كقولك: كتبت بالقلم. وقرئ: يستطيعون بالتاء والياء أيضاً. يعني: فما تستطيعون أنتم يا كفار صرف العذاب عننكم. وقيل: الصرف: التوبة وقبل: الحيلة من قولهم: إنه ليتصرف أي: يحتال أو فما يستطيع آلهتكم أن يصرفوا عنكم العذاب أو أن يحتالوا لكم.

{ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبراً} الخطاب على العموم للمكلفين والعذاب الكبير لاحق بكل من ظلم والكافر ظالم: لقوله {إن الشرك لظلم عظيم} [لقمان: 13]

والفاسق ظالم. لوقله {ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون} [الحجرات: 11]. وقرئ: يذقه بالياء.

وفيه ضمير الله أو ضمير مصدر يظلم.

{وما أرسلناك قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيراً} الجملة بعد إلا صفة لموصوف محذوف. والمعنى: وما أرسلنا قبلك أحداً من المرسلين إلا آكلين وماشين. وإنما حذف اكتفاء بالجار والمجرور. أعني من المرسلين ونحوه قوله عز من قائل {وما منا إلا له مقام معلوم} [الصافات: 164] على معنى: وما منا أحد. وقرئ: يمشون على البناء للمفعول أي: تمشيهم حوائجهم أو الناس. ولو قرئ: يمشون لكان أوجه لولا الرواية. وقيل: هو احتجاج على منقال {ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق} [الفرقان: 7]. {فتنة} أي محنة وابتلاء. وهذا تصبير لرسول الله صلى الله عليه وسلم على ما قالوه واستبدعوه من

أكله الطعام ومشيه في الأسواق بعد ما احتج عليهم بسائر الرسل يقول: وجرت عادتي وموجب حكمتي على ابتلاء بعضكم أيها الناس ببعض. المعنى: أنه ابتلى المرسلين منهم بالمرسل إليهم وبمناصيتهم لهم العداوة وأقاويلهم الخارجة عن حد الإنصاف وأنواع أذاهم وطلب منهم الصبر الجميل ونحوه {ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور} [آل عمران: 186] وموقع أصرون بعد ذكر الفتنة موقع {أيكم} بعد الابتلاء في قوله {ليبلوكم أيكم أحسن عملاً} [هود: 27 الملك: 2]} بصيراً عالماً بالصواب فيما يبتلى به وغيره فلا يضيقن صدرك ولا يستخفنك أقاويلهم فإن في صبرك عليها سعادتك وفوزك في الدارين. وقيل: هو تسلية له عليه الصلاة والسلام عما عيروه به من الفقر حين قالوا: أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة وأنه جعل الأغنياء فتنة للفقراء لينظر: هل يبصرون وأنها حكمته ومشيئته: يغني من يشاء ويفقر من يشاء. وقيل: جعلناك فتنة لهم لأنك لو كنت غنيا صاحب كنور وجنان لكان ميلهم إليك وطاعتهم لك للدنيا أو ممزوجة بالدنيا فإنما بعثناك فقيراً لتكون طاعة من يطيعك خاصة لوجه الله من غير طمع دنيوي. وقيل: كان أبو جهل والوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل ومن في طبقتهم يقولن: إن إسلمنا وقد أسلم قبلنا عمار وصهيب وبلال وفلان وفلان ترفعوا علينا إدلالاً بالسابقة فهو افتتان بعضهم ببعض.

{وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتو عتواً كبيراً} أي لا يأملون لقاءنا بالخير لأنهم كفرة. أة لا يخافون لقاءنا بالشر. والرجاء في لغة الخوف وبه فسر وقله تعالى {لا ترجون لله وقاراً} [نوح: 13] جعلت الصيرورة إلى دار جزائه بمنزلة لقائه لو كان ملقياً.. اقترحوا من الآيات أن ينزل الله عليهم الملائكو فتخبرهم بأن محمداً صادق حتى يصدقوه. أو يروا الله جهرة فيأمرهم ألأنبياء وأن الله لا يصح أن يرى. وإنما علقوا إيمانهم بما لا يكون. وإما أن لا يكونوا عالمين بذلك وإنما أرادوا التعنت باقتراح آيات سوى الآيات التي نرى الله جهرة. فإن قلت: ما معنى {في أنفسهم} قلت: معناه أنهم أضمروا الاستكبار عن الحق وهو الكفر والعناد في قلوبهم واعتقدوه. كما قال {إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه} [غافر: 56]. {وعتو عتواً} وتجاوزوا الحد في الظلم. يقال: عتا علينا فلان. وقد وصف العتو بالكبير فبالغ في إفراطه يعني أنهم لم يجسروا على هذا القول العظيم إلا أنهم بلغوا غاية الاستكبار وأقصى العتو واللام جواب قسم محذوف. وهذه الجملة في حسن استئنافها غاية.

وفي أسلوبها قول القائل: وجارة جساس أبانا بنايها كليباً غلب ناب كليب بواؤها وفي فحوى هذا الفعل دليل على التعجيب من غير لفظ التعجيب. ألا ترى أن المعنى: ما أشد استكبارهم وما أكبر عتوهم وما أغلى ناباً بواؤها كليب.

{يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولن حجراً محجورا} {يوم يرون} منصوب بأحد شيئين: إما بما دل عليه} لا بشرى} أي: يوم يرون الملائكة يمنعون البشرى أو يعدمونها. ويومئذ للتكرير وإما بإضمار اذكر أي اذكر يوم يرون الملائكة ثم قال {لا بشرى يومئذ للمجرمين} وقوله للمجرمين: إما ظاهر في موضع ضمير وإما لأنه عام فقدتنا ولخم بعموم وقوله {حجراً محجورا} ذكره سيبويه في باب المصادر غير المتصرفة المنصوبة بأفعال متروك إظهارها نحو: معاذ الله وقعدك الله وعرمك الله. وهذه كلمة كانوا يتلكون بها عند لقاء عدو موتور أو هجوم نازلة أو نحو ذلك. يضعونها موضع الاستعاذة. قال سيبويه: ويقلو الرجل للرجل: أتفعل كذا وكذا فيقول: حجراً وهي من حجره إذا منعه لأن المستبعذ حالب من الله أن يمنع المكروه فلا يلحقه فكان المعنى: أسأل الله أن يمنع ذلك منعاً ويحجره حجراً.

ومجيئه على فعل أو فعل في قراءة الحسن تصرف فيه لاختصاصه بموضع واحد كما كان قعدك وعمرك كذلك وأنشدت لبعض الرجاز:

عوذ بربي منكم وحجر ** قالت وفيها حيدة وذعر

فإذا قلت: فإذ قد ثبت أنه من باب المصادر فما معنى وصفه بمحجور قلت: جاءت هذه الصفة لتأكيد معنى الحجر كما قالوا. ذيل ذائل والذيل: الهوان. وموت مائت. والمعنى في الآية: أنهم يطلبون نزول الملائكة ويقترحون وهم إذا راوهم عند الموت أو يوم القيامة كرهوا لقاءهم وفزعوا منهم لأنهم لا يلقونهم إلا بما يكرهون وقالوا عند رؤيتهم ما كانوا يقولونه عند لقاء العدو الموتور وشدة النازلة. وقيل: هو من قول الملائكة ومعناه: حراماً محرماً عليكم الغفران والجنة والبشرى أي جعل الله ذلك حراماً عليكم.

ليس ههنا قدوم ولا ما يشبه القدوم ولكن مثلت حال هؤلاء وأعمالهم التي عملوها في كفرهم ممن صلة رحم وإغاثةىملهوف وقرى ضيف ومن على أسير وغير ذلك من مكارمهم ومحاسنهم بحال قوم خالفوا سلطانهم واستعصوا عليه فقدم إلى أشيائهم وقصد إلى ما تحت أيديهم فأفسدها ومزقها كل ممزق ولم يترك لها أثراً ولا عثيراً والهباء: ما يخرج من الكوة مع ضوء الشمس شبيه الغبار. وفي أمثالهم: أقل من الهباء} منثوراً} صفة للهباء شبهه بالهباء في قلته وحقارته عنده وأنه قد تناثر وذهب كل مذهب. ونحو قوله {كعصف مأكول} [الفيل: 5] لم يكف أن شبههم بالعصف حتى جعله مؤوفاً بالأكال ولا أن شبه عملهم بالهباء حتى جعله متناثراُ أو مفعول ثالث لجعلناه أي: جعلناه جامعاً لجقارة الهباء والتناثر كقوله {كونوا قردة خاسئين} [البقرة: 65 الأعراف: 166] أي جامعين للمسخ والخسئ. ولام الهباء واو بدليل الهبوة.

{أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً} المستقر: المكان الذي يكونون فيه في أكثر أوقاتهم مستقرين يتجالسون ويتحادثون. والمقيل: المكان الذي يأوون إليه للاسترواح إلى أزواجهم والتمتع بمغازلتهن وملامستهن كما أن المترفين في الدنيا يعيشون على ذلك الترتيب. وروي أنه يفرغ من الحساب في نصف ذلك اليوم فيقبل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار. وفي معناه قوله تعالى {إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون هم وأزواجهم في ظلال على الأرئك متكؤون} [يس: 55 ، 56] قيل في تفسير الشغل: افتضاض الأبكار ولا نوم في الجنة. وإنما سمي مكان دعيتهم واستراحهم إلى الحور مقيلاً على طريق التشبيه. وفي لفظ الأحسن رمز إلى ما يتزين له مقيلهم. من حسن الوجوه وملاحة

الصور إلى غير ذلك من التحاسين والزين.

{ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً} وقرئ {تشقق} والأصل: تتشقق فحذف بعضهم التاء وغيره أدغمها. ولما كان انشقاق السماء بسبب طلوع الغمام منها جعل الغمام كأنه الذي تشقق به السماء كما تقول: شق السنام بالشفرة وانشق بها. ونظيره قوله تعالى {السماء منفطر به} [المزمل: 18]. فإن قلت: أي فرق بين قولك: انشقت الأرض بالنبات وانشقت عن النبات قلت: معنى انشقت به: أن الله شقها بطلوعه فانشقت به. ومعنى: انشقت عنه: أن التربة ارتفعت عنه عند طلوعه. والمعنى: أن السماء تنفتح بغمام يخرج منها وفي الغمام الملائكة ينزلون وفي أيديهم صحائف أعمال العباد وروي: تنشق سماء سماء وتنزل الملائكة إلى الأرض. وقيل: هو غمام أبيض رقيق مثل الضصبابة ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تيههم. وفي معناه قوله تعالى {هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة} [البقرة: 210]. وقرئ: وننزل الملائكة نزل الملائكة ونزل الملائكة ونزلت الملائكة وازل الملائكة ونزل الملائكة ونزل الملائكة على حذف النون الذي هوفاء الفعل من ننزل: قراءة أهل مكة.

{الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً} الحق: الثابت لأن كل ملك يزول يومئذ ويبطل ولا يبقى إلا ملكه.

{ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا} عض اليدين والأنامل والسقوط في اليد وأكل البنان وحرق الأسنان والأرم وقرعها: كنايات عن الغيظ والحسرة لأنها من روادفها فيذكر الرادفة ويدل بها على المردوف فيرتفع الكلام به في طبقة الفصاحة ويجد السامع عنده في نفسه من الروعة والاستحسان ما لا يجده عند لفظ المكنى عنه. وقيل: نزلت في عقبة بن أبي معيط بن أمية بن عبد شمس وكان يكثر مجالسة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقيل: اتخذ ضيافة فدعا إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبى أن يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين. ففعل وكان أبي بن خلف صديقه فعاتبه وقال: سبأت يا عقبة قال: لا ولكن آلى أن لا يأكل من طعامي وهو في بيتي فاستحييت محمداً فلم تطأ قفاه وتبزق

في وجهه وتلطم عينه فوجده ساجداً في دار الندوة ففعل ذلك. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا ألقاك خارجاً من مكة إلا علوت رأسك بالسيف فقتل يوم بدر: أمر علياً رضي الله عنه بقتله. وقيل: قتله عاصم بن ثابت بن ألفح الأنصاري فرجع إلى مكة فمات. واللام في {الظالم} يجوز أن تكون للعهد يراد به عقبة خاصة. ويجوز أن تكون للجنس فيتناول عقبة وغيره. تمنى أن لو صحب الرسول وسلك معه طريقاً واحداً وهو طريق الحق ولم يتشعب به طرق الضلالة والهوى. أو أراد أني كنت ضالاً لم يكن لي سبيل قط فليتني حصلت لنفسي في صحبة الرسول سبيلاً وقرئ: يا ويلتي بالياء وهو الأصل لأن الرجل ينادي ويلته وهي هلكته ويقول لها: تعالي فهذا أوانك. وإنما قلبت الياء ألفاً كما في صحارى ومداري. فلان: كناية عن الأعلام كنا أن الهن كناية عن الأجناس فإن أريد بالظالم عقبة فالمعنى: ليتني لم أتخذ أبياً خليلاً فكنى عن اسمه. وإن أريد به الجنس فكل من اتخذ من المضلين خليلاً كان لخليله اسم علم لا محالة فجعله كناية عنه.} عن الذكر} عن ذكر الله أو القرآن أو موعظة الرسول. ويجوز أن يريد نطقه بشهادة الحق وعزمه على الإسلام. والشيطان: إشارة إلى خليلة سماه شيطاناً لأنه أضله كما يضل الشيطان ثم خذله ولم ينفعه في العاقبة أو أراد إبليس وأنه هو الذي حمله على مخاله المضل ومخالفة الرسول ثم خذله. أو أراد الجنس. وكل من تشيطن من الجن والإنس. ويحتمل ان يكون {وكان الشيطان} حكاية كلام الظالم وأن يكون كلام الله. اتخذت: يقرأ على الإدغام والإظهار والإدغام أكثر.

{وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً} الرسول: محمد صلى الله عليه وسلم وقومه قريش حكى الله عنه شكواه قومه إليه. وفي هذه الحكاية تعظيم للشكاية وتخويف لقومه لأن الأنبياء كانوا إذا التجئوا إليه وشكوا إليه قومهم: حل بهم العذاب ولم ينظروا.

{وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً} ثم أقبل عليه مسلياً ومواسياً وواعداً النصرة عليهم فقال {وكذلك} كان كل نبي قبلك مبتلى بعداوة قومه. وكفاك بي هادياً إلى طريق قهوهم والانتصار منهم. وناصراً لك عليهم. مهجوراً: تركوه وصدوا عنه وعن الإيمان به. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: من تعلم القرآن وعلمه وعلق مصحفاً لم يتعاهده ولم ينظر فيه جاء يوم القيامة متعلقاً به يقول:

يا رب العالمين عبدك هذا اتخذني مهجوراً اقض بيني وبينه وقيل: هو من هجر إذا هذي أي جعلوه مهجوراً فيه. فحذف الجار وهو على وجهين أحدهما: زعمهم أنه هذيان وباطل وأساطير الأولين. والثاني: أنهم كانوا إذا سمعوه هجروا فيه كقولك تعالى {لا تسمعوا لهذا

القرآن والغوا فيه} [فصلت: 26] ويجوز أن يكون المهجور بمعنى الهجر كالمجلود والمعقول. والمعنى: اتخذوه هجراً والعدو: يجوز أن يكون واحداً وجمعاً. كقوله {فإنهم عدو لي} [الشعراء: 77] وقيل المعنى: وقال الرسول يوم القيامة.

{وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلاناه ترتيلا ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً} {نزل} ههنا بمعنى أنزل لا غير كخبر بمعنى أخبر وإلا كان متدفعاً. وهذا أيضاً من اعتراضاتهم واقتراحاتهم الدالة على شرادهم عن الحق وتجافيهم عن اتباعه. قالوا: هلا أنزل عليه دفعه واحدة في وقت واحد كما أنزلت الكتب الثلاثة وما له أنزل على التفاريق. والقائلون: قريش.

وقيل: اليهود. وهذا فضول من القول ومماراة بما لا طائل تحته لأن أمر الإعجاز والاحتجاج به لا يختلف بنزوله جملة واحدة أو مفرقاً. وقوله {كذلك} جواب لهم أي: كذلك أنزل مفرقاً.

والحكمة فيه: أن نقوي بتفرقة فؤادك حتى تعبه وتحفظه لأن المتلقن إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئاً بعد شيء وجزأ عقيب جزء. ولو ألقى عليه جملة واحدة لبعل به وتعيا بحفظه والرسول صلى الله عليه وسلم فارقت حاله حال موسى وداود وعيسى عليهم السلام حيث كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب وهم كانوا قارئين كاتبين فلم يكن له بد من التلقن والتحفظ فأنزل عليه منجماً في عشرين سنة. وقيلك: في ثلاث وعشرين. أيضاً: فكان ينزل على حسب الحوادث وجوابات السائلين ولأن بعضه منسوخ وبعضه ناسخ ولا يتأتى ذلك إلا فيما أنزل مفرقاً. فإن قلت: ذلك في كذلك يجب أن يكون إشارة إلي شيء تقدمه والذي تقدم هو إنزاله جملة واحدة فكيف فسرته بكذلك أنزلناه مفرقاً: قلت: لأن قولهم: لولا أنزل عليه جملة: كعناه: لم أنزل مفرقاً والدليل على فساد هذا الاعتراض: أنهم عجزوا عن أن يأتوا بنجم واحد من نجومه وتحدوا بسورة واحدة من أصغر السور فأبرزوا صفحة عجزهم وسجلوا به على أنفسهم حين لاذوا بالمناصبة وفزعوا إلى المحاربة ثم قالوا: هلا نزل عليه جملة واحدة كأنهم

قدروا على تفاريقه ورتلناه. ومعنى ترتيله: أن قدره آية بعد آية ووقفه عقيب وقفه ويجوز أن يكون المعنى: وأمرنا بترتيل قراءته وذلك قوله {ورتل القرآن ترتيلا} [المزمل: 4] أي اقرأه بترسل وتثبيت. ومنه حديث عائشة رضي الله عنها في صفة قراءته صلى الله عليه وسلم: لا كسردكم هذا لو أراد السامع أن يعد حروفه لعدها وأصله: الترتيل في الأسنان: وهو تفليجها. يقال: ثغر رتل ومرتل ويشبه بنور الأقحوان في تفليجه. وقيل: هو أن نزله مع كونه متفرقاً على تمكث وتمهل في مدة متباعدة وهي عشرون سنة. ولم يفرقه في مدة متقاربة {ولا يأتونك} بسؤال عجيب من سؤالاتهم الباطلة - كأنه مثل في البطلان - إلا اتيناك نحن بالجواب الحق الذي لا محيد عنه وبما هو أحسن معنى ومأدى من سؤالهم. ولما كان التفسير هو التكشيف عما يدل عليه الكلام وضع موضع معناه فقالوا: تفسير هذا الكلام كيت وكيت كما قيل: معناه كذا وكذا. أو لا يأتونك بحال وصفة عجيبة يقولون: علا كانت هذه صفتك وحالك نحو: أن يقرن بك ملك ينذر معك أو يلقي إليك كنز أو تكون لك جنة أو ينزل عليك القرآن جملة إلا أعطيناك نحن من الأحوال ما يحق لك في حكمتنا ومشيئتنا أن تعطاه وما هو أحسن تكشيفاً لما بعثت عليه ودلالة على صحته يعني: أن تنزيله مفرقاً وتجديهم بأن يأتوا ببعض تلك التفاريق كما نزل شيء منها: أدخل في الإعجاز وأنور للحجة من أن ينزل كله جملة ويقال لهم جيئوا بمثل هذا الكتاب في فصاحته مع بعد ما بين طرفيه كأنه قيل لهم: إن حاملكم على هذه السؤالات أنكم تضللون سبيله وتحتقرون مكانه ومنزلته ولو نظرتم بعين الإنصاف وأنتم من المسحوبين على وجوههم إلى جهنم لعلمتم أن مكانكم شر من مكانه وسبيلكم أضل من شبيله. وفي

طريقته قوله {قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه} الآية [المائدة: 60]. ويجوز أن يراد بالمكان: الشرف والمنزلة وأن يراد الدار والمسكن كقوله {أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً} [مريم: 73] ووصف السبيل بالضلال من الإسناد يحشر الناس يوم القيامة على ثلاث أثلاث: ثلث على الدواب وثلث على وجههم وثلث على أقدامهم ينسلون نسلاً. {ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميراً} الوزارة: لا تنافي النبوة فقد كان يبعث في الزمن الواحد أبياء يؤمرزن بأن يوازر بعضهم بعضاً والمعنى: فذهبا إليهم فكذبوهما فدمرناهم كقوله {اضرب بعصاك البحر فانفلق} [الشعراء: 63] أي فضرب فانفلق. أراد اختنصار القصة فذكر حاشيتيها أولها وآخرها لأنهما المقصود بطولها أعني: إلزم الحجة ببعثه الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم. وعن علي رضي الله عنه فدمرتهم. أعني: إلزام الحجة ببعثه الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم. وعن علي رضي الله عنه فدمرتهم. وعنه فدمراهم. وقرئ: فدمرانهم على التأكيد بالنون الثقيلة.

{وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذاباً أليماً} كأنهم كذبوا نوحاً ومن قبله من الرسل صريحاً. أو كان تكذيبهم لواحد منهم تكذيباً للجميع أو لم يروا بعثه الرسل أصلاً كالبراهمة {وجعلناهم} وجعلنا إغراقهم أو قصتهم} للظالمين إما أن يعني بهم قوم نوح وأصله: وأعتدنا لهم إلا أنه قصد تظليمهم فأظهر. وإما أن يتناولهم بعموم.

{وعاداً وثموداً وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيرا} عطف عاداً على} هم} في جعلناهم أو على الظالمين لأن المعنى: ووعدنا الظالمين. وقرئ: وثمود على تأويله القبلة. وأما المصرف فعلى تأويل الحي أو لأنه اسم الأب الأكبر. قيل: في أصحاب الرس: كانوا قوماً من عبدة الأصنام أصحاب آبار ومواش فبعث الله إليهم شعيباً فدعاهم إلى الإسلام. فتمادوا في طغيانهم وفي إيذانه فبينا هم حول الرس وهو البئر غير المطوية. عن أبي عبيدة: انهارت بهم فخسف بعم وبديارهم. وقيل: الرس قرية بفلج اليمامة قتلوا نبيهم فهلكوا وهم بقية ثمود قوم صالح. وقيل: هم أصحاب النبي حنظلة بن صفوان كانوا مبتلين بالعنقاء وهي أعظم ما يكون من الطير سميت لطول عنقها وكانت تسكن جبلهم الذي يقال له فتح وهي تنتقض على صبيانهم فتهطفهم إن أعوزها الصيد فدعا عليها حنظلة فأصابتها الصاعقة ثم إنهم قتلوا حنظلة فأهلكوا وقيل: هم أصحاب الأخدود والرس: هو الأخدود وقيل: الرس بأنطاكية قتلوا فيها حبيباً النجار. وقيل: كذبوا نبيهم ورسوه في بئر أي: دسوه فيها {بين ذلك} أي بين ذلك المذكور وقد يذكر الذاكر أشياء مختلفة ثم يشير إليها ب ذلك ويحسب الحاسب أعداداً متكاثرة ثم يقول: فذلك كيت وكيت على معنى: فذلك المحسوب أو المعدود} ضربنا له الأمثال: بينا له القصص العجيبة من قصص الأولين والتتبير: التفتيت والتكسير. ومنه: التبر وهو كسار الذهب والفضة والزجاج. و{كلا} الأول منصوب بما دل عليه {ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشوراً} أراد بالقرية سدوم من قرى لوط وكانت خمساً: أهلك الله تعالى أربعاً بأهلها وبقيت واحدة.

ومطر السوء: الحجارة ويعني أن قريشاً مروا مراراً كثيرة في متاجرهم إلى الشام على تلك القرية التي أهلكت بالحجارة من السماء {أفلم يكونوا} في مرار مرورهم ينظرون إلى آثار عذاب الله ونكاله ويذكرون {بل كانوا} قوماً كفرة بالبعث لا يتوقعون {نشوراً} وعاقبة فوضع الرجاء موضع الوتوقع لأنه إنما يتوقع العاقبة من يؤمن فمن ثم لم ينظروا ولم يذكروا ومروا بها كما مرت ركابهم.

أو لا يأملون نشوراً كما يأمله المؤمنون لطعمهم في الوصول إلى ثواب أعمالهم أو لا يخافون على اللغة التهامية.

{وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي بعث الله رسولا إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً} {إن} الأولى نافية والثانية مخففة من الثقيلة. واللام هي الفارقة بينهما. واتخذه هزواً: في معنى استهزأ به والأصل: أتخذه موضع هزؤ أو مهزوآ به} أهذا} محكى بعد القول المضمر. وهذا استصغار و{بعث الله رسولا} وإخراجه في معرض التسليم والإقرار وهم على غاية الجحود والإنكار سخرية واستهزاء ولو لم يستهزؤا لقالوا: أهذا الذي زعم أو ادعى أنه مبعوث من عند الله رسولاً!. وقولهم {إن كاد ليضلنا} دليل على فرط مجاهدة رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعوتهم وبذله قصارى الوسع والطاقة في استعطافهم مع عرض الآيات والمعجزات عليهم حتى شارفوا بزعمهم أن يتركوا دينهم إلى دين الإسلام لولا فرط لجاجهم واستمساكهم بعبادة آلهتهم و} لولا} في مثل هذا الكلام جار من حيث المعنى - لا من حيث الصنعة - مجرى التقييد للحكم المطلق} وسوف يعلمون} وعيد ودلالة على أنهم لا يفوتونه وإن طالت مدة الإمهال ولا بد للوعيد أن يلحقهم فلا يغرنهم التأخير. وقوله {من أضل سبيلاً} كالجواب عن قولهم {إن كاد ليضلنا} لأنه نسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الضلال من حيث لا يضل غيره إلا من هو ضال في نفسه. ويروى أنه من قول أبي جهل لعنه الله.

{أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً} من كان في طاعة الهوى في دينه يتبعه في كل ما يأتي ويذر لا يتبصر دليلاً ولا يصغي إلى برهان. فهو عابد هواه وجاعله آلهة فيقول لرسوله: هذا الذي لا يرى معبوداً إلا هواه كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى أفتتوكل عليه تجبره على الإسلام وتقول لا بد أن تسلم شئت أو أبيت - ولا إكراه في الدين وهذا كقوله {وما أنت عليهم بجبار} [ق: 45] {لست عليهم بمصيطر} [الغاشية: 22] ويوري أن الرجل منهم كان يعبد الحجر فإذا رأى أحسن منه رمي به {أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً} أم هذه منقطعة معناه: بل أتحسب كأن هذه المذمة أشد من التي تقدمتها حتى حقت بالإضراب عنها إليها وهي كونهم مسلوبي الأسماع والعقول لأنهم لا يلقون إلى استماع الحق أذناً ولا إلى تدبره عقلاً ومشبهين بالأنعام التي هي مثل في الغفلة والضلال ثم أرجح ضلالة منها.

فإن قلت: لم أخر هواه والأصل قولك: اتخذ الهوى إلهاً قلت: ما هو إلا تقديم المفعول الثاني على الأول للعناية كما تقول: علمت منطقاً ويداً لفضل عنايتك بالمنطلق. فإن قلت: ما معنى ذكر الأكث قلت: كان فيهم من لم يصده عن الإسلام إلا داء واحد: وهو حب الرياسة وكفى به داء عضالاً. فإن قلت: كيف جعلوا أضل من الأنعام قلت: لأن الأنعام تنقاد لأربابها التي تعلفها وتتعهدها وتعرف من يحسن إليها ممن يسيئ إليها وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها ووتهتدي لمراعيها ومشاربها. وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذي هو عدوهم ولا يطلبون الثواب الذي عن أعظم المنافع ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار والمهالك ولا يهتدون للحق الذي هو المشرع الهني والعذب الروي.

{ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً} {ألم تر إلى ربك} ألم تنظر إلى صنع ربك وقدرته ومعنى مد الظل: أن جعله يمتد وينبسط فينتفع به الناس {ولو شاء لجعله ساكناً} أي لاصقاً بأصل كل مظل من جبل وبتناء وشجرة.

غير منبسط فلم ينتفع به أحد: سمي انبساط الظل وامتداده تحريكاً منه وعدم ذلك سكوناً ومعنى كون الشمس دليلاً: أن الناس يستدلون بالشمس وبأحوالها في مسيرهم على أحوال الظل من كونه ثابتاً في مكان و زائلاً ومتسعاً ومتقلصاً فيبنون حاجتهم إلى الظل واستغناءهم عنه على حسب ذلك. وقبضه إليه: أنه ينسخه بضح الشمس {يسيراً}

أي على مهل. وفي هذا القبض اليسير شيئاً بعد شيء من المنافع ما لا يعد ولا يحصر ولو قبض دفعة واحدة لتعطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعاً. فإن قلت: ثم في هذين الموضعين كيف موقعها قلت: موقعها لبيان تفاضل الأمور الثلاثة: كان الثاني أعظم من الأول والثالث أعظم منهما تشبيهاً لتباعد ما بينهما في الفضل بتباعد ما بين الحوادث في الوقت. ووجه آخر: وهو أنه مد الظل حين بنى السماء كالقبة المضروبة ودحا الأرض تحتها فألقت القبة ظلها على الأرض فيناناً ما في أديمة جوب لعدم النير ولو شاء لجعله ساكناً مستقراً على تلك الحجالة ثم خلق الشمس وجعلها على ذلك الكل أي سبلطها عليه ونصبها دليلاً متبوعاً له كما يتبع الدليل في الطريق فهو يزيد بها وينقص ويمتد ويتقلص ثم نسخه بها فقبضه قبضاً سهلاً يسيراً غير عسير.

ويحتمل أن يريد: قبضه عند قيام الساعة بقبض أسبابه وهي الإجرام التي تبقى الظل فيكون قد ذكر إعدامه بإعدامه أسبابه كما ذكر إنشاءه بإنشاء أسبابهن وقوله: قبضناه إلينا: يدل عليه وكذلك قوله يسيراً كما قال {ذلك حشر علينا يسير}[ق: 44]

{وهو الذي جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً} شبه ما يستر من ظلام الليل باللباس الساتر. والسبات: الموت. والمسبوت الميت لأنه مقطوع الحياة وهذا كقوله {وهو الذي يتوفاكم بالليل} [الأنعام: 60]. فإن قلت: هلا فسرته بالراحة قلت: النشور في مقابلته يأباه إباء العيوف الوردوهو مرنق. وهذه الآية مع دلالتها على قدرة الخالق فيها إظهار لنعمته على خلقه لأن الآحتجاب بستر الليل كم فيه لكثير من الناس من فوائد دينية ودنيوية والنوم واليقظة وشبههما بالموت والحياة أي عبرة فيها لمن اعتبر وعن لقمان أنه قال لابنه: يا بني كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتنتشر.

{وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهوراً} قرئ: الريح والرياح نشراً: إحياء ونشرا: جمع نشور وهي المحيية. ونشرا: تخفيف نشر وبشرا تخفيف بشر: جمع بشور وبشرى. و{بين يدي رحمته} استعارة مليحة أي: قدام المطر {طهوراً} بليغاً في طهارته. وعن أحمد بن يحيى: هو ما كان طاهراً في نفسه مطهراً لغيره فإن كان ما قاله شرحاً لبلاغته في الطهارة كان سديداً. ويعضده قوله تعالى {وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به} [الأنفال: 11] وإلا فليس فعول من التفعيل فيشيء. والطهور على وجهين في العربية: صفة واسم غير صفة فالصفة قولك: ماء طهور كقولك: طاهر والاسم قولك لما يتطهر به} طهور كالوضوء حسناً ذكره سيبويه ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: لا صلاة إلا بطهور أي طهارة. فإن قلت: ما الذي يزيل عن الماء اسم الطهور قلت: تيقن مخالطة النجاسة أو غلبتها على الظن تغير أحد أوصافه الثلاثة أو لم يتغير. أو استعماله في البدن لأداء عبادة عند أبي حنيفة وعند مالك بن أس ورضي الله عنهما: ما لم يتغير أحد أوصافه فهو طهور. فإن قلت: فما تقول في قوله صلى الله عليه وسلم حين سئل عن بئر بضاعة فقال: الماء طهور لا ينجسه شيء إلا ما غير لونه أو طعمه أو ريحه قلت: قال الواقدي: كان بئر بضاعة طريقاً للماء إلى البساتين.

{لنحي به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً} وإنما قال {ميتاً} لأ البلدة في معنى البلد في قوله {فسقناه إلى بلد ميت} [فاطر: 9] وأنه غير جار على الفعل كفعول ومفعال ومفعيل. وقرئ: نسقيه بالفتح. وسقى وأسقى: لغتان. وقيل: أسقاه: جعل له سقياً. الأناسي: جمع إنسي أو إنسان. ونحوه ظرابي في ظربان على قلب النون ياء والأصل: أناسين وظرابين. وقرئ بالتخفيف بحذف ياء أفاعيل كقولك: أناعم في: أناعيم.

فإن قلت: إنزال الماء موصوفاً بالطهارة وتعليله بالإحياء والسقي يؤذي بأن الطهارة شرط في صحة ذلك كما تقول: حملني الأمير على فرس جواد لأصيد عليه الوحش. قلت:

لما كان سقي الأناسي من جملة ما أنزل له الماء وصفة بالطهور إكراماً لهم وتتميماً للمنة عليهم وبياناً أن من حقهم حين أراد الله لهم الطهارة وأرادهم عليها أن يؤثروها في بطونهم ثم في ظواهرهم وأن يربئوا بأنفسهم عن مخالطة القاذورات كلها كما ربأ بهم ربهم. فإن قلت: لم خص الأنعام من بين خلق من الحيوان الشارب قلت: لأن الطير والوحش تبعد في طلب الماء فلا يعوزها الشرب بخلاف الأنعام ولأنها قنية الأناسي وعامة منافعهم متعلقة بها فكان الإنعام عليهم بسقي أنعامهم كالأنعام بسقيهم. فإن قلت: فما معنى تنكير الأنعام والأناسي ووصفها بالكثرة قلت: معنى ذلك أن عليه الناس وجلهم منيخون بالقرب من الأودية والأنهار ومنابع الماء ففيهم غنية عن سقي السماء وأعقابهم - وهم كثير منهم - لا يعيشهم إلا ما ينزل الله من رحمته وسقيا سمائه وكذلك قوله {لنحي به بلدة ميتاً} يريد بعض بلاد هؤلاء المتبعدين من مظلن الماء. فإن قلت: لم قدم إحياء الأرض وسقي الأنعام على سقي الأناسي قلت: لأن حياة الأناسي بحياة أرضهم وحياة أنعامهم فقدم ما هو سبب حياتهم وتعيشهم على سقيهم ولأنهم إذا ظفروا بما يكون سقيا أرضهم ومواشيهم لم يعدموا سقياهم.

{ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا} يريد: ولقد صرفنا هذا القول بين الناس في القرآن وفي سائر الكتب والصحف التي أنزلت على

الرسل عليهم السلام - وهو ذكر إنشاء السحاب وإنزال القطر - ليفكروا ويعتبروا ويعرفوا حق النعمة فيه ويشكروا {فأبى} أكثرهم إلا كفران النعمة وجحودها وقلة الاكتراث لها. وقيل: صرفنا المطر بينهم في البلدان المختلفة والأوقات المتغايرة وعلى الصفات المتفاوتة من وابل وطل. وجود ورذاذ وديمة ورهام فأبوا إلا الكفور وأن يقولوا: مطرنا بنوء كذا ولا يذكروا صنع الله ورحمته. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ما من عام أقل مطراً من عام ولكن الله قسم ذلك بين عباده على ما شاء وتلا هذه الآية. وروي أن الملائكة يعرفون عدد المطر ومقداره في كل عام لأنه لا يختلف ولكن تختلف فيه البلاد. وينتزع من ههنا جواب في تنكير البلدة والأنعام والأناسي كأنه قال: لنحيي به بعض البلاد الميتة ونسقيه بعض الأنعام والأناسي وذلك البعض كثير. فإن قلت: هل يكفر من ينسب الأمطار إلى الأنوار قلت: إن كان لا يراها إلا من الأنوار ويجحد أن تكون هي والأنواء من خلق الله: فهو كافر. وإن كان يرى أن الله خالقها وقد نصب} ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً} يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم} لو شئنا} لخففنا عنك أعباء نذارة جميع القرى. و} لبعثنا في كل قرية} نبياً ينذرها. وإنما قصرنا الأمر عليك وعظمناك به وأجللناك وفضصلناك على سائر الرسل فقابل ذلك بالتشديد والتصبر} فلا تطع الكافرين} فيما يريدونك عليه وإنما أراد بهذا تهييجه وتهييج المؤمنين وتحريكهم} به} والضمير للقرآن أو لترك الطاعة الذي يدل عليه {فلا تطع} والمراد: أن الكفار يجدون ويجتهدون في توهين أمرك فقابلهم من جدك واجتهادك وعضك على نواجذك بما تغلبهم به وتعلوهم وجعله جهاداً كبيراً لما يحتمل فيه من المشاق العظام. ويجوز أن يرجع الضمير في} به} إلى ما دل عليه {ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً} من كونه نذير كافة القرى لأنه لو بعث في كل قرية نذيراً لوجبت على كل نذير مجاهدة قريته فاجتمعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك المجاهدات كلها فكبر جهاده من أجل ذلك وعظم فقال له {وجاهدهم} بسبب كونك نذير كافة القرى} جهاداً كبيراً} جامعاً لكل مجاهد.

{وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً} سمى الماءين الكثيرين الواسعين: بحرين والفرات: البليغ العذوبة حتى يضرب إلى الحلاة.

والأجاج: نقيضه. ومرجهما متجاورين متلاصقين وهو بقدرته يفصل بينهما ويمنعهما التمازج.

وهذا من عظيم اقتداره. وفي كلام بعضهم: وبحران: أحدهما مع الآخر ممروج وماء العذب منهما بالأجاج ممزوج {برزخاً} حائلاً من قدرته كقوله تعالى {بغير عمد ترونها} [الرعد: 2 لقمان: 10] يريد بغير عمد مرئية وهو قدرته. وقرئ: ملح على فعل. وقيل: كأنه حذف من مالح تخفيفاً كما قال: وصلينا برداً يريد: بارداً. فإن قلت {وحجراً محجوراً} ما معناه قلت: هي الكلمة التي يقولها المتعوذ وقد فسرناها وهي ههنا واقعة على سبيل المجاز كأن كل واحد من البحرين يتعوذ من صاحبه ويقول له: حجراً محجوراً كما قال {لا يبغيان} [الرحمن: 20] أي لا ينبغي أحدهما على صاحبة بالممازجة فانتفاء البغي ثمة كالتعوذ ههنا: جعل كل واحد منهما في صورة الباغي على صاحبه فهو يتعوذ منه. وهي من أحسن الاستعارات وأشهدها على البلاغة.

{وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً} أراد: فقسم البشر قسمين ذوي نسب أي: ذكوراً ينسب إليهم فيقال: فلان بن فلان وفلانة بنت فلانة وذوات صهر: أي إناثاً يصاهر بهن ونحوه قوله تعالى {فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى} [القيامة: 39]. {وكان ربك قديراً} حيث خلق من النطفة الواحدة بشراً نوعين: ذكراً {ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيراً} الظهير والمظاهر كالعوين والمعاون. وفعيل بمعنى مفاعل غير عزيز. والمعنى: أن الكافر يظاهر الشيطان على ربه بالعداوة والشرك. روي أنها نزلت في أبي جهل ويجوز أن يريد بالظهير: الجماعة كقوله {والملائكة بعد ذلك ظهيراً} التحريم: 4 كما جاء: الصديق والخليط يريد بالكافر: الجنس وأن بعضهم مظاهر لبعض على إطفاء نور دين الله. وقيل: معناه: وكان الذي يفعل هذا الفعل - وهو عبادة ما لا ينفع ولا يضر - على ربه هيناً مهيناً من قولهم: ظهرت به إذا خلقته خلف ظهرك لا تلتفت إليه وهذا نحو قوله {أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم} [آل عمران: 77].

{وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً قل ما أسئلكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً} مثال {إلا من شاء} المراد: إلا فعل م شاء واستثنائه عن الأجر قول ذي شفقة عليك قد سعى لك في تحصيل مال: ما أطلب منك ثواباً على ما سعيت إلا أن تحفظ هذا المال ولا تضيعه.

فليس حفظك المال لنفسك من جنس الثواب ولكن صوره هو بصورة الثواب وسماه باسمه فأفاد فائدتين إحداهما: قلع شبهة الطمع في الثواب من أصله كأنه يقول لك: إن كان حفظك لمالك ثواباً فإني أطلب الثواب والثانية: إظهار الشفقة البالغة وأنك إن حفظك مالك: اعتد بحفظك ثواباً ورضي به كما يرضى المثاب بالثواب. ولعمري إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مع المبعوث إليهم بهذا الصدد وفوقه. ومعنى اتخاذهم إلى الله سبيلاً: تقربهم إليه وطلبهم عنده الزلفى بالإيمان والطاعة. وقيل: المراد التقريب بالصدقة والنفقة في سبيل الله.

{وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به ذنوب عباده خبيراً} أمره بأن يثق به ويسند أمره إليه في استكفاء شرورهم مع التمسك بقاعدة التوكل وأساس الالتجاء وهو طاعته وعبادته وتنزيهه وتحميده عرفه أن الحي الذي لا يموت حقيق بأن يتوكل عليه وحده ولا يتكل على غيره من الأحياء الذين يموتون. وعن بعض السلف أنه قرأها فقال: لايصح لذي عقل أن يثق بعدها بمخلوق ثم أراه أن ليس إليه من أمر عباده شيء. آمنوا أم كفروا وأنه خبير بأحوالهم كاف في جزاء أعمالهم.

{الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فسئل به خبيراً} {في ستة أيام} يعني في مدة: مقدارها هذه المدة لأنه لم يكن حينئذ نهار ولا ليل قيل: ستة أيام من أيام الآخرة وكل يوم الف سنة. والظاهر أ ها من أيام الدنيا. وعنمجاهد: أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة. ووجهه أن يسمي الله تعالى لملائكته تلك الأيام المقدرة بهذه الأسماء فلما خلق الشمس وأدارها وترتب أمر العالم على ما هو عليه جرت التسمية على هذه الأيام.

وأما الداعي إلى هذا العدد - أعني الستة دون سائر الأعداد - فلا نشك أنه داعي حكمة لعلمنا أنه لا يقدر تقديراً إلا بداعي حكمة وإن كنا لا نطلع عليه ولا نهتدي إلى معرفته. ومن ذلك تقدير الملائكة الذين هم أصحاب النار نسعة عشر وحملة العرش ثمانية والشهور اثني عشر: والسموات سبعاً والأرض كذلك والصلوات خمساً وأعداد النصب والحدود والكفارات وغير ذلك. والإقرار بدواعي الحكمة في جميع أفعاله وبأن ما قدره حق وصواب هو الإيمان.

وقد نص عليه في قوله {وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستقين الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قولهبم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً} [المدثر: 31] ثم قال {وما يعلم جنود ربك إلا هو} [المدثر: 31] وهو الجواب أيضاً في أن لم يخلقها في ستة أيام وهو يقدر على أن يخلقها في لحظة تعليماً لخلقه الرفق والتثبيت. وقيل: اجتمع خلقها يوم الجمعة فجعله الله عيداً للمسلمين. الذي خلق مبتدأ. و} الرحمن} خبره. أو صفة للحي والرحمن: خبر مبتدأ محذوف. أو بدل عن المستتر في استوى. وقرئ: الرحمن بالجر صفة للحي. وقرئ: فسل والباء في به صلة سل كقوله تعالى {سأل سائل بعذاب واقع} [المعارج: 1] كما تكون عن صلته في نحو قوله {ثم لتسألن يومئذ عن النعيم} [التكاثر: 8] فسأل به كقوله: اهتم به واعتني به واشتغل به.

وسأل عنه كقولك بحث عنه فتش عنه ونقر عنه. أو صلة خبيراً: وتجعل خبيراً مفعول سل يريد: فسل عنه رجلاً عارفاً يخبرك برحمته أو فسل رجلاً خبيراً به وبرحمته. أو: فسل بسؤاله خبيراً كقولك: رأيت به أسداً أي برؤيته والمعنى: إن سألته وجدته خبيراً. أو تجعله حالاً عن الهاء تريد: فسل عنه عالماً بكل شيء. وقيل: الرحمن اسم من أسماء الله مذكور في الكتب المتقدمة ولم يكونوا يعرفونه: فقيل: فسل بهذا الأسم من سخبرك من أهل الكتاب حتى تعرف من ينكره. ومن ثمة كانوا يقولون: ما نعرف الرحمن إلا الذي باليمامة يعنون مسيلمة. وكان يقال له: رحمن اليمامة.

{وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً} {وما الرحمن} يجوز أن يكون سؤالا عن المسمى به لأنهم ما كانوا يعرفونه بهذا الاسم والسؤال عن المجهول ب ما. ويجوز أن يكون سؤالاً عن معناه لأنه لم يكن مستعملاً في كلامهم كما استعمل الرحيم والرحوم والراحم. أو لأنهم أنكروا إطلاقه على الله تعالى: لما تأمرنا: أي للذي تأمرناه بمعنى تأمرنا سجوده على قوله: أمرتك الخير. أو لأمرتك لنا. وقرئ بالياء كأن بعضهم قال لبعض: أنسجد لما يأمرنا محمد صلى الله عليه وسلم أو يأمرنا المسمى بالرحمن ولا نعرف ما هو. وفي: زادهم ضمير {اسجدوا للرحمن} لأنه هو المقول.

{تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً} البروج: منازل الكواكب السبعة السيارة: الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة واميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت: وسميت بالبروج التي هي القصور العالية لأنها لهذه الكواكب كالمنازل لسكانها. واشتقاق البرج من التبرج لظهوره.

والسراج: الشمس كقوله تعالى {وجعل الشمس سراجاً} [نوح: 16] وقرئ: سرجا} وهي الشمس والكواكب الكبار معها. وقرأ الحسن والأعمش: وقمراً منيراً وهي جمع ليلة قمراء كأنه قال: وذا قمر منيراً لأن الليالي تكون قمراً بالقمر فأضافه إليها. ونظيره - في بقاء حكم المضاف بعد سقوطه وقيام المضاف إليه مقامه - قول حسان: بردى يصفق بالرحيق السلسل يريد: ماء بردى ولا يبعد أن يكون القمر بمعنى القمر كالرشد والرشد والعرب والعرب.

{وهو الذي جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد يذكر أو أراد شكوراً} الخلفة من خلف كالركبة من ركب. وهي الحالة التي يخلف عليها الليل والنهار كل واحد منهما الآخر. والمعنى: جعلهما ذوي خلفة أي: ذوي عقبة أي يعقب هذا ذاك وذاك هذا.

ويقال: الليل والنهار يختلفان كما يقال: يعتبان. ومنه قوله {واختلاف الليل والنهار} [البقرة: 164 آل عمران: 190 الجاثية: 5] ويقال: بفلان خلفه واختلاف. إذا اختلف كثيراً إى متبرزة. وقرئ: يذكر ويذكر. وعن أبي بن كعب رضي الله عنه: يتذكر. والمعنى لينظر في اختلافهما الناظر فيعلم أن لا بد لانتقالهما من حال إلى حال وتغيرهما من ناقل ومغير.

ويستدل بذلك على عظم قدرته ويشكر الشاكر على النعمة فيهما من السكون بالليل والتصرف بالنهار كما قال عز وعلا {ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله} [القصص: 73] أو ليكونا وقتين للمتذكرين والشاكرين من فاته في أحدهما ورده من العبادة قام به في الآخر. وعن الحسن رضي الله عنه: من فاته في أحدهما ورده من العبادة قام به في الآخر. وعن الحسن رضي الله عنه: من فاته عمله م التذكر والشكر بالنهار كان له في الليل مستعتب. ومن فاته بالليل: كان له في النهار مستعتب.

{وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما} {وعباد الرحمن} مبتدأ خبره في آخر السورة كأنه قيل: وعباد الرحمن الذين هذه صفاتهم أولئك يجزون الغرفة. ويجوز أن يكون خبره {الذين يمشون} وأضافهم إلى الرحمن تخصيصاً وتفضيلاً. وقرئ: وعباد الرحمن وقرئ: يمشون هوناً حال أو صفة للمشي بمعنى: هينين. أو: مشياً هيناً إلا أن في وضع المصدر موضع الصفة مبالغة. والهون: الرفق واللين. ومنه الحديث: أحبب حبيبك هوناً ما وقوله: المؤمنون هينون لينون والمثل: إذا عز أخوك فهن. ومعناه: إذا عاسر فياسر. والمعنى: أنهم يمشون بسكينة ووقار وتواضع لا يضربون بأقدامهم ولا يخفقون بنعالهم أشراً وبطراً ولذلك كره بعض العلماء الركوب في الأسواق ولقوله {ويمشون في الأسواق} [الفرقان: 20]. {سلاماً} تسليماً منكم لا نجاهلكم ومتاركة لا خير بيننا ولا شر أي نتسلم منكم تسليماً فأقيم السلام مقام التسلم. وقيل: قالوا سداداً من القول يسلمون فيه من الإيذاء والإثم. والمراد بالجهل: السفه وقلة الأدب وسوء الرعة من قوله:

ألا يجهلن أحد علينا** فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وعن أبي العالية: نسختها آية القتال ولا حاجة إلى ذلك لأن الإغضاء عن السفهاء وترك المقابلة مستحسن في الأدب والمروءة والشريعة وأسلم للعرض والورع.

{الذين يبتون لربهم سجداً وقياما} البيتوتة: خلاف الظلول وهو أن يدركك الليل نمت أو لم تنم وقالوا: من قرأ شيئاً من القرآن في صلاته وإن قل فقد بات ساجداً وقائماً. وقيل: هما الركعتان بعد المغرب والركعتان بعد العشاء والظاهر أنه وصف لهم بإحياء الليل أو بأكثره. يقال: فلان يظل صائماً يبيت قائماً.

{الذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما إنها ساءت مستقراً ومقاماً} {غراماً} هلاكاً وخسراناً ملحاً لازماً قال:

ركبانا عذاباً وكانا غراما ** ويوم النسار ويم الجفا

وقال:

إن يعاقب يك غراماً وإن يع**ط جزيلاً فإنه لا يبالي

ومنه: الغريم: لإلحاحه ولزامه. وصفهم بإحياء الليل ساجدين وقائمين ثم عقبه بذكر دعوتهم هذه إيذاناً بأنهم مع اجتهادهم خائفون مبتهلون إلى الله تعالى في صرف العذاب عنهم كقوله تعالى {والذين يؤتون ما آتوا قلوبهم وجلة} [المؤمنون: 60].{ساءت} في حكم بئست وفيها ضمير مبهم يفسره مستقراً والمخصوص بالذم محذوف ومعناه: ساءت مستقراً ومقاما هي. وهذا الضمير هو الذي ربط الجملة باسم إن وجعلها خبراً لها. ويجوز أن يكون} ساءت} بمعنى: أحزنت. وفيها ضمير اسم إن و} مستقراً} حال أو تمييز والتعليلان يصح أن يكونا متداخلين {الذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما} قرئ: يقتروا بكسر التاء وضمها. ويقتروا بتخفيف التاء وتشديدها. والقتر والإقتار والتقتير: التضييق الذي هو نقيض الإسراف. والإسراف: مجاوزة الحد في النفقة. ووصفهم بالقصد الذي هو بين الغلو والتقصير. وبمثله أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم {ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط} [الإسراء: 29] وقيل: افسراف إنما هو الإنفاق في المعاصي فأما في القرب فلا إسراف. وسمع رجل رجلاً يقول: لا خير في الإسراف. فقال: لا إسراف في الخير وعن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه شكر عبد الملك بن مروان حين زوجه ابنته وأحسن إليه فقال: وصلت الرحم وفعلت وصنعت وجاء بكلام حسن فقال ابن لعبد الملك: إنما هو كلام أعده لهذا المقام فسكت عبد الملك فلما كان بعد أيام دخل عليه والأبن حاضر فسأله عن نفقته وأحواله فقال: الحسنة بين السيئتين فعرف عبد الملك أنه أراد ما في هذه الآية فقال لابنه: يا بني أهذا مما أعده وقيل: أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا لا يأكلون طعاماً للتنعيم واللذة ولا يلبسون ثوباً للجمال والزينة ولكن كانوا ما يسد جوعتهم ويعينهم على عبادة ربهم ويلبسون ما يستر عوراتهم ويكنهم من الحر والقر وقال عمر رضي الله عنه: كفى سرفاً أن لا يشتهي رجل شيئاً إلا اشتراه فأكله. والقوام: العدل بين الشيئين لاستقامة الطرفين واعتدالهما. ونظير القوام من الاستقامة: السواء من الاستواء. وقرئ: قواماً بالكسر وهو ما يقام به الشيء. يقال: أنت قوامنا بمعنى ما تقام به الحاجة لا يفضل عنها ولا ينقص والمنصوبان أعني {بين ذلك قواماً}: جائز أن يكونا خبرين معاً وأن يحتمل بين ذلك لغواً وقواماً مستقراً. وأن يكون الظرف خبراً وقواماً حالاً مؤكدة. وزأجاز الفراء أن يكون} بين ذلك} اسم كان على أنه مبني لإضافته إلى غير متمكن كقوله: لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت وهو من جهة الإعراب لا بأس به ولكن المعنى ليس بقوى: لأن ما بين الإسراف والتقتير قوام لا محالة فليس في الخبر الذي هو معتمد الفائدة فائدة.

{والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً}

{حرم الله} أي حرمها. المعنى: حرم قتلها. و{إلا بالحق} متعلق بهذا القتل المحذوف. أو ب لا يقتلون ونفي هذه المقبحات العظام عن الموصوفين بتلك الخلال العظيمة في الدين للتعريض بما كان عليه أعداء المؤمنين من قريش وغيرهم كأنه قيل: والذين برأهم الله وطهرهم مما أنتم عليه.

قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم قال: أن تجعل لله نداً هو خلقك قلت ثم أي أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك قلت ثم أي قال: أن تزني حليلة جارك فأنزل الله تصديقه. وقرئ: يلق فيه أثاماً. قرئ: يلقى بإثبات الألف وقد مر مثله. والآثام: جزاء الإثم بوزن الوبال والنكال ومعناهما قال:

عقوقاً والعقوق له أثام **جزى الله ابن عروة حيث أمسى

وقيل هو الإثم ومعناه: يلق جزاء اثام. وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: أياماً أي شدائد.

يقال: يوم ذو أيام: لليوم العصيب. {يضاعف} بدل من يلق لأنهما في معنى واحد. كقوله:

تجد حطباً جزلاً وناراً تأججا ** متى تأتينا تلم بنا في ديارنا

وقرئ: يضعف ونضعف له العذاب بالنون ونصب العذاب. وقرئ بالرفع على الاستئتاف أو على الحال كذلك {ويخلد} وقرئ: ويخلد على البناء للمفعول مخففاً ومثقلاً من الإخلاد والتخليد. وقرئ: وتخلد بالتاء على الالتفاف} يبدل مخفف ومثقل من الإخلاء والتخليد.

وقرئ: وتخلد بالتاء على الالتفات {يبدل} مخفف ومثقل وكذلك سيئاتهم. فإن قلت: ما معنى مضاعفة العذاب وإبدال السيئات حسنات قلت: إذا ارتكب المشرك معاصي مع الشرك عذب على الشرك وعلى المعاصي جميعاً فتضاعف العقوبة لمضاعفة المعاقب عليه. وإبدال السيئات حسنات: أنه يمحوها بالتوبة ويثبت مكانها الحسنات: الإيمان والطاعة والتقوى.

وقيل: يبدلهم بالشرك إيماناً. وبقتل المسلمين: قتل المشركين وبالزنا: عفة وإحصاناً.

{من تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متابا} يريد: ومن يترك المعاصي ويندم عليها ويدخل عليها ويدخل في العمل الصالح فإنه بذلك تائب إبلى الله {متابا} مرضياً عنده مكفراً للخطايا محصلاً للثواب. أو فإنه تائب متابا إلى الله الذي يعرف حق التائبين ويفعل بهم ما يستوجبون والذي يحب التوابين ويحب المتطهرين. وفي كلام بعض العرب: لله أفراح بتوبة إلى الله تعالى وإلى ثوابه مرجعاً حسناً وأي مرجع.

{الذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما}

يحتمل أنهم ينفرون عن محاضرة الكاذبين ومجالس الخاطائين فلا يحضرونها ولا يقربونها تنزهاً عن مخالطة الشر وأهله وصيانة لدينهم عما يثلمه: لأن مشاهدة الباطل شركة فيه ولذلك قيل في النظارة إلى كل ما لم تسوغه الشريعة: هم شركاء فاعلية في الإثم لأن حضورهم ونظرهم دليل الرضا به وسبب وجوده والزيادة فيه لأن الذي سلط على فعله هو استحسان النظرة ورغبتهم في النظر إليه وفي مواعظ عيسى بن مريم عليه السلام: إياكم ومجالسه الخاطئين. أنهم لا يشهدون شهادة الزور فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وعن قتادة: مجالس الباطل. وعن ابن الحنفية: اللهو والغناء. وعن مجاهد: أعياد المشركين. {وإذا مروا باللغو مروا كراما} اللغو: كل ما ينبغي أن يلغى ويطرح. والمعنى: وإذا مروا بأهل اللغو والمشتغلين به. مروا معرضين عنهم مكرمين أنفسهم عن التوقف عليهم والخوض معهم كقوله تعالى {وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلي} [القصص: 55] وعن الحسن رضي الله عنه: لم تسفههم المعاصي. وقيل: إذا سمعوا من الكفار الشتم والأذى أعرضوا وصفحوا. وقيل: إذا ذكروا النكاح كنوا عنه.

{والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا} {لم يخروا عليها} ليس بنفي للخرور. وإنما هو إثبات له ونفس للصمم والعمى كما تقول: لا يلقاني زيد مسلماً هو نفي للسلام لا للقاء. والمعنى: أنهم إذا ذكروا بها أكبوا عليها حرصاً على استماعها. وأقبلوا على المذكر بها وهم في إكبابهم عليها سامعون بآذن واعية مبصورن بعيون راعية لا كالذين يذكرون بها فتراهم مكبين عليها مقبلين على من يذكر بها مظهرين الحرص الشديد على استماعها وهم كالصم العميان حيث لا يعونها ولا تبصرون ما فيها كالمنافقين وأشباههم.

{والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما} قرئ: ذريتنا وذرياتنا. وقرة أعين وقرات أعين. سألوا ربهم أن يرزقهم أزواجاً وأعقاباً عمالاً لله يسرون بمكانهم وتقر بهم عيونهم وهم محمد بن كعب: ليس شيء أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو الولد إذا رآه يكتب الفقه. وقيل: سألوا أن يلحق الله بهم أزواجهم وذريتهم في الجنة ليتم لهم سرورهم واجعلنا للمتقين إماما. أراد: أئمة فاكتفى بالواحد لدلالته على الجنس ولعدم اللبس كقوله تعالى {ثم يخرجوكم طفلاً} [غافر: 67] أو أرادوا: اجعل كل واحد منا إماماً. أو أراد جمع آم كصائم وصيام. أو أرادوا اجعلنا إماماً واحداً لاتحادنا واتفاق كلمتنا. وعن بعضهم: في الآية ما يدل على أن الرياسة في الدين يجب أن تطلب ويرغب فيها. وقيل: نزلت هذه الآيات في العشرة المبشرين بالجنة. فإن قلت {من} في قوله {من أزواجنا} ما هي قلت: يحتمل أن تكون بيانية كأنه قيل: هب لنا قرة أعين ثم بينت القرة وفسرت بقوله: من أزواجنا وذرياتنا. ومعناه: أن يجعلهم الله لهم قرة أعين وهو من وقلهم: رأيت منك أسداً أي: أنت أسد وأن تكون ابتدائية على معنى: هب لنا من جهتهم ما تقر به عيوننا من طاعة وصلاح. فإن قلت: لم قال {قرة أعين} فنكر وقلل قلت: ا التنكير فلأجل تنكير القرة لأن المضاف لا سبيل إلى تنكيره إلا بتنكير المضاف إليه كأنه قيل: هب لنا منهم سروراً وفرحاً. وإنما قيل {اعين} دون عيون لأنه أراد أعين المتقين. هي قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم. قال الله تعالى {وقليل من عبادي الشكور} [سبأ: 13] ويجوز أن يقال في تنكير} أعين} أنها أعين خاصة وهي أعين المتقين.

{أولئك يجزون الغرفة بما صبورا ويلقون فيها تحية وسلاما خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً} المراد يجزون الغرفات وهي العلالي في الجنة فوحد اقتصاراً على الواحد الدال على الجنس والدليل على ذلك قوله {وهم في الغرفات آ ا} [سبأ: 37] وقراءة من قرأ: في الغرفة} بما صبروا} بصبرهم على الطابعات وعن الشهوات وعن أذى الكفار ومجاهدتهم وعلى الفقر وغير ذلك.

وغطلاقه لأجل الشياع في كل مصبور عليه. يلقون وقرئ: يلقون كقوله تعالى {ولقاهم نضرة وسروراً} [الإنسان: 11] ويلقون كقوله تعالى {يلق أثاما} [الفرقان: 68]. والتحية: دعاء بالتعمير.

والسلام: دعاء بالسلامة يعني أن الملائكة يحيونهم ويسلمون عليهم. أو يحيى بعضهم بعضاً ويسلم عليه أو يعطون التبقية والتخليد مع السلامة عليهم. أو يحيى بعضهم بعضاً ويسلم عليه أو يعطون التبقية والتخليد مع السلامة عن كل آفة. اللهم وفقنا لطاعتك واجعلنا مع أهل رحمتك وارزقنا مما ترزقهم في دار رضوانك.

{قل ما يعبؤا بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً} لما وصف عبادةو العباد وعدد صالحاتهم وحسناتهم واثنى عليهم من أجلها ووعدهم الرفع من درجاتهم في الجنة: أتبع ذلك بيان أنه إنما اكترث لأولئك وعبأ بهم وأعلى ذكرهم ووعدهم ما وعدهم لأجل عبادتهم فأمر رسوله أن يصرح للناس ويجزم لهم القول بأن الاكتراث لهم عند ربهم إنما هو للعبادة وحدها لا لمعنى آخر ولولا عبادتهم لم يكترث لهم البتة ولم يعتد بهم ولم

يكونوا عنده شيء يبالي به. ولولا عبادتهم لم يكترث لهم البتة ولم يعتد بهم ولم يكونوا عنده شيء يبالي به والدعاء: العبادة. و{ما} متضمنة لمعنى الاستفهام وهي في محل النصب وهي عبارة عن المصدر كأنه قيل: وأي عبء يعبأ بكم لولا دعائكم. يعني أنكم لا تستأهلون شيئاً من العبء بكم لولا عبادتكم. وحقيقة قولهم ما عبأت به: ما اعتددت به من فوادح همومي ومما يكون عبئاً علي كما تقول: ما اكترثت له أي: ما اعتددت به من كوارثي ومما يهمني. وقال الزجاج في تأويل {ما يعبؤا بكم ربي}: أي وزن يكون لكم عنده ويجوز أن تكون} ما} نافية} فقد كذبتم} يقول: إذا أعلمتكم أن حكمي أني لا أعتد بعبادي إلا عبادتهم فقد خالفتم بتكذيبكم حكمي فسوف يلزمكم أثر تكذيبكم حتى يكبكم في النار. ونظيره في الكلام أن يقول الملك لمن استعصى عليه: إن من عادتي أن عصيانك. وقيل: معناه ما يصنع بكم ربي لولا دعاؤه إياكم إلى الإسلام. وقيل: ما يصنع بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهة فإن قلت: إلى من يتوجه هذا الخطاب قلت: ما يصنع بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهة فإن قلت: إلى من يتوجه هذا الخطاب قلت: إلى الناس على الإطلاق ومنهم مؤمنون عابدون ومكذبون عاصون فخوطبوا بما وجدوا في جنسهم م العبادة والتكذيب. وقرئ فقد كذب الكافرون وقبل يكون العذاب لزاماً. وعن مجاهد رضي الله عنه: هو القتل يوم بدر أنه لوزم بين القتلى لزاماً.

وقرئ: لزاماً بالفتح بمعنى اللزوم كالثبات والثبوت. والوجه أن ترك اسم كان غير منطوق به بعدما علم أنه مما توعد به لأجل الأبهام وتناول ما لا يكتنهه الوصف والله أعلم بالصواب.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ الفرقان لقي الله يوم القيامة وهو مؤمن بأن الساعة آتية لا ريب فيها وأدخل الجنة بغير نصب.

سورة الشعراء

مكية وهي مائتان وسبع وعشرون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

{طسم تلك آيات الكتاب المبين} {طسم} بتفخيم الألف وإمالتها وإظهار النون وإدغامها} الكتاب المبين} الظاهر إعجازه وصحة أنه م عند الله والمراد به السورة أو القرآن والمعنى: آيات هذا المؤلف من الحروف المبسوطة تلك آيات الكتاب المبين.

{لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين} ابخع: أي يبلغ بالذبح البخاع بالباء وهو عرق نستبطن الفقار وذلك أقصى حد الذبح ولعل للإشقاق يعني: أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على ما فاتك من إسلام قومك {ألا يكونوا مؤمنين} لئلا يؤمنوا او لامتناع إيمانهم أو خفية أن يؤمنوا. وعن قتادة رضي الله عنه: باخع نفسك على الإضافة.

{إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعون} أراد: آية ملجئة إلى الإيمان قاصرة عليه.} فظلت} معطوف على الجزاء الذي هو ننزل لأنه لو قيل: أنزلنا لكان صحيحاً. ونظيره: فأصدق وأكن كأنه قيل: أصدق. وقد قرئ: لو شئنا لأنزلنا. وقرئ: فتظل أعناقهم فإن قلت: كيف صح مجئ خاضعين خبراً عن الأعناق قلت: أصل الكلام: فظلوا لها خاضعين فاقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع وترك الكلام على أصله كقولهم: ذهبت أهل اليمامة كأن الأهل غير مذكور. أو لما وصفت بالخضوع الذي هو للعقلاء قيل: خاضعين كقوله تعالى {لي ساجدين} [يوسف: 4]. وقيل: أعناق الناس:

رؤساؤهم ومقدماتهم شبهوا بالأعناق كما قيل لهم هم الرؤوس والنواصي والصدور. قال: في محفل من نواصي الناس مشهود وقيل: جماعات الناس. يقال: جاءنا عنق من الناس لفوج منهم. وقرئ: فظلت أعناقهم لها خاضعة. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية فينا وفي بني أمية. قال: ستكون لنا عليهم الدولة فتذل لنا أعناقهم بعد صعوبة ويلحقهم هوان بعد عزة.

{وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين فقد كذبوا فسيأتيهم أنبؤا ما كانوا يه يستهزءون} أي: وما يجدد لهم الله بوحيه موعظة وتذكيراً إلا جددوا إعراضاً عنه وكفرا به. فإن قلت: كيف خولف بين الألفاظ والغرض واحد وهي الإعراض والتكذيب والاستهزاء قلت: إنما خولف بينهما لاختلاف الأغراض كأنه قيل: حين أعرضوا عن الذكر فقد كذبوا به يوحين كذبوا به فقد خف عندهم قدره وصار عرضه للإستهزاء والسخرية لأن من كان قابلاً للحق مقبلاً عليه كان مصدقاً به لا محالة ولم يظن به التكذيب. ومن كان مصدقاً به كان موقراً له {فسيأتيهم} وعيد لهم وإنذار بأنهم سيعلمون إذا مسهم عذاب الله بوم بدر أو يوم القيامة{ما} {أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم} وصف الزوج وهو الصنف من النبات بالكرم والكريمك صفة لكل ما يرضى ويحمد في بابه ويقال: وجه كريم إذا رضي في حسنه وجماله وكاب كريم: مرضي في معانيه وفوائده وقال: حتى يشق الصفوف من كرمه أي: من كونه مرضياً في شجاعنه وبأسه. والنبات الكريم: المرضي فيما يتعلق به من المنافع {إن في} إناب تلك الأصناف {لآية} على أن منيبها قادر على إجياء الموتى وقد علم الله أن أكثرهم مطبوع على قلوبهم غير مرجو إيمانهم {وإن ربك لهو العزيز} فيانتقامه من الكفرة {الرحيم} لمن تاب وآمن وعمل صالحاً. فإن قلت: ما معنى الجمع بين كم وكل ولو قيل:: م أنبتنا فيها من زوج كريم قلت: قد دل {كل} على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل و{كم} على أن هذا المحيط متكاثر مفرط الكثرة فهذا معنى الجمع بينهما وبه نبه على الكمال قدرته. فإن قلت: فما معنى وصف الزوج بالكريم قلت: يحتمل معنيين أحدهما: أن النبات على نوعين: نافع وضار فذكر كثرة ما أنبت في الأرض من جميع أصناف النبات النافع وخلى ذكر الضار.

الثاني: أن يعم جميع النبات نافعة وضاره. ويصفها جميعاً بالكرم وينبه على أنه ما أنبت شيئاً إلا وفيه فائدة لأن الحكيم لا يفعل فعلاً إلا لغرض صحيح ولحكمة بالغة وإن غفل عنها الغافلون ولم يتوصل إلى معرفتها العاقلون. فإن قلت: فحين ذكر الأزواج ودل عليها بكلمتي الكثرة والإحاطة وكانت بحيث لا يحصيها إلا علم الغيب كيف قال {إن في ذلك لآية} وهلا قال: آيات قلت: فيه وجهان: أن يكون ذلك مشاراً به إلى مصدر أنبتنا فكأنه قال: إن في

ألإنبات لآية أي آية. وأن يراد: أن في كل واحدة من تلك الأزواج لآية. وقد سبقت لهذا الوجه نظائر.

{وإذ نادي ربك موسى أن أئت القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتقون} سجل عليهم بالظلم بأن قدم القوم الظالمين ثم عطفهم عليهم عطف البيان كأن معنى القوم الظالمين وترجمته قوم فرعون وكأنهما عبارتان تعقبان على مؤدى واحد: إن شاء ذاكرهم عبر عنهم بالقوم الظالمين وإن شاء عبر بقوم فرعون. وقد استحقوا هذا الاسم من جهتين: من جهة ظلمهم أنفسهم بالكفر وشرارتهم ومن جهة ظلمهم لبني إسرئيل باستبعادهم لهم. قرئ: ألا يتقون بكسر النون بمعنى: ألا يتقونني: فحذفت النون لاجتماع النونين والياء للكتفاء بالكسرة.

فإن قلت: بما تعلق قوله: ألا يتقون قلت: هو كلام مستأنف أتبعه عز وجل إرساله إليهم للإنذار والتسجيل عليهم بالظلم. تعجيباً لموسى من حالهم التي شنعت في الظلم والعسف ومن أمنهم العواقب وقلة خوفهم وحذرهم من أيام الله. ويحتمل أن يكون {ألا يتقون} حالاً من الضمير في الظالمين أي: يظلمون غير متقين الله وعقابه فأدخلت همزة الإنكار على الحال. وأما من قرأ: ألا تتقون. على الخطاب. فعلى طريقة الالتفاف إليهم وجبههم وضرب وجوههم بالإنكار والغضب عليهم كما ترى من يشكو من ركب جناية إلى بعض أخصائه والجاني حاضر فإذا اندفع في الشكاية وحر مزاجه وحمى غضبه قطع مباثة صاحبه وأقبل على الجاني يوبخه ويعنف به ويقول به: ألم تتق الله ألم تستح من الناس. فإذا قلت: فما فائدة هذا الإلتفات والخطاب مع موسى عليه الصلاة والسلام في وقت المناجاة والملتفت إليهم غيب لا يشعرون قلت: إجراء ذلك في تكليم المرسل إليهم في معنى إجرائه بحضرتهم وإلقائه إلى مسامعهم لأنه مبلغه ومنهيه وناشره بن الناس وله فيه لطف وحث على زيادة التقوى وكم من آية أنزلت في شأن الكافرين وفيها أوفر نصيب للمؤمنين تدبراً لها واعتباراً بموردها. وفي {ألا يتقون} بالياء وكسر النون وجه آخر وهو أن يكون المعنى: ألا يا ناس اتقون كقوله {ألا يسجدوا} [النمل: 25].

{قال رب إني أخاف أن يكذبون ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون} ويضيق وينطلق بالرفع لأنهما معطوفان على خبر إن وبالنصب لعطفهما على صلة أن.

والفرق بينهما في المعنى: أن الرفع يفيد أن فيه ثلاث علل: خوف التكذيب ي وضيق الصدر وامتناع انطلاق اللسان والنصب على أن خوفه متعلق بهذه الثلاثة. فإن قلت: في النصب تعليق

الخوف بالأمور الثلاثة وفي جملتها نفي انطلاق اللسان. وحقيقة الخوف إنما هي غم يلحق الإنسان لأمر سيقع وذلك كان واقعاً فكيف جاز تعليق الخوف به قلت: قد علق الخوف بتكذيبهم بوما يحصل له بسببه من ضيق الصدر والحسبة في اللسان زائدة على ما كان به على أن تلك الحسبة التي كانت به قد زالت بدعوته. وقيل: بقيت منها بقية يشيرة. فإن قلت: أعتذارك هذا يرده الرفع لأن المعنى: إني خائف ضيق الصدر غير منطلق اللسام. قلت: يجوز أن يكون هذا قبل الدعوة واستجابتها ويجوز أن يريد القدر اليسير الذي بقي به ويجوز أن لا يكون مع حل العقدة من لسانه م الفصحاء المصاقع الذين أوتوا سلاطة الألسنة وبسطة في غير هذا الموضع وقد أحسن في الاختصار حيث قال {فأرسل إلى هارون} فجاء بما يتضمن معنى الاسنباء ومثله في تقصير الطويلة والحسن قوله تعالى {فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا} [الفرقان: 36] حيث اقتصر على ذكر طرفي القصة أولها وآخرها وهما الإنذار والتدمير ودل بذكرهما على ما هو الغرض من القصة الطويلة كلها وهو أنهم قوم كذبوا بآيات الله فأراد الله إلزام الحجة عليهم فبعث إليهم رسولين فكذبوهما فأهلكهم. فإن قلت: كيف ساغ لموسى عليه السلام أن يأمره الله بأمر فلا يتقبله بسمع وطاعة من غير توقف وتشبث بعلل وقد علم أن الله من ورائه قلت: قد امتثل وتقبل ولكنه التمس من ربه أن يعضده بأخيه حتى يتعاونا على تنفيذ أمره وتبليغ رسالته فمهد قبل التماسه عذره فيما التمسه ثم التمس بعد ذلك وتمهيد العذر في التماس المعين على تنفيذ الأمر: ليس بتوقف في امتثال الأمر ولا بتعلل فيه وكفى بطلب الوعن دليلاً على النقبل لا على التعلل.

{ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون} أراد بالذنب: قتله القبطي. وقيل: كان خباز فرعون واسمه فاتون. يعني: ولهم علي تبعة ذنب وهي قود ذلك القتل فأخاف أن يقتلوني به فحذف المضاف. أو سمي تبعية الذنب ذنباً كما سمى جزاء السيئة سيئة. فإن قلت: قد أبيت أن تكون تلك الثلاث عللا وجعلتها تمهيداً للعذر فيما التسمية فما قولك في هذه الرابعة قلت: هذه استدفاع ما جاء بعده من كلمة الردع والموعد بالكلاءة والدفع.

{قال كلا فأذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين أن أرسل معنا بني إسرائيل قال ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين قال فعلتها إذاً وأنا من الضالين ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل} جمع الله له الاستجابتين معاً في قوله: {كلا فاذهبا} لأنه استدفعه بلاءهم فوعده الدفع بردعه عن الخوف والتمس منه الموازرة بأخيه فأجابه بقوله {فاذهبا} أي اذهب أنت والذي طلبته وهو هارون. فإن قلت: علام عطف قوله {فاذهبا} قلت: على الفعل الذي يدل عليه {كلا}: انه قيل: ارتدع يا موسى عما تظن فاذهب أنت وهارون. وقوله {معكم مستمعون} من مجاز الكلام يريد: أنا لكما ولعدوكما كالناصر الظهير لكما عليه إذا حضر واستمع ما يجري بينكما وبينه. فأظهركما وأغلبكما وأكسر شوكته عنكما وأنكسه. ويجوز أن يكونا خبرين لأن أو يكون {مستمعون} مستقراً و{معكم} لغواً. فإن قلت: لم جعلت {مستمعون} قرينة {معكم} في كونه من باب المجاز والله تعالى يوصف على الحقيقة بأنه سميع وسامع قلت: ولكن لا يوصف بالمستمع على الحقيقة لأن الاستماع جار مجرى الإصغاء والاستماع من السمع بمنزلة النظر من الرؤية. ومنه قوله تعالى {قل أوحي إلي أنه استمع نفر م الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجيبا} الجن: 1 ويقال: استمع إلى حديثه أي: اصغى إليه وأدركه بحاسة السمع. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صب في أذنيه البرم. فإن قلت: هلا ثنى الرسول كما ثنى في قوله {إنا رسولاً ربك} [طه: 47] قلت: الرسول يكون بمعنى المرسل وبمعنى الرسالة فجعل ثم بمعنى المرسل فلم يكن بد من تثنيته وجعل ههنا بمعنى الرسالة فجاز التسوية فيه - إذا وصف به - بين الواحد والتثنية والجمع كما يفعل بالصفة بالمصادر نحو: صوم وزور. قال: ألكني إليها وخبر الرسو ل أعلمهم بنواحي الخبر فجعله للجماعة. والشاهد في الرسول بمعنى الرسالة قوله:

بسر ولا أرسلتهم برسول** لقد كذب الواشون ما فهت عندهم

ويجوز أن يوحد لأن حكمهما لتساندهما واتفاقهما على شريعة واحدة واتحادهما لذلك وللأخوة كان حكماً واحداً فكأنهما رسول واحد. أو أريد أن كل واحد منا} أن أرسل} بمعنى: أي أرسل لتضمن الرسول معنى الإرسال. وتقول: أرسلت إليك أن أفعل كذا لما في

الإرسال من معنى القول كما في المناداة والكتابة ونحو ذلك. ومعنى هذا الإرسال: التخلية والإطلاق كقولك: أرسل البازي يريد: خلهم يذهبوا معنا إلى فلسطين وكانت مسكنها.

ويروي أنهما انطلقا إلى باب فرعون فلم يؤذن لهما سنة حتى قال البواب: إن ههنا إنساناً يزعم أنهخ رسول رب العالمين فقال: ائذن له لعلنا نضحك منه فأديا إليه الرسالة فعرف موسى فقال له {ألم نربك} حذف: فأتيا فرعون فقالا له ذلك لأنه معلوم لا يشتبه. وهذا النوع من الاختصار كثير في التنزيل. الوليد: الصبي لقرب عهده من الولادة. ولبثت فينا من عمرك وفي رواية عن أبي عمرو: من عمرك بسكون الميم {سنين} قيل: مكث عندهم ثلاثين سنة. وقيل: وكز القبطي وهو ابن ثنتي عشرة سنة وفر منهم على أثرها والله أعلم بصحيح ذلك. وعن الشعبي: فعلتك بالكسر وهي قتلة القبطي لأنه قتلة بالوكز وه ضرب من القتل. وأما الفعلة فلأنها كانت وكزة واحدة. عدد عليه نعمته من تربيته وتبليغه مبلغ الرجال ووبخه بما جرى على يده من قتل خبازه وعظم ذلك وفظعه بقوله {وفعلت التي فعلت وأنت من الكافرين} يجوز أن يكون حالاً أي: قتلته وأنت لذاك من الكافرين بنعمتي. أو أنت إذ ذاك ممن تكفرهم الساعة وقد افترى عليه أو جهل أمره لأنه كان يعايشهم بالتقية فإن الله تعالى عاصم من يريد أن يستنبئه من كبيرة ومن بعض

الصغائر فما بال الكفر. ويجوز أن يكون قوله {وأت من الكافرين} حكماً عليه بأنه من الكافرين بالنعم ومن كانت عادته كفران النعم لم يكن قتل خواص المنعم عليه بدعاً منه. أو بأنه من الكافرين لفرعون وإلهته. أو من الذين كانوا يكفرون في دينهم فقد كانت لهم آلهة يعبدونهم يشهد لذلك قوله تعالى {ويذرك وآلهتك} [الأعراف: 127] وقرئ: إلهتك فأجابه موسى بأن تلك الفعلة إنما فرطت منه وهو} من الضالين} أي الجاهلين. وقراءة ابن مسعود: من الجاهلين مفسرة. ولامعنى: من الفاعلين فعل أولى الجهل واسفه. كما اقل يوسف لإخوته {هل علمتهم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون} [يوسف: 89] أو المخطئين كمن يقتل خطأ من غير تعمد للقتل. أو الذاهبين عن الصواب. أو الناسين من قوله {أن تضل إحدهما فتذكر إحداهما الأخرى} [البقرة: 282] وكذب فرعون ودفع الوصف بالكفر عن نفسه وبرأ ساحته بأن وضع الضالين موضع الكافرين ربئاً بمحل من رشح للنبوة عن تلك الصفة ثم كر على امتنانه عليه بالتربية فأبطله من أصله واستأصله من سنخه وأبي أن يسمى نعمته إلا نقمة. حيث بين أن حقيقة إنعامه عليه تعبيد بني إسرائيل لأن تعبيدهم بذبح أبنائهم هو السبب في حصوله عنده وتربيته فكأنه امتن عليه بتعبيد قومه إذا حققت وتعبيدهم: تذليلهم واتخاذهم عبيداً. يقال: عبدت الرجل وأعبدته إذا اتخذته عبداً. قال:

علام يعبدني قومي وقد كثرت**فيهم أباعر ما شاءوا وعبدان

فإن قلت: إذاً جواب وجزاء معاً والكلام وقع جواباً لفرعون فكيف وقع جزاء قلت: قول فرعون {وفعلت فعلتك} فيه معنى: إنك جازيت نعمتي بما فعلت فقال به موسى: نعم فعلتها مجازياً لك تسليماً لقوله لأن نعمته كانت عنده جديرة بأن تجازى بنحو ذلك الجزاء. فإن قلت: لم يكونا منه وحده ولكن منه ومن ملئه المؤتمرين بقتله بدليل قوله {إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك} [القصص: 20] وأما الامتنان فمنه وحده. وكذلك التعبيد. فإن قلت {تلك} إشارة إلى ماذا و} أن عبدت} ما محلها من الإعراب قلت: تلك إشارة إلى خصلة شنعاء مبهمة لا يدري ما هي إلا بتفسيرها وحل{أ عبدت}. الرفع عطف بيسان لتلك ونظيره قوله تعالى {وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع} [الحجر: 66] والمعنى: تعبيدك بني إسرائيل نعمة تمنها علي. وقال الزجاج: ويجوز أن يكون {أن} في موضع نصب المعنى: إنما صارت نعمة علي لأن عبدت بني إسائيل أي: لو لم تفعل ذلك لكلفني أهلي ولم يلقوني في اليم.

{قال فرعون وما رب العالمين} لما قال له بوابه إن ههنا من يوعم أنه رسول رب العالمين قال له تد دخوله {وما رب العالمين} يريد: أي شيء رب العالمين. وهذا السؤال لا يخلو: إما أن يريد به أي شيء هو من الأشياء التي شوهدت وعرفت أجناسها فأجاب بما يستدل به عليه من أفعاله الخاصة ليعرفه أنه ليس بشيء مما شوهد وعرف من الأجرام والأعراض وأنه شيء مخالف لجميع الأشياء {ليس كمثله شيء} [الشورى: 11] وإما أن يريد به: أي شيء هو على الإطلاق تفتيشاً عن حقيقته الخاصة ما هي فأجابه بأن الذي إليه سبيل وهو الكافي في معرفته معرفة ثباته بصفاته استدلالاً بأفعاله الخاصة على ذلك. وأما التفتيش عن حقيقته الخاصة التي هي فوق فطر العقول فتفتيش عما لا سبيل إليه والسائل عنه متعنت غير طالب للحق. والذي يليق بحال فرعون ويدل عليه الكلام: أن يكون سؤاله هذا إنكاراً لأن يكون للعالمين رب سواه لادعائه الإلهية فلما أجاب موسى بما أجاب عجب قومه من جوابه حيث نسب الربوبية إلى غيره فلما ثنى بتقرير قوله جننه إلى قومه وطنز به حيث سماه رسولهم. فلما ثلث بتقرير آخر: احتد واحتدم وقال: {لئن أتخذت إلهاً غيري}. وهذا يدل لعى صحة هذا الوجه الأخير.

{قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين} فإن قلت: كيف قيل {وما بينهما} على التثنية والمرجوع إليه مجموع قلت: أريد وما بين الجنسين فعل بالمضمر ما

فعل بالظاهر من قال: في الهيجا جمالين فإن قلت: ما معنى قوله {إن كنتم موقنين} وأين عن فرعون وملئه الإيقان قلت: معناه إن كان يرجى منكم الإيقان الذي يؤدي إليه النظر الصحيح نفعكم هذا الجواب وإلا لم ينفع أو أن كنتم موقنين بشيء قط فذا أولى ما توقنون به لطهوره وإنارة دليله.

{قال لمن حوله ألا تستمعون قال ربكم ورب آبائكم الأولين قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون} فإن قلت: ومن كان حوله قلت: أشراف قومه قيل: كانوا خمسمائة رجل عليهم الأساور وكانت للملوك خاصة. فإن قلت: ذكر السموات والأرض وما بينهما قد استوعب به الخلائق كلها فما معنى ذكرهم وذكر آبائهم بعد ذلك وذكر المشرق والمغرب قلت: قد عمم أولاً ثم خصص من العام للبيان أنفسهم وآباءهم. لأن أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه ومن ولد منه وما شاهد وعاين من الدلائل على الصانع والناقل من هيئة إلى هيئة وحال إلى حال من وقت ميلاده إلى وقت وفاته ثم خصص المشرق والمغرب لأن طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها في الآخر على تقدير مستقيم في فصول السنة وحساب مستو من أظهر ما استدل به ولظهوره انتقل إلى الاحتجاج به خليل الله عن الاحتجاج بالاحتجاج بالإحياء والإماتة على نمروذ بن كنعان فبهت الذي كفر. وقرئ: رب المشارق والمغارب. الذي أرسل إليكم بفتح الهمزة.

فإن قلت: كيف قال اولاً {إن كنتم موقنين} وآخراً} إن كنتم تعقلون} قلت: لأين اولاً فلما رأى منهم شدة الشكيمة في العناد قلة افصغاء إلى عرض الحجج خاشن وعارض: إن رسولكم لمجنون بقوله {إن كنتم تعقلون}.

{قال لئن اتخذت إله غيري لأجعلنك من المسجونين} فإن قلت: ألم يكن: لأسجننك أحضر من} لأجعلنك من المسجونين} ومؤدياً مؤداه قلت: أما أخضر فنعم. وأما مؤد مؤداه فلا لأن معناه: لأجعلنك واحداً ممن عرفت حالهم في سجوني

وكان من عادته أن يأخذ من يريد سجنه فيطرحه في هوة ذاهبة في الأرض بعيدة المعق فرداً لا يبصر فيها ولا يسمع فكان ذلك أشد من القتل وأشد.

{قال أولو جئتك بشيء مبين قال فأت به إن كنت من الصادقين} الواو في قوله {أولو جئتك} واو الحال دخلت عليها همزة الاستفهام. معناه: أتفعل بي ذلك ولو جئتك بشيء مبين أي: جائياً بالمعجزة. وفي قوله {إن كنت من الصدقين} أنه لا يأتي بالمعجزة إلا الصادق في دعواه لأن المعجزة تصديق من الله لمدعي النبوة والحكيم لا يصدق الكاذب.

ومن العجب - أن مثل فرعون لم يخف عليه وخفي على ناس من أهل القبلة حيث جوزوا القبيح على الله تعالى حتى لزمهم تصديق الكاذبين بالمعجزات وتقديره: إن كنت من الصادقين في دعواك أتيت به فحذف الجزاء لأن الأمر بالإتيان به يدل عليه.

{فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين} {ثعبان مبين} ظاهر الثعبانية لا شيء يشبه الثعبان كما تكون الأشياء المزورة بالشعوذة والسحر. وروي أنها انقلبت حية ارتفعت في السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة إلى فرعون وجعلت تقول: يا موسى مرني بما شئت. ويقول فرعون: أسألك بالذي أرسلك إلا أخذتها فأخذها فعادت عصا} للناظرين} دليل على أن بياضها كان شيئاً يجتمع النظارة على النظر إليه لخروجه عن العادة وكان بياضاً نورياً. روي أن فرعون لما أبصر الآية الأولى قال: فهل غيرها فأخرج يده فقال له: ما هذه قال: يدك فما فيها فأدخلها في إبطة ثم نزعها ولها شعاع يكاد يغشى الأبصار ويسد الأفق.

{قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون} فإن قلت: ما العالم في} حوله} قلت: هو منصوب نصبين: نصب في اللفظ ونصب في المحل فالعامل في النصب اللفظي ما يقدرفي الظرف والعامل في النصب المحلي وهو النصب على الحال. قال: ولقد تحير فرعون لما أبصر الآيتين وبقي لا يدري أي طرفيه أطول حتى زل عنه ذكر دعوى الإلهية وحط عن منكبيه كبرياء الربوبية وارتعدت فرائصه وانتفخ سحره خوفاً وفرقاً وبلغت به الاستكانة لقومه الذيسن هم بزعمه عبيده وهو إلههم: أن طفق يؤامرهم ويعترف لهم بما حذر منه وتوقعه وأحسش به من جهة موسى عليه السلام وغلبته على ملكه وأرضه وقوله {إن هذا الساحر عليم} قول باهت إذا غلب ومتمحل إذا لزم {تأمرون} من المؤامرة وهي المشاورة. أو من ألأمر الذي هو ضد النهي: جعل العبيد آمرين وربهم مأموراً لما استولى عليه من فرط الدهش والحيرة. وماذا منصوب: إما لكونه في معنى المصدر وإما لأنه مفعول بهمن قوله: أمرتك الخير.

قرئ: أرجئه وأرجه: بالهمز والتخفيف وهما لغتان. يقال: أرجأته وأرجيته إذا أخرته.

ومنه: المرجئة وهم الذين لا يقطعون بوعيد الفساق ويقولون: هم مرجئون لأمر الله. والمعنى: أخره ومناظرته لوقت اجتماع السحرة. وقيل: احبسه} حاشرين} شرطاً يحشرون السحرة وعارضوا قوله: إن هذا لساحر بقولهم: بكل سحار فجاؤوا بكلمة الإحاطة وصفة المبالغة ليطامنوا من نفسه ويسكنوا بعض قلقه. وقرأ الأعمش: بكل ساحر.

{فجمع السحرة لميقات يوم معلوم وقيل للناس هل أنتم مجتمعون لعلنا تتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين} اليوم المعلوم: يوم الزينة. وميقاته: وقت الضحى لأنه الوقت الذي وقته لهم موسى صلوات الله عليه من يوم الزينة في قوله {موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى} [طه: 59] والميقات: ما وقت به أي حدد من زمان أو مكان. ومنه: مواقيت الإحرام} هل أنتم مجتمعون} استبطاء لهم في الاجتماع والمراد منه: استعجالهم واستحاثهم كما يقول الرجل لغلامه: هل أنت منطلق: إذا اراد أن يحرك منه ويحثه على الانطلاق كأنما يخيل له أن الناس قد انطلقوا وهو واقف. ومنه قول تأبط شراً:

أو عبد رب أخا عون بن مخراق**هل أنت باعث دينار لحاجتنا

يريد: ابعثه إلينا سريعاً ولا تبطئ به} لعلنا نتبع السحرة} أي في دينهم إن غلبوا موسى ولا نتبع موسى في دينه. وليس غرضهم اتباع السحرة وإنما الغرض الكلي: أن لا يتبعوا موسى فساقوا الكلام مساق الكناية لأنهم إذا اتبعوهم لم يكونوا متبعين لموسى عليه السلام.

{فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين} وقرئ: نعم بالكسر وهما لغتان. ولما كان قوله {أين لنا لأجراً} في معنى جزاء الشرط لدلالته عليهي وكان قوله {وإنكم إذا لمن المقربين} معطوفاً عليه ومدخلاً في حكمه دخلت إذا قارة في مكانها الذي تقتضيه من الجواب والجزاء وعدهم أن يجمع لهم إلى الثواب على سحرهم الذي

قدروا أنهم يغلبون به موسى: القربة عنده والزلفى.

{قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا فرعون إنا لنحن الغالبون} أقسموا بعزة فرعون وهي من أيمان الجاهلية وهكذا كل حلف بغير الله ولا يصح في الإسلام إلا الحلف بالله معلقاً ً ببعض أسمائه أو صفاته كقولك: بالله والرحمن

وربي ورب العرش وعزة الله وقدرة الله وجلال الله وعظمة الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم ولا بالطواغيت ولا تحلفوا إلا بالله ولا تحلفوا بالله إلا أنتم صادقون. ولقد استحدث الناس في هذا الباب في إسلامهم جاهلية نسيب لها الجاهلية الأولى وذلك أن الواحد منهم لو أقسم بأسماء الله كلها وصفاته على شيء: لم يقبل منه ولم يعتد بها حتى يقسم برأس سلطانه فإذا أقسم به فتلك عندهم جهد اليمين التي ليس وراءها حلف لحالف.

{فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون فألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون} {ما يأفكون} ما يقلبونه عن وجهه وحقيقته بسحرهم وكيدهم ويزورونه فيخيلون في حبالهم وعصيهم أنها حيات تسعى بالتمويه على الناظرين أو إفكهم: سمى تلك الأشياء إفكاً مبالغة.

روي أنهم قالوا: إن يك ما جاء به موسى سحراً فلن يغلب وإن كام من عند الله فلن يخفى علينا فلما قذف عصاه فتلقفت ما أتوا به علموا أنه من الله فآمنوا. وعن عكرمة رضي الله عنه: أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء. وإنما عبر عن الخرور بالإلقاء لأنه ذكر مع الإلقآت فسلك به طريق المشاكلة. وفيه أيضاً مع مراعاة المشاكلة أنهم حين رأوا ما رأوا لم يتمالكوا أن رموا بأنفسهم إلى الأرض ساجدين كأنهم أخذوا فطرحوا طرحاً. فإن قلت: فاعل الإلقاء مع هو لو صرح به قلت: هو الله عز وحل بما خولهم من التوفيق. أو إيمانهم. أو ما عاينوا من المعجزات الباهرة ولك أن تقدر فاعلاً لأن {ألقوا} بمعنى خروا وسقطوا {رب موسى وهارون} عطف بيان لرب العالمين لأن فرعون لعنه الله عليه كان يدعي الربوبية فارادوا أن يعزلوه. ومعني إضافته إليهما في ذلك المقام: أنه الذي يدعو إليه هذان والذي أجرى على أيدهما ما أجرى.

{قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين} {فلسوف تعلمون} أي وبال ما فعلتم.

{قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين} الضر والضير والضور: واحد أرادوا: لا ضرر علينا في ذلك بل لنا فيه أعظم النفع لما يحصل لنا في الصبر عليه لوجه الله من تكفير الخطايا والثواب العظيم مع الأعواض الكثيرة. أو لا ضير علينا فيما تتوعدنا به من القتل أنه لا بد لنا من افنقلاب إلى ربنا بسبب من أسباب الموت.

والقتل أهون أسبابه وأرجاها. أو ضير علينا في قتلك إنك إن قتلتنا انقلبنا إلى ربنا انقلاب من يطمع في مغفرته ويرجو رحمته لما رزقنا من السبق إلى الإيمان وخبر{لا} مذوف. والمعنى: لاضير في ذلك أو علينا {أن كنا} معناه: لأن كنا وكانوا أول جماعة مؤمنين من أهل زمانهم أو من رعية فرعون أو من أهل المشهد. وقرئ إن كنا بالكسر وهو من الشرط الذي يجئ به المدل بأمره المتحقق لصحته وهم كانوا متحققين أنهم أول المؤمنين. ونظيره قول العامل لمن يؤخر جعله: إن كنت عملت لك فوفني حقي ومنه قوله تعالى {إن كنتم رخجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي} [الممتحنة: 1] مع علمه أنهم لم يخرجوا إلا لذلك.

{وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون فأرسل فرعون في المدائن حاشرين إن هؤلاء لشرذمة قليلون وإنهم لنا لغائظون وإنا لجميع خاذون} قرئ: أسر بقطع الهمزة ووصلها. وسر: {إنكم متبعون} علل الأمر بالأسراع باتباع فرعون وجنوده آثارهم.
والمعنى: أني بنيت تدبير أمركم وأمرهم على أن تتقدموا ويتبعوكم حتى يدخلوا مدخلك ويسلكوا مسلككم من طريق البحر فأطلقه عليهم فأهلكهم. وروي: أنه مات في تلك الليلة في كل بيت من بيوتهم ولد فاشتغلوا بموتاهم حتى خرج موسى بقومه وروي: أن

الله عز وجل أوحى إلى موسى: أن اجمع بني إسرائيل يكل أربعة أبيات في بيت ثم اذبحوا الجداء.

واضربوا بدمائهم على أبوابكم فإني سآمر الملائكة أن لا يدخلوا بيتاً على بابه دم وسآمرهم بقتل أبكار القبط واخبزوا فطيراً فإنه أسرع لكم ثم أسر بعبادي حتى تنتهي إلى البحر فيأتيك أمري فأرسل فرعون في جميع عظيم وكانت مقدمته سبعمائة ألف: كل رجل على حصات وعلى رأسه بيضة. وعن ابن عباس رض الله عنهما: خرج فرعون في ألف ألف حصان سوى الإناث فلذلك استقل قوم موسى عليه السلام وكانوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً وسماهم شرذمة قليلين {إن هؤلاء} محكي بعد قول مضمر. والشرمة: الطائفة القليلة. ومنها قولهم: ثوب شراذم للذي بلى وتقطع قطعاً ذكرهم بالاسم الدال على القلة. ثم جعلهم قليلاً بالوصف ثم جمع القليل فجعل كل حزب منهم قليلاً واختار جمع السلامة الذي هو للقلة وقد يجمع القليل على أقلة وقلل. ويجوز أن يريد بالقلة: الذلة والقماءة ولا يريد قلة العدد. والمعنى: أنهم لقلتهم لا يبالي بهم ولا يتوقع غلبتهم وعلوهم ولكنهم يفعلون أفعالاً تغيظنا وتضيق صدورنا ونحن قوم من عادتنا التيقظ والحذر واستعمال الحزم في الأمور فإذا خرج علينا خارج سارعنا إلى حسم فساده وهذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن لئلا يظن به ما يكسر من قهره وسلطانه.

وقرئ: حذرون وحاذرون وحادرون بالدال غير المعجمة. فالحذر: اليقظ والحاذر: الذي يجدد حذره. وقيل: المؤدي في السلاح وإنما يفعل ذلك حذراً واحتياطاً لنفسه. والحادر: السمين القوي. قال:

أحب الصبي السوء من أجل أمه ** وأبغضه من بغضها وهو حادر

أراد أنهم أقوياء أشداء. وقيل مدججون في السلاح قد كسبهم ذلك حدارة في أجسامهم.

{فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم كذلك وأورثناها بني إسرائيل فأتبعوهم مشرقين} وعن مجاهد: سماها كنوزاً لأنهم لم ينفقوا منها في طاعة الله تعالى. والمقام: المكان يريد: المنازل الحسنة والمجالس البهية. وعن الضحاك: المنابر. وقيل السر في الحجال {كذلك} يحتمل ثلاثة أوجه: النصب على أخرناهم مثل ذلك المقام الذي كان لهم. وصفناه. والجر على أنه وصف لمقام أي: مقام كريم مثل ذلك المقام الذي كان لهم. والرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي: الأمر كذلك.{فأتبعوهم} فلحقوهم. وقرئ: فاتبعوهم {مشرقين} داخلين في وقت الشروق من شرقت الشمس شروقاً إذا طلعت.

{فلما تراء الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال كلا إن معي ربي سيهدين فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطور العظيم وأزلفنا ثم الأخرين} {سيهدين} طريق النجاة من إدراكهم وإضرارهم. وقرئ فلما تراءت الفئتان إنا لمدركون بتشديد الدال وكسر الراء من أدراك الشيء إذا تتابع ففني. ومنه قوله تعالى {بل ادراك علمهم في الآخرة} [النمل: 66] قال الحسن: جهلوا علم الآخرة وفي معناه بيت الحماسة: والمعنى: إنا لمتتابعون في الهلاك على أيديهم حتى لا يبقى منا أحد. الفرق: الجزء المتفرق منه. وقرئ: كل فلق والمعنى واحد. الطود: الجبل العظيم المنطاد في السماء {وأزلفنا ثم} حيث انفلق البحر {الأخرين} قوم فرعون أيك قربناهم من بني إسرائيل: أو أدنينا بعضهم من بعض وجمعناهم حتى لا ينجو منهم أحد أو قدمناهم إلى البحر. وقرئ: وأزلفنا بالقاف أي: أزللنا أقدامهم. والمعنى: أذهبنا عزهم كقوله:

تداركتما عبساً وقد ثل عرشها** وذبيان إذ زلت بأقدامها النعل

ويحتمل أن يجعل الله طريقهم في البحر على خلاف ما جلعه لبني إسرائيل يبساً فيزلقهم فيه.

{وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الأخرين} عن عطاء بن السائب أن جبريل عليه السلام كان بين بني إسرائيل وبين آل فرعون فكان يقول لبني إسرائيل: لسيلحق آخركم بأولكم. ويستقبل القبط فيقول: رويدكم يلحق آخركم. فلما انتهى موسى عليه السلام إلى البحر قال له مؤمن آل فرعون - وكان بين يدي موسى: أين أمرت فهذا البحر أمامك وقد غشيك آل فرعون قال: أمرت بالبحر ولا يدري موسى ما يصنع فأوحى الله تعالى إليه: أن اضرب بعصاك البحر فضربه فصار فيه اثنى عشر طريقاً: لكل سبط طريق. وروي أن يوشع قال: يا كليم الله أين أمرت فقد غشينا فرعون والبحر أمامنا قال موسى: ههنا. فخاض يوشع الماء وضرب موسى بعصاه البحر فدخلوا. وروي أن موسى قال عند ذلك: يا من كان قبل كل شيء والمكون لكل شيء والكائن بعد كل شيء. ويقال: هذا البحر هو بحر القلزم. وقيل: هو بحر من وراء مصر يقال له: أساف {إن في ذلك لأية} أية آية لا توصف وقد عاينها الناس وشاع أمرها فيهم.

{إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم} وما تنبه عليها أكثرهم ولا آمن بالله. وبنو إسرائيل: الذين كانوا أصحاب موسى المخصوصين بالإنجاء قد شألوه بقرة يعبدونها واتخذوا العجل وطلبوا رؤية الله جهرة {وإن ربك لهو العزيز} المنتقم من أعدائه {الرحيم} بأوليائه.

{واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين} كان إبراهيم عليه السلام يعلم أنهم عبدة أصنام ولكنه سألهم ليريهم أن ما يعبدونه ليس من استحقاق العبادة في شيء كما تقول للتاجرة: ما مالك وأنت تعلم أن ماله الرقيق ثم تقول له: الرقيق جمال وليس بمال. فإن قلت {ما تعبدون} سؤال عن المعبود فحسب فكان القياس أن يقولوا: أصناماً كقوله تعالى {ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو} [البقرة: 219] {ماذا قال ربكم قالوا الحق} [سبأ: 23] {ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً} [النحل: 30]. قلت: هؤلاء قد جاءوا بقصة أمرهم كاملة كالمبتهجين بها والمفتخرين فاشتملت على جواب إبراهيم وعلى ما قصدوه من إظهار ما في نفوسهم من الابتهاج والافتخار. ألا تراهم كيف عطفوا على قلوبهم نعبد {فنظل لها عاكفين} ولم يقتصروا على زيادة نعبد وحده. ومثاله أن تقول لبعض الشطار: ما تلبس في بلادك فيقول: ألبس البرد الأتحمى فأجر ذيله بين جواري الحي. وإنما قالوا: نظل لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل.

{قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون} لا بد في {يسمعونكم} من تقدير حذف المضاف معناه: هل يسمعون دعاءكم. وقرأ قتادجة: يسمعونكم أي: هل يسمعونكم الجواب عن دعائكم وعل يقدرون على ذلك وجاء مضارعاً مع إيقاعه في إذ على حكاية الحال الماضية. ومعناه: استحضروا الأحوال الماضية التي كنتم تدعونها فيها وقولوا هل سمعوا أو أسمعوا قط. وهذا أبلغ في التبكيت.

{قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون قال أفرءيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لي إلا رب العالمين الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين والذي يميتني ثم يحيين والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين} لما أجابوه بجواب المقلدين لآبائهم قال لهم: رقوا أمر تقليدكم هذا إل أقصى غاياته وهي عبادة الأقدمين الأولين من آبائكم فإن التقدم والللية لا يكون برهاناً على الصحة والباطل لا ينقلب حقاً بالقدم وما عبادة من عبد هذه الأصنام إلا عبادة أعداء له ومعنى العداوة قوله تعالى {كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا} [مريم: 82] ولأن المغري على عبادتها أعدى أعداء الإنسان وهو الشيطان وإنما قال {عدو لي} تصويراً للمسألة في

نفسه على معنى: أني فكرت في أمري فرأيت عبادتي لها عبادة للعدو فاجتنبتها وآثرت عبادة من الخير كله منه وأراهم بذلك أنها نصيحة نصح بها نفسه أولا وبني عليها تدبير أمره لينظروا فيقولا: ما نصحنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه وما أراد لنا إلا ما أراد لروحه ليكون ادعى لهم إلى القبول وأبعث على

الاستماع منه. ولو قال: فإنه عدو لكم لم يكن بتلك المثابة ولأنه يتأمل فيه فربما قاده التأمل إلى التقبل. ومنه ما يحكى عن الشافعي رضي الله تعالى عنه أن رجلاً واجهه بشيء فقال: لو كنت بحيث أنت لا حتجت إلى أدب وسمع رجل ناساً يتحدثون في الحجر فقال: ما هو ببيتي ولا بيتكم. والعدو والصديق: يجيئان في معنى الوحدة والجماعة. قال:

وقوم علي ذوي مرة** أراهم عدواً كانوا صديقاً

ومنه قوله تعالى {وهم لكم عدو} [الكهف: 50] شبها بالمصادر للموازنة كالقبول والولوع والحنين والصهيل {إلا رب العالمين} استثناء منقطع كأنه قال: ولكن رب العالمين {فهو يهدين} يريد أنه حين أتم خلقه ونفخ فيه الروح عقب ذلك هدايته المتصلة التي لا تنقطع إلى كل ما يصلحه ويعنيه وإلا فمن هداه إلى أن يغتدي بالدم في البطن امتصاصاً ومن هداه إلى معرفة الثدي عند الولادة وإلى معرفة مكانه ومن هداه لكيفيته الارتضاع إلى غير ذلك من هدايات المعاش والمعاد وإنما قال {مرضت} دون أمرضني لأن كثيراً من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه وغير ذلك. ومن ثم قالت الحكماء: لو قيل لأكثر الموتى: ما سبب آجالكم لقالوا: التخم. وقرئ: خطاياي والمراد: ما يندر منه من بعض الصغائر لأن الأنبياء معصومون مختارون على العالمين. وقيل: هي قوله {إني سقيم} [الصافات: 89] وقوله {بل فعله كبيرهم} [الأنبياء: 63] وقوله لسارة: هي أختي. وما هي إلا معاريض كلام وتخيلات للكفرة وليست بخطايا يطلب بها الاستغفار. فإن قلت: إذا لم يندر منهم إلا الصغائر وهي تقع مكفرة فما له أثبت لنفسه خطيئته أو خطايا وطمع أن تغفر له قلت: الجواب ما سبق لي: أن استغفار الأنبياء تواضع منهم لربهم وهضم وليكون لطفاً لهم في اجتناب المعاصي والحذر منها وطلب المغفرة مما يفرط منهم. فإن قلت: لم علق مغفرة الخطيئة بيوم الدين وإنما تغفر في الدنيا قلت: ن أثرها يتبين يومئذ وهو الآن خفي لا يعلم.

{رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين واجعل لي لسان صدق في الآخرين واجعلني من ورثة جنة النعيم واغفر لأبي إنه كان الضالين ولا تخزني يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم} الحكم: الحكمة أو الحكم بين الناس بالحق. وقيل: النبة لأن النبي ذو حكمة وذو حكم بين عباد الله. والإلحاق بالصالحين: أن يوفقه لعمل ينتظم به في جملتهم أو يجمع بينه وبينهم في الجنة ولقد أجابه حيث قال {وإنه في الآخرة لمن الصالحين} [البقرة: 130 النحل: 122 العنكبوت: 27].

والإخزاء: من الخزي وهو الهوان. ومن الخزاية وهي الحياء. وهذا أيضاً من نحو استغفارهم مما علموا أنه مغفور وفي {يبعثون} ضمير العباد لأنه معلوم. أو ضمير الضالين. وأن يجعل من جملة الاستغفار لأبيه يعني: ولا تخزني يوم يعث الضالون وأبي فيهم {إلا من أن الله} إلا حال من أتى الله} بقلب سليم} وهو من قولهم: تحية بينهم ضرب وجيع وما ثاوبه إلا السيف. وبيانه أن يقال لك: هل لزيد مال وبنون فتقول: ماله وبنوه: سلامة قلبه تريد نفي المال والبنين عنه وإثبات سلامة القلب له بدلاً عن ذلك. وإن شئت حملت الكلام على المعنى وجعلت المال والبنين في معنى الغنى كأنه قيل: يوم لا ينفع غنى إلا غنى من أتى الله بقلب سليم لأن غنى الرجل في دينه بسلامة قلبه كما أن غناه في دنياه بماله وبنيه. ولك أن تجعل الاستثناء منقطعاً. ولا بد لك مع ذلكم من تقدير المضاف وهو الحال والمراد بها سلامة القلب وليست هي من جنس المال والبنين حتى

يؤول المعنى إلى أن المال والبنين لا ينفعان وإنما ينفع سلامة القلب. ولو لم يقدر المضاف لم يتحصل للاستثناء معنى. وقد جعل {من} مفعولاً لينفع أي} لا ينفع مال ولا بنون إلا رجلاً سلم قلبه مع ماله حيث أنفقه في طاعة الله ومع بنيه حيث أرشدهم إلى الدين وعلمهم الشرائع. ويجوز على هذا {إلا من أتى الله بقلب سليم} من فتنة المال والبنين. ومعنى سلامة القلب: سلامته من آفات الكفر والمعاصي ومما أكرم الله تعالى به خليله ونبه على جلاله محله في الإخلاص: أن حكى استثناءه هذا حكاية راض بإصابته فيه.

ثم جعله صفة له في قوله {وإن من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم} [الصفات: 84] ومن بدع التفاسير: تفسير بعضهم السليم باللديغ من خشية الله. وقل آخر: هو الذي سلم وسلم وأسلم وسالم واستسلم. وما أحسن ما رتب إبراهيم عليه السم كلامه مع المشركين حين سألهم أولاً عما يعبدون سؤال مقرر لا مستفهم ثم أنحى على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع على تقليهم آباءهم الأقدمين فكسره وأخرجه من أن يكون شبية فضلاً أن يكون حجة ثم صور المسألة في نفسه دونهم حى تخلص منها إلى ذكر الله عز وعلا فعظم شأنه وعدد نعمته من لدن خلقه وإنشائه إلى حينوفاته مع ما يرجى في الآخرة من رحمته يوم القيامة وثواب الله وعقابه وما يدفع إليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال وتمنى الكرة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا.

{وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون فكبكبوا فيها هم والغاون وجنود إبليس أجمعون} الجنة تكون قريب من موقف السعداء ينظرون إليها ويغتبطون بأنهم المحشورون إليها والنار تكون بارزة مكشوفة للأشقياء بمرأى منهم يتحسرون على أنهم المسوقون إليها: قال الله تعالى {وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد} [ق: 31] وقال {فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا} [الملك: 27]: يجمع عليهم الغموم كلها والحسرات فتجعل النار بمرأى منهم فيهلكون غما في كل لحظة ويوبخون على إشراكهم فيقال لهم: أين آلهتكم هل ينفعونكم بن بنصرتهم لكم. أو هل ينفعون أنفسهم بانتصارهم: لأنهم وآلهتهم وقود النار وهو قوله {فكبكبوا فيها هم} أي الآلهة {والغاون} وعبدتهم الذين برزت لهم الجحيم. والكبكبة تكرير الكب جعل التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى كأنه إذا ألقى في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها اللهم أجرنا منها يا خبر مستجار {وجنود إبليس} شياطينه أو متبعوه من عصاة الجن والإنس.

{قالوا وهم فيها يختصمون تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين وما أضلنا إلا المجرمون فما لنا من شافعين ولا صديق حميم فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين أن فى ذلك لاية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم} يجوز أن ينطق الله الاصنام حتى يصح التقاول والتخاصم ويجوز أن يجري ذلك بين العصاة والشياطين. والمراد بالمجرمين الذين أضلوهم: رؤساؤهم وكبراؤهم كقوله {ربنا إنا أطعنا سادتنا وَكُبَرَاءنَا فأضلونا السبيلا} [الاحزاب: 76] وعن السدي: الاولون الذين اقتدينا بهم. وعن ابن جريج: إبليس وابن آدم القاتل لانه أول من سن القتل وأنواع المعاصي {فما لنا من شافعين} كما نرى المؤمنين لهم شفعاء من الملائكة والنبيين {ولا صديق} كما نرى لهم أصدقاء لانه لا يتصادق في الاخرة الا المؤمنون وأما أهل النار فبينهم التعادي والتباغض قال الله تعالى {الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين} [الزخرف: 76] أو: فمالنا من شافعين ولا صديق حميم من الذين كنا نعدهم شفعاء وأصدقاء لأنهم كانوا يعتقدون في أصنامهم أنهم شفعاؤهم عند الله وكان لهم الأصدقاء من شياطين الإنس. أو أرادوا أنهم وقعوا في مهلكة علموا أن الشفعاء والأصدقاء لا ينفعونهم ولا يدفعون عنهم فقصدوا بنفيهم نفي ما يتعلق بهم من النفع لأن ما لا ينفع: حكمه حكم المعدوم. والحميم

من الاحتمام وهو الاهتمام وهو الذي يهمه ما يهمك. أو من الحامة بمعنى الخاصة وهو الصديق الخاص. فإن قلت: لم جمع الشافع ووحد الصديق قلت: لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق. ألا ترى أن الرجل إذا امتحن بإرهاق ظالم نهضت جماعة وافرة من أهل بلده لشفاعته رحمة له وحسبه وإن لم يسبق له بأكثرهم معرفة. وأما الصديق وهو الصادق في ودادك الذي يهمه ما أهمك - فأعز من بيض الأنوق.

وعن بعض الحكماء أنه سئل عن الصديق فقال: اسم لا معنى له. ويجوز أن يريد بالصديق: الجمع. الكرة الرجعة إلى الدنيا. ولو في مثل هذا الموضع في معنى التمني كأنه قيل: فليت لنا كرة. وذلك لما بين معنى لو وليت من التلاقي في التقدير. ويجوز أن تكون على أصلها ويحذف الجواب وهو: لفعلنا كيت وكيت.

{كذبت قوم نوح المرسلين إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين فاتقوا الله وأطيعوا} القوم: مؤنثة وتصغيرها قويمة. ونظير قوله {المرسلين} والمراد نوح عليه السلام: قولك: فلان يركب الدواب ويلبس البرود وماله إلا دابة وبرد. قيل: أخوهم لأنه كان منهم من قول العرب: يا أخا بني تميم يريدون: يا واحداً منهم. ومنه بيت الحماسة:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم** كان أميناً فيهم مشهوراً بالأمانة

كمحمد صلى الله عليه وسلم في قريش {وأطيعوا} في نصحي لكم وفيما أدعوكم إليه من الحق {عليه} على الأمر وعلى ما أنا فيه يعني: دعاءه ونصحه ومعنى {فاتقو الله وأطيعون} فاتقوا الله في طاعتي وكرره ليؤكده عليهم ويقرره في نفوسهم مع تعليق كل واحدة منهما بعلة جعل علة الأول كونه أميناً فيما بينهم وفي الثاني حسم طعمه عنهم.

{قالوا أنؤمن لك وأتبعك الأرذلون} وقرئ: وأتباعك جمع تابع كشاهد وأشهاد. أو جمع تبع كبطل وأبطال. والواو للحال. وحقها أن يضمير بعدها قد في: واتبعك. وقد جمع الأرذل على الصحة وعلى التكسير في قوله {الذين هم أرذلنا} [هود: 27] والرذالة والنذالة: الخسة والدناءة. وإنما استرذلوهم لاتضاع نسبهم وقلة نصيبهم من الدنيا. وقيل كانوا من أهل الصناعات الدنية كالحياكة والحجامة. والصناعة لا تزري بالديانة وهكذا كانت قريش تقول في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وما زالت أتباع الأنبياء كذلك. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هم الغاغة. وعن عكرمة: الحاكة والآساكفة. وعن مقاتل: السفلة.

{قال وما علمي بما كانوا يعملون إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون وما أنا بطارد المؤمنين إن أنا إلا نذير مبين} {وما علمي} وأي شيء علمي والمراد: انتفاء علمه بإخلاص أعمالهم لله واطلاعه على سر أمرهم وباطنه. وإنما قال ذا لأنهم قد طعنوا - مع استرذالهم - في إيمانهم وأنهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة وإنما آمنوا هوى وبديهة كما حكى الله عنهم في قوله {الذين هم أرذلنا بادي الرأي} [هود: 27] ويجوز أن يتغابى لهم من نوح عليه السلام. فيفسر قولهم الأرذلين بما هو الرذالة عنده من سوء الأعمال وفساد العقائد ولا يلتفت إلى ما هو الرذالة عندهم ثم يبني جوابه على ذلك فيقول: ما علي إلا اعتبار الظواهر دون التفتيش عن أسرارهم والشق عن قلوبهم وإن كان لهم عمل سيء فالله محاسبهم ومجازيهم عليه وما أنا إلا منذر لا محاسب ولا مجاز {لو تشعرون} ذلك ولكنكم تجهلون فتنساقون مع الجهل حيث سيركم وقصد بذلك رد اعتقادهم وإنكار أن يسمى المؤمن رذلاً وإن كان أفقر الناس وأوضعهم نسباً فإن الغني غني الدين والنسب نسب التقوى {وما أنا بطارد المؤمنين} يريد ليس من شأني أن أتبع شهواتكم وأطيب نفوسكم بطرد المؤمنين الذين صح إيمانهم طعماً في إيمانكم وما علي

إلا أن أنذركم إنذاراً بيناً بالبرهان الصحيح الذي يتميز به الحق من الباطل ثم أنتم أعلم بشأنكم.

{قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين قال رب إن قومي كذبون فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجني ومن معي من المؤمنين فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون ثم أغرقنا بعد الباقين إن في} ليس هذا بإخبار بالتكذيب لعلمه أن عالم الغيب والشهادة أعلم ولكنه أراد أني لا أدعوك عليهم لما غاظوني وآذوني وإنما أدعوك لأجلك ولأجل دينك ولأنهم كذبوني في وحيك ورسالتك فاحكم {بيني وبينهم} والفتاحة: الحكومة. والفتاح: الحاكم لأنه يفتح المستغلق كما سمي فيصلاً لأنه يفصل بين الخصومات. الفلك: السفينة وجمعه فلك: قال الله تعالى {وترى الفلك فيه مواخر} النحل: 14 فالواحد بوزن قفل والجمع بوزن أسد كسروا فعلاً على فعل كما كسروا فعلاً على فعل لأنهما أخوان في قولك: العرب والعرب والرشد والرشد. فقالوا: أسد وأسد وفلك وفلك. ونظيره: بعير هجان وإبل هجان ودرع جلاص ودروع دلاص فالواحد بوزن كناز والجمع بوزن كرام. والمشحون: المملوء. يقال: شحنها عليهم خيلاً ورجالاً.

{كذبت عاد المرسلين إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون} قرئ: بكل ريع بالكسر والفتح: وهو المكان المرتفع. قال المسيب بن عباس:

في الآل يرفعها ويخفضها** ريع يلوح كأنه سحل

ومنه قولهم: كم ريع أرضك وهو ارتفاعها. والآية العلم وكانوا ممن يهتدون بالنجوم في أسفارهم. فاتخذوا في طريقهم أعلاماً طوالاً فعبثوا بذلك لأنهم كانوا مستغنين عنها بالنجوم.

وعن مجاهد: بنو بكل ريع بروج الحمام. والمصانع: مآخذ الماء وقيل: القصور المشيدة والحصون {لعلكم تخلدون} ترجون الخلود في الدنيا. أو تشبه حالكم حال من يخلد. وفي حرف أبي: كأنكم. وقرئ: تخلدون بضم التاء مخففاً ومشدداً {وإذا بطشتم} بسوط أو سيف كان ذلك ظلماً وعلواً وقيل: الجبار الذي يقتل ويضرب على الغضب. وعن الحسن: تبادرون تعجيل العذاب لا تتثبتون متفكرين في العواقب.

{واتقوا الذين أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم} بالغ في تنبيههم على نعم الله حيث أجملها ثم فصلها مستشهداً بعلمهم وذلك أنه أيقظهم عن سنة غفلتهم عنها حين قال: {أمدكم بما تعلمون} ثم عددها عليهم وغرفهم المنعم بتعديد ما يعلمون من نعمته وأنه كما قدر أن يتفضل عليكم بهذه النعمة فهو قادر على الثواب والعقاب فاتقوه. ونحوه قوله تعالى {ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد} [آل عمران: 30]. فإن قلت: كيف قرن البنين بالأنعام قلت: هم الذين بعيونهم على حفظها والقيام عليها.

{قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين إن هذا إلا خلق الأولين وما نحن بمعذبين فكذبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم} فإن قلت: لو قيل {أوعظت} أو لم تعظ كان أخصر. والمعنى واحد. قلت: ليس المعنى بواحد وبينهما فرق لأن المراد: سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذي هو الوعظ أو لم تكن أصلاً من أهله ومباشريه فهو أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه من قولك: أم لم تعظ. من قرأ: خلق الأولين بالفتح فمعناه: أن ما جئت به اختلاق الأولين وتخرصهم كما قالوا: أساطير الأولين. أو ما خلقنا هذا إلا خلق القرون الخالية نحيا كما حيوا ونموت كما

ماتة ولا بعث ولا حساب. ومن قرأ: خلق بضمتين وبواحدة فمعناه. ما هذا الذي نحن عليه من الدين إلا خلق الأولين وعادتهم كانوا يدينونه ويعتقدونه ونحن بهم مقتدون. أو ما هذا الذي نحن عليه من الحياة واموت إلا عادة لم يزل عليها الناس في قديم الدهر أو هذا او ما هذا الذي جئت به من الكذب إلا عادة الأولين كانوا يلفقون مثله ويسطرونه.

{كذبت ثمود المرسلين إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعو وما أسئلكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين أتتركون في ما هاهنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين فاتقوا الله} {أتتركون} يجوز أن يكون إنكاراً لآن يتركوا مخلدين في نعيم لا يزالون عنه وأن يكون تذكيراً بالنعمة في تخلية الله إياهم وما يتنعمون فيه من الجنات وغير ذلك مع الأمن والدعة {في ما هاهنا} في الذي استقر في هذا المكان من النعيم ثم فسره بقوله {في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم} وهذا أيضاً إجمال ثم تفصيل. فإن قلت: لم قال} ونخل ونخل طلعها هضيم} وهذا أيضاً إجمال ثم تفصيل. فإن قلت: لم قال} ونخل} بعد قوله: في جنات والجنة تتناول النخل أول شيء كما يتناول النعم الإبل كذلك من بين الأزواج حتى أنهم ليذكرون الجنة ولا يقصدون إلا النخيل كما يذكرون النعم ولا يريدون إلا الإبل. قال زهير: تقي جنة سحقاً قلت: فيه وجهان: أن يخص النخل بإفراده بعد دخوله في جملة سائر الشجر تنبيهاً على انفراده عنها بفضله عليها وأن يريد بالجنات: غيرها من الشجر لأن اللفظ يصلح لذل ثم يعطف عليها النخل. الطليعة: هي التي تطلع من النخلة كنصل السيف في جوفه شماريخ القنو. والقنوت: اسم للخارج من الجذع كما هو بعرجونه وشماريخه. والهضيم: اللطيف الشامر من قولهم: كشح هضيم وطلع إناث النخل فيه لطف وفي طلع الفاحيل جفاء وكذلك طلع البرني ألطف من طلع اللون فذكرهم نعمة الله في أن وهب لهم أجود النخل وأنفعه. لأن الإناث ولادة التمر

والبرني: أجود التمر وأطيبه ويجوز أن يريد أن مخيلهم أصابت جودة المنابت وسعة الماء وسلمت من العاهات فحملت الحمل الكثير وإذا كثر الحمل هضم وإذا قل جاء فاخراً.

وقيل: الهضيم: اللين النضيج كأنه قال: ونخل قد أرطب ثمره. قرأ الحسن: وتنحتون بفتح الحاء.

وقرئ: فرهين. الفراهة: الكيس وانشاط. ومنه: خيل فرهة استعير لامتثال الأمر وارتسامه طاعة الآمر المطاع. أو جعل الأمر مطاعاً على المجاز الحكمي والمراد الآمر. ومنه قولهم: لك علي إمرة مطاعة. وقوله تعالى {وأطيعوا أمري} [طه: 90]. فإن قلت: ما فائدة قوله {ولا يصلحون} قلت: فائدته أن فسادهم فساد مصمت ليس معه شيء من الصلاح كما تكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح.

{قالوا إنما أنت من المسحرين ما أنت إلا بشراً مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين} المسحر: الذي سحر كثيراً حتى غلب على عقله. وقيل: هو من السحر الرئة وأنه بشر.

{قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم} الشرب: النصيب من الماء نحو السقي والقيت للحظ من السقي والقوت وقرئ: بالضم.

روي أنهم قالوا: نريد ناقة عشراء تخرج من هذه الصخرة فتلد شقبا. فقعد صالح يتفكر فقال له جبريل عليه السلام: صل ركعتين وسل ربك الناقة ففعل فخرجت الناقة وبركت بين أيديهم ونتجت سقبا مثلها في العظم. وعن أبي موسى: رأيت مصدرها فإذا هو ستون ذراعاً. وعن قتادة: إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله ولهم شرب يوم لا تشرب فيه الماء {بسوء} بضرب أو عقر أو غير ذلك. فيأخذكم عذاب يوم ظيم عظم اليوم لحلول

العذاب فيه ووصف اليوم به أبلغ من وصف العذاب لأن الوقت إذا عظم بسببه كام موقعه من العظم أشد.

{فعقروها فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم} وروي أن مسطعاً ألجأها إلى مضيق في شعب فرماها بسهم فأصاب رجلها فسقطت: ثم شربها قدار. قدار. وروي أن عاقرها قال: لا أعقرها حتى ترضوا أجمعين فكانوا يدخلون على المرأة في خدرها فيقولن: أترضين فتقول: نعم وكذلك صبيانهم. فإن قلت: لم أخذهم العذاب وقد ندموا قلت: لم يكن ندمهم ندم تائبين ولكن في غير وقت التوبة وذلك عند

معاينة العذاب. وقال الله تعالى {وليست التوبة للذين يعملون السيئات} [الآية التوبة: 18]. وقيل: كانت ندامتهم على ترك الولد وهو بعيد. واللام في العذاب: إشارة إلى عذاب يوم عظيم {كذبت قوم لوط المرسلين إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعوا وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون} أراد بالعالمين: الناس: أي: أتأتون من بين أولاد آدم عليه السلام - على فرط كثرتهم وتفاوت أجناسهم وغلبة إناثهم على ذكورهم في الكثرة - ذكرانهم كأن الإناث قد أعوزتكم. أو أتأتون أنتم - من بين من عداكم من العالمين - الذاكران يعني أنكم يا قوم لوط وحدكم مختصون بهذه الفاحشة. والعالمون على هذا القول: كل ما ينكح من الحيوان {من أزواجكم} يصلح أن يكون تبييناً لما خلق وأن يكون للتبعيض ويراد بما خلق: العضو المباح منهن. وفي قارءة ابن مسعود: ما أصلح لكم ربكم من أزواجكم وكأنهم كانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم. بل أنتم قوم عادون العادي: المتعدي في ظلمة المتجاوز فيه الحد ومعناه: أتركبون هذه المعصية على عظمها بل أنتم قوم عادون في جميع المعاصي فهذا من جملة ذاك أو بل أنتم قوم أحقاء بأن توصفوا بالعدوان حيث ارتكبتم مثل هذه العظيمة.

{قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين} {لئن لم تنته} عن نهينا وتقبيح أمرنا {لتكونن} من جملة من أخرجناه من بين أظهرنا وطردنا ولعلهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوأ حال: من تعنيف به واحتباس لأملاكه. وكما يكون حال الظلمة إذا أجلوا بعص من يغضبون عليه وكما كان يفعل أهل مكة بمن يريد المهاجرة.

{قال إني لعملكم من القالين رب نجني وأهلي مما يعملون فنجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزاً في الغابرين ثم دمرنا الآخرين وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم} و{من القالين} أبلغ من أن يقول: إني لعلكم قال: كما تقول: فلان من العملاء فيكون أبلغ من قولك: فلان عالم لأنك تشهد له بكونه معدوداً في زمرتهم ومعرفة مساهمته لهم في العلم.

ويجوز أن يريد: من الكاملين في قلاكم. والقلي: البغض الشديد كأنه بغض يقلي الفؤاد والكبد.

وفي هذا دليل على عظم المعصية والمراد: القلي من حيث الدين والتقوى وقد تقوى همة الدين في دين الله حتى تقرب كراهته للمعاصي من الكراهة الجبلية {مما يعملون} من عقوبة علمهم وهو الظاهر. ويحتمل أن يريد بالتنجية: العصمة. فإن قلت: فما معنى قوله {فنجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزاً} قلت: معناه أنه عصمه وأهله من ذلك إلا العجوز فإنها كانت غير معصومة منه لكونها راضية به ومعينة عليه ومحرشة والراضي بالمعصية في حجكم العاصي. فإن قلت: كان أهله مؤمنين ولولا ذلك لما طلب لهم النجاة فكيف اشتثيت الكافرة منهم: قلت الاستثناء إنما وقع من الأهل وفي هذا الأسم لها معهم شركة بحق الزواج وإن لم تشاركهم في الإيمان. فإن قلت {في الغابرين} صفة لها كأنه قيل:

إلا عجوزاً غابرة ولم يكن الغبور صفتها وقت تنجيتهم قلت: معناه إلا عجوزاً مقدراً غبورها. ومعنى الغابرين في العذاب والهلاك: غير الناجين. قيل: إنها هلكن مع من خرج من القرية بما أمطر عليهم من الحجارة. والمراد بتدميرهم: الائتفاك بهم وأما الإمطار: فعن قتادة: أمطر الله على شذاذ القوم حجارة من السماء فأهلكم. وعن ابن ويد: لم يرض بالائتفاك حتى أتبعه مطراً من حجارة وفاعل {فساء مطر المنذرين} ولم يرد بالمنذرين قوماً بأعيانهم إنما هو للجنس والمخصوص بالذم محذوف وهو مطرهم.

{كذب أصحاب ليكة المرسلين إذ قال لهم شعيب ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعوا وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين} قرئ: أصحاب الأيكة بالهمزة وبتخفيفها وبالجر على افضافة وهو الوجه. ومن قرأ بالنصب وزعم أن ليكة بوزن ليلة: اسم بلد فتوهم قاد إليه خط المصحف حيث وجدت مكتوبة في هذه السورة وفي سورة ص بغير ألف. وفي المصحف أشياء كتبت على خلاف قياس الخط المصطلح عليه وإنما كتبت في هاتين السورتين على حكم لفظ اللافظ كما يكتب أصحاب النحو لان ولوى: على هذه الصورة لبيان لفظ المخفف وقد كتبت في سائر القرآن على الأصل والقصة واحدة على أن ليكو اسم لا يعرف. وروي ن أصحاب الأيكة كانوا أصحاب شجر ملتف. وكان شجرهم الدوم. فإن قلت: هلا قيل: أخوهم شعيب. كما في سائر المواضع قلت: قالوا: إن شعيباً لم يكن من أصحاب الأيكة. وفي الحديث: أن شعيباً أخا مدين أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة.

{أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين} الكيل على ثلاث أضرب: واف وطفيف وزائد. فأمر بالواجب الذي هو الإيفاء ونهى عن المحرم الذي هو التطفيف ولم يذكر الزائد وكأنه تركه عن الأمر والنهي: دليل على أنه إن فعله فقد أحسن وإن لم بفعله فلا عليه. قرئ: بالقسطاس مضموماً ومكسوراً وهو المسيزان وقيل: القرسطون فإن كان من القسط وهو العدل - وجعلت العين مكررة - فوزنه فعلاس وإلا فهو رباعي. وقيلك وهو بالرومية العدل. يقال: بخسته حقه إذا نقصته إياه. ومنه قيل للمكس: البخس وهو عام في كل حق ثبت لأحد أن لا يهضم وفي كل ملك أن يغضب عليه مالكه ولا يتحيف منه ولا يتصرف فيه إلا بإذنه تصرفاً شرعياً. يقال: عثا في الأرض وعثى وعاث وذلك نحو قطع الطريق والغارة وإهلاك الزروع وكانوا يفعلون ذلك مع توليهم أنواع الفساد فنهوا عن ذلك. وقرئ: الجبلة بوزن الأبلة. والجبلة بوزن الخلقة. ومعناهن واحد أي: ذوي الجبلة هو كقولك: الخلق الأولين.

{قالوا إنما أنت من المسحرين وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين} فإن قلت: هل اختلف المعنى بإدخال الواو ههنا وتركها في قصة ثمود قلت: إذا أدخلت الواو فقد قصد معنيان: كلاهما مناف للرسالة عندهم: التسحير والبشرية وأن الرسول لا يجوز أن يكون مسحراً ولا يجوز أن يكون بشراً وإذا تركت الواو فلم يقصد إلا معنى واحد وهو كونه مسحراً ثم قرر بكونه بشراً مثلهم فإن قلت: إن المخففة من الثقيلة ولا مها كيف تفرقتا على فعل الظن وثاني مفعولية قلت: أصلهما أن يتفرقا على المبتدأ والخبر كقولك: إن زيد لمطلق فلما كان البابان - أعني باب كان وباب ظننت - من جنس باب المبتدأ والخبر فعل ذلك في البابين فقيل: إن كان زيد لمنطلقاً وإن ظننته لمنطلقا.

{فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين} قرئ: كسفا بالسكون والحركة وكلاهما جمع كسفة نحو: قطع وسدر. وقيل: الكسف والكسفة كالريع والريعة وهي القطعة. وكسفه: قطعة. والسماء: السحاب أو المظلة. وما كان طلبهم ذلك إلا تصميمهم على الجحود والتكذيب. ولو كان فيهم أدنى ميل إلى التصديق لما أخطروه ببالهم فضلاً

أن يطلبوه. والمعنى: إن كنت صادقاً أنك نبي فادع الله أن يسقط علينا كسفاً من السماء.

{قال ربي أعلم بما تعملون} {ربي أعلم بما تعملون} يريد: أن الله أعلم بأعمالكم وبما تستجبون عليها من العقاب فإن أراد أن يعاقبكم بلإسقاط كسف من السماء فعل وإن أراد عقاباً آخر فإليه الحكم والمشيئة.

{فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم} {فأخذهم} الله بنحو ما اقترحوا من عذاب الظلة إن أرادوا بالسماء السحاب وإن أرادوا المظلة فقد خالف بهم عن مقترحهم. يروى أنه حبس عنهم الريح سبعاً وسلط عليهم الومد.

فأخذ بأنفاسهم ولا ينفعهم ظل ولا ماء ولا سرب فاضطروا إلى أن خرجوا إلى البرية فأظلتهم سحابة وجدوا لها برداً ونسيماً فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا. وروي أن شعيباً بعث إلى أمتين: أصحاب مدين وأصحاب الأيكة فأهلكت مدين بصيحة جبريل وأصحاب الأيكة بعذاب يوم الظلة. فإن قلت: كيف كرر في هذه السورة في أول كل قصة وآخرها ما كرر قلت: كل قصة منها كتنزيل برأسه وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها فكانت كل واحدة منها تدلي بحق في أن تفتتح بما افتتحت به صاحبتها وان تختتم بما اختتمت به ولأن في التكرير تقريراً للمعاني في الأنفس وتثبيتاً لها في الصدور. ألا ترى أنه لا طريق إلى تحفظ العلوم إلا ترديد ما يراد تحفظه منها وكلما زاد ترديده كان أمكن له في القلب وأرسخ في الفهم وأثبت للذكر وأبعد من النسيان ولأن هذه القصص طرقت بها آذان وقر عن الإنصات للحق وقلوب غلف عن تدبره فكوثرت بالوعظ والتذكيلا وروجعت بالترديد والتكرير لعل ذلك يفتح أذناً أو يفتق ذهناً أو يصقل عقلاً طال عهده بالصقل أو يجلو فهماً قد غطى عليه تراكم الصدأ.

{وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قبلك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين وإنه لفي زبر الأولين} {وإنه} وإن هذا التنزيل يعني: ما نزل من هذه القصص والآيات. والمراد بالتنزيل: المنول. والباء في {نزل به الروح} ونزل به الروح على القراءتين للتعدية. ومعنى {نزل به الروح} جعل الله الروح نازلاً به {على قلبك} أي: حفظكه وفهمك إياه وأثبته في قلبك غثبات مالا ينسى كقوله تعالى {سنقرئك فلا تنسى} [الأعلى: 6] {بلسان عربي} إما أن يتعلق بالمنذرين فيكون المعنى: لتكون من الذين أنذروا بهذا اللسان وهم خمسة: هو وصالح وشعيب وإسمعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام. وإما أن يتعلق بنزل فيكون المعنى: نزله باللسان العربي لتنذر به نه لو نزله باللسان الأعجمي لتجافوا عنه اصلاً ولقالوا: ما نصنع بمالا نفهمه فيتعذر الإنذار به وفي هذا الوجه: أن تنزيله بالعربية الني هي لستانك ولسان قومك تنزيل له على قلبك لانك تفهمه ويفهمه قومك.

ولو كان أعجميا لكان نازلا على سمعك دون قلبك لانك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها و لا تعيها وقد يكون الرجل عارفا بعدة لغات فإذا كلم بلغته التي لقنها أولا ونشأ عليها وتطبع بها لم يكن قلبه إلا إلى معاني الكلام يتلقاها بقلبه و لا يكاد يفطن للالفاظ كيف جرت وإن كلم بغير تلك اللغة وإن كان ماهراً بمعرفتها كان نظره أولاً في ألفاظها ثم في معانيها فهذا تقرير أنه نزل على قلبه لنزوله بلسان عربي مبين {وإنه} وإن القرآن - يعني ذكره مثبت في سائر الكتب السماوية. وقيل: إن معانيه فيها. وبه يحتج لأبي حنيفة في جواز القراءة بالفارسية في الصلاة على أن القرآن قرآن إذا ترجم بغير العربية حيث قيل {وإنه لفي زبر الأولين} لكون معانيه فيها.

وقيل: الضمير لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكذلك في {أن يعلمه} وليس بواضح.

{أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل} وقرئ: (يكن) بالتذكير. وآية بالنصب على أنها خبره و} أن يعلمه} هو الاسم. وقرئ: (تكن) بالتأنيث وجعلت {آية} اسما و{أن يعلمه} خبراً وليست كالأولى لوقوع النكرة اسماً والمعرفة خبراً وقد خرج لها وجه آخر لتخلص من ذلك فقيل: في {يكن} ضمير القصة و{آية أن يعلمه} جملة واقعة موقع الخبر. ويجوز على هذا أن يكون {لهم آية} هي جملة الشأن {أن يعلمه} بدلاً عن آية. ويجوز مع نصب الآية تأنيث {يكن} كقوله تعالى {ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا} [الأنعام: 23] ومنه بيت لبيد:

فمضى وقدمها وكانت عادة ** منه إذا هي عردت أقدامها

وقرئ: (تعلمه) بالتاء.} وعلماء بني اسرائيل ": عبد الله بن سلام وغيره. قال الله تعالى {وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين} [القصص: 53]. فإن قلت: كيف خط في المصحف} علمؤا} بواو قبل الألف قلت: خط على لغة من يميل الألف إلى الواو وعلى هذه اللغة كتبت الصلوة والزكوة والربوا.

{ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين كذلك سلكناه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون فيقولوا هل نحن منظرون أفبعذابنا يستعجلون أفرأيت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون} الأعجم: الذي لا يفصح وفي لسانه عجمة واستعجام. والأعجمي مثله. إلا أن فيه لزيادة ياء النسبة زيادة تأكيد. وقرأ الحسن: الأعجميين. ولما كان من يتكلم بلسان غير لسانهم لا يفقهون كلامه قالوا له: أعجم وأعجمي شبهوه بمن لا يفصح ولا يبين وقالوا لكل ذي صوت من البهائم والطيور وغيرها: أعجم قال حميد: ولا عربيا شاقه صوت أعجما {سلكناه} أدخلناه ومكناه. والمعنى: إنا أنزلنا هذا القرآن على رجل عربي بلسان عربي مبين فسمعوا به وفهموه وعرفوا فصاحته وأنه معجز لا يعارض بكلام مثله وانضم إلى ذلك اتفاق علماء أهل الكتب المنزلة قبله على أن البشارة بإنزاله وتحليه المنزل عليه وصفته في كتبهم وقد تضمنت معانيه وقصصه وصح بذلك أنها من عند الله وليست بأساطير كما زعموا فلم يؤمنوا به وجحدوه وسموه شعراً تارة وسحراً أخرى وقالوا: هو من تلفيق محمد وافترائه {ولو نزلناه على بعض} الأعاجم الذي لا يحسن العربية فضلاً أن يقدر على نظم مثله {فقرأ عليه} هكذا فصيحاً معجزاً منحدي به لكفروا به كما كفروا ولتمحوا لجحودهم عذراً ولسموه سحراً ثم قال {كذلك شلكناه} أي مثل هذا السلك سلناه في قلوبكهم وهكذا مكناه وقررناه فيها وهى مثل هذه الحال وهذه الصفة من الكفر به والتكذيب له وضعناه فيها فكيفما مكناه وقررناه فيها وعلى مثل هذه الحال وهذه الصفة من الكفر به والتكذيب له وضعناه فيها فكيفما فعل بهم وصنع وعلى أي وجه دبر أمرهم فلا سبيل أن يتغيروا عما هم عليه من جحود وإنكاره كما قال: ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين} الأنعام: 7 فإن قلت: كيف أسند السلك بصفة التكذيب إلى ذاته قلت: أراد به الدلالة على تمكنه مكذباً في قلوبهم أشد التمكن وأثبته فجعله بمنزلة أمر قد جبلوا عليه وفطروا. ألا ترى إلى قولهم: هو مجبول على الشح يريدون: تمكن الشح فيه لأن الأمور الخلقية أثبت من العارضة والدليل عليه أنه أسند ترك الإيمان به إليهم على عقبه وهو قوله {لا يؤمنون به} فإن قلت: ما موقع { لا يؤمنون به} من قوله {سلكناه في قلوب المجرمين} قلت: موقعه منه موقع الموضح والملخص لأنه مسوق لثباته مكذباً مجحوداً في قلوبهم فأتبع ما يقرر هذا المعنى من أهم لا يزالون على التكذيب به وجحوده حتى يعاينوا الوعيد. ويجوز أن يكون حالاً أي: سلطناه فيها غير مؤمن به. وقرأ الحسن: فتأتيهم بالتاء يعني: الساعة. وبغتة بالتحريك. وفي حرف أبي: ويروه بغتة. فإن قلت: ما معنى التعقيب في قوله {فيأتيهم بغتة... فيقولوا} قلت: ليس المعنى ترادف رؤية العذاب ومفاجأته وسؤال النظرة فيه في الوجود وإنما المعنى ترتيبها في الشدة كاه

قيل: لا يؤمنون بالقرآن حتى تكون رؤيتهم للعذاب فما هو أشد منها وهو لحوقة بهم مفاجأة فما هو أشد منه وهو سؤالهم النظرة ومثال ذلك أن تقول لمن تعظه: إن أسأت مقتك الصالحون فمقتك الله فإنك لا تقصد بهذا الترتيب أن مقت الله يوجد عقيب مقت الصالحين وإنما قصدك إلى ترتيب شدة الأمر على المسيء وأنه يحصل له بسبب الإساءة مقت الصالحين فما هو أشد من مقتهم: وهو مقت الله وترى ثم يقع في هذا الأسلوب فيحل موقعه {أفبعذابنا يستعجلون} تبكيت لهم بإنكار وتهكم ومعناه: كيف يستعجل العذاب من هو معرض لعذاب يسأل فيه من جنس ما هو فيه اليوم من النظرة والإمهال طرفة عين فلا يجاب إليها. ويحتمل أن يكون هذا حكاية توبيخ يوبخون به عند استنظارهم يومئذ و{يستعجلون} على هذا الوجه حكاية حال ماضية. ووجه آخر متصل بما بعده وذلك أن استعجالهم بالعذاب إنما كان لاعتقادهم أنه غير كائن ولا لاحق بهم وأنهم ممتتعون بأعمار طوال في سلامة وأمن فقال تعالى: أفبعذابنا يستعجلون أشراً وبطراً واستهزاء واتكالا على الأمل الطويل ثم قال: هب أن الأمر كما يعتقدون من تمتيعهم وتعميرهم فإذا لحقهم الوعيد بعد ذلك ما ينفعهم حينئذ ما مضى من طول أعمارهم وطيب معايشهم. وعن ميمون بن مهران: أنه لقي الحسن في الطواف وكان يتمنى لقاءه فقال له: عظني فلم يزده على تلاوة هذه الآية. فقال ميمون: لقد وعظت فأبلغت. وقرئ: يمتعون بالتخفيف.

{وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون ذكرى وما كنا ظالمين} {منذرون} رسل ينذرونهم {ذكرى} منصوبة بمعنى تذكرة. إما لأن أنذر وذكر متقاربان فكأنه قيل: مذكرون تذكرة. وإما لأنها حال من الضمير في {منذرون} أي ينذرونهم ذوي تذكرة. وإما لأنها مفعوله على معنى: أنهم ينذرون لأجل الموعظة واتذكرة. أو مرفوعة على أنها خبر مبتدأ محذوفن بمعنى: هذه ذكرى. والجملة اعتراضية. أو صفة بمعنى: منذرون ذوو ذكر. أو جعلوا ذكرى لإمعانهم في

التذكرة وما أهلكنا من أهل قرية ظالمين إلا بعدما ألزمناهم الحجة بإرسال المنذرين إليهم ليكون غير ظالمين. وهذا الوجه عليه المعول. فإن قلت: كيف عزلت الواو عن الجملة بعد إلا ولم تعزل عنها في قوله {وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم} [الحجر: 4] قلت: ألأصل: عزل الواو لأن الجملة صفة لقرية وإذا زيدت فلتأكيد وصل الصفة بالموصوف كما في قوله {سبعة وثامنهم كلبهم} [الكهف: 22].

{وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون} كانوا يقولون: إن محمداً كاهن وما يتنزل عليه من جنس ما يتنزل به الشياطين على الكهنة فكذبوا بأن ذلك مما لا يتسهل للشياطين ولا يقدرون عليه لأنهم مرجومون بالشهب معزولون عن استماع كلام أهل السماء. وقرأ الحسن: الشياطون. ووجهه أنه رأى آخره كآخر يبرين وفلسطين فتخير بين أن يجري الإعراب على النون وبين أن هذه يبرون ويبرين وفلسطون وفلسطين. وحقه أن تشتقه من الشيطوطة وهي الهلاك كما قيل له الباطل. وعن الفراء: غلط الشيخ في قراءته الشياطون ظن أنها النون التي على هجاءين فقال النضر بن شميل: إن جاز أن يحتج بقول العجاج ورؤبة فهلا جاز أن يحتج بقول الحسن وصاحبه أ يريد: محمد بن السميع - مع أنا نعلم أنهما لم يقرأ به إلا وقد سمعا فيه.

{فلا ندع مع الله إلاه إلاه ساخر فتكون من المعذبين وأنذر عشيرتك الأقربين قد علم أن ذلك لا يكون ولكنه أراد أن يحرك منه لازدياد الإخلاص والتقوى. وفيه لطف لسائر المكلفين كما قال {ولو تقول علينا بعض الأقاويل} [الحاقة: 44] فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فيه وجهان: أحدهما أن يؤمر بإنذار الأقرب فالأقرب من قومه ويبدأ في ذلك بمن هو أولى بالبداءة ثم يمن يليه: وأن يقدم إنذارهم على إنذار غيرهم كما روي عنه عليه

السلام: أنه لما دخل مكة قال: كل ربا في الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين وأول ما أضعه ربا العباس والثاني: أن يؤمر بأن لا يأخذ القريب للقريب من العطف والرأفة ولا يحابيهم في الإنذار والتخويف. وروي: أنه صعد الصفا - لما نزلت - فنادى الأقرب فالأقرب فخذاً فخذاً وقال: يا بني عبد المطلب يا بني هاشم يا بني عبد مناف يا عباس عم النبي يا ضفية عمة رسول الله أني لا أملك لكم أنه صلى الله عليه وسلم جمع بني عبد المطلب وهم يومئذ أربعون رجلاً: الرجل منهم يأكل

الجذعة ويشرب العس على رجل شاة وقعب من لبن فأكلوا وشرب كوت حتى صدروا ثم أنذرهم فقال: يا بني عبد المطلب لو أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلاً أكنتم مصدقي قالوا: نعم. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد وروي أنه قال: يا بني عبد المطلب يا بني هاشم يا بني عبد مناف افتدوا أنفسكم من النار فإني لا أغني عنكم شيئاً ثم قال: يا عائشة بنت أبي بكر ويا حفصة بنت عمر ويا فاطمة بنت محمد ويا صفية عمة محمد اشترين أنفسكن من النار فإني لا أغني عنكن شيئاً.

{واخفض جناحك لمن أتبعك من المؤمنين فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون} الطائر إذا أراد أن ينحط للوقوع كسر جناحه وخفضه وإذا أراد أن ينهض للطيران رفع جناحه فجعل خفض جناحه عند الانحطاط مثلاً في يالوتاضع ولين الجانب ومنه قول بعضهم:

وأنت الشهير بخفض الجناح **فلا تك في رفعة أجدلا

ينهاه عن التكبر بعد التواضع. فإن قلت: المتبعون للرسول هم المؤمنون والمؤمنون هم المتبعون للرسول فما معنى قوله {لمن اتبعك من المؤمنين} قلت: فيه وجهان: أن يسميهم قبل الدخول في الإيمان مؤمنين لمشارفتهم ذلك وأن يريد بالمؤمنين المصدقين بألسنتهم وهم صنفان: صنف صدق واتبع رسول الله فيما جاء به وصنف ما وجد منه إلا التصديق فحسب ثم إما أن يكونوا منافقين أو فاسقين والمنافق والفاسق لا يخفض لهما الجناح. والمعنى: من المؤمنين من عشيرتك وغيرهم يعني: أنذر قومك فإن اتبعوك وأطاعوك فاخفض لهم جناحك وإن عصوك ولم يتبعوك فتبرأ منهم ومن أعمالهم من الشرحك بالله وغيره.

{وتوكل على العزيز الرحيم الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين إنه هو السميع العليم} {وتوكل} على الله يكفك شر من يعصيك منهم ومن غيرهم. والتوكل: تفويض الرجل أمره إلى من يملك أمره ويقدر على نفعه وضره. وقالوا: المتوكل من إن دهمه أمر يحاول دفعه عن نفسه بما هو معغصضية لله فعلى هذا إذا وقع انسان في محنه ثم سأل غيره خلاصه لم يخرج من حد التوكل لأنه لم يحاول دفع ما نزل به عن نفسه بنعصية الله. وفي مصاحف أهل المدينة والشام: فتوكل وبه قرأ نافع وابن عامر ولخ محملان في العطف: أن يعطف على فقل. أو فلا تدع.

{على العزيز الرحيم} على الذين يقهر أعداءك بعزته وينصرك عليهم برحمته. ثم ابتع كونه رحيماً على رسوله ما هو من أسباب الرحمة: وهو ذكر ما كان بفعله في جوف الليل من قيامه للتهجد وتقلبه في تصفح أحوال المتجهدين من أصحاب ليطلع عليهم من حيث لا يشعرون ويستبطن سر أمرهم وكيف يعبدون الله وكيف يعملون لآخرتهم كما يحكى أنه حين نسخ فرض قيام الليل طاف تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون لحرصه عليهم وعلى ما يوجد منهم من فعل الطابعات وتكثير الحسنات فوجدها كبيوت الزنابير لما سمع منها من دندنتهم بذكر الله والتلاوة. والمراد بالساجدين: المصلون. وقيل: معناه يراك حين تقوم للصلاة بالناس جماعة.

وتقلبه في الساجدين: تصرفه فيما بينهم بقيامة وركوعه وسجوده وقعوده إذا أمهم. وعن مقاتل: أنه سأل أبا حنيفة رحمه الله هل تحجد الصلاة في الجماعةو في القرآن فقال: لا يحضرني فتلا له هذه الآية. ويحتمل أنه: لا يخفى عليه {العليم} بما تنويه وتعلمه. وقيل: هو تقلب بصره فيمن يصلي خلفه من قوله صلى الله عليه وسلم: أتموا الركوع والسجود فوالله إني لأراكم من خلف ظهري إذا ركعتم وسجدتم وقرئ ويقلبك.

{هل أنبأكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون} {كل أفاك أثيم} هم الكهنة والمنبئة كشق وسطيح ومسيلمة ليحة {يلقون السمع} هم الشياطين كانوا قبل أن يحجبوا بالرجم يسمعون إلى الملأ الأعلى فيختطفون بعض ما يتكلمون به مما أطلعوا عليه من الغيوب ثم يوحون به إلى أوليائهم من أولئك {وأكثرهم كاذبون} فيما يوحون به إليهم لأنهم يسمعون ما لم يسمعوا. وقيل: يلقون إلى أوليائهم السمع أي المسموع من الملائكة.

وقيل: الأفاكون يلقون السمع إلى الشياطين فيتلقون وحيهم إليهم. أو يلقون المسموع من الشياطين إلى الناس وأكثر الأفاكين كاذبون يفترون على الشياطين ما لم يوحوا إليهم وترى أكثر ما يحكمون به باطلاً وزوراً. وفي الحديث: الكلمة يخفها الجني فيقرها في أذن وليه فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة والقر: الصب. فإن قلت: كيف دخل حرف الجر على من المتضمنة لمعنى الاستفهام والاستفهام له صدر الكلام ألا ترى إلى قولك: أعلى زيد مررت ولا تقول: على أزيد مررت قلت: ليس معنى التضمن أن الاسم دل على معنيين معاً: معنى الاسم ومعنى الجرف. وإنما معناه: أن الأصل أمن فحذف حرف الاستفهام واستمر الاستعمال على حذفه كما حذف من هل والأصل: أهل. قال: أهل رأونا بسفح القاع ذي الأكم فإذا أدخلت حرف الجر على من فقدر الهمزة قبل حرف الجر في ضميرك كأنك تقول: أعلى

من تنزل الشياطين كقولك: أعلى زيد مررت. فإن قلت {يلقون} ما محله قلت: يجوز أن يكون في محل النصب على الحال أي: تنزل ملقين السمع وفي محل الجر صفة لكل أفاك لأنه في معنى الجمع وأن تنزل على الأفاكين فقيل: يفعلون كيت وكيت. فإن قلت: يستأنف كأن قائلاً قال: لم تنزل على الأفاكين فقيل: يفعلون كيت وكيت. فإن قلت: كيف قيل {وأكثرهم كاذبون} بعد ما قضى عليهم أن كل واحد منهم أفاك قلت: الأفاكون هم الذين يكثرون افغك ولا يدل ذلك على أنهم لا ينطقون إلا بالإفك فأراد أن هؤلاء الأفاكين قل م يصدق منهم فيما يحكي عن الجني وأكثرهم مفتر عليه. فإن قلت {وإنه لتنزيل رب العالمين} [الشعراء: 192] {وما تنزلت به الشياطين} [الشعراء: 210] {هل أنبئكم على من تنزل الشياطين} لم فرق بينهن وهن أخوات قلت: أريد التفريق بينهن بآيات ليست في معناهن ليرجع إلى المجئ بهن وتطرية ذكر ما فيهن كرة بعد كرة: فيدل بذلك على أن المعنى الذي نزلن فيه من المعاني التي اشتدت كراهة الله لخلافها.

ومثاله: أن يحدث الرجل بحديث وفي صدره اهتمام بشيء منه وفضل عناية فتراه يعيد ذكره ولا ينفك عن الرجوع إليه.

{والشعراء يتبعهم الغاون} {والشعراء} مبتدأ. و{يتبعهم الغاون} خبره: ومعناه: أنه لا يتبعهم على باطلهم وكذبهم ووفضول قولهم وما هم عليه من الهجاء وتمزيق اعراض والقدح في الأنساب والنسيب بالحرم والغزل والابتهار ومدح من لا يستحق المدح ولا يستحسن ذلك منهم ولا يطرب على قولهم - إلا الغاوون والسفهاء والشطار. وقيل: الغاوون: الراوون. وقيل: الشياطين وقيل: هم شعراء قريش: عبد الله بن الزبعري وهبيرة بن أبي وهب المخزومي ومسامع بن عبد مناف وأبو عزة الجمحي. ومن ثقيف: أمية ابن أبي الصلت. قالوا: نحن نقول مثل قول محمد - وكانوا يهجونه ويجتمع إليهم

الأعراب من قومهم يستمعون أشعارهم وأهاجيهم - وقرأ عيسى بن عمر: والشعراء بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر. قال أبو عبيد: كان الغالب عليه حب النصب. قرأ {حمالة الحطب} [المسد: 4] {والسارق والسارقة} [المائدة: 38] و{سورة أنزلناهم} [النور: 1] وقرئ: يتبعهم على التخفيف. ويتبعهم بسكون العين تشبيهاً لبعه بعضد.

{ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون} ذكر الوادي والهيوم: فيه تمثيل لذهابهم في كل شعب من القول واعتسافهم وقلة مبادلاتهم بالغلو في المنطق ومجاوزة حد القصد فيه حتى يفضلوا أجبن الناس على عنترة وأشحم على حاتم وأن يبهتوا البري يويفسقوا التقي.

وعن الفرزدق: أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله:

فبتن بجانبي مصرعات ** وبت أفض أغلاق الختام

فقال: قد وجب عليك الحد فقال: يا أمير المؤمنين قد درأ الله عني الحد بقوله {وأنهم يقولن ما لا يفعلون}.

{إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون} استثنى الشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون ذكر الله وتلاوة القرآن وكان ذلك أغلب عليهم من الشعر وإذا قالوا شعراً قالوه في توحيد الله والثناء عليه والحكمة والموعظة والزهد والآدب الحسنة ومدح رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة وصلحاء الأمة وما لا بأس به من المعاني التي لا يتلطخون فيهايي بذنب ولا يتلبسون بشائنة ولا منقصة وكان هجاؤهم على سبيل الانتصار ممن يهجوهم. قال الله تعالى {لا يحب الله الجهر بالسوء من القول تعالى {فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم} [البقرة: 194] وعن عمرو بن عبيد: أن رجلاً من العلوية قال له: إن صدري ليجيش بالشعر فقال: فما يمنعك منه فيما لا بأس به والقول فيه: أن الشعر باب من الكلام فحسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام. وقيل: المراد بالمستثنين: عبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت والكعبان: كعب بن مالك وكعب بن زهير والذين كانوا ينافحون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكافحون هجاء قريش.

وعن كعب بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: (اهجهم فوالذي نفسي بيده لهو أشد عليهم من النبل) وكان يقول لحسان: (قل وروح القدس معك). ختم السورة بآية ناطقة بما لا شيء أهيب منه وأهول ولا أنكى لقلوب المتأملين ولا أصدع لأكباد المتدبرين وذلك قوله {وسيعلم} وما فيه من الوعيد البليغ وقوله {الذين ظلموا} وإطلاقه. وقوله {أي منقلب ينقلبون} وإبهامه وقد تلاها أبو بكر لعمر رضي الله عنهما حين عهد إليه: وكان السلف الصالح يتواعظون بها ويتناذرون شدتها. وتفسير الظلم بالكفر تعليل ولأن تخاف فتبلغ الأمن: خير من أن تأمن فتبلغ الخوف. وقرأ ابن عباس: (أي منفلت ينفلتون) ومعناها: إن الذين ظلموا يطمعون أن ينفلتوا من عذاب الله وسيعلمون أن ليس لهم وجه من وجوه الانفلات وهو النجاة: اللهم اجعلنا ممن جعل هذه الآية بين عينيه فلم يغفل عنها وعلم أن من عمل سيئة فهو من الذين ظلموا والله أعلم بالصواب.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من قرأ سورة الشعراء كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح وكذب به وهود وشعيب وصالح وإبراهيم وبعدد من كذب بعيسى وصدق بمحمد عليهم الصلاة والسلام).

سورة النمل

مكية وهي ثلاث وتسعون آية وقيل أربع وتسعون

بسم الله الرحمن الرحيم

{طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين هدى وبشرى للمؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالأخرة هم يوقنون} {طس} قرئ: بالتفخيم والإمالة و {تلك} إشارة إلى آيات السورة والكتاب المبين: إما اللوح وإبانته: أنه قد خط فيه كل ما هو كائن فهو يبينه للناظرين فيه إبانة. وإما السورة. وإما القرآن وإبانتهما: أنهما يبينان ما أودعاه من العلوم والحكم والشرائع وأن إعجازهما ظاهر مكشوف وإضافة الآيات إلى القرآن والكتاب المبين: على سبيل التفخيم لها والتعظيم لأن المضاف إلى العظيم يعظم بالإضافة إليه. فإن قلت: لم نكر الكتاب المبين قلت: ليبهم بالتنكير فيكون أفخم له كقوله تعالى {في مقعد صدق عند مليك مقتدر} القمر: 55. فإن قلت: ما وجه عطفه على القرآن إذا أريد به القرآن قلت: كما تعطف إحدى الصفتين على الأخرى في نحو قولك: هذا فعل السخي والجواد الكريم لأن القرآن هو المنزل المبارك المصدق لما بين يديه فكان حكمه حكم الصفات المستقلة بالمدح فكأنه قيل: تلك الآيات آيات المنزل المبارك آي كتاب مبين. وقرأ ابن أبي عبلة: (وكتاب مبين) بالرفع على تقدير: وآيات كتاب مبين فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. فإن قلت: ما الفرق بين هذا وبين قوله {الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين} [الحجر: 1] قلت: لا فرق بينهما إلا ما بين المعطوف والمعطوف عليه من التقدم والتأخر وذلك على ضربين: ضرب جار مجرى التثنية لا يترجح فيه جانب على جانب وضرب فيه ترجح فالأول نحو قوله تعالى {وقولوا حطة} [البقرة: 58 الأعراف: 161] {وادخلوا الباب سجدا} [البقرة: 58 الأعراف: 161] ومنه ما نحن بصدده. والثاني: نحو قوله تعالى {شهد الله أنه لا إله إلا هو الملائكة وأولو العلم} [آل عمران: 18] {هدى وبشرى} في محل النصب أو الرفع فالنصب على الحال أي: هادية ومبشرة والعامل فيها ما في تلك من معنى الإشارة والرفع على ثلاثة أوجه على: هي هدى وبشرى وعلى البدل من الآيات وعلى أن يكون خبراً بعد خبر أي: جمعت أنها آيات وأنها هدى وبشرى. والمعنى في كونها هدى للمؤمنين: أنها زائدة في هداهم. قال الله تعالى {فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً} [التوبة: 124] فإن قلت {وهم بالأخرة هم يوقنون} كيف يتصل بما قبله قلت: يحتمل أن يكون من جملة صلة الموصول ويحتمل أن تتم الصلة عنده ويكون جملة اعتراضية كأنه قيل: وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة: هم الموقنون بالآخرة وهو الوجه. ويدل عليه أنه عقد جملة ابتدائية وكرر فيها المبتدأ الذي هو {وهم} حتى صار معناها: وما يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح لأن خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق.

إن الذين لا يؤمنون بالأخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم فإن قلت: كيف أسند تزيين أعمالهم إلى ذاته وقد أسنده إلى الشيطان في قوله {وزين لهم الشيطان أعمالهم} [النمل: 24 العنكبوت: 38] قلت: بين الإسنادين فرق وذلك أن إسناده إلى الشيطان حقيقة وإسناده إلى الله عز وجل مجاز وله طريقان في علم البيان. أحدهما: أن يكون من المجاز الذي يسمى الاستعارة. والثاني: أن يكون من المجاز الحكمي فالطريق الأول: أنه لما متعهم بطول العمر وسعة الرزق. وجعلوا إنعام الله بذلك عليهم وإحسانه إليهم ذريعة إلى اتباع شهواتهم وبطرهم وإيثارهم الروح والترفة ونفارهم عما يلزمهم فيه التكاليف الصعبة والمشاق المتعبة فكأنه زين لهم بذلك أعمالهم. وإليه أشارت الملائكة صلوات الله وسلامه عليهم في قولهم {ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر} [الفرقان: 18] والطريق الثاني: أن إمهاله الشيطان وتخليته حتى يزين لهم ملابسة ظاهرة للتزيين فأسند إليه لأن المجاز الحكمي يصحح بعض الملابسات وقيل:

هي أعمال الخير التي وجب عليهم أن يعملوها: زينها لهم الله فعمهوا عنها وضلوا وعزى إلى الحسن. والعمه: التحير والتردد كما يكون حال الضال عن الطريق.

وعن بعض الأعراب: أنه دخل السوق وما أبصرها قط فقال: رأيت الناس مهمين أراد: مترددين في أعمالهم وأشغالهم {سوء العذاب} القتل والأسر يوم بدر. و{الأخسرون} أشد الناس

خسراناً لأنهم لو آمنوا لكانوا من الشهداء على جميع الأمم فخسروا ذلك مع خسران النجاة {وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم} {لتلقى القرآن} لتؤتاه وتلقنه {من} عند أي {حكيم} وأي {عليم} وهذا معنى مجيئها نكرتين.

وهذه الآية بساط وتمهيد لما يريد أن يسوق بعدها من الأقاصيص وما في ذلك من لطائف حكمته ودقائق علمه.

{إذ قال موسى لأهله إني آنست ناراً سئاتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون} {إذ} منصوب بمضمر وهو اذكر كأنه قال على أثر ذلك: خذ من آثار حكمته وعلمه قصة موسى. ويجوز أن ينتصب بعليم. وروي أنه لم يكن مع موسى ليه السلام غير امرأته وقد كنى الله عنها بالأهل فتبع ذلك ورود الخطاب على لفظ الجمع وهو قوله {امكثوا} [طه: 10].

الشهاب: الشعلة. والقبس: النار المقبوسة وأضاف الشهاب إلى القبس لأنه يكون قبساً وغير قبس. ومن قرأ بالتنوين: جعل القبس بدلاً أو صفة لما فيه من معنى القبس. والخبر: ما يخبر به عن حال الطريق لأنه كان قد ضله. فإن قلت: سآتيكم منها بخبر ولعلي آتيكم منها بخبر: كالمتدافعين: لأن أحدهما ترج والآخر تيقن. قلت: قد يقول الراجي إذا قوي رجاؤه: سأفعل كذا وسيكون كذا مع تجويزه الخيبة. فإن قلت: كيف جاء بسين التسويف قلت: عدة لأهلله أنه يأتيهم به وإن أبطأ أو كانت المسافة بعيدة. فإن قلت: فلم جاء بأو دون الواو قلت بني الرجاء على أنه إن لم يظفر بحاجيته جميعاً لم يعدم واحدة منهما: إما هداية الطريق وإما أقتباس النار ثقة بعادة الله أنه لا يكاد يجمع بين حرمانين على عبده وما أدراه حين قال ذلك أنه ظافر على النار بحاجتيه الكليتين جميعاً وهما العزان: عز الدنيا وعز الآخرة.

{فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين} {أن} هي المفسرة: لأن النداء فيه معنى القول. والمعنى: قيل له بورك فإن قلت: هل يجوز أن تكون المخففة من الثقيلة وتقديره: نودي بأنه بورك. والضمير ضمير الشأن قلت: لا لأنه لابد من (قد). فإن قلت: فعلى إضمارها قلت: لا يصح لأنها علامة لا تحذف. ومعنى {بورك من في النار ومن حولها} بورك من في مكان النار ومن حول مكانها. ومكانها: البقعة التي حصلت فيها وهي البقعة المباركة المذكورة في قوله تعالى {نودي من شاطئ الوادي الأيمن في

البقعة المباركة} [القصص: 30] وتدل عليه قراءة أبي. (تباركت الأرض ومن حولها). وعنه: (بوركت النار) والذي بوركت له البقعة وبورك من فيها وحواليها حدوث أمر ديني فيها: وهو تكليم الله موسى واستنباؤه له وإظهار المعجزات عليه ورب خير يتجدد في بعض البقاع فينشر الله بركة ذلك الخير في أقاصيها ويبث آثار يمنه في أباعدها فكيف بمثل ذلك الأمر العظيم الذي جرى في تلك البقعة. وقيل: المراد بالمبارك فيهم: موسى والملائكة الحاضرون.

والظاهر أنه عام في كل من كان في تلك الأرض وفي تلك الوادي وحواليهما من أرض الشام ولقد جعل الله أرض الشام بالبركات موسومة في قوله {ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين} [الأنبياء: 71] وحقت أن تكون كذلك فهي مبعث الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ومهبط الوحي إليهم وكفاتهم أحياء وأمواتاً. فإن قلت: فما معنى ابتداء خطاب الله موسى بذلك عند مجيئه قلت: هي بشارة له بأنه قد قضى أمر عظيم تنتشر منه في أرض الشام كلها البركة} وسبحان الله رب العالمين} تعجيب لموسى عليه السلام من ذلك وإيذان بأن ذلك الأمر مريده ومكونه رب العالمين تنبيهاً على أن الكائن من جلائل الأمور وعظائم الشؤون.

{يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم} الهاء في {إنه} يجوز أن يكون ضمير الشأن والشأن {أنا الله} مبتدأ وخبر. و{العزيز الحكيم} صفتان للخبر. وأن يكون راجعاً إلى ما دل عليه ما قبله يعني: أن مكلمك أنا والله بيان لأنا.

والعزيز الحكيم: صفتان للمبين وهذا تمهيد لما أراد أن يظهره على يده من المعجزة يريد: أنا القوي القادر على ما يبعد من الأوهام كقلب العصا حية الفاعل كل ما أفعله بحكمه وتدبير.

{وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب يا موسى لا تخف إني لا يخاف} فإن قلت: علام عطف قوله {وألق عصاك} قلت: على بورك لأن المعنى: نودي أن بورك من في النار وأن ألق عصاك: كلاهما تفسير لنودي. والمعنى: قيل له بورك من في النار وقيل له {وألق عصاك}. والدليل على ذلك قوله تعالى {وأن ألق عصاك} [القصص: 31] بعد قوله {أن يا موسى إني أنا الله} [القصص: 30] على تكرير حرف التفسير كما تقول: كتبت إليك أن حج وأن اعتمر وإن شئت أن حج واعتمر. وقأ الحسن: ان على لغة من يجد في الهروب من التقاء الساكنين فيقول: شأبه ودأبه. ومنها قراءة عمرو بن عبيد ولا الضالين {ولم يعقب} لو يرجع يقال عقب المقاتل إذا كر بعد الفرار. قال:

فما عقبوا إذ قيل عمرو من معقب ** ولا نزلوا يوم الكريهة منزلا

وإنما رعب لظنه أن ذلك لأمر اريد به ويدل به ويدل عليه {إني لا يخاف لدي المرسلون} و {إلا} بمعنى لكن لأنه لما أطلق نفي الخوف عن الرسل كان ذلك مظنه لطرو الشبهة فاستدرك ذلك. والمعنى: ولكن من ظلم منهم أي فرطت منه صغيرة مما يجوز على الأنبياء كالذي فرط من آدم ويونس وداود وسليمات وإخوة يوسف ومن موسى بوكزة القبطي ويشك أن يقصد بهذا التريض بما وجد من موسى وهو من التعريضات التي يلطف مأخذها. وسماه ظلماً كما قال موسى {رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي} [القصص: 16] والحسن والسوء: حسن التوبة {وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين} و {في تسع آيات} كلام مستأنف وجرف الجر فيه يتعلق بمحذوف. والمعنى: اذهب في تسع آيات} إلى فرعون} ونحوه:

فقلت إلى الطعام فقال منهم

**فريق نحسد الإنس الطعاما

ويجوز أن يكون المعنى: وألق عصاك وأدخل يدك: في تسع آيات أي: في جملة تسع آيات وعدادهن. ولقائل أن يقول: كانت الآيات إحدى عشرة: ثنتان منها اليد والعصا والتسع: الفلق والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمسة والجذب في بواديهم والنقصان في مزارعهم.

{لما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين} المبصرة: الظاهرة البينة. جعل الإبصار لها وهو في الحقيقة لمتأمليها لأنهم لا بسوها وكانوا بسبب منها بنظرهم وتفكرهم فيها. ويجوز أن يراد بحقيقة الإبصار: كل ناظر فيها من كافة أولي العقل وأن يراد إبصار فرعون وملئه. لقوله {واستيقنتها أنفسهم} [النمل: 14] أو جعلت كأنها تبصر فتهدي لأن العمي لا تقدر على الاهتداء فضلاً أن تهدي غيرها. ومنه قولهم: كلمة عيناء وكلمة عوراء لأن الكلمة الحسنة ترشد والشيئة تغوى. ونحوه قوله تعالى {لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر} [الإسراء: 102] فوصفها بالبصارة كما وصفها بالإبصار. وقرأ علي بن الحسين رضي الله عنهما وقتادة: مبصرة وهي نحو: مجبنة ومبخلة ومجفرة أي: مكاناً يكثر فيه التبصير.

{جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين} الواو في {واستيقنتها} واو الحال وقد بعدها مضمرة والعلو: الكبر والترفع عن الإيمان بما جاء به موسى كقوله تعالى {فاستكبروا وكانوا قوماً عالين} [المؤمنين: 46] {فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون} [المؤمنون: 47] وقرئ: عليا وعليا بالضم والكسر كما قرئ: عتيا وعتيا وفائدة ذكر الأنفس: أنهم جحدوها بألسنتهم واستيقنوها في قلوبهم وضمائرهم والاستيقان أبلغ من الإيقان وقد قوبل بين المبصرة والمبين وأي ظلم أفحش من ظلم من اعتقد واستيقن أنها آيات بينة واضحة جاءت من عند الله ثم كابر بتسميتها سحراً بيناً مكشوفاً لا شبهة فيه.

{لقد آتينا داود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين} {علما} طائفة من العلم أو علماً سنياً غزيراً. فإن قلت: أليس هذا موضع الفاء دون الواو كقولك: أعطيته فشكر ومنعته فصبر قلت: بلى ولكن عطفه بالواو إشعار بأن ما قالاه بعض ما أحدث فيهما إيتاء العلم وشيء من مواجبه فأضمر ذلك ثم عطف عليه التحميد كأنه قال: ولقد آتيناهما علماً فعملا به علماه وعرفا حق النعمة فيه والضيلة {وقالا الحمد الذي فضلنا}.

والكثير المفضل عليه: من لم يؤت علماً. أو من لم يؤت مثل علمهما. وفيه: أنهما فضلاً على كثير. وفي الآية دليل على شرف العلم وإنافة محله وتقدم حملته وأهله وأن نعمة العلم من أجل النعم. وأجزل القسم وأن من أويته فقد أوتي فضلاً على كثير من عباد الله كما قال {والذين أوتوا العلم درجات} [المجادلة: 11] وما سماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ورثة الأنبياء إلا لمداواتهم لهم في الشرف والمنزلة لأنهم القوام بما بعثوا من أجله. وفيها أنه يلزمهم لهذه النعمة الفاضلة لوازم منها: أن يحمدوا الله على ما أوتوه من فضلهم على غيرهم.

وفيها التذكير بالتواضع وأن يعتقد العالم أنه وإن فضل على كثير فقد عليه مثلهم. وما أحسن قول عمر: كل الناس أفقه من عمر.

{ورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شئ إن هذا لهو الفضل المبين} ورث منه النبوة والملك دون شائر بنيه - وكانوا تسعة عشر - وكان داود أكثر تعبداً وسليمان أقضى وأشكر لنعمة الله} وقال يا أيها الناس} تشهيراً لنعمى الله وتنويهاً بها واعترافاً بمكانها ودعاء للناس إلى التصديق بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير وغير ذلك مما أوتيه من عظائم الأمور. والمنطق: كل ما يصوت به من المفرد والمؤلف المفيد وغير المفيد. وقد ترجم يعقوب بن السكيت كتابه بإصلاح المنطق وما أصلح فيه إلا مفردات الكلم وقالت العرب: نطقت الطير: هو ما يفهم بعضه من بعض من معانيه وأغراضه. ويحكى أنه مر على بلبل في شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه فقال

لأصحابه: أتدرون ما يقول الله ونبيه أعلم: قال يقول: أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء. وصاحت فاختة فأخبر أنها تقول: ليت ذا الخلق لم يخلقوا.

وصاح طاووس فقال يقولك كما تدين تدان. وصاح هدهد فقال يقول: استغفروا الله يا مذنبين. وصاح يطوي فقال يقول: كل حي ميت وكل جديد بال. وصاح خطاف فقال يقول: قدموا خيراً تجدوه. وصاحت رخمة فقال تقول: سبحان ربي الأعلى ملء سمائه وأرضه.

وصاح قمري فأخبر أنه يقول: سبحان ربي الأعلى. وقال: الحدأ يقول كل شيء هالك إلا الله.

يا غافلين. والنسر يقول: يا ابن آدم عش ما شئت آخرك الموت. والعقاب يقول: في البعد من الناس أنس. والضفدع يقول: سبحان ربي القدوس. وأراد بقوله {من كل شيء} كثرة ما أوتي كما تقول: فلان يقصده كل أحد قوله {وأوتيت من كل شيء} [النمل: 23]. {إن هذا لهو} أنا سيد ولد آدم ولا فخر أي: أقول هذا القول شكراً ولا أقوله فخراً. فإن قلت: كيف قال علمنا وأوتينا وهو من كلام المتكبرين قلت: فيه وجهان أحدهما: أن يريد نفسه وأباه.

والثاني: أن هذه النون يقال لها نون الواحد المطاع - وكان ملطاً مطاعاً - فكلم أهل طاعته على صفته وحاله التي كان عليها وليس التكبر من لوازم ذلك وقد يتعلق بتجمل الملك وتفخمه وإظهار آيينه وسياسته مصالح فيعود تكلف ذلك واجباً. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل نحواً من ذلك إذا وفد عليه وفد أو احتاج أن يرجح في عين عدو. ألا ترى كيف أمر العباس رضي الله عنه بأن يحبس أبا سفيان حتى تمر عليه الكتائب.

{حشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون} روي أن معسكره كان مائة فرسخ في مائة: خمسة وعشرون للجن وخمسة وعشرون للإنس وخمسة وعشرون للطير وخمسة وعشرون للوحش وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلثمائة منكوحة. وسبعمائة سرية وقد نسجت له الجن بساطاً من ذهب وإبرايسم فرسخاً في فرسخ وكان يوضع منبره في وسطه وهو من ذهب فيقعد عليه وحوله ستمائة ألف كرسي

من ذهب وفضة فيقعد الأنبياء على كراسي الذهب والعملاء على كراسي الفضة وحولهم الناس وحول الناس الجن والشياطين وتظله الطير بأجنحتها حتى لا يقع عليه الشمس وترفع ريح الصبا البساط فتسير به مسيرة شهر. ويروي أنه كان يأمر الريح العاصف تحمله ويأمر الرخاء تسيره فأوحى الله إليه وهو يسير بين السماء والأرض: إني قد زدت في ملكك لا يتكلم أحد بشيء إلا ألقته الريح في سمعك فيحكى أنه مر بحراث فقال: لقد أوتى آل داود ملكاً عظيماً فألقته الريح في أذنه فنزل ومشى إلى الحرث وقال: إنما مشيت إليك لئلا تتمنى مالا تقدر عليه ثم قال: لتسبيحه واحدة يقبلها الله خير مما أوتى آل داود {يوزعون} يحبس أولهم على آخرهم أي: توقف سلاف العسكر حتى تلحقهم التوالي فيكونوا مجتمعين لا يتخلف منهم أحد وذلك للكثرة العظيمة.

{تى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون} قيل: هو واد بالشام كثير النمل. فإن قلت: لم عدي {أتوا} أعلى قلت: يتوجه على معنيين أحدهما أن إتيانهم كان من فوق فأتى بحرف الاستعلاء كما قال أبو الطيب: ولشد ما قربت عليك الأنجم لما كان قرباً من فوق والثاني: أن يراد قطع الوادي وبلوغ آخره من قولهم: أتى على الشيء إذا أنفذه وبلغ آخره كأنهم أرادوا أن ينزلوا عند

منقطع الوادي لأنهم ما دامت الريح تحملهم في الهواء لا يخاف حطيمهم. وقرئ نملة يا أيها النمل بضم الميم وبضم النون والميم وكان الأصل: النمل بوزن الرجل والنمل الذي عليه الاستعمال: تخفيف عنه كقولهم: السبع في السبع. قيل: كانت تمشي وهي عرجاء تتكاوس فنادت {يا أيها النمل}: الآية فسمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال. قيل: كان اسمها طاخية. وعن قتادة أنه دخل الكوفة فالتف عليه الناس فقال: سلوا عما شئتم وكان أبو حنيفة رحمه الله حاضراً - فقال أبو حنيفة: كانت أنثى فقيل له: من أين عرفت قال: من كتاب الله وهو قوله {قالت نملة} ولو كانت ذكراً والأنثى فيميز بينهما بعلامة نحو قولهم: حمامة ذكر وحمامة أنثى وهو وهي. وقرئ: مسكنكم ولا يحطمنكم.

بتخفيف النون وقرئ: لا يحكمنكم بفتح الحاء وكسرها. وأصله: يحاكمنكم. ولما جعلها قائلة والنمل مقولاً لهم كما يكون في أولي العقل: أجرى خطابهم مجرى خطابهم. فإن قلت: لا

يحكمنكم ما هو قلت: يحتمل أن يكون جواباً للأمر وأن يكون نهياً بدلاً من الأمر والذي جوز أن يكون بدلاً منه: أنه في معنى: لا تكونوا حيث أنتم فيحكمكم على طريقة: لا أرينكهنا أراد لا يحطمنكم جنود سليمان فجاء لما هو أبلغ ونحوه: عجبت من نفسي ومن إشفاقها.

{تبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعن أن أشكر نعمتك التي أنعمت على وعلى ولدي ومعنى: {فتبسم ضاحكاً} تبسم شارعاً في الضحك وآخذاً فيه ويعني أنه قد تجاوز حد التبسم إلى الضحك وكذلك ضحك الأنبياء عليهم الصلاة السلام. وأما ما روي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه. فالغرض المبالغة في وصف ما وجد منه من الضحك النبوي وإلا فبدو النواجذ على الحقيقة إنما يكون عند الاستغراب وقرأ ابن السميع: ضحكاً فإن قلت: ما أضحكه من قولها قلت: شيئان إعجابه بما دل من قولهما على ظهور رحمته ورحمة جنوده وشفقتهم وعلى شهرة حاله وحالهم في باب التقوى وذلك قولها {وهم لا يشعرون} تعني أنهم لو شعروا لم يفعلوا. وسروره بما آتاه الله مما لم يؤت أحداً: من إدراكه بسمعه ما همس به بعض الحكل الذي هو مثل في الصغر والقلة ومن إحاطته بمعناه ولذلك اشتمل دعاؤه على استيزاع الله شكر ما أنعم به عليه من ذلك وعلى استيفاقه لزيادة العمل الصالح والتقوى. وحقيقة {أوزعني} اجعلني أزع شكر نعمتك عندي وأكفه وأرتبطه لا ينفلت عني حتى أنفك شاكراً لك. وإنما أدرج ذكر والديه لأن النعمة على الولد نعمة على الوالدين خصوصاً النعمة الراجعة إلى الدين فإنه إذا كان تقياً نفعهما بدعائه وشفاعته وبدعاء المؤمنين لهما كلما دعوا له وقالوا: رضي الله عنك وعن والديك. وروي أن يذعرن حتى دخلن مساكنهن ثم دعا بالدعوة. ومعنى {وأدخلني برحمتك في عبادي الصالحين} واجعلني من أهل {وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين لأعذبنه عذاباً شديداً أو لا أذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين} {أم} هي المنقطعة: نظر إلى مكان الهدهد فلم يبصره فقال {مالي لا أرى} على معنى أنه لا يراه وهو حاضر لساتر ستره او غير ذلك ثم لاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وأخذ يقول: أهو غائب كأنه يسأل عن صحة ما لاح له. ونحوه قولهم: إنها لإبل أم شاء وذكر من قصة الهدهد أن سليمان حين تم له بناء بيت المقدس تجهز للحج بحشرة فوافى الحرم وأقام به ما

شاء وكان يقرب كل يوم طول مقامه بخمسة آلاف ناقة وخمسة لاف بقرة وعشرين ألف شاة ثم عزم على السير إلى اليمن فخرج من مكة صباحاً يؤم سهيلاً فوافى صنعاء وقت الزوال وذلك مسيرة شهر فرأى أرضاً حسناء أعجبته خضرتها فنزل لتغدى ويصلي فلم يجدوا الماء وكان الهدهد قناقنه وكان يرى الماء من تحت الأرض كما يرى الماء فتفقده لذلك وحين نزل سليمان حلق الهدهد فرأى هدهداً واقعاً فانحط إليه فوصف له ملك

سليمان وما سخر له من كب شيء وذكر له صاحبه ملك بلقيس وأن تحت يدها اثني عشر ألف قائد تحت كل قائد كل قائد مائة ألف وذهب معه لينظر فإذا موضع الهدهد خال فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله عنه فلم يجد عنده علمه ثم قال لسيد الطير وهو العقاب: علي به فارتفعت فنظرت فإذا هو مقبل فقصدته. فناشدها الله وقال: بحق الذي قواك وأقدرك علي إلا رحمتني فتركته وقالت: ثكلتك أمك إن نبي الله قد حلف ليعذبنك قال: وما استثنى قالت: بلى قال: أوليأتيني بعذر مبين فلما قرب من سليمان أرخى ذنبه وجناحيه يجرها على الأرض تواضعاً له فلما دنا منه أخذ برأسه فمده إليه فقال: يا نبي الله اذكر وقوفك بين يدي الله فارتعد سليمان وعفا عنه ثم سأله. تعذيبه: أن يؤدب بما يحتمله حاله ليعتبر به أبناء جنسه وقيل: كان عذاب سليمان للطير أن ينتف ريشه ويشمسه. وقيل: أن يطلي بالقطران ويشمس. وقيل أن يلقى للنمل تأكله.

وقيل: إيداعه القفص. وقيل: التفريق بينه وبين إلفه. وقيل: لألزمنه صحبة الأضداد. وعن بعضهم: أضيق السجون معاشرة الأضداد. وقيل: لألزمنه خدمة أقرانه. فإن قلت: أين حل له تعذيب الهدهد قلت: يجوز أن يبيح له الله ذلك. لما رأى فيه من المصلحة والمنفعة كما أباح ذبح البهائم والطيور للأكل وغيره من المنافع وإذا سخر له الطير ولم يتم ما سخر به من أجله إلا بالتأديب والسياسة: جاز أن يباح به ما يستصلح به. وقرئ: ليأتينني وليأتينن والسلطان: الحجة والعذر. فإن قلت: قد حلف على أحد ثلاثة أشياء: فحلفه على فعليه لا مقام فيه ولكن كيف صح حلفه على فعل الهدهد ومن أين درى أنه يأتي بسلطان حتى يقول والله ليأتيني بسلطان قلت: لما نظم الثلاثة بأو في الحكم الذي هو الحلف: آل كلامه إلى قولك: ليكونن أحد الأمور يعني: إن كان الإتيان بلا سلطان لم يكن تعذيب ولا ذبح وإن لم يكن كان أحدهما وليس في هذا ادعاء دراية على أنه يجوز أن يتعقب حلفه بالفعلين وحي من الله بأنه سيأتيه بسلطان مبين فثلث بقوله {أو ليأتيني بسلطان مبين} عن دراية وفيقان.

{مكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين} {فمكث} قرئ: بفتح الكاف وضمها {غير بعيد} غير زمان بعيد كقولك: عن قريب. ووصف مكثه بقصر المدة للدلالة على إسراعه خوفاً من سليمان وليعلم كيف كان الطير مسخراً له ولبيان ما أعطى من المعجزة الدالة على نبوته وعلى قدرة الله تعالى {أحطت} بإدغام الطاء في التاء بإطباق وبغير إطباق: ألهم الله الهدهد فكافح سليمان بعذا الكلام على ما أوتى من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمة والإحاطة بالمعلومات الكثيرة ابتلاء له من علمه وتنبيهاً على أن في أدنى خلقه وأضعفه من أحاط علماً بما لم يحط به لتتحاقر إليه نفسه ويتصاغر إليه علمه ويكون لطفاً به في ترك الإعجاب الذي هو فتنة العلماء وأعظم بها فتنة وافحاطة بالشيء علماً: أن يعلم من جميع جهاته لا يخفى منه معلوم. قالوا: وفيه دليل على يطلان قول الرافضة إن الإمام لا يخفى عليه شيء ولا يكون في زمانه أحد أعلم منه سبأ. قرئ بالصرف ومنعه. وقد روي بسكون الباء. وعن ابن كثير في رواية سبا بالألف كقولهم: ذهبوا أيدي سبا. وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان فمن جعله اسماً للقبيلة لم يصرف ومن جعله اسماً للحي أو الأب الأكبر صرف. قال:

من سبا الحاضرين مأرب إذ **يبنون من دون سسيله العرما

وقال:

الواردون وتيم في ذرى سبا** قد هض أعناقهم جلد الجواميس

ثم سميت مدينة مأرب بسبأ وبينهما وبين صنعاء مسيرة ثلاث كما سميت معافر بمعافر بن أد. ويحتمل أن يراد المدينة والقوم. بنبأ يقين والنبأ: الخبر الذي به شأن. وقوله {من سبأ بنبأ} من جنس الكلام الذي سماه المحدثون البديع وهو من محاسن الكلام الذي

يتعلق باللفظ بشرط أن يجئ مطبوعاً. أو يصنعه علام بجوهر الكلام بحفظ معه صحة المعنى وسداده ولقد جاء ههنا زائداً على الصحة فحسن وبدع لفظاً ومعنى. ألا ترى أنه لو وضع مكان بنبأ بخبر لكان المعنى صحيحاً وهو كما جاء أصح في النبإ من الزيادة التي يطابقها وصف الحال.

{إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم} المرأة بلقيس بنت شراحيل وكان أبوها أرض اليمن كلها وقد ولده أرب وعن ملكاً لوم يكن له ولد غيرها فغلبت على الملك وكانت هي وقومها مجوساً يعبدون الشمس. والضمير في {تملكهم} راجع إلى سبأ فإن ريد به القوم فالأمر ظاهر وإن أريدت المدينة فمعناه تملك أهلها.

وقيل في وصف عرشها: كان ثمانين ذراعاً في ثمانين وسمكه ثمانين. وقيل ثلاثين مكان ثمانين وكان من ذهب وفضة مكللاً بأنواع الجواهر وكانت قوائمه من ياقوت أحمر وأخضر ودر وزمرد وعليه سبعة أبيان على كل بيت باب مغلق. فإن قلت: فكيف استعظم عرشها مع ما كان يرى من ملك سليمان قلت: يجوز أن يستصغر حالها إلى حال سليمان فاستعظم لها ذلك العرش. ويجوز أن لا يكون لسليمان مثله وإن عظمت مملكته في كل شيء كما يكون لبعض أمراء الأطراف شيء لا يكون مثله للملك الذي يملك عليهم أمرهم ويستخدمهم. ومن نوكي القصاص من يقف على قوله {ولها عرش} ثم يبتدئ {عظيم وجدتها} يريد: أمر عظيم أن وجدتها وقومها يسجدون للشمس فر من استعظام الهدهد عرشها فوقع في عظيمة وهي مسخ كتاب الله. فإن قلت: فكيف قال {وأوتيت من كل شيء} مع قول سليمان {وأوتينا من كل شيء} [النمل: 16] كأنه سوي بينهما قلت: بينهما فرق بين لأن سليمان عليه السلام عطف قوله على ما هو معجزة من الله وهو تعليم منطق الطير فرجع أولا إلى ما أوتى من النبوة والحكمة وأسباب الدين ثم إلى لملك وأسباب الدنيا وعطفه الهدهد على الملك فلم يرد إلا ما أوتيت من أسباب الدنيا اللائقة بحالها فبين الكلامين بون بعيد. فإن قلت: كيف خفي على سليمان مكانها وكانت المسافة بين محطة وبين بلدها قريبة وهي مسيرة ثلاث بين صنعاء ومأرب قلت: لعل الله عز وجل أخفى عنه ذلك لمصلحة رآها كما أخفى مكان يوسف على يعقوب.

{وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم} فإن قلت: من أين للهدهد التهدي إلى معرفة الله إلى معرفة الله ووجوب السجود له وإنكار سجودهم للشمس إضافته إلى الشيطان وتزيينه قلت: لا يبعد أن يلهمه الله ذلك كما ألهمه وغيره من الطيور وسائر الحيوان المعارف اللطيفة التي لا يكاد العقلاء الرجاج العقول يهتدون لها ومن أراد استقراء ذلك فعليه بكتاب الحيوان خصوصاً في زمن نبي سخرت به الطيور وعلم منطقها وجعل ذلك معجزة له. من قرأ بالتشديد أراد: فصدهم عن السبيل لئلا يسجدوا فحذف الجار مع أن. ويجوز أن تكون لا مزيدة ويكون المعنى: فهم لا يهتدون إلى أن يسجدوا. ومن قرأ بالتخفيف فهو ألا يسجدوا. ألا للتنبيه ويا حرف النداء ومناداه محذوف كما حذفه من قال: وفي حرف عبد الله وهي قراءة الأعمش: هلا وهلا: بقلب الهمزتين هاء. وعن عبد الله: علا تسجدون بمعنى ألا تسجدون على الخطاب. وفي قراءة أبي: ألا تسجدون لله الذي يخرج الخبء من السماء والأرض ويعلم سركم وما تعلنون وسمي المخبوء بالمصدر: وهو النبات والمطر وغيرهما مما خبأه عز وعلا من غيوبه. وقرئ: الخب على تخفيف الهمزة بالحذف. والخبا على تخفيفها بالقلب وهي قراءة ابن مسعود ومالك بن د ينار. ووجهها: أن تخرج على لغة من يقول في الوقف: هذا الخبو رأيت الخبا ومررت بالخبي ثم أجرى الوصل مجرى الوقف لا على لغة من يقول: الكمأة والحمأة لأنها ضعيفة مسترذلة. وقرئ: يخفون يعلنون بالياء والتاء. وقيل: من أحطت إلى العظيم هو كلام الهدهد. وقيل: كلام رب العزة. وفي إخراج الخبء: أمارة على أنه من

كلام الهدهد لهندسته ومعرفته الماء تت الأرض وذلك بإلهام من يخرج الخبء في السموات والأرض جلت قدرته ولطف علمه ولا يكاد تخفى على ذي الفراسة النظار بنور الله مخائل كل مختص بصناعة أو فن من العلم في روائه ومنطقه التلاوة واجبه في القراءتين جميعاً أم في إحداهما قلت هي واجبة فيهما جميعاً لأن مواضع السجدة إما أمر بها أو مدح لمن أتى بها أو ذم لمن تركها وإحدى القراءتين أمر بالسجود وأخرى ذم للتارك. وقد اتفق أبو حنيفة والشافعي رحمهما الله على أن سجدات القرآن أربع عشرة وإنما ختلفا في سجدة ص: فهي عند أبي حنيفة سجدة تلاوة. وعند الشافعي: سجدة شكر. وفي سجدتي سورة الحج وما ذكره الزجاج من وجوب السجدة مع التخفيف دون التشديد فغير مرجوع غليه. فإن قلت: هل يفرق الواقف بين القراءتين قلت: نعم إذا خفف وقف على {فهم لا يهتدون} ثم ابتداء {ألا يسجدوا} وغن شاء وقف على ألا ثم ابتدأ {يسجدوا} وإذا شدد لم يقف إلا على {العرش العظيم} قلت: كيف سوى الهدهد بين عرش بلقيس وعرش الله في الوصف بالعظيم قلت: بين الوصفين بون عظيم لأن وصف عرشها بالعظم: تعظيم له بالإضافة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك. ووصف عرش الله بالعظم: تعظيم له بالنسبة إلى سائر ما خلق من السموات والأرض. وقرئ: العظيم بالرفع.

{قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين اذهب بكتابي هذه فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون} {سننظر} من النظر الذي هو التأمل والتصفح. وأراد: أصدقت أم كذبت إلا أن {كنت من الكاذبين} أبلغ لأنه إذا كان معروفاً بالإنخراط في سلك الكاذبين كان كاذباً لا محالة وإذا كان كاذباً اتهم بالكذب فيما أخبر به فلم يوثق به} تول عنهم} تنح عنهم إلى نكان قريب تتوارى فيه ليكون ما يقولونه بمسمع منك. و{يرجعون} من قوله تعالى {يرجع بعضهم إلى بعض القول} [سبأ: 31] يقال: دخل عليها من كوة فألقى الكتاب إليها وتوارى في الكوة. فإن قلت: لم قال: فألقه عليهم على لفظ الجمع قلت: لأنه قال: وجدتها وقومها يسجدون للشمس فقال: فألقه إلى الذين هذا ديهم اهتماماً منه بأمر الدين واشتغالاً به عن غيره. وبني الخطاب في الكتاب على لفظ الجمع لذلك.

{قالت يا أيها الملؤا إني ألقي إلي كتاب كريم إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين} {كريم} حسن مضمونة وما فيه أو وصفته بالكرم لأنه من عند ملك كريم أو مختوم. قال صلى الله عليه وسلم: كرم الكتاب ختمه.

وكان صلى الله عليه وسلم يكتب إلى العجم فقيل له: إنهم لا يقبللون إلا كتاباً عليه خاتم فاصطنع خاتماً. عن ابن المقفع: من كتب إلى أخيه كتاباً ولم يختمه فقد استخف به.
وقيل: مصدر بسم الله الرحمن الرحيم إنه من سليمان وغنه بسم الله الرحمن الرحيم: هو استئناف وتبيين لما ألقى إليها كأنها لما قالت: إني ألقى إلي كتاب كريم قيل لها: ممن هو وما هو فقالت: إنه من سليمان وإنه: كيت وكيت. وقرأ عبد الله: وإنه من سليمان وإنه عطفاً على: إني. وقرئ: أنه من سليمان وأنه بالفتح على أنه بدل من كتاب كانه قيل: ألقى إلي أنه من سليمان. ويجوز أن تريد: لأنه من سليمان ولأنه كأنها عللت كرمه بكونه من سليمان وتصديره باسم الله. وقرأ أبي: أن من سليمان وأن بسم الله على أن المفسرة. وأن في {ألا تعلوا} مفسرة أيضاً. لا تعلوا: لا تتكبروا كما يفعل الملوك. وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما بالغين معجمة من الغلو: وهو مجاوزة الحد. يروى أن نسخة الكتاب من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكه سبأ: السلام على من اتبع الهدى أما بعد: فلا تعلوا علي وائتوني مسلمين وكانت كتب الأنبياء عليهم السلام جملاً لا يطليون ولا يكثرون وطبع الكتاب بالمسك وختمه بخاتمه فوجدها الهدهد راقدة في قصرها بمأرب وكانت إذا رقدت غلقت الأبواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها فدخل من كوة وطرح الكتاب على نحرها وفي مستلقية. وقيل: نرها فانتبهت فوعة.

وقيل: أتاها والقادة والجنود حوالهيا فرفرف ساعة والناس ينظرون حتى رفعت رأسها فألقى الكتاب في حجرها وكانت قارئة كاتبة عربية من نسل تبع بن شراحبيل الحميري فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت وقالت لقومها ما قالت {مسلمين} منقادين أو مؤمنين.

{قالت يا ايها الملؤا أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون} الفتوى: الجواب في الحادثة اشتقت على طريق الاستعارة من الفتى في السن. والمراد بالفتوى هنها: افشارة عليها بما عندهم فيما حدث لها من الرأي والتدبير وقصدت بالانقطاع إليهم والرجوع إلى استشارتهم واستطلاع آرائهم: استعطافهم وتطييب نفوسهم ليمالئوها ويقوموا معها {قاطعة أمراً} فاصلة. وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: قاضية أي لا أبت أمراً إلا بمحضركم. وقيل: كان أهل مشورتها ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً: كالواحد على عشرة آلاف.

{قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين} أرادوا بالقوة: قوة الأجساد وقوة الآلات والعدد. وبالبأس: النجدة والبلاء في الحرب {والأمر إليك} أي هو موكول إليك ونحن مطيعون لك فمرينا بأمرك نطهط ولا نخالفك كأنهم أشاروا عليها بالقتال. أو أرادوا: نحن من أبناء الحرب لا من أبناء الرأي والمشورة وأنت ذات الرأي والتدبير فانظري ماذا ترين: نتبع رأيك.

{قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون} لما أحست منهم الميل إلى المحاربة رأت من الرأي الميل إلى الصلح والابتداء بما هو أحسن وتبت الجواب فزيفت أولا ما ذكروه وأرتهم الخطأ فيه ب {إن الملوك إذا دخلوا قرية} عنوة وقهراً {أفسدوها} أي خربوها - من ثمة قالوا للفساد: الخربة - وأدلوا أعزتها وأهانوا أشرافها وقتلوا واسروا فذكرت لهم عاقبة الحرب وسوء مغبتها ثم قالت {وكذلك يفعلون}: أرادت: وهذه

عادتهم المستمرة الثابتة التي لا تتغير لأنها كانت في بيت الملك القديم فسمعت نحو ذلك ورأت ثم ذكرت بعد ذلك حديث الهدية وما رأى من الرأي السديد. وقيل: هو تصديق من الله لقولها وقد يتعلق الساعون في الأرض بالفساد بهذه الآية ويجعلونها حجة لأنفسهم. ومن استباح حراماً فقد كفر فإذا احتج له بالقرآن على وجه التحريف فقد جمع بين كفرين {مرسلة إليهم بهدية} أي مرسلة رسلاً بهدية أصانعه بها عن ملكي {فناظرة} ما يكون منه حتى أعمل على حسب ذلكن فروي: أنها بعثت خمسمائة غلام عليهم ثبات الجواري وحليهن الأساور والأطواق والقرطة راكبي خيل مغشاة بالديباج محلاة اللجم والسروج بالذهب المرصع بالجواهر وخمسمائة جارية على رماك في زي الغلمان وألف لبنة من ذهب وفضة وتاجاً مكللاً بالدر والياقوت المرتفع المسك والعنبر حقاً فيه درة عذراء وجزعه وجزعة معوجة الثقب وبعثت رجلين من أشراف قومها: المنذر بهن عمرو وآخر ذا رأي وعقل وقالت: إن كان نبياً ميز بين الغلمان والجواري وثقب الدرة ثقباً مستوياً وسلك في الخرزة خيطاً ثم قالت للمنذر: إن نظر إليك نظر غضبان فهو ملك فلا يهولنك وإن رأيته بشاً لطيفاً فهو نبي فأقبل الهدهد فأخبر سليمان فأمر الجن فضربوا لبن الذهب والفضة وفرشوه في ميدان بين يديه طوله سبعة فراسخ وجعلوا حول الميدان حائطاً شرفه من الذهب والفضة وأمر بأحسن الدواب في البر والبحر فربطوهما عن يمين الميدان ويساره على اللبن وأمر بأحسن الدواب في البر والبحر فربطوها عن يمين الميدان ويساره على اللبن وأمر بأولاد الجن وهم خلق كثير فأقيموا عن اليمن واليسار ثم قعد على سريره والكراسي من جانبيه واصطفت الشياطين صفوفاً فراسخ والإنس صفوفاً فراسخ والوحش والسباع والهوام والطير كذلك فلما دنا القوم نظروا: بهتوا وراوا

الدواب تروث على اللبن فتقاصرت إليهم نفوسهم ورموا بما معهم ولما وقفوا بين يديه نظر إليهم بوجه طلق وقال: ما وراءكم وقال: أين الحق وأخبره جبريل عليه السلام بما فيه فقال لهم: إن فيه كذا وكذا ثم أمر الأرضة فأخذت شعرة ونفذت فيها فجعل رزقها في الشجرة. وأخذت دودة بيضاء الخيط بفيها ونفذت فيها فجعل رزقها في الفواكه. ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله فيالأخرى ثم تضرب به وجهها والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه ثم رد الهدية وقال للمنذر: ارجع إليهم فقالت: هو نبي وما لنا به طاقة فشخصت إليه في اثني عشر ألف قيل تحت كل قيل ألوف. وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: فلما جاءوا {أتمدونن} وقرئ: بحذف الياء والاكتفاء بالكسرة بالإدغام كقوله {أتحاجوني} وبنون واحدة: أتمدوني. الهدية: اسم المهدي كما أن العطية اسم المعطي فتضاف إلى المهدي والمهدي إليه تقول إليه. والمعنى: أن ما عندي خير مما عندكم وذلك أن الله آتاني الدين الذي هيه الحظ الأوفر والغنى الأوسع وآتاني من الدنيا ما لا يستزاد عليه فكيف يرضى مثلي بأن يمد بمال ويصانع به {بل أنتم} قوم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا فلذلك {تفرحون} بما تزدادون ويهدي إليكم لأن ذلك مبلغ همتكم وحالي خلاف حالكم وما أرضى منكن بشيء ولا أفرح به إلا بالإيمان وترك المجوسية. فإن قلت: ما الفرق بين قولك: أتمدني بمال وأنا أغنى منك وبين أن تقوله بالفاء قلت: إذا قلته بالواو فقد جعلت مخاطبتي عالماً بزيادتي عليه في الغنى واليسار وهو مع ذلك يمدني بالمال. وإذا قلته بالفاء فقد جعلته ممن خفيت عليه حالي فأنا أخبره الساعة بما لا أحتاج معه إلى إمداده كأنه أقول له: أنكر عليك ما فعلت فإني غني عنه. وعليه ورد قوله:: {فما آتاني الله}. فإن قلت: فما وجه افضراب قلت: لما أنكر عليهم الإمداد وعلل إنكاره أضرب عن ذلك إلى بيان السبب الذي حملهم عليه: وهو أنهم لا يعرفون سبب رضا ولا فرح إلا أن يهدي إليهم حظ من الدنيا التي لا يعلمون غيرها. ويجوز أن تجعل الهدية مضافة إلى المهدي ويكون المعنى: بل أنتم بهديتكم هذه التي أهديتموها تفرحون فرح افتخار على الملوك بأنكم قدرتم على إهداء مثلها. ويحتمل أن يكون عبارة عن الرد كأنه قال: بل أنتم من {ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون} {ارجع} خطاب للرسول. وقيل: للهدهد محملاً كتاباً آخر{لا قبل} لا طاقة. وحقيقة القبل: المقاومة والمقابلة أي: لا يقدرون أن يقابلوهم. وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: لا قبل لهم بهم. الضمير في منهالسبأ. والذل: أن يذهب عنهم ما كانوا فيه من العز والملك. والصغار: أن يقعوا في أسر واستعباد ولا يقتصر بهم على أن يرجعوا سوقه بعد أن كانوا ملوكاً.

{قال يا أيها الملؤا أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين} يروي: أنها أمرت عند خروجها إلى سليمان عليه السلام فجعل عرشها في آخر سبعة أبيات بعضها في بعض في آخر قصر من قصور سبعة لها. وغلقت الأبواب ووكلت به حرساً يحفظونه ولعله أوحى إلى سليمان عليه السلام باستيثاقها من عرشها فأرادا أن يغرب عليها ويريها بذلك بعض ما خصه الله به من إجراء العجائب على يده مع إطلاعها على عظيم قدرة الله وعلى ما يشهد لنبوة سلمان عليه السلام ويصدقها. وعن قتادة: أراد أن يأخذه قبل أن تسلم لعلمه أنها إذا أسلمت لم يحل له أخذ مالها. وقيل: أراد أن يؤتى به فينكر ويغير ثم ينظر أتثبته أم تنكره اختباراً لعقلها.

{قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين} وقرئ: عفرية والعفر والعفريت والعفرية والعفراء والعفراة والعفارية من الرجال: الخبيث المنكر الذي يعفر أقرانه. ومن الشياطين: الخبيث المارد. وقالوا: كان اسمه ذكوان {لقوى} على حمله {أمين} آتى به كما هو لا اختزل منه شيئاً ولا أبدله.

{قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني

{كريم} {الذي عنده علم من الكتاب} هو رجل كان عنده اسم الله الأعظم وهو: يا حي يا قيوم وقيل: يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت. وقيل: يا ذا الجلال والإكرام وعن الحسن رضي الله عنه: الله. والرحمن وقيل: هو آصف بن برخيا كاتب سليمان عليه السلام وكان صديقاً عالماً. وقيل: اسمه أسطوم. وقيل: هو جبريل. وقيل: ملك أيد الله به سليمان.

وقيل: هو سليمان نفسه كأنه استبطأ العفريت فقال له: من الكتاب: من الكتاب المنزل وهو علم الوحي والشرائع. وقيل: هو الوح. والذي عنده علم منه: جبريل عليه السلام. وآتيك - في الموضعين - يجوز أن يكون فعلاً واسم فاعل. الطرف: تحريكك أجفانك إذا نظرت فوضع موضع النظر. ولما كان الناظر موصوفاً بإرسال الطرف في نحو قوله: وصف برد الطرف ووصف الطرف بالارتداد. ومعنى قوله {قبل أن يرتد إليك طرفك} أي أنك ترسل طرفك إلى شيء فقبل أن ترده أبصرت العرش بين يديك: ويروى: أن آصف قال لسليمان عليه السلام: مد عينك حتى ينتهي طرفك فمد عينيه فنظر نحو اليمين. ودعا آصف فغار العرش في مكانه بمأرب ثم نبغ عند مجلس سليمان عليه السلام بالشام بقدرة الله قبل أن يرد طرفه. ويجوز أن يكون هذا مثلاً لاستقصار مدة المجئ به كما تقول لصاحبك: افعل كذا في لحظة وفي ردة طرف والتفت ترني وما أشبه ذلك: تريد السرعة.{يشكر لنفسه} لأنه يحط به عنها عبء الواجب ويصونها عن سمة الكفران وترتبط به النعمة ويستمد المزيد.

وقيل: الشكر قيد للنعمة الموجودة وصيد للنعمة المفقودة. وفي كلام بعض المتقدمين: إن كفران النعمة بوار وقما أقشعت ناقرة فرجعت في نصابها فاستدع شاردها بالشكر واستدم راهنها بكرم الجوار. واعلم أن سبوغ ستر الله متقلص عما قريب إذا أنت لم ترج لله وقارا {غنى} عن الشكر {كريم} بالإنعام على من يكفر نعمته والذي قاله سليمان عليه السلام عند رؤية العرش شاكراً لربه جرى على شاكلة أبناء جنسه من أنبياء الله والمخلصين من عباده يتلقون النعمة القادمة بحسن الشكر كما يشيعون النعمة المودعة بجميل الصبر.

{قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين} {نكروا} اجعلوه متنكراً متغيراً عن هيئة وشكله كما يتنكر الرجل للناس لئلا يعرفوه قالوا: وسعوه وجعلوا مقدمه مؤخره وأعلاه أسفله. وقرئ: ننظر بالجزم على الجواب وبالرفع على الاستئناف {أتهتدي} لمعرفته أو للجواب الصواب إذا سئلت عنه أو للدين والإيمان بنبوة سليمان عليه السلام إذا رأت تلك المعجزة البينة من تقدم عرشها وقد خلفته وأغلقت عليه الأبواب ونصبت عيه الحراي. هكذا ثلاث كلمات: حرف التنبيه وكاف التشبيه واسم الإشارة. لم يقل: أهذا عرشك ولكن: أمثل هذا عرشك لئلا يكون تلقيناً قالت: انه هو ولم تقل: هو هو ولا ليس به وذلك من رجاجة عقلها حيث لم تقطع في المحتمل {وأوتينا العلم} من الكلام سليمان وملئه: فإن قلت: علام عطف هذا الكلام وبم اتص قلت: لما كان المقام - الذي سئلت فيه عن عرشها وأجابت بما أجابت بما أجابت به - مقاماً أجرى فيه سليمان وملؤه ما يناسب قولهم {وأوتينا العلم} نحو أن يقولوا عند قولها كأنه هو: قد أصابت في جوابها وطبقت المفصل وهي عاقلة لبيبة وقد رزقت افسلام وعلمت قدرة الله وصحة النبوة بالآيات التي تقدمت عند وقفدة المنذر وبهذه الآية العجيبة من أمر عرشها - عطفوا على ذلك قولهم: وأوتينا نحن العلم بالله وبقدرته ةبصحة ما جاء من عنده قبل علمها ولم نزل على دين الإسلام عبادة الشمس ونشؤها بين ظهراني الكفرة ويجوز أن يكون من كلام بلقيس موصولاً بقولها: {انه هو}

والمعنى: وأوتينا العلم بالله وبقدرته وبصحة نبوة سليمان عليه السلام قبل هذه المعجزة أو قبل هذه الجالة تعني: ما تبينت من الآيات عند وفدة المنذر ودخلنا في الإسلام ثم قال الله

تعالى: وصدها قبل ذلك عما دخلت فيه ضلالها عن سواء السبيل. وقيل: وصدها الله - أو سليمان - عما كانت تعبد بتقدير حذف الجار وإيصال الفعل إنها وقرئ: أنها بالفتح على أنه بدل من فاعل صد. أو بمعنى لأنها.

{قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين} الصرح: القصر. وقيل: صحن الدار. وقرأ ابن كثير سأقيها بالهمزة. ووجهه أنه سمع سؤقاً فأجرى عليه الواحد. والممرد: المملس وروي أن سليمان عليه السلام أمر قبل قدومها فبنى له على كريقها قصر من زجاج أبيض وأجرى من تحته الماء وألقى الطير والجن والإنس وإنما فعل ذلك ليزيدها استعظاماً لأمره وتحققاً لنبوته وثباتاً على الدين. وزعموا أن الجن كرهوا أن يتزوجها فتفضي إليه بأسراهم لأنها كانت بنت جنيه. وقيل: خافوا أن يولد تجتمع له فطنة الجن والإنس فيخرجون من ملك سليمان إلى ملك هو أشد وأفظع فقالوا له: إن في عقلها شيئات وهي شعراء الساقين ورجلها كحافر الحمار فاختبر عقلها بتنكير العرش واتخذ الصرح ليتعرف ساقها ورجلها فكشف عنهما فإذا هي أحسن الناس ساقاً وقدماً لا أنها شعراء ثم صرف بصره وناداها {إنه صرح ممرد من قوارير} وقيل: هي السبب في اتخاذ النورة: أمر بها الشياطين فاتخذوها واستنكحها سليمان عليه السلام وأحبها وأقرها على ملكها وأمر الجن فبنوا لها سيلحين وغمدان وكان يزورها في الشهر مرة فيقيم عندها عندها ثلاثة أيام وولدت به. وقيل: بل زوجها ذا تبع ملك همدان وسلطة على اليمن وأمر زوبعة أمير جن اليمن أن يطيعه فبنى له المصانع ولم يزل أميراً حتى مات سليمان {ظلمت نفسي} تريد بكفرها فيما تقدم تقدم وقيل حسبت أن سليمان عليه السلام يغرقها في اللجة فقالت: ظلمت نفسي بسوء ظني بسليمان عليه السلام.

{ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون قال يا قوم لم تستعجلوا بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون} وقرئ: أن اعبدوا بالضم على إتباع النون الباء فريقان فريق مؤمن وفريق كافر. وقيل أريد بالفريقين صالح عليه السلام وقومه قبل أن يؤمن منهم أحد {يختصمون} يقول كل فريق: الحجق معي. السيئة العقوبة والحسنة: التوبة فإن قلت: ما معنى استعجالهم بالسيئة قبل الحسنة

وإنما يون ذلك إذا كانتا متوقعتين إحداهما قبل الأخرى قلت: كانوا يقلون لجهلهم: إن العقوبة التي بعدها صالح عليه السلام إن وقعت على زعمه تبنا حينئذ واستغفرنا - مقدرين أن التوبة مقبولة في ذلك الوقت. وإن لم تقع فنحن على ما نحن عليه فخاطبهم صالح عليه السلام على حسب قولهم واعتقادهم ثم قال لهم: هلا تستغفرون الله قبل نزول العذاب {لعلكم ترحمون} تنبيهاً لهم على الخطأ فيما قالوه وتجهيلاً فيما اعتقدوه.

{قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون} وكان الرجل يخرج مسافراً فيمر بطائر فيزجره فإن مر سانحاً تيمن وإن مر بارحاً تشاءم فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر استعير لما كان سببهما من قدر الله وقسمته: أو من عمل العبد الذي هو السبب عي الرحمة والنقمة. ومنه قالوا: طائر الله لا طائرك أي: قدر الله الغالب الذي ينسب إليه الخير والشر لا طائرك الذي تتشاءم به وتتمين فلما قالوا: اطيرنا بكم أي: تشاءمنا وكانوا قد قحطوا {قال طائركم عند الله} أي سببكم الذي يجئ منه خيركم وشركم عند الله وهو قدره وقسمته إن شاء رزقكم وإن شاء حرمكم. ويجوز أن يريد:

عملكم مكتوب عند الله فمنه نزل بكم ما نزل عقوبة لكم وفتنة. ومنه قوله {طائركم معكم} [يس: 19] {وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه} [الإسراء: 13]. وقرئ: تطيرنا بكم على الأصل.

ومعنى: تطيرنا به تشاءم به. وتطير منه: نفر منه {تفتنون} تختبرون. أو تعذبون أو يفتنكم الشيطان بوسوسته إليكم الطيرة.

{وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون فى الارض ولا يصلحون قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصدقون ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عقبة مكرهم أنا دمرنهم وقومهم أجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لاية لقوم يعلمون وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون} {المدينة} الحجر. وإنما جاز تمييز التسعة بالرهط لأنه في معنى الجماعة فكأنه قيل: تسعة أنفس. والفرق بين الرهط والنفر: أن الرهط من الثلاثة إلى العشرة او من السبعة إلى العشرة.

والنفر من الثلاثة إلى التسعة وأسماؤهم عن وهب: الهذيل بن عبد رب. غنم بن غنم. رباب بن مهرج. مصدع بن مهرج. عمير بن كردبة. عاصم بن مخرمة. سبيط بن صدقة. سمعان بن صيفي. قدار بن سالف: وخم الذين سعوا في عقر الناقة وكانوا عتادة قوم صالح لعيه السلام

وكانوا من أبناء أشرافهم {ولا يصلحون} يعني أن شأنهم الإفساد البحث الذي لا يخلط بشيء من الصلاح كما ترى بعض المفسدين قد يندر منه بعض الصلاح {تقاسموأ} يحتمل أن يكون أمراً وخبراً في محل الحال بإضمار قد أي: قالوا متقاسمين: وقرئ: تقسموا وقرئ: لتبيتنه بالتاء والياء والنون فتقاسموا - مع النون والتاء - يصح فيه الوجهان. ومع الياء لا يصح إلا أن يكون خبراً.

والتقاسم والتسيم: كالتظاهر والتظهر: التحالف. والبيات: مباغتة العد ليلاً. وعن الإسكندر أنه أشير عليه بالبيات فقال: ليس من آبين الملوك استراق الظفر وقرئ: مهلك بفتح الميم واللام وكسرها من هلك. ومهلك بضم الميم من أهلك. ويحتمل المصدر والزمان والمكان فإن قلت: كيف يكونون صادقين وقد جحدوا ما فعلوا فأتوا بالخبر على خلاف المخبر عنه قلت كأنهم اعتقدوا أنهم إذا صالحاً وبيتوا أهله فجمعوا بين البياتين ثم قالوا: ما شهدنا مهلك أهله فذكروا أحدهما: كانوا صادقين لأنهم فعلوا البياتين جميعاً لا أحدهما وفي هذا دليل قاطع على أن الكذب قبيح عند الكفرة الذين لا يعرفون الشرع ونواهيه ولا يخطر ببالهم. ألا ترى أنهم قصدوا قتل نبي الله ولم يرضوا لأنفسهم بأن يكونوا كاذبين حتى سووا للصدق في خبرهم حيلة يتفصون بها عن الكذب. {مكرهم} ما أخفوه من تدبير الفتك بصالح عليه السلام وأهله. ومكر الله: إهلاكهم من حيث لا يشعرون. شبه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة. روي أنه كان لصالح مسجد في الحجر في شعب يصلي فيه فقالوا: زعم صالح عليه السلام أنه يفرغ منا إلى ثلاث فنحن نفرغ منه ومن أهله فقتلناهم فبعث الله صخرة من الهضب حيالهم فبادروا فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب. فلم يدر قومهم أين هم ولم يدروا ما فعل بقومهم وعذب الله كلاً منهم في مكانه ونجى صالحاً ومن معه. وقيل: جاؤوا بالليل شاهري سيوفهم وقد أرسل الله الملائكة ملء دار صالح فدمغوهم بالحجارة: يرون الحجارة ولا يرون رامياً {أنا دمرناهم} استئناف. ومن قرأ بالفتح رفعه بدلاً من العاقبة أو خبر مبتدإ محذوف تقديره: هي تدميرهم. أو نصبه على معنى: لأنا. أو على أنه خبر كان أي: كان عاقبة مكرهم الدمار {خاوية} حال عمل فيها ما دل عليه تلك. وقرأ عيسى بن عمر: (خاوية) بالرفع على خبر المبتدإ المحذوف.

{ولوطاً إذا قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون}

{و} اذكر {لوطاً} أو أرسلنا لوطاً لدلالة (ولقد أرسلنا عليه. و{إذ} بدل على الأول ظرف على الثاني. {وأنتم تبصرون} من بصر القلب أي: تعلمون أنها فاحشة لم تسبقوا إليها وأن الله إنما خلق الأنثى للذكر ولم يخلق الذكر للذكر ولا الأنثى للأنثى فهي مضادة لله في حكمته وحكمه وعلمكم بذلك أعظم لذنوبكم وأدخل في القبح والسماجة. وفيه دليل على أن القبيح من الله أقبح منه من عبادة لأنه أعلم العالمين وأحكم الحاكمين. أو تبصرونها بعضكم من بعض لأنهم كانوا في ناديهم يرتكبونها معالنين بها لا يتستر بعضهم من بعض خلاعة ومجانة وإنهماكاً في المعصية وكأن أبا نواس بني على مذهبهم قوله:

وبح باسم ما تأتى وذرني من الكنى** فلا خير في اللذات من دونها ستر

أو تبصورن آثار العصاة قبلكم وما نزل بهم. فإن قلت: فسرت تبصرون بالعلم وبعده {بل أنتم قوم تجهلون} فكيف يكونون علماء وجهلاء قلت: أراد: تفعلون فعل الجاهلين بأنها فاحشة مع علمكم بذلك. أو تجهلون العاقبة. أو أراد بالجهل. السفاهة والمجانة التي كانوا عليها فإن قلت {تجهلون} صفة لقوم والموصوف لفظه لفظ الغائب فهلا طابقت الصفة الموصوف فقرئ بالياء دون التاء وكذلك بل أنتم قوم تفترون قلت: اجتمعت الغيبة والمخاطبة فغلبت المخاطبة لأنها أقوى وأرسخ أصلاً من الغيبة.

{فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين} وقرأ الأعمش: (جواب قومه) بالرفع. والمشهورة أحسن {يتطهرون} يتنزهون عن القاذورات كلها فينكرون هذا العمل القذر ويغيظنا إنكارهم. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو استهزاء} قدرناها} قدرنا كونها} من الغابرين} كقوله {قدرنا إنها لمن الغابرين} [الحجر: 60] {قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون} أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتلو هذه الآيات الناطقة بالبراهين على وحدانيته وقدرته على كل شيء وحكمته وأن يستفتح بتحميده والسلام على أنبيائه والمصطفين من عباده. وفيه تعليم حسن وتوقيف على أدب جميل وبعث على التيمن بالذكرين والتبرك بهما والاستظهار بمكانهما على قبول ما يلقى إلى السامعين وإصغائهم إليه وإنزاله من قلوبهم المنزلة التي يبغيها المسمع. ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابراً عن كابر هذا الأدب فحمدوا الله عز وجل وصلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام كل علم مفاد وقبل كل عظة وتذكرة وفي مفتتح كل خطبة وتبعهم المترسلون فأجروا عليه أوائل كتبهم في الفتوح والتهاني وغير ذلك من الحوادث التي لها شأن. وقيل: هو متصل بما قبله وأمر بالتحميد على الهالكين من كفار الأمم والصلاة على الأنبياء عليهم السلام وأشياعهم الناجين. وقيل: هو خطاب للوط عليه السلام وأن يحمد الله على هلاك كفار قومه ويسلم على من اصطفاه الله ونجاه من هلكتهم وعصمه من ذنوبهم (آلله خير ما يشركون) معلوم أن لا خير فيما أشركوه أصلاً حتى يوازن بينه وبين من هو خالق كل خير ومالكه وإنما هو إلزام لهم وتبكيت وتهكم بحالهم وذلك أنهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله ولا يؤثر عاقل شيئاً على شيء إلا لداع يدعوه إلى إيثاره من زيادة خير ومنفعة فقيل لهم مع العلم بأنه لا خير فيما آثروه وأنهم لم يؤثروه لزيادة الخير ولكن هوى وعبثاً لينبهوا على الخطأ المفرط والجهل المورط وإضلالهم التمييز ونبذهم المعقول وليعلموا أن الإيثار يجب أن يكون للخير الزائد. ونحوه ما حكاه عن فرعون {أم أنا خير من هذا الذي هو مهين} [الزخرف: 52] مع علمه أنه ليس لموسى مثل أنهاره التي كانت تجري تحته. ثم عدد سبحانه الخيرات والمنافع التي هي آثار رحمته وفضله كما عددها في موضع آخر ثم قال: هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من

شيء. وقرئ: (يشركون) بالياء والتاء. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه كان إذا قرأها يقول: (بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم).

{أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أَإِلَهٌ مع الله بل هم قوم يعدلون} فإن قلت: ما الفرق بين أم وأم في {أم ما تشركون} و {أمن خلق السماوات} قلت: تلك متصلة لأن المعنى: أيهما خير. وهذه منقطعة بمعنى بل والهمزة لما قال تعالى: آلله خير أم الآلهة قال: بل أمن خلق السموات والأرض خير تقريراً لهم بأن من قدر على خلق العالم خير من جماد لا يقدر على شيء. وقرأ الأعمش: أمن بالتخفيف. ووجهه أن يجعل بدلاً من الله كأنه قال: أمن خلق السموات والأرض خير أم ما تشركون فإن قلت: أي نكتة في نقل الإخبار عن الغيبة إلى التكلم عن ذاته في قوله {فأنبتنا} قلت: تأكيد معنى اختصاص الفعل بذاته والأيذان بأن إنبات الحدائق المختلفة الأصناف والألوان والطعوم والروائح والأشكال مع حسنها وبهجتها بماء واحد.

لا يقدر عليه إلا هو وحده. ألا ترى كيف رشح معنى الاختصاص بقوله {ما كان لكم أن تنبتوا شجرها} ومعنى الكينونة: الانبغاء. أراد أن تأتي ذلك محال من غيره وكذلك قوله {بل هم} بعد الخطاب: أبلغ في تخطئة رأيهم. والحديقة: البستان عليه حائط: من الإحداق وهو الإحاطة. وقيل (ذات) لأن المعنى: جماعة حدائق ذات بهجة كما يقال: النساء ذهبت.

والبهجة: الحسن لأن الناظر يبتهج به { أَإِلَهٌ مع الله} أغيره يقرن به ويجعل شريكاً له. وقرئ: (أإلها مع الله) بمعنى: أتدعون أو أتشركون. ولك أن تحقق الهمزتين وتوسط بينهما مدة وتخرج الثانية بين بين {يعدلون} به غيره أو يعدلون عن الحق الذي هو التوحيد.

{أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أَإِلَهٌ مع الله بل أكثرهم لا يعلمون} {أمن جعل} وما بعده بدل من (أمن خلق) فكان حكمهما حكمه {قراراً} دحاها وسواها للاستقرار عليها {حاجزاً} كقوله: برزخاً.

{أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أَإِلَهٌ مع الله قليلاً ما تذكرون} الضرورة: الحالة المحوجة إلى اللجإ. والإضرار: افتعال منها. يقال: اضطره إلى كذا والفاعل والمفعول: مضطر. والمضطر الذي أحوجه مرض أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر إلى اللجإ والتضرع إلى الله. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو المجهود. وعن السدي: الذي لا حول له ولا قوة. وقيل: المذنب إذا استغفر. فإن قلت: قد عم المضطرين بقوله {يجيب المضطر إذا دعاه} وكم من مضطر يدعوه فلا يجاب قلت الإجابة موقوفة على أن يكون المدعو به مصلحة ولهذا لا يحسن دعاء العبد إلا شارطاً فيه المصلحة. وأما المضطر فمتناول للجنس مطلقاً يصلح لكله ولبعضه فلا طريق إلى الجزم على أحدهما إلا بدليل وقد قام الدليل على البعض وهو الذي أجابته مصلحة فبطل التناول على العموم {خلفاء الأرض} خلفاء فيها وذلك توارثهم سكناها والتصرف فيها قرناً بعد قرن. أو أراد بالخلافة الملك والتسلط. وقرئ: (يذكرون) بالياء مع الإدغام. وبالتاء مع الإدغام والحذف. وما مزيدة أي: يذكرون تذاكراً قليلاً. والمعنى: نفي التذكر والقلة تستعمل في معنى النفي.

{أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون}

{يهديكم} بالنجوم في السماء والعلامات في الأرض: إذا جن الليل عليكم مسافرين في البر والبحر.

{أمن يبدؤا الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أَإِلَهٌ مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين} فإن قلت: كيف قيل لهم {أمن يبدؤا الخلق ثم يعيده} وهم منكرون للإعادة قلت: قد أزيحت علتهم بالتمكين من المعرفة والإقرار فلم يبق لهم عذر في الإنكار} من السماء {الماء} و{من} الأرض} النبات {إن كنتم صادقين} أن مع الله إلهاً فأين دليلكم عليه} قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون} فإن قلت: لم رفع اسم الله والله تعالى أن يكون ممن في السموات والأرض قلت: جاء على لغة بني تميم حيث يقولون: ما في الدار أحد إلا حمار يريدون: ما فيها إلا حمار كأن أحداً لم يذكر. ومنه قوله:

عشية ما تغني الرماح مكانها** ولا النبل إلا المشرفي المصمم

وقولهم: ما أتاني زيد إلا عمرو وما أعانه إخوانكم إلا إخوانه. فإن قلت: ما الداعي إلى اختيار المذهب التميمي على الحجازي قلت: دعت إليه نكتة سرية. حيث أخرج المستثنى مخرج قوله: إلا اليعافير بعد قوله: ليس بها أنيس ليؤول المعنى إلى قولك: إن كان الله ممن في السموات والأرض فهم يعلمون الغيب يعني: أن علمهم الغيب في استحالته كاستحالة أن يكون الله منهم كما أن معنى ما في البيت: إن كانت اليعافير أنيساً ففيها أنيس بتاً للقول بخلوها عن الأنيس. فإن قلت: هلا زعمت أن الله ممن في السموات والأرض كما يقول المتكلمون: الله في كل مكان على معنى أن علمه في الأماكن كلها فكأن ذاته فيها حتى لا تحمله على مذهب بني تميم قلت: يأبى ذلك أن كونه في السموات والأرض مجاز وكونهم فيهن حقيقة وإرادة المتكلم بعبارة واحدة حقيقة ومجازاً غير صحيحة على أن قولك: من في السموات والأرض وجمعك بينه وبينهم في إطلاق اسم واحد: فيه إيهام تسوية والإيهامات مزالة عنه وعن صفاته تعالى. ألا ترى كيف قال صلى الله عليه وسلم لمن قال: ومن يعصهما فقد غوى: (بئس خطيب القوم أنت) وعن عائشة رضي الله عنها: من زعم أنه يعلم ما في غد فقد أعظم على الله الفرية والله تعالى يقول {قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله}. وعن بعضهم: أخفى غيبه عن الخلق ولم يطلع عليه أحداً لئلا يأمن أحد من عبيده مكره. وقيل: نزلت في المشركين حين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وقت الساعة {أيان} بمعنى متى ولو سمي به: لكان فعالاً من آن يئين ولا نصرف.

{بل إدارك علمهم في الأخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون} وقرئ: (بل أدرك) (بل ادراك) (بل ادارك) (بل تدارك) (بل أأدرك) بهمزتين (بل آأدرك) بألف بينهما. (بل أدرك) بالتخفيف والنقل (بل ادرك) بفتح اللام وتشديد الدال. وأصله: بل أدرك على الاستفهام (بلى أدرك) (بلى أأدرك) (أم تدارك) (أم أدرك) فهذه ثنتا عشرة قراءة: وأدارك: أصله تدارك فأدغمت التاء في الدال. وادرك: افتعل. ومعنى أدرك علمهم: انتهى وتكامل. وادارك: تتابع واستحكم. وهو على وجهين أحدهما: أن أسباب استحكام العلم وتكامله بأن القيامة كائنة لا ريب فيه قد حصلت لهم ومكنوا من معرفته وهم شاكون جاهلون وهو قوله {بل هم في شك منها بل هم منها عمون}: يريد المشركين ممن في السموات والأرض لأنهم لما كانوا في جملتهم نسب فعلهم إلى الجميع كما يقال: بنو فلان فعلوا كذا وإنما فعله ناس منهم. فإن قلت: إن الآية سيقت لاختصاص الله بعلم الغيب وأن العباد لا علم لهم بشيء منه وأن وقت بعثهم ونشورهم من جملة الغيب وهم لا يشعرون به فكيف لاءم هذا المعنى وصف المشركين بإنكارهم البعث مع استحكام أسباب العلم والتمكن من المعرفة قلت: لما ذكر أن العباد لا يعلمون الغيب ولا يشعرون بالبعث الكائن ووقته الذي يكون فيه وكان هذا بياناً لعجزهم ووصفاً لقصور علمهم: وصل به أن عندهم عجزا أبلغ منه وهو أنهم يقولون للكائن الذي لا بد أن يكون - وهو وقت جزاء أعمالهم - لا يكون مع أن عندهم أسباب معرفة كونه واستحكام العلم به. والوجه الثاني: أن وصفهم باستحكام العلم وتكامله تهكم بهم كما تقول لأجهل الناس: ما أعلمك! على سبيل الهزؤ

وذلك حيث شكوا وعموا عن إثباته الذي الطريق إلى علمه مسلوك فضلاً أن يعرفوا وقت كونه الذي لا طريق إلى معرفته: وفي: أدرك علمهم وادراك علمهم: وجه آخر وهو أن يكون أدرك بمعنى انتهى وفنى من قولك: أدركت الثمرة لأن تلك غايتها التي عندها تعدم: وقد فسره الحسن رضي الله عنه باضمحل علمهم وتدارك من تدارك بنو فلان: إذا تتابعوا في الهلاك فإن قلت فما وجه قراءة من قرأ: بل أأدرك على الاستفهام قلت: هو استفهام على وجه الإنكار لإدراك علمهم وكذلك من قرأ: أم أدرك. وأم تدارك لأنها أم التي بمعنى بل والهمزة. فإن قلت: فمن قرأ: بلى أدرك وبلى أأدرك قلت: لما جاء ببلى بعد قوله {وما يشعرون} كان معناه: بلى يشعرون ثم فسر الشعور بقوله: أدرك علمهم في الآخرة على سبيل التهكم الذي معناه المبالغة في نفي العلم فكأنه قال: شعورهم بوقت الآخرو أنهم لا يعلمون كونها فيرجع إلى نفي الشعور على أبلغ ما يكون.

وأما من قرأ: بلى أأدرك على الاستفهام فمعناه: بلى يشعرون متى يبعثون ثم أنكر علمهم بكونها وإذا أنكر علمهم بكونها لم يتحصل لهم شعور بوقت كونها لأن العلم بوقت الكائن تابع للعلم بكون الكائن {في الأخرة} في شأن الآخرة ومعناه. فإن قلت: هذه الاضرابات الثلاث ما معناه قلت: ما هي إلا تنزيل لأحوالهم: وصفهم أولاً بأنهم لا يشعرون وقت البعث ثم بأنهم لا يعلمون أن القيامة كائنة ثم بأنهم يخبطون في شك ومرية فلا يزيلونه والإزالة مستطاعة. ألا ترى أن من لم يسمع اختلاف المذاهب وتضليل أربابها بعضهم لبعض: كان أمره أهون ممن سمع بها وهو جائم لا يشخص به طلب التمييز بين الحق والباطل ثم بما هو أسوأ حالاً وهو العمى وأن يكون مثل البهيمة قد عكف همه على بطنه وفرجه لا يخطر بباله حقاً ولا باطلاً. ولا يفكر في عاقبة. وقد جعل الآخرة مبدأ عمالهم ومنشأة فلذلك عداه بمن دون عن لأن الكفر بالعاقبة والجزاء هو الذي جعلهم كالبهائم لا يتدبرون ولا يتبصرون.

{وقال الذين كفروا أءذا كنا تراباً وآباؤنا أئنا لمخرجون لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين} العامل في {إذا} ما دل عليه {أئنا لمخرجون} وهو نخرج لأن بين يدي عمل اسم الفاعل فيه عقابا وهي همزة الاستفهام وإن ولام الابتداء وواحدة منها كافية فكيف إذا اجتمعن والمراد: الإخراج من الأرض. أو من حال الفناء إلى الحياة وتكرير حرف الاستفهام بإدخاله على (إذا) و (إن) جميعاً إنكار على إنكار وجحود عقيب جحود ودليل على كفر مؤكد مبالغ فيه.

والضمير في إن لهم ولآبائهم لأن كونهم تراباً قد تناولهم وآبائهم. فإن قلت: قدم في هذه الآية} هذا على {نحن وآباؤنا} وفي آية أخرى قدم {نحن وآباؤنا} على} هذا} قلت: التقديم دليل على أن المقدم هو الغرض المعتمد بالذكر وإن الكلام إنما سيق لأجله ففي إحدى الآيتين دل على أن اتخاذ البعث هو الذي تعمد بالكلام وفي الأخرى على أن اتخاذ المبعوث بذلك الصدد.

{قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون} لم تلحق علامة التأنيث بفعل العاقبة لأن تأنيثها غير حقيقي ولأن المعنى: كيف كان آخر أمرهم وأراد بالمجرمين: الكافرين وإنما عبر عن الكفر بلفظ الإجرام ليكون لطفاً للمسلمين في ترك الجرائم وتخوف عاقبتها ألا ترى إلى قوله {فدمدم عليهم ربهم بذنبهم} [الشمس: 14] وقوله {مما خطيئاتهم أغرقوا} [نوح: 25]. {ولا تحزن عليهم} لأنهم لم يتبعوك ولم يسلموا فيسلموا وهم قومه قريش كقوله تعالى {فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا} [الكهف: 6]. {في ضيق} في حرج صدر من مكرهم وكيدهم لك ولا تبال بذلك فإن الله يعصمك من الناس. يقال: ضاق الشيء ضيقاً وضيقاً بالفتح والكسر. وقد قرئ بهما والضيق أيضاً: تخفيف الضيق. قال الله تعالى {ضيقاً حرجا} [الأنعام: 125] قرئ مخففاً ومثقلاً ويجوز أن {ويقولون متى

هذا الوعد إن كنتم صادقين قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون}
استعجلوا العذاب الموعود فقيل لهم {عسى أن يكون} ردفكم بعضه وهو عذاب يوم بدر فزيدت اللام للتأكيد كالباء في {ولا تلقوا بأيديكم} [البقرة: 195] أو ضمن معنى فعل يتعدى باللام نحو: دنا لكم وأزف لكم ومعناه: وتبعكم ولحقكم وقد عدي. بمن قال:

فلما ردفنا من عمير وصحبه** تولوا سراعاً والمنية تعنق

يعني: دنونا من عمير وقرأ الأعرج: ردف لكم بوزن ذهب وهما لغتان والكسر أفصح.

وعسى ولعل وسوف - في وعد الملوك ووعيدهم - يدل على صدق الأمر وجده وما لا مجال للشك بعده وإنما يعنون بذلك: إظهار وقارهم وأنهم لا يعجلون بالانتقام لإدلالهم بقهرهم وغلبتهم ووثوقهم أن عدوهم لا يفوتهم وأن الرمزة إلى الأعراض كافية من جهتهم فعلى ذلك جرى وعد الله ووعيده.

{وإن ربك لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون} الفضل والفاضلة: الإفضال. ولفلان فواضل في قومه وفضول. ومعناه: أنه مفضل عليهم بتأخير العقوبة وأنه لا يعاجلهم بها وأكثرهم لا يعرفون حق النعمة فيه ولا يشكرونه ولكنهم بجهلهم {وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون} قرئ تكن. يقال: كننت الشيء وأكننته: إذا سترته وأخفيته يعني: أنه يعلم ما يخفون وما

يعلنون من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكايدهم وهو معاقبهم على ذلك بما يستوجبوبه.

{وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين} سمي الشيء الذي يغيب ويخفى: غائبة وخافية فكانت التاء فيهما بمنزلتها في العافية والعاقبة. ونظائرهما: النطيحة والرمية والذبيحة: فيأنها أسماء غير صفات. ويجوز أن يكونا صفتين وتاؤهما للمبالغة كالراوية في قولهم: ويل للشاعر من راوية السوء كأنه قال: وما من شيء شديد الغيبوبة والخفاء إلا وقد علمه الله وأحاط به وأثبته في اللوح. المبين: الظاهر البين لمن ينظر فيه من الملائكة.

{إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين} قد اختلفوا في المسيح فتحزبوا فيه أحزاباً ووقع بينهم التناكر في أشياء كثيرة حتى لعن بعضهم بعضها وقد نزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه لو أنصفوا وأخذوا به وأسلموا يريد: اليهود {إن ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم} {بينهم} بين من آمن بالقرآن ومن كفر به. فإن قلت: ما معنى يقضي بحكمه ولا يقال زيد يضرب بضربه ويمنع بمنعه قلت. معناه بما يحكم به وهو عدله لأنه لا يقضي إلا بالعدل فسمى المحكوم به حكماً. أو أراد بحكمته - وتدل عليه قراءة من قرأ بحكمه: جمع حكمة.

{وهو العزيز} فلا يرد قضاؤه {العليم} بمن يقضي له وبمن يقضي عليه أو العزيز في انتقامه من المبطلين العليم بالفصل بينهم وبين المحقين.

{فتوكل على الله إنك على الحق المبين إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بئاياتنا فهم مسلمون} أمره بالتوكل على الله وقلة المبالاة بأعداء الدين وعلل التوكل بأنه على الحق الأبلج الذي لا يتعلق به الشك والظن. وفيه بيان أن صاحب الحق حقيق بالوثوق بصنع الله وبنصرته وأن مثله لا يقشةشيشخذل. فإن قلت {إنك لا تسمع الموتى} يشبه أن يكون تعليلاً آخر للتوكل فما وجه ذلك قلت: وجهه أن الأمر بالتوكل جعل مسبباً عما كان

يغبظ رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهة المشركين وأهل الكتاب: من ترك اتباعه وتشييع ذلك بالأذى والعداوة فلاءم ذلك أن يعلل

توكل متوكل مثله بأن اتباعهم أمر قد يئس منه فلم يبق إلا الاستنصار عليهم لعداوتهم واستكفاء شرورهم وأذاهم وشبهوا بالموتى وهم أحياء صحاح الحواس لأنهم إذا سمعوا ما يتلى عليهم من آيات الله - فكانوا أقماع القول لا تعيه آذانهم وكان سماعهم كلا سماع -: كانت حالهم - لانتفاء جدوى السماع - كحال الموتى الذين فقدوا مصحح السماع وكذلك تشبيههم بالصم الذين ينعق بهم فلا يسمعون. وشبهوا بالعمى حيث يضلون الطريق ولا يقدر أحد أن ينزع ذلك عنهم وأن يجعلهم هداة بصراء إلا الله عز وجل. فإن قلت: ما معنى قوله {إذا ولوا مدبرين} قلت: هو تأكيد لحال الأصم لأنه إذا تباعد عن الداعي بأن يولي عنه مدبراً كان أبعد عن إدراك صوته. وقرئ: ولا يسمع الصم وما أنت بهاد العمى على الأصل. وتهدي العمى. وعن ابن مسعود: وما أن تهدي العمى وهداه عن الضلال. كقولك: سقاه عن العمية أي: أبعده عنها بالسقي وأبعده عن الضلال بالهدى} إن تسمع} أي ما يجدي إسماعك إلا على الذين علم الله انهم يؤمنون بآياته أي: يصدقون بها} فهم مسلمون} أي مخلصون من قوله {بلى من أسلم وجهه لله} [البقرة: 112] يعني: جعله سالماً لله خالصاً له.

{وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون} سمى معنى القول ومؤد اه بالقول وهو ما وعدوا من قيام الساعة والعذاب ووقوعه: حصوله. والمراد: مشارفه الساعة وظهور أشراطها وحين لا تنفع التوبة. ودابة الأرض: أن طولها ستون ذراعاً لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب. وروي: لها أربع قوائم وزغب وريش وجناحان وعن ابن جريج في وصفها: رأس ثور وعين خنزير وأذن فيل وقرن إبل وعنق نعامة وصدر أسد ولون نمر وخاصرة ر وذنب كبش وخف بعير. وما بين المفصلين: أثنا عشر ذراعاً بذراع آدم عليه السلام. وروي: لا تخرج إلا رأسها ورأسها يبلغ أعنان السماء أو يبلغ السحاب. وعن أبي هريرة: فيها من كل لون وما بين قرنيها فرسخ للراكب.

وعن الحسن رضي الله عنه: لا يتم خروجها إلا بعد ثلاثة أيام. وعن علي رضي الله عنه: أنها تخرج ثلاثة أيام والناس ينظرون فلا يخرج إلا ثلثها. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه سئل: من أين تخرج الدابة فقال: من أعظم المساجد حرمة على الله يعني المسجد الحرام. وروي: أنها تخرج ثلاث خرجات: تخرج بأقصى اليمن ثم تتكمن ثم تخرج بالبادية ثم تتمكن دهراً طويلاً فبينا الناس في أعظم المساجد حرمة وأكرمها على الله فما يهولهم إلا خروجها من بين الركن حذاء دار بني مخزوم عن يمين الخارج من المسجد فقوم يهربون وقم يقفون نظارة. وقيل: تخرج من الصفا فتكلمهم بالعربية بلسان ذلق فتقول {أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون} بخروجي لأن خروجها من الآيات وتقول: ألا لعنة الله على الظالمين.

وعن السدي: تكلمهم ببطلان الأديان كلها سوى دين افسلام. وعن ابن عمرو رضي الله عنه: تستقبل المغرب فتصرخ صرخة تنفذه بينا عيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون إذ تضطرب الأرض تحتهم حتى تحرك القنديل وينشق الصفا مما يلي المسعى فتخرج الدابة من الصفا ومعها عصا موسى وخاتم سليمان فتضرب المؤمن في مسجده أو فيما بين عينيه بعا موسى عليه السلام فتنكت نكتة بيضاء فتفشو تلك النكة في وجهه حتى يضيء لها وجهه أو فتترك وجهه كأنه كوكب دري وتكتب بين عينيه: مؤمن: وتنكت الكافر بالخاتم في أنفه فتفشو النكتة حتى يسود لها وجهه وتكتب بين عينيه: كافر. وروي: فتجلو وجه المؤمن بالعصا وتحطم أنف الكافر بالخاتم ثم تقول لهم: يا فلان أنت من اهل الجنة. ويا فلان أنت من أهل النار. وقرئ: تكلمهم من الكلم وهو الجرح. والمراد به: الوسم بالعصا والخاتم. ويجوز أن يكون تلكمهم من الكلم أيضاً على معنى التكثير. يقال:

فلان ملكم أي مجرح. ويجوز أن يستدل بالتخفيف علي أن المراد بالتكليم: التجريح كما فسر: لنحرقنه بقراءة علي رضي الله عنه: لنحرقنه وأن يستدل بقراءة أبي: تنبئهم. وبقراءة ابن مسعود: تكلمهم بأن الماس على أنه من الكلام. القول أي: تقول الدابة ذلك. أو هي حكاية لقول الدابة إما لأن الكلام بمعنى القول. أو بإضمار القول أي: تقول الدابة ذلك. أو خي حكاية لقوله تعالى عند ذلك. فإن قلت: إذا كانت حكاية لقول الدابة فكيف تقول بآياتنا قلت: قولها نحكاية لقول الله تعالى. أو على معنى بآيات الله إلى نفسها كما يقول بعض خاصة الملك: خيلنا وبلادنا وإنما هي خيل مولاه وبلاده. ومن قرأ بالفتح فعلى حذف الجار أي: تكلمهم بأن.

{ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون} {فهم يوزعون} يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا فيكبكبوا في النار. وهذه عبارة عن كثرة العدد وتباعد أطرافه كما وصفت جنود سليمان بذلك. وكذلك قوله {فوجاً} فإن الفوج الجماعة الكثيرة. ومنه قوله تعالى {يدخلون في دين الله أفواجاً} [النصر: 2] وعن ابن عباس رضي الله عهما: أبو جهل والوليد بن المغيرة وشبيه بن ربيعة: يساقون بين يدي أهل مكة وكذلك يحشر قادة سائر الأمم بين أيديهم إلى النار. فإن قلت: أي فرق بين من الأولى والثانية قلت: الأولى للتبعيض والثانية للتبيين كقوله {من الأوثان} [الحج: 30].

{حتى إذا جاءو قال أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً أماذا كنتم تعلمون ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون} الواو للحال كأنه قال: أكذبتم بها بادئ الرأي من غير فكر ولا نظر يؤدي إلى إحاطة العلم بكنهها وأنها حقيقة بالتصديق أو التكذيب. أو للعطف أي: أجحدتموها ومع جحودكم لم تلقوا أذهانكم لتحققها وتبصرها فإن المكتوب إليه قد يجحد أنيكون الكتاب من عند من كتبه ولا يدع مع ذلك أن يقرأ ويتفهم مضامينه ويحيط بمعانيه} أماذا كنتم تعلمون} بها للتبكيت لا غير.

وذلك أنهم لم يعلموا إلا التكذيب فلا يقدرون أن يكذبوا ويقلوا قد صدقنا بها وليس إلا التصديق بها أو التكذيب. ومثاله أن تقول لراعيك - وقد عرفته رويعي سوء - أتأكل نعمي أم ماذا تعمل بها فتجعل ما تبتدئ به وتجعله أصل كلامك وأساسه هو الذي صح عندك من أكله وفساده وترمى بقولك: أم ماذا تعمل بها مع علمك أنه لا يعمل بها إلا الأكل لتبهته وتعلمه علمك بأنه لا يجئ منه إلا أكلها وأنه لا يقدر أن يدعي الحفظ والإصلاح لما شهر من خلاف ذلك. أو أراد: أما كان لكم عمل في الدنيا إلا الكفر والتكذيب بآيات الله أم ماذا كنتم تعملون من غير ذلك يعني أنه لم يكن لهم عمل غيره كأنهم لم يخلقوا إلا للكفر والمعصية وإنما خلقوا للإيمان والطاعة: يخاطبون بهذا قبل كبهم في النار ثم يكبون فيها وذلك قوله {ووقع القول عليهم} يريد أن العذاب الموعود يغشاهم بسبب كظلمهم وهو التكذيب بآيات الله فيشغلهم عن النطق والاعتذار كقوله تعالى {هذا يوم لا ينطقون} [المرسلات: 35].

{ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً إن في ذلك لأيات لقوم يؤمنون} جعل افبصار للنهار وهو لأهله. فإن قلت: ما للتقابل لم يراع في قوله {ليسكنوا} و {مبصراً} حيث كان أحدهما علة والآخر حالاً قلت: هو مراعي من حيث المعنى وهكذا النظم {ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين} فإن قلت: لم قيل {ففزع} دون فيفزع قلت: لنكتة وهي الإشعار بتحقيق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة واقع على أهل السموات والأرض لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعاً به. والمراد فزعهم عند النفخة الأولى حينت يصعقون {إلا من شاء الله} إلا من ثبت الله قلبه من الملائكة قالوا: هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت - عليهم السلام. وقيل الشهداء. وعن الضحاك: الحور وخزنة النار وحملة العرش. وعن جابر: منهم موسى عليه السلام لأنه صعق مرة. ومثله قوله تعالى {ونفخ في الصور

فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله} [الزمر: 68]. وقرئ: أتوه. وأتاه ودخرين فالجمع علىالمعنى والتوحيد على اللفظ. والداخر والدخر: الصاغر. وقيل: مع افتيان حضورهم الموقف بعد النفخة الثانية. ويجوز أن يراد رجوعهم إلى أمره وانقيادهم له.

{وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعلمون} {جامدة} من جمد في مكانه إذا لم يبرح.. تجمع الجبال فتسير كما تسير الريح السحاب فإذا نظر إليها الناظر حسبها واقفة ثابتة في مكان واحد {وهي تمر} مراً حثيثاً كما يمر السحاب.

وهكذا الأجرام العظام المتكاثرة العدد: إذا تحركت تكاد تتبين حركتها كما قال النابغة في وصف جيش:

وقوف لحاج والركاب تهملج

**

بأرعن مثل الطود تحسب أنهم

{صنع الله} من المصادر المؤكدة كقوله {وعد الله} [النساء: 95] و {صبغة الله} [البقرة: 138] إلا أن مؤكده محذوف وهو الناصب ليوم بنفخ والمعنى: ويوم ينفخ في الصور وكان كيت وكيت أثاب الله المحسنين وعاقب المجرمين ثم قال: صنع الله يريد به: افثابة والمعاقبة. وجعل هذا الصنع من جملة الأشياء التي أتقنها وأتى بها على الحكمة والصواب حيث قال: صنع الله {الذي أتقن كل شيء} يعني أن مقابته الحسنة بالثواب والسيئة بالعقاب: من جملة إحكامه للأشياء وإتقانه لها وإجرائه لها على قضايا الحكمة أنه علام بما يفعل العباد وبما يستوجبون عليه فيكافئهم على حسب ذلك. ثم لخص ذلك بقوله {من جاء بالحسنة} إلى آخر الآيتين فانظر إلى بلاغة هذا الكلام وحسن نظمه وترتيبه ومكانه إضماده ورصانة تفسيره وأخذ الشقاشق. ونحو هذا المصدر إذا جاء عقيب كلام جاء كالشاهد بصحته والمنادي على سداده وأنه ما كان ينبغي أن يكون إلا كما قد كان. ألا ترى إلى قوله {صنع الله} و {صيغة الله} [البقرة: 138] و {وعد الله} [النساء: 95] و {فطرة الله} [الروم: 30]: بعدما وسمها بإضافتها إليه بسمة التعظيم كيف تلاها بقوله {الذي أتقن كل شيء} {ومن أحسن من الله صبغة} [البقرة: 138] {لا يخلف الله الميعاد} [الزمر: 20] {لا تبديل لخلق الله} [الروم: 30] وقرئ: تفعلون على الخطاب. {فله خير منها} يريد الإضعاف وأن العمل يتقضى والثواب يدوم وشتان ما بين فعل العبد وفعل السيد. وقيل: فله خير منها أي: له خير حاصل من جهتها وهو الجنة وعن ابن عباس الحسنة كلمة الشهادة.

وقرئ {يومئذ} مفتوحاً مع الإضافة لأنه أضيف إلى غير متمكن. ومنصوباً مع تنوين فزع.

فإن قلت: ما الفرق بين الفزعين قلت: الفزع الأول: هو ما لا يخلو منه أحد عند الإحساس بشدة تقع وهول يفجأ من رعب وهيبة وإن كان المحسن بأمن لحاق الضرر به كما يدخل الرجل على الملك بصدر هياب وقلب وجاب وإن كان ساعة إعزاز وتكرمة وإحسان وتوليه.

وأما الثاني: فالخوف من العذاب. فإن قلت: فمن قرأ {من فزع} بالتنوين ما معناه قلت: يحتمل معنيين. من فزع واحد وهو خوف العقاب وأما ما يلحق افنسان من التهيب

والرعب لما يرى من الأهوال والعظائم فلا يخلون منه لأن البشرية تقتضي ذلك. وفي الخبار ولآثار ما يدل عليه.

ومن فزع شديد مفرط الشدة لايكتنهه الوصف: وهو خوف النار. أمن: يعدي بالجار وبنفسه كقوله تعالى {فأمنوا مكر الله} [الأعراف: 99]. وقيل: السيئة: الإشراك. يعبر عن الجملة بالوجه والرأس والرقبة فكأنه قيل: فكبوا في النار كقوله تعالى {فكبكبوا فيها} [الشعراء: 94] ويجوز أن يكون ذكر الوجوه إيذاناً بأنهم يكبون على وجوههم فيها منكوسين {هل تجزون} يجوز فيه الالتفات وحكاية ما يقال لهم عند الكب بلإضمار القول.

{إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين وأن أتلوا القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين وقل الحمد لله سيركم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون} أمر رسوله بأن يقول {أمرت} أن أخص الله وحده بالعبادة ولا أتخذ له شريكاً كما فعلت قريش وأن أكون من الحنقاء الثابتين على ملة الإسلام {وأن أتلوا القرآن} من التلاوة أو من التلو كقوله {واتبع ما يوحى إليك} [يونس: 109 الأحزاب: 2]. والبدلة: مكة حرسها الله تعالى: اختصها من بين سائر البلاد بإضافة اسمه إليها لأنها أحب بلاده إليه وأكرمها عليه وأعظمها عنده. وهكذا قال النبي صلى الله عليه وسلم حين خرج في مهاجره فلما بلغ الحزورة استقبلها بوجهه الكريم فقال:

إني أعلم أنك أحب بلاد الله إلى الله. ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت وأشار إليها تعظيم لها وتقريب دالاً على أنها موطن نبيه ومهبط وحيه. ووصف ذاته بالتحريم الذي هو خاص وصفها فأجزل بذلك قسمها في الشرف والعلو ووصفها بأنها محرمة لا ينتهك حرمتها إلا ظالم مضاد لربه {ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم} [الحج: 25] لا يختلى خلاها ولا يعضد شجرها ولا ينفر صيدها. واللاجئ إليها آمن. وجعل دخول كل شيء تحت ربوبيته وملكوته كالتابع لدخولها تحتهما. وفي ذلك إشارة إلى أن ملكاً ملك مثل هذه البلدة عظيم الشأن قد ملكها وملك إليها كل شيء: اللهم بارك لنا في سكناها وآمنا فيها شر كل ذي شر ولا تنقلنا من جوار بيتك إلا إلى دار رحمتك. وقرئ: التي حرمها. واتل عليهم هذا القرآن: عن أبي وأن أتل: عن ابن مسعود. {فمن اهتدى} باتباعه إياي فيما أنا بصدده من توحيد الله ونفي الأنداد عنه والدخول في الملة الحنيفية واتباع ما أنزل علي من الوحي فمنفعة اهتدائه راجعة إليه لا إلي {ومن ضل} ولم يتبعني فلا علي وما أنا إلا رسول منذر وما على الرسول إلا البلاغ. ثم أمره أن يحمد الله على ما خوله من نعمة النبوة التي لا توازيها نعمة وأن يهدد أعداءه بما سيريهم الله من آياته التي تلجئهم إلى المعرفة وافقرار بأنها آيات الله. وذلك حين لا تنفعهم المعرفة. يعني في الآخرة. عن الحسن وهن الكلبي: الدخان وانشقاق القمر. وما حل بهم من نقمات الله في الدنيا. وقيل: هو كقوله {سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم} [الآية فصلت: 53]. وكل عمل يعملونه فالله عالم به غير غافل عنه لأن. الغفلة والسهو لا يجوزان على عالم الذاتن وهو من عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأي طس سليمان كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق سليمان وكذب به وهود وشعيب وصالح وإبراهيم ويخرج من قبره وهو ينادي لا إله إلا الله.

سورة القصص

مكية وآياتها ثمان وثمانون

بسم الله الرحمن الرحيم

{طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون} {من نبأ موسى وفرعون} مفعول نتلو أيش: نتلو عليك بعض خبرهما {بالحق} محقين كقوله تنبت بالدهن {لقوم يؤمنون} لمن سبق في علمنا أنه يؤمن لأن التلاوة إنما تنفع هؤلاء دون غيرهم.

{إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين} {إن فرعون} جملة مستأنفة كالتفسير للمجمل كأن قائلا قال: وكيف كان نبؤهما فقال: إن فرعون {علا في الأرض} يعني أرض مملكته قد طغى فيها وجاوز الحد في الظلم والعسف {شيعً}

وبلدة يرهب الجواب دلجتها** حتى تراه عليها يبتغي الشيعا

أو يشيع بعضهم بعضاً في طاعته. أو أصنافاً في استخدامه يتسخر صنفاً في بناء وصنفاً في حرث وصنفاً في حفر ومن لم يستعمله رب عليه الجزية أو فرقاً مختلفة قد أغرى بينهم العداوة وهم بنو إسرائيل والقبط. والطائفة المستضعفة: بنو إسرائيل: وسبب ذبح الأبناء: أن كاهناً قال له: يولد مولوده في بني إسرائيل يذهب ملكك على يده. وفيه دليل بينعلى ثخانة حمق فرعون فإنه إن صدق الكاهن لم يدفع القتل الكائن وإن كذب فما وجه القتل و{يستضعف} حال من الضمير في {وجعل} أو صفة لشيعاً. أو كلام مستأنف. و {يذبح} بدل من يستضعف. وقوله {إنه كان من المفسدين} بيان أن القتل ما كان إلا فعل المفسدين فحسب لأنه فعل لا طائل تحته صدق الكاهن أو كذب.

{ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون} فإن قلت: علام عف قوله {ونريد أن نمن} وعطفه على {نتلوا} و {يستضعف} غير سديد قلت: هي جملة معطوفة على قوله {إن فرعون علا في الأرض} لأنها نظيرة تلك في وقوعها تفسيراً لنبأ موسى وفرعون واقتصاصا له. {ونريد}: حكاية حال ماضية. ويجوز أن يكون حالا من يستضعف أي يستضعفهم فرعون ونحن نريد أن نمن عليهم. فأن قلت: كيف يجتمع استضعافهم وإرادة الله المنة عليهم وإذا أراد الله شيئا كان ولم يتوقف إلى وقت آخر قلت: لما كانت منة الله بخلاصهم من فرعون قريبة الوقوع جعلت إرادة وقوعها كأنها مقارنة لاستضعافهم {أئمة} مقدمين في الدين والدنيا يطأ الناس أعقابهم. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: قادة يقتدى بهم في الخير. وعن مجاهد رضي الله عنه: دعاة إلى الخير وعن قتادة رضي الله عنه: ولاة كقوله تعالى {وجعلكم ملوكا} [المائدة: 20]. {الورثين} يرثون فرعون وقومه ملكهم وكل ما كان لهم. مكنله: إذا جعل له مكانا يقعد عليه أو يرقد فوطأه و مهده ونظيرة: أرض له. ومعنى التمكين لهم في الارض وهي أرض مصر و الشام: أن يجعلها بحيث لاتنبو بهم ولاتغث عليهم كما كانت في أيام الجبانرة وينفذ أمرهم ويطلق أيديهم ويسلطهم. وقرئ: (ويرى فرعون وهامان وجنودهما) أي: يرون {منهم ما} حذروه: من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود منهم.

{وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رآدوه إليك وجاعلوه من المرسلين} اليم: البحر. قيل: هو نيل مصر. فإن قلت: ما المراد بالخوفين حتى أوجب أحدهما ونهى عن الآخر قلت: أما الأول فالخوف عليه من القتل لأنه كان إذا صاح خافت أن يسمع الجيران صوته فينموا عليه. وأما الثاني فالخوف عليه من الغرق ومن الضياع ومن الوقوع في يد بعض العيون المبثوثة من قبل فرعون في تطلب الولدان وغير ذلك من المخاوف. فإن قلت: ما الفرق بين الخوف والحزن قلت: الخوف غم يلحق الإنسان لمتوقع. والحزن: غم يلحقه لواقع وهو فراقه والإخطار به فنهيت عنهما جميعاً

وأومنت بالوحي إليها ووعدت ما يسليها ويطامن قلبها ويملؤها غبطة وسروراً: وهو رده إليها وجعله من المرسلين. وروي: أنه ذبح في طلب موسى عليه السلام تسعون ألف وليد. وروي: أنها حين أقربت وضربها الطلق وكانت بعض القوابل الموكلاتبحبالى بني إسرائيل مصافية لها فقالت لها: لينفعني حبك اليوم فعالجتها فلما وقع إلى الأرض هالها نور بين عينيه وارتعش كل مفصل منها ودخل حبه قلبها ثم قالت: ما جئتك إلا لأقبل مولودك وأخبر فرعون ولكني وجدت لابنك حباً ما وجدت مثله فاحفظيه فلما خرجت جاء عيون فرعون فلفته في خرقة ووضعته في تنور مسجور لم تعلم ما تصنع لما طاش من عقلها فطلبوا فلم يلقوا شيئاً فخرجوا وهي لا تدري مكانه فسمعت بكاءه من التنور فانطلقت إليه وقد جعل الله النار عليه برداً وسلاماً. فلما ألح فرعون في طلب الولدان أوحى الله إليها فألقته في اليم. وقد روي أنها أرضعته ثلاثة أشهر في تابوت من بردي مطلي بالقار من داخله.

اللام في {ليكون} هي لام كي التي معناها التعليل كقولك: جئتك لتكرمني سواء بسواء ولكن معنى التعليل فيها وارد على طريق المجاز دون الحقيقة لأنه لم يكن داعيهم إلى الالتقاط أن يكون لهم عدواً وحزناً ولكن: المحبة والتبني غير أن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له وثمرته شبه بالداعي الذي يفعل الفاعل الفعل لأجله وهو الإكرام الذي هو نتيجة المجيء والتأدب الذي هو ثمرة الضرب في قولك: ضربته ليتأدب. وتحريره: أن هذه اللام حكمها حكم الأسد حيث استعيرت لما يشبه التعليل كما يستعار الأسد لمن يشبه الأسد. وقرئ: (وحزناً) وهما لغتان: كالعدم والعدم {كانوا خاطئين} في كل شيء فليس خطؤهم في تربية عدوهم ببدع منهم. أو كانوا مذنبين مجرمين فعاقبهم الله بأن ربي عدوهم - ومن هو سبب هلاكهم - على أيديهم.

وقرئ: (خاطين) تخفيف خاطئين أو خاطين الصواب إلى الخطأ.

{وقالت امرأت فرعون قرت عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون} روي أنهم حين التقطوا التابوت عالجوا فتحه فلم يقدروا عليه فعالجوا كسره فأعياهم فدنت آسية فرأت في جوف التابوت نوراً فعالجته ففتحته فإذا بصبي نوره بين عينيه وهو يمص إبهامه لبناً فأحبوه وكانت لفرعون بنت برصاء وقالت له الأطباء: لا تبرأ إلا من قبل البحر يوجد فيه شبه إنسان دواؤها ريقه فلطخت البرصاء برصها بريقه فبرأت. وقيل لما نظرت إلى وجهه برأت فقالت: إن هذه لنسمة مباركة فهذا أحد ما عطفهم عليه فقال الغواة من قومه: هو الصبي الذي نحذر منه فأذن لنا في قتله فهم بذلك فقالت آسية {قرت عين لي ولك} فقال فرعون: لك لا لي. وروي في حديث.

(لو قال هو قرة عين لي كما هو لك لهداه الله كما هداها) وهذا على سبيل الفرض والتقدير أي لو كان غير مطبوع على قلبه كآسية لقال مثل قولها ولأسلم كما أسلمت: هذا إن صح الحديث تأويله والله أعلم بصحته. وروي أنها قالت له: لعله من قوم آخرين ليس من بني إسرائيل.{قرت عين}: خبر مبتدأ محذوف ولا يقوى أن تجعله مبتدأ و{لا تقتلوه} خبراً ولو نصب لكان أقوى. وقراءة ابن مسعود رضي الله عنه دليل على أنخ خبر قرأ: لا تقتلوه قرة عين لي ولك بتقديم لا تقتلوه.{عسى أن ينفعنا} فإن فيه مخايل اليمن ودلائل النفع لأهله وذلك لما عاينت من النور وارتضاع الإبهام وبرء البرصاء ولعلها توسمت في سيماه النجابة المؤذنة بكونه نفاعاً. أو نتبناه فإنه أهل للتبني ولأن يكون ولداص لبعض الملوك. فإن قلت {وهم لا يشعرون} حال فما ذو حالها قلت: ذو حالها آل فرعون. وتقدير الكلام: فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً وقالت امرأة فرعون كذا وهم لا يشعرون أنهم على خطأ عظيم في التقاطه ورجاء النفع منه وتبنيه. وقوله {إن فرعون....} الآية: جملة اعتراضية واقعة بينالمعطوف والمعطوف عليه مؤكدة لمعنى خطئهم. وما أحسن نظم هذا الكلام عند المرتاض بعلم محاسن النظم.

{وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من الؤمنين وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون} {فراغاً} صفراً من العقل. والمعنى: أنها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها لما دهمها من فرط الجزع والدهش. ونحو قوله تعالى {وأفئدتهم هواء} [إبراهيم: 43] أي جوف لا عقول فيها ومنه بيت حسان:

ألا أبـلـغ أبـا سـفـيان عـنـــي** فـأنـت مـجـوف نـخـب هـواء

وذلك أن القلوب مراطز العقول. ألا ترى إلى قوله {فتكون لهم قلوب يعقلون بها} [الحج: 46] ويدل عليه قراءة من قرأ: فرغاً. وقرئ: قرعاً أي خالياً من قولهم: أعوذ بالله من صفر الإناء وقرع الفناء. وفرغاً من قولهم: دماؤهم بينهم فرغ أي هدر يعني: بطل قلبها وذهب وبقيت لا قلب لها من شدة ما ورد عليها {لتبدي به} لتصحر به. كما يربط على الشيء المنفلت ليقر ويطمئن {لتكون من المؤنين} من المصدقين بوعد الله وهو قوله {إنا رادوه إليك} إليك ويجوز: وأصبح فؤادها فارغاً من الهم حين سمعت أن فرعون عطف عليه وتبناه إن كادت لتبدي بأنه ولدها لأنها لم تملك نفسها فرحاً وسروراً بما سمعت لولا أنا طامنا قلبها وسكنا قلقة الذي حدث به من شدة الفرح والابتهاج لتكون من المؤنين الواثقين بوعد الله لا يتبنى فرعون وتعطيه.

وقرئ: مؤسى بالهمزة: جعلت الضمة في جارة الواو - وهي الميم - كأنها فيها فهمزت كما تهمز واو وجوه {قصيه} اتبعي أثره وتتبعي خبره. وقرئ: فبصرت بالكسر - يقال بصرت به عن جنب وعن جناية بمعنى: عن بعد. وقرئ: عن جانب وعن جنب. والجنب: الجانب. يقال:

قعد إلى جنبه وإلى جانبه أي: نظرت إليه مزورة متجانفة مخاتلة. وهم لا يشعرون وهم لا يحسون بأنها أخته وكان اسمها مريم.

{وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون} التحريم: استعارة للمنع لأن من حرم عليه الشيء فقد منعه. ألا ترى إلى قولهم: محظور.

وحجر وذلك لأن الله منعه أن يرضع ثدياً فكان لا يقبل ثدي مرضع قط حتى أهمهم ذلك.

والمراضع: جمع مرضع وهي المرأة التي ترضع. أو جمع مرضع وهو موضع الرضاع يعني الثدي أو الرضاع {من قبل} من قبل قصصها أثره. روي أنها لما قالت {وهم له ناصحون} قال هامان: أنها لتعرفه وتعرف أهله فقالت: إنما أردت وهم للملك ناصحون والنصح: إخلاص العمل من شائب الفساد فانطلقت إلى أمها بأمرهم فجاءت بها والصبي على يد فرعون يعلله شفقة عليه وهو يبكي يطلب الرضاع فحين وجد ريحها استأنس والتقم ثديها فقال لها فرعون: ومن أنت منه فقد أبى كل ثدي إلا ثديك قالت: إني امرأة طيبة الريح طيبة اللبن لا أوتى بصبي إلا قبلني فدفعه إليها وأجرى عليها وذهبت به إلى بيتها وأنجز الله وعده في الرد فعندها ثبت واستقر في عملها أن سيكون نبياً. وذلك قوله {ولتعلم أن وعد الله حق} يريد. ولبثبت عملها يوتمكن. فإن قلت: كيف حل لها أن تأخذ الأجر إلى إرضاع ولدها قلت: ما كانت تأخذه على أنه أجر على الرضاع ولكنه مال حربي كانت تأخذه المعنى: لتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثر الناس لا يعلمون أنه حق فيرتابون. ويشبه التعريض بما فرط منها حين سمعت بخبر موسى فجزعت وأصبح فؤادها فارغاً يروى أنها حجين ألقت التابوت في اليم جاءها الشيطان فقال لها: يا أم موسى كرهت أن يقتل فرعون موسى فتؤجري ثم ذهبت فتوليت قتله فلما أتاها الخبر بأن فرعون أصابه

قالت: وقع في يد العدو فنسيت وعد الله. ويجوز أن يتعلق {ولكن} بقوله {وليتعلم} ومعناه: أن الرد إنما كان لهذا الغرض الديني وهو عملها بصدق وعد الله. ولكن الأكثر لا يعلمون بأن هذا هو الغرض الأصلي الذي منا سواه تبع له من قرة العين {ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين} {واستوى} واعتدلوتم استحكامه وبلغ المبلغ الذي لا يزاد عليه كما قال لقيط:

واستحموا أمركم لله دركمو** شزر المريرة لا قحماً ولا ضرعا

وذلك أربعون سنة ويروي: أنه لم يبعث نبي إلا على رأس أربعين سنة. العلم: التوراة. والحكم: السنة. وحكمة الأنبياء: سنتهم. قال الله تعالى {واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة} [الأحزاب: 34] وقيل معناه أتيناه سيرة الحكماء العلماء وسمتهم قبل البعث فكان لايفعل فعلاً يستجهل فيه.

{ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم قال ربي بما أنعمت على فلن أكون ظهيراً للمجرمين} المدينة: مصر. وقيل: مدينة منف من أرض مصر. وحين غفلتهم: ما بين العشاءين. وقيل: وقت القائلة. وقيل يوم عيد لهم هم مشتغلون فيه بلهوهم. وقيل: لما شب وعقل أخذ يتكلم بالحق وينكر عليهم فأخافوه فلا يدخل قرية إلا على تغفل. وقرأ سيبويه: فاستعانه {من شيعته} ممن شايعه على دينه من بني إسرائيل. وقيل: هو السامري {من عدوه} من مخالفيه من القبط وهو فاتون وكان يتسخر الإسرائيلي لحمل الحطب إلى مطبخ فرعون. والوكز: الدفع بأطراف الأصابع. وقيل: بجمع الكف وقرأ ابن مسعود: فلكزه باللام {فقضى عليه} فقتله. فإن قلت: لم جعل قتل الكافر من عمل فكان ذنباً يستغفر منه. عن ابن جريج: ليس لبني أن يقتل ما لم يؤمر {بما أنعمت على} يجوز أن يكون قسماً جوابه محذوف تقديره: أقسم بإنعامك علي بالمغفرة لأتوبن {فلن أكون ظهيراً للمجرمين} وأن يكون استعطافاً كأنه قال: رب اعصمني بحق ما أنعمت علي من المغفرة فلن أكون - إن عصمتني - ظهيراً للمجرمين. وأراد بمظاهرة المجرمين: الوالد وكان يسمى ابن فرعون. وإما مظاهرة من أدتا مظاهرته إلى الجرم والإثم كمظاهرة الإسرائيلي المؤدية إلى القتل الذي لم يحل به. وعن ابن عباس: لم يستثن فابتلى به مرة أخرى.

يعني: لم يقل: فلن أكون إن شاء الله. وهذا نحو قوله {ولا تركنوا إلى الذين ظلموا}[هود: 113] وعن عطاء: أن رجلاً قال له: إن أخي يضرب بقلمه ولا يعدو رزقه. قال: فمن الرأس يعني من يكتب له قال: خالد بن عبد الله القسري: قال: فأين قول موسى وتلا هذه الآية. وفي الحديث: ينادي مناد يوم القيامة: أين الظلمة وأشباه الظلمة وأعوان الظلمة حتى من لاق لهم دواة أو برى لهم قلماً فيجمعون في تابوت من ديد فيرمى به في جهنم وقيل معناه: بما أنعمت علي من القوة فلن استعملها إلا في مظاهرة أوليائك وأهل طاعتك والإيمان بك. ولا أدع قبطياً يغلب أحداً من بني إسرائيل.

{فأصبح في المدينة خائفاً يترقب فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوي مبين فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين} {يترقب} المكروه وهو الاستقادة منه أو الإخبار وما يقال فيه ووصف الإسرائيلي بالغي لأنه كان سبب قتل رجل وهو يقاتل آخر. وقرئ: يبطش بالضم. والذي هو عدو لهما: القبطي لأنه ليس على دينهما ولأن القبط كانوا أعداء بني إسرائيل. والجبار: الذي يفعل ما يريد من الضرب والقتل بظلم لا ينظر في العواقب ولا يدفع بالتي

هي أحسن: وقيل: المتعظم الذي لا يتواضع لأمر الله ولما قال هذا: أفشى على موسى فانتشر الحديث في المدينة ورقي إلى فرعون وهموا بقتله.

{وجاء رجل من أقصا المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك في الناصحين} قيل: الرجل: مؤمن آل فرعون وكان ابن عم وكان ابن عن فرعون و {يسعى} يجوز ارتفاعه وصفاً لرجل وانتصابه حالاً عنه لأنه قد تخصص بأن وصف بقوله {من أقصا المدينة} وإذا جعل صلة لجاء لم يجز في {يسعى} إلا الوصف. والائتمار: التشاور. يقال: الرجلان يتآمران ويأتمران لأن كل واحد منهما يأمر صاحبه بشيء أو يشير عليه بأمر. والمعنى: يتشاورون بسببك {لك} بيان وليس بصلة الناصحين.

{فخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين} {يترقب} التعرض له في الطريق. أو أن يلحق.

{ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل} {تلقاء مدين} قصدها ونحوها. ومدين: قرية شعيب عليه السلام سميت بمدين بن إبراهيم ولم تكن في سلطان فرعون وبينهما وبين مصر مسيرة ثمان وكان موسى لا يعرف إليها الطريق قال ابن عباس: خرج وليس به علم بالطريق إلا حسن ظنه بربه. و{سواء السبيل} وسطه ومعظم نهجه. وقيل: خرج حافياً لا يعيش إلا بورق الشجر فما وصل حتى خف قدمه. وقيل: جاءه ملك على فرس بيده عنزة فانطلق به إلى مدين.

{ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمه من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير فجاءته إحداهما تمشى على استحياء قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين قال ذلك بيني وبينك الأجلين قضيت فلا عدوان على والله على ما نقول وكيل} {ماء مدين} ماءهم الذي يستقون منه وكان بئراً فيما روي. ووروده: مجيئه والوصول إليه {وجد عليه} وجد فوق شفيره ومستقاه {أمه} جماعة كثيفة العدد {من الناس} من أناس مختلفين {من دونهم} في مكان أسفل من مكانهم. والذود: الطرد والدفع وإنما كانتا تذودان لأن على الماء من هو أقوى منهما فلا يتمكنان من السقي. وقيل: كانتا تكرهان المزاحمة على الماء.

وقيل: لئلا تختلط أغنامهما بأغنامهم وقيل: تذودان عن وجههما نظر الناظر لتسترهما} ما خطبكما} ما شأنكما. وحقيقته: ما مخطوبكما أي: مطلوبكما من الذيان فسمى المخطوب خطباً كما سمى المشئون شأناً في قولك: ما شأنك يقال: شأنت شأنه أي: قصدت قصده.

وقرئ لا نسقي ويصدر. والرعاء بضم النون والياء والراء. والرعاء: اسم جمع كالرخاء والثناء. وأما الرعاء بالكسر فقياس كصيام وقيام {كبير} كبير السن {فسقي لهما} فسقى غنمهما لأجابهما. وروي أن الرعاة كانوا يضعون على رأس البئر حجراً لا يقله إلا سبعة رجال.

وقيل: عشرة. وقيل: اربعون. وقيل: مائة فأقله وحده. وروي أنه سألهم دلواً من ماء فأعطوه دروهم وقالوا: استق بها وكانت لا ينزعها إلا أربعون فاستقى بها وصبها في الحوض ودعا بالبركو وروى غنمهما وأصدرهما وروي أنه دفعهم عن الماء حتى سقى

لهما. وقيل: كانت بئراً أخرى عليها الصخرة. وإنما فعل هذا رغبة في المعروف وإغاثة للملهوف. والمعنى: أنه وصل إلى ذلك الماء وقد ازدحمت عليه أمه من أناس مختلفة متكاثفة العدد ورأى الضعفين من ورائهم مع غنيمتهما مترقبين لفراغهم فما أخطأت همته في دين الله تلك الفرصة مع ما كان من النصب وسقوطه خف القدم والجوع ولكنه رحمهما فأغاثهما وكفاهما أمر السقي في مثل تلك الزحمة بقوة قلبه وقوة ساعده وما آتاه الله من الفضل في متانة الفطرة ورصانة الجبلة وفيه مع إرادة اقتصاص أمره وما أوتى من البطش والقوة وما لم يغفل عنه على ما كان به من انتهاز فرصة الاحتساب ترغيب في الخير وانتهاز فرصة وبعث على الاقتداء في ذلك بالصالحين والأخذ بسيرهم ومذاهبهم. فإن قلت: لم ترك المفعول غير مذكور في قوله {يسقون} و{تذودان} و{نسقي} قلت: لأن الغرض هو الفعل لا المفعول. ألا ترى أنه إنما رحمهما لأنهما كانتا على الذيان وهم على السقي. ولم يرحمهما لأن مذودهما غنم ومسقيهم إبل مثلاً وكذلك قولهما {لا نسقي حتى يصدر الرعاء} المقصود فيه السقي لا المسقي. فإن قلت: كيف طابق جوابهما سؤاله قلت سألهما عن سبب الذود فقالتا: السبب في ذلك أنا امرأتان ضعيفتان مستورتان لانقدر على مساجلة الرجال ومزاحمتهم فلا بد لنا من تأخير السقي إلى أن يفرغوا وما لنا رجل يقوم بذلك وأبونا شيخ قد أضعفه الكبر فلا يصلح القيام به: أبلتا إليه عذرهما في توليهما السقي بأنفسهما. فإن قلت: كيف ساغ لنبي الله الذي هو شعيب عليه السلام أن يرضى لابنتيه بسقي الماشية قلت: الأمر في نفسه ليس بمحظور فالدين لا يأباه. وأما المروءة فالناس مختلفون في ذلك والعادات متباينة فيه وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم ومذهب أهل البدو فيه غير مذهب أهل الحضر خصوصاً إذا كانت الحالة حالة ضرورة {إني} لأي شيء {أنزلت إلى} قليل أو كثير غث أو سمين {فقير} وإنما عدي فقير باللام لأنه ضمن معنى سائل وطالب. قيل: ذكر ذلك وإن خضرة البقل يتراءى فيبطنه من الهزال ما سأل الله إلا أكلة. ويحتمل أن يريد: إني فقير من الدنيا لأجل ما أنزلت إلي من خير الدين وهو النجاة من الظالمين. لأنه كان عند فرعون في ملك وثروة: قال ذلك رضا بالبدل السني وفرحا به وشكراً له وكان الظل ظل سمرة {على استحياء} في موضع الجال أي: مستحيية متخفرة وقيل. قد استترت بكم درعها. روي أنهما لما رجعتا إلى أبيهما قبل الناس وأغنامهما حفل بطان قال لهما: ما أعجلكما قالتا: وجدنا رجلاً صالحاً رحمنا فسقى لنا فقال إحداهما: اذهبي فادعيه لي فتبعها موسى فألزقت الريح ثوبها بجسدها فوصفته فقال لها: امشي خلفي وانعتني لي الطريق فلما قص عليه قصته قال له. لا تخف فلا سلطان لفرعون بأرضنا. فإن قلت: كيف ساغ لموسى أن يعمل بقول امرأة وأن يمشي معها وهي أجنبية قلت: أما العمل بقول امرأو فكما يعمل بقول الواحد حراً كان أو عبداً ذكراص كان أو أنثى في الأخبار وما كانت إلا مخبرة عن أبيها بأنه يدعوه ليجزيه. وأما مماشاته امرأة أجنبية فلا بأس بها في نظائر تلك الحجال مع ذلك الاحتياط والتورع. فإن قلت: كيف صح له أخذ الأجر على البر والمعروف قلت: يجوز أن يكون قد فعل ذلك لوجه الله وعلى سبيل البر والمعروف. وقيل إطعام شعيب وإحسانه لا على سبيل أخذ الأجر ولكن على سبيل التقبل لمعروف مبتدأ. كيف وقد قص عليه قصصه وعرفه أنه من بيت النبوة منأولاد يعقوب ومثله حقيق بأن يضيف ويكرم خصوصاً في دار نبي من أنبياء الله وليس بمنكر أن يفعل ذلك لاضطرار الفقر والفاقة طلباً للأجر. وقد روي ما يعضد كلا القولين: روي أنها لما قالت: ليجزيك كره ذلك ولما قدم إليه الطعام امتنع وقال: إنا اهل بيت لا نبيع ديننا بطلاع الأرض ذهباً ولا نأخذ على المعروف ثمناً حتى قال شعيب: هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا. وعن عطاء ابن السائب: رفع صوته بدعائه ليسمعهما فلذلك قيل له: ليجزيك أجر ما سقيت أي جزاء سقيك. والقصص: مصدر كالعلل سمي به المقصوص. كبراهما: كانت تسمى صفراء والصغرى: صفيراء وصفراء: هي التي ذهبت به وطلبت إلى أبيها أن يستأجره وهي التي تزوجها. وعن ابن عباس: أن شعيباً أحفظته الغيرة فقال: وما علمك بقوته وأمانته فذكرت إقلال الحجر ونزع الدلو وأنه صوب رأسه حين بلغتع رسالته وأمرها بالمشي خلفه. وقولها {إن خير من استجرت القوي الأمين} كلام حكيم جامع لا يزاد عليه لأنه إذا اجتمعت

هاتان الخصلتان أعني الكفاية والأمانة في القائم بأمرك فقد فرغ بالك وتك مرادك وقد استغنت بإرسال هذا الكلام الذي سياقه سياق المثل والحكمة أن تقول استأجره لقوته وأمانته. فإن قلت: كيف جعل خير من استأجرت اسماً لإن والقوي الأمين خبراً قلت: هو مثل قوله:

ألا إن خـير الـنـاس حـياً وهـالـكـــاً** أسير ثقيف عـنـدهـم فـي السلاسل

في أن العناية هي سبب التقديم وقد صدقت حتى جعل لها ما هو أحق بأن يكون خبراً اسماً وورود الفعل بلفظ الماضي للدلالة على أنه أمر قد جرب وعرف. ومنه قولهم: أهون ما أعلمت لسان ممخ. وعن ابن مسعود ضي الله عنه: أفرس الناس ثلاثة: بنت شعيب وصاحب يوسف في قوله {عسى أن ينفعنا} [يوسف: 21] وأبو بكر في عمر. روي أنه أنكحه صفراء.

وقوله {هاتين} فيه دليل على أنه كانت له غيرهما {تأجرني} من أجرته إذا كنت له أجيراً كقولك: أبوته إذا كنت له أبا و{ثماني حجج} ظرفه. أو من أجرته كذا إذا أثبته إياه. ومنه: تعزيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: أجركم الله ورحمكم. وثماني حجج: مفعول به ومعناه: رعية ثماني حجج فإن قلت: كيف صح أن ينكحه إحدى ابنتيه من غير تمييز قلت: لم يكن ذلك عقداً للنكاح ولكن مواعدة ومواصفة أمر قد عزم عليه ولو كان عقداً لقال: قد أنكحتك ولم يقل: إني أريد أن أنكحك.

فإن قلت: فكيف صح أن يمهرها إجازة نفسه في رعية الغنم ولا بد من تسليم ما هو مال ألا ترى إلى أبي حنيفة كيف منع أن يتزوج امرأة بأن يخدمها سنة وجوز أن يتزوجها بأن يخدمها عبده سنة أو يسكنها داره سنة لأنه في الأول: مسلم نفسه وليس بمال وفي الثاني: هو مسلم مالاً وهو العبد أو الدار قلت: الأمر على مذهب أبي حنيفة على ما ذكرت. وأما الشافعي: فقد جوز التزوج على الإجارة لبعض الأعمال والخدمة إذا كان المستأجر له أو المخدوم فيه أمراً معلوماً ولعل ذلك كان جائزاً فيتلك الشريعة ويجوز أن يكون المهر شيئاً آخر وإنما أراد أن يكون راعي غنمة هذه المدة وأراد أن ينكحه ابنته فذكر له المرادين وعلق الإنكاح بالرعية على معنى: إني أفعل هذا إذا فعلت ذاك على وجه المعاهدة لا على وجه المعاقدة. ويجوز أن يستأجره لرعية ثماني سنين بمبلغ معلوم ويوفيه إياه ثم ينكحه ابنته به ويجعل قوله {على أن تأجرني ثماني حجج} عبارة عما جرى بينهما {فإن أتممت} عمل عشر حجج {فمن عندك} فإتمامه من عندك. ومعناه: فهو من عندك لآ من عندي يعني: ألزمكه ولا أحتمه عليك ولكنك إن فعلته فهو منك تفضل وتبرع وإلا فلا عليك {وما أريد أن أشق عليك} بإلزام أتم الأجلين وغيجابه. فإن قلت: ما حقيقة قولهم: شققت عليه وشق عليه الأمر قلت: حقيقته أن الأمر إذا تعاظمك فكأنه شق عليك ظكط باثنين تقول تارة: أطيقه وتارة: لا أطيقه. أو وعده المساهلة والمسامحة من نفسه وأنه لا يشق عليه فيما استأجره له من رعي غنمه ولا يفعل نحو ما يفعل المعاسرون من المتسرعين من المناقشة في مراعاة الأوقات والمداقة في استيفاء الأعمال وتكليف الرعاة أشغالاً خارجة عن حد الشرط وهكذا كان الأنبياء عليهم السلام آخذين بالأسمع في معاملات الناس. ومنه الحديث: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم شريكي فكان خير شريك لا يداري ولا يشاري ولا يماري وقوله {ستجدني إن شاء الله من الصالحين} يدل على ذلك يريد بالصلاح: حسن المعاملة ووطأة الخلق ولين الجانب. ويجوز أن يريد الصلاح: الاتكال على توفيقه فيه ومعونته لا أنه يستعمل الصلاح إن شاء الله وإن شاء استعمل خلافه {ذلك} مبتدأ و{بيني وبينك} خبره وهو إشارة إلى ما عاهده عليه شعيب ويريد. ذلك الذي قلته وعاهدتني فيه وشارطجتنب عليه قائم بيننا جميعاً لا نخرج كلانا عنه لا أنا عما شرطت علي ولا أنت عما شرطت على نفسك. ثم قال: أي أجل من الأجلين قضيت: أطولهما الذي هو العشر أو أقصرهما الذي هو الثمان {فلا عدوان علي} أي لا يعتدى علي

في طلب الزيادة عليه. فإن قلت: تصور العدوان إنما هو في أحد الأجلين الذي هو الأقصر وهو المطالبة بتتمة العشر فما معنى تعليق العدوان بهما جميعاً قلت: معناه كما أنى إن طولبت بالزيادة على العشر كان عدواناً لا شك فيه فكذلك إن طولبت بالزيادة على الثمان. أراد بذلك تقرير أمر الخيار وأنه ثابت مستقر وأن الأجلين على السواء: إما هذا وإما من غير تفاوت بينهما في القضاء وأما التتمة فمركولة إلى رأيي: إن شئت أتيت بها وإلا لم أجبر عليها. وقيل: معناه فلا أكون متعدياً وهو في نفي العدوان عن نفسه كقولك: لاإثم علي ولا تبعه علي. وفي قراءة ابن مسعود: أي الأجلين ما قضيت. وقرئ: أيما بسكون الياء كقوله:

تنظـرت نـصـراً والـسـمـاكـين أيهـمـا** علي من الغـيث اسـتـهـلـت مواطرة

وعن ابن قطيب: عدوان بالكسر. فإن قلت: ما الفرق بين موقعي ما المزيدة في القراءتين قلت: وقعت في المستفيضة مؤكدة لإبهام أي: زائدة في شياعها: وفي الشاة تأكيداً للقضاء كأنه قال: أي الأجلين صممت على قضائه وجردت عزيمتي له. الوكيل: الذي وكل إليه الأمر ولما استعمل في موضع الشاهد والمهيمن والمقيت عدي بعلى لذلك. روي أن شعيباً كانت عنده عصى الأنبياء فقال لموسى بالليل: ادخل ذلك البيت فخذ عصا من تلك العصي. فأخذ عصا هبط بها آدم من الجنة ولم يزل الأنبياء يتوارثونها حتى وقعت إلى شعيب فمسها - وكان مكفوفاً فضن بها فقال: غيرها فما وقع في يده إلا هي سبع مرات فعلم أن له شأنا. وقيل: اخذها جبريل بعد موون آدم بنته أن ت - أتيه بعصا فأتته بها فردها سبع مرات فلم يقع في يدها غيرها فدفعها إليه ثم ندم لأنها وديعة فتبعه فاختصما فيها ورضيا أن يحكم بينهما أول طالع فأتاهما الملك فقال: القياها فمن رفعها فهي له فعالجها الشيخ فلم يطقها ورفعها موسى.

وعن الحسن: ما كانت إلا عصا من الشجر اعترضها اعتراضاً. وعن الكلبي: الشجرة التي منها نودي شجرة العوسج ومنها كانت عصاه. ولما أصبح قال له شعيب: إذا بلغت مفرق الطريق فلا تأخذ الغنم ذات اليمين ولم يقدر على كفها فمشى على أثرها فإا عشب وريف لم ير مثله فنام فإذا بالتنين قد أقبل فحاربته العصا حتى قتله وعادت إلى جنب موسى دامية فلما أبصرها دامية والتنين مقتولاً ارتاح لذلك ولما رجع إلى شعيب مس الغنم فوجها ملأى البطون غزيرة اللبن فاخبره موسى ففرح وعلم أن لموسى والعصا شأنا وقال له: إني وهبت لك من نتاج غنمي هذا العام كل أدرع ودرعاء فأوحى إليه في المنام: أن أضرب بعصاك مستقى الغنم ففعل ثم سقى فما أخطأت واحدة إلا وضعت أدرع ودرعاء فوفى له بشرطه.

{فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جتانب الطور ناراً قال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بخبر او جذوة من النار لعلكم تصطلون فلما أتاها نودي من شاطى الواد الأيمن في البقعة المباركو من الشجرة ا يا موسى إني أنا الله رب العالمين وأن ألق عصاك فملا رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الأمنين اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملإيه إنهم كانوا قوماً فاسقين} شئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الجلين قضى موسى فقال: أبعدهما وأبطأهما وروي أنه قال: قضى أوفاهما وتزوج صغراهما وهذا خلاف الرواية التي سبقت. الجذوة - باللغات الثلاث. وقرئ بهن جميعاً: العود الغليظ كانت في رأسه نار أو لم تك قال كثير:

باتت حـواطب ليلى يلتمسن لها ** جـزل الـجـذى غـير خـوار ولا دعــر

وألقى على قبس من النار جـذوة** شديداً عـلـيه حـرهـا والـتهابـهـــا

{من} الأولى والثانية لابتداء الغاية أي: أتاه النداء منشاطئ الوادي من قبل الشجرة و{من الشجرة} بدل من قوله: منشاطئ الوادي بدل الاشتمال لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطئ كقوله تعالى {لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم} [الزخرف: 33] وقرئ {البقعة} بالضم والفتح.

و{الرهب} بفتحتين وضمتين وفتح وسكون وضم وسكون: وهو الخوف. فإن قلت: ما معنى قوله {واضمم إليك جناحك من الرهب} قلت: فيه معنيان أحدهما: أن موسى عليه السلام لما قلب الله العصا حية: فزع واضطرب فاتقاها بيده كما يفعل الخائف من الشيء فقيل له:

إن إتقءك بيدك فيه غضاضة عند الأعداء. فإذا ألقيتها فكما تنقلب حية فأدخل يدك تحت عضدك مكان اتقائك بها ثم أخرجها بيضاء ليحصل الأمران: اجتناب ما هو غضاضة عليك وإظهار معجزة أخرى. والمراد بالجناح: اليد لأن يدي الإنسان بمنزلة جناحي الطائر. وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضد يده اليسرى فقد ضم جناحه إليه. والثاني: أن يراد بضم جناحه إليه: تجلده وضبطه نفسه. وتشدده عند انقلاب العصا حية حتى لا يضطرب ولا يرهب استعارة من فعل الطائر لأنه إذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما. وإلا فجناحاه مضمومتان إليه مشمران. ومنه ما يحكى عن عمر بن عبد العزيز أن كاتباً له كان يكتب بين يديه فانفلتت منه فلتة ريح فخجل وانكسر فقام وضرب بقلمه الأرض فقال له عمر: خذ قلمك واضمم إليك جناحك وليفرخ روعك فإني ما سمعتها من أحد أكثر مما سمعتها من نفسي. ومعنى قوله: {من الرهب} من أجل الرهب أي: إذا أصابك الرهب عند رؤية الحية فاضمم إليك جناحك: جعل الرهب الذي كان يصيبه سبباً وعلة فيما أمر به من ضم جناحه إليه. ومعنى {واضمم إليك جناحك} وقوله {اسلك يدك في جيبك} على أحد التفسيرين: واحد. ولكن خولف بين العبارتين وإنما كرر المعنى الواحد لاختلاف الغرضين وذلك أن الغرض في أحدهما خروج اليد بيضاء وفي الثاني: إخفاء الرهب. فإن قلت قد جعل الجناح وهو اليد في أحد الموضعين مضموماً وفي الآخر مضموماً إليه وذلك قوله {واضمم إليك جناحك} وقوله {واضمم يدك إلى جناحك} [طه: 22] فما التوفيق بينهما قلت: المراد بالجناح المضموم. هو اليد اليمنى وبالمضموم إليه: اليد اليسرى وكل واحد من يمنى اليدين ويسراهما: جناح. ومن بدع التفاسير: أن الرهب: الكم بلغة حمير وأنهم يقولون: أعطني مما في رهبك وليت شعري كيف صحته في اللغة وهل سمع من الأثبات الثقات الذين ترتضي عربيتهم ثم ليت شعري كيف موقعه في الآية وكيف تطبيقه المفصل كسائر كلمات التنزيل على أن موسى عليه السلام ما كان علية ليلة المناجاة إلا زرمانقة من صوف لا كمي لها {فذانك} فرئ مخففاً ومشدداً فالمخفف مثنى ذاك. والمشدد مثنى ذلك {برهانان} حجتان بينتان نيرتان. فإن قلت: لم سميت الحجة برهانا قلت: لبياضها وإنارتها من قولهم للمرأة البيضاء. برهرهة بتكرير العين واللام عما. والدليل على زيادة النون قولهم: أبره الرجل إذا جاء بالبرهان. ونظيره تسميتهم إياها سلطانا من السليط وهو الزيت لإنارتها.

{قال رب إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردأ يصدقني إني أخاف أن يكذبون} يقال: ردأته: أعنته. والردء: اسم ما يعان به فعل بمعنى مفعول كما أن الدفء اسم لما يدفأ به. قال سلامة بن جندل:

وردئي كـل أبـيض مــشــرفــي** شحـيذ الـحـد عـضـب ذي فـلـول

وقرئ: (رداُ) علي التخفيف كما قرئ (الخب)} رداء يصدقني} بالرفع والجزم صفة وجواب نحو} ولياً يرثني} سواء. فإن قلت: تصديق أخيه ما الفائدة فيه قلت: ليس الغرض بتصديقه أن يقول له: صدقت أو يقول للناس: صدق موسى وإنما هو أن يلخص

بلسانه الحق ويبسط القول فيه ويجادل به الكفار كما يفعل الرجل المنطيق ذو العارضة فذلك جار مجرى التصديق المفيد كما يصدق القول بالبرهان. ألا ترى إلى قوله: {وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي} وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لذلك لا لقوله: صدقت فإن سحبان وباقلا يستويان فيه أو يصل جناح كلامه بالبيان حتى يصدقه الذي يخاف تكذيبه فأسند التصديق إلى هرون لأنه السبب فيه إسناداً مجازياً. ومعنى الإسناد المجازي: أن التصديق حقيقة في المصدق فإسناده إليه حقيقة وليس في السبب تصديق ولكن استعير له الإسناد لأنه لابس التصديق بالتسبب كما لابسه الفاعل بالمباشرة. والدليل على هذا الوجه قوله {إني أخاف أن يكذبون} وقراءة من قرأ: (ردآ يصدقوني). وفيها تقوية للقراءة بجزم يصدقني.

{قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون}
العضد: قوام اليد وبشدتها تشتد. قال طرفة:

أبـنـي لـبـيـني لـسـتـمـو بـيد** إلا يداً لـيسـت لـهـا عـضــد

ويقال في دعاء الخير: شد الله عضدك. وفي ضده فت الله في عضك. ومعنى {سنشد عضدك بأخيك} سنقويك به ونعينك فإما أن يكون ذلك لأن اليد تشتد بشدة العضد. والجملة تقوى بشدة اليد على مزاولة الأمور. وإما لأن الرجل شبه باليد في اشتدادها باشتداد العضد فجعل كأنه يد مشتدة بعضد شديدة {سلطاناً} غلبة وتسلطا. أو حجة واضحة {بآياتنا} متعلق بنحو ما تعلق به في تسع آيات أي اذهبا بآياتنا. أو بنجعل لكما سلطانا أي: نسلطكما بآياتنا. أو بلا يصلون أي: تمتنعون منهم بآياتنا. أو هو بيان للغالبون لا صلة لامتناع تقدم الصلة علي الموصول. ولو تأخر: لم يكن إلا صله له. ويجوز أن يكون قسماً جوابه: لا يصلون مقدماً عليه. أو من لغو القسم.

{فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين}
{سحر مفترى} سحر تعمله أنت ثم تفتريه على الله. أو سحر ظاهر افتراؤه. أو موصوف بالافتراء كسائر أنواع السحر وليس بمعجزة من عند الله {في آياتنا} حال منصوبة عن هذا أي: كائناً في زمانهم وأيامهم يريد: ما حدثنا بكونه فيهم ولا يخلو من أن يكونوا كاذبين في ذلك وقد سمعوا وعلموا بنحوه. أو يريدوا أنهم لم يسمعوا بمثله في فظاعته. أو ما كان الكهان يخبرون بظهور موسى ومجيئه بما جاء به. وهذا دليل على أنهم حجوا وبهتوا وما وجدوا ما يدفعون به ما جاءهم من الآيات إلا قولهم هذا سحر وبداعة لم يسمعوا بمثلها.

{وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون}
يقول {ربي أعلم} منكم بحال من أهله الله للفلاح الأعظم حيث جعله نبياً وبعثه بالهدى ووعده حسن العقبي: يعني نفسه ولو كان كما تزعمون كاذباً ساحراً مفترياً لما أهله لذلك لأنه غني حكيم لا يرسل الكاذبين ولا ينبئ الساحرين ولا يفلح عنده الظالمون. و{عاقبة الدار} هي العاقبة المحمودة. والدليل عليه قوله تعالى {أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن} [الرعد: 22 - 23] وقوله {وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار} [الرعد: 42] والمراد بالدار: الدنيا وعاقبتها وعقباها: أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان وتلقي الملائكة بالبشرى عند الموت. فإن قلت: العاقبة المحمودة والمذمومة كلتاهما يصح أن تسمى عاقبة الدار لأن الدنيا إما أن تكون خاتماها بخير أو بشر فلم اختصت خاتماها بالخير بهذه التسمية دون خاتماها بالشر قلت: قد وضع الله سبحانه الدنيا مجازاً إلى الآخرة وأراد بعباده أن لا يعملوا فيها إلا الخير وما خلقهم إلا لأجله ليتلقوا خاتمة الخير وعاقبة الصدق ومن عمل فيها خلاف ما وضعها الله فقد حرف فإذا عاقبتها الأصلية هي عاقبة الخير. وأما عاقبة السوء فلا اعتداد بها لأنها من نتائج تحريف الفجار. وقرأ ابن كثير: (قال موسى) بغير واو

على ما في مصاحف أهل مكة وهي قراءة حسنة لأن الموضع سؤال وبحث عما أجابهم به موسى عليه السلام عند تسميتهم مثل تلك الآيات الباهرة: سحراً مفترى. ووجه الأخرى: أنهم قالوا ذلك. وقال موسى عليه السلام هذا وبضدها تتبين الأشياء وقرئ: (تكون) بالياء والتاء.

{وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين} روى أنه لما أمر ببناء الصرح جمع هامان العمال حتى اجتمع خمسون ألف بناء سوى الأتباع والأجراء وأمر بطبخ الآجر والجص ونجر الخشب وضرب المسامير فشيدوه حتى بلغ ما لم يبلغه بنيان أحد من الخلق فكان الباني لا يقدر أن يقف على رأسه يبني فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام عند غروب الشمس فضربه بجناحه فقطعه ثلاث قطع: وقعت قطعة على عسكر فرعون فقتلت ألف ألف رجل ووقعت قطعة في البحر وقطعة في المغرب ولم يبق أحد من عماله إلا قد هلك. ويروى في هذه القصة: أن فرعون ارتقى فوقه فرمى بنشابة نحو السماء فأراد الله أن يفتنهم فردت إليه وهي ملطوخة بالدم فقال: قد قتلت إله موسى فعندها بعث الله جبريل عليه السلام لهدمه والله أعلم بصحته. قصد بنفي علمه بإله غيره: نفي وجوده معناه {ما لكم من إله غيري} [الأعراف: 59] كما قال الله تعالى {قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض} [يونس: 18] معناه بما ليس فيهن وذلك لأن العلم تابع للمعلوم لا يتعلق به إلا على ما هو عليه فإذا كان الشيء معدوماً لم يتعلق به موجود فمن ثمة كان انتفاء العلم بوجوده لا انتفاء وجوده. وعبر عن انتفاء وجوده بانتفاء العلم بوجوده. ويجوز أن يكون على ظاهره وأن إلهاً غيره غير معلوم عنده ولكنه مظنون بدليل قوله {وإني لأظنه من الكاذبين} وإذا ظن موسى عليه السلام كاذباً في إثباته إلهاً غيره ولم يعلمه كاذباً فقد ظن أن في الوجود إلهاً غيره ولو لم يكن المخذول ظاناً ظناً كاليقين بل عالماً بصحة قول موسى عليه السلام لقول موسى له {لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر} [الإسراء: 102] لما تكلف ذلك البنيان العظيم ولما تعب في بنائه ما تعب لعله يطلع بزعمه إلى إله موسى عليه السلام وإن كان جاهلاً مفرط الجهل به وبصفاته حيث حسب أنه في مكان كما كان هو في مكان وأنه يطلع إليه كما كان يطلع إليه إذا قعد في عليته وأنه ملك السماء كما أنه ملك الأرض. ولا ترى بينة أثبت شهادة على إفراط جهله وغباوته وجهل ملئه وغباوتهم: من أنهم راموا نيل أسباب السموات بصرح يبنونه وليت شعري أكان يلبس على أهل بلاده ويضحك من عقولهم حيث صادفهم أغبى الناس وأخلاهم من الفطن وأشبههم بالبهائم بذلك أم كان في نفسه بتلك الصفة وإن صح ما حكى من رجوع النشابة إليه ملطوخة بالدم فتهكم به بالفعل كما جاء التهكم بالقول في غير موضع من كتاب الله بنظرائه من الكفرة. ويجوز أن يفسر الظن فقلت لهم ظنوا بألفي مدجج ويكون بناء الصرح مناقضة لما ادعاه مع العلم واليقين وقد خفضت على قومه لغباوتهم وبلههم. أو لم تخف عليهم ولكن كلا كان يخاف على نفسه سوكه وسيفه وإنما قال {فأوقد لي يا هامان على الطين} ولم يقل: اطبخ لي الآجر واتخذه لأنه أول من عمل الآجر فهو يعلمه الصنعة ولأن هذه العبارة أحسن طباقاً لفصاحة القرآن وعلو طبقته وأشبه بكلام الجبابرة. وأمر هاتان وهو وزيره ورديف بالإيقاد على الطين منادى باسمه بيا في وسط الكلام. دليل التعظيم والتجبر. وعن عمر رضي الله عنه أنه حين سافر إلى الشام ورأى القصور المشيدة بالآجر فقال: ما علمت أن أحداً بنى بالآجر غير فرعون. والطلوع والإطلاع: الصعود. يقال: طلع الجبل وأطلع: بمعنى.

{وأستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون فأخذناه وجنوده فنبذهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين} الاستكبار بالحق إنما هو الله تعالى وهو المتكبر على الحقيقة أي: المتبالغ في كبرياء الشأن. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما حكى عن ربه {الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في النار ". وكل مستكبر سواه فاستكباره بغير الحق {يرجعون} بالضم والفتح

{فأخذناه وجنوده فنبذهم في اليم} من الكلام الفخم الذي دل به على عظمة شأنه وكبرياء سلطانه. شبههم استحقاراً لهم واستقلالاً لعددهم وإن كانوا الكثر الكثير والجم الغفير بحصيات أخذهن آخذ في كفه فطرحهن في البحر.

ونحو ذلك قوله {وجعلنا فيها رواسي شامخات} [المرسلات: 27] {وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة} [الحاقة: 14] {وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه} [الزمر: 67] وما هي إلا تصويرات وتمثيلات لاقتداره وأن كل مقدور وإن عظم وجل فهو مستصغر إلى جنب قدرته.

{وجعلهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويم القيامة هم من المقبوحين} فإن قلت: ما معنى قوله: {وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار} قلت معناه: ودعوناهم أئمة دعاة إلى النار وقلنا: إنهم أئمة دعاة إلى النار كما يدعى خلفاء الحق أئمة دعاة إلى الجنة. وهو من قولك: جعله بخيلاً وفاسقاً إذا دعاه وقال: إنه بخيل وفاسق. ويقول أهل اللغة في تفسير فسقه وبخله: جعله بخيلاً وفاسقاً. ومنه قوله تعالى {وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً} [الزخرف: 19] ومعنى دعوتهم إلى النار: دعوتهم إلى موجباتها من الكفر والمعاصي: {ويوم القيامة لا ينصرون} كما ينصر الأئمة الدعاة إلى الجنة. ويجوز: خذلناهم حتى كانوا أئمة الكفر.

ومعنى الخذلان: منع الألطاف وإنما يمنعهما من علم أنها لا تنفع فيه وهو المصمم على الكفر الذي لا تغنى عنه الآيات والنذر ومجراه ومجرى الكناية لأن منع الألطاف يردف التصميم والغرض بذكره: التصميم نفسه فكأنه قيل: صمموا على الكفر حتى كانوا أئمة فيه دعاة إليه وإلى سوء عاقبته. فإن قلت: فأي فائدة في ترك المردوف إلى الرادفة قلت: ذكر الرادفة يدل على وجود المردف فيعلم وجود المردوف مع الدليل الشاهد بوجوده فيكون أقوى لإثباته من ذكره. ألا ترى أنك تقول: لولا أنه مصمم على الكفر مقطوع أمره مثبوت حكمه لما منعت منه الألطاف فبذكر منع الألطاف يحصل العلم بوجود التصميم على الكفر وزيادة وهو قيام الحجة على وجود. وينصر هذا الوجه قوله {ويوم القيامة لا ينصرون} كأنه قيل: خذلناهم في الدنيا وهم يوم القيامة مخذولون كما قال {وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة} أي طرداً وإبعاداً عن الرحمة {ويوم القيامة هم من المقبوحين} أي المطرودين المبعدين.

{ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون} {بصائر} نصب على الحال. والبصيرة: نور القلب الذي ستبصر به كما أن البصر نور العين الذي تبصر به يريد آتيناه التوراة أنواراً للقلوب لأنها كانت عمياء لا تتبصر ولا تعرف حقاً من باطل. وإرشاداً لأنهم كانوا يخبطون في ضلال {ورحمة} لأنهم لو عملوا بها وصلوا إلى نيل الرحمة {لعلهم يتذكرون} إرادة أن يتذكروا شبهت الإرادة بالترجي فاستعير لها. ويجوز أن يراد به ترجى موسى عليه السلام لتذكرهم كقوله تعالى {لعله يتذكر} [طه: 44].

{وما كنت بجانب الغربي إذا قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين} {الغربي} المكان الواقع في شق الغرب وهو المكان الذي وقع فيه ميقات موسى عليه السلام من الطور وكتب الله له في الألواح. والأمر المقضى إلى موسى عليه السلام: الوحى الذي أوحى غليه وهم نقباؤه الذين اختارهم للميقاته. وكتبة التوراة له في اللواح وغير ذلك.

{ولكنا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلوا عليهم آيتنا ولكنا كنا مرسلين} فإن قلت: كيف يتصل قوله {ولكنا أنشأنا قروناً} بهذا الكلام ومن أي وجه يكون استراكاً له قلت: اتصاله به وكونه استدراكاً له من حيث أن معناه: وكلنا أنشأنا بعد عهد الوحي إلى عهدك قروناً كثيرة {فتطاول} على آخرهم: وهو القرن الذي أنت

فيهم {العمر} أي أمد انقطاع الوحي واندست العلوم فوجب إرسالك إليهم فأرسلناك وكسبناك العلم بقصص الأنبياء وقصة موسى عليهم السلام كأنه قال: وما كنت شاهداً لموسى وما جرى عليه ولكنا أوحينا إليك. فذكر سبب الوحي الذي هو إطالة الفترة ودل به على المسب على عادة الله عز وجل في اختصاراته فإذا هذا الإستدراك شبيه الاستدراكين بعده {وما كنت ثاوياً} أي مقيماً {في أهل مدين} وهم شعيب والمؤمنون به {تتلوا عليهم آياتنا} تقرؤها عليهم تعلماً منهم يريد: الآيات التي فيها قصة شعيب وقومه ولكنا أرسلناك وأخبرناك بها وعلمناكما.

{وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون} {إذ نادينا} يريد مناداة موسى عليه السلام ليلة المناجاة وتكلمه و{لكن} علمناك {رحمة} وقرئ: رحمة بالرفع: أي هي رحمة {ما أتاهم} من نذير في زمان الفترة بينك وبين عيسى وهي خمسمائة وخمسون سنة ونحوه قوله {لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم} يس: 6.

{ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آيتك ونكون من المؤمنين} {لولا} الأولى امتناعه وجوابها محذوف والثانية تحضيضية وإحدى الفاءين للعطف والأخرى جواب لولا لكونها في حكم الأمر من قبل أن الأمر باعث على الفعل والباعث والمحضض من واد واحد. والمعنى: ولولا أنهم قائلون إذا عوقبوا بما قدموا من الشرك والمعاصي: هلا أرسلت إلينا رسولاً محتجبين علينا بذلك: لما أرسلنا إليهم يعنى: أن إرسال الرسول إليهم إنما هو ليلزموا الحجة ولا يلزمونها كقوله {لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل}[النساء: 165] {أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير} [المائدة: 19] {لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آيتك}.

فإن قلت: كيف استقام هذا المعنى وقد جعلت العقوبة هي السبب في الإرسال لا القول لدخول حرف الامتناع عليها دونه قال: القول هو المقصود بأن يكون سبباً لإرسال الرسل ولكن العقوبة لما كانت في السبب للقول وكان وجوده بوجودها جعلت العقوبة كأنها سبب الإرسال بواسطة القول فأدخلت عليها لولا وجئ بالقول معطوفاً عليها بالفاء المعطية معنى السببية ويؤول معناه إلى قولك: ولولا قولهم هذا إذا أصابتهم مصيبة لما أرسلنا ولكن اختيرت هذه الطريقة لنكته: وهي أنهم لو لم يعاقبوا مثلاً على كفرهم وقد عاينوا ما ألجئوا به إلى العلم اليقين: لم يقولوا {لولا أرسلت إلينا رسولا} وإنما السبب في قولهم الشهادة القوية على استحكام كفرهم ورسوخه فيهم مالا يخفى كقوله تعالى {ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه} [الأنعام: 28] ولما كانت أكثر الأعمال تزاول بالأيدي: جعل كل عمل معبراً عنه باجتراح الأيدي وتقدم الأيدي وإن كان من أعمال القلوب وهذا من الاتساع في الكلام وتصيير الأقل تابعاً للأكثر وتغليب الأكثر على الأقل.

{فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون} {فلما جاءهم الحق} وهو الرسول المصدق بالكتاب المعجز مع سائر المعجزات وقطعت معاذيرهم وسد طريق احتجاجهم {قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى}: من الكتاب المنزل جملة واحدة ومن قلب العصا حية وفلق البحر وغيرهما من الآيات فجاءوا بالإقتراحات المبنية على التعنت والعناد كما قالوا: لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك وما أشبه ذلك {أولم يكفروا} يعنى أبناء جنسهم ومن مذهبهم مذهبهم وعنادهم عنادهم وهم الكفرة في زمن موسى عليه السلام {بما أوتي موسى} وعن الحسن رحمه الله: قد كان العرب أصل في أيام موسى عليه السلام فمعناه على هذا: أو لم يكفر آباؤهم {قالوا} في موسى وهرون {سحران تظاهرا} أي تعاونا. وقرئ {إظهاراً} على الإدعام. وسحران. بمعنى ذوا سحر. أو جعلوهما سحرين مبالغة في وصفهما بالسحر. أو أرادوا نوعان من السحر {بكل} بكل واحد منهما. فإن

قلت: بم علقت قوله من قبل في هذا التفسير قلت: ب أولم يكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن فقد كفروا بموسى عليه السلام وبالتوراة وقالوا في موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام: ساحران تظاهرا. أو في الكتابين: سحران تظاهرا وذلك حين بعثوا الرهط إلى رؤساء اليهود بالمدينة يسألونهم عن محمد صلى الله عليه وسلم فأخبرهم أنه نعته وصفته وأنه في كتابهم فرجع الرهط إلى قريش فأخبروهم بقول اليهود فقالوا عند ذلك: ساحران تظاهرا {قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما اتبعه إن كنتم صادقين} {هو أهدى منها} مما أنزل على موسى عليه السلام ومما أنزل على. هذا الشرط من نحو ما ذكرت أنه شرط المدل بالأمر المتحقق لصحته لأن امتناع الإتيان بكتاب أهدى من الكتابين أمر معلوم متحقق لا مجال فيه للشك. ويجوز أن يقصد بحرف الشك: التهكم بهم.

{فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين} فإن قلت: ما الفرق بين فعل الإستجابة في الآية وبينه في قوله: فلم يستجبه عند ذاك مجيب حيث عدى بغير اللام قلت: هذا الفعل يتعدى إلى الدعاء بنفسه وإلى الداعي باللام ويحذف الدعاء إذا عدي إلى الداعي في الغلب فيقال استجاب الله دعاءه أو استجابه له ولا يكاد يقال: استجاب له دعاءه. وأما البيت فمعناه: فلم يستجب دعاءه على حذف المضاف. فإن قلت: فالإستجابة تقتضى دعاء إليه فكأنه قال: فإن لم يستجيبوا دعاءك إلى الإتيان بالكتاب الأهدى فاعلم أنهم قد ألزموا ولم يبق لهم حجة إلا اتباع الهوى ثم قال {ومن أضل منن} لا يتبع في دينه إلا {هواه بغير هدى من الله} أي مطبوعاً على قلبه ممنوع الألطاف {إن الله يهدي} أي لا يلطف بالقوم الثابتين على الظلم الذين اللاطف بهم عابث. وقوله بغير هدى في موضع الحال يعنى مخذولاً مخلى بينه وبين هواه.

{ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون} قرئ {وصلنا} بالتشديد والتخفيف. والمعنى: أن القرآن أتاهم متتابعاً متواصلاً وعداً ووعيداً وقصصاً وعبراً وموعظ ونصائح: إرادة أن يتذكروا فيفلحوا. أو نزل عليهم نزولاً متصلاً بعضه في أثر بعض. كقوله: {وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين} [الشعراء: 5] {الذين آتيناهم الكتاب من قبله به يؤمنون} نزلت في مؤمني أهل الكتاب وعن رفاعة بن قرظة: نزلت في عشرة أنا أحدهم. وقيل: في أربعين من مسلمي أهل الإنجيل: اثنان وثلاثون جاؤوا مع جعفر من أرض الحبشة وثمانية من الشام والضمير في} من قبله} للقرآن.

{وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين} فإن قلت: أي فرق بين الاستئنافين إنه وإنا قلت: الأول تعليل للإيمان به لأن كونه حقاً من الله حقيق بأن يؤمن به. والثاني: بيان بيان لقوله {آمنا به} لأنه يحتمل أن يكون إيماناً قريب العهد وبعيده فأخبروا أن إيمانهم به متقادم لأن آباءهم القدماء قرؤوا في الكتب الأول ذكره وأبناءهم من بعدهم {من قبله} من قبل وجوده ونزوله {مسلمين} كائنين على دين الإسلام لأن الإسلام صفة كل موحد مصدق للوحي.

{أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون} {بما صبروا} بصبرهم على الإيمان بالتوراة والإيمان بالقرآن. أو بصبرهم على الإيمان بالقرآن قبل نزوله وبعد نزوله. أو بصبرهم على أذى المشركين وأهل الكتاب. ونحو {يؤتكم كفلين من رحمته} [الحديد: 28] {بالحسنة السيئة} بالطاعة المعصية المتقدمة. أو بالحلم الأذى.

{وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين} {سلام عليكم} توديع ومتاركة. وعن الحسن رضى الله عنه: كلمة حلم من المؤمنين {لا

نبتغي الجاهلين} لا نريد مخالتهم وصحبتهم فإن قلت: من خاطبوا بقولهم {ولكم أعمالكم} قلت: اللاغين الذين دل عليهم قوله {وإذا سمعوا اللغو}.

{إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين} {لا تهدي من أحببت} لا تقدر أن تدخل في الإسلام كل من أحببت أن يدخل فيه من قومك وغيرهم لأنك عبد لا تعلم المطبوع على قلبه من غيره {ولكن الله} يدخل في الإسلام {من يشاء} وهو الذي علم أنه غير مطبوع على قلبه وأن الألطاف تنفع فيه فيقرن به ألطافه حتى تدعوه إلى القبول {وهو أعلم بالمهتدين} بالقابلين من الذين لا يقبلون. قال الزجاج: أجمع المسلمون أنها نزلت في أبي طالب وذلك أن أبا طالب قال: عند موته: يا معشر بني هاشم أطيعوا محمداً وصدقوه تفلحوا وترشدوا فقال النبي صلى الله عليه وسلم: تأمرهم بالنصيحة لأنفسهم وتدعها لنفسك قال: فما تريد يا ابن أخي قال: أريد منك كلمة واحدة فإنك في آخر يوم من أيام الدنيا: أن تقول لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله. قال: يا ابن أخي قد علمت إنك لصادق ولكني أكره أن يقال: خرع عند الموت ولولا أن تكون عليك وعلى بني أبيك غضاضة ومسبة بعدي لقتلتها ولأقررت بها عينك عند الفراق لما أرى من شدة وجدك ونصيحتك ولكني سوف أموت على ملة الأشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف.

{وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أو لم نمكن لهم حرماً آمنا يجنى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون} قالت قريش وقيل: إن القائل الحرث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف: نحن نعلم أنك الحق ولكنا نخاف إن اتبعناك وخالفناك العرب بذلك - وإنما نحن أكله رأس أي: قليلون - أن يتخطفونا من أرضنا فألقمهم الله الحجر. بأنه مكن لهم في الحرم الذي آمنه بحرمة البيت وآمن قطانه بحرمته وكانت العرب في الجاهلية حولهم يتغاورون ويتناحرون وهم آمنوا في حرمهم لا يخافون وبحرمة البيت هم قارون بواد غير ذي زرع والثمرات والأرزاق تجبى إليهم من كل أوب فإذا خولهم الله ما خولهم من المن والرزق بحرمة البيت وحدها وهم كفرة عبدة أصنام فكيف يستقم أن يعرضهم للتخوف والتخطف ويسلبهم الأمن إذا ضموا إلى حرمة الإسلام وإسناد الأمن إلى أهل الحرم حقيقة وإلى الحرم مجاز {يجبى إليه} تجلب وتجمع. قرئ: بالياء والتاء. وقرئ: تجنى بالنون من الجنى. وتعديته بإلى كقوله: يجنى إلي فيه ويجنى إلى الخافة.

وثمرات: بضمتين وبضمة وسكون. ومعنى الكلية: الكثرة كقوله {وأوتيت من كل شئ} [النمل: 3] {ولكن أكثرهم لا يعلمون} متعلق بقوله {من لدنا} أي قليل منهم يقرون بأن ذلك رزق من عند الله وأكثرهم جهلة لا يعلمون ذلك ولا يفطنون له ولو علموا أنه من عند الله لعلموا أن الخوف والأمن من عنده. ولما خافوا التخطف إذا آمنوا به وخلعوا أنداده. فإن قلت: بم انتصب رزقاً قلت: إن جعلته مصدراً جاز أن ينتصب بمعنى ما قبله لأن المعنى {يجبى إليه ثمرات كل شيء} ويرزق ثمرات كل شئ: واحد وأن يكون مفعولاً له. وإن جعلته بمعنى: مرزوق كان حالاً من الثمرات لتخصصها بالإضافة كما تنتصب عن النكرة المتخصصة بالصفة.

{وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مسكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين} هذا تخويف لأهل مكة من سوء عاقبة قوم كانوا في مثل حالهم من إنعام الله عليهم بالرقود في ظلال الأمن وخفض العيش فغمطوا النعمة وقابلوها بالأشر والبطر فدمرهم الله وخرب ديارهم. وانتصب {معيشتها} إما بحذف الجار وإيصال الفعل كقوله تعالى {واختار موسى قومه} [الأعراف: 155] وإما على الظرف بنفسها كقولك: زيد ظني مقيم. أو بتقدير حذف الزمان المضاف أصله: بطرت أيام معيشتها كخفوق النجم ومقدم الحاج: وإما بتضمن {بطرت} معنى: كفرت وغمكت. وقيل البطر سوء احتمال الغنى: وهو أن لا يحفظ حق الله فيه {إلا قليلاً} من السكنى. قال ابن عباس رضى الله عنهما:

لم يسكنها إلا المسافر ومار الطريق يوماً أو ساعة ويحتمل أن شؤم معاصي المهلكين بقي أثره في ديارهم فكل من سكنيها أي: تركناها على حال لا يسكنها أحد أو خربناها وسويناها بالأرض.

تتخلف الآثار عن أصحابها** حينا ويدركها الفناء فتتبع

{وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً يتلوا عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون} وما كانت عادة ربك أن يعلك القرى في لك وقت {حتى يباعث في} القرية التي هي أمها أي أصلها وقصبتها التي هي أعمالها وتوابعها {رسولا} لإلزام الحجة وقطع المعذرة مع علمه أنهم لا يؤمنون أو وما كان في حكم الله وسابق قضائه أن يهلك القرى في الأرض حتى يبعث في أمر القرى - يعنى مكة - رسولاً وهو محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء. وقرئ: أمها بضم الهمزة وكسرها لاتباع الجر وهذا بيان لعدله وتقدسه عن الظلم حيث أخبر بأنه لا يهلكهم إلا إذا استحقوا الهلاك بظلمهم ولا يهلكهم معه كونهم ظالمين إلا بعد تأكيد الحجة والإلزام ببعثه الرسل ولا يجعل علمه بأحوالهم حجة عليهم ونزه ذاته أن يهلكهم وهم غير ظالمين كما قال تعالى {وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون} [هود: 117] فنص في قوله {بظلم} أنه لو أهلكهم وهم مصلحون لكان ذلك ظلماً منه وأن حاله في غناه وحكمته منافية للظلم دل على ذلك بحرف النفي مع لامه كما قال الله تعالى {وما كان الله ليضع إيمانكم} [البقرة: 143].

{وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعلقون} وأي شئ أصبتموه من أسباب الدنيا فما هو إلا تمتع وزينة أياماً قلائل وهي مدة الحياة المتقضية {وما عند الله} وهو ثوابه {خير} في نفسه من ذلك {وأبقى} لأن بقاءه دائم سرمد وقرئ: يعقلون بالياء وهو أبلغ في الموعظة. وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن الله خلق الدنيا وجعل أهلها ثلاثة أصناف: المؤمن والمنافق والكافر فالمؤمن يتزود والمنافق يتزين والكافر يتمتع {أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين} هذه الآية تقرير وإيضاح للتي قبلها. والوعد الحسن: الثواب لأنه منافع دائمة على وجه التعظيم والإستحقاق وأي شئ أحسن منها ولذلك سمى الله الجنة بالحسنى. و{لاقيه} كقوله تعالى {فكذبوه فإنهم لمحضرون} [الصافات: 127] قيل: نزلت في رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي جهل. وقيل في علي وحمزة وأبي جهل. وقيل: في عمار بن ياسر والوليد بن المغيرة. فإن قلت فسر لي الفاءين وثم واخبرني عن مواقعها. قلت: قد ذكر في الآية التي قبلها متاع الحياة الدنيا وما عند الله وتفاوتهما ثم عقبه بقوله {أفمن وعدناه} على معنى: أبعد هذا التفاوت الظاهر يسوى بين أبناء الآخرة وأبناء الدنيا فهذا معنى الفاء الأولى وبيان موقعها. وأما الثانية فللتسبب: لأن لقاء الموعود مسبب عن الوعد الذي هو الضمان في الخير. وأما ثم فتراخي خال الإحضار عن حال التمتيع لا لتراخي وقته عن وقته. وقرئ: ثم هو بسكون الهاء كما قيل عضد في عضد. تشبيهاً للمنفصل بالمتصل وسكون الهاء في: وهو ولهو: أحسن لأن الحرف الواحد لا {ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين تزعمون} {شركائي} مبنى على زعمهم وفيه تهكم فإن قلت: زعم يطلب مفعولين كقوله: ولم أزعمك عن ذاك معزلا فأين هما قلت: محذوفان تقديره: الذين كنتم تزعمون شركائي. ويجوز حذف المفعولين في باب ظننت ولا يصح الإقتصار على أحدهما.

{قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون} {الذين حق عليهم القول} الشياطين أو أئمة الكفر ورؤوسه. ومعنى حق عليهم القول: وجب عليهم مقتضاه وثبت وهو قوله: {لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين} [هود: 119 السجدة: 13] و{هؤلاء} مبتدأ و{الذين أغوينا} صفته والراجع إلى الموصول

محذوف و{أغويناهم} الخبر والكاف صفة مصدر محذوف تقديره: أغويناهم فغووا غيا مثل ما غوينا يعنون: أنا لم نغو إلا باختيارنا لا أن فوقنا مغوين أغوونا بقسر منهم وإلجاء. أو دعونا إلى الغي وسولوه لنا فهؤلاء كذلك غووا باختيارهم لأن إغواءنا لهم لم يكن إلا وسوسة وتسويلاً لا قسراً وإلجاء فلا فرق إذا بين غينا وغيهم. وإن كان تسويلنا داعياً لهم إلى الكفر فقد كان في مقابلته دعاء الله لهم إلى الإيمان بما وضع فيهم من أدلة العقل وما بعث إليهم من الرسل وأنزل عليهم من الكتب المشحونة بالوعد والوعيد والموعظ والزواجر وناهيك بذلك صارفاً عن الكفر وداعياً إلى الإيمان وهذا معنى ما حكاه الله عن الشيطان {إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم} [ابراهيم: 22] والله تعالى قدم هذا المعنى أو لشئ حيث قال لإبليس {إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين} [الحجر: 42]. {تبرأنا إليك} منهم وما اختاروه من الكفر بأنفسهم هوى منهم للباطل ومقتاً للحق لا بقوة منا على استكراههم ولا سلطان} ما كانوا إيانا يعبدون} إنما كانوا يعبدون أهواءهم ويطيعون شهواتهم. وإخلاء الجملتين من العاطف لكونهما مقررتين لمعنى الجملة الأولى.

{وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون} {لو أنهم كانوا يهتدون} لوجه من وجوه الحيل يدفعون به العذاب. أو لو أنهم كانوا مهتدين مؤمنين لما رأوه. أو تمنوا لو كانوا مهتدين. أو تحيروا عند رؤيته وسدروا فلا يهتدون طريقاً.

حكى أولا ما يوبخهم به من اتخاذهم له شركاء ثم ما يقوله الشياطين أو أتمتهم عند توبيخهم لأنهم إذا وبخوا بعبادة الآلهة اعتذروا بأن الشياطين هم الذين استغووهم وزينوا لهم عبادتها ثم ما يشبه الشماتة بهم من استغاثتهم آلهتهم وخذلانهم لهم وعجزهم عن نصرتهم ثم ما يبكتون به من الإحتجاج عليهم بإرسال الرسل وإزاحة العلل {فعميت عليهم الأنباء} فصارت الأنباء كالعمى عليهم جميعاً لا تهتدى إليهم {فهم لا يتساءلون} لا يسأل بعضهم بعضاً كما يتساءل الناس في المشكلات لأنهم يتساوون جميعاً في عمى الأنباء عليهم والعجز عن الجواب. وقرئ: فعميت والمراد بالنبأ: الخبر عما أجاب به المرسل إليه رسوله وإذا كانت الأنبياء لهول ذلك اليوم يتتعتعون في الجواب عن مثل هذا السؤال ويفوضون الأمر إلى علم الله وذلك قوله تعالى {يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب} [المائدة: 109] فما ظنك بالضلال من أممهم.

{فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفلحين} {فأما من تاب} من المشركين من الشرك وجمع بين الإيمان والعمل الصالح {فعسى أن} يفلح عند الله وعسى من الكرام تحقيق. ويجوز أن يراد: ترجى التائب وطعمه وكأنه قال: فليطمع أن يفلح.

{وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون} الخيرة من التخير كالطيرة من التطير: تستعمل بمعنى المصدر هو التخير وبمعنى المتخير كقولهم: محمد خيرة ما يشاء ولهذا لم يدخل العاطف. والمعنى: أن الخيرة لله تعالى في أفعاله وهو أعلم بوجوده الحكمة فيها ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه. قيل: السبب فيه قول الوليد بن المغيرة {لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم} [الزخرف: 31] يعني: يبعث الله الرسل باختيار المرسل إليهم. وقيل: معناه ويختار الذي لهم فيه الخيرة أي: يختار للعباد ما هو خير لهم وأصلح وهو أعلم بمصالحهم من أنفسهم من قولهم في الأمرين: ليس فيهما خيرة لمختار.

فإن قلت: فإين الراجع من الصلة إلى الموصول إذا جعلت ما موصولة قلت: أصل الكلام: ما كان لهم فيه الخيرة فحذف فيه كما حذف منه في قوله {إن ذلك لمن عزم الأمور} [الشورى: 3] لأنه مفهوم {سبحان الله} أي الله برئ من إشراكهم وما يحملهم عليه من الجراءة على الله واختيارهم عليه مالا يختار.

{وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون} {ما تكن صدورهم} من عداوة رسول الله وحسده {وما يعلنون} من مطاعنهم فيه. وقولهم: هلا اختير عليه غيره في النبوة {وهو الله} وهو المستأثر بالإلهية المختص بها و} لا إله إلا هو} تقدير لذلك كقولك: الكعبة القبلة لا قبلة إلا هي. فإن قلت: الحمد في الدنيا ظاهر فما الحمد في الآخرة قلت: هو قولهم {الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن} [فاطر: 34] {الحمد لله الذي صدقنا وعده} [الزمر: 74] {وقيل الحمد لله رب العالمين} [الزمر: 75] والتحميد هناك على وجه اللذة لا الكلفة. وفي الحديث: (يلهمون التسبيح والتقديس) {وله الحكم} القضاء بين عباده.

{قل أرئيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون قل أرئيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ومن رحمته جعل لكم اليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون} {أرءيتم} وقرئ: أريتم: بحذف الهمزة وليس بحذف قياسي. ومعناه: أخبروني من يقدر على هذا والسرمد: الدائم المتصل من السرد وهو المتابعة. ومنه قولهم في الأشهر الحرم: ثلاثة سرد وواحد فرد والميم مزيد. ووزنه فعمل. ونظيره. دلامص من الدلاص. فإن قلت: هلا قيل: بنهار تتصرفون فيه كما قيل {بليل تسكنون فيه} قلت ذكر الأشياء وهو شوء الشمس: لأن المنافع التي تتعلق به متكاثرة ليس التصرف في المعاش وحده والظلام ليس بتلك المنزلة ومن ثمة قرن بالضياء {أفلا تسمعون} لأن السمع يدرك ما لا يدركه البصر من ذكر منافعه ووصف فوائده وقرن بالليل {أفلا تبصرون} لأن غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره. وأنت من السكون ونحوه {ومن رحمته} زواج بين الليل والنهار لأغراض ثلاثة: لتسكنوا في أحدهما وهو الليل ولتبتغوا من فضل الله في الآخرة وهو النهار ولإرادة شكركم.

{ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتمم تزعمون} وقد سلكت بهذه الآية طريقة اللف في تكرير التوبيخ باتخاذ الشركاء: إيذاء بأن لا شئ أجلب لغضب الله من الإشراك به كما لا شئ أدخل في مرضاته من توحيده. اللهم فكما أدخلتنا في أهل توحيدك فأدخلنا في الناجين من وعيدك.

{ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون} {ونزعنا} وأخرجنا {من كل أمة شهيداً} وهو نبيهم: لأن أنبياء الأمم شهداء عليهم يشهدون بما كانوا عليه {فقلنا} للأمة {هاتوا برهانكم} فيما كنتم عليه من الشرك ومخالفة الرسول: فعلموا حينئذ {أن الحق لله} ولرسوله لا لهم ولشياطينهم {وضل عنهم} وغاب عنهم غيبة الشئ الضائع {ما كانوا يفترون} من الكذب والباطل.

{إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوأ بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين وابتغ فيما آتاك الله الدار الأخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين} {قارون} اسم أعجمي مثل هرون ولم ينصرف للعجة والتعريف ولو كان فارغولاً من قرن لانصرف. وقيل: معنى كونه من قومه أنه آمن به. وقيل: كان إسرائيلياً ابن عم موسى: هو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب. وموسى بن عمران بن قاهث. وقيل: كان موسى ابن أخيه وكان يسمى المنور لحسن

صورته وكان أقرأ بني إسرائيل للتوراة ولكنه نافق كما نافق السامري وقال: إذا كانت النبوة لموسى عليه السلام والمذبح والقربان إلى هرون فمالي ورودي: أنه لما جاوز بهم موسى الحر وصارت الرسالة والحبور لهرون يقرب القربان ويكون رأساً فيهم - وكان القربان إلى موسى فجعله موسى إلى أخيه - وجد قارون في نفسه وحسدهما فقال لموسى: لأمر لكما ولست على شئ إلى متى أصبر قالك موسى: هذا صنع الله قال: والله لا أصدقك حتى تأتى بآية فأمر رؤساء بني إسرائيل أن يجئ كل واحد بعصاه فحزمها وألقاها في القبة التي كان الوحي ينزل عليه فيها وكانوا يحرسون عصيهم بالليل فأصبحوا وإذا بعصا هرون تهتز ولها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز فقال قارون: ما هو بأعجب مما تصنع من السحر {فبغى عليهم} من البغى وهو الظلم. قيل: ملكه فرعون على بني إسرائيل فظلمهم. وقيل: من البغي وهو الكبر والبذخ: تبذخ عليهم بكثرة ماله وولده. وقيل زاد عليهم في الثياب شبراً. المفاتح: جمع مفتح بالكسر: وهو ما يفتح به. وقيل هي الخزائن وقياس واحدها: مفتح - بالفتح: جمع مفتح بالكسر: وهو ما يفتح به وقيل أماله. والعصبة: الجماعة الكثيرة والعصابة: مثلها. واعصوصبوا: اجتمعوا. قيل: كانت تحمل مفاتيح خزائنه ستون بغلاً لكل خزانة مفتاح ولا يزيد المفتاح على أصبع. وكانت من جلود. قال رزين يكفى الكوفة مفتاح وقد بولغ في ذكر ذلك بلفظ: الكنوز والمفاتح والنوء والعصبة وأولى القوة.

وقرأ بديل بن ميسرة: لينوء بالياء. ووجه أن يفسر المفاتح بالخزائن ويعطيها حكم ما أضيفت إليه للملابسة والإتصال كقولك ذهبت أهل اليمامة. ومحل إذ منصوب بتنوء {لا تفرح} كقوله {ولا تفرحوا بما أتاكم} [الحديد: 23] وقول القائل: ولست بمفراح إذا الدهر سرني وذلك أنه لا يفرح بالدنيا إلا من رضى بها واطمأن. وأما من قلبه إلى الآخرة ويعلم أنه مفارق ما فيه عن قريب لم تحدثه نفسه بالفرح. وما أحسن ما قال القائل {وابتغ فيما آتاك الله} من الغنى والثروة {الدار الأخرة} بأن تفعل فيه أفعال الخير من أصناف الواجب والمندوب إليه وتجعله زادك إلى الآخرة {ولا تنس نصيبك} وهو أن تأخذ منه ما يكفيك ويصلحك {وأحسن} إلى عباد الله {كما أحسن الله إليك} أو أحسن بشكرك وطاعتك لله كما أحسن إليك. والفساد في الأرض: ما كان عليه من الظلم والبغي. وقيل إن القائل موسى عليه السلام. وقرئ: واتبع.

{قال إنما أوتيتم على علم عندي أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون} {على علم} أي على استحقاق واستيجاب لما في من العلم الذي فضلت به الناس وذلك أنه كان أعلم بني إسرائيل بالتوراة وقيل: هو علم الكيمياء فأفاد يوشع بن نون ثلثة وقالب بن يوفنا ثلثه وقارون ثلثه فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما إلى علمه فكان يأخذ الرصاص والنحاس فيجعلهما ذهباً. وقيل: علم الله موسى علم الكيمياء فعلمه موسى أخته فعلمته أخته قارون. وقيل: هو بصره بأنواع التجارة والدهقنة وسائر المكاسب. وقيل {عندي} معناه: في ظني كاتقول الأمر عندي كذا كأنه قال: إنما أوتيته على علم كقوله تعالى {ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم} [الزمر: 49] ثم زاد {عندي} أي هو في ظني ورأيي هكذا. يجوز أن يكون إثباتاً لعلمه بأن الله قد أهلك من القرون قبله من هو أقوى منه وأغنى لأنه قد قرأ في التوراة وأخبر به موسى وسمعه من حفاظ التواريخ والأيام كأنه قيل {أو لم يعلم} في جملة ما عنده من العلم هذا حتى لا يغتر بكثرة ماله وقوته. ويجوز أن يكون نفياً لعمله بذلك لأنه لما قال: أوتيته على علم عندي فتنفج بالعلم وتعظم به. قيل: أعنده مثل ذلك العلم الذي ادعاه ورأى نفسه به مستوجبة لكل نعمة ولم يعلم هذا العلم النافع حتى يقي به نفسه مصارع الهالكين {وأكثر جمعاً} للمال أو أكثر جماعة وعدداً. فإن قلت: ما وجه اتصال قوله {ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون} بما قبله قلت: ملا ذكر قارون من أهلك من قبله من القرون الذين كانوا أقوى منع وأغنى قال على سبيل التهديد له: والله مطلع على ذنوب المجرمين لا يحتاج إلى سؤالهم عنها

واستعلامهم. وهو قادر على أن يعاقبهم عليها كقوله تعالى {والله خبير بما تعملون} [آل عمران: 153] وغيرها {والله بما تعملون عليم} [البقرة: 283 المؤمنون: 51 النور: 28] وما أشبه ذلك.

{فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم} {في زينته} قال الحسن في الحمرة والصفرة وقيل: خرج على بغلة شهباء عليها الأرجوان وعليها سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف على زيه. وقيل: عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر وعن يمينه ثلثمائة غلام وعن يساره ثلثمائة جارية بيض عليهن الحلي والديباج. وقيل: في تسعين ألفاً عليهم المعصفرات وهو أول يوم رؤى فيه المعصفر: كان المتمنون قوماً مسلمين وإنما تمنوه على سبيل الرغبة في اليسار والإستغناء كما هو عادة البشر. وعن قتادة: تمنوه مثل نعمة صاحبه من غير ان تزول عنه. والحاسد هو الذي يتمنى أن تكون نعمة صاحبه له دونه فمن الغبطة قوله تعالى {يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون} ومن الحسد قوله {ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض} [النساء: 32] وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: هل يضر الغبط فقال: لا إلا كما يضر العضاه...................... الخبط والحظ: الجد وهو البخت والدولة: وصفوه بأنه رجل مجدود مبخوت يقال: فلان ذو حظ وحظيظ ومحظوظ وما الدنيا إلا أحاظ وجدود.

{وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين} ويلك: أصله الدعاء بالهلاك ثم استعمل في الزجر والردع والبعث على ترك مالا يرتضى كما استعمل: لا أبا لك. وأصله الدعاء على الرجل بالأقراف في الحث علىالفعل. والراجع في {ولا يقاها} للكلمة التي تكلم بها العلماء. أو للثواب لأنه في معنى المثوبة أو الجنة أو للسيرة والطريقة وهي الإيمان والعمل الصالح {الصابرون} على الطابعات وعن الشهوات وعلى ما قسم الله من القليل عن الكثير. كان قارون يؤذى نبي الله موسى عليه السلام كل وقت وهو يداريه للقرابة التي بينهما حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف دينار على دينار وعن كل ألف درهم على درهم فحسبه فاستكثره فشحت به نفسه فجمع بني إسرائيل وقال: إن موسى أرادكم على كل شئ وهو يريد أن يأخذ أموالكم فقالوا: أنت كبيرنا وسيدنا فمر بما شئت قال: نبرطل فلانة البغي حتى ترميه بنفسها فيرفضه بنو إسرائيل فجعل لها ألف دينار. وقيل طستاً من ذهب.

وقيل: طستاً من ذهب مملوءة ذهباً. وقيل: حكمها فلما كان يوم عيد قام موسى فقال: يا بني إسرائيل من سرق قطعناه ومن افترى جلدناه ومن زنى وهو غير محصن جلدناه وإن أحصن رجمناه فقال قارون: وإن كنت أنت قال: وإن كنت أنا قال: فإن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة فأحضرت فناشدها موسى بالذي فلق البحر وأنزل التوراة أن تصدق فتداركها الله فقالت: كذبوا بل جعل لي قارون جعلاً على أن أقذفك لنفسي فخر موسى ساجداً يبكي وقال: يا رب إن كنت رسوك فاغضب لي. فأوحى إليه: أمر الأرض بما شئت فإنها مطيعة لك. فقال: يا بني إسرائيل إن الله بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون فمن كان معه فليلزم مكانه ومن كان معي فليعتزل فاعتزلوا جميعاً غير رجلين ثم قال: يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الأعناق وقارون وأصحابه يتضرعون إلى موسى عليه السلام ويناشده بالله والرحم وموسى لا يلتفت غليهم لشدة غضبه ثم قال: خذيهم فانظبقت عليهم. وأوحى الله إلى موسى: ما أفظك: إتغاثوا بك مراراً فلم ترحمهم أما وعزتي لو إياي دعوا مرة واحدة لوجدوني قريباً مجيباً فأصبحت بنو إسرائيل يتناجون بينهم: إنما دعا موسى على قارون لستبد بداره وكنوزه فدعا الله حتى خسف بداره وأمواله {من المنتصرين} من المنتقمين من موسى عليه السلام أو من الممتنعين من عذاب الله. يقال: نصره من عدوه فانتصر أي: منعه منه فامتنع.

{وأصبح الذين تمنوا مكانه بالإمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون} قد يذكر الأمس ولا يراد به اليوم الذي قبل يومك ولكن الوقت المستقرب على طريق الاستعارة {مكانه} منزلته من الدنيا وي مفصولة عن كأن وهي كلمة تنبه {لنا مثل ما أوتي قارون} وتندموا ثم قالوا {ويكأنه لا يفلح الكافرون} أي: ما أشبه الحال بأن الكافرين لا ينالون الفلاح وهو مذهب الخليل وسيبويه. قال: وحكى الفراء أن أعرابية قالت لزوجها: أين ابنك فقال: وي كأنه وراء البيت. ويجوز أن تكون الكاف كاف الخطاب مضمومة إلى وي كقوله: .... ويك عنتر أقدام وأنه بمعنى لأنه واللام لبيان المقول لأجله هذا القول أو لأنه لا يفلح الكافرون كان ذلك وهو الخسف بقارون ومن الناس من يقف على وي ويبتدئ كأنه ومنهم من يقف على ويك. وقرأ الأعمس لولا من الله علينا. وقرئ {لخسف بنا} وفيه ضمير الله. ولا نخسف بنا كقولك: انقطع به. ولتخسف بنا.

{تلك الدار الأخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين} {تلك} تعظيم لها وتفخيم لشأنها يعنى: تلك التي سمعت بذكرها وبلغك وصفها. لم يعلق الموعد بترك العلو والفساد ولكن بترك إرادتهما وميل القلوب إليهما كما قال {ولا تركنوا إلى الذين ظلموا} [هود: 113] فعلق الوعيد بالركون. وعن علي رضي الله عنه: إن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتهت. وعن الفضيل أنه قرأها ثم قال: ذهبت الأماني ههنا. وعن عمر بن عبد العزيز أنه كان يرددها حتى قبض. ومن الطماع من يجعل العلو لفرعون والفساد لقارون متعلقاً بقوله {إن فرعون علا في الأرض} [القصص: 14] {ولا تبغ الفساد في الأرض} [القصص: 77] ويقول: من لم يكن مثل فرعون وقارون فله تلك الدار الآخرة ولا يتدبر قوله {والعاقبة للمتقين} كما تدبره علي والفضيل وعمر.

{من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون} معناه: فلا يجزون فوضع {الذين عملوا السيئات} موضع الضمير عمل السيئة إليهم مكرراً.

فضل تهجين لحالهم وزيادة تبغيض للسيئة إلى قلوب السامعين {إلا ما كانوا يعملون} إلا مثل ما كانوا يعملون وهذا من فضله العظيم وكرمه الواسع أن لا يجزى السيئة إلا بمثلها ويجزى الحسنة بعشر أمثالها وبسبعمائة وهو معنى قوله {فله خير منها}.

{إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد قل ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين} {فرض عليك القرآن} أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل بما فيه يعني: أن الذي حملك صعوبة هذا التكليف لمثيبك عليها ثواباً لا يحيط به الوصف. و{لرادك} بعد الموت {إلى معاد} أي معاد ليس لغيرك من البشر وتنكير المعاد لذلك: وقيل: المراد به مكة: ووجهه أن يراد رده إليها يوم الفتح: ووجه تنكيره أنها كانت في ذلك اليوم معادا له شأن ومرجعاً له اعتداد لغلبة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها وقهره لأهلها ولظهور عز الإسلام وأهله وذل الشرك وحزبه. والسورة مكية فكأن الله وعده وهو بمكة في أذى وغلبة من أهلها: أنه يهاجر به منها ويعيده إليها ظاهراً ظافراً. وقيل: نزلت عليه حين بلغ الجحفة في مهاجره. وقد اشتاق إلى مولده ومولد آبائه وحرم إبراهيم فنزل جبريل فقال له: أتشتاق إلى نكة قال: نعم فأوحاها إليه فإن قلت: كيف اتصل قوله تعالى {قل ربي أعلم} بما قبله قلت: لما وعد رسوله الرد إلى معاد قال: قل للمشركين {ربي أعلم من جاء بالهدى} يعنى نفسه وما يستحقه من الثواب في معاده {ومن هو في ضلال مبين} يعنيهم وما يستحقونه من العقاب في معادهم.

{وما كنت ترجوا أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيراً للكافرين} فإن قلت: قوله {إلا رحمة من ربك} ما وجه الإستثناء فيه قلت: هذا كلام محمول على المعنى كأنه قيل: وما ألقى عليك الكتاب إلا رحمه من ربك. ويجوز أن يكون إلا بمعنى لكن للاستدراك أي: ولكن لرحمة من ربك ألقى إليك.

{ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين} وقرئ: يصدنك من أصده بمعنى صده وهي في لغة كلب. وقال:

أناس أصدوا الناس بـالـسـيف عنهمو** صدود السواقي عن أنوف الحوائم

{بعد إذ أنزلت إليك} بعد وقت إنزاله وإذ تضاف إليه أسماء الزمان كقولك: حينئذ وليلتئذ ويمئذ وما أشبه ذلك. والنهي عن مظاهرة الكافرين ونحو ذلك من باب التهجيج الذي سبق ذكره.

{ولا تدع مع الله إله ساخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون} {إلا وجهه} إلا إياه والوجه يعبر به عن الذات.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ طسم القصص كان له الأجر بعدد من صدق موسى وكذب به ولم يبق ملك في السموات والأرض إلا شهد له القيامة أنه كان صادقاً أن كل شئ هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون.

سورة العنكبوت

مكية وآياتها تسع وستون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

{الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن} الحسبان لا يصح تعليقه بمعاني المفردات ولكن بمضامين الجمل. ألا ترى أنك لو قلت: حسبت زيداً وظننت الفرس: لم يكن شيئاً حتى يقول: حسبت زيداً عالماً وظننت الفرس جواداً لأن قولك: زيد عالم أو الفرس جواد: كلام دال على مضمون فأردت الإخبار عن ذلك المضمون ثابتاً عندك على وجه الظن لا اليقين فلم تجد بداً في العبارة عن ثباته عندك على ذلك الوجه من ذكر شطري الجملة مدخلاً عليهما فعل الحسبان حتى يتم لك غرضك. فإن قلت: فأين الكلام الدال على المضمون الذي يقتضيه الحسبان في الآية قلت: هو في قوله {أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون} وذلك أن تقديره: أحسبوا تركوهم غير مفتونين لقولهم: آمنا فالترك أول مفعولي حسب ولقولهم: آمنا هو الخبر. وأما غير مفتونين فتتمة الترك لأنه من الترك الذي هو بمعنى التصيير كقوله: فتركته جزر السباع ينشنه ألا ترى أنك قبل المجئ بالحسبان تقدر أن تقول: تركهم غير مفتونين لقولهم: آمنا على تقدير: حاصل ومستقر قبل اللام. فإن قلت {أن يقولوا} هو علة تركهم غير مفتونين فكيف يصح أن يقع خبر مبتدأ قلت: كما تقول خروجه لمخافة الشر وضربه للتأديب وقد كان التأديب والمخافة في قولك: خرجت مخافة الشر وضربته تأديباً: تعليلين. وتقول ايضاً: حسبت خروجه لمخافة الشر وظننت ضربه للتأديب فتجعلها مفعولين كما جعلتهما مبتدأ وخبراً. والفتنة: الإمتحان بشدائد التكليف: من مفارقة الأوطان ومجاهدة الأعداء وسائر الطابعات الشاقة وهجر الشهوات والملاذ وبالفقر والقحط وأنواع المصائب في الأنفس والأموال وبمصابرة الكفار على أذاهم وكيدهم

وضرارهم. والمعنى: أحسب الذين أجروا كلمة الشهادة على ألسنتهم وأظهروا القول بالإيمان: أنهم يتركون بذلك غير ممتحنين بل يمنحهم الله بضروب المحن حتى يبلو صبرهم وثبات أقدامهم وصحة عقائدهم ونصوح نياتهم ليتمز المخلص من غير المخلص والراسخ في الدين من المضطرب والمتمكن من العابد على حرف كما قال {لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور} [آل عمران: 186] وروي أنها نزلت في ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جزعوا من أذى المشركين. وقيل في عمار بن ياسر: وكان يعذب في الله. وقيل: في ناس أسلموا بمكة فكتب إليهم المهاجرون: لا يقبل منكم إسلامكم حتى تهاجروا فخرجوا فتتبعهم المشركون فردوهم فلما نزلت كتبوا بها إليهم فخرجوا فتبعهم المشركون فقاتلوهم فمنهم من قتل ومنهم من نجا. وقيل: فيمهجع بن عبد الله مولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو أول قتيل من المسلمين يوم بدر رماه عامر بن الحضرمي فقال سيد الشهداء مهجع وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة فجزع عليه أبواه وامرأته {ولقد فتنا} موصول بأحسب أو بلا يفتنون كقولك: ألا يمتحن فلان وقد امتحن من هو خير منه يعنى: أن أتباع الأنبياء عليهم السلام قبلهم قد أصابهم من الفتن والمحن نحو ما أصابهم. أو ما هو أشد منه فصبروا كما قال {وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا...} الآية [آل عمران: 146] وعن النبي صلى الله عليه وسلم: وقد كان من قبلكم يؤخذ فيوضع المنشار على رأسه فيفرق فريقتين وما يصرفه ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه.

{فليعلمن الله} بالإمتحان {الذين صدقوا} في الإيمان {وليعلمن الكاذبين} فيه. فإن قلت: كيف وهو عالم بذلك فيما لم يزل قلت: لم يزل يعلمه معدوماً ولا يعلمه موجوداً إلا إذا وجد والمعنى: وليتميزون الصادق منهم من الكاذب. ويجوز أن يكون وعداً ووعيداً كأنه قال: وليثيبن الذين صدقوا وليعاقبن الكاذبين. وقرأ علي رضى الله عنه والزهري: وليعلمن من الأعلام أي وليعرفنهم الله الناس من هم. أو ليسمنهم بعلامة يعرفون بها من بياض الوجوه وسوادها وكحل العيون وزرقتها.

{أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون} {أن يسبقونا} أي يفوتونا يعنى أن الجزاء يلحقهم لا محالة وهم لم يطعموا في الفوت ولم يحدثوا به نفوسهم ولكنهم لغفلتهم وقلة فكرهم في العاقبة وإصرارهم على المعاصي: في صورة من يقدر ذلك ويطمع فيه. ونظيره {وما أنتم بمعجزين في الأرض} [العنكبوت: 22] {ولا تحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون} [الأنفال: 59]. فإن قلت: أين مفعولا حسب قلت: اشتمال صلة أن على مسند ومسند إليه سد مسد المفعولين كقوله تعالى {أم حسبتم أن تدخلوا الجنة} [البقرة: 14] ويجوز أن يضمن حسب معنى قدر وأم منقطعه. ومعنى الإضراب فيها: أن هذا الحسبان أبطل من الحسبان الأول لأن ذاك يقدر أنه لا يمتحن لإيمانه وهذا يظن أنه لا يجازى بمساويه {ساء ما يحكمون} بئس الذين يحكمونه حكمهم هذا. أو بئس حكماً يحكمونه حكمهم هذا فحذف المخصوص بالذم.

{من كان يرجوا لقاء الله فإن أجل الله لأت وهو السميع العليم} لقاء الله: مثل للوصول إلى العاقبة من تلقى ملك الموت والبعث والحساب والجزاء: مثلت تلك الحال بحال عبد قدم على سيده بعد عهد طويل وقد اطلع مولاه على ما كان يأتى ويذر فإما أن يلقاه ببشر وتركيب لما رضى من أفعاله أو بضد ذلك لما سخطه منها فمعنى قوله {من كان يرجوا لقاء ربه}: من كان يأمل تلك الحال. وأن يلقى فيها الكرامة من الله والبشر {فإن أجل الله} وهو الموت {لأت} لا محالة فليبادر العمل الصالح الذي يصدق رجاءه ويحقق أمله وكتسب به القربة عند الله والزلفى {وهو السميع العليم} الذي لا يخفى عليه شئ مما يقوله عباده ومما يفعلونه فهو حقيق بالتقوى والخشية. وقيل {يرجوا ": يخاف من قول

الهذلي في صفة عسال: إذا لسعته الدبر لم يرج لسعتها فإن قلت: فإن أجل الله لآت كيف وقع جواباً للشرط قلت: إذا علم أن لقاء الله عنيت به تلك الحال الممثلة والوقت الذي تقع فيه تلك الحال هو الأجل المضروب للموت: فكأنه قال: من كان يرجو لقاء الله فإن لقاء الله لآت لأن الجل واقع فيه اللقاء كما تقول: من كان يرجو لقاء الملك فإن يوم الجمعة قريب إذا علم أنه يقعد للناس يوم الجمعة.

{ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين} ومن جاهد نفسه في منعها ما تأمر به وحملها على ما تأباه {فإنما يجاهد} لها لأن منفعة ذلك راجعة إليها وإنما أمر الله عز وجل ونهى رحمة لعباده وهو الغني عنهم وعن طاعتهم.

{والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون} إما أن يريد قوماً مسلمين صالحين قد أساؤوا في بعض أعمالهم وسيئاتهم مغمورة بحسناتهم فهو يكفرها عنهم أي يسقط عقابها بثواب الحسنات ويجزيهم أحسن الذي كانوا يعملون أي أحسن جزاء أعمالهم: وإما قوماً مشركين آمنوا وعملوا الصالحات فالله عز وجل يكفر سيئاتهم بأن يسقط عقاب ما تقدم لهم من الكفر والمعاصي ويجزيهم أحسن جزاء أعمالهم في الإسلام.

{ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعلمون} وصى حكمه حكم أمر في معناه وتصرفه. يقال: وصيت زيداً بأن يفعل خيراً كما تقول: أمرته بأن يفعل. ومنه بيت الإصلاح:

بأن كذب القراطف والقروف**وذبيانية وصت بنيها

كما لو قال: أمرتهم بأن ينتهوها. ومنه قوله تعالى {ووصي بها ابراهيم بنيه} [البقرة: 132] أي وصاهم بكلمة التوحيد وأكرهم بها وقولك: وصيت زيداً بعمرو معناه: وصيته بتعهد عمرو ومراعاة ونحو ذلك وكذلك معنى وقوله {ووصينا الإنسان بوالديه حسناً ": وصيناه بإيتاء والديه حسناً أو بآلاء والديه حسناً أي: فعلاً ذا حسن أو ما هو في ذاته حسن لفرط حسنه كقوله تعالى {وقولوا للناس حسناً} [البقرة: 83] وقرئ: حسنا وإحسانا ويجوز أن تجعل حسناً من باب قولك: زيداً بإضمار أضرب إذا رأيته متهيئاً للضرب فتنصبه بإضمار أولهما معروفاً و{فلا تطعهما} في الشرك إذا حملاك عليه. وعلى هذا التفسير إن وقف على} بوالديه} وابتدأ حسناً حسن الوقف وعلى التفسير الأول لا بد من إضمار القول معناه: وقلنا إن جاهداك أيها الإنسان {ما ليس لك به علم} أي لا علم لك بإلهيته. والمراد بنفي العلم: نفي المعلوم كأنه قال: لتشرك بي شيئاً لا يصح أن يكون إلهاً ولا يستقم: وصاه بوالديه وأمره بالإحسان إليهما ثم نبه بنهيه عن طاعتهما إذا أراده على ما ذكره على أن كل حق وإن عظم شاقط إذا جاء حق الله وأنه لا طاقة لمخلوق في معصية الخالق ثم قال: إلي مرجع من آمن منكم ومن أشرك فأجازيكم حق جزائكم. وفيه شيئان أحدهما: أن الجزاء إلي فلا تحدث نفسك بجفوة والديك وعقوقهما لشركهما ولا تحرمهما برك ومعرفك في الدنيا كما أني لا أمنعهما رزقي. والثاني: التحذير من متابعتهما على الشرك والحث على الثبات والاستقامة في الدين بذكر المرجع والوعيد. روي: أن سعد بن أبي وقاص الزهري رضي الله عنه حين أسلم قالت أمه - وهي حمنة بنت أبي سفيان بن أمية بن عبد شمس - يا سعد بلغني أنك قد صبأت فوالله لا يظلني سقف بيت من الضح والريح وإن الطعام والشراب علي حرام حتى تكفر بمحمد - وكان أحب ولدها إليهات فأبى سعد وبقيت ثلاث أيام كذلك فجاء سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكا إليه فنزلت هذه الآية والتي في لقمان والتي في الأحقاف فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه هاجر مع عمر بن الخطاب رضي الله عنهما مترافقين حتى نزلا المدينة فخرج أبو جهل بن هشام والحرث بن هشام - أخواه لأمه أسماء بنت مخرمة: امرأة من

بني تميم من بني حنظلة - فنزلا بعياش وقالا له: إن من دين محمد صلة الأرحام وبر الوالدين وقد تركت أمك لا تطعم ولا تشرب ولا تأوى بيتاً حتى تراك وهي أشد حباً لك منا فاخرج معنا وفتلا منه في الذروة والغارب فاستشار عمر رضي الله عنه فقال: هما يخدعانك ولك علي أن أقسم مالي بيني وبينك فما في الدنيا بعير يلحقها فإن رابك منهما ريب فارجع فلما ليوطئ لنفسه وله فأخذاه وشداه وثاقاً وجلده كل واحد منهما مائة جلدة وذهبا به إلى أمه فقالت: لا تزال في عذاب حتى ترجع عن كل واحد منهما مائة جلدة وذهبا به إلى أمه فقالت: لا تزال في عذاب حتى ترجع عن دين محمد فنزلت.

{والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين} {في الصالحين} في جملتهم. والصلاح من أبلغ صفات المؤمنين وهو منمني أنبياء الله. قال الله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام {وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين} [النمل: 19] وقال في إبراهيم عليه السلام {وإنه في الآخرة لمن الصالحين} [البقرة: 130 النحل: 122 العنكبون: 27] أو في مدخل الصالحين وهي الجنة وهذا نحو قوله تعالى {ومن يطع الله والرسول فأولئك مع} ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين} هم ناس كانوا يؤمنون بألسنتهم فإذا مسهم أذى من الكفار وهو المراد بفتنة الناس كان ذلك صارفاً لهم عن الإيمان كما أن عذاب الله صارف للمؤمنين عن الكفر. أو كما يجب أن يكون عذاب الله صارفاً وإذا نصر الله المؤمنين وغنمهم اعترضوهم وقالوا {إنا كنا معكم} أي مشايعين لكم في دينكم ثابتين عليه ثباتكم ما قدر أحد أن يفتننا فأعطونا نصيبنا من المغنم.

ثم أخبر سبحانه أنه أعلم {بما في صدور العالمين} من العالمين بما في صدورهم ومن ذلك ما تكن صدورهم ومن ذلك ما تكن صدور هؤلاء من النفاق وهذا إطلاع منه لمؤمنين على ما أبطنوه ثم وعد المؤمنين وأوعد المنافقين وقرئ: ليقولن بفتح اللام.

{وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شئ إنهم لكاذبون وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون} أمروهم باتباع سبيلهم وهي طريقتهم التي كانوا عليها في دينهم وأمروا أنفسهم بحمل خطاياهم فعطف الأمر على الأمر وأرادوا: ليجتمع هذان الأمران في الحصول أن تتبعوا سبيلنا وأن نحمل خطاياكم. والمعنى: تعليق الحمل بالاتباع وهذا قول صناديد قريش: كانوا يقولون لمن آمن منهم: لا نبعث نحن ولا أنتم فإن عسى كان ذلك فإنا نتحمل عنكم الإثم. ونرى في المتسمعين بالإسلام من يستن بأولئك فيقول لصاحبه - إذا أراد أن يشجعه على ارتكاب بعض العظائم - افعل هذا وإئمة في عنقي. وكم من مغرور بمثل هذا الضمان من ضعفه العامة وجهلتهم - ومنه ما يحكى أن أبا جعفر المنصور رفع غليه بعض أهل الحشو حوائجه فلما قضاها قال: يا أمير المؤمنين بقيت الحاجة العظمى. قال: وما هي: قال شفاعتك يوم القيامة فقال له عمرو بن عبيد رحمه الله: إياك وهؤلاء فإنهم قطاع الطريق في المأمن. فإن قلت: كي سماهم كاذبين وإنما ضمنوا شيئاً علم الله أنهم لا يقدرون على الوفاء به وضامن ما لا يعلم اقتداره على الوفاء به لا يسمى كاذباً لا حين ضمن ولا حين عجز لأنه في الجالين لا يدخل تحت حد الكاذب وهو المخبر عن الشئ لا على ما هو عليه قلت: شبه الله حالهم حيث علم أن ما ضمنوه لا طريق لهم إلى أن يفوا به فكان ضمانهم عنده لا على ما علهي المضمون بالكاذبين الذين خبرهم لا على ما عليه المخبر عنه. ويجوز أن يريد أنهم كاذبون لأنهم قالوا ذلك وقلوبهم على خلافه كالكاذبين الذين يعدون الشئ وفي قلوبهم نية الخلف {وليحملن أثقالهم} أي أثقال أنفسهم {وأثقالاً} يعني أثقالاً أخر غير الخطايا التي ضمنوا للمؤمنين حملها وهي أثقال الذين كانوا سبباً في ضلالهم {وليسألن} {ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون فأنجيناه وأصحاب

السفينة وجعلناها آية للعالمين} كان عمر نوح عليه السلام ألفاً وخمسين سنة بعث على رأس أربعين ولبث في قومه تسعمائة وخمسين وعاش بعد الطوفان ستين. وعن وهب: أنه عاش ألفاً وأربعمائة سنة. فإن قلت: هلا قيل: تسعمائة وخمسين سنة قلت: ما أورده الله أحكم. لأنه لو قيل كما قلت لجاز أن يتوهم إطلاق هذا العدد على أكثره وهذا التوهم زائل مع مجيئه كذلك وكأنه قيل: تسعمائة وخمسين سنة وافية العدد إلا أن ذلك أخصر وأعذب لفظاً وأملأ بالفائدة وفيه نكتة أخرى: وهي أن القصة مسوقة لذكر ما ابتلى به نوح عليه السلام من أمته وما كابده من طول المصابرة تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتثبيتاً له فكان ذكر رأس العدد الذي لا رأس أكثر منه أوقع وأوصل إلى الغرض من استطاله السامع مدة صبره. فإن قلت: فلم جاء المميز أولا بالسنة وثانياً بالعام قلت: لأن تكرير اللفظ الواحد في الكلام الواحد حقيق بالإجتناب في البلاغة إلا إذا وقع ذلك لأجل غرض ينتجه المتكلم من تفخيم أو تهويل أو تنويه أو نحو ذلك. و} الموفان} ما أطاف وأحاط بكثرة وغلبة من سيل أو ظلام ليل أو نحوهما. قال العجاج: وغم طوفان الظلام الأثأبا {وأصحاب السفينة} كانوا ثمانية وسبعين نفساً: نصفهم ذكور ونصفهم إناث منهم أولاد نوح عليه السلام: سام وحام ويافث ونساؤهم. وعن محمد بن إسحق: كانوا عشرة. خمسة رجال وخمس نسوة. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم: كانوا ثمانية: نوح وأهله وبنوه الثلاثة والضمير في {وجعلناها} للسفينة أو للحادث والقصة.

{وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين} نصب {إبراهيم} بإضمار اذكر وأبدل عنه {إذا} بدل الإشتمال لأن الأحيان تشتمل على ما فيها. أو هو معطوف على} نوحاً وإذ ظرف لأرسلنا يعني: أرسلناه حين بلغ من السن والعلم مبلغاً مصلح فيع لأن يعظ قومه وينصحهم ويعرض عليهم الحق ويأمرهم بالعبادة والتقوى وقرأ إبراهيم النخعي وأبو حنيفة رحمهما الله. وإبراهيم بالرفع على معنى: ومن المرسلين إبراهيم {إن كنتم تعلمون} يعنى: إن كان فيكم علم بما هو خير لكم مما هو شر لكم. أو إن نظرتم بعين الدراية المبصرة دون عين الجهل العمياء: علمتم أنه خير لكم وقرئ: تخلقون من خلق بمعنى التكثير في خلق. وتخلقون من تخلق بمعنى تكذب وتخرص. وقرئ: إفكاً و فيه وجهان: أن يكون مصدراً نحو: كذب ولعب. والإفك: مخفف منه كالكذب واللعب من أصلهما وأن يكون صفة على فعل أي خلقاً إفكاً أي ذا إفك وباطل. واختلافهم الإفك: تسميتهم الأوثان آلهة وشركاء لله أو شفعاء إليه. أو سمى الأصنام: إفكاً وعملهم لها ونحتهم: خلقاً بلإفك.

فإن قلت: لم نكر الرزق ثم عرفه قلت: لأنه أراد لا يستطيعون أن يرزقوكم شيئاً من الرزق فابتغوا عند الله الرزق كله. فإنه هو الرزاق وحده لا يرزق غيره {إليه ترجعون} وقرئ: بفتح التاء فاستعدوا للقائه بعبادته والشكر له على أنعمه وإن تكذبونني فلا تضرونني بتكذيبهم فإن الرسل قبلي قد كذبتهم أممهم وما ضروهم وإنما ضروا أنفسهم حيث حل بسبب تكذيب الرسل: وأما الرسول فقد تم أمره حين بلغ البلاغ المبين الذي وال معه الشك وهو اقترانه بآيات الله ومعجزاته. أو: وإن كنت مكذباً فيما بينكم فلي في سائر الأنبياء أسوة وسلوة حيث كذبوا وعلى الرسول أن يبلغ وما عليه أن يصدق ولا يكذب وهذه الآية والآيات التي بعدها إلى قوله {فما كان جواب قومه} محتملة أن تكون من جملة قول إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه لقومه وأن تكون آيات وقعت معترضة في شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وشأن قريش بين أول قصة إبراهيم وآخرها. فإن قلت: إذا كانت من قول إبراهيم فما المراد بالأمم قبله قلت: قوم شيب وإدريس ونوح وغيرهم وكفى بقوم نوح أمه في معنى أمم حمحة مكذبة ولقد عاش إدريس ونوح وغيرهم وكفى

بقوم نوح أمة في معنى أمم جمة مكذبة ولقد عاش إدريس ألف سنة في قومه إلى أن رفع إلى السماء. وآمن به ألف إنسان منهم على عدد سنيه وأعقابهم على التكذيب.

{أو لم يروا كيف يبديء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شئ قدير يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون من ولي ولا نصير} فإن قلت: فما تصنع بقوله {قل سيروا في الأرض} قلت: هي حكاية كلام حكاه إبراهيم عليه السلام لقومه كما يحكي رسولنا صلى الله عليه وسلم كلام الله على هذا المنهاج في أكثر القرآن فإن قلت: فإذا كانت خطاباً لقريش فما وجه توسطها بين طرفي قصة إبراهيم والجملة أو الجمل الاعتراضية لا بد لها من اتصال بما وقعت معترضة فيه ألا تراك لا تقول: مكة - وزيد أبوه قائم - خير بلاد الله قلت: إيراد قصة إبراهيم ليس إلا إرادة للتنفيس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن تكون مسلاة له ومتفرجاً بأن أباه إبراهيم خليل الله كان ممنواً بنحو ما مني به من شرك قومه وعبادتهم الوثان فاعترض بقوله: وإن تكذبوا على معنى إنكم يا معشر قريش إن تكذبوا محمداً فقد كذب إبراهيم قومه وكل أمة نبيها لأن قوله {فقد كذب أمم من قبلكم} لا بد من تناوله لأمه إبراهيم وهو كما ترى اعتراض واقع متصل ثم سائر الآيات الواطئة عقبها من أذيالها وتوابعها لكونها ناطقة بالتوحيد ودلائله وهدم الشرك وتوهين قواعده وصفة قدرة الله وسلطانه ووضوح حجته وبرهانه قرئ {يروا} بالياء والتاء. ويبدئ ويبدأ. وقوله {ثم يعيدوه} ليس بمعطوف على يبدئ وليست الرؤية واقعة عليه وإنما هو إخبار على حياله بالإعادة بعد الموت كما وقع النظر في قوله تعالى {فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة} على البدء دون الإنشاء ونحوه قولك: ما زلت أوثر فلاناً واستخلفه على من أخلفه فإن قلت: هو معطوف بحرف العطف بحرف العطف فلا بد له من معطوف عليه فما هو قلت: هو جملة قوله {أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق} وكذلك: وأستخلفه معطوف على جملة قوله: ما زلت أوثر فلاناً ذلك يرجع إلى ما يرجع إليه هو في قوله {وهو أهون عليه} [الروم: 27] من معنى يعيد.

دل بقوله {النشأة الآخرة} على أنهما نشأتان وأن كل واحدة منهما إنشاء أي: ابتداء واختراع وإخراج من العدم إلى الوجود لا تفاوت بينهما إلا أن الآخر إنشاء بعد إنشاء مثله والأولى ليست كذلك. قرئ النشأة والنشاءة كالرأفة والرآفة فإن قلت: ما معنى الإفصاح باسمه مع إيقاعه مبتدأ في قوله {ثم الله ينشئ النشأة الآخرة} بعد إضماره في قوله: كيف بدأ الخلق وكان القياس أن يقال: كيف بدأ الله الخلق ثم ينشئ النشأة الآخرة قلت: الكلام معهم كان واقعاً في الإعادة وفيها كانت تصطك الركب فملا قررهم في الإبداء بأنه من الله احتج عليهم بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء فإذا كان الله الذي لا يعجزه شئ هم الذي أنشأ النشأة الأولى هم الذي ينشئ النشأة الآخرة فللدلالة والتنبيه علة هذا المعنى أبرز اسمه وأوقعه مبتدأ {يعذب من يشاء} تعذيبه {ويرحم من يشاء} رحمته ومتعلق المشيئتين مفسر مبين في مواضع من القرآن وهو من يستوجبها من الكافر والفاسق إذا لم يتوبا ومن المعصوم والتائب{تقلبون} تردون وترجعون {وما أنتم بمعجزين} ربكم أي تفوتونه إ ن هربتم من حكمه وقضائه {في الأرض} الفسيحة {ولا في السماء} التي هي أفسح منها وأبسط لو كنتم فيها كقوله تعالى {إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا} [الرحمن: 33] وقيل: ولا من في السماء كما قال حسان رضي الله عنه:

ويمدحه وينصره سواء **أمن يهجو رسول الله منكم

ويحتمل أن يراد: لا تعجزونه كيفما هبطتم في مهاوي الأرض وأعماقها أو علوتم في البروج والقلاع الذاهبة في السماء كقوله تعالى {ولو كنتم في بروج مشيدة} [النساء: 78]

او لا تعجزون أمره الجاري في السماء والأرض أن يجرى عليكم فيصيبكم ببلاء يظهر من الأرض أو ينزل من السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير.

{والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم} {بآيات الله} بدلائله على وحدانية وكتبه ومعجزاته ولقائه والبعث {يئسوا من رحمتي} وعيد أي ييأسوا يوم القيامة كقوله {ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون} [الروم: 12]. أو هو وصف لحالهم لأن المؤمن إنما يكون راجياً خاشياً فأما الكافر فلا يخطر بباله رجاء ولا خوف. أو شبه حالهم في انتقاء الرحمة عنهم بحال من يئس من الرحمة. وعن قتادة رضى الله عنه: إن الله ذم قوماً هانوا عليه فقال {أولئك يئسوا من رحمتي} وقال {إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون} [يوسف: 87] فينبعي للمؤمن أن يكون راجياً لله عز وجل خائفاً.

{فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن ذلك لأيات لقوم يؤمنون} قرئ: جواب قومه بالنصب والرفع {قالوا} قال بعضهم لبعض. أو قاله واحد منهم وكان الباقون واضين فكانوا جميعاً في حكم القائلين. وروى أنه لم ينتفع في ذلك اليوم بالنار نعنى: يوم ألقى إبراهيم في النار وذلك لذهاب حرها.

{وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين} قرئ على النصب بغير إضافة وإضافة وعلى الرفع كذلك فالنصب على وجهين: على التعليل أي لتتوادوا بينكم وتتواصوا لاجتماعكم على عبادتها واتفاقكم عليها وائتلافكم كما يتفق الناس على مذهب فيكون ذلك سبيب تحابهم وتصادقهم. وأن يكون مفعولاً ثانياً كقوله {اتخذ إلهه هواه} [الفرقان: 43 الجاثية: 23] أي اتخذتم الأوثان سبب المودة بينكم على تقدير حذف المضاف. أو اتخذتموها مودة بينكم بمعنى مورودة بينكم كقوله تعالى {ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونكم كحب الله} [البقرة: 165] وفي الرفع وجهان: أن يكون خبراً لأن على

أن ما موصولة. وأن يكون خبر مبتدأ محذوف. والمعنى: أن الأوثان مودة بينكم أي: موروده أو سبب مودة وعن عاصم: مودة بينكم: بفتح بينكم مع الإضافة كما قرئ {لقد تقطع بينكم} [الأنعام: 94] ففتح وهو فاعل. وقرأ ابن مسعود رضى الله عنه: أوثاناً إنما مودة بينكم في الحياة الدنيا أي: إنما تتوادون عليها أو تودونها في الحياة الدنيا} ثم يوم القيامة} يقوم بينكم التلاعن والتباغض والتعادي: يتلاعن العبدة. ويتلاعن العبدة والأصنام كقوله تعالى {ويكونون عليهم ضداً} [مريم: 82].

كان لوط ابن أخت إبراهيم عليهما السلام وهو أول من أمن له حين رأى النار لم تحرقه {وقال} يعنى إبراهيم {إني مهاجر} من كوثى وهي من سواد الكوفة إلى حران ثم منها إلى فلسكتين ومن ثمة قالوا: لكل نبي هجرة وإبراهيم هجرتان وكان معه في هجرته: لوط وامرأته سارة وهاجر وهو ابن خمس وسبعين سنة {إلى ربي} إلى حيث أمرني بالهجرة إليه {إنه هو العزيز} الذي يمنعني من أعدائي {الحكيم} الذي لا يأمرني إلا بما هو مصلحتي.

{ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الأخرة لمن الصالحين} {أجره} الثناء الحسن والصلاة عليه الدهر والذرية الطيبة والنبوة وأن أهل الملل كلهم يتولونه.

فإن قلت: ما بال إسماعيل عليه السلام لم يذكر وذكر إسحق وعقبه قلت: قد دل عليه في قوله {وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب} وكفى الدليل لشهرة أمره وعلو قدره. فإن قلت: ما المراد بالكتاب قلت: قصد به جنس الكتاب حتى دخل تحته ما نزل على ذريته

من الكتب الأربعة التي هي التوراة والزبور والإنجيل والقرآن {ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب} ولوطاً} معطوف على إبراهيم أو على ما عطف عليه. و} الفاحشة} الفعلة البالغة في القبح.

و{ما سبقكم بها من أحد من العالمين} جملة مستأنفة مقررة لفحاشة تلك الفعلة كأن قائلاً قال: لم كانت فاحشة فقيل له: لأن أحداً قبلهم لم يقدم عليها اشمئزازاً منها في طباعهم لإفراط قبحها حتى أقدم عليها قوم لوط لخبث طينتهم وقذر طباعهم. قالوا لم ينز ذكر على ذكر قبل قوم لوط قط. وقرئ: إنكم بغير استفهام في الأول دون الثاني: قال أبو عبيد: وجدته في الإمام

بحرف واحد بغير ياء ورأيت الثاني بحرفين الياء والنون وقطع الشبيل: عمل قطاع الطريق من قتل الأنفس وأخذ الأموال. وقيل: اعتراضهم السابلة بالفاحشة. وعن الحسن: قطع النسل بإتيان ما ليس بحرث. و{المنكر} عن ابن عباس رضى الله عنهما هو الخذف بالحصى والرمى بالبنادق والفرقعة ومضغ العلك والسواك بين الناس وحل الأزرار والسباب والفحش في المزاج. وعن عائشة رضى الله عنها: كانوا يتحابقون وقيل السخرية بمن مر بهم. وقيل: المجاهرة في ناديهم بذلك العمل وكل معصية فإظهارها أقبح من سترها ولذلك جاء: من خرق جلباب الحياء فلا غيبة له. ولا يقال للمجلس: ناد إلا ما دام فيه أهله فإذا قاموا عنه لم يبق نادياً {إن كنت من الصادقين} أي فيما تعدناه من نزول العذاب. كانوا يفسدون الناس بحملهم على ما كانوا عليه من المعاصي والفواحش طوعاً وكرهاً ولأنهم ابتدعوا الفاحشة وسنوها فيمن بعدهم وقال الله تعالى {الذين كفروا وصدوا عن سبيل زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون} [النحل: 88] فأراد لوط عليه السلام أن يشتد غضب الله عليهم فذكر لذلك صفة المفسدين في دعائه.

{ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين} {بالبشرى} هي البشارة بالولد. والفنافلة: وهما إسحق ويعقوب. إضافة مهلكو إضافة تخفيف لاى تعرف. والمعنى الإستقبال. والقرية: سدوم التي قيل فيها: أجور من قاضي سدوم {كانوا ظالمين} معناه أن الظلم قد استمر منهم إيجاده في الأيام السالفة وهم عليه مصرون وظلمهم: كفرهم وألوان معاصيهم {إن فيها لوطاً} ليس إخباراً لهم بكونه فيها وإنما هو جدال في شأنه: لأنهم لما عللوا إهلاك أهلها بظلمهم: اعترض عليهم بأن فيها من هو برئ من الظلم وأراد بالجدال: إظهار الشفقة عليه وما يجب للمؤمن من التحزن لأخيه والتشمر في نصرته وحياطته والخوف من أن يمسه أذى أو يلحقه ضرر. قال قتادة: لا يرى المؤمن ألا يحوط المؤمن ألا ترى إلى جوابهم بأنهم أعلم منه {بمن فيها} يعنون: نحن أعلم منك وأخبر بحال لوط وحخال قومه وامتازه منهم الامتاز البين وأنه لا يستأهل ما يستأهلون فخفض على نفسك وهون عليك الخطب.

{ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيئ بهم وضاق بهم ذرعاً وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين}.

{أن} صلة أكدت وجود الفعلين مترتباً أحدهما على الآخر في وقتين متجاورين لا فاصل بينهما كأنهما وجداً في جزء واحد من الزمان كأنه قيل: كما أحس بمجيئهم فاجأته المساءة من غير ريث خيفة عليهم من قومه {وضاق بهم ذرعاً} وضاق بشأنهم وبتدبير أمرهم ذرعه أي طاقته وقد جعلت العرب ضيق الذراع والذرع: عبارة عن فقد الطاقة كما قالوا: رحب الذراع بكذا إذا كان مطيقاً له والأصل فيه أن الرجل إذا طالت ذراعه نال ما لا يناله القصير الذراع فضرب ذلك مثلاً في العجز والقدرة.

{إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون} الرجز والرجس: العذاب من قولهم: ارتجز وارتجس إذا اضطرب لما يلحق المعذب من القلق والإضطراب. وقرئ {منزلون} مخففاً ومشدداً {منها} من القرية {آية بينة} هي آثار منازلهم الخربة. وقيل: بقية الحجارة. وقيل: الماء الأسود على وجه الأرض. وقيل: الخبر عما صنع بهم {لقومه} متعلق بتركنا أو ببينة.

{وإلى مدين أخاهم شعيباً فقال يل قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الأخر ولا تعثوا في الأرض مفسدين فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جائمين} {وارجوا} وافعلوا ما ترجون به العاقبة. فأقيم المسبب مقام السبب. أو أمروا بالرجاء: والمراد: اشتراط ما يسوغعه من الإيمان كما يؤمر الكافر بالشرعيات على إرادة الشرط. وقيل: هو من الرجاء بمعنى الخوف. والرجفة: الزلزلة الشديدة. وعن الضحاك: صيحة جبريل عليه السلام لأن القلوب رجفت لها: {في دارهم} في بلدهم وأرضهم. أو في ديارهم فاكتفى بالواحد لأنه لا يلبس {جاثمين} باركين على الركب ميتين.

{وعاداً وثموداً وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين} {وعاداً} منصوب بإضمار أهلكنا لأن قوله {فأخذتهم الرجفة} يدل عليه لأنه في معنى الإهلاك {وقد تبن لكم} ذلك: يعنى ما وصفه من إهلاكهم {من} جهة {مساكنهم} إذا نظرتهم إليها عند مروركم بها. وكان أهل مكة يمرون عليها في أسفارهم فيبصرونها {وكانوا مستبصرين} عقلاء متمكنين من النظر والإفتكار. ولكنهم لم يفعلوا أو كانوا نتبينين أن العذاب نازل بهم لأن الله تعالى قد بين لهم على ألسنة الرسل عليهم السلام ولكنهم لجوا حتى هلكوا.

{وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين} {سابقين} فائتين أدركهم أمر الله فلم يفوتوه.

{فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون} الحاصب: لقوم لوط وهي ريح عاصف فيها حصباء. وقيل: ملك كان يرميهم. والصيحة: لمدين وثمود. والخسف: لقارون. والغرق: لقوم نوح وفرعون.

{مثل الذين أتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شئ وهو العزيز الحكيم} الغرض تشبيه ما اتخذوه متكلاً ومعتمداً في دينهم وتولوه من دون الله بما هو مثل عند الناس في الوهن وضعف القوة. وهو نسج العنكبوت. ألا ترى إلى مقطع التشبيه وهو قوله {وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت} فإن قلت: ما معنى قوله {لو كانوا يعلمون} وكل أحد بعلم وهن بيت العنكبوت قلت: معناه لو كانوا يعلمون أن هخذا مثلهم وأن أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن. ووجه آخر: وهو أنه إذا صح تشبيه ما اعتمدوه في دينهم ببيت العنكبوت وقد صح أن أوهن البيوت بيت العنكبوت فقد تبين أن دينهم أوهن الأديان لو كانوا يعلمون. أو أخرج الكلام بعد تصحيح التشبيه مخرج المجاز فكأنه قال: وإن أوهن ما يعتمدون. أو يأخرج الكلام بعد تصحيح التشبيه مخرج المجاز فكأنه قال: وإن أوهن ما يعتمد عليه في الدين عبادة الأوثان لو كانوا يعلمون. ولقائل أن يقول: مثل المشرك الذي يعبد الوثن بالقياس إلى المؤمن الذي يعبد الله مثل عنكبوت يتخذ بيتاً بالإضافة إلي رجل بيني بيتاً بآجر وجص أو ينحته من صخر وكما أن أوهن البيوت إذا استقريتها بيتاً بيتاً بيت العنكبوت كذلك أضعف الأديان إذا استقريتها ديناً ديناً عبادة الأوثان لو كانوا يعلمون. قرئ: تدعون بالتاء والياء. وهذا توكيد للمثل وزيادة عليه حيث لم يجعل ما يدعونه شيئاً} وهو العزيز الحكيم} فيه تجهيل لهم حيث عبدوا ما ليس بشئ لأنه جماد ليس معه مصحح

العلم والقدرة أصلاً وتركوا عبادة القادر القاهر على كل شئ الحكيم الذي لا يفعل شيئاً إلا بحكمه وتدبير.

{وتلك المثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العاملون} كان الجهلة والسفاء من قريش يقولون إن رب محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت ويضحكون من ذلك فلذلك قال {وما يعقلها إلا العاملون} أي لا يعقل صحتها وحسنها وفائدتها إلا هم لأن وتكشف عنها وتصورها للأفهام كما صور هذا التشبيه الفرق بين حال العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه {خلق الله السموات والأرض بالحق إن في ذلك لآية للمؤمنين} {بالحق} أي بالغرض الصحيح الذي هو حق لا باطل وهو أن تكونا مساكن عبادة وعبرة للمعتبرين منهم ودلائل على عظم قدرته: ألا ترى إلى قوله {إن في ذلك لآية للمؤمنين} ونحوه قوله تعالى {وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً} [ص: 27] ثم قال {ذلك ظن الذين كفروا} [ص: 27].

{اتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون} الصلاة تكون لطفاً في ترك المعاصي فكأنها ناهية عنها. فإن قلت: كم من مصل أترتكب ولا تنهاه صلاته قلت الصلاة التي هي الصلاة عند الله المستحق بها الثواب: أن يدخل فيها مقدماً للتوبة النصوح متقياً لقوله تعالى {إنما يتقبل الله من المتقين} [المائدة: 27] ويصليها خاشعاً بالقلب والجوارح فقد روي عن حاتم: كأن رجلي على الصراط والجنة عن يميني والنار عن يساري وملك الموت من فوقي وأصلي بين الخوف والرجاء ثم يحوطها بعد أن يصليها فلا يحبطها فهي الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: من لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر لم يزدد بصلاته من الله إلا بعداً. وعن الحسن رحمه الله: من لم تنهه صلاتع عن الفحشاء والمنكر فليست صلاته بصلاة وهي وبال عليه.

وقيل: من كان مراعياً للصلاة جره ذلك إلى أن تنتهي عن الشيئات يوماً ما فقد روي أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن فلاناً يصلي بالنهار ويسرق بالليل فقال: إن صلاته لتردعه وروي أن فتى من الأنصار كان يصلي معه الصلوات ولا يدع شيئاً من الفواحش إلا ركبه فوصف له فقال: إن صلاته ستناه فلم يلبث أن تاب. وعلى كل جال إن المراعي للصلاة لا بد أن يكون أبعد من الفحشاء والمنكر ممن لا يراعيها. وأيضاً فكم من مصلين تنهاهم الصلاة عن الفحشاء والمنكر واللفظ لا يقتضي أن لا يخرج واحد من المصلين عن قضيتها كما تقول: إن زيداً ينهى عن المنكر فليس غرضك أنه ينهى عن جميع المناقير وإنما تريد أن هذه الخصلة موجودة فيه وحاصلة منه من غير اقتضاء للعموم {ولذكر الله أكبر} يريد: وللصلاة أكبر من غيرها من الطابعات وسماها بذكر الله كما قال {فاسعوا إلى ذكر الله} [الجمعة: 9] وإنما قال: ولذكر الله: ليستقل بالتعليل كأنه قال: وللصلاة أكبر لأنها ذكر الله عند الفحشاء والمنكر وذكر نهيه عنهما ووعيده عليهما أكبر فكان أولى بأن ينهى من اللطف الذي في الصلاة. وعن أبي عباس رضى الله عنهما ولذكر الله إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته {والله يعلم ما تصنعون} من الخير والطاعة فيثيبهم أحسن الثواب.

{ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون} {بالتي هي أحسن} بالخصلة التي هي أحسن: وهي مقابلة الخشونة باللين والغضب بالكظم.

والسورة بالأناة كما قال {ادفع بالتي هي أحسن} [المؤمنون: 96] {إلا الذين ظلموا} فأفرطوا في الاعتداء والعناد ولم يقبلوا النصح ولم ينفع فيهم الرفق. فاستعملوا معهم الغلظة وقيل: إلا الذين آذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم: وقيل إلا للذين أثبتوا الولد

والشريك وقالوا: يد الله مغلولة. وقيل معناه ولا تجادلوا الداخلين في الذمة المؤدين للجزية إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا فنبذوا الذمة ومنعوا الجزية فإن أولئك مجادلتهم بالسيف. وعن قتادة: الآية منسوخة بقوله تعالى {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر} [التوبة: 29] ولا مجادلة أشد من السيف: وقوله {وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا} من جنس المجادلة بالتي هي أحسن. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: ما حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقونهم ولا تكذبوهم وقولا آمنا بالله وكتبه ورسله فإن كان {وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتينهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون} ومثل ذلك الإنزال {أنزلنا إليك الكتاب} أي أنزلناه مصدقاً لسائر الكتب السماوية تحقيقاً لقوله: آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم. وقيل: كما أنزلنا الكتب إلى من كان قبلك أنزلنا إليك الكتاب {فالذين آتيناهم الكتاب} هم عبد الله بن سلام ومن آمن معه {ومن هؤلاء} من أهل مكة وقيل: أراد بالذين أوتوا الكتاب الذين تقدموا عهد منهم {وما يجحد بئايتنا} مع ظهورها وزوال الشبهة عنها إلا المتوغلون في الكفر المصممون عليه. وقيل: هم كعب بن الأشرف وأصحابه.

{وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمنك إذا لارتاب المبطلون بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون} وأنت أمي ما عرفك أحد قط بتلاوة كتاب ولاخط {إذا} لو كان شئ من ذلك أي من التلاوة والخط {لارتاب المبطلون} من أهل الكتاب وقالوا: الذين نجده في كتبنا أميلا يكتب ولا يقرأ وليس به. أو لارتاب مشركو مكة وقالوا: لعله تعلمه أو كتبه بيده. فإن قلت: لم سماهم مبطلين ولو لم يكن أمياً وقالوا: ليس بالذي نجده في كتبنا لكانوا صادقين محقين ولكان أهل مكة أيضاً على حق في قولهم لعله تعلمه أو كتبه فإنه رجل قارئ كاتب قلت: سماهم مبطلين لأنهم كفروا به وهو أمي بعيد من الريب فكأنه قال: هؤلاء المبطلون في كفرهم به لو لم يكن أمياتً لارتابوا أشد الريب فحين ليس بقارئ كاتب فلا وجه لارتيابهم. وشئ آخر: وهو أن سائر الأنبياء عليهم السلام لم يكونوتا أميين ووجب الإيمان بهم وبما جاؤوا به لكونهم مصدقين من جهة الكيم بالمعجزات فهب أنه قارئ كاتب فمالهم لم يؤمنوا به من الوجه الذين آمنوا منه بموسى وعيسى عليهما السلام على أن المنزلين ليسا بمعجزين وهذا المنزل معجز فإذا هم مبطلون حيث لم يؤمنوا به وهو أمي ومبطلون لو لم يؤمنوا به وهو غير أمي. فإن قلت: ما فائدة قوله {بيمينك} قلت ذكر اليمين وهي الجارحة التي يزاول بها الخط: زيادة تصوير لما نفى عنه من كونه كاتباً. ألا ترى أنك إذا قلت في الإثبات رأيت الأمير يخط هذا الكتاب بيمنه كان أشد لإثباتك أنه - ولى كتبته فكذلك النفي} بل} القرآن {آيات بينات في صدور} العلماء به وحفاظه وهما من خصائص القرآن: كون آياته بينات الإعجاز وكونه محفوظاً في الصدر يتلوه أكثر الأمة ظاهراً: بخلاف سائر الكتب فإنها لم تكن معجزات وما كانت تقرأ إلا من المصاحف. ومنه ما جاء في صفة هذه الأمة صدورهم أنا جيلهم {وما يجحد} بآيات الله الواضحة إلا المتوغلون في الظلم المكابرون.

{وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً يعلم ما في السموات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون} قرئ آية وأيات أرادوا: هلا أنزل عليه آية مثل ناقة صالح ومائدة عيسى عليهما السلام ونحو ذلك {إنما الآيات عند الله} ينزل أيتها شاء ولو شاء أن ينزل ما تقترحونه لفعل {وإنما أنا نذير} كلفت الإنذار وإبانته بما أعطته من الآيات وليس لي أن أتخير على الله آياته فأقول: أنزل علي آية كذا مع علمي أن الغرض من الآية ثبوت الدلالة والآيات كلها في حكم آية واحدة في ذلك ثم قال {أو لم يكفهم} آية مغنية عن سائر الآيات - إن كانوا طالبين للحق غير متعنتين - هذا القرآن الذي تدوم تلاوته عليهم في كل مكان وزمان فلا يزال معهم آية ثابتة لا تزول ولا تضمحل. كما تزول كل آية بعد كونها وتكون في مكان دون مكان إن في ذلك إن في مثل هذه الآية الموجودة في كل

مكان وزمان إلى آخر الدهر {لرحمة} لنعمة عظيمة لا تشكر وذكرى وتذكرة {لقوم يؤمنون} وقيل: أولم يكفهم يعني اليهود: أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم بتحقيق ما في أيديهم من نعتك ونعت دينك. وقيل: إن ناساً من المسلمين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتف قد كتبوا فيها بعض ما يقول اليهود فلما أن نظر إليها ألقاها وقال: كفى بها حماقة قوم أو ضلالة فقوم أن يرغبوا عما جاءهم به نبيهم إلى ما جاء به غير نبيهم فنزلت. والوجه ما ذكرناه {كفى بالله بيني وبينكم شهيداً} أني قد بلغتكم ما أرسلت به إليكم وأنذرتكم وأنكم قابلتموني بالجحد والتكذيب {يعلم ما في السموات والأرض} فهو مطلع على أمري وأمركم وعالم بحقي وباطلكم {والذين آمنوا بالباطل} منكم وهو ما عبدون من دون الله} وكفروا} وآياته {أولئك هم الخاسرون} المغبونون في صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالإيمان إلا أن الكلام ورد مورد الإنصاف كقوله {وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين} [سبأ: 24] وكقول حسان: فشركما لخيركما الفداء وروى أن كعب بن الأشرف وأصحابه قالوا: يا محمد من يشهد لك بأنك رسول الله فنزلت.

{ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون} كان استعجال العذاب استهزاء منهم وتكذيباً والنضر بن الحرث هو الذي قال: اللهم أمطر علينا حجارة من السماء كما قال أصحاب الأيكة: فأسقط علينا كسفاً من السماء {ولولا أجل} قد سماه الله وبينه في الوح لعذابهم وأوجبت الحكمة تأخيره إلى ذلك الأجل المسمى {لجاءهم العذاب} عاجلاً. والمراد بالأجل: لما روي أن الله تعالى وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعذب قومه ولا يستأصلهم وأن يؤخر عذابهم إلى يوم القيامة. وقيل: يوم بدر. وقيل: فنائهم بآجالهم {لمحيطة} أي ستحيط بهم {يوم يغشاهم العذاب} أو هي محيطة بهم في الدنيا: لأن المعاصي التي توجبها محيطة بهم. أو لأنها مآلهم ومرجعهم لا محالة فكأنها الساعة محيطة بهم. و{يوم يغشاهم} على هذا منصوب بمضمر أي: يوم يغشاهم العذاب كان كيت وكيت. {من فوقهم ومن تحت أرجلهم} كقوله تعالى {لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل} [الزمر: 16] {ويقول} قرئ بالنون والياء {بما كنتم تعلمون} أي جزاءه.

{يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون} معنى الآية: أن المؤمن إذا لم يتسهل له العبادة في بلد هو فيه ولم يتمش له أمر دينه كما يحب فليهاجر عنه إلى بلد يقدر أنه فيه أسلم قلباً وأصح ديناً وأكثر عبادة وأحسن خشوعاً. ولعمري إن البقاع تتفاوت في ذلك التفاوت الكثير ولقد جربنا وجرب أولونا فلم نجد فيما درنا وداروا: أعون على قهر النفس وعصيان الشهوة وأجمع للقلب المتلفت وأضم للهم المنتشر وأحث على القناعة وأطرد للشيطان وأبعد من كثير من الفتن وأضبط للأمر الديني في الجملة - من سكنى حرم الله وجوار بيت الله فلله الحمد على ما سهل من ذلك وقرب ورزق من الصبر وأوزع من فر بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً من الأرض استوجب الجنة وكان رفيق إبراهيم ومحمد وقيل: هي في المستضعفين بمكة الذين نزل فيهم {ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها} [النساء: 97] وإنما كان ذلك لأن أمر دينهم ما كان يستتب لهم بين ظهراني الكفرة {فإيي فاعبدون} في المتكلم نحو: إياه ضربته في الغائب وإياك عضتك في المخاطب. والتقدير: فإياي فاعبدوا: فاعبدون. فإن قلت: ما معنى الفاء في {فاعبدون} وتقديم المفعول قلت: الفاء جواب شرط محذوف لأن المعنى: إن أرضى واسعة فإن لم تخلصوا العبادة لي في أرض فاخلصوها لي في غيرها ثم حذف الشرط وعوض من حذفه تقديم المفعول مع إفادة تقديمه معنى الاختصاص والإخلاص.

{كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون} لما أمر عباده بالحرص على العبادة وصدق الاهتمام بها حتى يتطلبوا لها أوفق البلاد وإن شسعت أتبعه قوله {كل نفس ذائقة الموت} أي واجدة

مرارته وكربه كما يجد الذائق طعم المذوق. ومعناه: إنكم ميتون فواصلوا إلى الجزاء ومن كانت هذه عاقبته لم يكن له بد من التزود لها والاستعداد بجهده.

{والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفاً تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها} لنبوئنهم {لننزلنهم} من الجنة} علالي. وقرئ لنثوينهم من الثواء وهو النزول للإقامة. يقال: ثوى في المنزل وأثوى هو وأثوى غيره وثوى: غير متعد فإذا تعدى بزيادة همزة النقل لم يتجاوز مفعولاً واحداً نحو: ذهب وأذهبته. والوجه في تعديته إلى ضمير المؤمنين وإلى الغرف: إما إجراؤه مجرى لننزلنهم ونبوئنهم. أو حذف الجار وإيصال الفعل: أو تشبيه الظرف المؤقت بالمبهم. وقرأ يحيى بن وثاب: فنعم بزيادة الفاء {الذين صبروا} على مفارقة الأوطان والهجرة لأجل الدين. وعلى أذى المشركين وعلى المحن والمصائب وعلى الطابعات وعن المعاصي وعلى ربهم يتوكلون ولم يتولكوا في جميع ذلك إلا على الله تعالى.

{وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم} لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أسلم بمكة بالهجرة خافوا الفقر والضيعة. فكان يقول الرجل منهم: كيف أقدم بلدة ليس لي فيها معيشة فنزلت. والدابة: كل نفس دبت على وجه الأرض عقلت أو لم تعقل. {لا تحمل رزقها} لا تطيق أن تحمله لضعفها عن حمله {الله يرزقها وإياكم} أي لا يرزق تلك الدواب الضعاف إلا الله ولا يرزقكم أيضاً أيها الأقوياء إلا هو وإن كنتم مطليقين لحمل أرزاقكم وكسبها لأنه لو لك يقدركم ولم يقدر لكم أسباب الكسب لكنتم أعجز من الدواب التي لا تحمل وعن الحسن {لا تحمل رزقها} لا تدخره إنما تصبح فيرزقها الله. وعن ابن عيينة: ليس شئ يخبأ إلا الإنسان والنملة والفأرة. وعن بعضهم: رأيت البلبل يحتكر في حضنيه. ويقال: للعقعق مخابئ إلا أنه ينساها {وهو السميع} لقولكم: نخشى الفقر والضيعة {العليم} بما في شمائركم.

{ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون} الضمير في {سألتهم} لأهل مكة {فأنى يؤفكون} فكيف يصرفون عن توحيد الله وأن لا يشركوا به مع إقرارهم بأنه خالق السموات والأرض.

{الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شئ عليم} قدر الرزق وقتره بمعنى إذا ضيقه. فإن قلت: الذي رجع إليه الضمير في قوله {ويقدر له} هو من يشاء فكأن بسط الرزق وقدره جعلا لواحد. قلت: يحتمل الوجهين جميعاً: أن يريد ويقدر لمن يشاء فوضع الضمير موضع منيشاء لأن {من يشاء} مبهم غير معين فكان الضمير مبهماً مثله وأن يريد تعاقب الأمرين على واحد على حسب المصلحة} إن الله بكل شئ عليم} يعلم ما يصلح العباد وما يفسدهم.

{ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون} استحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنه ممن أقر بنحو ما أقروا به ثم نفعه ذلك في توحيد الله ونفي النداد والشركاء عنه ولم يكن إقراراً عاطلاً كإقرار المشركين وعلى أنهم أقروا بما هو حجة عليهم حيث نسبوا النعمة إلى الله وقد جعلوا العبادة للصنم ثم قال {بل أكثرهم لايعقلون} ما يقولون وما فيه من الدلالة على بطلان الشرك وصحة التوحيد. أو لا يعقلون ما تريدج بقولك الحمد لله ولا يفطنون لم حمدت الله عند مقالتهم {وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون} {هذه} فيها ازدراء للدنيا وتصغير لأمرها وكيف لا يصغرها وهي لا تزن عنده جناح بعوضة. يريد: ما هي - لسرعة زوالها عن أهلها وموتهم عنها - إلا كما يلعب الصبيان ساعة ثم يتفرقون {وإن الدار الآخرة لهي الحيوان} أي ليس فيها إلا حياة مستمرة دائمة خالدة لا موت فيها فكأنها في ذاتها حياة. والحيوان: مصدر حي وقياسه حييان فقبلت الياء

الثانية واواً كما قالوا: حيوة في اسم رجل وبه سمى ما فيه حياة: حيواناً كما قالوا: اشتر من الموتان ولا تشتر من الحيوان. وفي بناء الحيوان زيادة معنى ليس في بناء الحياة وهي ما في بناء فعلان من معنى الحركة والإضطراب كالنزوان والنغصان واللهبان وما أشبه ذلك. والحياة: حركة كما أن الموت سكون فمجيئه على بناء دال على معنى الحركة مبالغة في معنى الحياة ولذلك اختيرت {فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون} فإن قلت: بم اتصل قوله {فإذا ركبوا} قلت بمحذوف دل عليه ما وصفهم به وشرح من أمرهم معناه: هم على ما وصفوا به من الشرك والعناد {فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين} كائنين في صورة من يخلص الدين لله من المؤمنين حيث لا يذكرون إلا الله ولا يدعون معه إلهاً آخر. وفي تسميتهم مخلصين ضرب من التهكم {فلما نجاهم إلى البر} وأمنوا عادوا إلى حال الشرك واللام في {ليكفروا} محتملة أن تكون لام كي وكذلك في {ولتمتعوا} فيمن قرأها بالكسر. والمعنى: أنهم يعودون إلى شركهم ليكونوا - بالعود إلى شكرهم - كافرين بنعمة النجاة قاصدين التمتع بها والتلذذ لا غير على خلاف ما هو عادة المؤمنين المخلصين على الحقيقة: إذا أنجاهم الله أن يشكروا نعمة الله في إنجائهم ويجعلوا نعمة النجاة ذريعة إلى ازدياد الطاعة لا إلى التمتع والتلذذ وأن تكون لام الأمر وقراءة من قرأ وليتمتعوا بالسكون تشهد له. ونحوه قوله تعالى {اعملوا ما شئتم إنه بما تعلمون بصير} [فصلت: 41] فإن قلت: كيف جاز أن يأمر الله تعالى بالكفر وبأن يعمل العصاة ما شاءوا وهو ناه عن ذلك ومتوعد عليه قلت: هو مجاز عن الخذلان والتخلية وأن ذلك الأمر خطأ وأنه يؤدي إلى ضرر أن ترى الرجل قد عزم على أمر وعندك أن ذلك الأمر خطأ وأنه يؤدى إلى ضرر عظيم فتابع في نصيحة واستنزاله عن رأيه فإذا لم تر منه إلا الإباء والتصميم حردت عليه وقلت له: أنت وشأنك وافعل ماشئت فلا تريد بهذا حقيقة الأمر. وكيف والآمر بالشئ مريد له وأنت شديد الكراهة متحسر ولكنك كأنك نقول له: فإذا قد أبيت قبول النصيحة فأنت أهل ليقال لك: افعل ما شئت وتبعث عليه ليتبين لك - إذا فعلت - صحة رأى الناصح وفساد رأيك.

{أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمنا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون} كانت العرب حول مكة يغزون بعضهم بعضاً ويتغاورون ويتناهون وأهل مكة قارون آمنوا فيها لا يغزون ولا يغار عليهم مع قلتهم وكثرة العرب فذكرهم الله هذه النعمة الخاصة عليهم ووبخهم بأنهم يؤمنون بالباطل الذي هم عليه ومثل هذه النعمة المكشوفة الظاهرة وغيرها من النعم التي لا يقدر عليها إلا الله وحده مكفورة عندهم.

{ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين} افتراؤهم على الله تعالى كذبا: زعمهم أن الله شريكاً. وتكذيبهم بما جاءهم من الحق: كفرهم بالرسول والكتاب. وفي قوله {لما جاءه} تسفيه لهم يعني: لم يتلعثموا في تكذيبه وقت سمعوه ولم يفعلوا كما يفعل المراجيح العقول المثبتون في الأمور: يسمعون الخبر فيستعملون فيه الروية والفكر. ويستأنون إلى أن سيصح لهم صدقه أو كذبه {أليس} تقرير لثوائهم في جهنم كقوله: ألستم خير من ركب المطايا قال بعضهم: ولو كان استفهام ما أعطاه الخليفة مائة من الإبل. وحقيقته: أن الهمزة همزة الإنكار دخلت على النفي فرجع إلى معنى التقرير فهما وجهان أحدهما: ألا يثوون في جهنم وألا يستوجبون الثواء فيها وقد افتروا مثل هذا الكذب على الله وكذبوا بالحق هذا التكذيب والثاني: ألم يصح عندهم أن جهنم مثوى للكافرين حتى اجترؤوا هذه الجأة {والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين} أطلق المجاهد ولم يقيدها بمفعول. ليتناول كل ما يجب مجاهدته من النفس الأمارة بالسوء والشيطان وأعداء الدين {فينا} في حقنا ومن أجلنا ولوجهنا خاصاً} لنهدينهم سبلنا} لنزيدنهم هداية إلى سبل الخير وتوفيقاً كقوله تعالى {والذين اهتدوا زادهم هدى} [محمد: 17] وعن أبي سليمان الداراني: والذين جاهدوا فيما علموا لنهديهم إلى ما لم يعلموا. وعن بعضهم: من عمل بما يعلم وفق لما لا يعلم.

وقيل: إن الذي نرى من جهلنا بما لا نعلم إنما هو من تقصيرنا فيما نعلم {لمع المحسنين} لناصرهم ومعينهم.

من قرأ سورة العنكبوت كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل المؤمنين والمنافقين.

سورة الروم

مكية وآياتها ستون

بسم الله الرحمن الرحيم

{الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم} القراءة المشهورة الكثيرة {غلبت} بضم الغين. وسيغلبون بفتح الياء. والأرض: أرض العرب لأن الأرض المعهودة عند العرب أرضهم. والمعنى: غلبوا في أدنى أرض العرب منهم وهي أطراف الشام. أو أراد أرضهم على إنابة اللام مناب المضاف إليه أي: أرضهم إلى عدوهم. قال مجاهد: هي أرض الجزيرة وهي أدنى أرض الروم إلى فارس. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: الأردن وفلسطين. وقرئ في أداني الأرض والبضع ما بين الثلاث إلى العشر عن الأصمعي. وقيل: احتربت الروم وفارس بين أذرعات وبصرى فغلبت فارس الروم فبلغ الخبر مكة فشق على النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين لأن فارس مجوس لا كتاب لهم والروم أهل الكتاب وفرح المشركون وشمتوا وقالوا: أنتم والنصارى أهل الكتاب ونحن وفارس أميون وقد ظهر إخواننا على إخوانكم ولنظهرن نحن عليكم فنزلت. فقال لهم أبو بكر رضى الله عنه: لا يقرر الله أعينكم فوالله لتظهرن الروم على فارس بعد بضع سنين فقال له أبي بن خلف: كذبت يا أبا فصيل اجعل بيننا أجلاً أنا حبك عليه. والمناحبة: المراهنة فناحبه على عشر قلائص من كل واحد منهما وجعلا الأجل ثلاث سنين فأخبر أبو بكر رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: البضع ما بين الثلاث إلى التسع فزايده في الخطر ومادة في الأجل. فجعلاها مائة قلوص إلى تسع سنين. ومات أبي من جرح رسول الله وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية وذلك عند رأس سبع سنين. قيل: كان النصر يوم بدر للفريقين فاخذ أبو بكر الخطر من ذرية أبي وجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: تصدق به. وهذه الآية من الآيات البينة الشاهدة على صحة النبوة وأن القرآن من عند الله لأنها إنباء عن علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله. وقرئ: غلبهم بسكون اللام. والغلب والغلب مصدران كالجلب والجلب والحلب والحلب وقرئ غلبت الروم بالفتح

وسيغلبون بالضم. ومعناه أن الروم غلبوا على ريف الشام وسيغلبهم المسلمون في بضع سنين.

وعند انقضاء هذه المدة أخذ المسلمون في جهاد الروم وإضافة غلبهم تختلف باختلاف القراءتين فهي في إحداهما إضافة المصدر إلى المفعول. وفي الثانية إضافته إلى الفاعل. ومثلهما {محرم عليكم إخراجهم} [البقرة: 85] {ولن يخلف الله وعده} [الحج: 47]. فإن قلت: كيف صحت المناحبة وإنما هي قمار قلت: عن قتادة رحمه الله تعالى أنه ذلك قبل تحريم القمار. ومن مذهب أبي حنيفة ومحمد: أن العقود الفاسدة من عقود الربا وغيرها جائزة في دار الحرب بين المسلمين والكفار. وقد احتجا على صحة ذلك بما عقده أبو بكر بينه وبين أبي بن خلف} من قبل ومن بعد} أي في أول الوقتين وفي آخرهما حين غلبوا وحين يغلبون كأنه قيل: من قبل كونهم غالبين يعنى أن كونهم مغلوبين أولا وغالبين آخراً

ليس إلا بأمر الله وقضائه {وتلك الآيام نداولها بين الناس} [آل عمران: 140] وقرئ: من قبل ومن بعد على الجر من غير تقدير مضاف إليه واقتطاعه. كأنه قيل: قبلاً وبعداً بمعنى أولا وآخراً {ويومئذ} ويوم تغلب الروم على فارس ويحل ما وعده الله عز وجل من غلبتهم {يفرح المؤمنون بنصر الله} وتغليبه من له كتاب على من لا كتاب له. وغيظ من شمت بهم من كفار مكة. وقيل: نصر الله: هو إظهار صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين من غلبة الروم وقيل نصر الله أنه ولي بعض الظالمين بعضاً وفرق بين كلمهم حتى تفانوا وتناقصوا وفل هؤلاء شوكة هؤلاء وفي ذلك قوة للإسلام. وعن أبي سعيد الخدري: وافق ذلك يوم بدر وفي هذا اليوم نصر المؤمنين {وهو العزيز الرحيم} ينصر عليكم تارة وينصركم أخرى.

{وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون} {وعد الله} مصدر مؤكد كقولك: لك علي ألف عرفاً: لأن معناه: اعتراف لك بها اعترافاً ووعد الله ذلك وعداً لأن ما سبقه في معنى وعد. ذمهم الله عز وجل بأنهم عقلاء في أمور الدنيا بله في أمر الدين وذلك أنهم كانوا أصحاب تجارات ومكاسب. وعن الحسن. بلغ من حذق أحدهم أنه يأخذ الدرهم فينقره بأصبعه فيعلم أرديء هو أم جيد. وقوله {يعلمون} بدل من قوله {لا يعلمون} وفي هذا الإبدال من النكتة أنه أبدله منه وجعله بحيث يقوم مقامه ويسد مسده ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز الدنيا. وقوله {ظاهراً من الحياة الدنيا} يفيد أن للدنيا ظاهراًوباطناً فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها والتنعم بملاذها. وباطنها وحقيقتها أنها مجاز إلى الآخرة: يتزود منها إليها بالطاعة والأعمال الصالحة. وفي تنكير الظاهر: أنهم لا يعلمون إلا ظاهراً واحداً من جملة الظواهر. وهم الثانية يجوز أن يكون مبتدأ. و{غافلون} خبره والجملة خبر هم الأولى وأن يكون تكريراً للأولى وغافلون خبر الأولى. وأية كانت فذكرها مناد على أنهم معدن الغفلة عن الآخرة ومقرها ومعلمها وأنها منهم تنبع وإليهم ترجع.

{أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون} {في أنفسهم} يحتمل أن يكون ظرفاً كأنه قيل: أولم يحدثوا التفكر في أنفسهم أي: في قلوبهم الفارغة من الفكر والتفكر لا يكون إلا في القلوب ولكنه زيادة تصوير لحال المتفكرين كقولك: اعتقده في قلبك وأضمره في نفسك وأن يكون صلة للتفكر كقولك: تفكر في الأمر وأجال فيه فكره. و{ما خلق} متعلق بالقول المحذوف معناه: أولم يتفكروا فيقولوا هذا القول. وقيل: معناه فيعلموا لأن في الكلام دليلاً عليه {إلا بالحق وأجل مسمى} أي ما خلقها باطلاً وعبثاً بغير غرض صحيح وحكمه بالغة و لتبقى خالدة: إنما خلقها مقرونة بالحق مصحوبة بالحكمة وبتقدير أجل مسمى لا بد لها من أن تنتهي إليه وهو قيام الساعة ووقت الحساب والثواب والعقاب. ألا ترى إلى قوله تعالى {أفحسبتم إنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون} [المؤمنون: 115] كيف سمى تركهم غير راجعين إليه عبثاً. والباء في قوله {إلا بالحق} مثلها في قولك: دخلت عليه بثياب السفر واشترى الفرس بسرجه ولجامه تريد: اشتراه وهو ملتبس بالسرج واللجام غير منفك عنهما. وكذلك المعنى ما خلقها إلا وهي ملتبسة بالحق مقترنة به فإن قلت: إذا جعلت {في أنفسهم} صلة للتفكر فما معناه قلت: معناه: أولم يتفكروا في أنفسهم التي هي أقرب إليهم من غيرها من المخلوقات وهم أعلم وأخبر بأحوالها منهم بأحوال ما عداها فتدبروا ما أودعها الله ظاهراً وباطناً من غرائب الحكم الدالة على التدبير دون الإهمال وأنه لا بد لها من انتهاء إلى وقت يجازيها فيه الحكيم الذي دبر أمرها على الإحسام حساناً وعلى الإساءة مثلها حتى يعلموا عند ذلك أن سائر الخلائق كذلك أمرها جار على الحكمة والتدبير وأنه لا بد لها من الإنتهاء إلى ذلك الوقت والمراد بلقاء ربهم: الأجل المسمى.

{أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون} {أو لم يسيروا} تقرير لسيرهم في البلاد ونظرهم إلى آثار المدمرين من عاد وثمود وغيرهم من الأمم العاتية ثم أخذ يصف لهم أحوالهم وأنهم {كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض} وحرثوها قال الله تعالى {لا ذلول تثير الأرض} [البقرة: 71] وقيل لبقر الحرث: المثيرة. قالوا: سمي ثوراً لإثارته الأرض وبقرة لأنها تبقرها أي تشقها {وعمروها} يعني أولئك المدمرون {أكثر مما عمروها} من عمارة أهل نكة وأهل مكة: أهل واد غير ذي زرع ما لهم إثارة الأرض أصلاً ولا عمارة لها وأساً فما هو إلا تكم بهم وبضعف حالهم في ديناهم لأن معظم ما يستظهر به أهل الدنيا ويتباهون به أمر الدهقنة وهم أيضاً ضعاف القوى فقوله: {كانوا أشد منهم قوة} أي عاد وثمود وأضربهم من هذا القبيل كقوله {أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة} [فصلت: 15] وإن كان هذا أبلغ لأنه خالق القوى والقدر. فما كان تدميره إياهم ظلماً لهم لأن حاله منافية للظلم ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث علموا ما أوجب تدميرهم.

{ثم كان عاقبة الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى اكذبوا بئايات الله وكانوا بها يستهزءون} قرئ عاقبة بالنصب والرفع. و{السوأى} تأنيث الأسوأ وهو الأقبح كما أن الحسنى تأنيث الحسن. والمعنى: أنهم عواقبوا في الدنيا بالدمار ثم كانت عاقبتهم السوأى إلا أنه وضع المظهر موضع المضمر أي: العقوبة التي هي أسوأ العقوبات في الآخرة وهي جهنم التي أعدت للكافرين. و{أن كذبوا} يمعنى لأن كذبوا. ويجوز أن يكون أن بمعنى: أي لأنه إذا كان تفسير الإساءة التكذيب والاستهزاء كانت في معنى القول نحو: نادى. وكتب وما أشبه ذلك. ووجه آخر: وهو أن يكون {أسوأ أَسَاؤُوا} بمعنى اقترفوا الخطيئة التي هي أسوأ الخطايا و} أن كذبوا} عطف بيان لها وخبر كان محذوف كما يحذف جواب لما ولو إرادة الإبهام.

{ثم إليه ترجعون} أي إلى ثوابه وعقابه. وقرئ بالتاء والياء.

{ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين}
الإبلاس: أي يبقى بائساً ساكناً متحيراً. يقال: ناظريه فأبلس. إذا بم ينبس ويئس من أن يحتج.

ومنه الناقة المبلاس: التي لا ترغو. وقرئ يبلس بفتح اللام من أبلسه إذا أسكته {من شركائهم} من الذين عبدوهم من دون الله {وكانوا بشركائهم كافرون} أي يكفرون بآلهتهم ويجحدونها. أو وكانوا في الدنيا كافرين بسببهم. وكتب {شفعاء} في المصحف بواو قبل الألف كما كتب {علماء بني إسرائيل} [الشعراء: 197] وكذلك كتبت{السأى} بألف قبل الياء إثباتاً للهمزة على صورة الحرف الذي منه حركتها.

{ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون فأما الذين آمنوا وعلموا الصالحات فهم في روضه يحبرون وأما الذين كفروا وكذبوا بأياتنا ولقائ الآخرة فأولئك في العذاب محضرون} الضمير في {يتفرقون} للمسلمين والكافرين لدلالة ما بعده عليه. وعن الحسن رضى الله عنه: هو تفرق المسلمين والكافرين: هؤلاء في عليين وهؤلاء في أسفل السافلين - وعن قتادة رضي الله عنه: فرقة لا اجتماع بعدها {في روضة} في بستان وهي الجنة. والتنكير لإبهام أمرها وتفخيمه. والروضة عند العرب: كل أرض ذات نبات وماء. وفي أمثالهم: أحسن من بيضة في روضة يريدون: بيضة النعامة {يحبون} يسرون. يقال: حبره إذا سره سروراً تهلل له وجهه وظهر فيه أثره ثم اختلف فيه الأقاويل لاحتماله وجوه جميع المسار فعن مجاهد رضي الله عنه: يكرمون وعن قتادة: ينعمون. وعن أبي كيسان: يحلون. وعن أبي بكر بن عياش: التيجان على رؤسهم. وعن وكيع: السماع في الجنة.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه ذكر الجنة وما فيها من النعيم وفي آخر القوم أعرابي فقال: يا رسول الله هل في الجنة من سماع قال: نعم يا أعرابي إن في الجنة لنهراً حافتاه الإبكار من كل بيضاء خصانية يتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها قط فذلك أفضل نعيم الجنة قال الراوي: فسألت أبا الدرداء: بم يتغنين قال: بالتسبيح وروي: إن في الجنة لأشجار عليها أجراس من فضة فإذا أراد أهل الجنة السماع بعث الله ريحاً من تحت العرش فتقع في تلك الأشجار فتحرك تلك الأجراس بأصوات لو سمعها أهل الدنيا لماتوا طرباً} محضرون} لا يغيبون عنه ولا يخفف عنهم كقوله {وما هم بخارجين منها} [المائدة: 37] {لا يفتر عنهم} [الزخرف: 75].

{فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون} لما ذكر الوعد والوعيد أتبعه ما يوصل إلى الوعد وينجي من الوعيد والمراد بالتسبيح ظاهره الذي هو تنزيه الله من السوء والثناء عليه بالخير في هذه الأوقات لما يتجدد فيها من نعمة الله الظاهرة. وقيل: الصلاة. وقيل لأبن عباس رضى الله عنهما: هل تجد الصلوات الخمس في القرآن قال: نعم وتلا هذه الآية {تمسون} صلاتاً المغرب والعشاء {تصبحون} صلاة الفجر {وعشيا} صلاة العصر. و{تظهرون} صلاة الظهر. وقوله {وعشياً} متصل بقوله {حين تمسون} وقوله {وله الحمد في السموات والأرض} أن يحمدون. فإن قلت: لم ذهب الحسن رخمه الله إلى أن هذه الآية مدنية قلت: لأنه كان يقول: فرضت الصلوات الخمس بالمدينة وكان الواجب بمكة ركعتين في غير وقت معلوم. والقول الأكثر أن الخمس إنما فرضت بمكة. وعن عائشة رضى الله عنها: فرضت الصلاة ركعتين فملا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أقرت صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: من سره أن يكال له بالقفيز الأوفى فليقل {فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون}..... الآية وعنه عليه الصلاة السلام: من قال حين يصبح {فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون} إلى قوله {وكذلك تخرجون} أدرك ما فاته في يومه. ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاته في ليلته وفي قراءة عكرمة: حينا تمسون وحينا تصبحون والمعنى تمسون فيه وتصبحون فيه كقوله {يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً} البقرة: 48 بمعنى فيه} الحي من الميت} الطائر من البيضة و {الميت من الحي} البيضة من الطائر وأحياء الأرض: إخراج النبات منها} وكذلك تخرجون} ومثل ذلك الإخراج تخرجون من القبور وتبعثون. والمعنى: أن الإبداء والإعادة متساويتان في قدرة من هو قادر على الطرد والعكس من إخراج الميت من الحي وإخراج الحي من الميت وإحياء الميت وإماتة الحي. وقرئ الميت بالتشديد. وتخرجون بفتح التاء.

{ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون} {خلقكم من تراب} لأنه خلق أصلهم منه. و{إذا} للمفاجأة. وتقديره: ثم فاجاتهم وقت كونكم بشراً منتشرين في الأرض. كقوله {وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء} [النساء: 1] {من أنفسكم أزاواجاً} لأن حواء خلقت من ضلع آدم عليه السلام والنساء بعدها خلقن من أصلاب الرجال. أو من شكل أنفسكم وجنسها لا من جنس آخر وذلك لما بين الجنسين المختلفين من التنافر {وجعل بينكم} التواد والتراحك بعصمة الزواج بعد أن لم تكن بينكم سابقة معرفة ولا لقاء ولا سبب يوجب التعاطف من قرابة أو رحم. وعن الحسن رضي الله عنه: المودة كناية عن الجماع والرحمة عن الولد كما قال {ورحمة منا} [مريم: 21] وقال {ذكر رحمة ربك عبده} [مريم: 2] ويقال: سكن إليه مال إليه كقولهم: انقطع إليه واطمأن إليه - ومنه السكن. وهو الإلف المسكون إليه. فعل بمعنى مفعول. وقيل: إن المودة والرحمة من قبل الله وإن الفرك من قبل الشيطان.

{ومن آياته خلق السموات والأرض واختلفت ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين} الألسنة: اللغات أو أجناس النطق وأشكاله. خالف عز وعلا بين هذه الأشياء حتى لا تكاد تسمع منطقين متفقين في همس واحد ولا جهارة ولا حدة ولا رخاوة ولا فصاحة ولا لكنة ولا نظم ولا أسلوب ولا غير ذلك من صفات النطق وأحواله وكذلك الصور وتخطيطها والألوان وتنويعها ولاختلاف ذلك وقع التعارف وإلا فلو اتفقت وتشاكلت وكانت ضرباً واحداً لوقع التجاهل والإلتباس ولتعطلت مصالح كثيرة وربما رأيت توأمين يشتبهان في الحيلة فيعروك الخطأ في التمييز بينهما وتعرف حكمة الله في المخالفة بين الحلي وفي ذلك آية بينة حيث ولدوا من أب واحد وفرعوا من أصل فذ وهم على الكثرة التي لا يعلمها إلا الله مختلفون متفاوتون.

وقرئ للعالمين بفتح اللام وكسرها ويشهد للكسر قوله تعالى {وما يعقلها إلا العالمون} {ومن آياته منامكم باليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون} هذا من باب اللف والنشر وترتيبه: ومن آياته منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار إلا أنه فصل بين القرينين الأولين بالقرنين الآخرين. لأنهما زمانان والزمان والواقع فيه كشئ واحد مع إعانة اللف على الاتحاد. ويجوز أن يراد: منامكم في الزمانين وابتغاءكم فيهما والظاهر هو الأول لتكرره في القرآن وأسد المعاني ما دل عليه القرآن يسمعونه بالآذان الواعية.

{ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون} وفي {يريكم} وجهان: إضماران وإنزال الفعل منزلة المصدر وبهما فسر المثل: نسمع بالمعيدي خير من أن تراه. و وقول القائل:

إلى الإصباح آثر ذي أثير**وقالوا ما تشاء فقلت ألهو

{خوفاً} من الصاعقة أو من الإخلاف {وطمعاً} في الغيث. وقيل: خوفاً للمسافر وطمعاً للحاضر وهما منصوبات على المفعول له. فإن قلت: من حق المفعول له أن يكون فعلاً لفاعل الفعل المعلل والخوف والطمع ليسا كذلك. قلت: فيه وجهان أحدهما: ان المفعولين فاعلون في المعنى لأنهم راءون فكأنه قيل: يجعلكم رائين البرق خوفاً وطمعاً. والثاني: أن يكون على تقدير حذف المضاف أي إرادة خوف وإرادة طمع فحذف المضاف وأقيم المضاف غليه مقامه. ويجوز أن يكون حالين أي: خائفين وطامعين. وقرئ ينزل بالتشديد.

{ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون وله من في السموات والأرض كل له قانتون} {ومن آياته} قيام السموات والأرض واستمساكهما بغير عمد {بأمره} أي بقوله: كونا قائمين.

والمراد بإقامته بهما: إرادته لكونهما على صفة القيام دون الزوال. وقوله {إذا دعاكم} بمنزلة قوله: يريكم في إيقاع الجملة موقع المفرد على المعنى كأنه قا: ومن آياته قيام السموات والأرض ثم خروج الموتى من القبور إذا دعاهم دعوة واحدة: با أهل القبور اخرجوا. والمراد سرعة وجود ذلك من غير توقف ولا تلبث كما يجيب الداعي المطاع مدعوه كما قال القائل:

دعوت كليباً دعوة فكانما** دعوت به ابن الطود أو هو أسرع

يريد بابن الطود: الصدى أو الحجر إذا تدهدى وإنما عطف على قيام السموات والأرض بثم بياناً لعظم ما يكون من ذلك الأمر واقتداره على مثله وهو أن يقول: يا أهل القبور قوموا فلا تبقى نسمة م الأولين والآخرين إلا قامت تنظر كما قال تعالى {ثم نفخ فيه أخرى

{فإذا هم قيام ينظرون} [الزمر: 68]. قولك دعوته من مكان كذا كما يجوز أن يكون مكانك يجوز أن يكون نكان صاحبك تقول: دعوت زيداً من أعلى الجبل فنزل علي: ودعوته من أسفل الوادي فطلع إلي. فإن قلت: بم تعلق {من الأرض} أبا الفعل أم بالمصدر قلت: الأولى للشرك والثانية للمفاجأة وهي تنوب مناب الفاء في جواب الشرط. وقرئ تخرجون بضم التاء وفتحها} قانتون} أي منقادون لوجود أفعاله فيهم لا يمتنعون عليه.

{وهو الذي يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم}.

{وهو أهون عليه} فيما يجب عندكم ونقاس على أصولكم ويقتضيه معقولكم لأن من أعاد منكم صنعة شئ كانت أسهل عليه وأهون من إنشائها وتعتذرون للصانع إذا خطئ في بعض ما ينشئه بقولكم: أول الغزو أخرق وتسمون الماهر في صناعته معاوداً تعنون أنه عاودها كرة بعد أخرى حتى مرن عليها وهانت عليه. فإن قلت: لم ذكر الضمير في قوله {وهو أهون عليه} والمراد به الإعادة قلت: معناه: أن يعيده أهون عليه. فإن قلت: لم أخرت الصلة في قوله {وهو أهون عليه} وقدمت في قوله {هو علي هين} [مريم: 21] قلت: هناك قصد الاختصاص وهو مجزة فقيل: هو علي هين وإن كان مستصعباً عندكم أن يولد بين هم وعاقر وأما ههنا فلا معنى للإختصاص كيف والأمر مبني على ما يعقلون من أن الإعادة أسهل من الإبتداء فلو قدمت الصلة لتغير المعنى. فإن قلت: ما بال الإعادة استعظمت في قوله {ثم إذا دعاكم} حتى كأنه فضلت على قيام السموات والأرض بأمره ثم هونت بعد ذلك قلت: الإعادة في نفسها عظيمة ولكنها هونت بالقياس إلى الإنشاء. وقيل الضمير في عليه للخلق. معناه: أن البعث أهون على الخلق من الإنشاء لأن تكوينه في حد الإستحكام والتمام أهون عليه وأقل تعباً وكبداً من أن يتنقل في أحوال ويندرج فيها إلى أن يبلغ ذلك الحد. وقيل: الأهون بمعنى الهين.

ووجه آخر: وهو أن الإنشاء من قبيل التفضيل الذي يتخير فيه الفاعل بين أن يفعله وأن لا يفعله والإعادة من قبيل الواجب الذي لا بد له من فعله لأنه لجزاء الأهمال وجزاؤها واجب والأفعال: إما محال والمحال ممتنع أصلاً خارج عن المقدرة وإما ما يصرف الحكيم عن فعله صارف وهو القبيح وهو رديف المحال لأن الصارف يمنع وجود الفعل. وإما واجب لا بد من فعله ولا سبيل إلى الإخلال به فكان الواجب أبعد الأفعال من الإمتناع وأقربها من الحصول.

فلما كانت الإعادة من قبيل الواجب كانت أبعد الأفعال من الإمتناع. وإذا كانت أهون منها كانت أهون من الإنشاء {وله المثل الأعلى} أي الوصف الأعلى الذي ليس لغيره مثله قد عرف به. ووصف في السموات والأرض على ألسنة الخلائق وألسنة الدلائل وهو أنه القادر الذي لا يعجز عن شئ من إنشاء وإعادة وغيرهما من المقدورات ويدل عليه قفوله تعالى {وهو العزيز الحكيم} أي القاهر لكل مقدور {الحكيم} الذي يجري كل فعل على قضايا حكمته وعلمه. وعن مجاهد} المثل الأعلى} قول لا إله إلا الله ومعناه: وله الوصف الأعلى الذي هو الوصف بالوحدانية. ويعضد قوله تعالى {ضرب لكم مثلاً من أنفسكم} [الروم: 28] وقال الزجاج {وله المثل الأعلى في السموات والأرض} أي: قوله تعالى {وهو أهون عليه} قد ضربه لكم مثلاً فيما يصعب ويسهل. يريد: التفسير الأول.

{ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون} فإن قلت: أي فرق بين الأولى والثانية والثالثة في قوله تعالى {من أنفسكم} {من ما ملكت أيمانكم} {من شركاء} قلت: الأولى للإبتداء كأنه قال: أخذ مثلاً وانتزعه من أقرب شئ منكم وهي أنفسكم ولم يبعد والثانية للتبعيض والثالثة مزيدة لتأكيد الإستفهام الجاري مجرى النفي.

ومعناه: هل ترضون لأنفسكم - وعبيدكم أمثالكم بشر كبشر وعبيد كعبيد - أن يشارككم بعضهم} في ما رزقناكم} من الأمول وغيرها ما تكونوا أنتم وهم فيه على السواء من غير تفضلة بين حر وعبد: نهابون أن تستبدوا بتصرف دونهم أن تفتانوا بتدبير عليهم كما يهاب بعضهم بعضاً من الأحرار فإذا لم ترضوا بذلك لأنفسكم فكيف ترضون لرب الأرباب ومالك الأحرار والعبيد أن تجعلوا بعض عبيده له شركاء {وكذلك} أي مثل هذا التفصيل {نفصل الأيات} أي نبينها} لأن التمثيل مما يكشف المعاني ويوضحها لأنه بمنزلة التصوير والتشكيل لها.

ألا ترى كيف صور الشرك بالصورة المشوهة} بل اتبع ظلموا أهواءهم بغير علم فم يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين} {الذين ظلموا} أي أشركوا كقوله تعالى {إن الشرك لظلم عظيم} [لقمان: 13] {بغير علم} أياتبعوا أهواءهم جاهلين لأن العالم إذا ركب هواه ربما ردعه علمه وكفه. وأماالجاهل فيهيم على وجهه كالبهيمة لا يكفه شئ} من أضل الله} من خذله ولم يلطف به لعلمه أنه ممن لا لطف له فمن يقدر على هداية مثله. وقوله {وما لهم من ناصرين} دليل على أن المراد بالإضلال الخذلان.

{فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون} {فأقم وجهك للدين} فقوم وجهك له وعد له غير ملتفت عنه يميناً ولا شكالاً وهو تمثيل لإقباله على الدين واستقامته عليه وثباته واهتمامه بأسبابه فإن من اهتم بالشئ عقد عليه طرفه وسدد إليه نظره وقوم له وجهه مقبلاً به عليه. و{حنيفاً} حال من المأمور. أو من الدين {فطرت الله} أي الزموا فطرة الله. أو عليكم فطرة الله. وإنما أضمرته على خطاب الجماعة لقوله {منبين إليه} ومنيبين: حال من الضمير في الزموا. وقله: واتقوا وأقيموا ولاتكونوا معطوف على هذا المضمر. والفطرة: الخلقة. ألا ترى إلى قوله {لا تبديل لخلق الله} والمعنى: أنه خلقهم قابلين للتوحيد ودين الإسلام غير نائين عنه ولا منكرين له لكونه مجاوباً للعقل مساوقاً للنظر الصحيح حتى لو تركوت لما اختاروا عليه ديناً آخر ومن غوى منهم فبإغواء شياطين الإنس والجن. منه قوله صلى الله عليه وسلم: كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه وينصرانه{لا تبديل لخلق الله} أي ما ينبغي أن تبدل تلك الفطرة أو تغير. فإن قلت: لم وحد الخطاب أولا ثم جمع قلت: خوكب رسول الله صلى الله عليه وسلم أولا وخطاب الرسول خطاب لأمته مع ما فيه م التعظيم لإمام ثم جمع بعد ذلك للبيان والتللخيص {من الذين} بدل من المشركين فاروقا دينهم تركوا دين الإسلام. وقرئ: فرقوا دينهم بالتشديد أي: جعلوه أدياناً مختلفة لا اختلاف أهوائهم {وكانوا شيعاً} فرقاً كل واحدة تشايع إمامها الذي أضلها {كل حزب} منهم فرح بمذهبه مسرور يحسب باطله حقاً - ويجوز أن يكون {من الذين} منقطعاً مما قبله ومعناه: من المفارقين وكل خليل غير هاضم نفسه {وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون} الضر: الشدة من هزال أو مرض أو قحط أو غير ذلك. والرحمة: الخلاص من الشدة. واللام في {ليكفروا} مجاز مثلها في {ليكون لهم عدواً} [القصص: 8]. {فتمتعوا} نظير{اعملوا ما شئتم} [فصلت: 40] {فسوف تعلمون} وبال تمتعكم وقرأ ابن مسعود: وليتمتعوا.

{أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون} السلطان: الحجة وتكلمه. مجاز كما تقول: كتابه ناطق بكذا وهذا مما نطق به القرآن.

ومعناه الدلالة والشهادة كأنه قال: فهو يشد بشركهم وبصحته. وما في {بما كانوا} مصدرية أي: بكونهم بالله بشركون. ويجوز أن تكون موصلة ويرجع الضمير إليها. معناه:

فهو يتكلم بالأمر الذي يسببه يشركون ويحتمل أن يكون المعنى: أم أنوزلنتا عليهم ذا سلطان أي: ملكاً معه برهان فذلك الملك يتكلم بالبرهان الذي بسببه يشركون.

{وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون} {وإذا أذقنا الناس رحمة} أي نعمة من مطر أو سعة أو صحة {فرحوا بها وإن تصبهم سيئة} أي {أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون} أولم أنكر عليهم بأنهم قد علموا أنه هو الباسط القابض فما لهم يقنطون من رحمته وما لهم لا يرجعون إليه تائهين من المعصي التي عوقبوا بالشدة من أجلها حتى يعيد إليهم رحمته.

{فآت ذا القربى حقه والمساكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون} حق ذي القربى: صلة الرحم. وحق المسكين وابن السبيل: نصيبهما من الصدقة المسماة لهما.

وقد احتج أبو حنيفة رحمه الله بهذه الآية في وجوب النفقى للمحارم إذا كانوا محتاجين عاجزين عن الكسب. وعند الشافعي رحمه الله: لا نفقة بالقرابة إلا على الولد والوالد: قاس سائر القربات على ابن العم لأنه لا ولاد بينهم. فإن قلت: كيف تعلق قوله {فات ذا القربى} بما قبله حتى جيء بالفاء قلت: لما ذكر أن السيئة أصابتهم بما قدمت أيديهم أتبعه ذكر ما يجب أن يفعل وما يجب أن يترك} يريدون وجه الله} يحتمل أن يراد بوجهه ذاته أو جهته وجانبه أي: يقصدون بمعروفهم إياه خالصاً وحقه كقوله تعالى {إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى} [الليل: 20] أو يقصدون جهة التقرب إلى الله لا جهة أخرى والمعنيات متقاربات ولكن الطريقة مختلفة.

{وما آتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله وما آتيتم من زكاوة تريدون وجه} هذه الآية في معنى قوله تعالى {يمحق الله الربا ويربي الصدقات} [البقرة: 278] سواء بسواء يريد: وما أعطيتم أكله الربا {من ربا ليربوا في} أموالهم: ليزيد ويزكو في أموالهم فلا يزكو عند الله ولا يبارك فيه {وما آتيتهم من زكاة} أي صدقة تبتغون به وجهه خالصاً لا تتطلبون به مكافأة ولا رياء وسمعة {فأولئك هم المضعفون} ذوو الإضعاف من الحسنات. ونظير المضعف: المقوى والموسر لذي القوة واليسار: وقرئ بفتح العين. وقيل نزلت في ثقيف وكانوا يربون.

وقيل: المراد أن يهب الرجل للرجل أو يهدى له ليعوضه أكثر مما وهب أو أهدى فليست تلك الزيادرة بحرام ولكن المعوض لا يثاب على تلك الزيادة. وقالوا: الربتا ربوان: فالحرام: كل قرض يؤخذ فيه أكثر منه: أو يجر منفعة. والذي ليس بحرام: أن يستدعى بهديته أكثر منها. وفي الحديث: المستغزر يثاب من هبته وقرئ: وما أتيتم من ربا بمعنى: وما غشيتموه أو رهقتموه من إعطاء ربا قرئ: لترابوا أي: لتزيادزوا في أموالهم كقوله تعالى {ويربي الصدقات} أي يزيدها.

وقله تعالى {فأولئك هم المضعفون} التفاوت حسن كأنه قال لملائكته وخواص خلقه: فأولئك الذين يريدون وجه الله بصدقاتهم: هم المضعفون. فهو أمدح لهم من أن يقول: فأنتم المضعفون.

والمعنى: المضعفون به المضعفون. والحذف لما في الكلام من الدليل عليه وهذا أسهل مأخذاً والأول أملأ بالفائدة.

{الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شئ سبحانه وتعالى عما يشركون} {الله} مبتدأ وخبره {الذين خلقكم} أي الله هو فاعل هذه الأفعال الخاصة التي لا يقدر على شئ منها أحد غيره ثم قال {هل من

{شركائكم} الذين اتخذتموهم أنداداً له من الأصنام وغيرها {من يفعل} شيئاً قط من تلك الأفعال حتى يصح ما ذهبتم إليه ثم استبعد حاله من حال شركائهم. ويجوز أن يكون {الذي خلقكم} صفة للمبتدأ والخبر: هل من شركائكم وقوله {من ذلكم} هو الذي ربط الجملة بالمبتدأ لأن معناه: من أفعاله ومن الأولى والثانية والثالثة: كل واحدة منهن مستقلة بتأكيد لتعجيز شركائكم وتجهيل عبدتهم.

{ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي علموا لعلهم يرجعون} {الفساد في البر والبحر} نحو: الجذب والقحط وقلة الريع في الزراعات والربح في التجارات ووقوع الموتان في الناس والدواب وكثر الحرق والغرق وإخفاق الصيادين والغاصة ومحق البركات من كل شئ وقلة المنافع في الجملة وكثرة المضار. وعن ابن عباس: أجدبت الأرض وانقطعت مادة البحر وقراه التي على شاطئه. وعن عكرمة: العرب تسمى الأمصار البحار.

وقرئ: في البر والبحور {بما كسبت أيدي الناس} بسبب معاصيهم وذنوبهم كقوله تعالى {وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم} [الشورى: 30] وعن ابن عباس {ظهر الفساد في البر} بقتل ابن آدم أخاه. وفي البحر بأن جلندي كان يأخذ كل سفينة غصباً وعن قتادة: كان ذلك قبل البعثة فملا بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجع راجعون عن الضلالة والظلم.

ويجوز أن يريد ظهور الشر والمعاصي بكسب الناس ذلك. فإن قلت: ما معنى قوله {ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون} قلت أما على التفسير الأول فظاهر وهو أن الله قد أفسد أسباب دنياهم ومحقها ليذيقهم وبال بعض أعمالهم في الدنيا قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة لعلهم يرجعون عما هم عليه وأما على الثاني فاللام مجاز على معنى أن ظهور الشرور بسببهم مما استجبوا به أن يذبقثهم الله وبال أعمالهم إرادة الرجوع فكانهم إنما أفسدوا وتسببوا لفشو المعاصي في الأرض لأجل ذلك. وقرئ: لنذيقهم بالنون.

{قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين} ثم أكد تسبب المعاصي لغضب الله ونكاله: حيث أمرهم بأن يسيروا في الأرض فينظروا كيف أهلك الله الأمم وأذاقهم سوء العاقبة لمعاصيهم ودل بقوله {كان أكثرهم مشركين} على أن الشرك وحده لم يكن سبب تدميرهم وأن ما دونه من المعاصي يكون سبباً لذلك.

{فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون} القيم: البليغ الاستقامة الذي لا يتأتى فيه عوج {من الله} إما أن يتعلق بيأتى فيكون المعنى: من قبل أن يأتى من الله يوم لا يرده أحد يكقوله تعالى {فلا يستطيعون ردها} [الأنبياء: 40] أو بمرد على معنى: يلا يرده هو بعد أن يجئ به ولا رد له من جهته. والمرد: مصدر الرد {يصدعون} يتصدعون: أي يتفرقون كقوله تعالى {ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون} [الروم: 14].

{من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله إنه لا يحب الكافرين} {فعليه كفره} كلمة جامعة لما لا غاية وراءه من المضار. لأن من كان ضاره كفره فقد أحاطت به كل مضرة {فلأنفسهم يمهدون} أي يسوون لأنفسهم ما يسوون لأنفسهم ما يسويه لنفسه الذي يمهد فراشه ويوطئه لئلا يصيبه في مضجعه ما ينبيه عليه وينغص عليه مرقده: من نتوء أو فضض أو بعض ما يؤذي الراقد ويجوز أن يريد: فعلى أنفسهم يشفقون من قولهم في المشفق: أم فرشت فأنا من. وتقديم الظرف في الموضعين للدلالة على أن ضرر الكفر لا يعود إلا على الكافر لا يتعداه. ومنفعة الإيمان والعمل الصالح: ترجع إلى المؤمن لا تتجاوزه {ليجزى} متعلق

بيمهدون تعليل له {من فضله} مما يتفضل عليهم بعد توفيه الواجب من الثواب وهذا يشبه الكناية لأن الفضل تبع للثواب فلا يكون إلا بعد حصول ما هو تبع له: أو أراد من عطائه وهو ثوابه لأن الفضول والفواضل هي الأعطية عند العرب. وتكرير{الذين آمنوا وعملوا الصالحات} وترك الضمير إلى الصريح لتقرير أنه لا يفلح عنده إلا المؤمن الصالح. وقوله {إنه لا يحب الكافرين} تقرير بعده تقرير على الطرد والعكس.

{ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون} {الرياح} هي الجنوب والشمال والصبا وهي رياح الرحمة. وأما الدبور فريح العذاب ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً وقد عدد الأغراض في إرسالها وأنه أرسلها للبشارة بالغيث وإذاقة الرحمة وهي نزول المطر وحصول الخصب الذي يتبعه والروح الذي مع هبوب الريح وزكاة الأرض. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا كثرت المؤتفكات زكت الأرض وإزالة العفونة من الهواء وتذريه الحبوب وغير ذلك {ولتجري الفلك} في البحر عند هبوبها. وإنما زاده {بأمره} لأن الريح قد تهب ولا تكون مؤاتية فلا بد من إرسال السفن والاحتيال لحسبها وربما عصفت فأغرقتها{ولتبتغوا من فضله} يريد تجارة البحر ولتشكروا نعمة الله فيها فإن قلت: بم يتعلق وليذيقكم قلت: فيه وجهان: أن يكون معطوفاً على مبشرات على المعنى كأنه قيل: ليبشركم وليذيقكم. وأن يتعلق بمحذوف تقديره: وليذيقكم وليكون كذا وكذا: أرسلناها.

{ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين} اختصر الطريق إلى الغرض بأن أدرج تحت ذكر الانتصار والنصر ذكر الفريقين وقد أخلى الكلام أولا عن ذكرهما. وقوله {وكان حقاً علينا نصر المؤمنين} تعظيم للمؤمنين ورفع من شأنهم وتأهيل لكرامة سنية وإظهار لفضل سابقة ومزية حيث جعلهم مستحقين على الله أن ينصرهم مستوجبين عليه أن يظهرهم ويظفرهم وقد يوقف على {حقاً}. ومعناه: وكان الإنتقام منهم حقاً ثم يبتدأ {علينا نصر المؤمنين} وهم النبي صلى الله عليه وسلم: ما من امرئ مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة. ثم تلا قوله تعالى {وكان حقاً علينا نصر المؤمنين}.

{الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين} {فيبسطه} متصلاً تارة} ويجعله كسفاً} أي قطعاً تارة} فترى الودق يخرج من خلاله} في التارتين جميعاً والمراد بالسماء. سمت السماء وشقها كقوله تعالى {وفروعها في السماء} [إبراهيم: 24] وبإصابة العباد: إصابة بلادهم وأرضيهم} من قبله} من باب التكرير والتوكيد فيه: الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول وبعد فاستحكم بأسهم وتمادى إبلاسهم فكان الاستبشار على قدر اغتنامهم بذلك.

{فانظر إلى آثر رحمت الله كيف يحي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحي الموتى وهو على كل شئ قدير} قرئ: أثر وآثار على الوحدة والجمع. وقرأ أبو حيوة وغيرة: كيف تحيى أي: الرحمة {إن ذلك} يعني إن ذلك القادر الذي يحي الأرض بعد موتها هو الذي يحي الناس بعد موتهم {وهو على كل شيء} من المقدرات قادر وهذا من جملة المقدورات بدليل الإنشاء.

{ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً لظلوا من بعده يكفرون فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين وما أنت بهذا العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون} {فرأوه} فرأوا أثر رحمة الله لأن رحمة الله هي الغيث وأثرها: النيات. ومن قرأ بالجمع: رجع الضمير إلى معناه لأن معنى آثار الرحمة النبات واسم النبات يقع على القليل والكثير لأنه مصدر سمي به ما ينبت. هي اللام الموطئة للقسم

دخلت على حرف الشرط ومعناه: ليظل ذمهم الله تعالى بأنه إذا حبس عنهم القطر قنطوا من رحمته وضربوا أذقانهم على صدورهم مبلسين فإذا أصابهم برحمته ورزقهم المطر: استبشروا وابتهجوا فإذا أرسل ريحاً فضرب زروعهم بالصفار ضجوا وكفروا بنعمة الله. فهم في جميع هذه الأحوال على الصفة المذموم كان عليهم أن يتولكوا على الله وفضله فقنطوا. وأن يشكروا نعمته ويمدوه عليها فلم يزيدوا على الفرح والاستبشار. وأن يصبروا على بلائه فكفروا. والريح التي اصفر لها النبات: يجوز أن تكون حروراً وحرجفاً فكلتا هما مما يصوح له النبات: يجوز أن تكون حروراً وحرجفاً فكلتاهما مما يصوح له النبات ويصبح هشيماً. وقال: مصفراً: لأن تلك صفرة حادثة. وقيل: فرأوا السحاب مصفراً لأنه إذا كان كذلك لم يمطر.

{الله الذي خلقكم من ضعيف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير} قرئ: بفتح الضاد وضمنها وهما لغتان. والضم أقوى في القراءة ملا روى ابن عمر رضى الله عنهما: قال: قرأتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم من ضعف فأقرأني من ضعف. وقوله {خلقكم من ضعف} كقوله {خلق الإنسان من عجل} [الأنبياء: 37] يعني أن أساس أمركم وما عليه جبلتكم وبنيتكم الضعف {وخلق الإنسان ضعيفاً} [النساء: 28] أي ابتدأناكم في أول الأمر ضعافاً. وذلك حال الطفولة والنشئ حتي بلغتم وقت الاحتلام والشبيبة وتلك حال القوة إلى الاكتهال وبلوغ الأشد ثم رددتم إلى أصل حالكم وهو الضعف بالشيخوخة والهرم. وقيل: من ضعف كم النطف كقوله تعالى {من ماء مهين} [السجدة: 8 المرسلات: 20] وهذا الترديد في الأحوال المختلفة والتغيير من هيئة إلى هيئة وصفة إلى صفة: أظهر دليل وأعدل شاهد على الصانع العليم القادر.

{ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون} الساعة القيامة سميت بذلك لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعة الدنيا أو لأنها تقع بغتة وبديهة. كما تقول: في ساعة لمن تستعجله وجرت علماً لها كالنجم للثريا والكوكب للزهرة.

وأرادوا: لبثهم في الدنيا أو في القبور أو فيما بين فناء الدنيا إلى البعث. وفي الحديث: وما بين فناء الدنيا إلى وقت البعث أربعون قالوا: لا نعلم أهي أربعون سنة أم أربعون ألف سنة. وذلك وقت يفنون فيه وينقطع عذابهم وإنما يقدرون وقت لبثهم بذلك على وجه استقصارهم له. أو أو ينسون أو يكذبون أو يخمنون {كذلك كانوا يؤفكون} أي مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون عن الصدق والتحقيق في الدنيا وهكذا كانوا يبنون أمرهم على خلاف الحق. أو مثل ذلك الإفك كانوا يؤفكون في الاغترار بما تبين لهم الآن أنه ما كان ساعة.

{وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون} القائلون: هم الملائكة والأنبياء. والمؤمنون {في كتب الله} في اللوح. أو في علن الله وقضائه. أو فيما كتبه أي: أوجبه بحكمته. ردوا ما قالوه وحلفوا عليه وأطلعوهم على الحقيقة ثم وصلوا ذلك بتقريعهم على إنكار البعث بقولهم {فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون} أنه حق لتفريطكم في طلب الحق واتباعه. فإن قلت: ما هذه الفاء وما حقيقتها قلت: هي في قوله: فقد جئنا خراسانا وحقيقتها: أنها جواب شرط يدل عليه الكلام كأنه قال: إن صح ما قلتم من أن خراسان أقصى ما يراد بنا فقد جئنا خراسان وآن لنا أن نخلص وكذلك إن كنتم منكرين البعث فهذا يوم البعث أي فقد تبين بطلان قولكم. وقرأ الحسن يوم البعث بالتحريك {لا ينفع} قرئ بالياء والتاء {يستعتبون} من قولك: استعتبني فلان فأعتبته. أي: استرضيته وذلك إذا كنت جانياً عليه. وحقيقته أعتبته: أزلت عتبه. ألا ترى إلى قوله:

غضبت تـمـيم أن تـقـتـل عـامـر** يوم النسار فأعـتـبـوا بـالـصـلـيم

كيف جعلهم غضابا ثم قال: فأعتبوا أي: أويل غضبهم. والغضب في معنى العتب. والمعنى: لا يقال لهم أرضوا ربكم بتوبة وطاعة ومثله قوله تعالى {لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون} [الجاثية: 35]. فإن قلت: كيف جعلوا غير مستعتبين في بعض الآيات وغير معتبين في بعضها وهو قوله {وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين} [فصلت: 24] قلت: أما كونهم غير مستعتبين: فهذا معناه. وأما كونهم غير معتبين فمعناه: أنهم غير راضين بما هم فيه فشبهت حالهم بحال قوم جنى عليهم فهم عاتبون على الجاني غير راضين عنه فإن يستعتبوا الله: أي يسألون إزالة ما هم فيه فما هم من المجابين إلى إزالته.

{ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون} {ولقد} وصفنا لهم كل صفة كأنها مثل غرابتها وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن كصفة المبعوثين يوم القيامة وقصتهم وما يقولون وما يقال لهم وما لا ينفع من اعتذارهم ولا يسمع من استعتابهم ولكنهم - لقسوة قلوبهم ومج أسماعهم حديث الآخرة - إذا جئتهم بآية من آيات القرآن قالوا: جئتنا بزور وباطل ثم قال: مثل ذلك الطبع يطبع الله على قلوب الجهلة.

ومعنى طبع الله: منع الألطاف التي ينشرح لها الصدور حتى تقبل الحق وإنما يمنعها من علم أنها لا تجدي عليه ولا تغنى عنه كما يمنع الواعظ الموعظة من يتبين له أن الموعظة تلغو ولا تنجح فيه فوقع ذلك كناية عن قسوة قلوبهم وركوب الصدأ والرين إياها فكأنه قال: كذلك تقسو وتصدأ قلوب الجهلة حتى يسموا المحقين مبطلين وهم أعرق خلق الله في تلك الصفة {فاصبر} على عداوتهم {إن وعد الله} بنصرتك وإظهار دينك على الدين كله {حق} لا بد من انجازه والوفاء به لا يحمنك على الخفة والقلق جزعاً مما يقولون ويفعلون فإنهم قوم شاكون ضالون لا يستبعدون منهم ذلك وقرئ بتخفيف النون وقرأ ابن أبي إسحق ويعقوب ولا يستحقنك أي يفتننك فيملكوك ويكونوا أحق بك من المؤمنين. عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ سورة الروم كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل ملك سبح الله بين السماء والأرض وأدرك ما ضيع في يومه وليلته.

سورة لقمان

مكية وآياتها 34 وقيل 33

بسم الله الرحمن الرحيم

{الم تلك آيات الكتاب الحكيم هدى ورحمة للمحسنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون} {الكتاب الحكيم} ذي الحكمة. أو وصف بصفة الله تعالى على الإسناد المجازي. ويجوز أن يكون الأصل: الحكيم قائله فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فبانقلابه مرفوعاً بعد الجر استكم في الصفة المشبهة {هدى ورحمة} بالنصب على الحال عن الآيات والعامل فيها: ما في تلك من معنى الإشارة. وبالرفع على أنه خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف {للمحسنين} للذين يعلمون الحسنات وهي التي ذكرها: من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيقان بالآخرة ونظيره قول أوس الألمعي الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا حكى عن الأصمعي: أنه سئل عن الألمعي فأنشده ولم يزد. أو للذين يعملون جميع ما يحسن من الأعمال ثم خص منهم القائمين بهذه الثلاث بفضل الاعتداد بها.

{ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين وإذا تتلى عليه آيتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرأ فبشره بعذاب أليم} اللهو كل باطل ألهي عن لخير وعما يعني و{لهو الحديث} نحو السمر بالأساطير والأحاديث التي أصل لها والتحديث بالخرافات والمضاحيك وفضول الكلام وما لا ينبغي من كان وكان ونحو الغناء وتلعم الموسيقار وما أشبه ذلك وقيل: نزلت في النضر بن الحرث ةكان يتجر إلى فارس فيشتري كتب الأعاجم فيحدث بها قريشاً ويقول: إن كان محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود فأنا أحدثكم بأحديث رستم وبهرام والأكاسير وملوك الحيرة فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن. وقيل: كان يشتري المغنيات فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته فيقول: أطعميه واسفيه وغنيه ويقول: هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم: لا يحل بيع المغنيات ولا شراؤهن ولا التجارة فيهن ولا أثمانهن وعنه صلى الله عليه وسلم: ما من رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله عليه شطانين: أحدهما على هذا المنكب والآخر على هذا المنكب فلا يزالان يضربانه بأرجلهما حتى يكون هو الذي يسكت وقيل: الغناء مندة للمال مسخطة للرب مفسدة للقلب. فإن قلت: ما معنى إضافة اللهو إلى الحديث قلت: معناها التبيين وهي إضافة بمعنى من وأن يضاف الشئ إلى ما هو منه كقولك: صفة خز وباب ساج. والمعنى: من يشتري اللهو من الحديث لأن اللهو يكون من الحديث ومن غيره فبين بالحديث. والمراد بالحديث. الحديث النكر كما جاء في الحديث: الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش ويجوز أن تكون الإضافة بمعنى من التبعيضية كأنه قيل: ومن الناس من يشتري بعض الحديث الذي هو اللهو منه. وقوله {يشتري} إما من الشراء على ما روى عن النضر: من شراء القيان. وإما من قوله {اشتروا الكفر بالإيمان} [آل عمران: 177] أي استبدلوا منه واختاروه عليه. وعن قتادة: اشتراؤه: استحبابه يختار حديث الباطل على حديث الحق. وقرئ {ليضل} بضم الياء وفتحها.

و{سبيل الله} دين الإسلام أو القرآن. فإن قلت: القراءة بالضم بينة لأن النضر كان غرضه باشتراء اللهو: أن يصد الناس عن الدخول في الإسلام واستماع القرآن ويضلهم عنه فما معنى القراءة بالفتح قلت: فيه معنيان أحدهما: ليثت على ضلالة الذين كان عليه ولا يصدف عنه ويزيد فيه ويمده فإن المخذول كان شديداً الشكيمة في عداوة الدين وصد الناس عنه.

والثاني: أن يوضع ليضل موضع ليضل من قبل أن من أضل كان ضالاً لا محالة فدل بالرديف على المردوف. فإن قلت: ما معنى قوله {بغير علم} قلت: ملا جعله مشترياً لهو الحديث بالقرآن قال: يشتري بغير علم بالتجارة بصيرة بها حيث يستبدل الضلال بالهدى والباطل بالحق.

ونحوه قوله تعالى {فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين} [البقرة: 16] أي: وما كانوا مهتدين للتجارة بصراء بها: وقرئ} ويتخذها} بالنصب والرفع عطفاً على يشتري الله من آمن به وتبغونها عوجا}[الأعراف: 86]. يسمعها وهو سامع ": أن في أذنيه وقراً أي ثقلاً ولا وقر فيهما وقرئ: بسكون الذال. فإن قلت: ما محل الجملتين المصدرتين بكان قلت: الأولى حال من مستكبراً والثانية من لم يسمعها: ويجوز أن تكونا استئنافين والأصل في كأن المخففة: كأنه والضمير: ضمير الشأن.

{إن الذين آمنوا وعلموا الصالحات لهم جنات النعيم خالدين فيها وعد الله حقاً وهو العزيز الحكيم خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين} {وعد الله حق} مصدران

مؤكدان الأول: مؤكد لنفسه والثاني مؤكد لغيره لأن قوله {لهم جنات النعيم} في معنى: وعدهم الله جنات النعيم فأكد معنى الوعد بالوعد. وأما} حقا} فدال على معنى الثبات: أكد به معنى الوعد ومؤكد هما جميعاً قوله {لهم جنات النعيم} وهو العزيز} الذي لا يغلبه شئ ولا يعجزه يقدر على الشئ وضده فيعطي النعيم من شاء والبؤس من شاء وهو {الحكيم} لا يشاء إلا ما توجبه الحكمة والعدل {ترونها} الضمير فيه السموات وهو استشهاد برؤيتهم لها غير معمودة على قوله {بغير عمد} كما تقول لصاحبك: أنا بلا سيف ولا رمح تراني فإن قلت: ما محلها من الإعراب قلت: لا محل لها لأنها مستأنفة. أو هي في محل الجر صفة للعمد أي: بغير عمد مرئية يعني: أنه عندها بعمد لا ترى وهي إمساكها بقدرته {هذا} إشارة إلى ما ذكر من مخلوقاته. والخلق بمعنى المخلوق. و{الذين من دونه} آلهتهم حتى استوجبوا عندكم العبادة ثم أضرب عن تبكيتهم إلى التسجيل عليهم بالتورط في ضلال ليس بعده ضلال.

{ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد} هو لقمان بن باعورا: ابن أخت أيوب أو ابن خالته. وقيل: كان أولاد آزر وعاش ألف سنة وأدرك داود عليه السلام وأخذ منه العلمن وكان يفتى قبل مبعث داود عليه السلام فما بعث قطع الفتوى فقيل له فقال: ألا أكتفي إذا كفيت وقيل: كان قاضياً في بني إسرائيل وأكثر الأقاويل أنه كان حكيماً ولم يكن نبياً وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لقمان لم يكن نبياً ولا ملكاً ولكن كان راعياً أسود فرزقه الله العتق ورضي قوله ووصيته فقص أمره في القرآن لتمسكوا بوصيته. وقال عكرمة والشعبي: كان نبياً. وقيل: خير بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة. وعن ابن المسيب: كان أسود من سودان مصر خياط وعن مجاهد: ما عبداً أسود غليظ الشفتين متشقق القدمين. وقيل: كان نجاراً. وقيل: كان راعياً وقيل: كان يحتطب لمولاه كل يوم حزمة. وعنه أنه قال لرجل ينظر إليه: إن كنت تراني غليظ الشفتين فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق وإن كنت تراني أسود فقلبي أبيض. وروي أن رجلاً وقف عليه في مجلسه فقال: ألست الذي ترعى معي في مكان كذا قال: بلى. قال ما بلغ بك ما أرى قال: صدق الحديث والصمت عما لا يعنيني. وروي أنه دخل على داود عليه السلام وهو يسرد الدرع وقد لين الله له الحديد كالطين فأراد أن يسأله فأدركته الحكمة فسكت فلما أتمها لبسها وقال: نعم لبوس الحرب أنت. فقال: الصمت حكمة وقليل فاعله فقال له داود: بحق ما سمعت حكيماً.

وروي أن مولاه أمره بذبح شاة وبأن يخرج منها أطيب مضغتين فأخرج اللسان والقلب ثم أمره بمثل ذلك بعد أيام وأن يخرج أخبث مضغتين فأخرج اللسان والقلب فسأله عن ذلك فقال: هما أطيب ما فيها إذا طابا وأخبث ما فيها إذا خبثا. وعن سعيد بن المسيب أنه قال لأسود: لا تحزن فإنه كان من خير الناس ثلاثة من السودان: بلال ومهجع مولى عمر ولقمان.} أن} هي المفسرة لأن غيتان الحكمة في معنى القول وقد نبه الله سبحانه على أن الحكمة الأصلية والعلم الحقيقي: هو العمل بهما وعبادة الله واشكر له حيث فسر إيتاء الحكمة بالبعث على الشكر {غنى} غير محتاج إلى الشكر {حميد} حقيق بأن يحمد وإن لم يحمده أحد.

{وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم} قيل: كان اسم ابنة أنعم وقال الكلبي: أشكم وقيل: كان ابنه وامرأته كافرين فما زال بهما حتى أسلما {لظلم عظيم} لأن التسوية بين من لا نعمة إلا هي منه ومن لا نعمة منه البتة ولا يتصور أن تكون منه - ظلم لا يكتنه عظمه.

{ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم

تعملون} أي {حملته} تهن {وهنا على وهن} كقولك رجع عوداً على بدء بمعنى يعود عوداً على بدء وهو موضع الحال. والمعنى: أنها تضعف فوق ضعف أي: يتزايد ضعفها ويتضاعف لأن الحمل كلما ازداد وعظم ازدادت ثقلاً وضعفاً. قرئ: وهنا على وهن. بالتحريك عن أبي عمرو. يقال: وهن يوهن. ووهن يهن وقرئ: وفصله} أن اشكر} تفسير لوصينا {ما ليس لك به علم} أراد بنفي العلم به نفيه أي: لا تشرك بي ما ليس بشئ يريد الأصنام كقوله تعالى {ما يدعون من دونه من شيء} [العنكبوت: 42].{معروفا} صحابا أو مصاحباً معروفاً حسنا بخلق جميل وحلم واحتمال وبر وصلة وما يقتضيه الكرم والمروءة} واتبع سبيل من أناب إلى} يريد: واتبع سبيل المؤمنين في دينك ولا تتبع سبيلهما فيه - وإن كنت مأموراً بحسن مصاحبتهما في الدنيا - ثم إلي مرجعك ومرجعهما فأجازيك على إيمانك وأجازيهما على كفرهما على بذلك حكم الدنيا وما يجب على الإنسان في صحبتهما ومعاشرتهما: من مراعاة حق الأبوة وتعظيمه وما لهما من المواجب التي لا يسوغ الإخلال بها ثم بين حكطمهت وحالهما في الآخرة. وروي: أنها في سعد بن أبي وقاصي وأمه. وفي القصة: أنها مكثت ثلاثاً لا تطعم ولا تشرب حتى شحروا فاها بعود. وروي أنه قال: لو كانت لها سبعون نفساً فخرجت لما ارتددت إلى الكفر. فإن قلت: هذا الكلام كيف وقع في أثناء وصية لقمان قلت: هو كلام اعتراض به على سبيل الاستطراد تأكيداً لما في وصية لقمان من النهي عن الشرك. فإن قلت: فقوله {حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين} كيف اعتراض به بين المفسر والمفسر قلت: لما وصى بالوالدين: ذكر ما تكابده الأم وتعانيه من المشاق والمتاعب في حمله وفصاله هذه المدة المتطالوة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن قال له من أبر أمك ثم أمك ثم أمك ثم قال بعد ذلك ثم أباك. وعن بعض العرب أنه حمل أمه إلى الحج على ظهره وهو يقول في حداثة بنفسه:

احـمـل أمـي وهـي الـحـمـالة** تـرضـعـنـي الـدرة والـعـلالـه

ولا يجازي والد فعاله فإن قلت: ما معنى توقيت الفصال بالعامين قلت: المعنى في توقيته بهذه المدة أنها الغاية التي لا تتجاوز والأمر فيما دون العاملين موكول إلى اجتهاد الم: إن علمت أنه يقوى على الفطام فلها أن تفطمه ويدل عليه وقله تعالى {والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة} [البقرة: 233] وبه استشهد الشافعي رضي الله عنه على أن مدة الرضاع سنتام لا تثبت حرمة الرضاع بعد انقضائها وهو مذهب أبي يوسف ومحمد. وأما عند أبي حنيفة رضي الله عنه. فمدة الرضاع ثلاثون شهراً. وعن أبي حنيفة: إن فطمته قبل العامين فاستغنى بالطعام ثم أرضعته فهو رضاع محرم.

{يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردلفتكن في صخرة أو السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير} قرئ {مثقال حبة} بالنصب والرفع فمن نصب كان الضمير للهنة من الإساءة أو الإحسان أي إن كانت مثلاً في الصغر والقماءة كحبة الخردل فكانت مع صغرها في أخفى موضع وأحرزه كجوف الصخرة أو حيث كانت في العالم العلوي أو السفلي {يأت بها الله} يوم القيامة فيحاسب بها عالمها {إن الله لطيف} يتوصل علمه إلى كل خفي {خبير} عالم بكنه. وعن قتادة: لطيف باستخراجها خبير بمستقرها. ومن قرأ بالرفع: كان ضمير القصة وإنما أنت المثقال لإضافته إلى الحبة كما قال: كما شرقت صدر القناة من الدم وروي أن ابن لقمان قال له: أرأيت الحبة تكون في مقل البحر - أي: في مغاصة - يعلمها الله فقال: إن الله يعلم أصغر الأشياء في أخفى الأمكنة: لأن الحبة في الصخرة أخفى منها في الماء.

وقيل: الصخرة هي التي تحت الأرض وهي السجين يكتب فيها أعمال الكفار. وقرئ: فتكن بكسر الكاف. من وكن الطائر يكن: إذا استقر في وكنته وهي مقرة ليلاً.

{يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور}
{واصبر على ما أصابك} يجوز أن يكون عاماً في كل ما يصيبه من المحن وأن يكون خاصاً يما يصيبه فيما أمر به من المر بالمعروف والنهي عن المنكر: من أذى من يبعثهم على الخير وينكر لا صيام لمن لم يعزم الصيام من الليل أي لم يقطعه بالنية ألا ترى إلى قوله عليه السلام: لمن لم يبيت الصيام ومنه: إن الله يحب أن يؤخذ برخصة كما يحب أن يؤخذ بعزائمه وقولهم: عزمه من عزمات ربنا.

ومنه: عزمات الملوك. وذلك أن يقول الملك لبعض من تحت يده: عزمت عليك إلا فعلت كذا إذا قال ذلك لم يكن للمعزوم عليه بد من فعله ولا مندوحة في تركه. وحقيقته: أنه من تسمية المفعول بالمصدر وأصله من معزومات الأمور أي مقطوعاتها ومفروضاتها. ويجوز أن يكون مصدراً في معنى الفاعل أصله: من عازمات الأمور من قوله تعالى {فإذا عزم الأمر} [محمد: 21] كقولك: جد الأمر وصدق القتال. وناهيك بهذه الآية مؤذنة بقدم هذه الطابعات وأنها كانت مأموراً بها في سائر الأمم وأن الصلاة لم تزل عظيمة الشأن سابقة القدم على ما سواها موصى بها في الأديان كلها.

{ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير} تصاعر وتصعر: باتشديد والتخفيف. يقال: أصعر خده وصعر وصاعره وصاعره: كقولك أعلاه وعلاه وعالاه: بمعنى. والصعر والصيد: داء يصيب البعير يلوي منه عنقه. والمعنى: أقبل على الناس بوجهك تواضعاً ولا تولهم شق وجهك وصفحته كما يفعل المتكبرون. أراد {ولا تمش} تمرح {مرحاً} أو أوقع المصدر موقع الحال بمعنى مرحا. ويجوز أن يريد: ولا تمش لأجل المرح والأشر أي لا يكن غرضك في المشي البطالة والأشر كما يمشي كثير من الناس لذلك لا لكفاية مهم ديني أو دينوي. ونحوه قوله تعالى {ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس} [الأنفال: 47]. والمختال: مقابل للماشي مرحا. وكذلك الفخور للمصعر خده كبرا {واقصدر في مشيك} واعدل فيه حتى يكون مشيا بين مشيين: لا تدب دبيب المتماوتين ولا تثب وثيب الشطار. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن وأما قول عائشة في عمر رضي الله عنهما كان إذا مشى أسرع فإنما أرادت السرعة المرتفعة عن دبيب المتماوت.

وقرئ: وأقصد بقطع الهمزة أي: سدد في مشيك من أقصد الرامي إذا سدد سهمه نحو الرمية {واغضض من صوتك} وانقص منه واقصر من قولك: فلان بغض من فلان إذا قصر به ووضع منه {أنكر الأصوات} أوحشها من قولك: شئ نكر إذا أنكرته النفوس واستوحشت منه ونفرت. والحمار مثل في الذم البليغ والشتيمة وكذلك نهاقه. ومن استفحاشهم لذكره مجرداً وتفاديهم من اسمه: أنهم يكنون عنه ويرغبون عن التصريح به فيقولن: الطويل الأذنين كما يكنى عن الأشياء المستقذرة: وقد عد في مساوئ الآداب: أن يجري ذكر الحمالا في مجلس قوم من أولى المروءة. ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافاً وإن بلغت مه الرجلة فتشبيه وإخراجه مخرج الإستعارة - وإن جعلوا خميراً وصوتهم نهاقاً - مبالغة شديدة في الذم والتهجين وإفراط في التثبيط عن رفع الصوت والترغيب عنه. وتنبيه على أنه من كراهة الله بمكان. فإن قلت: لم وحد صوت الحمير ولم يجمع قلت: ليس المراد أن يذكر صوت كل واحد من آحاد هذا الجنس حتى يجمع وإنما المراد أن كل جنس من الحيوانات الناطق له صوت وأنكر أصوات هذه الأجناس صوت هذا الحنس فوجب توحيده.

{ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير} {ما في السموات} الشمس والقمر والنجوم والسحاب وغير ذلك {وما في الأرض} البحار

والأنهار والمعادن والدواب وما لا يحصى {واسبغ} وقرئ بالسين والصاد وهكذا كل سين اجتمع معه الغين والخاء والقاف تقول تقول في سلخ صلخ وفي سقر: صقر وفي سالغ صالغ وقرئ: نعمه. ونعمة ونعمته. فإن قلت: ما النعمة قلت: كل نفع قصد به الإحسان والله تعالى خلق العالم كله نعمة لأنه إما حيوان وإما غير حيوان. فما ليس بحيوان نعمة على الحيوان نعمة على الحيوان والحيوان نعمة من حيث أن إيجاد حياً نعمة عليه. لأنه لولا إيجاد حياً لما صح منه الانتفاع وكل ما أدى إلى الانتفاع وصححه فهو نعمة. فإن قلت: لم كان خلق العالم مقصوداً به الإحسان قلت: لأنه لا يخلقه إلا لغرض وإلا كان عبثاً والعبث لا يجوز عليه ولا يجوز أن يكون لغرض راجع إليه من لغرض وإلا كان عبثاً والعبث لا يجوز عليه ولا يجوز أن يكون لغرض راجع إليه من نفع لأنه غني غير محتاج إلى المنافع فلم يبق إلا أن يكون لغرض يرجع إلى الحيوان وهو نفعه. فإن قلت: فما معنى الظاهرة والباطنة قلت: الظاهرة كل ما يعلم بالمشاهدة والباطنة ما لا يعلم غلا بدليل أو لا يعلم أصلاً فكم في بدن الإنسان من نعمة لا يعلمها ولا يهتدي إلى العلم بها وقد أكروا في ذلك: فعن مجاهد: الظاهرة ظهور الإسلام والنصرة على الأعداء والباطنة الستر وعن الضحاك: الظاهرة: حسن الصورة وامتداد القامة. وتسوية الأعضاء. والباطنة: المعرفة. وقيل: الظاهرة البصر والسمع واللسان وسائر الجوارح الظاهرة.

الباطنة: القلب والعقل والفهم وما أشبه ذلك. ويروى في دعاء موسى عليه السلام: إلهي دلني على أخفى نعمتك على عبادك فقال: أخفى نعمتي عليهم النفس. ويروى أن أيسر ما يعذب به أهل النار: الأخذ بالأنفاس.

{وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم} معناه {يتبعونهم} ولو كان الشيطان يدعوهم أي في حال دعاء الشيطان إياهم إلى العذاب.

{ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور} قرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ومن يسلم بالتشديد يقال: أسلم أمرك وسلم أمرك إلى الله. فإن قلت: ماله عدي بإلى وقد عدي باللام في قوله {بلى من أسلم وجهه لله} [البقرة: 12] قلت: معناه مع اللام: أنه جعل وجهه وهو ذاته ونفسه سالما لله أي خالصاُ له. ومعناه - مع إلى -: أنه سلم إليه نفسه كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا دفع إليه. والمراد: التوكل عليه والتفويض إليه {فقد استمسك بالعروة الوثقى} من باب التمثيل: مثلت حال المتوكل بحال من أراد أن يتدلى من شاهق فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوثق عروة من حبل متين مأمون انقطاعه {وإلى الله عاقبة الأمور} أي هي صائرة إليه.

{ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما علموا إن الله عليم بذات الصدور نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ} قرئ: يحزنك ويحزنك من حزن وأحزن. والذي عليه الاستعمال المستفيض: أحزنه ويحزنه.

والمعنى: لا يهمنك كفر من كفر وكيده للإسلام فإن الله عز وجل دافع كيده في نحره ومنتقم منه ومعاقبة على عمله {إن الله} يعلم ما في صدره عباده فيفعل بهم على حسبه {نمتعهم} زماناً {قليلاً} بدنياهم {ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ} شبه إلزامهم التعذيب وإرهاقهم إياه باضطراب المضطرب إلى الشئ ولاثقل على المعذب.

{ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون لله ما في السموات والأرض إن الله هو الغني الحميد ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم} {قل الحمد لله} إلزام لهم على إقرارهم بأن الذي خلق السموات وأرضض هو الله وحده وأنه أن يكون له الحمد والشكر. وأن لا يعبد معه غيره ثم قال {بل أكثرهم لا يعلمون} أن

ذلك يلزمهم وإذا نبهوا عليه لم ينتبهوا {إن الله هو الغني} عن حمد الحامدين المستحق للحمد وإن لم يحمدوه.

قرئ: والبحر بالنصب عطفاً على اسم إن وبالرفع عطفاً على محل إن ومعلموها على معنى: ولو ثبت كون الأشجار أقلاماً وثبت كون البحر ممدوداً بسبعة أبحر. أو على الابتداء والواو للحال على معنى. ولو أن الأشجار أقلام في حال كون البحر ممدوداً وفي قراءة ابن مسعود: وبحر يمده على التنكير ويجب أن يحمل هذا على الوجه الأول. وقرئ: تمده ويمده بالتاء والياء.

فإن قلت: كان مقتضى الكلام أن يقال: ولو أن الشجر أقلام والبحر مداد. قلت: أغنى عن ذكر المداد قوله: يمده لأنه من قولك: مد الدواة وأمدها جعل البحر الأعظم بمنزلة الدواة وجعل الأبحر السبعة مملوءة مداداً فهي تصب فيه مداداً أبدا صباً لا ينقطع. والمعنى: ولو أن أشجار الأرض أقلام والبحر ممدود بسبعة أبحر. وكتبت بتلك الأقلام وبذلك المداد كلمات الله لما نفدت كلماته ونفدت الأقلام والمداد كقوله تعالى {قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي} [الكهف: 109] فإن قلت: زعمت أن قوله {والبحر يمده} حال في أحد وجهي الرفع وليس فيه ضمير راجعإلى ذي الحال. قلت: هو كقوله: وقد أغتدى والطير في وكناتها و: جئت والجيش مصطف. وما أشبه ذلك من الأحوال التي حكمها حكم الظروف. ويجوز أن يكون المعنى: وبحرها والضمير للأرض فإن قلت: لم قبل {من شجرة} على التوحيد دون اسم الجنس الذي هو شجر قلت: أريد تفصيل الشجر وتقصيها شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجر ولا واحدة إلا قد بريت أقلاماً. فإن قلت: معناه أن كلماته لا تفي بكتبتها البحار فكيف بكلمه وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنهما نزلت جواباً لليهود لما قالوا: قد أوتينا التوراة وفيها كل الحكمة وقيل: إن المشركين قالوا: إن هذا - يعنون الوحي - كلام سينفد فاعلم الله أن كلامه لا ينفد. وفد قريش أن يقولوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ألست تتلو فيما أنزل عليك: أنا أوتينا التوراة وفيها علم كل شئ {إن الله عزيز} لا يعجزه شئ {حكيم} لا يخرج من عمله وحكمته شئ ومثله لا تنفد كلماته وحكمه.

{ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير} {إلا كنفس واحدة} إلا كخلقها وبعثها أي: سواء في قدرته القليل والكثير والواحد والجمع لا يتفاوت وذلك أنه إنما كانت تتفاوت النفس الواحدة والنفوس الكثيرة العدد: أن لو شغله شأن عن شأن وفعل عن فعل وقد تعالى عن ذلك {إن الله سميع بصير} يسمع صوت ويبصر كل مبصر في حالة واحدة لا يشغله إدراك بعضها عن إدراك بعض فكذلك الخلق والبعث.

{ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير} كل واحد من الشمس والقمر يجري في فلكه ويقطعه إلى وقت معلوم: الشمس إلى آخر السنة والقمر إلى آخر الشهر. وعن الحسن: الأجل المسمى: يوم القيامة. لأنه لا ينقطع جريهما إلا حينئذ. دل أيضاً بالليل والنهار وتعاقبهما وزيادتهما ونقصانهما وجرى النيربين في فلكيهما كل ذلك على تقدير وحساب. وبإحاطته بجميع أعمال الخلق: على عظم قدرته وحكمته. فإن قلت: يجري لأجل مسمى ويجري إلى أجل مسمى: أهو من تعاقب الحرفين قلت: كلا ولا يسلك هذه الطريقة إلا بليد الطبع ضيق العطن. ولكن المعنيين: أعني الانتهاء والاختصاص كل واحد منهما ملائم لصحة الغرض لأن قولك يجري إلى أجل مسمى تجعل الجري مختصاً بإدراك أجل مسمى. ألا ترى أن جري الشمس مختص بآخر السنة. وجري القمر عجائب قدرته وحكمته التي يعجز عنها الأحياء القادرون العالمون. فكيف بالجماد الذي تدعون من دون الله إنما هو بسبب أنه هو الحق الثابت إلهيته. وأن من دونه باطل الإلهية {وأن الله هو العلي} الشأن {الكبير}

السلطان. أو ذلك الذي أوحى إليك من هذه الآيات بسبب بيان أن الله هو الحق وأن إلها غيره باطل وأن الله هو العلي الكبير عن أن يشرك به.

{ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمت الله ليريكم من آياته إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور} قرئ: الفلك بضم اللام. وكل فعل يجوز فيه فعل كما يجوز في كل فعل فعل على مذهب التعويض. وبنعمات الله: بسكون العين. وعين فعلات يجوز فيها الفتح والكسر والسكون {بنعمت الله} بإحسانه ورحمته {صبار} على بلائه {شكور} لنعمائه وهما صفتا المؤمن فكأنه قال: إن في ذلك لآيات لكل مؤمن.

{وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور}.

يرتقع الموج ويتراكب فيعود مثل الظلل والظلة: كل ما أظلك من جبل أو سحاب أو غيرهما وقرئ: كالظلال جمع ظلة. كقلة وقلال {فمنهم مقتصد} متوسط في الكفر والظلم خفض من غلوائه وانزجر بعض الانزجار. أو مقتصد في الإخلاص الذي كان عليه في البحر يعنى أن ذلك الإخلاص الحادث عن الخوف لا يبقى لأحد قط والمقتصد قليل نادر. وقيل: مؤمن قد ثبت على ما عاهد عليه الله في البحر. والختر: أشد الغدر. ومنه قولهم: إنك لا تمد لنا شبراً من غدر إلا مددنا لك باعاً من ختر قال:

وإنك لو رأيت أبـا عـمير** ملأت يديك من غدر وختر

{يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور} {لا يجزى} لا يقضى عنه شيئاً. ومنه قيل للمقتاضي: المتجازى. وفي الحديث في جذعه بن نيار: تجزى عنك ولا تجزى عن أحد بعدك. وقرئ: لا يجزئ لا يغنى. يقال: أجزأت عنك مجزأ فلان. والمعنى: لا يجزى فيه فحذف. {الغرور} الشيطان. وقيل: الدنيا وقيل: تمنيكم في المعصية المغفرة. وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه: الغرة بالله: أن يتمادى الرجل في المعصية ويتمنى على الله المغفرة. وقيل: ذكرك لحسناتك ونسيانك لسيئاتك غرة. قرئ بضم الغين وهو مصدر غرة غروراً وجعل الغرور غاراً كما قيل: جد جده. أو أريد زينة الدنيا لأنها غرور.

فإن قلت: قوله {ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً} وارد على طريق من التوكيد لم يرد عليه ما هو معطوف عليه. قلت: الأمر كذلك لأن الجملة الإسمية آكد من الفعلية وقد انضم إلى ذلك قوله {هو} وقوله {مولود} والسبب في مجيئه على هذا السنن: أن الخطاب للمؤمنين وعليتهم: قبض آباؤهم على الكفر وعلى الدين الجاهلي فأريد حسم أطماعهم وأطماه الناس فيهم: أن ينفعوا آباءهم في الآخرة وأن يشفعوا لهم وأن يغنوا عنهم من الله شيئاً فلذلك جيء به على الطريق الآكد. ومعنى التوكيد في لفظ المولود: أن الواحد منهم لو شفع للأدب الأدنى الذي ولد منه لم تقبل شفاعته فضلاً أن يشفع لمن فوقه من أجداده لأن الولد يقع على الولد وولد الولد بخلاف المولود فإنه لمن ولد منك.

{إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير} أن رجلاً من محارب وهو الحارث بن عمرو بن حارثة أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أخبرني عن الساعة متى تمطر وأخبرني عن امرأتي فقد اشتملت ما في بطنها أذكر أم أنثى وإني علمت ما علمت أمس فما أعمل غداً وهذا مولدي قد عرفته فأين أموت فنزلت وعن النبي صلى الله عليه وسلم: مفاتح الغيب خمس وتلا هذه الآية. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من ادعى علم هذه الخمسة فقد كذب إياكم والكهانة فإن كالهانة تدعو إلى الشرك والشرك وأهله

في النار. وعن المنصور أنه أهمه معرفة مدة عمره فرأى مفي منامه كأن خيالاً أخرج يده من البحر وأشار إليه بالأصابع الخمس فاستفتى العلماء في ذلك فتأولوها بخمس سنين وبخمسة أشهر وبغير ذلك حتى قال أبو حنيفة رحمه الله: تأويلها أن مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله وأن ما طلبت معرفته لا سبيل لك إليه عنده علم الساعة {أيان مرساها} وينزل الغيث} في إياه من غير تقديم ولا تأخير وفي بلد لا يتجاوزه به} ويعلم ما في الأرحام} أذكر أم أنثى أتام أم ناقص وكذلك ما سوى ذلك من الأحوال {وما تدري نفس} برة أو فاجرة {ماذا تكسب غداً} من خير أو شر وربما كانت عازمة على خير فعملت شراً. عازمة على شر فعلمت خيراً} وما تدري نفس} أين تموت وربما أقامت بأرض وضربت أوتادها وقالت: لآ أبرحها وأقبر فيها. فترمى بها مرامي القدر حتى تموت في مكان لم يخطر ببالها ولا حدثتها به ظنونها. وروى أن ملك الموت مر على سليمان عليه السلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه فقال الرجل من هذا قال: ملك الموت فقال:: أنه يريدني. وسأل سليمان أن يحمله على الريح ويلقيه ببلاد الهند ففعل. ثم قال ملك الموت لسليمان كان دوام نظري إليه تعجباً منه لأني أمرت أن أقبض روحه بالهند وهو عندك. وجعل العلم لله والدراية للعبد. لما في الدراية من معنى الختل والحيلة.

والمعنى: أنها لا تعرف - وإن أعملت حيلها - ما يلصق بها ويختص ولا يتخطاها ولا شئ أخص بالإنسان من كسبه وعاقبته فإذا لم يكن له طريق إلى معرفتها كان من معرفة ما عداهما أبعد. وقرئ: بأية أرض. وشبه سيبويه تأنيث أي بتأنيث كل في قولهم: كلتهن.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ سورة لقمان كان له لقمان رفيقاً يوم القيامة وأعطى من الحسنات عشراً عشراً بعدد من عمل بالمعروف ونهى عن المنكر.

سورة السجدة

مكية وآياتها 30 وقيل 29

{الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون} {الم} على أنها اسم السورة مبتدأ خبره {تنزيل الكتاب} وإن جعلتها تعديداً للحروف ارتفع {تنزيل الكتاب} بأنه خبر مبتدأ محذوف: أو هو مبتدأ خبره {لا ريب فيه} والوجه أن يرتفع بالابتداء وخبره {من رب العالمين} و{لا ريب فيه} اعتراض لا محل له. والضمير في {فيه} راجع إلى مضمون الجملة كأنه قيل: لا ريب في ذلك أي في كونه منزلاً من رب العالمين ويشهد لوجاهته قوله{أم يقولون افتراه} لأن قولهم: هذا مفترى إنكار لأن يكون من رب العالمين وكذلك قوله {بل هو الحق من ربك} وما فيه من تقدير أنه من الله تعالى وهذا أسلوب صحيح محكم: أثبت أولاً أن تنزيله من رب العالمين وأن ذلك ما لا ريب فيه ثم أضرب عن ذلك إلى قوله {أم يقولون افتراه} لأن أم هي المنقطعة الكائنة بمعنى: بل والهمزة إنكار لقولهم وتعجيباً منه لظهور أمره: في عجز بلغائهم عن مثل ثلاث آيات منه ثم أضرب عن الإنكار إلى إثبات أنه الحق من ربك. ونظيره أن يعلل العالم في المسألة بعلة صحيحة جامعة قد احترز فيها أنواع الاحتراز.

كقول المتكلمين: النظر أول الأفعال الواجبة على الإطلاق التي لا يعرى عن وجوبها مكلف ثم يعترض عليه فيها ببعض ما وقع احترازه منه فيرده بتلخص أنه احتراز من ذلك ثم يعود إلى تقرير كلامه وتمشيه. فإن قلت: كيف نفى أن يرتاب في أنه من الله وقد أثبت ما هو أطم من الريب وهو قولهم {افتراه} قلت: معنى} لا ريب فيه} أن لا مدخل للريب في أنه تنزيل الله: لأن نافي الريب ومميطه معه لا ينفك عنه وهو كونه معجزاً

للبشر ومثله أبعد شئ من الريب. وأما قولهم {افتراه} فإما قول منعت مع علمه أنه من الله لظهورالإعجاز له أو جاهل يقوله قبل التأمل والنظر لأنه سمع الناس يقولونه {ما أتاهم من نذير من قبلك} كقوله {ما أنذر آباؤهم} [يس: 6] وذلك أن قريشاً لم يبعث الله إليهم رسولاً قبل محمد صلى الله عليه وسلم. فإن قلت: فإذا لم يأتهم نذير لم تقم عليهم حجة. قلت: أما قيام الحجة بالشرائع التي لا يدرك علمها إلا بالرسل فلا وأما قيامها بمعرفة الله وتوحيده وحكمته فنعم لأن أدله العقل الموصلة إلى ذلك معهم في كل زمان {لعلهم يهتدون} فيه وجهان: أن يكون على الترجي من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان {لعله يتذكر} [طه: 44] على الترجي من موسى وهرون عليهما السلام وأن يستعار لفظ الترجي للإرادة.

{الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون} فإن قلت: ما معنى قوله {ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع} قلت: هو على معنيين أحدهما: أنكم إذا جاوزتم رضاه لم تجدوا لأنفسكم ولياً أي ناصراً ينصركم ولا شفيعاً يشفع لكم. والثاني: أن الله وليكم الذي يتولى مصالحكم وشفيعكم أي ناصركم على سبيل المجاز لأن الشفيع ينصر المشفوع له. فهو كقوله تعالى {وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير} [البقرة: 107] فإذا خذلكم لم يبق لكم ولي ولا نصير.

{يدير الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون} {الأمر} المأمور به من الطابعات والأعمال الصالحة ينزله مدبراً {من السماء إلى الأرض} ثم لا يعمل به ولا يصعد إليه ذلك المأمور به خاصاً كما يريده ويرتضيه إلا في مدة متطاولة لقلة عمال الله والخلص ومن عباده وقلة الأعمال الصاعدة لأنه لا يوصف بالصعود إلا الخالص ودل عليه قوله على أثره {قليلاً ما تشكرون} أو يدبر أمر الدنيا كلها من السماء إلى الأرض: لكل يوم من أيام الله وهو ألف سنة كما قال {وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون} [الحج: 47] {ثم يعرج إليه} أي يصير إليه ويثبت عنده ويكتب في صحف ملائكته كل وقت من أوقات هذه المدة: ما يرتفع من ذلك الأمر ويدخل تحت الوجود إلى أن تبلغ المدة آخرها ثم يدبر أيضاً ليوم آخر وهلم جرا إلى أن تقوم الساعة. وقيل: ينزل الوحي مع جبريل عليه السلام من السماء إلى الأرض. ثم يرجع إليه ما كان من قبول الوحي أو ردة مع جبريل وذلك في وقت هو في الحقيقة ألف سنة لأن المسافة مسيرة ألف سنة في الهبوب والصعود لأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة وهو يوم من أيامكم لسعة جبريل لأنه يقطع مسيرة ألف سنة في يوم واحد وقيل: يدبر أمر الدنيا من السماء إلى الأرض إلى أن تقوم الساعة ثم يعرج إليه ذلك الأمر كله أي يصير إليه ليحكم فيه} في يوم كان مقداره ألف سنة} وهو يوم القيامة. وقرأ ابن أبي عبلة: يعرج على البناء للمفعول. وقرئ: يعدون بالتاء.

{ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون} {أحسن كل شيء} حسنه لأنه ما من شيء خلقه إلا وهو مرتب على ما اقتضته الحكمة وأوجبته المصلحة فجميع المخلوقات حسنة وإن تفاوتت من حسن وأحسن كما قال {لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم} [التين: 4] وقيل: علم كيف يخلقه من قوله: قيمة المرء ما يحسن.

وحقيقته. يحسن معرفته أي يعرفه معرفته أي يعرفه معرفة حسنة بتحقيق وإتقان. وقرئ خلقه على البدل أي: أحسن فقد خلق كل شئ. وخلقه: على الوصف أي: كل شئ خلقه فقد أحسنه. سميت الذرية نسلاً لأنها تنسل منه أي: تنفصل منه وتخرج من صلبه ونحوه قولهم للولد: الليل ونجل و{سواه} قومه كقوله تعالى {في أحسن تقويم} [التين: 4] ودل بإضافة الروح إلى ذاته على أنه خلق عجيب لا يعلم كنهه إلا هو كقوله {ويسألونك عن الروح....} الآية [الإسراء: 85] كأنه قال: ونفخ فيه من الشئ الذي اختص هو به وبمعرفته.

{وقالوا أئذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلي ربكم ترجعون} {وقالوا} قيل القائل أبي بن خلف ولرضاهم بقوله أسند إليهم جميعاً. وقرئ: ائنا وأنا على الاستفهام وتركه{ضللنا} صرنا ترابا وذهبنا مختلطين بتراب الأرض لا نتميز منه كما يضل الماء في اللبن أو غبنا {في الأرض} بالدفن فيها. من قوله: وآب مضلوه بعين جلية وقرأ علي وابن ابن عباس رضي الله عنهما: ضللنا بكسر اللام. يقال: ضل يضل وضل يضل.

وقرأ الحسن رضي الله عنه: صللنا من صل اللحم وأصل: إذا أنتم. وقيل: صرنا من جنس الصلة وهي الأرض. فإن قلت: بم انتصب الظرف في {أئذا ضللنا} قلت: بما يدل عليه إنا لفي خلق جديد وهو نبعث. أو يجدد خلقنا. لقاء ربهم: هو الوصول إلى العاقبة من تلقى ملك الموت وما وراءه فلما ذكر كفرهم بالإنشاء. أضرب عنه إلى ما هو أبلغ في الكفر وهو أنهم كافرون بجميع ما يكون في العاقبة لا بالإنشاء وحده: ألا ترى كيف خوطبوا بتوفي ملك الموت وبالرجوع إلى ربهم بعد ذلك مبعوثين للحساب والجزاء وهذا معنى لقاء الله على ما ذكرنا والتوفي: استفياء النفس وهي الروح. قال الله تعالى {الله يتوفى الأنفس} [الزمر: 42] وقال: أخرجوا أنفسكم وهو أن يقبض كلها لا يترك منها شئ. من قولك: توفيت حقي من فلان واستوفيته إذا أخذته وافياً كاملاً من غير نقصان. والتفعل والاستفعال: يلتقيان في مواضع: منها: تقصيته واستقصيته وتعجلته واستعجلته. وعن مجاهد رضي الله عنه: حويت لملك الموت الأرض وجعلت له مثل الطست يتناول منها حيث يشاء. وعن قتادة: يتوفاهم ومعه أعوان من الملائكة. وقيل: ملك الموت: يدعو الأرواح فتجيبه ثم يأمر أعوانه بقبضها.

{ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون} {ولو ترى} يجوز أن يكون خطاباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه وجهان: أن يراد به التمني كأنه قال: وليتك ترى كقوله صلى الله عليه وسلم للمغيرة: لو نظرت إليها والتمني لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان الترجي له في {لعلهم يهتدون} لأنه تجرع منهم الغصص ومن عداوتهم وضرارهم فجعل الله له تمنى أن يراهم على تلك الصفة الفظيعة من الحياء والخزي والغم ليشمت بهم وأن تكون لو الامتناعية قد حذف جوابها وهو: لرأيت أمراً فظيعاً. أو: لرأيت أسوأ حال ترى. ويجوز: أن يخاطب به كل أحد كما تقول: فلان لئيم إن أكرمته أهانك وإن أحسنت إليه أساء إليك فلا تريد به مخاطباً بعينه فكأنك قلت: إن أكرم وإن أحسن إليه ولو وإذك: لاهما للمضي وإنما جاز ذلك لأن المترقب من الله بمنزلة الوجود المقطوع به في تحققه ولا يقدر لنرى ما يتناوله كأنه قيل: ولو تكون منكم الرؤية وإذ ظرف له. يستغيثون بقولهم {ربنا أبصرنا وسمعنا} فلا يغاثون يعني: أبصرنا صدق وعدك ووعيدك وسمعنا منك تصديق وسلك. أو كنا عمياً صماً فأبصرنا وسمعنا {فارجعنا} هي الرجعة إلى الدنيا {لآتينا كل نفس هداها} على طريق الإلجاء والقسر ولكننا بنينا الأمر على الاختيار دون الاضطرار فاستحبوا العمى على الهدى فحقت كلمة العذاب على أهل العذاب نتيجة فعلهم: من نسيان العاقبة وقلة الفكر فيها وترك الاستعداد لها. والمراد بالنسيان: خلاف التذكر يعني: أن الانهماك في الشهوات أذهلكم وألهاكم عن تذكر العاقبة وسلط عليكم نسانها ثم قال {إنا نسيناكم} على المقابلة أي جازيناكم جزاء نسيانكم. وقيل: هو بمعنى الترك أي: تركتم الفكر في العاقبة فتركناكم من الرحمة وفي استئناف قوله إنا نسيناكم وبناء الفعل على إن واسمها تشديد في الانتقام منهم. والمعنى فذوقوا هذا أي ما أنتم فيه من نكس الرؤوس والخزي والغم بسبب نسيان اللقاء وذقوا العذاب المخلد في جهنم بسبب ما عملتم من المعاصي والكبائر الموبقة.

{إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون} {إذا ذكروا بها} أي وعظوا: سجدوا تواضعاً لله وخشوعاً وشكراً على ما رزقهم من الاسلام {وسبحوا بحمد ربهم} ونزهوا الله من نسبة القبائح إليه وأثنوا عليه حامدين له {وهم لا يستكبرون} كما يفعل من يصر مستكبراً كأن لم يسمعها ومثله قوله تعالى {إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويوقلون سبحان ربنا} [الإسراء: 107]. {تتجافى} ترفع وتتنحى {عن المضاجع} عن الفرش ومواضع النوم داعين ربهم عابدين له لأجل خوفهم من سخطه وطعمهم في رحمته وهم المتهجدون. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم في تفسيرها: قيام العبد من الليل وعن الحسن رضي الله عنه: أنه التهجد. وعن رسول الله صلى الله عليه إذا جمع الله الولين والآخرين يوم القيامة جاء مناد ينادي بصوت يسمع الخلائق كلهم: سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم. ثم يرجع فينادي: ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل ثم يرجع فينادي: ليقم الذين كانوا يحمدون الله في البأساء والضراء فيقومون وهم قليل فيسرحون جميعاً إلى الجنة ثم يحاسب سائر الناس. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: كان أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلون صلاة العتمة لا ينامون عنها {ما أخفى لهم} على البناء للمفعول. ما أخفى لهم على البناء للفاعل وهو الله سبحانه.

وما بمعنى الذي أو بمعنى أي. وقرئ: من قرة أعين وقرات أعين. والمعنى: لا تعلم النفوس - كلهن ولا نفس واحدة منهن لا ملك مقرب ولا نبي مرسل - أي نوع عظيم من الثواب ادخر الله لأولئك وأخفاه من جميع خلائقه لا يعلمه إلا هو مما تقر به عيونهم ولا مزيد على هذه العدة ولا مطمح وراءها ثم قال {جزاء بما كانوا يعملون} فحسم أطماع المتمنين وعن النبي صلى الله عليه وسلم: يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بله ما أطلعتم عليه. اقرؤوا إن شئتم فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين وعن الحسن رضي الله عنه: أخفى القوم أعمالاً في الدنيا فأخفى الله لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

{أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون} {كان مؤمناً} و{كان فاسقاً} محمولان على لفظ من و{لا يستون} محمول على المعنى بدليل قوله تعالى {أما الذين آمنوا} {واما الذين فسقوا} ونحوه قوله تعالى {ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك} [محمد: 16] و {جنات المأوى} نوع من الجنان قال الله تعالى {ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى} [النجم: 15] سميت بذلك لما روي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: تأوي إليها أرواح الشهداء. وقيل: هي عن يمين العرش. وقرئ: جنة المأوى علي التوحيد {نزلا} عطاء بأعمالهم. والنزل: عطاء النازل ثم صار عاماً {فمأواهم النار} أي ملجؤهم ومنزلهم. ويجوز أن يراد: فجنة مأواهم النار أي النار لهم مكان جنة المأوى للمؤمنين كقوله {فبشرهم بعذاب أليم} [آل عمران: 21 التوبة: 34 الإنشقاق: 24] {العذاب الأدنى} عذاب القبر. و{العذاب الأكبر} عذاب الآخرة أي: نذيقهم عذاب الدنيا قبل أن يصلوا إلى الآخرة {لعلهم يرجعون} أي يتوبون عن الكفر أو لعلهم يريدون الرجوع ويطلبون. كقوله تعالى {فارجعنا نعمل صالحاً} [السجدة: 12] وسميت إرادة الرجوع رجوعاً كما سميت إرادة القيام قياماً في قوله تعالى {إذا قمتم إلى الصلاة} [المائدة: 6] ويدل عليه قراءة من قرأ: يرجعون على البناء للمفعول. فإن قلت: من أين صح تفسير الرجوع بالتوبة ولعل من الله إرادة وإذا أراد الله شيئاً كان ولم يمنع وتوبتهم مما لا يكون ألا ترى أنها لو كانت مما يكون لم يكونوا ذائقين العذاب الأكبر قلت: إرادة الله تتعلق بأفعال عباده فإذا أراد شيئاً من أفعاله كان ولم يمتنع للأقتدار وخلوص الداعي. وأما أفعال عباده: فإما أن يريدها وهم مختارون

لها أو مضطرون إليها بقسرة وإلجائه فإن أرادوها وقد قسرهم عليها فحكمها حكم أفعالها وغن أرادها على أن يختاروها وهو عالم أنهم لا يختارونها لم يقدح ذلك في اقتداره وإن أرادها على أن يختاروها وهو عالم أنهم لا يختارونها لم يقدح ذلك في اقتداره كما لا يقدح في اقتدارك إرادتك أن يختار عبدك طاعتك وهو لايختارها لأن اختياره لا يتعلق بقدرتك وإذا لم يتعلق بقدرتك لم يكن فقده دالاً على عجزك. وروي في نزولها: أنه شجر بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه والوليد بن عقبة بن أبي معيط يوم بدر كلام فقال له الوليد: اسكت فإنك صبي: أنا أشب منك شباباً وأجلد منك جلداً وأذرب منك لساناً وأحد منك سناناً أشجع منك جناناً وأملأ منك حشواً في الكتيبة. فقال له علي رضي الله عنه: اسكت فإنك فاسق فنزلت عامة للمؤمنين والفاسقين فتناولتهما وكل كان في مثل حالهما. وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما: أنه قال للوليد: كيف تشتم علياً وقد سماه الله مؤمناً في عشر آيات وسمات فاسقاً.

{ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون} ثم في قوله {ثم أعرض عنها} للاستبعاد. والمعنى: أن الإعراض عن مثل آيات الله في وضوحها وإنارتها وإرشادها إلى سواء السبيل والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد في العقل والعدل كما تقول لصاحبك: وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها استبعاداً لتركه الإنتهاز.

ومنه ثم في بيت الحماسة:

لا يكشف الغماء إلا ابن حرة** يرى غمرات الموت ثم يزورها

استبعد أن يزور غمرات الموت بعد أن رآها واستيقنها واطلع على شدتها. فإن قلت: هلا قيل: إنا منه منتقمون قلت: لما جعله أظلم كل ظالم ثم توعد المجرمين عامة بالإنتقام منهم فقد دل على إصابة الأظلم النصيب الأوفر من الانتقام ولو قاله بالضمير لم يفد هذه الفائدة.

{ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه وجعلناه هدى لبني إسرائيل وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما} الكتاب للجنس والضمير في {لقائه} له. ومعناه: إنا آتينا موسى عليه السلام مثل ما آتيناك من الكتاب ولقيناه مثل ما لقيناك من الوحي فلا تكن في شك من أنك لقيت مثله ولقيت نظيره كقوله تعالى {فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك} [يونس: 94] ونحو قوله {من لقائه} قوله {وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم} [النمل: 6].

وقوله {ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً} [الإسراء: 13]. وجعلنا الكتاب المنزل على موسى عليه السلام {هدى} لقومه {وجعلنا منهم أئمة يهدون} الناس ويدعونهم إلى ما في التوراة من دين الله وشرائعه لصبرهم وإيقانهم بالآيات. وكذلك لنجعلن الكتاب المنزل إليك هدى ونوراً ولنجعلن من أمتك أئمة يهدون مثل تلك الهداية لما صبروا عليه من نصرة الدين وثبتوا عليه من اليقين. وقيل: من لقائك موسى عليه السلام ليلة الإسراء أو يوم القيامة وقيل: من لقاء موسى عليه السلام الكتاب أي: من تلقه له بالرضا والقبول. وقرئ: لما صبروا ولما صبروا أي لصبرهم. وعن الحسن رضي الله عنه: صبروا عن الدنيا. وقيل: إنما جعل التوراة هدى لبني إسرائيل خاصة ولم يتعبد بما فيها ولد إسماعيل عليه السلام {يفصل بينهم} يقضي فيميز المحق في دينه من المبطل.

{أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا} الواو في {أو لم يهد} للعطف علة معطوف عليه منوي من جنس المعطوف والضمير في {لهم} لأهل مكة. وقرئ بالنون والياء والفاعل ما دل عليه {كم أهلكنا} لأن كم لا تقع

فاعلة لا يقال: جاءني كم رجل تقديره: أو لم يهد لهم كثرة إهلاكنا القرون. أو هذا الكلام كما هو بمضمونه ومعناه كقولك: يعصم لا إله إلا الله الدماء والأموال. ويجوز أن يكون فيه ضمير الله بدلالة القراءة بالنون. و {القرون} عاد وثمود وقوم لوط {يمشون في مساكنهم} يعني أهل مكة يمرون في متاجرهم على ديارهم وبلادهم. وقرئ: يمشون بالتشديد.

{أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون} {الجرز} الأرض التي نباتها أي قطع: إما لعدم الماء وإما لأنه رعي وأزيل ولا يقال للتي لا تنبت كالسباخ: جزر. ويدل عليه قوله {فنخرج به زرعاً} وعن ابن عباس رضي الله عنه: إنها أرض اليمن. وعن مجاهد رضي الله عنه} هي أبين.{به} بالماء {تأكل} من الزرع {أنعامهم} من عصفه {وأنفسهم} من حبه. وقرئ: يأكل بالياء.

{ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون} الفتح: النصر أو الفصل بالحكومة من قوله {ربنا افتح بيننا} [الأعراف: 89] وكان المسلمون يقولون إن الله سيفتح لنا على المشركين ويفتح بيننا وبينهم فإذا سمع المشركون قالوا {متى هذا الفتح} أي في أي وقت يكون {إن كنتم صادقين} في أنه كائن. و{يوم الفتح} يوم القيامة وهو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم ويم نصرهم عليهم وقيل يوم بدر. وعن مجاهد والحسن رضي الله عنهما: يوم فتح مكة. فإن قلت: قد سألوا عن وقت الفتح فكيف ينطبق هذا الكلام جواباً على سؤالهم. قلت: كان غرضهم في السؤال عن وقت الفتح استعجالاً منهم عن وجه التكذيب والاستهزاء فأجيبوا على حسب ما عرف من غرضهم في سؤالهم فقيل لهم: لا تستعجلوا به ولا تستهزؤا فكأني بكم وقد حصلتم في ذلك اليوم وآمنتم فلم ينفعكم الإيمان واستنظرتم في إدراك العذاب فلم تنظروا. فإن قلت: فمن فسره بيوم الفتح أو يوم بدر كيف يستقيم على تفسيره أن لا ينفعهم الإيمان وقد نفع الطلقاء يوم فتح مكة وناساً يوم بدر. قلت: المراد أن المقتولين منهم لا ينفعهم إيمانهم في حال القتل كما لم ينفع فرعون إيمانه عند إدراك الغرق {وانتظر} النصرة عليهم وهلاكهم {إنهم منتظرون} الغلبة عليكم وهلاككم كقوله تعالى {فتربصوا إنا معكم متربصون} [التوبة: 52] وقرأ ابن السميع رحمه الله: منتظرون بفتح الظاء. ومعناه: وانتظر هلاكهم فإنهم أحقاء بأن ينتظر هلاكهم يعني أنهم هالكون لا محالة. أو وانتظر ذلك فإن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ الم تنزيل وتبارك الذي بيده الملك أعطى من الجر كأنما أحيا ليلة القدر وقال: من قرأ الم تنزل في بيته لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام.

سورة الأحزاب

مدنية وهي ثلاث وسبعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

{يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيماً واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعلمون خبيراً وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا} عن زر قال: قال لي أبي بن كعب رضي الله عنه: كم تعدون سورة الأحزاب قلت: ثلاثاً وسبعين آية. قال: هو الذي يحلف به أبي كعب إن كانت لتعدن سورة البقرة أو أطول. ولقد قرأنا منها آية الرجم: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزوز حكيم أراد أبي رضي الله عنه أن ذلك من جملة ما نسخ من القرآن. وأما ما يحكى: أن تلك الزيادة كانت في صحيفة في بيت عائشة رضي الله عنها فأكلتها الداجن فمن تأليفها الملاحة والروافض.

جعل نداءه بالنبي والرسول في قوله {يا أيها النبي اتق الله} {يا أيها النبي لم تحرم} [التحريم: 1] {يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك} [المائدة: 67] وترك نداءه باسمه كما قال: يا آدم يا موسى يا عيسى يا داود كرامة به وتشريفاً وربئاً بمحله وتنويهاً بفضله. فإن قلت: إن لم يوقع اسمه في النداء فقد أوقعه في الأخبار في قوله {محمد رسول الله} [الفتح: 29] {وما محمد إلا رسول} [آل عمران: 144] قلت: ذاك لتعليم الماس بأنه رسول الله وتلقين لهم أن يسموه بذلك ويدعوه به فلا تفاوت بين النداء والإخبار ألا ترى إلى ما لم يقصد به التعليم والتلقين من الأخبار كيف ذكره بنحو ما ذكره في النداء} لقد جاءكم رسول من أنفسكم} [التوبة: 128] و{وقال الرسول يا رب} [الفرقان: 30] {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة} {إن الله وملائكته يصلون على النبي} [الأحزاب: 56] {ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي} [المائدة: 81] اتق الله: واظب على ما أنت عليه من التقوى واثبت عليه وازدد منه وذلك لأن التقوى باب لا يبلغ آخره {ولا تطع الكافرين والمنافقين} لا تساعدهم على شئ ولا تقبل لهم رأيا ولا مشورة وجانبهم واحترس منهم فإنهم أعداء الله وأعداء المؤمنين لا يريدون إلا المضارة والمضادة.

وروي: أن النبي صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة وكان يحب إسلام اليهود: قريظة والنضير وبني قين قاع وقد بايعه أناس منهم على النفاق فكان يلين لهم جانبه ويكرم صغيرهم وكبيرهم.

وإذا أتى منهم قبيح تجاوز عنه. وكان يسمع منهم فنزلت. وروي: أن ايبا سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبا الأعور السلمي قدموا عليه في الموداعة التي كانت بينه وبينهم وقام معهم عبد الله بن أبي ومعتب بن قشير والجد بن قيس فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: أرفض ذكر آلهتنا وقل إنها تشفع وتنفع وندعك وربك فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين وهموا بقتلهم فنزلت: أي اتق الله في نقض العهد ونبذ الموادعة ولا تطع الكافرين من أهل مكة والمنافقين من أهل المدينة فيما طلبوا إليك. وروي أن أهل مكة دعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن يرجع عن دينه ويعطوه شطر أموالهم وأن يزوجه شيبة بن ربيعة بنته وخوفه منافقو المدينة أنهم يقتلونه المفسدة {حكيماً} لا يفعل شيئاً ولا يأكر به إلا بداعي الحكمة {واتبع ما يوحى إليك} في ترك طاعة الكافرين والمنافقين وغير ذلك {إن الله} الذي يوحي إليك خبير {بما تعملون} فموح إليك ما يصلح به أعمالكم فلا حاجة بكم إلى الاستماع من الكفرة. وقرئ: يعملون بالياء بما يعمل المنافقون من كيدهم لكم ومكرهم بكم {وتوكل على الله} وأسند أمرك إليه وكله إلى تدبيره {وكيلا} حافظاً موكولاً إليه كل أمر.

{ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللَّائِي تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً} ما جمع الله قلبين في جوف ولا زوجية وأمومة في أمرأة ولا بنوة ودعوة في رجل. والمعنى: أن الله سبحانه كما لم ير في حكمته أن يجعل للإنسان قلبين لأنه لا يخلو إما أن يفعل بأحدهما مثل ما يفعل بالآخر من أفعال القلوب فأحدهما مثل ما يفعل بذاك فذلك يؤدي إلى اتصاف الجملة بكونه مريداً كارهاً. عالماً ظاناً. موقناً شاكراً في حالة واحدة - لم ير أيضاً أن تكون المرأة الواحدة أما لرجل زوجاً له لأن الأم مخدومة مخفوض لها جناح الذل والزوجة مستخدمة متصرف فيها بالاستفراش وغيره كالمملوكة وهما حالتان متنافيتان وأن يكون الرجل الواحد دعياً لرجل وابناً له: لأن البنوة أصالة في النسب وعراقة فيه والدعوة: إلصاق عارض بالتسمية لا غير ولا يجتمع في الشئ الواحد أن يكون أصيلاً غير أصيل وهذا مثل ضربة الله في زيد حارثة وهو رجل من كلب سبي صغيراً. وكانت العرب في جاهليتها يتغاورون ويتسابون.

فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة فملا تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهبته له وطلبه أبوه وعمه فخير فاختار رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعتقه. وكانوا

يقولن: زيد بن محمد فأنزل الله عز وجل هذه الآية وقوله {ما كان محمد أبا أحد من رجالكم} الحزاب: 0 وقيل: كان أبو معمر رجلاً من أحفظ العرب وأرواهم فقيل له: ذو القلبين وقيل: هو جميل بن أسد الفهري. وكان يقول: إن لي قلبين. أفهم بأحدهما أكثر مما يفهم محمد فروي أنه انهزم يوم بدر فمر بأبي سفيان وهو معلق أحدى نعليه بيده والأخرى في رجله. فقال له: ما فعل الناس فقال: هم ما بين مقتول وهارب. فقال له: ما بال إحدى نعليك في رجلك والأخرى في يدك فقال: ما ظننت إلا أنهما في رجلي فأكذب الله قوله وقولهم وضربه مثلاً في الظهار والتبني. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كان المنافقون يقولون: لمحمد قلبان فأكذبهم الله.

وقيل: سها في صلاته فقالت اليهود: له قلبان: قلب مع أصحابه وقلب معكم. وعن الحسن: نزلت في أن الواحد يقول: نفس تأمرني ونفس تنهاني. والتنكير في رجل وإدخال من الاستغراقية على قلبين تأكيدان لما قصد من المعنى كأنه قال: ما جعل الله لأمه الرجال ولا لواحد منهم قلبين البتة في جوفه. فإن قلت: أي فائدة في ذكر الجوف قلت: الفائدة فيه كالفائدة في قوله {القلوب التي في الصدور} [الحج: 46] وذلك ما يحصل للسامع من زيادة التصور والتجلي للمدلول عليه لأنه إذا سمع به صور لنفسه جوفاً يشتمل على قلبين فكان أسرع إلى الإنكار.

وقرئ: اللايئ بياء وهمزة مكسورتين واللائي بيان ساكنة بعد الهمزة: وتظاهرون: من ظاهر.

وتظاهرون. من اظاهر بمعنى عاقد. وتظهرون: من ظهر بلفظ فعل من الظهور. ومعنى ظاهر من امرأته: قال لها: أنت علي كظهر أمي. ونحوه في العبارة عن اللفظ: لبى المحرم إذا قال لبيك. وأفف الرجل: إذا قال: أف وأخوات لهن. فإن قلت: فما وجه تعديته وأخواته بمن قلت: كان الظهار ظلاقاً عن أهل الجاهلية. فكانوا يتجنبون المرأة المظاهرة منها كما يتجنبون المطلقة فكان قولهم: تظاهر منها تباعد منها بجهة الظهار وتظهر منها: تحرز منها. وظاهر منها: حاذر منها: وظهر منها: وحش منها. وظهر منها: خلص منها. ونظيره: آلي من امرأته لما ضمن معنى التباعد منها عدي بمن وإلا فآلي في أصله الذي هو بمعنى: حلف وأقسم ليس هذا بحكمه. فإن عدي بمن وإلا فآلي في أصله الذي هو بمعنى: حلف وأقسم ليس هذا بحكمه. فإن قلت: ما معنى قولهم: أنت علي كظهر أمي قلت: أرادوا أن يقولا: أنت علي حرام كبطن أمي. فكنوا عن البطن بالظهر لئلا يذكروا البطن. ومنه حديث عمر رضي الله عنه: يجئ به أحدهم على عمود بطنه: أراد على ظهور. ووجه آخر: وهو أن إتيان المرأة وظهرها إلى السماء كان محرماً عندهم محظوراً. وكان أهل المدينة يقلون: إذا أتيت المرأة ووجهها إلى الأرض جاء الولد أحوال فلقصد المطلق منهم إلى التغليظ في تحريم امرأته عليه شبهها بالظهر ثم لم يقنع بذلك حتي جعله ظهر أمه فلم يترك. فإن قلت: الدعي فعيل بمعنى مفعول وهو الذي يدعى ولداً فما له جمع على افعلاء وبابه: ما كان منه بمعنى فاعل كتقى وأتقياء وشقي وأشقياء ولا يكون ذلك في نحو رمي وسمى. قلت: إن شذوذه عن القياس كشذوذ قتلاء وأسراء والطريق في مثل ذلك التشبيه اللفظي {ذلكم} النسب هو {قولكم بأفواهكم} هذا ابني لا غير من غير أن يواطئه اعتقاد لصحته وكونه حقاً. والله عز وجل لا يقول إلا ما هو حق ظاهره وباطنه ولا يهدي إلا سبيل الحق. ثم قال ما هو الحق وهدى إلى ما هو سبيل الحق وهو قوله {ادعوهم لأبائهم} وبين أن دعاءهم لآبائهم هو أدخل الأمرين في القسط والعدل وفي فصل هذه الجمل ووصلها: من الحسن والفصاحة ما لا يغنى على عالم بطريق النظم. وقرأ قتادة: وهو الذي يهدي السبيل. وقيل: كان الرجل في الجاهلية إذا أعجبه جلد الرجل وظرفه: ضمه إلى نفسه وجعل له مثل نصيب الذكر م أولاده من ميراثه وكان ينسب إليه فيقال: فلان ابن فلان {فإن لم تعلموا} لهم آباء تنسبونهم إليهم} ف} هم {فإخوانكم في الدين} وأولياؤكم في الدين فقولوا: هذا أخي وهذا مولاي ويا أخي ويا مولاي

يريد الخوة في الدين والولاية فيه {ما تعمدت} في محل الجر عطفاً على ما أخطأتم. ويجوز أن يكون مرتفعاً على الإبتداء والخبر محذوف تقديره: ولكن ما تعمدت قلوبكم فيه الجناح. والمعنى: لا إثم عليكم فيما فعلتموه من ذلك مخطئين جاهلين قبل ورود النهي ولكن الإثم فيما عمدتموه بعد النهي. أو لا إثم عليكم إذا قلتم لولد غيركم يا بني على سبيل الخطا وسبق اللسان ولكن إذا قلتموه متعمدين. ويجوز أن يراد العفو عن الخطا دون العمد على طريق العموم كقوله عليه الصلاة والسلام: ما أخشى عليكم الخطأ ولكن أخشى عليكم العمد وقوله عليه الصلاة والسلام: وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما أكرهوا عليه ثم تناول لعمومه خطأ التبني وعمده. فإن قلت: فإن قلت: فإذا وجد التبني فما حكمه قلت: إذا كان المتبني مجهول النسب وأصغر سناً

من المتنبي ثبت نسبه منه وإن كان عبداً له عتق مع ثبوت النسب وإن كان لا يولد مثله لمثله لم يثبت النسب ولكنه يعتق عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى وعند صاحبيه لا يعتق. وأما المعروف النسب فلا يثبت نسبة بالتبني وإن كان عبداً عتق {وكان الله غفوراً رحيماً} لعفو عن الخطأ وعن العمد إذا تاب العامد.

{النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً كان ذلك في الكتاب مسطوراً} {النبي أولى بالمؤمنين} في كل شئ من أمور الدين والدنيا} من أنفسهم} ولهذا ألق ولم يقيد فيجب عليهم أن يكون أحب إليهم من أنفسهم وحكمه أنفذ عليهم من حكمها وحقه آثر لديهم من حقوقها وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها وأن يبذلوها دونه ويجعلوها فداءه إذا أعضل خطب ووقاءه إذا لقحت حرب وأن لا يتبعوا ما تدعوهم إليه نفوسهم ولا ما تصرفهم عنه ويتبعوا كل ما دعاهم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصرفهم عنه لأن كل ما دعا إليه فهو إرشاد لهم إلى نيل النجاة والظفر بسعادة الدارين وما صرفهم عنه فأخذ بحجزهم لئلا يتهافتوا فيما يرمي بهم إلى الشقاوة وعذاب النار. أو هو أولى بهم على معنى أنه أرأف بهم وأعطف عليهم وأنفع لهم كقوله تعالى {بالمؤمنين رؤوف رحيم} [التوبة: 128] وعن النبي صلى الله عليه وسلم: ما من مؤمن إلا أنا أولى به في الدنيا والآخرة. اقرؤوا إن شئتم {النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم} فأيما مؤمن هلك وترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا وإن ترك ديناً أو ضياعاً فإلى وفي قراءة ابن مسعود: النبي أولى بالمؤمنين من أنفسم وهو أب لهم. وقال مجاهد: كب نبي فهو أبو أمته. ولذلك صار المؤمنون إخوة لأن النبي النبي صلى الله عليه وسلم أبوهم في الدين {وأزواجه أمهاتهم} تشبيه لهن بالأمهات في بعض الأحكام وهو وجوب تعظيمهن واحترامهن وتحريم نكاحهن: قال الله تعالى {ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا} [الأحزاب: 53] وهن فيما وراء ذلك بمنزلة الأجنبيات ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها: لسنا أمهات النساء. تعني أنهن إنما أمهات الرجال لكونهن محرامات عليهم كتحريم أمهاتهم. والدليل على ذلك: أن هذا التحريم لم يتعد إلى بناتهن وكذلك لم يثبت لهن سائر أحكام الأمهات. كان المسلمون في صدر الإسلام يتوارثون بالولاية في الدين وبالهجرة لا بالقرابة كما كانت تتألف قلوب قوم بإسهام لهم في الصدقات ثم نسخ ذلك لما دجا الإسلام وعز أهله وجعل التوارث بحق القرابة {في كتاب الله} في اللوح. أو فيما أوحى الله إلى نبيه وهو هذه الآية. أو في آية المواريث. أو فيما فرض الله كقوله {كتاب الله عليكم} [النساء: 24]. {من المؤمنين والمهاجرين} يجوز أن يكون لابتداء الغاية. أي: أولو الأرحام بحق القرابة أولى بالميراث من المؤمنين بحق الولاية في الدين ومن المهاجرين بحق الهجرة.

فإن قلت: مم استثنى {أن تفعلوا} قلت: من أعم العام في معنى النفع والإحسان كما تقول: القريب أولى من الأجنبي إلا في الوصية. والمراد بفعل المعروف: التوصية لأنه لا وصية لوارث وعدي تفعلوا بإلى لأنه في معنى: تسدوا وتزلوا والمراد بالأولياء: المؤمنون

والمهاجرون للولاية في الدين {ذلك} إشارة إلى ما ذكر في الآيتين جميعاً. وتفسير الكتاب: ما مر آنفاً والجملة مستأنفة كالخاتمة لما ذكر من الأحكام.

{وإذ أخذنا من النبين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذاباً أليماً} {و} اذكر حين {أخذنا من النبين} جميعاً {ميثاقهم} بتبليغ الرسالة والدعاء إلى الدين القيم} ومنك خصوصاً} ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى} وإنما فعلنا ذلك {ليسأل} الله يوم القيامة عند تواقف الأشهاد المؤمنين الذين صدقوا عهدهم ووفوا به من جملة من أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى {عن صدقهم} عهدهم وشهادتهم فيشهد لهم الأنبياء بأنهم صدقوا عهدهم وشهادتهم وكانوا مؤمنين. أو ليسأل المصدقين للأنبياء عن تصديقهم. لأن من قال للصادق: صدقت كان صادقاً في قوله. أو ليسأل الأنبياء ما الذي أجابتهم به أممهم. وتأويل مسألة الرسل: تبكين الكافرين بهم كقوله {أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله} [المائدة: 116]. فإن قلت: لم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم على نوح فمن بعده قلت هذا العطف لبيان فضيلة الأنبياء الذين هم مشاهير وذراريهم فلما كان محمد صلى الله عليه وسلم أفضل هؤلاء المفضلين: قدم عليهم لبيان أنه أفضلهم ولولا ذلك لقدم من قدمه زمانه. فإن قلت: فقد قدم عليه نوح عليه السلام في الآية التي هو أخت هذه الآي وهي قوله {شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك} [الشورى: 13] ثم قدم على غيره. قلت: مورد هذه الآية على طريقة خلاف طريقة تلك وذلك أن الله تعالى إنما أوردها لوصف دين الإسلام بالآلة والاستقامة فكأنه قال: شرع لكم اليدن الأيل الذي بعث عليه نوح في العهد القديم وبعث عليه محمد خاتم الأنبياء في العهد الحديث وبعث عليه من توسط بينهما من الأنبياء المشاهير.

فإن قلت: فما المراد بالميثاق الغليظ قلت: أراد به ذلك الميثاق بعينه. معناه: وأخذنا منهم بذلك الميثاق ميثاقاً غليظاً. والغلظ: استعارة من وصف الأجرام والمراد: عظم الميثاق وجلاله شأنه في بابه. وقيل الميثاق الغليظ: اليمين بالله على الوفاء بما حملوا. فإن قلت: علام عطف قوله {وأعد للكافرين} قلت: على أخذنا من النبيين لأن المعنى أن الله أكد على الأنبياء الدعوة إلى دينه لأجل إثابة المؤمنين. وأعد للكافرين عذاباً أليماً. أو على ما دل عليه} لسئل الصادقين} كأنه قال: فأثاب المؤمنين وأعد للكافرين.

{يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً} {اذكروا} ما أنعم الله به عليكم يوم الأحزاب وهو يوم الخندق} إذ جاءتكم جنود} وهم الحزاب فأرسل الله عليهم ريح الصبا. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور {وجنوداً لم تروها} وهم الملائكة وكانوا ألفاً: بعث الله عليهم صبا باردة في ليلة شاتية فأحشرتهم وسفت التراب في وجوههم وأمر الملائكة فقلعت الأوتاد وقطعت الطناب وأطفأت النيران وأكفأت القدور وماجت الخيل بعضها في بعض وقذف في قلوبهم الرعب وكبرت الملائكة في جوانب عسكرهم فقال طليحة بن خويلد الأسدي: أما محمد فقد بدأكم بالسحر فالنجاء النجاء فانهزموا من غير قتال وحين سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بإقبالهم ضرب الخندق على المدينة أشار إليه بذلك سلمان الفارسي رضي الله عنه ثم خرج في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب معسكره والخندق بينه وبين القوم وأمر بالذراري والنساء فرفعوا في الاطام واشتد الخوف وطن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق م المنافقين حتى قال معتب بن قشير: كان محمد يعدنا كنوز كسرى وقيصر ولا نقدر أن نذهب إلى الغائط. وكانت قريش قد أقبلت في عشرة آلاف من الأحابيش وبني كنانة وأهل تهامة وقائدهم أبو سفيان وخرج غطفان في ألف ومن تابعهم من أهل نجد وقائدهم عيينة بن حصن. وعامر بن الطفيل في هوزان

وضامتهم اليهود من قريظة والنضر ومضى على الفريقين قريب من شهر لا حرب بينهم إلا الترامي بالنبل والحجارة حتى أنزل الله النصر {تعلمون} قرء بالتاء والياء {من فوقكم} من أعلى الوادي من قبل المشرق: بنو غطفان} ومن أسفل منكم} من أسفل الوادي من قبل المغرب: قريش تحزبوا وقالوا: سنكون جملة واحدة حتى نستأصل محمداً {زاغت الأبصار} مالت عن سننها ومستوى نظرها حيرة وشخوصاً. وقيل: عدلت عن كل شئ فلم تلتفت إى إلى عدوها لشدة الروع. الحنجرة: رأس الغلصمة وهي منتهى الحلقوم.

والحلقوم: مدخل الطعام والشراب قالوا: إذا انتفخت الرئة الحنجرة ومن ثمة قيل للجبان: انتفخ سحره. ويجوز أن يكون ذلك مثلاً في اضطراب القلوب ووجيبها وإن لم تبلغ الحناجر حقيقة {وتظنون بالله الظنونا} خطاب للذين آمنوا. ومنهم الثبت القلوب والأقدام والضعاف القلوب: الذين هم على حرف والمنافقون: الذينلم يوجد منهم الإيمان إلا بألسنتهم فظن بالله ما حكى عنهم. وعن الحسن: ظنوا ظنوناً مختلفة: ظن المنافقون أن المسلمين يستأصلون وظن المؤمنون أنهم يبتلون. وقرئ الطنون بغير ألف في الوصل والوقف وهو القياس وبزيادة ألف في الوقف زادوها في الفاصلة كما زادها في القافية من قال: اقلي اللوم عاذل والعتابا كذلك الرسولا والسبيلا. وقرئ بزيادتها في الوصل أيضاً إجراء له مجرى الوقف. قال أبو عبيد: وهم كلهن في الإمام بألف. وعن أبي عمرو وإشمام زاي زلزلوا. وقرئ: زلزالاً بالفتح.

والمعنى: أن الخوف أزعجهم أشد الإزعاج.

{وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستئذن فريق منهم النبي يقولن إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها} {إلا غرورا} قيل قائلة: معتب بن قشير حين رأى الأحزاب قال: يعدنا محمد فتح فارس والروك وأحدنا لا يقدر أن يتبرز فريقاً ما هذا إلا وعد غرور} كائفة منهم هم أوس بن قيظي ومن وافقه على رأيه. وعن السدي عبد الله بن أبي وأصحابه. ويثرب: اسم المدينة. وقيل: أرض وقعت المدينة في ناحية منها {لا مقام لكم} قرئ بضم الميم اسم المدينة. وقيل: أرض المدينة في ناحية منها {لا مقام لكم} قرئ بضم الميم وفتحها أي لا قرار لكم ههنا ولا مكان تقيمون فيه أو تقيمون فيه أو تقومون {فارجعوا} إلى المدينة: أمروهم بالهرب من عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل: قالما لهم: ارجعوا كفاراً وأسلموا محمداً وإلا فلست يثرب لكم بمكان.

قرئ: عورة بسكون الواو وكسرها فالعورة: الخلل والعورة: ذات العورة يقال: عور المكان عوراً إذا بدا فيه خلل يخاف منه العدو والسارق. ويجوز أن تكون {عورة} تخفيف: عورة اعتذروا أن بيوتهم معرضة للعدو ممكنة للسراق لأنها غير محرزة ولا محصنة فاستأذنوه وليحصنوها ثم يرجعوا إليه فأكذبهم الله بأنهم لا يخافون ذلك وإنما يريدون الفرار {ولو دخلت عليهم} المدينة. وقيل: بيوتهم من قولك: دخلت على فلان داره {من أقطارها} من جوانبها يريد: ولو دخلت هذه العساكر المتحزبة التي يفرون خوفاً منها مدينتهم وبيوتهم من نواحيها كلها.

وانثالت على أهليهم وأولادهم ناهين سابين ثم سئلوا عند ذلك الفزع وتلك الرجفة {الفتنة} أي الردة والرجعة إلى الكفر ومقاتلة المسلمين لأتوها: لجاؤها وفعلوها. ومقرئ: لآتوها لأعطوها} وما تلبثوا بها} وما ألبثوا إعطاءها {إلا يسيراً} فإن الله يلهلكهم. والمعنى: أنهم يتعللون بإعوار بيوتهم ويتحملون ليفروا عن نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وعن مصافة الأحزاب الذين ملؤوهم هولاً ورعباً وهؤلاء

الأحزاب كما هم لو كسبوا عليهم أرضهم وديارهم وعرض عليهم الكفر وقيل لهم كونوا على المسلمين لساعروا إليه وما تعللوا بشيء وما ذاك إلا لمقتهم إسلام. وشدة بغضهم لأهله وحبهم الكفر وتهالكهم على حزبه.

{ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلا} عن ابن عباس: عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم. وقيل: هم قوم غابوا عن بدر فقالوا: لئن اشهدنا الله قتالا لنقاتلن. وعن محمد بن اسحق عاهدوا يوم أحد أن يفروا بعدما نزل فيهم ما نزل {مسؤلا} مطلوبا مقتضى حتى يوفى به {لن ينفعكم الفرار} مما لا بد لكم من نزوله بكم من حتف أنف أو قتل. وإن نفعكم الفرار مثلاً فمنعتم بالتأخير: لم يكن ذلك التمتع إلا زماناً قليلاً. وعن بعض المروانية: أنه مر بحائط مائل فأسرع فتليت له هذه الآية فقال: ذلك القليل نطلب.

{قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً} فإن قلت: كيف جعلت الرحمة قرينة السوء في العصمة ولا عصمة إلا من السوء قلت: معناه أو يصيبكم بسوء إن أراد بكم رحمة فاختصر الكلام وأجرى مجرى قوله:

متقلداً سيفاً ورومحا أو حمل الثاني على الأول لما في العصمة من معنى المنع.

{قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلاً أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً} {المعوقين} المثبطين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم المنافقون: كانوا يقولون} لإخوانهم} من ساكني المدينة من أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس ولو كانوا لحماً لالتهمهم أبو سفيان وأصحابه فخلوهم و{هلم إلينا} أي قربوا أنفسكم إلينا. وهي لغة أهل الحجاز: يسوون فيه بين الواحد والجماعة. وأما تميم فيقولون: هلم يا رجل وهلموا يا رجال وهو صوت سمي به فعل متعد مثل احضر وقرب {قل هلم شهداءكم} [الأنعام: 5] {إلا قليلا} إلا اتيانا قليلا يخرجون مع المؤمنين يوهمونهم أنهم معهم ملا تراهم يبارزون ويقالتون إلا شيئاً قليلا إذا اضطروا إليه كقوله {ما قاتلوا إلا قليلاً} {أشحة عليكم} في وقت الحرب أضناء بكم يترفرفون عليكم كما يفعل الرجل بالذاب عنه المناضل دونه عند الخوف {ينظرون إليك} في تلك الحالة كما ينظر المغشى عليه من معالجة سكرات الموت حذراً أو خوراً ولو اذا بك ذهب الخوف وحيزت الغنائم ووقعت القسمة: نقلوا ذلك الشح وتلك الضنة والرفرفة عليكم إلى الخير - وهو المال والغنيمة - ونسوا تلك الحالة الأولى واجترؤوا عليكم وضربوكم بألسنتهم وقالوا: وفروا قسمتنا فإنا قد شاهدناكم وقاتلنا معكم وبمكاننا غلبتم عدوكم وبنا نصرتم عليهم. ونصب {أشحة} على الحال أو على الذم. وقرئ: أشحة بارفع. وصلقوكم بالصاد.

فإن قلت: هل يثبت للمنافق عمل حتى يرد عليه الإحباط قلت: لا ولكمه تعليم لمن عسى يظن أن الإيمان باللسان إيمان وإن لم يوطئه القلب وأن ما يعمل المنافق من الأعمال يجدي عليه فبين أن إيمانه ليس بإيمانه الصحيح وتنبيه على أن الأعمال الكثيرة من غير تصحيح المعرفة كالبناء على غير أساس وأنها مما يذهب عند الله هباء منثورا. فإن قلت: ما معنى قوله {وكان ذلك على الله يسيرا} وكل شئ عليه يسير قلت: معناه: أن أعمالهم حقيقة بالإحباط تدعو إليه الدواعي ولا يصرف عنه صارف {يحسبون} أن الحزاب لم ينهزموا وقد انهزموا فانصرفوا عن الخندق إلى المدينة راجعين لما نزل بهم من الخوف

الشديد ودخلهم من الجبن المفرط {وإن يأت الأحزاب} كرة ثانية. تمنوا لخوفهم مما منوا به هذه الكرة أنهم خارجون إلى البدو حاصلون بين الأعراب {يسئلون} كل قادم منهم من جانب المدينة عن أخباركم وعما جرى عليكم {ولو كانوا فيكم} ولم يرجعوا إلى المدينة وكان قتال - لم يقاتلوا إلا تعلة رياء وسمعة.

وقرئ: بدي على فعل جمع باد كغاز وغزي. وفي رواية صاحب الإقليد: بدي بوزن عدي.

ويساءلون الأعراب كما تقول: رأيت الهلال وتراءيناه: كان عليكم أن تواسلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنفسكم فتوازروه وتثبتوا معه كما آساكم بنفسه في الصبر على الجهاد والثبات في مرحى الحرب حتى كسرت رباعيته يوم أحد وشج وجهه.

{لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً} فإن قلت: فما حقيقة قوله {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة}. وقرئ: أسوة بالضم قلت: فيه وجهان أحدهما: أنه في نفسه أسوة حسنة أي: قدوة وهو الموتسى به أي: المقتدى به كما تقول: في البيضة عشرون منا حديد أي: هي من نفسها هذا المبلغ من الحديد.

والثاني: أن فيه خصلة من حقها أن يؤتسى بها وتتبع. وهي المواساة بنفسه {لمن كان يرجوا الله} بدل من لكم كقوله {للذين استضعفوا لمن آمن منهم} [الأعراف: 75] يرجو أيام الله. واليوم الآخر: من قولك رجوت زيداً وفضله أي: فضل ويد أو يرجو أيام لله. واليوم الآخر خصوصاً. والرجاء بمعنى الأمل أو الخوف} وذكر الله كثيراً} وقرن الرجاء بالطاعات الكثيرة والتوفر على الأعمال الصالحة والمؤتسى برسول الله صلى الله عليه وسلم من كان كذلك.

{ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً} وعدهم الله أن يزلزلوا حتى يستغيثوه ويستنصروه في قوله {أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم} [البقرة: 214] فلما جاء الحزاب وشخص بهم واضطربوا ورعبوا الرعب الشديد {قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله} وأيقنوا بالجنة والنصر. وعن أبن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: إن الأحزاب سائرون إليكم تسعاً أو عشراً أي في آخر تسع ليال أو عشر فلما رأوهم قد أقبلوا للميعاد قالوا ذلك. وهذا إشارة إلى الخطب أو البلاء {إيماناً} بالله وبمواعيده {وتسليماً} لقضاياه وأقداره.

{من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيماً ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقا وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها وكان الله على كل شيء قديراً} نذر رجال من الصحابة أنهم إذا لقوا حرباً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا وهم: عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وحمزة ومصعب بن عمير وغيرهم رضي الله عنهم {فمنهم من قضى نحبه} يعني حمزة ومصعباً {ومنهم من ينتظر} يعني عثمان ولحة. وفي الحديث: من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلي طلحة فإن قلت: ما قضاء النحب قلت: وقع عبارة عن الموت لأن كل حي لا بد له من أن يموت. فكأنه نذر لازم في رقبته فإذا مات فقد قضى نحبه أي: نذره. وقوله {فمنهم من قضى نحبه} يحتمل موته شهيداً ويحتمل وفاءه بنذره من الثبات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. فإن قلت: فما حقيقة قوله {صدقوا ما عاهدوا الله عليه} قلت: يقال:

صدقني أخوك وكذبني إذا قال لك الصدق والكذب. وأما المثل: صدقني ين بكره. فمعناه: صدقني في سن بكره بجرح الجار وإيصال الفعل فلا يخلو {ما عاهدوا الله عليه} إما أن يكون بمنزلة السن في طرح الجار وإما أن يجعل المعاهد عليه مصدقاً على المجاز كأنهم قالوا للمعاهد عليه: سنفي بك وهم وافون به فقد صدقوه ولو كانوا ناكثين لكذبوه ولكان مكذوباً {وما بدلوا} العهد ولا غيروه لا المستشهد ولا من ينتظر الشهادة ولقد ثبت طلحة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد حتى أصيب يده فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أوجب طلحة وفيه بمن بدلوا من أهل النفاق ومرض القلوب: جعل المنافقون كأنهم قصدوا عاقبة السوء وأرادوها بتبديلهم كما قصد الصادقون عاقبة الصدق بوفائهم لأن كلا الفريقين مسوق إلى عاقبته من الثواب والعقاب فكأنهما استويا في طلبهما والسعي لتحصيلهما. ويعذبهم {إن شاء} إذا لم يتوبا} أو يتوب عليهم {إذا تابوا {ورد الله الذين كفروا} الأحزاب {يغيظهم} مغيظين كقوله {تنبت بالدهن} [المؤمنون: 20].{لم ينالوا خيراً} غير ظافرين وهما حالان بتداخل أو تعاقب. ويجوز أن تكون الثانية بياناً للأولى أو استئنافاً} وكفى الله المؤمنين القتال: بالريح والملائكة {وأنزل الذين} ظاهروا الأحزاب من أهل الكتاب {من صياصيهم} من حصونهم. والصيصة ما تحصن به يقال لقرن الثور والظبي: صيصة ولشوكة الديك وهي مخلبه التي في ساقه لأنه يتحصن بها. روي أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم - صبيحة الليلة التي انهزموا فيها الأحزاب ورجع المسلمون إلى المدينة ووضعوا سلاحهم - على فرسه الحيزوم والغبار على وجه الفرس وعلى السرج فقال: ما هذا يا جبريل قال: من متابعة قريش: فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح الغبار عن وجه الفرس وعن السرج فقال: يا رسول الله إن الملائكة لم تضع السلاح إن الله يأمرك المسير إلى بني قريظة وانا عامد إليهم فإن الله داقهم دق البيض على الصفا وإنهم لكم طعمة فأذن في الناس: أن من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلي العصر إلا في بني قريظة. فما صلى كثير من الناس العصر إلا بعد العشاء الآخرة لقول رسو ل الله صلى الله عليه وسلم فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: تنزلون على حكمي فأبوا فقال: على حكم سعد بن معاذ فرضوا به فقال سعد: حكمت فيهم أن تقفتل مقاتلهم وتسبى ذراريهم ونساؤهم فكبر النبي صلى الله عليه وسلم وقال: لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة ثم استنزلهم وخندق في سوق المدينة خندقاً. وقدمهم فضرب أعناقهم وهم من ثمانمائة إلى تسعمائة وقيل كانوا ستمائة مقاتل أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل عقارهم للمهاجرين دون الأنصار فقالت الأنصار في ذلك فقال: إنكم في منازلكم وقال عمر رضي الله عنه: أما تخمس كما خمست يوم بدر قال: لا إنما جعلت هذه لي طعمة دون الناس. قال: رضينا بما صنع الله ورسوله} وأرضاً لم تطؤوها} عن الحسن رضي الله عنه: فارس والروم. وعن قتادة رضي الله عنه: منا نحدث أنها نكة.

وعن مقاتل رضي الله عنه: هي خبير. وعن عكرمة: كل أرض تفتح إلى يوم القيامة. ومن بدع التفاسير: أنه أراد نساءهم.

{يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً} اردن شيئاً من الدنيا من ثياب وزيادة نفقة وتغايرن فغم ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت. فبدأ بعائشة رضي الله عنها أ وكانت أحبهن إليه ت فخيرها وقرأ عليها القرآن فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة فرؤى الفرح في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم اختارت جميعهن اختيارها فشكر لهن الله ذلك فأنزل {لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج} [الأحزاب: 52]. روي أنه قال لعائشة: إني ذاكر لك أمراً ولا عليك أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك ثم قرأ عليها القرآن فقالت: أفي هذا أستأمر أبوي فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة.

وروي أنها قالت: لا تخبر أزواجك أني اخترتك فقال: إنما بعثني الله مبلغاً ولم يبعثني متعنتاً.

فإن قلت: ما حكم التخيير في الطلاق قلت: إذا قال لها اختاري فقالت: اخترت نفسي. أو قال: اختاري نفسك فقال: اخترت لا بد من ذكر النفس في قول المخير أو المخيرة - وقعت طلقة بائنة عند أبي حنيفة وأصحابه واعتبروا أن يكو ذلك في المجلس قبل القيام أو الاشتغال بما يدل على الإعراض واعتبر الشافعي اختيارها على الفور وهي عنده طلقة رجعية وهو مذهب عمر وابن مسعود. وعن الحسن وقتادة الزهري رضي الله عنهم: أكرها بيدها في ذلك المجلس وفس غيره وإذا اختارت زوجها لم يقع شيء بإجماع فقهاء الأمصار وعن عائشة رضي الله عنها: خيرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخترناه ولم نعده طلاقاً. وروي: أفكان طلاقاً. وعن علي رضي الله عنه. إذا اختارت زوجها فواحدة رجعية وإن اختارت نفسها فواحدة بائتة وروي عنه أيضاً أنها اختارت زوجها فليس بشيء. أصل تعال: أن يقوله من في المكان المرتفع لمن في المكان المستوطئ ثم كثر حتى استوت في استعماله الأمكنة. ومعنى تعالين: أقبلن بإرادتكم واختياركن لأحد أمرين ولم يرد نهوضهم إليه بأنفسهن. كما تقول: أقبل يخاصمني وذهب يكلمني. وقام يهددني} أمتعكم} أعطكن متعة الطلاق. فإن قلت: المتعة في الطلاق واجبة أو لا قلت: المطلقة التي لم يدخل بها ولم يفرض لها في العقد متعتها واجبة عند أبي

حنيفة وأصحابه وأما سائر المطلقات فمتعهن مستحبة وعن الزههري رضي الله عنه: متعتان إحداهما: يقضي بها السلطان: من طلق قبل أن يفرض ويدخل بها. والثانية: حق على المتقين من طلق بعد ما يفرض ويدخل وخاصمت امرأة إلى شريح في المتعة فقال: متعها إن كنت من المتقين ولم يجبره. وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه: المتعة حق مفروض. وعن الحسن رضي الله عنه: لكل مطلقة متعة إلا المتلعة والملاعنة والمتعة: درع وخمار وملحفة على حسب السعة والإقتار إلا أن يكون نصف مهرها أقل من ذلك فيجيب لها الأقل منهما. ولا تنقص من خمسة دراهم لأن أقل المهر عشرة دراهم فلا ينقص من نصفها. فإن قلت: ما وجه قراءة من قرأ: أمتعكن وأسرحكن بالرفع قلت: وجهه الاستئناف {سراحاً جميلاً} من غير ضرار طلاقاً بالسنة {منكن} للبيان لا للتبعيض.

{يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً} الفاحشة: السئة البليغة في القبح وهي الكبيرة. والمبينة: الظاهرة فحشها والمراد كل ما اقترف من الكبائر: وقيل هي عصيانهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ونشوزهن وطلبهن منه ما يشق عليه أو ما يضيق به ذرعه ويغتم لأجله وقيل: الزنا والله عاصم رسوله من ذلك كما مر في حديث الإفك وإنما ضوعف عذابهن لأن ما قبح من شائر النساء كان اقبح منهن وأقبح لأن زيادة قبح المعصية تتبع وزيادة الفضل والمرتبة وزيادة النعمة على العاصي من المعصي وليس لأحد من النساء مثل فضل نساء النبي صلى الله عليه وسلم ولا على أحد منهن مثل ما لله عليهن من النعمة والجزاء يتبع الفعل وكون الجزاء عقاباً يتبع كون الفعل قبيحاً فمتى ازداد قبحاً. ازداد عقابه شدة ولذلك كان ذم العقلاء للعاصي العالم: أشد منه للعاصي الجاهل لأن المعصية من العالم أقبح ولذلك فضل حد الأحرار على حد العبيد حتى أن أبا حنيفة وأصحابه لا يرون الرجم على الكافر {وكان ذلك على الله يسيراً} إيذان كونهن نساء النبي صلى الله عليه وسلم ليس بمغن عنهن شيئاً. وكيف يغني عنهم وهو سبب مضاعفة العذاب فكان داعياً إلى تشديد الأمر عليهن غير صارف عنه. وهو سبب مضاعفة العذاب فكان داعياً إلى تشديد لأمر عليهن غير صارف عنه. قرئ يأت بالتاء والياء. ونؤتها: بالياء والنون. والقنوت: الطاعة وإنما ضوعف أجرهن لطلبهن رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم بحسن الخلق {يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطبع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً} أحد في الأصل

بمعنى وحد وهو الواحد ثم وضع في النفي العام مستوياً فيه المذكر والمؤنث والواحد وما وراءه. ومعنى قوله {لستن كأحد من النساء} لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء أي: إذا تقصت أمه النساء جماعة جماعة لم توجد منهن جماعة واحدة تساويكن في الضل والسابقة ومثله قوله تعالى {والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرق بين أحد منهم} [النساء: 52] يريد أردتن التقوى وإن كنتن متقيات {فلا تخضعن بالقول} فلا تجبن بقولكن خاضعاً أي: لينا خنثا مثل كلام المريبات والموسات} فيطمع الذي في قلبه مرض} أي ريبة وفجور. وقرئ بالجزم عطفاً على محل فعل النهي على أنهن نهين عن الخضوع بالقول. ونهى المريض عن الطمع كأنه قيل: لا تخضعن فلا يطمع. وعن ابن محيصن أنه قرأ بكسر الميم وسبيله ضم الياء مع كسرها وإسناد الفعل إلى ضمير القول أي: فيطع القول المريب {قولاً معروفاً} بعيداً من طمع المريب بجد وخشونة من غير تخنث أو قولاً حسناً مع كونه خشناً.

{وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً} {وقرن} بكسر القاف من قر يقر وقاراً. أو من قر يقر حذفت الأولى من رائي: أقررن ونقلت كسرتها إلى القاف كما تقول: ظلن وقرن بفتحها وأصله: أقررن فحذفت الراء وألقيت فتحتها على ما قبلها كقولك: ظلن وذكر أبو الفتح الهمداني في كتاب التبيان: وجهاً آخر قال: قار يقار: إذا اجتمع. ومنه. القارة لاجتمتعها ألا ترى إلى قول عضل والديش واجتمعوا فكونوا قارة. و{الجاهلية الأولى} هي القديمة التي يقال لها الجاهلية الجهلاء وهي الزمن الذي ولد فيه إبراهيم عليه السلام: كانت المرأة تلبس الدرع مع الؤلؤ فتمشى وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال وقيل: ما بين آدم ونوح. وقيل: بين إدريس ونوح. وقيل: زمن داود وسليمان والجاهلية الأخرى: ما بين عيسي ومحمد عليهما الصلاة والسلام. ويجوز أن تكون الجاهلية الأولى: جاهلية الكفر قبل أسلام. والجاهلية الأخرى جاهلية الفسوق والفجور في الإسلام فكأن المعنى: ولا تحدثن بالتبرج جاهلية في الإسلام تتشبهن بها بأهل جاهلية الكفر.

ويعضده ما روي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي الدرداء رضي الله عنه: إن فيك جاهلية قال جاهلية كفر أم إسلام فقال: بل جاهلية كفر. أمرهن أمراً خاصاً بالصلاة والزكاة ثم الطابعات: من أعتنى بهما حق اعتنائه جرتاه إلى ما وراءهما ثم بين أنه إنما نهاهن وأمرهن ووعظن لئلا يقارف أهل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم المآثم وليتصونوا عنها بالتقوى.

واستعار للذنوب: الرجس وللتقوى: الطهر لأن عرض المقترف للمقبحات يتلوث بها ويتدنس كما يتلوث بدنه بالأرجاس. وأما المحسنات فالعرض معها نقي مصون كالثوب الطاهر. وفي هذه الاستعارة ما ينفر أولي الألباب عما كرهه الله لعباده ونهاهم عنه ويرغبهم فيما رضيه لهم وأمرهم به. و {أهل البيت} نصب على النداء. أو على المدح. وفي هذا دليل بين على أن نساء النبي صلى الله عليه وسلم من أهل بيته.

{واذكرن ما يتلى في بيوتكم من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً} ثم ذكرهن أن بيوتهن مهابط الوحي وأمرهن أن لا ينسين ما يتلى فيها من الكتاب الجامع بين أمرين: هو آيات بينات تدل على صدق النبوة لأنه معجزة بنظمه. وهو حكمة وعلوم وشرائع {إن الله كان لطيفاً خبيراً} حين علم ما ينفعكم ويصلحكم في دينكم فأنزل عليكم أو علم من يصلح لنبوته ومن يصلح لأن يكونوا أهل بيته. أو حيث جعل الكلام الواحد جامعاً بين الغرضين.

{إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات

والحافظين} يروي: أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم قلن: يا رسول الله ذكر الله تعالى الرجال في القرآن بخير أفما فينا خير نذكر به إنا نخاف أن تقبل منا طاعة. وقيل: السائلة أم سلمة.

أنه لما نزل في نساء النبي صلى الله عليه وسلم ما نزل قال نساء المسلمين: فما نزل فينا شيء فنزلت والمسلم: الداخل في السلم بعد الحرب المنقاد الذي لا يعاند أو المفوض أكره إلى الله تعالى المتوكل عليه من أسلم وجهه إلى الله. والمؤمن: المصدق بالله ورسوله وبما يجب أن يصدق به. والقانت: القائم بالطاعات وعن المعاصي. والخاشع: المتواضع لله بقلبه وجوارحه. وقيل: الذي إذا صلى لم يعرف من عن يمينه وشماله. والمتصدق: الذي يزكي ماله ولا يخل بالنوافل.

وقيل: من تصدق في أسبوع بدرهم فهو من المتصدقين. ومن صام البيض من كل شهر فهو من الصائمين. والذاكر لله كثيراً: من لا يكاد يخلو من ذكر الله بقلبه أو لسانه أو بهما. وقراءة القرآن والاشتغال بالعلم من الذكر وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من استيقظ من نومه وأيق امرأته فصليا جميعاً ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات والمعنى: والحافظات والذاكرات فحذف لأن الظاهر يدل عليه. فإن قلت: أي فرق بين العطفين أعني عطف الإنماث على الذكور وعطف الزوجين على الزوجين قلت: العطف الأول نحو قوله تعالى {ثيبات وأبكارا} التحريم: 5 في أنهما جنسان مختلفان إذا اشتركا فيحكم لم يكن بد من توسيط العاطف بينهما. وأما العطف الثاني فمن عطف الصفة على الصفة بحرف الجمع فكأن معناه: إن الجامعين والجمعات لهذه الطابعات {أعد الله لهم} {وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعصي الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً} خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب على مولاه زيد بن حارثة فأبت وأبى أخوها عبد الله فنزلت فقال: رضينا يا رسول الله فأنكحها إياه وساق عنه إليها مهرها ستين درهماً وخماراً وملحفة ودرعاً وإزاراً وخمسين مداً من طعام وثلاثين صاعاً من تمر. وقيل: هي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وهي أول من هاجر من النساء وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: قد قبلت وزوجها زيداً. فسخطت هي وأخوتها وقالا: إنما أردنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فزوجها عبده والمعنى وما صح لرجل ولا امرأة من المؤمنين {إذا قضى الله ورسوله} أي رسول الله أو لأن قضاء رسول الله هو قضاء الله {أمراً} من الأمور: أن لاختياره. فإن قلت: كان من حق الضمير أن يوحد كما تقول: ما جاءني من رجل ولا امرأة إلا كان من شأنه كذا قلت: نعم ولكنهما وقعاً تحت النفي فعما كل مؤمن ومؤمنة فرجع الضمير على المعنى لا على اللفظ وقرئ: يكون بالتاء والياء.{الخيرة} ما يتخير.

{وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجنكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولا} {للذي أنعم الله عليه} بالإسلام الذي هو أجل النعم. وبيوفيقك لعتقه ومحبته واختصاصه {وانعمت عليه} بما وفقك الله فيه فهو متقلب في نعمة الله ونعمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو زيد حارثة {أمسك عليك زوجك} يعني زينب بنت جحش رضي الله عنها: وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبصرها بعدما أنكحها إياه فوقعت في نفسه فقال: سبحان الله مقلب القلوب وذلك أن نفسه كانت تجفو عنها قبل ذلك لا تريدها ولو أردتها لاختطبها وسمعت زينب بالتسبيحة فذكرها لزيد ففطن وألقى الله في نفسة كراهة صحبتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إني أريد أن أفارق صاحبتي فقال: مالك: أرابك منها شيء قال: لا والله ما رأيت منها إلا خيراً ولكنها تتعظم علي لشرفها وتؤذيني فقال له: أمسك عليك

زوجك واتق الله ثم طلقها بعد فلما اعتدت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أجد أحداً أوثق في نفسي منك اخطب علي زينب. قال زيد: فانطلقت فإذا هي تخمر عجينتها فلمات رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها حين علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها فوليتها ظهري وقلت: يا زينب أبشري إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطبك ففرحت وقالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربي فقالت إلى مسج - دها ونزل القرآن {زوجناكها} فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل بها وما أولم على امرأة من نسائه ما أو لم عليها: ذبح شاة وأطعم الناس الخبز واللحم حتى امتد النهار. فإن قلت: ما أراد بقوله {واتق الله} قلت: أراد: واتق الله فلا تذمها بالنسبة إلى الكبر وأذى الزوج. فإن قلت: ما الذي أخفى في نفسه قلت: تعلق قلبه بها. وقيل: مودة مفارقة زيد إياها. وقيل: علمه بأن زيداً سيطلقها وسينكحها لأن الله قد أعلمه بذلك. وعن عائشة رضي الله عنها: لو كتم رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً مما أوحي إليه لكتم هذه الآية. فإن قلت: فماذا أراد الله منه أن يقوله حين قال له زيد: أريد مفارقتها وكان من الهجنة أن يقول له: افعل فإني أريد نكاحها قلت: كأن الذي أراد منه عز وجل أن يصمت عند ذلك علانيته لأن الله يريد من الأنبياء تساوي الظاهر والباطن والتصليب في الأمور والتجاوب في الأحوال والاستمرار كما جاء في حديث إرادة رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل عبد الله بن أبي سرح واعتراض عثمان بشفاعته له: أن عمر قال له: لقد كان عيني إلى عينك هل تشير إلى فأقتله

فقال: إن الأنبياء لا تومض ظاهرهم وباطنهم واحد. فإن قلت: كيف عاتبه الله في ستر ما استهجن التصريح به ولا يستهجن النبي صلى الله عليه وسلم التصريح بشيء إلا الشيء في نفسه مستهجن وقالة الناس لا تتعلق إلا بما يستقبح في العقول والعادات وما له لم يعاتبه في نفس الأمر ولم يأمره بقمع الشهوة وكف النفس عن أن تنازع إلى زينب وتتبعها ولم يعصم نبيه صلى الله عليه وسلم عن تعلق الهجنة به وما يعرضه للقالة قلت: كم من شيء يتحفظ منه الإنسان ويستحي من اطلاع الناس عليه وهو في نفسه مباح متسع وحلال مطلق لا مقال فيه ولا عيب عند الله وربما كان الدخول في ذلك المباح سلماً إلى حصول واجبات يعظم أثرها في الدين ويجل ثوابها ولو لم يتحفظ منه لأطلق كثير من الناس فيه ألسنتهم إلا من أوتى فضلاً وعلماً وديناً ونظراً في حقائق الأمور ولبوبها دون قشورها. ألا ترى أنهم كانوا إذا طعموا في بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوا مرتكزين في مجالسهم لا يريمون مستأنسين بالحيث وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤذيه قعودهم ويضيق صدره حديثهم والحياء يصده أن يأمرهم بالأنتشار حتى نزلت {إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق} [الأحزاب: 53] ولو أبرز رسول الله صلى الله عليه وسلم مكنون ضميره وأمرهم أن ينتشروا لشق عليهم ولكان بعض المقالة فهذا من ذاك القبيل لأن طموح قلبل الإنسان إلى بعض مشتهياته من امرأة أو غيرها غير موصوف بالقبح في العقل ولا في الشرع لأنه ليس بفعل الإنسان ولا وجوده باختياره وتناول المباح بالطريق الشرعي ليس بقبيح أيضاً وهو خطبه زينب ونكاحها من غير استنزال زيد عنها ولا طلب إليه وهو أقرب إليه منه من زر قميصه أن يواسيه بمفارقتها مع مقوة العلم بأن نفس زيد لم تكن من التعلق بها في شيء بل كانت تجفوا عنها ونفس رسول الله صلى الله عليه وسلم متعلقة بها ولم يكن مستنكراً عندهم أن ينزل الرجل عن امرأته لصديقه ولا مستهجناً إذا نزل عنها أن ينكحها الآخر فإن المهاجرين حين دخلوا المدينة آستهم الأنصار بكل شيء حتى إن الرجل منهم إذا كانت له امرأتان نزل عن إحداهما وأنكحها المهاجر وإذا كان الأمر مباحاً من جميع جهاته ولم يكن فيه وجه من وجوه القبح ولا مفسدة ولا مضرة يزيد ولا بأحد بل كان مستجراً مصالح ناهيك بواحدة منها أن بنت عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أمنت الأيمة والضيعة ونالت الشرف وعادت أما من أمهات المسلمين إلى ما ذكر الله عز وجل من المصلحة العامة في قوله {لكى لا يكون على

المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وكرا} فبالحري أن يعاتب الله ورسوله حين كتمه وبالغ في كتمه بقوله {أمسك عليك زوجك واتق الله} وأن لا يرضى له إلا اتحاد الضمير والظاهر والثبات في مواطن الحق حتى يقتدي به المؤمنون فلا يستحيوا من المكافحة بالحق وإن كان مراً. فإن قلت: الواو في {وتخفى في نفسك} {وتخشى الناس والله أحق} ما هي قلت: واو الحال أي تقول لزيد: أمسك عليك زوجك مخفياً في نفسك إرادة أن يمسكها وتخفى خاشياً قاله الناس وتخشى الناس حقيقاً في ذلك بأن تخشى الله أو واو العطف كأنه قيل: وغذ تجمع بين قولك: أمسك وإخفاء خلافه وخشية الناس. والله أحق أن تخشاه حتى لا تفعل مثل ذلك. إذا بلغ البالغ حاجته من شيء له فيه همة قيل: قضى منه وطره. والمعنى: فملا لم يبق لزيد فيها حاجة وتقاصرت عنها همته وطابت عنها نفسه وطلقها وانتقضت عدتها} زوجناكم} وقراءة أهل البيت: زوجتكها. وقيل لجعفر بن محمد رضي الله عنهما: أليس تقرأ علي غير ذلك فقال: لا والذي لا إله إلا هو ما قرأتها على أبي إلا كذلك ولا قرأها الحسن بن علي على أبيه إلا كذلك ولا قرأها علي بن أبي طالب على النبي صلى الله عليه وسلم إلا كذلك {وكان أمر الله مفعولاً} جملة اعتراضية يعني وكان أمر الله الذي يريد أن يكونه مفعولاً مكوناً لا محالة وهو مثل لما أراد كونه من تزويج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب ومن نفي الحرج عن المؤمنين في إجراء أزواج المتبنين مجرى أزواج البنين في تحريمهن عليهم بعد انقطاع علائق الزواج بينهم وبينهم ويجوز أن يراد بأمر الله: المكون لأنه مفعول بكن وهو أمر الله.

{ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدراً الذين يبلغون رسلات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً} {فرض الله له} قسم له وأوجب من قولهم: فرض: فرض لفلان في الديوان كذا. ومنه فروض العسكر لرزقاتهم {سنة الله} اسم موضوع موضع المصدر - كقولهم: تراباً وجندلً -: مؤكد لقوله تعالى {ما كان على النبي من حرج} كأنه قيل: سن الله ذلك سنة في الأنبياء الماضين وهو أن لا يحرج عليهم في الإقدام على ما أباح لهم ووسع عليهم في باب النكاح وغيره وقد كانت تحتهم المهائر والسراري وكانت لداود عليه السلام مائة امرأة وثلثمائة سرية ولسليمان عليه السلام ثلثمائة وسبعمائة {في الذين خلوا} في الأنبياء الذين مضوا {الذين يبلغون} يحتمل وجوه الأعراب: الجر على الوصف للأنبياء والرفع والنصب على المدح على هم الذين يبلغون. أو على: أعني الذين يبلغون. وقرئ: رسالة الله. قدراً مقدراً: قضاء مقضياً وحكماً مبتوتاً ووصف الأنبياء بأنهم لا يخشون إلا الله: تعريض بعد التصريح في قوله تعالي {وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه} [الأحزاب: 37]. {حسيباً} كافياً للمخاوف أو محاسباً على الصغير والكبيرة {ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شئ عليماً} {ما كان محمد أبا أحد من رجالكم} أي لم يكن أبا رجل منكم على الحقيقة حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر والنكاح {ولكن} كان {رسول الله} وكل رسول أبو أمته فيما يرجع إلى وجوب التوقير والتعظيم له عليهم. ووجوب الشفقة والنصيحة لهم عليه لا في سائر الأحكام الثابتة بين الآباء والأبناء وزيد واحد من رجالكم الذين ليسوا بأولاده حقيقة فكان حكمه حكمكم والادعاء والتبني من باب الاختصاص والتقريب لا غير} و{كان} خاتم النبيين يعني أنه لو كان له ولد بالغ مبلغ الرجال لكان نبياً ولم يكن هو خاتم الأنبياء كما يروي: أنه قال في إبراهيم حين توفي: لو عاش لكان نبياً. فإن قلت: أما كان أبا للطاهر والطيب والقاسم وإبراهيم قلت: قد أخرجوا من حكم النفي بقوله {من رجالكم} من وجهين أحدهما: أن هؤلاء لم يبلغوا مبلغ الرجال. والثاني: أنه قد أضاف الرجال إليهم وهؤلاء رجاله لا رجالهم. فإن قلت: أما كان أبا للحسن والحسين وشيء آخر: وهو أنه إنما قصد ولده خاصة لا ولد ولده لقوله تعالى {وخاتم النبيين} ألا ترى أن الحسن والحسين قد عاشا إلى أن نيف أحدهما على الأربعين والآخر على الخمسين. قرئك لكن رسول الله بالنصب عطفاً على {أبا أحد} بالرفع على: ولكن هو

رسول الله ولكن بالتشديد على حذف الخبر تقديره: ولكن رسول الله من عرفتموه أي: لم يعش له ولد ذكر. وخاتم بفتح التاء بمعنى الطابع وبكسرها بمعنى الطابع وفاعل الختم. وتقويه قراءة ابن مسعود: ولكن نبياً ختم النبيين. فإن قلت: كيف كان آخر الأنبياء وعيسى ينزل في آخر الزمان قلت: معنى كونه آخر الأنبياء أنه لا ينبأ أحد بعده وعيسى ممن نبئ قبله وحين ينزل عاملاً على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم مصلياً إلى قبلته كأنه بعض أمته. {يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلا} {اذكروا الله} أثنوا عليه بضروب الثناء من التقديس والتحميد والتهليل والتكبير وما هو أهله وأكثروا ذلك {بكرة وأصيلاً} أي في كافة الأوقات قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ذكر الله على فم كل مسلم. وروي: في قلب كل مسلم. وعن قتادة: قولوا سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وعن مجاهد: هذه كلمات يقولها الطاهر والجنب. والفعلان: أعني اذكروا وسبحوا موجهان إلى البكرة والأصيل كقولك: صم وصل يوم الجمعة والتسبيح من جملة الذكر وإنما اختصه من بين أنواعه اختصاص جبريل وميكائيل من بين الملائكة ليبين فضله عن سائر الأذكار لأن معناه تنزيه ذاته عما لا يجوز عليه من الصفات والأفعال وتبرئته من القبائح. ومثال فضله على غيره من الإذكار فضل وصف العبد بالنزاهة من أدناس المعاصي والطهر من أرجاس المآثم على سائر أوصافه من كثرة الصلاة والصيام والتوفر على الطاعات كلها والاشتمال على العلوم والاشتهار بالفضائل ويجوز أن يريد بالذكر وإكثاره: تكثير والإقبال على العادات فإن كل طاعة وكل خير من جملة الذكر ثم خص من ذلك التسبيح بكرة وأصيلاً وخهي الصلاة في جميع أوقاتها لفضل الصلاة على غيرها. أو صلاة الفجر والعشاءين لأن أداءها أشق ومراعاتها أشد.

{هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريماً} لما كان منشأن المصلي أن ينعطف في ركوعه وسجوده استعير لمن ينعطف على غيره حنوا عليه وترؤفاً. كعائدة المريض في انعطافه عليه والمرأة في حنوها على ولدها ثم كثر حتى استعمل في الرحمة والترؤف ومنه قولهم: صلى الله عليك أي ترحم عليك وترأف. فإن قلت قوله {هو الذي يصلي عليكم} إن فسرته بيترحم عليكم ويترأف فما تصنع بقوله {وملائكته} وما معنى صلاتهم قلت: هي قولهم: اللهم صل على المؤمنين جعلوا لكونهم مستجابي الدعوة كأنهم فاعلون الرحمة والرأفة. ونظيره قوله: حياك الله أي حياك وأبقاك وحييتك أي: دعوت لك بأن يحييك الله لأنك لا تكالك على إجابة دعوتك كأنك تبقيه على الحقيقة وكذلك: عمرك الله وعمرتك وسقاك الله وسقيتك وعليه قوله تعالى {إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه} [الأحزاب: 56] أي ادعوا الله بأن يصلي عليه. والمعنى: هو الذي يترحم عليكم ويترأف: حيث يدعوكم إلى الخير ويأمركم بإكثار الذكر والتوفر على الصلاة والطاعة} ليخرجكم} من ظلمات المعصية إلى نور الطاعة {وكان بالمؤمنين رحيماً} دليل على أن

المراد بالصلاة الرحمة. ويروي أنه لما نزل قوله تعالى {إن الله وملائكته يصلون على النبي} [الأحزاب: 56] قال أبو بكر رضي الله عنه: ما خصك يا رسول الله بشرف إلا وقد أشركنا فيه فأنزلت تحيتهم من إضافة المصدر إلى المفعول أي: يحيون يوم لقائه بسلام. فيجوز أن يعظمهم الله بسلامه عليهم كما يفعل بهم سائر أنواع التعظيم وأن يكون مثلاً كاللقاء على ما فسرنا.

وقيل: هو سلام ملك الموت والملائكة معه عليهم وبشارتهم بالجنة. وقيل: سلام الملائكة عند الخروج من القبور. وقيل: عند دخول الجنة كما قال {والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم} [الرعد: 23 - 24] والأجر الكريم: الجنة.

{يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً} {شاهداً} على من بعث إليهم وعلى تكذيبهم وتصديقهم أي: مقبولاً قولك عند الله لهم وعليهم كمل يقبل قول الشاهد العدل في الحكم. فإن قلت: وكيف كان شاهداً وقت الإرسال وإنما يكون شاهداً عند تحمل الشهادة أو عند أدائها قلت: هي حال مقدرة كمسألة الكتاب: مررت برجل معه صقر صائداً به غداً أي: مقدراً به الصيد غداً. فإن قلت: قد فهم من قوله: إنا أرسلناك داعياً: أنه مأذون له في الدعاء فما فائدة قوله {بإذنه} قلت: لم يرد به حقيقة الإذن. وإنما جعل الإذن مستعاراً للتسهيل والتسير لأن الدخول في حق المالك متعذر فإذا صودف الإذن تسهيل وتيسر فلما كان الإذن تسهيلاً لما تعذر من ذلك وضع موضعه وذلك أن دعاء أهل الشرك والجاهلية إلي التوحيد والشرائع أمر في غاية الصعوبة والتعذر فقيل: بإذنه للإيذان بأن الأمر صعب لا يتأتى ولا يستطاع إلا إذا سهلت الله ويسره ومنه قولهم في الشحيح: أنه غير مأذون له في الإنفاق أي: غير مسهل له الإنفاق لكونه شاقاً عليه داخلاً في حكم التعذر. {وسراجاً منيراً} جلى به الله ظلمات الشرك واهتدى به الضالون كما يجلى ظلام الليل بالسراج المنير ويهتدي به. أو أمد الله بنور نبوته نور البصائر كما يمد بنور السراج نور الأبصار وصفة بالإنارة لأن من السرج ما لا يضئ إذا قل سليطه ودقت فتيلته. وفي كلام بعضهم: ثلاثة تضني: رسول بطئ وسراج لا يضئ ومائدة ينتظر لها من يجئ. وسئل بعضهم عن الموحشين فقال: ظلام ساتر وسراج فاتر. وقيل: وذا سراج منير. أو وتاليا سراجاً منيراً. ويجوز على هذا النفسير أن يعطف على كاف {أرسلناك}.

الفضل: ما يتفضل به عليهم زيادة على الثواب وإذا ذكر المتفضل به وكبره فما ظنك بالثواب.

ويجوز أن يريد بالفضل: الثواب من قولهم للعطايا: فضول وفواضل وأن يريد أن لهم فضلاً كبيراً على سائر الأمم وذلك الفضل من جهة الله وأنه آتاهم ما فضلوهم به.

{ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً} {ولا تطع الكافرين} معناه: الدوام والثبات على ما كان عليه. أو التهييج {أذاهم} يحتمل إضافته إلى الفاعل والمفعول يعني: ودع أن تؤذيهم بضرر أو قتل وخذ بظاهرهم وحسابهم على الله في باطنهم. أو: ودع ما يؤذونك به ولا تجاوزهم عليه حتى تؤمر وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هي منسوخة بآية السيف {وتوكل على الله} فإنه يكفيكهم وكفى بالله وكيلا وكفى به مفوضاً إليه ولقائل أن يقول: وصفه الله تعالى بخمسة أوصاف وقابل كلا منها بخطاب مناسب له قابل الشاهد بقوله {وبشر المؤمنين} لأنه يكون شاهداً على أمته وهم يكونون شهداء على سائر الأمم وهو الفضل الكبير والمبشر بإعراض عن الكافرين والمنافقين لأنه إذا أعرض عنهم أقبل جميع إقباله على المؤمنين وهو مناسب للبشارة والنذير بدع أذاهم لأنه إذا ترك أذاهم في الحاضر - والأذى لا بد له من عقاب عاجل أو آجل - كانوا منذرين به في المستقبل والداعي إلى الله بتسيره بقوله {وتوكل على الله} لأن من توكل على الله يسر عليه كل عسير والسراج المنير بالإكتفاء به وكيلاً لأن من أناره الله برهاناً على جميع خلقه كان جديراً بأن يكتفي به عن جميع خلقه.

{يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلاً} النكاح: الوطء وتسمية العقد نكاحاً لملابسته له من حيث أنه طريق إليه. ونظيره تسميتهم الخمر إثماً: لأنها سبب في اقتراف الإثم ونحوه في علم البيان قول الراجز: أسنمة الآبال في سحابه سمى الماء بأسمه الآبال لأنه سبب سمن المال وارتفاع أسمنة ولم يرد لفظ النكاح في كتاب الله إلآ في معنى العقد لأنه في معنى الوطء من باب التصريح به. ومن آداب القرآن: الكناية عنه بلفظ الملامسة والمماسة والقربان والتغشي والإتيان. فإن قلت: لم خص المؤمنات والحكم الذي نطقت

به الآية تستوي فيه المؤمنات والكتابيات قلت: في اختصاصهن تنبيه على أن أصل أمر المؤمن والأولى به. أن يتخير لنظفته وأن لا ينكح المحصنات من الذين أوتوا الكتاب. وهذه فيها تعليم ما هو الأولى بالمؤمنين من نكاح المؤمنات. فإن قلت: ما فائدة ثم في قوله {ثم طلقتموهن} قلت: فائداته نفي التوهم عمن عسى يتوهم تفاوت الحكم: بين أن يطلقها وهي قريبة العهد من النكاح وبين أن يبعد عهدها بالنكاح ويتراخى بها المدة في حبال الزواج ثم يطلقها: فإن قلت: إذا خلا بها خلوة يمكنه معها المساس هل يقوم ذلك مقام المساس قلت: نعم. عند أبي حنيفة وأصحابه حكم الخلوة الصحيحة حكم المساس وقوله {فما لكم عليهن من عدة} دليل على أن العدة حق واجب على النساء للرجال {تعتدونها} تستفون عددها من قولك: عددت الدراهم فاعتدها كقولك: كلته فاكتاله ووزنته فاتزنه. وقرئ: تعتدونها مخففاً أي: تعتدون فيها كقوله: ويم شهدناه والمراد بالاعتداد ما في قوله تعالى {ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا} [البقرة: 231]. فإن قلت: ما هذا التمتع أواجب أم مندوب إليه قلت: إن كانت غير مفروض لها كانت المتعة واجبة ولا تجب المتعة مختلف فيها: فبعض على الندب والاستحباب ومنهم أبو حنيفة. وبعض على الوجوب} سراحاً جميلاً} من غير ضرار ولا منع واجب.

{يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك التي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك التي هاجرون معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا} أجورهن مهورهن: لأن المهر أجر على البضع. وإيتاها: إما إعطاؤها عاجلاً. وإما فرضها وتسميتها في العقد. فإن قلت: لم قال {التي آتيت أجورهن} و{مما أفاء الله عليك} و{التي هاجرن معك} وما فائدة هذه التخصصات قلت: قد اختار الله لرسوله الأفضل الأولى واستحبه بالأطيب الأزكى كما اختصه بغيرها م الخصائص وآثره بما سواها من الأثر وذلك أن تسميه المهر في العقد أولى وأفضل من ترك التسمية وإن وقع العقد جائزاً وله أن يماسها وعليه مهر المثل إن دخل بها والمتعة إن لم يدخل بها. وسق المهر إليها عاجلاً أفضل من أن يسميه ويوجله وكان التعجيل ديدن السلف وسنتهم وما لا يعرف بينهم غيره. وكذلك الجارية إذا كانت سبية مالكها وخطبة سيفه ورمحه ومما غنمه الله من دار الحرب أحل وأطيب مما يشتري من شق الجلب. والسبي على ضربين: سبي خبيثة: فسبي الطيبة: ما سبي من أهل الحرب. وأما من كان له عهد فالمسبي منهم سبي خبيثة ويدل عليه قوله تعالى {مما أفاء الله عليك} لأن فيء الله لا يطلق إلا على الطيب دون الخبيث كما أن رزق الله يجب إطلاقه على الحلال دون الحرام وكذلك اللاتي هاجرن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرائبه غير المحارم أفضل من غير المهاجرات معه.

وعن أم هانئ بنت أبي طالب: خطبني رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتذرت إليه فعذرني ثم أنزل الله هذه الآية فلم أحل له لأني لم أهاجر معه كنت من الطلقاء. وأحللنا لك من وقع لها أن تهب لك نفسها ولا تطلب مهراً من النساء المؤمنات إن اتفق ذلك ولذلك نكرها. واختلف في اتفاق ذلك فعن ابن عباس ري الله عنهما: لم يكن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد منهن بالهبة. وقيل: الموهوبات أربع: ميمونة بنت الحرث وزينب بنت خزيمة أم المساكين الأنصارية يوأم شريك بنت جابر وخولة بنت حكيم - رضي الله عنهن.

قرئ {إن وهبت} على الشرط. وقرأ الحسن رضي الله عنه {أن} بالفتح على التعليل بتقدير حذف اللام. ويحوز أن يكون مصدراً محذوفاً معه الزمان كقولك: اجلس ما دام زيد حالساً بمعنى دوامة السنّ ووقت هبتها نفسها. وقرأ ابن مسعود بغير أن. فإن قلت: ما معنى الشرط الثاني مع الأول قلت: هو تقييد له شرط في الإحلال هبتها نفسها وفي الهبة: إرادة استنكاح رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قال: أحللناها لك إن وهبت

لك نفسها وأنت تريد أن تستنكحها لأن إرادته هي قبول الهبة وما به تتم. فإن قلت: لم عدل عن الخطاب إلى الغيبة في قوله تعالى {نفسها للنبي إن أراد النبي} ثم رجع إلى الخطاب قلت: للإيذان بأنه مما خص به وأوثر ومجيئه على لفظ النبي للدلالة على أن الآختصاص تكرمه له لأجل النبوة وتكريره تفخيم له وتقرير لاستحقاقه الكرامة لنبوته واستنكاحها: طلب نكاحها والرغبة فيه وقد استشهد به أبو حنيفة على جواز عقد النكاح بلفظ الهبة لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته سواء في الأحكام إلا فيما خصه الدليل وقال الشافعي: لا يصح وقد خص رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعنى الهبة ولفظها جميعاً لأن اللفظ تابع للمعنى والمدعي للإشتراك في اللفظ يحتاج إلى دليل. وقال أبو الحسن الكرخي: إن عقد النكاح بلفظ الإجازة عقد مؤقت وعقد النكاح مؤبد فهما متنافيان {خالصة} مصدر مؤكد كوعد الله وصبغة الله أي: خلص لك إحلال ما أحللنا لك خالصة بمعنى بمعنى خلوصاً والفاعل والفاعلة في المصادر غير عزيزين كالخارج

والقاعد والعافية والكاذبة. والدليل على أنها وردت في أثر الإحلالات الأربع مخصوصة برسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل التوكيد لها قوله {قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم} بعد قوله {من دون المؤمنين} وهي جملة اعتراضية وقوله {لكيلا يكون عليك حرج} متصل بخالصة لك م دون المؤمنين ومعنى هذه الجملة الاعتراضيه أن الله قد علم ما يجب فرضه على المؤمنين في الزواج والإماء وعلى أي حد وصفه يجب أن يفرض عليهم ففرضه وعلم المصلحة في اختصاص رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اختصه به ففعل ومعنى {لكيلا يكون عليك حرج} لئلا يكون عليك ضيق في دينك: حيث اختصصناك بالتنزيه واختيار ما هو أولى وأفضل وفي دنياك: حيث أحللنا لك أجناس المنكوحات وزودنا لك الواهبة نفسها.

وقرئ: خالصة بالرفع أي: ذاك خلوص لك وخصوص من دون المؤمنين ومن جعل خالصة نعتاً للمرأة فعلى مذهبه: هذه المرأة خالصة لك من دونهم {وكان الله غفوراً} للواقع في الحرج إذا تاب {رحيماً} بالتوسعة على عباده.

{ترجى من تشاء منهن وتؤى إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيناهن كلهن والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليماً حليماً} روي أن أمهات المؤمنين حينت تغايرن وابتغين زيادة النفقة وغظن رسول الله صلى الله عليه وسلم هجرهن شهراً ونزل تؤخر وتؤى} تشم يعني: تترك مضاجعة من تشاء منهن. وتضاجع من تشاء. أو تطلق من تشاء وتمسك من تشاء. أو تقسم لأتيهن شئت وتقسم لمن شئت.

أو تترك تزوج من شئت من نساء أمتك وتتزوج من شئت. وعن الحسن رضي الله عنه: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا خطب مرأة لم يكن لأحد أن يخطبها حتى يدعها وهذه قسمة جامعة لما هو الغرض لأنه إما أن طلق وإما أن يمسك فإذا أمسك ضاجع أو ترك وقسم أو لم يقسم. وإذا طلق وعزل فإما أن تخلى المعزولة لا يبتغيها أو يبتغيها. وروي: أنه أرجى منهن سودة وجورية وصفية وميمونة وأم حبيبة فكان يقسم لهن ما شاء كما شاء وكانت ممن آوى أنه كان يسوي مع ما أطلق له وخير فيه إلا سودة فإنها وهبت ليلتها لعائشة وقالت: لا تطلقني حتى أحشر في زمرة نسائك {ذلك} التفويض إلى مشيئتك أدنى إلى قرة عيونهن وقلة حزنهن ورضاهن جميعً لأنه إذا سوى بينهن في الإيواء والإرجاء والعزل والإبتغاء. وارتفع التفاصيل ولم يكن لأحداهن مما تريد ومما لا تريد إلا مثل ما للأخرى. وعلمن أن هذا التفويض من عند الله بوحيه - اطمأنت نفوسهن وذهب التنافس والتغاير وحصل الرضا وقرت العيون وسلت القلوب {والله يعلم ما في قلوبكم} فيه وعيد لمن لم ترض منهن بما دبر الله من ذلك وفوض إلى مشيئهة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعث على تزاطئ قلوبهن والتصافي بينهن والتوافق على طلب رضا رسول الله

صلى الله عليه وسلم وما فيه طيب نفسه. وقر: تقر أعينهن بضم التاء ونصب الأعين. وتقر أعينهن على البناء للمفعول {وكان الله عليماً} بذات الصدور {حليماً} لا يعاجل بالعقاب فهو حقيق بأن يتقي ويحذر {كلهن} تأكيد لنون يرضيهن وقرأ ابن مسعود: ويرضين كلهن بما آتيتهن على التقديم. وقرأ: كلهنن تأكيد لهن في {آتيتهن}.

{لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شئ رقيباً} {لا يحل} وقرئ بالتذكير لأن تأنيث الجمع غير حقيقي وإذا جاز بغير فصل في قوله تعالى {وقال نسوة} [يوسف: 30] كان مع الفصل أجوز {من بعد} من بعد التسع لأن نصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأزواج كما أن الأربع نصاب أمته منهن فلا يحل له أن يتجاوز النصاب} ولا أن تبدل بهن} ولا أن تستبدل بهؤلاء التسع أزواجاً أخر بكلهن أو بعضهن أراد الله لهن كرامة وجزاء على ما اخترن ورضين. فقصر النبي صلى الله عليه وسلم عليهن وهي التسع اللاتي مات عنهن: عائشة بنت أبي بكر حفصة بنت عمر أم حبيبة بنت أبي سفيان سودة بنت زمعة أم سلمة بنت أبي أمية صفية بنت حيي الخيبرية ميمونة بنت الحرث الهلالية زينب بنت جحش الأسدية وجويرية بنت الحرث المصطلقية رضي الله عنهن. من في {من أزواج} لتأكيد النفي وفائدته استغراق جنس الأزواج بالتحريم. وقيل معناه: لا تحل لك النساء من بعد النساء اللاتي نص إحلالهن تلك من الأجناس الأربعة من الأعرابيات والغرائب أو من الكتابيات أو من الإماء بالنكاح وقيل في تحريم التبديل: هو من البدل كان في الجاهلية كان يقول الرجل للرجل: بادلني بامرأتك وأبادلك بامرأتي فينزل كل واحد منهما عن امرأته لصاحبه ويحكي: أن عيينه بن حصن دخل على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده عائشة من غير استئذان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عيينة أين الاستئذان قال: يا رسول الله ما استأذنت على رجل قط ممن مضى منذ أدركت ثم قال: من هذه الجميلة إلى جنبك فقال صلى الله عليه وسلم: هذه عائشة أم المؤمنين. قال عيينة: أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق فقال صلى الله عليه وسلم: إن الله قد حرم ذلك فلما رخج قالت عائشة رضي الله عنها: من هذا يا رسول الله قال: أحمق مطاع وإنه - على ما ترين - لسيد قومه. وعن عائشة رضي الله عنها: ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحل له النساء. تعني أن الآية قد نسخت. ولا يخلو نسخها إما أن يكون بالسنة وإما بقوله تعالى {إنا أحللنا لك أزواجك} وترتيب النزول ليس على ترتيب المصحف {ولو أعجبك حسنهن} في موضع الحال من الفاعل وهو الضمير في} تبديل} لا من المفعول الذي هو} من أزواج} لأنه موغل في التنكير وتقديره: مفروضاً إعجابك بهن. وقيل هي أسماء بنت عميس الخثعمية امرأة جعفر بن أبي طالب والمراد أنها ممت أعجبه حسنهن واستثنى ممن حرم عليه: الإماء {رقيباً} حافظاً مهيمناً وهو تحذير عن مجاوزة حدوده وتخطى حلاله إلى حرامه.

{يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق وإذا سألتموهن متاعاً فسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً} {أن يؤذن لكم} في معنى الظرف تقديره وقت أن يؤذن لكم. و{غير ناظرين} حال من {لا تدخلوا} وقع الاستثناء على الوقت والحال معاً. كأنه قيل: لا تدخلوا بيوت النبي صلى الله عليه وسلم إلا وقت الإذن ولا تدخلوها إلا غير ناظرين وهؤلاء قوم كانوا يتحيرون طعام رسول الله فيدخلون ويقعدون منتظرين إدراكه. ومعناه: لا تدخلوا يا هؤلاء المتحينون للطعام فحسب.

وعن ابن عبلة أنه قرأ: غير ناظرين مجروراً صفة لطعام وليس بالوجه لأنه جرى على غير ما هو له فمن حق ضمير ما هو له أن يبرز إلى اللفظ فيقال: غير ناظرين إناه أنتم

كقولك: هند زيد ضاربته هي وإني الطعام: إدراكه. يقال: أني الطعام إني كقولك: قلاه قلى. ومنه قوله {وبن حميم آن} [الرحمن: 44] بالغ إناه. وقيل: إناه وقته أي: غير ناظرين وقت الطعام وساعة أكله. وروي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أولم على زينب بتمر وسويق وشاة وأمر أنساً أن يدعو بالناس فترادفوا أفواجاً يأكل فوج فيخرج ثم يدخل فوج إلى أن قال: يا رسول الله دعوت حتى ما أجد أحداً أدعوه فقال: ارفعوا طعامكم وتفرق الناس وبقي ثلاثة نفر يتحدثون فأكالوا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخرجوا فانطلق إلى حجرة عائشة رضي الله عنها فقال: السلام عليكم أهل البيت فقالوا: وعليك السلام يا رسول الله كيف وجت أهلك واف في الحجرات فسلم عليهن ودعون له ورجع فإذا الثلاثة جلوس يتحدثون وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم شديد الحياء فتولى فلما رأوه متولياً خرجوا فرجع ونزلت {ولا مستأنسين لحديث} نهوا عن أن يطيلوا الجلوس يستأنس بعضهم ببعض لأجل حديث يحدثه به. أو عن أن يستأنسوا حديث أهل البيت واستئناسه: تسمعه وتوجسه وهو مجرور معطوف على ناظرين.

وقيل: هو منصوب على: ولا تدخلوها مستأنسين. لا بد في قوله {فيستحي منكم} من تقدير المضاف أي} من إخراجكم بدليل قوله {والله لا يستحي من الحق} يعني أن إخراجكم حق ما ينبغي أن يستحيا منه ولما كان الحياء مما يمنع الحي من بعض الأفعال قيل {لا يستحي من الحق} بمعنى لا يمتنع منه ولا يتركه ترك الحي منكم وهذا أدب الله أعالي به الثقلان. وعن عائشة رضي الله عنها: حسبك في الثقلاء أن الله تعالى لم يحتملهم وقال: فإذا طعمتهم فانتشروا.

وقرئ: لا يستحي بياء واحدة. الضمير في {سألتموهن} لنساء النبي صلى الله عليه وسلم ولم يذكرن لأن الحال ناطقة بذكرهن {متعاً} حاجة {فسألوهن} المتاع. قيل: إن عمر رضي الله عنه كان يحب ضرب الحجاب عليهن محبة شديدة وكان يذكر كثيراً ويود أن ينزل فيه وكان يقول: لو أطاع فيكم ما رأتكم عين وقال: يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فنزلت. وروي: أنه مر عليهن وهن مع النساء في المسجد فقال: لئن احتجبتن فإن لكن على النساء فضلاً كما أن لزوجكن على الرجال الفضل فقالت زينب رضي الله عنها: يا ابن الخطاب إنك لتغار علينا والوحي ينزل في بيوتنا فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى نزلت قيل: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يطعم ومعه بعض أصحابه فأصابت يد رجل منهم يد عائشة فكره النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فنزلت آية الحجاب. وذكر أن بعضهم قال: أننهى أن نلكم بنات عمنا إلا من وراء حجاب لئن مات محمد لأتزوجن فلانة. فأعلم الله أن ذلكم محرم {وما كان لكم} وما صح لكم إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نكاح أزواجه من بعده وسمى نكاحهن من بعده عظيماً عنده وهو من أعلام تعظيم الله تعالى لرسوله وإيجاب حرمته حياً وميتاً وإعلامه بذلك مما طيب به تعالى نفسه وسر قلبه واستغزر شكره. فإن نحو هذا مما يحدث الرجل به نفسه ولا يخلي منه فكره. ومن الناس من تفرط غيرته على حرمته حتى يتمنى لها الموت لئلا تنكح من بعده. وعن بعض الفتيان أنه كانت له جارية لا يرى الدنيا بها شغفاً واستهتاراً فنظر إليها ذات يوم فتنفس الصعداء وانتحب فعلاً نحيبه مما ذهب به فكره هذا المذهب فلم يزل به ذلك حتى قتلها تصوراً لما عسى يتفق من بقائها بعده وحصولها تحت يد غيره. وعن بعض الفقهاء أن الزوج الثاني في هدم الثلاث مما يجري مجرى العقوبة فصين رسول الله صلى الله عليه وسلم عما يلاحظ ذلك.

{إن تبدوا شيئاً أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليماً} {إن تبدوا شيئاً} من نكاحهن على ألسنتكم {أو تخفوه} في صدوركم {فإن الله} يعلم ذلك فيعاقبكم به وإنما جاء به على أثر ذلك عاماً لكل باد وخاف ليدخل تحته نكاحهن وغيره ولأنه على هذه الطريقة أهول وأجزل.

{لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن واتقين الله إن الله كان على كل شئ شهيدا} روي أنه لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب: يا رسول الله أو محم أيضاً نكلمهن من وراء الحجاب فنزلت {لا جناح عليهن} أي لا إثم عليهم في أن لا يحتجبن من هؤلاء ولم يذكر العم والخال لأنهما يجريان مجرى الوالدين وقد جاءت تسمية العم أباً. قال الله تعالى {وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق} [البقرة: 133] وإسماعيل عم يعقوب. وقيل: كره ترك الاحتجاب عنهما لأنهما يصفانها لأبنائهما وأبناؤهما غير محارم ثم نقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب وفي هذا النقل ما يدل على فضل تشديد فقيل {واتقن الله} فيما أمرتن به من الاحتجاب وأنزل فيه الوحي من الاستتار واحتطن فيه وفيما استثنى منه ما قدرتن واحفظن حدودهما واسلكن طريق التقوى في حفظهما وليكن عملكن في الحجب أحسن مما كان وأنتن غير محجبات ليفضل سركن علنكن {إن الله كان على كل شئ} من السر والعلن وظاهر الحجاب وباطنه} شهيداً} لا تتفاوت في علمه الأحوال.

{إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما} قرئ: وملائكته بالرفع عطفاً على محل إن واسمها وهو ظاهر على مذهب الكوفيين ووجهه عند البصريين أن يحذف الخبر لدلالة يصلون عليه {صلوا عليه وسلموا} أي قولوا الصلاة على الرسول والسلام. ومعناه: الدعاء بأن يترحم عليه الله ويسلم. فإن قلت: الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم واجبة أم مندوب إليها قلت بل واجبة وقد اختلفوا في حال وجوبها. فمنهم من أوجبها كلما جرى ذكره. وفي الحديث: من ذكرت عنده فلم يصل علي فدخل النار فأبعده الله ويروى: أنه قيل: يا رسول الله أرأيت قول الله تعالى {إن الله وملائكته يصلون على النبي} فقال صلى الله عليه وسلم: هذا من العلم المكنون ولولا أنكم سألتموني عنه ما أخبرتكم به إن الله وكل بي ملكين فلا أذكر عند عبد مسلم فيصلي علي إلآ قال ذانك الملكان: غفر الله لك وقال الله تعالى وملائكته جواباً لذينك الملكين: آمين ولا أذكر عند عبد مسلم فلا يصلي علي إلا قال ذانك الملكان: لا غفر الله لك وقال الله وملائكته لذينك الملكين: آمين. ومنهم من قال: تجب في كل مجلس مرة وإن تكرر ذكره كما قيل في آية السجدة وتشميت العاطس وكذلك في كل دعاء في أوله وآخره. ومنهم من أوجبها في العمر مرة وكذا قال في إظهار الشهادتين. والذي يقتضيه الاحتياط. الصلاة عليه عند كل ذكر لما ورد من الأخبار. فإن قلت: فالصلاة عليه في الصلاة أهي شرط في جوازها أم لا قلت: أبو حنيفة واصحابه لا يرونها شرطاً وعن إبراهيم النخعي: كانوا يكتفون عن ذلك - يعني الصحابة - بالتشهيد وهو السلام عليك أيها النبي وأما الشافعي رحمه الله فقد جعلها شرطاً. فإن قلت: فما تقول في الصلاة على غيره قلت: القياس جواز الصلاة على كل مؤمن لقوله تعالى {هو الذي يصلي عليكم} [الأحزاب: 43] وقوله تعالى {وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم} [التوبة: 103] وقوله صلى الله عليه وسلم: اللهم صل على آل أبي أفوى ولكن للعلماء تفصيلاً في ذلك: وهو أنها إن كانت على سبيل التبع كقولك: صلى الله عليه وسلم وآله فلا كلام فيها. وأما إذا أفرد غيره من أهل البيت بالصلاة كما يفرد هو فمكروه لأن ذلك صار شعاراً لذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأنه يؤدي إلى الاتهام بالرفض. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من كان يؤمن بالله وباليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم.

{إن الذين يؤذون الله ورسله لعنهم الله في الدنيا والأخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً والذي يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً} {يؤذون الله ورسوله} فيه وجهان أحدهما: أن يعبر بإيذائهما عن فعل ما يكرهانه ولا يرضيانه: من الكفر والمعاصي وإنكار النبوة ومخالفة الشريعة وما كانوا يصيبون به رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنواع المكروه على سبيل المجاز. وإنما جعلته مجازاً فيهما جميعاً وحقيقة والثاني: أنيراد يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل: في أذى الله: هو قول اليهود والنصارى والمشركين: يد الله مغلولة وثالث ثلاثة والمسيح ابن الله والملائكة

بنات الله والأصنام شركاؤه. وقيل: قول الذين يلحدون في أسمائه وصفاته. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما حكى عن ربه: شتمني ابن آدم ولم ينبغ له أن يشتمني وآذاني ولم ينبغ له أن يؤذيني فأما شتمه إياي فقوله: إني اتخذت ولداً. وأما أذاه فقوله: إن الله لا يعيدني بعد أن بدأني وعن عكرمة: فعل أصحاب التصاوير الذين يرمون تكوين خلق مثل خلق الله وقيل: في أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم قولهم: ساحر شاعر كاهن مجنون. وقيل: كسر رباعيته وشج وجهه يوم أحد. وقيل طعنهم عليه فينكاح صفية بنت حيي وأطلق إيذاء الله ورسوله وقيد إيذاء المؤمنين والمؤمنات فمنه ومنه. ومعنى {بغير ما اكتسبوا} بغير جناية واستحقاق للأذى. وقيل: نزلت في ناس من المنافقين يؤذون علياً رضي الله عنه ويسمعون. وقيل: في الذين أفكوا على عائشة رضي الله عنها.

وقيل: في زناة كانوا يتبعون النساء وهن كارهات. وعن الفضيل: لا يحل لك أن تؤذي كلباً أو خنزيراً بغير حق فكيف وكان ابن عون لا يكري الحوانيت إلا من أهل الذمة لما فيه من الروعة عند كر الحول.

{يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذون وكان الله غفوراً رحيماً} الجلباب ثوب واسع أوسع م الخمار ودون الرداء تلويه المرأة على رأسها وتبقى منه ما ترسله على صدرها. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الرداء الذي يستر من فوق إلى أسفل. وقيل: الملحفة وكل ما يستتر به من كساء أو غيره. قال أبو زبيد: مجلبب من سواد الليل جلبابا ومعنى {يدنين عليهن من جلابيبهن} يرخينها عليهن ويغطين بها وجههن وأعطافهن. يقال: إذا زل الثوب عن وجه المرأة: أدنى ثوبك على وجهك وذلك أن النساء كن في أول افسلام على هجيراهن في الجاهلية متبذلات تبرز المرأة في درع وخمار فصل بين الحرة والأمة وكان الفتيان وأهل الشطارة يتعرضون إذا خرجن بالليل إلى مقاضي حوائجهن في النخيل والغيطان للإماء وربيما تعرضوا للحرة بعلة الأمة يقولن: حسبناها أمة فأمرن أن يخالفن بزيهن عن زي الإماء بلبس الأردية والملاحف وستر الرؤوس والوجوه ليحتشمن ويهين فلا يطمع فيهن طامع وذلك قوله {ذلك أدنى أن يعرفن} أي أولى وأجدر بأن يعرفن فلا يتعرض لهن ولا يلقين ما يكرهن. فإن قلت: ما معنى {من} في {من جلابيبهن} قلت: هو للتبعيض. إلا: أن يكون معنى التبعيض محتمل وجهين أحخدهما: أن يتجلببن ببعض ما لهن من الجلاليب والمراد أن لا تكون الحرة متبذلة في درع وخمار كالأمة والماهنة الخادمة ولها جلبابان فصاعداً في بيتها. والثامي: أن ترخي المرأة بعض جلبابهنا وفضله على وجهها تتقنع حتى تتميز من الأمة. وعن ابن سيرين: سألت عبيدة السلماني عن ذلك فقال: أن تضع رداءها فوق الحاجب ثم تديره حتى تضعه على أنفها. وعن السدي: تغطي إحدى عينيها وجبهتها والشق الآخر إلا العين وعن الكسائي: يتقنعن بملاحفهن منضمة عليهن وجبهتها والشق الآخر إلا العين وعن الكسائي: يتقنعن بملاحفهن منضمة عليهن أراد بالانضمام معنى الإدناء {وكان الله غفوراً} لما سلف منهن من التفريط مع التوبة لأن هذا مما يمكن معرفته بالعقل.

{لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا} {والذين في قلوبهم مرض} قوم كان فيهم ضعف إيمان وقلة ثبات عليه. وقيل: هم الزناة وأهل الفجور من قوله تعالى {فيطمع الذي في قلبه مرض} [الأحزاب: 32]. {والمرجفون} ناس كانوا يرجفون بأخبار السوء عن سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولن: هزموا وقتلوا وجرى عليهم كيت وكيت فيكسون بذلك قلوب المؤمنين. يقال: أرجف بكذا إذا أخبر به على غير حقيقة لكونه خبراً متولولاً غير ثابت من الرجفة وهي الزلزلة. والمعنى: لئن لم ينته المنافقون عن عداوتهم وكيدهم والفسقة عن فجورهم والمرجفون عما يؤلفون من أخبار السوء: لنأمرنك بأن تفعل بهم الأفاعيل التي

تسوءهم وتنوءهم ثم بأن تضطرهم إلى طلب الجلاء عن المدينة وإلى أن لا يساكنوك فيها {إلا} زمناً {قليلاً} ريثما يرتحلون ويلتقطون أنفسهم وعيالاتهم فسمى ذلك إغراء وهو التحريش على سبيل المجاز {ملعونين} نصب على الشتم أو الحال أي: لا يجاورنك إلا ملعونين دخل حرف الاستثناء على الظرف والحال معاً كما مر في قوله {إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه} [الأحزاب: 53] ولا يصح أن ينتصب عن {أخذوا} لأن ما بعد كلمة الشرط لا يعمل فيما قبلها. وقيل: في {قليلاً} وهو منصوب على الحال أيضاً. ومعناه: لا يجاورونك إلا أقلاء أذلاء ملعونين. فإن قلت: ما موقع لا يجاورونك قلت: لا يجاورونك عطف على لنغرينك لأنه يجوز أن يجاب به القسم. ألا ترى إلى صحة قولك: لئن لم ينتهوا لا يجاورنك. فإن قلت: أما كان من حق لا يجاورنك أن يعطف بالفاء وأن يقال لنغرنك بهم فلا يجاورنك قلت: لو جعل الثاني مسبباً عن الأول لكان الأمر كما قلت: ولكنه جعل جواباً آخر للقسم معطوفاً على الأول وإنما عطف بثم لأن الجلاء عن الوطان كان أعظم عليهم وأعظم من جميع ما أصيبوا به فتراخت حاله عن حال المعطوف عليه {سنة الله} في موضع مؤكد أي: أن الله في الذين ينفقون الأنبياء أن يقتلوا حيثما ثقفوا وعن مقاتل: يعني كما قتل أهل بدر وأسروا.

{يسئلك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً} كان المشركون يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وقت الساعة استعجالاً على سبيل الهزء واليهود يسألونه امتحاناً لأن الله تعالى عمى وقتها في التوراة وفي كل كتاب فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يجيبهم بأنه علم قد استأثر الله به لم يطلع عليه ملكاً ولا نبياً ثم بين لرسوله أنها قريبة الوقوع تهديداً للمستعجلين وإسكاتاً للمتحنين {قريباً} شيئاً قريباً أو لأن الساعة في معنى اليوم أو في زمان قريب.

{إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً خالدين فيها أبداً لا يجدون ولياً ولا نصيراً} السعير: النار المسعورة الشديدة الإيقاد.

{يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا} وقرئ: تقلب على البناء للمفعول. وتقلب: بمعنى تتقلب. ونقلب أي: نقلب نحن. وتقلب على أن الفعل للسعير ومعنى تقليبها: تصريفها في الجهات كما ترى البضعة تدور في القدر إذا غلت فترامى بها الغليان من جهة إلى جهة. أو تغييرها عن أحوالها وتحويلها عن هيئاتها. أو طرحها في النار مقلوبي منكوسين. وخصب الوجوه بالذكر لأن الوجه أكرم موضع على الإنسان من جسده. ويجوز أن يكون الوجه عبارة عن الجملة وناصب الظروف} يقولون} أو محذوف وهو اذكر وإذا نصب بالمحذوف كان {يقولون} حالاً.

{وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً} وقرئ: سادتنا وساداتنا: وهم رؤوساء الكفر الذين لقنوهم الكفر وزينوه لهم. يقال: ضل السبيل وأضله إياه وزيادة الألف لإطلاق الصوت: جعلت فواصل الآي كقوافي الشعر وفائدتها الوقف والدلالة على أن الكلام قد انقطع وأن ما بعده مستأنف. وقرئ: كثيراً تكثيراً لإعداد اللعائن. كبيراً ليدل على أشد اللعن وأعظمه {ضعفين} ضعفاً لضلاله وضعفاً لإضلاله: يعترفون ويستغيثون ويتمنون ولا ينفعهم شيء من ذلك.

{يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً} {لا تكونوا كالذين آذوا موسى} قيل: نزلت في شأن زيد وزينب وما سمع فيه من قالة بعض الناس. وقيل: في أذى موسى عليه السلام: هو حديث المومسة التي أرادها قارون على قذفه بنفسها وقيل: اتهامهم إياه بقتل عارون وكان مقد خرج معه إلى الجبل فمات هناك فحملته الملائكة ومروا به عليهم ميتاً فأبصروه حتى عرفوا أنه غير مقتول. وقيل: أحياه

الله فأخبرهم ببراءة موسى عليه السلام. وقيل: قرفوه بعيب في جسده من برص أو أدرة فأطلعهم الله على أنه برئ منه {وجيهاً} ذا جاه ومنزلة عنده فلذلك كان يميط عنه التهم ويدفع الأذى ويحافظ عليه لئلا يلحقه وصم ولا يوصف بنقيصه كما يفعل الملك بمن له عنده قربة ووجاهة. وقرأ ابن مسعود والأعمش وأبو حيوة: وكان عبد الله وجيهاً قال ابن خالويه: صليت خلف ابن شنبوذ في شهر رمضان فسمعته يقرؤها. وقراءة العامة أوجه لأنها مفصحة عن وجاهته عند الله كقوله تعالى {عند ذي العرش مكين} التكوين: 20 وهذه ليست كذلك فإن قلت: قوله {مما قالوا} معناه: من قولهم أو من مقولهم لأن ما إما مصدرية أو موصولة وأيهما كان فكيف تصح البراءة منه قلت: المراد بالقول أو المقول: مؤداه ومضمونة وهو الأمر المعيب ألا ترى أنهم سموا السبة بالقالة والقالة بمعنى القول.

{يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً} {قولاً سديداً} قاصداً إلى الحق والسداد: القصد إلى الحق والقول بالعدل. يقال: سدد السهم نحو الرمية: إذا لم يعدل به عنسمتها كما قالوا: سهم قاصد والمراد: نهيهم عما خاضوا فيه من حديث زينب من غير قصد وعدل في القول والبعث على أن يسد قولهم في كل باب لأن حفظ اللسان وسداد القول رأس الخير كله. والمعنى: راقبوا الله في حفظ ألسنتكم وتسديد قولكم فإنكم إن فعلتم ذلك أعطاكم الله ما هو غاية الطلبة: من تقبل حسناتكم والإثابة عليها ومن مغفرة سيآتكم وتكفيرها. وقيل: إصلاح العمال التوفيق في المجئ بها صالحة مرضية وهذه الآية مقررة للتي قبلها بنيت تلك على النهي عما يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذه على الأمر باتقاء الله تعالى في حفظ اللسان ليترادف عليهم النهي والأمر مع اتباع النهي ما يتضمن الوعيد من قصة موسى عليه السلام وإتباع الأمر مع اتباع النهي ما يتضمن الوعيد من قصة موسى عليه السلام وإتباع الأمر الوعد البليغ فيقوى الصارف عن الأذى والداعي إلى تركه. لما قال {ومن يطع الله ورسوله} وعلق بالطاعة الفوز العظيم أتبعه قوله {إنا عرضنا الأمانة} وهو يريد بالأمانة الطاعة فعظم أمرها وفخم شأنها وفيه وجهان أحدهما: أن هذه الأجرام العظام من السمات والأرض والجبال قد انقادت لأمر الله عز وعلا انقياد مثلها - وهو ما يتأتى من الجمادات - وأطاعت له الطاعة التي تصح منها وتليق بها. حيث لم تمتنع على مشيئته وإرادته إيجاداً وتكويناً وتسوية على هيئات مختلفة وأشكال متنوعة كما قال {قالتا أتينا طائعبن} [فصلت: 11] وأما الإنسان فلم تكن حاله - فيما يصح منه من الطابعات ويليق به من الانقياد لأوامر الله ونواهيه وهو حيوان عاقل صالح للتكليف - مثل الطابعات ويليق به من الانقياد لأوامر الله ونواهيه وهو حيوان عاقل صالح للتكيف - مثل حال تلك الجمادات وإباؤها وإشفاقها: مجاز. وأما حمل الأمانة لازمة الأداء. وعرضها على الجمادات وإيباؤها وإشفاقها: مجاز. وأما حمل الأمانة فمن قولك: قلان حامل للأمانة ومحتمل لها تريد أنه لا يؤديها إلى صاحبها حتي تزول عن ذمته ويخرج عن عهدتها لأن الأمانة كأنها راكبة للمؤتمن عليها وهو حاملها ألا تراهم يقولن: ركبته الديون ولي عليه حق فإذا أداها لم تبق راكبة له ولا هو حاملاً لها. ونحوه قولهم لا يملك مولى لمولى نصراً. يريدون: أنه يبذل النصرة له ويسامحه بها ولا يمسكها كما يمسكها الخاذل ومنه قول القائل:

أخوك الذي لا تملـك الحـس نـفـسـه** وترفض عند المـحـفـظـات الـكـتـائف

أي لا يمسك الرقة والعطف إمساك المالك الضنين ما في يده بل يبذل ذلك ويسمح به. ومنه قولهم أبغض حق أخيك لأنه إذا أحبه لم يخرجه إلى أخيه ولم يؤده وإذا أبغضه أخرجه وأداه فمعنى فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان فأبين إلا أن يؤدينها وأبى الإنسان

إلا أن يكون محتملاً لها لا يؤديها. ثم وصفه بالظلم لكونه تاركاً لأداء الأمانة وبالجهل لإخطائه ما يسعده مع تمكنه منه وهو أداؤها. والثاني: أن ما كلفه الإنسان بلغ من عظمه وثقل محمله: أنه عرض على أعظم ما خلق الله من الجرام وأقواه وأشده: أن يتحمله ويستقل به فأبى حمله والاستقلال به وأشفق منه وحمله الإنسان على ضعفه ورخاوة قوته {إنه كان ظلوماً جهولاً} حيث حمل الأمانة ثم لم يف بها وضمنها ثم خاس بضمانه فيها ونحو هذا من الكلام كثير في لسان العرب. وما جاء القرآن إلا على طرقهم وأساليبهم من ذلك قولهم: لو قيل للشحم: أين تذهب لقال: أسوي العوج وكم وكم لهم من أمثال على ألسنة البهائم والجمادات. وتصور مقاولة الشحم محال ولكن الغرض أن السمن في الحيوان مما يحسن قبيحه كما أن العجف مما يقبح حسنه فصور أثر السمن فيه تصويراً هو أوقع في نفس السامع وهي يه آنس وله أقبل وعلى حقيقته أوقف وكذلك تصوير عظم الأمانة وصعوبة أمرها وثقل محملها والوفاء بها. فإن قلت: قد علم وجه التمثيل في قلوهم للذي لا يثبت على رأي واحد: أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى لأنه مثلت حاله - في تميله وترجحه بين الرأيين وتركه المضي على أحدهما - بحال من يتردد في ذهابه فلا يجمع رجليه للمضي في وجهه. وكل واحد من الممثل والممثل به شيء مستقيم داخل تحت الصحة والمعرفة وليس كذلك ما في هذه الآية فإن عرض الأمانة على الجماد وإباءه وإشفاقه محال في نفسه غير مستقيم فكيف صح بناء التمثيل على المحال وإباءه وإشفاقه محال في نفسه غير مستقيم فكيف صح بناء التمثيل على المحال وما مقال هذا إلا أن تشبه شيئاً والمشبه به غير معقول.

قلت: الممثل به في الآية وفي قولهم: لو قيل للشحم أين تذهب. وفي نظائره مفروض والمفروضات تتخيل في الذهن كما المحققات: مثلت حال التكليف في صعوبته وثقل محمله بحاله المفروضات تتخيل في الذهن كما المحققات: مثلت حال التكليف في صعوبته وثقل محمله بحاله المفروضة لو عضت على السموات والأرض والجبال لأبين أن يحملها وأشفقن منها. واللام في {ليعذب} لام التعليل على طريق المجاز: لأن التعذيب نتيجة حمل الأمانة كما أن التأديب في ضربته للتأديب نتيجة الضرب. وقرأ الأعمش: ويتوب ليجعل العلة قاصرة على فعل الحامل ويبتدئ: ويتوب الله. ومعنى قراءة العامة: ليعذب الله حامل الأمانة ويتوب على غيره ممن لم يحملها لأنه إذا تيب على الوفي كان ذلك نوعاً من عذاب الغادر والله أعلم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ سورة الأحزاب وعملها أهله وما ملكت يمينه أعطي الأمان من عذاب القبر.

سورة سبأ

مكية وآياتها أربع وخمسون

بسم الله الرحمن الرحيم

{الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور} ما في السموات والأرض كله نعمة من الله وهو الحقيق بأن يحمد ويثنى عليه من أجله ولما قال {الحمد لله} ثم وصف ذاته بالأنعام بجميع النعم الدنيوية كان معناه: أنه المحمود على نعم الدنيا كما تقول: أحمد أخاك الذي كساك وحملك تريد: أحمده على كسوته وحملانه. ولما قال {وله الحمد في الآخرة} علم أنه المحمود على نعم الآخرة وهو الثواب. فإن قلت: ما الفرق بين الحمدين قلت: أما الحمد في الدنيا فواجب لأنه على نعمة متفضل بها وهو الطريق إلى تحصيل نعمة الآخرة وهي الثواب. وأما الحمد في الآخرة فليس بواجب لأنه على نعمة واجبة الإيصال إلى مستحقها وإنما هو تتمة سرور المؤمنين وتكلمه اغتباطهم:

يلتذون به كما يلتذ من به العطاش بالماء البارد {وهو الحكيم} الذي أحكم أمور الدارين ودبرها بحكمته {الخبير} بكل كائن يكون. ثم ذكرها مما يحيط به علماً {ما يلج في الأرض} من الغيث كقوله {فسلكه ينابيع في الأرض} [الزمر: 21] ومن الكنوز والدفائن والأموات وجيمع ما هي له كفات {وما يخرج منها} من الشجر والنبات وماء العيون والغلة والدواب وغير ذلك {وما ينزل من السماء} من الأمطار والثلوج والبرد والصواعق والأرزاق والولائكة وأنواع البركات والمقادير كما قال تعالى {وفي السماء رزقكم وما توعدون} [الذاريات: 22] {وما يعرج فيها} من الملائكة وأعمال العباد {وهو} مع كثرة نعمه وسبوغ فضله {الرحيم الغفور} للمفرطين في أداء مواجب شكرها. وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: تنزل بالنون والتشديد.

{وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ليجزي الذين آمنوا} قولهم {لا تأتينا الساعة} نفي للبعث وإنكار لمجئ الساعة. أو استبطاء لما قد وعدوه من قيامها على سبيل الهزء والسخرية كقولهم {متى هذا الوعد} [يونس: 48 الأنبياء: 38].

أوجب ما بعده النفي ببلى على المعنى: أن ليس الأمر إلا إتيانها ثم أعيد إيجابه مؤكداً بما هو الغاية في التوكيد والتشديد وهو التوكيد باليمين بالله عز وجل ثم أمد التوكيد القسمي إمداداً بما أتبع المقسم به من الوصف بما وصف به إلى قوله {ليجزى} لأن عظمة حال المقسم به تؤذن بقوة حال المقسم عليه وشدة ثباته واستقامته لأنه بمنزلة الاستشهاد على الأمر وكلما كان المستشهد به أعلى كعباً وأبين فضلاً وأرفع منزلة الاستشهاد على الأمر وكلما كان المستشهد به أعلى كعباً وأبين فضلاً وأرفع منزلة كانت الشهادة أقوى وآكد والمستشهد عليه أثبت وأرسخ.

فإن قلت: هل للوصف الذي وصف به المقسم به وجه اختصاص بهذا المعنى قلت: نعم وذلك أن قيام الساعة من مشاهير الغيوب وأدخلها في الخفية وأولها مسارعة إلى القلب: إذا قيل: عالم الغيب فحين أقسم باسمه على إثبات قيام الساعة وأنه كائن لا محالة ثم وصف بما يرجع إلى علم الغيب وأنه لا يفوت علمه شيء من الخفيات واندرج تحته إحاطته بوقت قيان الساعة فجاء ما تطلبه من وجه الاختنصاص مجيئاً واضحاً. فإن قلت: الناس قد أنكروا إتيان الساعة وجحدوه فهب أنه حلف لهم بأغلظ الأيمان وأقسم عليهم جهد القسم فيمين من هو في معتقدهم مفتر على الله كذباً كيف تكون مصححة لما أنكروه قلت: هذا لو اقتصر على اليمين ولم يتبعها الحجة القاطعة البينة الساطعة وهي قوله {ليجزي} فقد وضع الله في العقول وركب في الغرائز وجوب الجزاء وأن المحسن لا بد له من ثواب والمسيء لا بد له من عقاب. وقوله {ليجزي} متصل بقوله {لتأتينكم} تعليلاً له. قرئ: لتأتينكم بالتاء والياء. ووجه من قرأ بالياء: أن يكون ضميره للساعة بمعنى اليوم. أو يسند إلى عالم الغيب أي ليأتينكم أمره كما قال تعالى {هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك} [الأنعام: 158] وقال {أو يأتي أمر ربك} [النحل: 33]. وقرئ: عالم الغيب وعلام الغيب: بالجر صفة لربي. وعالم الغيب وعالم الغيوب:

بالرفع على المدح. ولا يعزب: بالضم والكسر في الزاي من الغروب وهو البعد. بالرفع على المدح. ولا يعزب: بالضم والكسر في الزاي من العزوب وهو البعد. يقال: روض عزيب: بعيد من الناس {مثقال ذرة} مقدار أصغر نملة {ذلك} إشارة إلى مثقال ذرة. وقرئ: ولا أصغر من ذلك ولا أكبر. بالرفع على أصل الابتداء. وبالفتح على نفي على نفي الجنس كقولك: لا حول ولا قوة إلا بالله بالرفع والنصب. وهو كلام منقطع عما قبله. فإن قلت: هل يصح عطف المرفوع على مثقال ذرة كأنه قيل: لا يعزب عنه مثقال ذرة وأصغر وأكبر وزيادة لا لتأكيد النفي. وعطف المفتوح على ذرة بأنه فتح في موضع الجر لامتناع

الصرف كأنه قيل: لا يعزب عنه مثقال ذرة ولا مثقال أصغر من ذلك ولا أكبر قلت: يأبي ذلك حرف الاستثناء إلا إذا جعلت الضمير في {عنه} للغيب. وجعلت {الغيب} اسما للخفيات. قبل أن تكتب في اللوح لأن إثباتها في اللوح نوع من البروز عن الحجاب على معنى أنه لا ينفصل عن الغيب شيء ولا يزل عنه إلا مسطوراً في اللوح.

{والذين سعو في آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم} وقرئ: معجزين. وأليم بالرفع والجر. وعن قتادة: الرجز سوء العذاب.

{ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد}
وقرئ: معجزين. فأليم: بالرفع والجر وعن قتادة: الرجز: سوء العذاب. ويرى في موضع الرفع أي: ويعلم ألو العلم يعني أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن يطأ أعقابهم من أمته.

أو علماء أهل الكتاب الذين أسلموا مثل كعب والأحبار وعبد الله ابن سلام رضي الله عنهما.

{الذي أنزل إليك.... الحق} هما مفعولان ليرى وهو فصل من قرأ الحق بالرفع: جعله مبتدأ و{الحق} خبراً والجملة في موضع المفعول الثاني. وقيل {ويرى} في موضع النصب معطوف على} ليجزى} أي: وليعلم أولو العلم عند مجئ الساعة أنه الحق. علماً لآ يزاد عليه في الإتقان ويحتجوا به على الذين كذبوا وتولوا. ويجوز أن يريد: وليعلم من لم يؤمن من الأحبار أنه هو الحق} وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جيد افترى على الله كذباً أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالأخرة في العذاب والضلال البعيد} {الذين كفروا} قريش. قال بعضهم لبعض {هل ندلكم على رجل} يعنون محمداً صلى الله عليه وسلم: يحدثكم بأعجوبة من الأعاجيب: أنكم تبعثون وتمشؤون خلقاً جديداً بعد أن تكونوا رفاتاً وتراباً ويمزق أجسادكم البلى كل ممزق أي: يفرقكم ويبدد أجزاءكم كل تبديد. أهو مفتر على الله كذباً فيما ينسب إليه من ذلك أم به جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه ثم قال سبحانه ليس محمد من الافتراء والجنون في شيء وهو مبرأ منهما بل هؤلاء القائلون الكافرون بالبعث: واقعون في عذاب النار وفيما يؤديهم إليه من الضلال عن الحق وهم غافلون عن ذلك وذلك أجن الجنون وأشد إطباقاً على عقولهم: جعل وقوعهم في العذاب من لوازمه وموجباته: جعلا كأنهما في الحقيقة مقترنان. وقرأ زيد بن علي رضي الله عنه: ينبيكم. فإن قلت: فقد جعلت الممزق مصدراً كبيت الكتاب:

ألم تعلـم مـسرحـي الـقـوافـي** فـلاعـيا بـهـن ولا اجـتــلابـــا

فهل يجوز أن يكون مكاناً قلت: نعم. ومعناه ما حصل من الأموات في بطون الطير والسباع وما مرت به السيول فذهبت به كل مذهب يوما سفته الرياح فطرحته كل مطروح. فإن قلت: ما العامل في إذا قلت: ما دل عليه} إنكم لفي خلق جديد} وقد سبق نظيره. فإن قلت: الجديد فعيل بمعنى فاعل أم مفعول قلت: هو عند البصريين بمعنى فاعل تقول: جد فهو جديد كحد فهو حديد وقل فهو قليل. وعند الكوفيين بمعنى: مفعول من جده إذا قطعه.

وقالوا: هو الذي جده الناسج الساعة في الثوب ثم شاع. ويقولون: ولهذا قالوا ملحفة جديد وهي عند البصريين كقوله تعالى {إن رحمة الله قريب} [الأعراف: 56] ونحو ذلك. فإن قلت: لم أسقطت الهمزة في قوله {افترى} دون قوله {آلسحر} وكلتاهما همزة وصل قلت: القياس الطرح ولكن أمراً اضطرهم إلى ترك إسقاطهم في نحو {السحر} وهو خوف التباس الاستفهام بالخبر لكون همزة الوصل مفتوحة كهمزة الاستفهام. فإن قلت:

ما معنى وصف الضلال بالبعد قلت: هو من افسناد المجازي لأن البعيد صفة الضال إذا بعد عن الجادة وكلما ازداد عنها بعداً كان أضل. فإن قلت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهوراً علماً في قريش وكان إنباؤه بالبعث شائعاً عندهم فما معنى قوله {هل ندلكم على رجل ينبئكم} فنكروه لهم وعرضوا عليهم الدلالة عليه كما يدل على مجهول في أمر مجهول. قلت: كانوا يقصدون بذلك الطنز والسخرية فأخرجوه مخرج التحلي ببعض الأحاجي بها للضحك والتلهي متجاهلين به وبأمره.

{أفلم يروا إلى ما بين أيديهم ما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء إن في ذلك لآية لكل عبد منيب} يريد أعموا فلم ينظروا إلى السماء والأرض وأنهما حيثما كانوا وأينما ساروا أمامهم وخلفهم محيطتان بهم لا يقدرون أن ينفذوا من أقطارهما وأن يخرجوا عما هم فيه من ملكوت الله عز وجل ولم يخافوا أن يخسف الله بهم أو يسقط عليهم كسفاً لتكذيبهم الآيات وكفرهم بالرسول صلى الله عليه وسلم وبما جاء به كما فعل بقارون وأصحاب الأيكة {إن في ذلك} ودلالة {لكل عبد منيب} وهو الراجع إلى ربه المطيع له لأن المنيب لا يخلو من النظر في آيات الله على أنه قادر على كل شيء من البعث ومن عقاب من يكفر به قرئ: يشأ ويخسف ويسقط: بالياء لقوله تعالى {افترى على الله كذباً} [الأنعام: 93] بالنون لقوله {ولقد آتينا} وكيفاً: بفتح السين وسكونه. وقرأ الكسائي: يخسف بهم بإدغام وليست بقوية.

{ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات} {يا جبال} إما أن يكون بدلاً من {فضلاً} وإما من {آتينا} بتقدير: قولنا يا جبال. أو: قلنا يا جبال. وقرئ: أوبي وأوبي من التأويب. والأوب: أي رجعي معه التسبيح. أو ارجعي معه في التسبيح كلما رجع فيه لأنه إذا رجعه فقد رجع فيه: ومعنى تسبيح الجبال: أن الله سبحانه وتعالى يخلق فيها تسبيحاً كما خلق الكلام في الشجرة فيسمع منها من المسبح: معجزة لداود.

وقيل: كن ينوح على ذنبه بترجيع وتحزين وكانت الجبال تسعده على نوحه بأصدائها والطير بأصواتها. وقرئ: والطير رفعاً ونصباً وعطفاً على لفظ الجبال ومحلها. وجوزوا أن ينتصب مفعولاً معه وأن يعطف على فضلاً بمعنى وسخرنا له الطير. فإن قلت: أي فرق بين هذا النظم وبين أن يقال {آتينا داود فضلاً} تأويب الجبال معه والطير قلت: كم بينهما. ألا ترى إلى ما فيه من الفخامة آلت لا تخفى: من الدلالة على عزة الربوبية وكبرياء الإلهية حيث جعلت الجبال منزلة منزلة العقلاء الذي إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا وإذا دعاهم سمعوا وأجابوا: إشعاراً بأنه ما من حيوان وجماد وناطق وصامت إلا وهو منقاد لمشيئته غير ممتنع على إرادته {وألنا له الحديد} وجعلنا له ليناً كالطين والعجين والشكع يصرفه بيد 9 ه كيف يشاء من غير نار ولا ضرب بمطرقة. وقيل: لأن الحديد في يده لما أوتى من شدة القوة أعمل سابغات وقرئ: صابغات وهي الدروع بأربعو آلاف فينفق منها على نفسه وعياله ويتصدق على الفقراء. وقيل: كان يخرج حين ملك بني إسرائيل متنكراً فيسأله فقال: لولا أنه يطعم عياله من بيت المال فسأل عند ذلك ربه أن يسبب له ما يستغني به عن بيت المال فعلمه صنعه الدروع {وقدر في السرد} لا تجعل المسامير دقاقاً فتقلق ولا غلاظاً فتفصم الحلق. والسرد: نسج الدروع {واعلموا} الضمير لداود وأهله وسخرنا لسليمان الريح فيمن نصب: ولسليمان الريح مسخرة فيمن رفع وكذلك فيمن قرأ: الرياح بالرفع {غدوها شهر} جريها بالغداة مسيرة شهر وجريها بالعشي كذلك. وقرئ: غدوتها وروحتها. وعن الحسن رضي الله عنه: كان يغدو فيقبل باصطخر ثم يروح فيكون رواحه بكابل. ويحكى أن بعضهم رأى مكتوباً في منزل بناحية دجلة كتبه بعض أصحابه سليمان: نحن نزلناه وما بنيناه ومبنياً وجدناه غدونا من اصطخر فقلناه ونحن رائحون منه فبائتون بالشام إن شاء الله. القطر: النحاس المذاب من القطران. فإن

قلت: ماذا أراد بعين القطر قلت: أراد بها معدن النحاس ولكنه أساله كما ألان الحديد لداود فنبع ما ينبع الماء من العين فلذلك سماه عين القطر باسم ما آل إليه كما قال {إني أراني أعصر خمراً} [يوسف: 36] وقيل: كان يسيل في الشهر ثلاثة أيام {بإذن ربه} بأمره {ومن يزغ منهم} ومن يعدل} عن أمرنا} الذي أمرناه به من طاعة سليمان. وقرئ: يزغ من أزاغه. وعذاب السعير: عذاب الآخرة عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن السدي: كان معه ملك بيده سوط من نار كلما استعصى عليه ضربه من حيث لا يراه الجني. المحاريب: المساكين والمجالس الشريفة المصونة عن الابتذال: سميت محاريب لأنه يحامي عليهتا ويذب عنها. وقيل: هي المساجد والتماثيل: صور الملائكة والنبيين والصالحين كانت تعمل في لمساجد من نحاس وصفر وزجاج ورخام ليراها الناس فيعبدوا نحو عبادتهم. فإن قلت: كيف استجاز سليمان عليه السلام عمل التصاوير قلت: هذا مما يجوز أن تختلف فيه الشرائع لأنه ليس من مقبحات العقل كالظلم والكذب وعن أبي العالية: لم يكن اتخاذ الصور إذ ذاك محرماً. ويجوز أن يكون غير صور الحيوان كصور الأشجار وغيرها لأن التمثال كل ما صور على مثل صورة غيره من حيوانات كصور الأشجار وغيرها لأن التمثال كل ما صور على مثل صورة الحيوان كصور أو تصور محذوفة الرؤوس.

وروي أنهم عملوا له أسدين في أسفل كرسيه ونسرين فوقه فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما وإذا قعد أظله النسران بأجنحتهما. والجوابي: الحياض الكبار قال:

تروح على آل المحلق جفنة** كجابية السيح العراقي تفهق

لأن الماء يجبي فيها أي: يجمع. جعل الفعل لها مجازاً وهي من الصفات الغالبة كالدابة. وقيل: كان يقعد على الجفنة ألف رجل. وقرئ: بحذف الياء اكتفاء بالكسرة. كقوله تعالى {يوم يدع الداع} [القمر: 6]. {راسيات} ثابتات على الأثافي لا تنزل عنها لعظمها {اعلموا آل داود} حكاية ما قيل لآل داود. وانتصب شطراً على أنه مفعول له أي: اعلموا لله واعبدوه على وجه الشحكر لنعمائه. وفيه دليل على أن العبادة يجب أن تؤدى على طريق الشكر. أو على الحال أي شارين. أو على تقدير اشكروا شكراً لأن أعلموا فيه معنى اشكروا من حيث إنالعمل للمنعم شكر له. ويجوز أن ينتصب باعلموا مفعولاً به. ومعناه: إنا سخرنا لكم الجن يعلمون لكم ما شئتم فاعلموا أنتم شكراً على طريق المشاطة و {الشكور} المتوفر على أداء الشكر الباذل وسعه فيه: قد شغل به قلبه ولسانه وجوارحه إعتقاداً واعترافاً وك حاً وأكثر أوقاته. وعن ابن عباس رضي الله عنهما من يشكر على أحواله كلها. وعن السدي: من يشكر على الشكر. وقيل: من يرى عجزه عن الشكر. وعن داود أنه جزأ ساعات الليل والنهار على أهله فلم تكن تأتي ساعة من الساعات إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي.

وعن عمر رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقول: اللهم اجعلني من القليل فقال عمر ما هذا الدعاء فقال الرجل: إني سمعت الله يقول {وقليل من عبادي الشكور} فأنا أدعوه أن يجعلني من ذلك القليل فقال عمر: كل الناس أعلم من عمر.

{فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين} قرئ: فلما قضى عليه الموت ودابة الأرض: الأرضة وهي الدويبة التي يقال لها السرفة والأرض فعلها فأضيف إليه. يقال: أرضت الخشية أرضاً. إذا أكلتها الأرضة. وقرئ بفتح الراء من أرضت الخشبة أرضاً وهو من باب فعلته ففعل كقولك: أكلت القوادح الأسنان أكلاً. فأكلت أكلاً والمنسأة: العصا. لأنه ينسأ بها أي: يطرد ويؤخر وقرئ: بفتح الميم وبتخفيف الهمزة قلباً وحذفا وكلاهما ليس بقياس ولكم إخراج الهمزة بين بين هو التخفيف القياسي. ومنساءته على مفعالة كما يقال في

الميضأة ميضاءة. ومن سأته أي: من طرف عصاه سميت بسأة القوس على الاستعارة وفيها لغتان كقولهم: قحة وقحة وقرئ: أكلت منسأته {تبينت الجن} من تبين الشيء إذا ظهر وتجلى. و {أن} مع صلتها بدل من الجن بدل الاشتمال كقولك: تبين زيد جهله: والظهور له في المعنى أي ظهر أن الجن {لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب} لو علم الجن لكهم علماً بيناً - بعد التباس الأمر على عامتهم وضعقتهم وتوهمهم - أن كبارهم يصدقون في ادعائهم علم الغيب أو علم المدعون علم الغيب منهم عجزهم وأنهم لا يعلمون الغيب وإن كانوا عالمين قبل ذلك بحالهم وإنما أريد التهكم بهم كما تتهكم بمدعي الباطل إذا دخضت حجته وظهر إبطاله بقولك: هل تبينت أنك مبطل. وأنت تعلم أنه لم يزل كذلك متبيناً. وقرئ: تبينت الجن على البناء للمفعول على أن المتبين في المعنى هو {أن} مع ما في صلتها لأنه بدل. وفي قراءة أبي: تبينت الإنس. وعن الضحاك: تباينت الأنس بمعنى تعارفت وتعالمت وتعالمت. والضمير في {كانوا} للجن في قوله {ومن الجن من يعمل بين يديه} أي علمت الإنس أن لو كان الجن يصدقون فيما يوهمونها من علمهم الغيب ما لبثوا. وفي قراءة ابن مسود رضي الله عنه: نبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب. روي أنه كان من عادة سليمان عليه السلام أن يعتكف في مسجد بين المقدس المدد الطوال فلما دنا أجله لم يصبح إلا رأى في محرابه شجرة نابته فد أنطقها الله فيسألها: لأي شيء أنت فتقول لكذا حتى أصبح ذات يوم فرأى الخروبة فسألها فقالت: نبت لخراب هذا المسجد: فقال: ما كان الله ليخرجه وأنا حي أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بين المقدس فنزعها وغرسها في حائط له وقال: اللهم عم عن الجن موتي حتى يعلم الناس أنهم لا يعلمون الغيب. لأنهم كانوا يسترقون السمع ويموهون على الإنس أنهم يعلمون الغيب وقال لملك الموت: إذا أمرت بي فأعلمني فقال: أمرت بك وقد بقيت من عمرك ساعة فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحاً من قوارير ليس له باب فقام يصلي متكئاً على عصاه فقبض روحه وهو متكئ عليها وكانت الشياطين تجتمع حول محرابه أينما صلى فلم يكن شيطان ينظر إليه في صلاته إلا احترق فمر به شيطان فلم يسمع صوته ثم رجع فلم يسمع فنظر فإذا سليمان قد خر ميتاً ففتحوا عنه فإذا العصا فأكلتها الأرضة فأرادوا أن يعرفوا وقت موته فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها في يوم وليلة مقداراً فحسبوا على ذلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة وكانوا يعلمون بين يديه ويحسبونه حياً فأيقن الناس أنهم لو علموا الغيب لما لبثوا في العذاب سنة وروي أن داود عليه السلام أسس بناء بيت المقدس في موضع فسطاط موسى عليه السلام فمات قبل أن يتمه فوصى به إلى سليمان فأمر الشياطين بإتمامه فلما بقي من عمره سنة سأل أن يعمى عليهم موته حتى يفرغوا منه ليبطل دعواهم علم الغيب. روي أن أفريدون جاء ليصعد كرسيه فلما دنا ضرب الأسدان ساقه فكسراها فلم يجسر أحد بعد أن يدنوا منه وكان عمر سليمان ثلاثاً وخمسين سنة: ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة فبقي في ملكه أربعين سنة وابتدأ بناء بيت المقدس لأربع مضين من ملكه.

{لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور} قرئ {لسبإ} بالصرف ومنعه وقلب الهمزة ألفاً ومسكنهم: بفتح الكاف وكسرها وهو موضع سكناهم وهو بلدهم وأرضهم التي كانوا مقيمين فيها أو مسكن كل واحد منهم. وقرئ: مساكنهم و} جنتان} بدل من آية. أو خبر مبتدإ محذوف تقديره: الآية جنتان وفي الرفع معنى المدح تدل عليه قراءة م قرأ: جنتين في أنفسهما آية وإنما جعل قصتهما وأن أهلهما أعرضوا عن شكر الله تعالى عليهما فخرجهما وأبدلهم عنهما الخمط والأثل: آية وعبرة لهم ليعتبروا ويتعظوا فلا يعودوا إلى ما كانوا عليه من الكفر وغمط النعم. ويجوز أن تجعلهما آية أي: علامة دالة على الله وعلى قدرته وإحسانه ووجوب شكره فإن قلت: كيف عظم الله جنتي أهل سبأ وجعلهما آية ورب قرية من قريات العراق يحتف بها من الجنان ما شئت قلت: لم يرد بستانين اثنين فحسب وإنما أراد جماعتين في تقاربها وتضامها. كأنها جنة واحدة كما تكون

بلاد الريف العامرة وبساتينها أو أراد بستاني كل رجل منهم عن يمين مسكنه وشكاله كما قال: جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب {كلوا من رزق ربكم} إما حكاية لما قال لهم أنبياء الله المبعوثون إليهم امو لما قال لهم لسان الحال أو هم احقاء بأن يقال لهم ذلك ولما قال {كلوا من رزق ربكم} {واشكروا له} أتبعه قوله {بلدة طيبة ورب غفور} يعني: هذه البلدة التي فيها رزقكم بلدة طيبة وربكم الذي رزقكم وطلب شكركم رب غفور لمن شكره. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كانت أخصب البلاد وأيبها: تخرج المرأة وعلى رأسها المتكل فتعمل بيدها وتسير بين تلك الشجر فيمتلئ المكتل بما يتساقط فيه من الثمر} كيبة} لم تكن سبخة وقيل: لم يكن فيها بعوض ولا ذباب ولا يرغوث ولا عقرب ولا حية. وقرئ: بلدة طيبة ورباً غفوراً بالنصب على المدح. وعن ثعلب: معناه اسكن واعبد {العرم} الجرذ الذي نقب عليهم السكر ضربت لهم بلقيس الملكو بسد ما بين الجبلين بالصخر والقار فحقنت به ماء العيون والأمطار وتركت فيه خروقاً على مقدار ما يحتاجون إليه من سقيهم فمل طغوا قيل: بعث الله إليهم ثلاثة عشر نبياً يدعونهم إلى الله ويذكرونهم نعمته عليهم فكذبوهم وقالوا ما نعرف لله نعمة سلط الله على سدهم الخلد فنقبه من أسفله فغرقهم. وقيل: العرم جمع عرمة وهي الحجارة المركومة. ويقال للكدس من الطعام عرمة: والمراد: المسناة التي عقدوها سكراً: وقيل: العرم اسم الوادي وقيل: العرم المطر الشديد. وقرئ: العرم بسكون الراء. وعن الضحاك: كانوا في الفترة التي بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم. وقرئ: أكل بالضم والسكون وبالتنوين والإضافة والأكل: الثمر. والخمط: شجر الأراك: وعن أبي عبيدة: كل شجرة ذي شوك. وقال الزجاج: كل نبت أخذ طعماً م مرارة حتى لا يمكن أكله. والأوثل: شجر يشبه الطرفاء أعظم منه وأجود عوداً. ووجه من نون: أن أصله ذواتي أكل أكل خمط. فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقام. أو وصف الأكل بالخمط كأنه قيل: ذواتي أكل بشع. ومن أضاف وهو أبو عمر وحده فلأن أكل الخمط في معنى البرير كأنه قيل: ذواتي برير. والأثل والسدر: معطوفان على أكل لا على خمط لأن الأثل لا أكل له. وقرئ: وأثلا وشيئاً. بالنصب عطفاً على جنتين.

وتسمية البدل جنتين لأجل المشاكلة وفيه: ضرب من التهكم. وعن الحسن رحمه الله: قلل السدر: لأنه أكرم ما بدلوا. وقرئ: وهل يجازي وهل نجازي بالنون. وهل يجازي والفاعل الله وحده. وهل يجزي والمعني: أن مثل هذا الجزاء لا يستحقه إلا الكافر وهو العقاب العاجل وقيل: المؤمن تكفر سيآته بحسناته والكافر يحبط عمله فيجازى بجميع ما عمله من السوء ووجه آخر: وهو أن الجزاء عام لكل مكافأة يستعمل تارة ف معنى المعاقبة وأخرى في معنى الإثابة فلما استعمل في معنى المعاقبة في قوله {جزيناهم بما كفروا} بمعنى: عاقبناهم بكفرهم.

قيل {وهل يجزى إلا الكفور} بمعنى: وهل يعاقب وهو الوجه الصحيح وليس لقائل أن يقول: لم قيل: وهل يجازى إلا الكفور على اختصاص الكفور بالجزاء والجزاء والجزاء عام للكافر والمؤمن لأنه لم يرد الجزاء العام وإمما أراد الخاص وهو العقاب بل لا يجوز أن يراد العموم وليس بموضعه. ألا ترى أنك لو قلت: جزيناهم بما كفروا وهل يجازى إلا الكافر والمؤمن: لم يصح ولم يسد كلاماً فتبين أن ما يتخيل من السؤال مضمحل وأن الصحيح الذي لا يجوز غيره ما جاء عليه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

{وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرتنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور} {القرى التي باركنا فيها} وهي قرى الشام} قرى ظاهرة} متواصلة يرى بعضها من بعض لتقاربها فهي ظاهرة لأعين الناظرين. أو راكبة متن الطريق: ظاهرة للسابلة لم تبعد عن مسالك خم حتى تخفى

عليهم} وقدرنا فيهم السير} قيل: كان الغادي منهم يقيل في قرية والرائح يبيت في قرية إلى أن يبلغ الشام لا يخاف جوعاً ولا عطشاً ولا عدواً ولا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء {سيروا فيها} وقلنا لهم: سيروا ولا قول ثم ولكنهم لما مكنوا من السير وسويت لهم أسبابه: انهم أمروا بذلك وأذن لهم فيه. فإن قلت: ما معنى قوله: {ليالي وأياماً} قلت: معناه سيروا فيها إن شئتم بالليل وإم شئتخ بالنهار فإن الأمن فيها لا يختلف باختلاف الأوقات. أو سيروا فيها آمنين لا تخافون. وإن تطاولت مدة سفركم وامتدت أياماً وليالي. أو سيروا فيها لياليكم وأيامكم مدة أعماركم فإنكم في كل حين وزمان لا تلقون فيها إلا الأمن. وقرئ: ربنا باعد بين اسفارنا وبعد. ويا ربنا على الدعاء بطروا النعمة وبشموا من طيب العيش وملوا العافية فطلبوا الكد واتعب كما طلب بنو إسرائيل البصل والثوم مكان المن والسلوى وقالوا: لو كان جنى جناننا أبعد كان أجدر أن نشتهيه وتمنوا أن يجعل الله بينهم وبين الشأم مفاوز ليركبوا الرواحل فيها ويتزودوا الأزواد فجعل الله لهم إجابة.
وقرئ: ربنا بعد بين أسفارنا وبعد بين أسفارنا على النداء وإسناد الفعل إلى بين ورفعه به كما تقول: سير فرسخان وبوعد بين أسفارنا. قرئ: ربنا باعد بين أسفارنا وبين سفرنا وبعد برفع ربنا على الابتداء والمعنى خلاف الأول وهو استبعاد مسايرهم على قصرها ودنوها لفرط تنعمهم وترفههم كأنهم كانوا يتشاجرون على ربهم ويتحازنون عليه {احاديث} يتحدث الناس بهم ويتعجبون من أحكالهم وفرقناهم تفريقاً أتخذه الناس مثلاً مضروباً يقولون: ذهبوا أيدي سبأ وتفرقوا أيادي سبأ. قال كثير:

فلم يحل بالعينين بعدك منظر**أيادي سبايا عز ما كنت بعدكم

لحق غسان بالشأم وأنمار بيثرب وجذام بتهامة والأزد بعمان {صبار} عن المعاصي {الشكور} للنعم.

{ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك وربك على كل شئ حفيظ} قرئ: صدق بالتشديد والتخفيف ورفع إبليس ونصب الظن فمن شدد فعلى: حقق عليهم ظنه أووجده صادقاً ومن خفف فعلى: صدق في ظنه أو صدق يظن ظناً نحو فعلته جهدك وبنصب إبليس ورفع الظن فمن شدد فعلى: وجد ظنه صادقا ومن خفف فعلى: قال له ظنه الصدق حين خيله إغواءهم يقولون: صدقك ظنك وبالتخفيف ورفعها على: صدق عليهم ظن إبليس ولو قرئ بالتشديد مع رفعهما لكان على المبالغة في صدق كقوله: صدقت فيهم ظنوني ومعناه: أنه حين وجد آدم ضعيف العزم قد أصغى إلى وسوسته قال: إن ذريته أضعف عزماً منه فظن بهم اتباعه وقال: لأضلنهم لأغوينهم. وقيل: ظن ذلك عند إخبار الله تعالى الملائكة أنه يجعل فيها م يفسد فيها والضمير في {عليهم} و{فاتبعوه} إما لأهل سبأ أو لبني آدم. وقلل المؤمنين بقوله {إلا فريقاً} لأنهم قليل بالإضافة إلى الكفار كما قال {لأحتنكن ذريته إلا قليلاً} [الإسراء: 62] {ولا تجد أكثرها شاكرين} [الأعراف: 17]. {وما كان له عليهم} من تسليط واستيلاء بالوسوسة والاستغواء إلا لغرض صحيح وحكمة بينة وذلك أن يتميز المؤمن بالآخرة من الشاك فيها. وعلل التسليط بالعلم والمراد ما تعلق به العلم. وقرئ: ليعلم على البناء للمفعول {حفيظ} محافظ عليه وفعيل ومفاعل: متآخيا.

{قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير} {قل} لمشركي قومك {ادعوا الذين} عبدتموهم من دون الله من الأصنام والملائكة وسميتموهم باسمه كما تدعون الله. والتجئوا إليهم فيما يعروكم كما تلتجؤون إليه. وانتظروا استجابتهم لدعائكم ورحمتهم كما تنتظرون وأن يستجيب لكم ويرحمكم ثم أجاب عنهم بقوله {لا يملكون مثقال ذرة} من خير أو شر أو نفع أو ضر} في السموات ولا في الأرض وما لهم} في هذين الجنسين من شركة في الخلق

ولا في الملك كقوله تعالى {ما اشهدتهم خلق السموات والأرض} [الكهف: 51] وما له منهم من عوين يعينه على تدبير خلقه يريد: أنهم على هذه الصفة من العجز والبعد عن أحوال الربوبية فكيف يصح أن يدعوا كما يدعى ويرجوا كما يرجى فإن قلت: أين مفعولا زعم قلت: أحدهما الضمير المحذوف الراجع منه إلى الموصول. وأما الثاني فلا يخلو إما أن يكون {من دون الله} أو {لا يملكون} أو محذوفاً فلا يصح الأول لأن قولك: هم من دون الله لا يلتئم كلاماً ولا الثاني لأنهم ما كانوا يزعمون ذلك فكيف يتكلمون بما هو حجة عليهم وبما لو قالوه ما هو حق وتوحيد فبقي أن يكون محذوفاً تقديره: زعمتموهم آلهة من دون الله فحذف الراجع إلى الموصول كما حذف في قوله {أهذا الذي بعث الله رسولاً} [الفرقان: 41] استخفافاً لطول الموصول لصلته وحذف آلهة لأنه موصوف صفته {من دون الله} والموصوف يجوز حذفه وإقامة الصفة مقامه إذا كام مفهوماً فإذا مفعولاً زعم محذوفان جميعاً بسببين مختلفين.

{ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير} تقول: الشفاعة لزيد على معنى أنه الشافع كما تقول: الكرم لزيد: وعلى معنى أنه المشفوع له كما تقول: القيام لزيد فاحتمل قوله {ولا تنفع الشفاعة عند إلا لمن أذن له} أن يكون على أحد هذين الوجهين أي: لاتنفع الشفاعة إلا كائنة لمن أذن له من الشافعين ومطلقة له. أو لا تنفع الشفاعة إلا كائنة لمن أذن له أي: لشفيعه أو هي اللام الثانية في قولك: أذن لزيد لعمرو أي لأجله كأنه قيل: إلا لمن وقع الأذن للشفيع لأجله وهذا وجه لطيف وهو الوجه وهذا تكذيب لقولهم: هؤلاء شفعاؤنا عند الله. فإن قلت: بما اتصل قوله {حتى إذا فزع عن قلوبهم} ولأي شيء وقعت حتى غاية قلت: بما فهم من هذا الكلام من أن ثم انتظاراً للإذن وتوقعاً وتمهلاً وفزعاً من الراجين للشفاعة والشفعاء هل يؤذن لهم أو لا يؤذون وأنه لا يطلق الإذن إلا بعد ملي من الزمان وطول من التربص ومثل هذا الحال دل عليه قوله عز وجل {رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن} [النبأ: 37] كأنه قيل: يتربصون ويتوقفون كلياً فزعين وهلين حتى إذا فزع عن قلوبكم أي: كشف الفزع عن قلوب الشافعين المشفوعين لهم بكلمة يتكلم بها رب العزة في إطلاق إذن: تباشروا بذلك وسأل بعضهم بعضا {ماذا قال ربكم قالوا} قال {الحق} أي القول الحق وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى. وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم: أذا أذن لمن أذن أن يشفع فزعته الشفاعة. وقرئ أذن له أذن له الله وأذن له على البناء للمفعول. وقرأ الحسن: فزع مخففا بمعنى فزع. وقرئ: فزع على البناء للفاعل وهو الله وحده وفرغ أي: نفى الوجل عنها وأفنى من قولهم: فرغ الزاد إذا لم يبق منه شيء. ثم ترك ذكر الوجل وأسند إلى الجار والمجرور كما تقول: دفع إلى زيد إذا علم ما المدفوع وقد تخفف واصله: فرغ الوجل عنها أي: انتفى عنها وفني ثم حذف الفاعل وأسند إلى الجار والمجرور.

وقرأك افرنقع عن قلوبهم بمعنى: انكشف عنها. وعن أبي علقمة أنه هاج به المرار فالتف عليه الناس فملا أفاق قال: ما لكم تكأكأتم علي تكأكأكم على ذي جنة افرنقعوا عني. والكلمة مركبة من حروف المفارقة مع زيادة العين كما ركب اقمطر من حروف القمط مع زيادة الراء.

وقرئ: الحق بالرفع أي: مقولة الحق {وهو العلي الكبير} ذو العلو والكبرياء ليس لملك ولا نبي أنيتكلم ذلك اليوم إلا بإذنه وأن يشفع إلا لمن ارتضى.

{قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين} أمره بأن يقررهم بقوله {من يرزقكم} ثم أمره بأن يتولى الإجابة والإقرار عنهم بقوله: يرزقكم الله. وذلك بالأشعار بأنهم مقرون به بقلوبهم إلا أنهم ربما أبوا أن يتكلوا به لأ الذي تمكن في صدورهم من العناد وحب الشرك قد ألجم أفواههم عن النطق بالحق مع

علمهم بصحته ولأنهم إن تفوهوا بأن الله رازقهم: لزمهم أن يقال لهم: فما لكم لا تعبدون من يرزقكم وتؤثون عليه منلا يقدر على الرزق ألا ترى إلى قوله {قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار} [يونس: 31] حتى قال {فسيقولون الله} [يونس: 31] ثم قال {فماذا بعد الحق إلا الضلال} [يونس: 32] فكأنهم كانوا يقرون بأسنتهم مرة ومرة كانوا يتلعثمون عناداً وضراراً وحذاراً من إلزام الحجة ونحوه قوله عز وجل {قل من رب السماوات والأرض قل الله قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً} [الرعد: 16] وأمره أن يقول لهم بعد افلزام والإلجام الذي إن لم يزد على إقرارهم بألسنتهم لم يتقاصر عنه} وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين} ومعناه: وإن أحد الفريقين من الذين يوحدون الرزاق من السموات والأرض بالعبادة ومن الذين يشركون به الجماد الذي لا يوصف بالقدرة لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلال وهذا من الكلام المنصف الذي كل من سمعه م موال أو مناف قال لمن خوطب به: قد أنصفك صاحبك وفي درجة بعد تقدمه ما قدم من التقرير البليغ: دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى ومن هو في الضلال المبين ولكن التعريض والتورية أنضل بالمجادل إلى الغرض وأهجم به على الغلبة مع قلة شغب الخصم وفل شوكته بالهوينا ونحوه قول الرجل لصاحبه: علم الله الصادق مني ومنك وإن أحدنا لكاذب. ومه بيت حسان:

فشـركـمـا لـخـيـركـمـا الـفـداء**أتهـجـوه ولـسـت لـه بـكـفء

فإن قلت: كيف خولف بين حرفي الجر الداخلين على الحق والضلال قلت: لأن صاحب الحق كأنه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء والضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يدري أن يتوجه. وفي قراءة أبي: وإنا أو أياكم إما على هدى أو في ضلال مبين.

{قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم} هذا أدخل في الإنصاف أبلغ فيه من الأول حيث أسند الإجرام إلى المخاطبين وإن أراد بالإجرام: الصغائر والزلات التي لا يخلو منها مؤمن وبالعمل: الكفر والمعاصي العظام. وفتح الله بينهم: وهو حكمه وفصله: أنه يدخل هؤلاء الجنة وأولئك النار.

{قل أروني الذين ألحقتم به شركاء كلا بل هو الله العزيز الحكيم} فإن قلت: ما معنى قوله {أروني} وكان يراهمويعرفهم قلت: أراد بذلك أن يريهم الخطأ العظيم في إلحاق الشركاء بالله وأن يقايس على أعينهم بينه وبين أصنامهم ليطلعهم على إحالة القياس إليه والإشراك به. و{كلا} ردع لهم عن مذهبهم بعد ما كسده بإبطال المقايسة كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام {أف لكم ولما تعبدون من دون الله} [الأنبياء: 67] بعدما حجهم وقد نبه هلى تفاحش غلطهم وإن لم يقدروا الله حق قدره بقوله {هو الله العزيز الحكيم} كأنه قال: أين الذين ألحقتم به شركاء من هذه الصفات وهو راجع إلى الله وحده. أو ضمير الشأن كما في قوله تعالى {قل هو الله أحد} [الإخلاص: 1].

{وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون} {إلا كافة للناس} إلا إرسالة عامة لهم محيطة بهم لأنها إذا شملتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم. وقال الزجاج: المعنى أرسلناك جامعاً للناس في الإنذار والإبلاغ فجعله حالاً من الكاف وحق التاء على هذا أن تكون للمبالغة كتاء الرواية والعلامة ومن جعله حالاً من المجرور متقدماً عليه فقد أخطأ لأن تقدم حال المجرور عليه في الإحالة بمنزلة تقدم المجرور على الجار وكم ترى ممن يرتكب هذا بالخطأ ثم لا يقنع به حتى يضم إليه أ يجعل اللام بمعنى إلى لأنه لا يستوي له الخأ الأول إلا الخطأ الثاني فلا بد له من ارتكاب الخطأين.

{ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون} قرئ: ميعاد يوم. وميعاد يوم. يوم الميعاد: ظرف الوعد من مكان أو زمان وهو ههنا الزمان.

والدليل عليه قراءة من قرأ: ميعاد يوم فأبدل منه اليوم. فإن قلت: فما تأويل من أضافه إلى يوم أو نصب يوماً قلت: أما الإضافة فإضافة تبيين كما تقول: سحق ثوب وبعير سانية. وأما نصب اليوم فعلى التعظيم بإضمار فعل تقديره: لكم ميعاد أعني التعظيم. فإن قلت: كيف انطبق هذا جواباً على سؤالهم قلت: ما سألوا عن ذلك وهم منكرون له إلا تعنتاً ولا استرشاداً فجاء الجواب على طريق التهديد مطابقاً لمجئ السؤال على سبيل الإنكار والتعنت وأنهم مرصدون ليوم يفاجؤهم فلا يستطيعون تأخراً عنه ولا تقدماً عليه.

{وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ولو ترى إذ الظالمين موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لو لا أنتم لكنا مؤمنين} الذي بين يديه: ما نزل قبل من كتب الله يروي: أن كفار مكة سألوا أهل الكتاب فأخبروهم أنهم يجدون صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتبهم فأغضبهم ذلك وقرنوا إلى القرآن جميع ما تقدمه من كتب الله عز وجل في الكفر فكفروا بها جميعاً. وقيل: الذي بين يديه يوم القيامة. والمعنى: أنهم جحدوا أن يكونوا القرآن من الله تعالى وأن يكون لما دل عليه من الإعادة للجزاء حقيقة ثم أخبر عن عاقبة أمرهم ومآلهم في الآخرة فقال لرسول عليه الصلاة والسلام أو للمخاطب {ولو ترى} في الآخرة موقفهم وهم يتجاذبون أطراف المحادثة ويتراجعونها بينهم لرأيت العجيب فحذف الجواب. والمستضعفون: هم الأتباع والمستكبرون: هم الرؤوس والمقدمون.

{قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعلمون} أولى الأسم أعني نحن حرف الإنكار لأن الغرض إنكار أن يكونوا هم الصادين لهم عن الإيمان وإثبات أنهم هم الذين صدوا بأنفسهم عنه وأنهم أتوا من قبل اختيارهم كأنهم قالوا: أنحن أجبرناكم وحلنا بينكم وبين كونكم ممكنين مختارين {بعد إذ جاءكم} بعد أن صممتم على الدخول في الإيمان وصحت نياتكم في اختياره بل أنتم منعتم أنفسكم حظها وآثرتم الضلال على الهدى وأطعتم آمر الشهوة دون آمر النهي فكنتم مجرمين كافرين لاختياركم لا لقولنا وتسويلنا. فإن قلت: إذ وإذا من الظروف اللازمة للظرفية فلم وقعت إذ مضافاً إليها قلت: قد اتسع في الزمان ما لم يتسع في غيره فإضيف إليها الزمان كما أضيف إلى الجمل في قولك: جئتك بعد إذ جاء زيد وحينئذ ويومئذ وكان ذلك أوان الحجاج أمير وحين خرج زيد. لما أنكر المستكبرون بقولهم {انحن صددناكم} أن يكونوا هم السبب في كفر المستضعفين وأثبتوا بقولهم {بل مكر اليل والنهار} فأبطلوا بإضرابهم كأنهم قالوا: ما كان الإجرام من جهتنا بل من جهة مكركم لنا دائباً ليلاً ونهاراً وحملكم إيانا على الشرك واتخاذ الأنداد. ومعنى مكر الليل والنهار: مكركم في الليل والنهار بالتنوين ونصب الظرفين وبل مكر الليل والنهار بالرفع والنصب. أي تكرون الإغواء مكراً دائباً لا تفترون عنه فإن قلت: لم قيل {قال الذين استكبروا} بغير عاطف وقيل {وقال الذين استضعفوا} قلت: لأن الذين استضعفوا مر أولاً كلامهم فجيء بالجواب محذوف العاطف على طريقة الاستئناف ثم جيء بكلام آخر للمستضعفين فعطف على كلامهم الأول. فإن قلت: من صاحب الضمير في} وأسروا} قلت: الجنس المشتمل على النوعين من المستكبرين والمستضعفين وهم الظالمون في قوله {إذ الظالمون موقوفون عند ربهم} [سبأ: 31] يندم المستكبرون على ضلالهم وإضلالهم والمستضعفون على ضلالهم واتباعهم المضلين {في أعناق الذين كفروا} أي في

أعناقهم فجاء بالصريح للتنويه بذمهم وللدلالة على ماستحقوا به الأغلال. وعن قتادة: أسروا الكلام بذلك بينهم. وقيل: أسروا الندامة أظهروها وهو من الأضداد.

{وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون وقالوا نحن أكثر أموالاً} هذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما مني يه من قومه من التكذيبي والكفر بما جاء به والمنافسة بكثرة الأموال والأولاد والمفاخرة وزخارفها والتكبر بذلك على المؤمنين والاستهانة بهم من أجله وفقولهم {أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً} [مريم: 73] وأنه لم يرسل قط إلى أهل قرية من نذير إلا قالوا له مثل ما قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أهل مكة وكادوه بنحو ما كادوه به وقاسموا أمر الآخرة الموهومة أو المفروضة عندهم على أمر الدنيا واعتقدوا أنهم لو لم يكرموا على الله لما رزقهم فلا أن المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم فعلى قياسهم ذلك قالوا {وما نحن بمعذبين} أرادوا أنهم أكرم على الله من أن يعذبهم نظراً إلى أحوالهم في الدنيا.

{قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون} وقد أبطل الله تعالى حسبانهم بأن الرزق فضل من الله يقسمه كما يشاء على حسب ما يراه من المصالح فربنا وسع على المعاصي وضيق على المطيع وربما عكس وربما وسع عليمها وضيق عليمها فلا ينافس عليه أمر الثواب الذي مبناه على الاستحقاق. وقدر الرزق: تضييقه. قال تعالى {ومن قدر عليه رزقه} [الطلاق: 7] وقرئ: ويقدر بالتشديد والتخفيف.

{وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون والذين يسعون في آياتنا معاجزين أولئك في العذاب محضرين} أراد: وما جماعة أموالكم ولا جماعة أولادكم بالتي تقربكم وذلك أن الجمع المكسر عقلاؤه وغير عقلائه سواء في حكم التأنيث ويجوز أن يكون التي هي التقوى وهي المقربة عند الله زلفى وحدهما أي ليست أموالكم بتلك الموضوعة للتقريب. وقرأ الحسن: باللاتي تقربكم لأنها جماعات. وقرئ: بالذي يقربكم أي بالشيء الذي يقربكم. والزلفى والزلفة: كالكربى والكربة ومحلها النصب أي: تقربكم قربة كقوله تعالى {أنبتكم من الأرض نباتاً} [نوح: 17] {إلا من آمن} استثناء من {كم} في {تقربكم}. والمعنى: أن الأموال لا تقرب أحداً إلا المؤمن الصالح الذي ينفقها في سبيل الله والأولاد لا تقرب أحداً إلا من علمهم الخير وفقههم في الدين ورشحهم للصلاح والطاعة {جزاء الضعف} من إضافة المصدر إلى المفعول أصله: فأولئك لهم أن يجازوا الضعف ثم جزاءً الضعف ثم جزاء الضعف. ومعنى جزاء الضعف: أن تضاعف لهم حسناتهم الواحدة عشراً. وقرئ: جزاء الضعف على: فأولئك لهم الضف جزاء وجزاء الضعف على: أن يجاوزا الضعف وجزاء الضعف موفوعان: الضعف بدل من جزاء. وقرئ {في الغرفات} بضم الراء وفتحها وسكونها. وفي الغرفة.

{قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين} {فهو يخلفه} فهو يعوضه لا معوض سواه: إما عاجلاً بالمال أو بالقناعة التي هي كنز لا ينفد.

وإمنا آجلاً بالثواب الذي كل خلف دونه. وعن مجاهد: من كان عنده من هذا المال ما يقيمه فليقصد فإن الرزق مقسوم لعل ما قسم له قليل وهو ينفق نفقة الموسع عليه فينفق جميع ما في يده ثم يبقى طول عمره في فقر ولا يتأولن: وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه فإن هذا في الآخرة.

ومعنى الآية: وما كان من خلف فهو منه {خير الرازقين} وأعلاهم رب العزة بأن كل ما رزق غيره: من سلطان يرزق جنده أو سيد يرزق عبده أو رجل يرزق عياله: فهو ممن رزق الله أجراه على أيدي هؤلاء وهو خالق الرزق وخالق الأسباب التي بها ينتفع المرزوق

بالرزق. وعن بعضهم: الحمد لله الذي أوجدني وجعلني ممن يشتهي فكم من مشته لا يجد وواجد لا يشتهي.

{ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون} هذا الكلام خطاب يعبدون وتقريع للكفار وارد على المثل السائر: ونحوه قوله تعالى {أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله} [المائدة: 116] وقد علم سبحانه كون الملائكة وعيسى منزهين برآء مما وجه عليهم من السؤال الوارد على طريق التقرير والغرض أن يقول ويقولوا ويسأل ويجيبوا فيكون تقريعهم أشد وتعبيرهم أبلغ وخجلهم أعظم: وهو أنه ألزم ويكون اقتصاد ذلك لطفاً لمن سمعه وزاجراً لمن اقتص عليه. والملاة: خلاف المعاداة. ومنها: اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وهي مفاعلة من الولي وهو القرب كما أن المعاداة من العداواء وهي العبد والولي: يقع على الموالي والموالي جميعاً. والمعنى أنت الذي نواليه من دونهم إذ لا موالاة بيننا وبينهم فبينوا بإثبات موالاة الله ومعاداة الكفار: براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم لأن من كان على هذه الصفة كانت حاله منافية لذلك {بل كانوا يعبدون الجن} يريدون الشياطين حيث أطاعوهم في عبادة غير الله. وقيل: صورت لهم الشياطين صور قوم من الجن وقالوا: هذه صور الملائكة فاعبدوها. وقيل: كانوا يدخلون في أجواف الأصنام إذا عبدت فيعبدون بعبادتها. وقرئ: نحشرهم ونقول بالنون والياء.

{فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضراً ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون} الأمر في ذلك اليوم لله وحده لا يملك فيه أحد منفعة ولا مضرة لأحد لأن الدار دار ثواب وعقاب والمثيب والمعاقب هو الله فكانت حالها خلاف حال الدنيا التي هي دار تكليف والناس فيها مخلى بينهم يتضارون ويتنافعون. والمراد: أنه لا ضار ولا نافع يومئذ إلا هو محده ثم ذكر معاقبته الظالمين بقوله {ونقول للذين ظلموا} معطوفاً على {لا يملك}.

{وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين} الإشارة الأولى: إلى النبي صلى الله عليه وسلم والثانية: إلى القرآن. والثالثة: إلى الحق. والحق أمر النبوة كله ودين الإسلام كما هو. وفي قوله {وقال الذين كفروا} وفي أن لم يقل وقالوا وما في قوله {للحق لما جاءهم} وما في اللاميين من أشارة إلى القائلين والمقول فيه وما في لما من المبادهة بالكفر: دليل على صدور الكلام عن إنكار عظيم وغضب شديد وتعجيب من أمرهم بليغ كأنه قال: وقال أولئك الكفرة المتمردون بجراءتهم على الله ومكابرتهم لمثل ذلك الحق النير قبل أن يذوقوه إن هذا الكفرة المتمردون بجراءتهم على الله ومكابرتهم لمثل ذلك الحق النير قبل أن يذوقوه {إن هذا إلا سحر مبين} فبتوا القضاء على أنه سحر ثم بتوه على أنه بين ظاهر كل عاقل تأمله سماه سحراً.

{وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم} كتباً يدرسونها فيها برهان على صحة الشرك ولا أرسلنا إليهم نذيراً ينذرهم بالعقاب إن لم يشركوا كما قال عز وجل {أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون} [الروم: 35] أو وصفهم بأنهم قوم أميون أهل جاهلية لا ملة لهم وليس لهم عهد بإنزال كتاب ولا يبعثه رسول كما قال {أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون} [الزخرف: 21] فليس لتكذيبهم وجه متشبث ولا شبه متعلق كما يقول أهل الكتاب وإن كانوا مبطلين: نحن أهل كتب وشرائع ومستندون إلى رسل من رسل أهل الكتاب وإن كانوا مبطلين: نحن أهل كتب وشرائع ومستندون إلى رسل من رسل الله. ثم توعدهم على تكذيبهم بقوله {وكذب الذين} تقدموهم من الأمم والقرون الخالية كما كذبوا وما بلغ هؤلاء بعض ما آتينا أولئك من طول الأعمار وقوة الأجرام وكثرة الأموال فحين كذبوا رسلهم جاءهم إنكاري بالتدمير والاستئصال ولم يغن عنهم استظهارهم بما هم به

مستظهرون فما بال هؤلاء وقرئ: يدرسونها من التدريس وهو تكرير الدري. أو من درس الكتاب ودرس الكتب: ويدرسونها بتشديد الدال يفتعلون من الدرس. والمعشار كالمرباع وهما: العشرلا. والربع. فإن قلت: فما معنى {فكذبوا رسلي} وهو مستغنى عنه بقوله {وكذب الذين من قبلهم} قلت: لما كان معنى {وكذب الذين من قبلهم}: وفعل الذين من قبلهم التكذيب وأقدموا عليه: جعل تكذيب الرسل مسبباً عنه ونظيره أن يقول القائل: أقدم فلان على الكفر فكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ويجوز أن ينعطف على قوله: وما بلغوا كقولك: ما بلغ ويد معشار فضل عمرو فتفضل عليه {فكيف كان نكير} أي للمكذبين الأولين فليحذروا من مثله.

{قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد} {بواحدة} بخصلة واحدة وقد فسرها بقوله {أن تقوموا} على أنه عطف بيان بها وأراد بقيامهم: إما القيام على مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرقهم عن مجتمعهم عنده وإما القيام الذي لا يراد به المثول على القدمين ولكن الانتصاب في الأمر والنهوض فيه بالهمة والمعني: إنما أعظم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم وهي: أن تقموا لوجه الله خالصاً. متفرقين إثنين اثنين وواحداً واحداً {ثم تتفكروا} في أمر محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به. أما الأثنان: فيتفكرون ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه وينظران فيه متصادقين متناقصين لا يميل بهما اتباع هوى ولا ينبض لهما عرق عصبية حتى يهجم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح على جادة الحق وسننه وكذلك الفرد: يفكر في نفسه بعدل ونصفه من غير أن يكابرها ويعرض فكره على عقله وذهنه وما استقر عنده من عادات العقلاء ومجاري أحوالهم والذي أوجب تفرقهم مثنى وفرادى: أن الاجتماع مما يشوش الخواطر ويعمى البصائر ويمنع من الروية ويخلط القول ومع ذلك يقل إنصاف ويكثر الاعتساف ويثور عجاج التعصب ولا يسمع إلا نصرة المهب وأراهم بقوله {ما بصاحبكم من جنة} أن هذا الأمر العظيم الذي تحته ملك الدنيا ولآخرة جميعاً لا يتصدى لا دعاء مثله إلا رجلان: إما رقبة العواقب. وإما عاقل راجح العقل مرشح للنبوة مختلر من أهل الدنيا لا يدعيه إلا بعد صحته عنده بحجته وبرهانه وإلا فما يجدي على العاقل دعوى شيء لا بينة له عليه وقد علمتم أن محمداً صلى الله عليه وسلم ما به من جنة بل علمتموه أرجح قريش عقلاً وأرزنهم حلماً وأثقبهم ذهناً وآصلهم رأياً وأصدقهم قولاً وأنزلهم نفساً وأجمعهم لما يحمد عليه الرجال ويمدحون به فكان مظنة لأن تظنوا به الخير وترجحوا فيه جانب الصدق على الكذب وإذا فعلتم ذلك كفاكم أن تطالبوه بأن يأتيكم بآية فإذا أتى بها تبين أنه نذير نبين. فإن قلت {ما بصاحبكم} بم يتعلق قلت: يجوز أن يكون كلاماً مستأنفاً تنبيهاً من الله عز ول على طريقة النظر في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويجوز أن يكون المعنى: ثم تتفكروا فتعلموا ما بصاحبكم من جنة وقد جوز بعضصهم أن تكون ما استفهامية {بين يدي عذاب شديد} كقوله عليه الصلاة والسلام: بعثت فينسم الساعة.

{فهو لكم} جزاء الشرط الذي هو قوله {كا سألتكم من أجر} تقديره: أي شيء سألتكم من أجر فهو لكم كقوله تعالى {ما يفتح الله للناس من رحمة} [فاطر: 2] وفيه معنيان أحدهما: نفي مسألة الأجر رأساً كما يقول الرجل لصاحبه: إن أعطيتني شيئاً فخذه وهو يعلم أنه لم يعطه شيئاً ولكنه يريد به البت لتعلقه الأخذ بما لم يكن. والثاني: أن يريد بالأجر ما أراد في قوله تعالى {قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً} [الفرقان: 57] وفي قوله {قل لا أسألكم عليه من أجر إلا المودة في القربى} [الشورى: 23] لأن اتخاذ السبيل إلى الله نصيبهم وما فيه نفعهم وكذلك المودة في القرابة لأن القرابة قد انتظمته وإياهم {على كل شئ شهيد} حفيظ مهيمن يعلم أنى لا أطلب الأجر على نصيحتكم ودعائكم إليه إلا منه ولا أطمع منكم في شيء.

{قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب} القذف والرمي: تزجيه السهم ونحوه بدفع واعتماد ويستعاران من تحقيقتهما لمعنى الإلقاء ومنه قوله تعالى {وقذف في قلوبهم الرعب} [الأحزاب: 26 الحشر: 2] {أن اقذفيه في التابوت} [طه: 9] ومعنى {يقذف بالحق} يلقيه وينزله إلى أنبيائه. أو يرمي به الباطل فيدمغه ويزهقه} علام الغيوب} رفع محمول على محل إن واسمها أو على المستكين في يقذف أو هو خبر مبتدأ محذوف. وقرئ: بالنصب صفة لربي أو على المدح. وقرئ: الغيوب بالحركات الثلاث فالغيوب كالبيوت. والغيوب كالصبور وهو الأمر الذي غاب وخفي جداً.

{قل جاء الحق وما يبديء الباطل وما يعيد} والحي إما أن يبدئ فعلاً أو يعيده فإذا هلك لم يبق له إبداء ولا إعادة فجعلوا قولهم: لا يبدئ ولا يعيد مثلاً في الهلاك. ومنه قول عبيد:

فاليوم لا يبدي ولا يعيد**أقفر من أهله عبيد

والمعنى: جاء الحق وهلك الباطل كقوله تعالى {جاء الحق وزهق الباطل} [الإسراء: 81] وعن ابن مسعود رضي الله عنه: دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة وحول الكعبة ثلثمائة وستون صنماً فجعل يطعنها بعود نبعة ويقول {جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً} [الإسراء: 81] {جاء الحق وما يبديء الباطل وما يعيد}. والحق: القرآن. وقيل: الإسلام. وقيل: السيف. وقيل: الباطل إبليس لعنه الله أي: ما ينشئ خلقاً ولا يعيده المنشئ والباعث: هو الله تعالى. وعن الحسن: لا يبدئ لأهله خيراً ولا يعيده أي: لا ينفعهم في الدنيا والآخرة. وقال الزجاج: أي شيء ينشيء إبليس ويعيده فجعله للإستفهام. وقيل للشيطان: الباطل لأنه صاحب الباطل أو لأنه هالك كما قيل {قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فيما يوحي إلي ربي إنه سميع قريب} قرئ: ضللت أضل بفتح العين مع كسرها. وضللت أضل بكسرها مع فتحها وهم لغتان نحو ظللت أظل. وظللت أظل وقرئ: إضل بكسر الهمزة مع فتح العين. فإن قلت: أين التقابل بين قوله {فإنما أضل على نفسي} وقوله {يوحي إلي ربي} وإنما كان يستقيم أن يقال: فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فإنما اهتدى لها كقوله تعالى {من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها} [فصلت: 46] فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها. أو يقال: فإنما أضل بنفسي. قلت: هما نتقابلان من جهة المعنى لأن النفس كل ما عليها فهو بها أعني: أن كل ما هو وبال عليها وضار لها فهو بها وبسببها: لأن الأمارة بالسوء وما لها مما ينفعها فبهداية ربها وتوفيقه وهذا حكم عام لكل مكلف وإنما أمر رسوله صلى اللهعليه وسلم أن يسنده إلى نفسه لأن الرسول إذا الرسول إذا دخل تحته مع جلالة محله وسداد طريقته كان غيره أولى به} إنه سميع قريب} يدرك قول كل ضال ومهتد وفعله لا يخفى عليه منهما شيء.

{ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب} {لو ترى} جوابه محذوف يعني: لرأيت أمراً عظيماً وحالاً هائلة. ولو وإذ والأفعال التي هي فزعوا وأخذوا وحيل بينهم كلها للمضي. والمراد بها الاستقبال لأن ما الله فاعله في المستقبل

بمنزلة ما قد كان ووجد لتحققه ووقت الفزع: وقت البعث وقيام الساعة. وقيل: وقت الموت.

وقيل: يوم بدر. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في خسف البيداء وذلك أن ثمانين ألفاً يغزون الكعبة ليخربوها فإذا دخلوا البيداء وذلك أن ثمانين ألفاً يغزون الكعبة ليخرجوها فإذا دخلوا البيداء خسف بهم {فلا فوت} فلا يفوتون الله ولا يسبقونه. وقرئ: فلا فوت والأخذ من مكان قريب: من الموقف إلى النار إذا بعثوا. أو من ظهر الأرض إلى بطنها إذا ماتوا. أو من صحراء بدر إلى القليب. أو من تحت أقدامهم إذا خسف بهم. فإن قلت: علام عطف قوله {واخذوا} قلت: فيه وجهان: العطف على فزعوا أي فزعوا

وأخذوا فلا فوت لهم. أو على فوت على معنى: إذا فزعوا فلم يفوتوا وأخذوا. وقرئ: وأخذ وهو معطوف على محل لا فوت ومعناه: فلا فوت هناك وهناك أخذ.

{وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيب من مكان بعيد وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا في شك مريب} {آمنا به} بمحمد صلى الله عليه وسلم لمرور ذكره في قوله {ما بصاحبكم من جنة} والتناوش والتناول: أخوان إلا أن التناوش تناول سهل لشيء قريب يقال ناشه ينوشه وتناوشه القوم. ويقال: تناوشوا في الحرب: ناش بعضهم بعضاً. وهذا تمثيل لطلبهم ما لا يكون وهو أن ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت كما ينفع المؤمنين إيمانهم في الدنيا: مثلت حالهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوة كما يتناوله الآخر من قيس مقدار ذراع تناولاً سهلاً لا تعب فيه.

وقرئ: التناوش: همزت الواو المضمومة كما عمزت في أجؤه وأدؤر وعن أبي عمرو التناؤش بالهمز التناول من بعد من قولهم: نأشت إذا أبطأت وتأخرت. ومنه البيت: تمنى نئيشا أن يكون أطاعني أي أخيراً {يقذفون} معطوف على قد كفروا على حكاية الحال الماضية يعني: وكانوا يتكلمون {بالغيب} ويأتون به {من مكان بعيد} وهو قولهم فر رسول الله صلى الله عليه وسلم شاعر ساحر كذاب. وهذا تكلم بالغيب والأمر الخفي لأنهم لم يشاهدوا منه سحراً ولا شعراً ولا كذباً وقد أتوا بهذا الغيب من جهة بعيدة من حاله لأن أبعد شيء مما جاء به: الشعر والسحر وأبعد شيء من عادته التي عرفت بينهم وجربت: الكذب والزور: قرئ: ويقذفون بالغيب على البناء للمفعول أي: يأتيهم به شياطينهم ويلقونهم إياهم وإن شئت فعلقه قوله:

{وقالوا آمنا به} على أنه مثلهم في طلبهم تحصيل ما عطلوه من الإيمان في الدنيا بقولهم آمنا في الآخرة وذلك مطلب مستبعد بمن يقذف شيئاً من مكان بعيد لا مجال للظن في لحوقه حيث يريد أن يقع فيه لكونه غائباً عنه شاحطاً والغيب: الشيء الغائب ويجوز أن يكون الضمير للعذاب الشديد في قوله {بين يدي عذاب شديد} [سبأ: 46] وكانوا يقولون: وما نحن بمعذبين إن كان الأمر كما تصفون من قيام الساعة والعقاب والثواب ونحن أكرم على الله من أن يعذبنا قايسين أمر الآخرة على أمر الدنيا فهذا كان قذفهم بالغيب وهو غيب ومقذوف به من جهة بعيدة لأن دار الجزاء لا تنقاس على دار التكليف {ما يشتهون} من فع الإيمان يومئذ والنجاة به من النار والفوز بالجنة. أو من الرد إلى الدنيا كما حكى عنهم {ارجعنا نعمل صالحاً} [السجدة: 2]. {بأشباعهم} من كفرة الأمم ومن كان مذهبه مذهبهم} مريب} إما من أرابه إذا أوقعه في الريبة والتهمة. أو من أراب الرجل إذا صار ذا ريبة ودخل فيها وكلاهما مجاز إلا أن بينهما فريقاً وهو أن المريب من الأول منقول ممن يصح أن يكون مريباً من الأعيان إلى المعنى والمريب من الثاني منقول من صاحب الشك إلى الشك كما تقول: شعر شاعر.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ سورة سبإ لم يبق رسول ولا نبي إلا كان له يوم القيامة رفيقاً ومصافحاً.

سورة الملائكة

مكية وهي خمس وأربعون آية.

{الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث وربع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شئ قدير} {فاطر السموات} مبتدئها ومبتدعها. وعن مجاهد

عن ابن عباس رضي الله عنهما: ما كنت أدري ما فاطر السموات والأرض حتى اختصم إلي أعرابيان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها أي ابتدأتها. وقرئ: الذي فطر السموات والأرض وجعهل الملائكة. وقرئ: جاعل الملائكة بالرفع على المدح {رسلاً} بضم السين وسكونها {أولي أجنحة} أصحاب أجنحة وأولوا: اسم جمع لذوو كما أن أولاء اسم جمع لذا ونظيرهما في المتمكنة: المخاض والخلفة {مثنى وثلاث ورباع} صفات لأجنحة وإنما لم تنصرف لتكرر العدل فيها وذلك أنها عدلت عن ألفاظ الأعداد عن صيغ إلى صيغ أخر كما عدل عمر عن عامر وحذام عن حاذم عن حاذمة وعن تكرير إلى غير تكرير وأما الوصيفة فلا يفترق الحال فيما بين المعدولة والمعدول عنها. ألا تراك تقول: مررت بنسوة أربع وبرجال ثلاثة فلا يعرج عليها والمعني: أن الملائكة خلقاً أجنحتهم اثنان اثنان أي: لكل واحد منهم جناحان وخلقا أجنحتهم أربعة أربعة {يزيد في الخلق ما يشاء} أي: يزيد في خلق الأجنحة وفي غيره ما تقتضيه مشيئه وحكمته. والأصل الجناحان: لأنهما بمنزلة اليدين ثم الثالث والرابع زيادة على الأصل وذلك أقوى للطيران وأعوان عليه فإن قلت: قياس الشفع من الأجنمحة أن يكون في كل شق نصفه فما صورة الثلاثة قلت: لعل الثالث يكون في وسط الظهر بين الجناحين يمدهما بقوة. أو لعله لغير الطيران فقد مر بي بعض الكتب أن صنفاً من الملائكة لهم ستة أجنحة فجناحن يلفون بهما أجسادهم وجناحان يطيرون بهما في الأمر من أمور الله وجناحان مرخيان على وجوههم حياء من الله. وعن رسول الله: أنه رأى جبريل عليه السلام ليلة المعراج وله ستمائة جناح. وروي: أنه سأل جبريل عليه السلام أن يتراءى له في صورته فقال: إنك لأن تطيق ذلك. قال: إني أحب أن تفعل فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلة مقمرة فأتاه جبريل في صورته فغشي على النبي صلى الله عليه وسلم ثم أفاق وجبريل عليه السلام مسنده وإحدى يديه على صدره والأخرى بين كتفيه فقال: سبحانه الله! ما كنت أرى أن شيئاً من الخلق هكذا فقال جبريل: فيكف لو رأيت إسرافيل: له اثنا عشر جناحاً: جناح منها بالمشرق وجناح بالمغرب وإن العرش على كاهله وإنه ليتضاءل الأحايين لعظمة الله حتى يعود مثل الوصع وهو العصفور الصغير. وروي: عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى {يزيد في الخلق ما يشاء} هو الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن} وقيل: الحظ الحسن وعن قتادة: الملاحة في العينين والآية مطلقة تتنول كل زيادة في الخلق: من طول قامة واعتدال صورة وتمام في الأعضاء وقوة في البطش وحصافة في العقل وجزالة في الرأي وجراءة في القلب وسماحة في النفس وذلاقة في اللسان ولباقة في التكلم وحسن تأن في مزاولة الأمور وما أشبه ذلك مما لا يحيط يه الوصف.

{ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم} استعر الفتح للإطلاق والإرسال. ألا ترى إلى قوله {فلا مرسل له من بعده} مكان: لا فاتح له يعني: أي شيء يطلق الله من رحمة أي من نعمة رزق أو مطر أو صحة أو أمن أو غير ذلك من صنوف نعمائه التي لا يحاط بعددها وتنكيره الرحمة للإشاعة والإبهام كأنه قال: من أية رحمة كانت سماوية أو أرضية فلا أحد يقدر على إمساكه وحبسها وأي شيء يمسك الله فلا أحد يقدر على إطلاقه. فإن قلت: لم أنت الضمير أولا ثم ذكر آخر وهو راجع في لحالين إلى الاسم المتضمن معنى الشرط قلت: هما لغتان: الحمل على المعنى وعلى اللفظ والمتكلم على الخيرة فيهما فأنت على معنى الرحمة وذكر على أن لفظ المرجوع إليه لا تأنيث فيه ولأن الأول فسر بالرحمة فحسن أتباع الضمير التفسير ولم يفسر الثاني فترك على أصل التذكير وقرئ: فلا مرسل لها. فإن قلت: لا بد للثاني من تفسير فما تفسيره قلت: يحتمل أن يكون تفسيره مثل تفسير الأول. ولكنه ترك لدلالته عليه وأن يكون مطلقاً في كل ما يمسكه من غضبه ورحمته وإنما فسر الرحمة بالتوبة وعزاه إلى ابن عباس رضي الله عنهما قلت: إن أراد بالتوبة الهداية لها والتوفيق فيها - وهو الذي أراده ابن عباس رضي الله عنهما إن قاله - فمقبول وإن إراد أنه إن شاء أن يتوب العاصي تاب وإن لم يشأ لم يتب فمردوده لأن الله تعالى يشاء التوبة أبداً ولا يجوز عليه أن لا يشاءها {من بعده} من بعد إمساكه كقوله تعالى {فمن يهديه من بعد الله}

[الجاثية: 23] {فبأي حديث} الإرسال والإمساك {الحكيم} الذي يرسل ويمسك ما تقتضي الحكمة إرساله وإمساكه.

{يا أيها الناس اذكروا نعمت الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون} ليس المراد بذكر باللسان فقط ولكن به وبالقلب وحفظهما من الكفران والغمط وشكرها بمعرفة حقها والاعتراف بها وطاعة موليها. ومنه قول الرجل لمن أنعم عليه: اذكر أيادي عندك.

يريد حفظهما وشكرها والعمل على موجبها والخطاب عام للجميع لأن جميعهم مغمورون في نعمة الله. وعن ابن عباس رضي عنهما: يريد: يا أهل مكة اذكروا نعمة الله عليكن حيث اسكنكم حرنة ومنعكم من جميع العالم والناس يتخطفون من حولكم. وعنه: نعمة الله العافية.

وقرئ: غير الله بالحركات الثلاث فالجر والرفع على الوصف لفظاً ومحلاً والنصب على الاستثناء. فإن قلت: ما محل {يرزقكم} قلت: يحتمل أن يكون له محل إذا أوقعته صفة لخالق وأن لا يكون له محل إذا رفعت محل من خالق بإضمار يرزقكم وأوقعت يرزقكم تفسيراً له أو جعلته كلاماً مبتدأ بعد قوله {هل من خالق غير الله}. فإن قلت: هل فيه دليل على أن الخالق لا يطلق على غير الله تعالى قلت: نعم إن جعلت {يرزقكم} كلاماً مبتدأ وهو الوجه الثالث من لأوجه الثلاثة. وإما على الوجهين الآخرين: وهما الوصف والتفسير. فقد يقيد فيهما بالرزق من السماء والأرض وخرج من الإطلاق فكيف سستشهد به على اختصاصه بالإطلاق والرزق من السماء المطر ومن الأرض النبات {لا إله إلا هو} جملة مفصولة لا محل لها من الآعراب مثل: يرزقكم في الوجه الثالث ولو وصلتها كما وصلت يرزقكم لم يساعد عليه المعنى لأن قولك: هل من خالق آخر سوى الله لا إله إلا ذلك الخالق: غير مستقم: لأن قولك: هل من خالق آخر سوى الله لا إله إلا ذلك الخالق: غير مستقيم: لأن قولك: هل من خالق سوى الله إثبات لله. فلو ذهبت تقول ذلك: كنت مناقضاً بالنفي بعد الإثبات {فأنى تؤفكون} فمن أي وجه تصرفون عن التوحيد إلى الشرك.

{وإن يكذبون فقد كذبت رسل من قبلك وإلى الله ترجع الأمور} نعي به على قريش سوء تلقيهم لآيات الله وتكذيبهم بها وسلى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن له في الأنبياء قبله أسوة حسنة ثم جاء بما يشتمل على الوعد والوعيد: من رجوع الأمور إلى حكمه ومجازاة المكذب والمكذب بما يستحقانه. وقرئ: ترجع بضم التاء وفتحها. فإن قلت: ما وجه صحة جزاء الشرط ومن حق الجزاء أن يتعقب الشرط وهذا سابق به. قلت: معناه: وإن يكذبون فتأسن استغناء بالسبب عن المسبب: أعني بالتكذيب عن التأسي. فإن قلت: ما معنى التنكير في رسل قلت: معناه فقد كذبت رسل أي رسل ذوو عدد كثير.

وأولا آيات ونذر. وأهل أعمار طوال وأصحاب صبر وعزم وما أشبه ذلك وهذا أسلى له وأحث على المصابرة.

{يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور إن الشياطين لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير} وعد الله الجزاء بالثواب والعقاب {فلا تغرنكم} فلا تخدعنكم {الدنيا} ولا يذهلنكم التمتع بها والتلذذ بمنافعها عن العمل للآخر وكطلب ما عند الله {ولا يغرنكم بالله الغرور} لا يقولن لكم اعلموا ما شئتم فإن الله غفور بغفر كل كبيرة وبعفو عن كب خطيئة. والغرور الشيطان لأن ذلك ديدنه. وقرئ بالضم وهو مصدر غره كاللزوم والنهوك أو جمع غار

كقاعد وقعود أخبرنا الله عز وجل أن الشيطان لنا عدو مبين واقتص علينا قصته وما فعل بأبينا آدم عليه السلام وكيف انتدب لعداوة جنسنا من قبل وجوده وبعده ونحن على ذلك نتولاه ونطيعه فيما يريد منا مما فيه هلاكنا فوعظنا عز وجل بأنه كما علمتم عدوكم الذي لا عدو أعرق في العداوة منه وأنتم تعاملونه معاملة من لا علم له بحاله {فاتخذوه عدوا} في عقائدكم وأفعالكم. ولا يوجدون منكم إلا ما يدل على معاداته ومناصبته في سركم وجهركم. ثم لخص سر أمره وخطأ من اتبعه بأن غرضه الذي يؤمه في دعوة شيعته ومتبعي خطواته: هو أن يوردهم مورد الشقوة والهلاك وأن يكونوا من أصحاب السعير. ثم كشف الغطاء وقشر اللحاء ليقطع الأطماع الفارغة والأماني الكاذبة فبنى الأمر كله على الإيمان والعمل وتركهما.

{أفمن زين له سوء علمه فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون} لما ذكر الفريقين الذين كفروا والذين آمنوا قال لنبيه صلى الله عليه وسلم {أفمن زين له سوء عمله فراءة حسناً} يعني: أفمن زين له شوء علمه من هذين الفريقين كمن لم يزين له فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا فقال {فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات} ومعنى تزيين العمل والإضلال واحد وهو أن يكون العاصي على صفة لا تجدي عليه المصالح حتى يستوجب بذلك خذلان الله تعالى وتخيله وشأنه فعند ذلك يهيم في الضلال ويطلق آمر النهي ويعتنق طاعة الهوى حتى يرى القبيح حسناً والحسن في قبيحاً كأنما غلب على عقله وسلب تمييزه ويقعد تحت قول أبي نواس:

حسناً عندي القبيح**اسقني حتى تراني

وإذا خذل الله المصممين على الكفر وخلاهم وشأنهم فإن على الرسول أن لا يهتم بأمرهم ولا يلقي بالا إلى ذكرهم ولا يحزن لا يتحسر عليهم: اقتداء بسنة الله نفسك عليهم تحسرة فحذف الجواب لدلالة فلا تذهب نفسك عليه: أو أفمن زين له سوء عمله كمن هداه الله فحذف لدلالة {فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء} عليه حسرات: مفعول له يعني: فلا تهلك نفسك للحسرات. وعليهم صلة تذهب كما تقول: هلك عليه حباً ومات عليه حزناً. أو هو بيان للمتحسر عليه. ولا يجوز أن يتعلق بحسرات لأن المصدر لا تتقدم عليه صلته ويجوز أن يكون حالاً كأن كلها صارت حسرات لفرط التحسر كما قال جرير:

حتى ذهبن كلاكلا وصدوراً **مشق الهواجر لجمهن مع السرى

حسرات وذكرهم لي سقام**فعلى إثرهم تساقط نفسي

وقرئ: فلا تذهب نفسك {إن الله عليم بما يصنعون} وعيد لهم بالعقاب على سوء صنيعهم.

{والله الذي أرسل الريح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور} قرئ: أرسل الريح. فإن قلتك لم جاء فتثير على المضارعة دون ما قبله وما بعده قلت ليحكى الحال التي تقعي فيها إثارة الرياح السحاب وتستحضر تلك الصور البديعة الدالة على القدرة الربانية وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمسيز وخصوصية بحال تستغرب أو تهم المخاطب أو غير ذلك كما قال تأبط شراً:

بسهب كالصحيفة صحصحان**بأني قد لقيت الغول تهوي

صريعـاً لـليدين وللجران**فأضربها بلا دهش فخرت

لأنه قصد أن يصور لقومه الحالة التي تشجع فيها بزعمه على ضرب الغول وكأنه يبصرهم إياها ويطلعهم على كنهها مشاهدة للتعجيب من جرأته على كل هول وثباته عند كل شدة. وكذلك شوق السحاب إلى البلد الميت وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها: لما كانا من الدلائل على القدرة الباهرة قيل: فسقنا وأحيينا معدولاً بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدل عليه. والكاف في {كذلك} في محل الرفع أي: مثل إحياء الموات نشور الأموات وروي: أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف يحيى الله الموتى وما آية ذلك في خلقه فقال: هل مررت بوادي أهلك محلاً ثم مررت به يهتز خضراً قال: نعم. قال: فكذلك يحيى الله الموتى وتلك آيته في خلقه. وقيل: يحيى الله الخلق بماء يرسله من تحت العرش كمني الرجال تنبت منه أجساد الخلق.

{من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصلاح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور} كان الكافرون يتعززون بالأصنام كما قال عز وجل {واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً} [مريم: 81] والذين آمنوا بألسنتهم من غير مواطأة قلوبهم كانوا يتعززون بالمشركين كما قال تعالى {الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً} [النساء: 139] فبين أن لا عزة إلا لله ولأوليائه. وقال {ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين} [المنافقون: 3] والمعنى فليطلبها عند الله فوضع قوله {فلله العزة جميعاً} موضعه استغناء به عنه لدلالته عليه لأن الشيء لا يطلب إلا عند صاحبه ومالكه. ونظيره قولك: من أراد النصيحة فهي عند الأبرار تريد: فليطبها إلا عند صاحبه ومالكه. ونظيره قولك: من أراد النصيحة فهي عند الأبرار تريد: فليطلبها عندهم إلا أنك أقمت ما يدل عليه مقامه. ومعنى {فلله العزة جميعاً} أن العزة كلها مختصة بالله: عزة الدنيا وعزة الآخرة. ثم عرف أن ما تطلب به العزة هو الإيمان والعمل الصالح بقوله {إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه} والكلم الكيب: لا إله إلا الله. عن ابن عباس رضي الله عنهما: يعني أن هذه الكلم لا تقبل. ولا تصعد إلى السماء فتكتب حيث تكتب الأعمال المقبولة كما قال عز وجل {إن كتاب الأبرار لفي عليين} [المطففين: 8] إلا إذا اقترن بها العمل الصالح الذي يحققها ويصدقها فرفعها وأصعدها. وقيل: الرافع الكم والمرفوع العمل لأنه لا يقبل عمل إلا من موحد. وقيل: الرافع هو الله تعالى والمرفوع العمل.

وقيل: الكلم الطيب: كل ذكر من تكبير وتسبيح وتهليل وقراءة قرآن ودعاء واستغفار وغير ذلك. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: هو قول الرجل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر إذا قالها العبد عرج بها الملك إلى السماء فحيا بها وجه الرحمن فإذا لم يكن عمل صالح لم يقبل منه وفي الحديث: ولا يقبل الله قولاً إلا بعمل ولا يقبل قولاً ولا عملاً إلا بنية ولا يقبل قولاً وعملاً ونية إلا بإصابة السنة. وعن ابن المقفع: قول بلا عمل كثريد بلا دسم وسحاب بلا مطر وقوس بلا وتر. قرئ {إليه يصعد الكلم الطيب} على البناء للمفعول. و{إليه يصعد الكلم الطيب} على تسمية الفاعل من أصعد والمصعد: هو الرجل أي سعصد إلى الله عز وجل الكلم الطيب وإليه يصعد الكلام الطيب. وقرئ {والعمل الصالح يرفعه} بنصب العمل والرافع الكلم أو الله عز وجل. فإن قلت: مكر: فعل غير متعد. لا يقال: مكر فلان علمه فبم نصب} السيئات} قلت: هذه صفة للمصدر أو لما في حكمه كقوله تعالى {ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله} [فاطر: 43] أصله والذين مكروا المكرات السيئات. أو أصناف المكر السيئات وعني بهن مكرات قريش حين اجتمعوا في دار الندوة وتداوروا الرأي في إحدى ثلاث مكرات يمكونها برسول الله صلى الله عليه وسلم: إما إثباته أو قتله أو إخراجه كما نحكى الله سبحانه عنهم {وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوا أو يقتلوك أو يخرجوك} [الأنفال: 30]. {ومكر أولئك هو يبور} يعني: مكر أولئك الذين مكروا تلك المكرات الثلاث هو خاصة يبور أي يكسد ويفسد دون مكر الله بهم حين أخرجهم من مكة وقتلهم وأثبتهم في قليب بدر فجمع عليهم مكراتهم جميعاً

وحقق فيهم قوله {ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين} [الأنفال: 30] وقوله {ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله}.

{والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما} أوزاجاً أصنافاً أو ذكرانا وإناثاً كقوله تعالى {أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً} [الشورى: 50] وعن قتادة رضي الله عنه: زوج بعضهم بعضاً {بعلمه} في موضع الحال أي: إلا معلوم له. فإن قلت: ما معنى قوله {وما يعمر من معمر} قلت: معناه وما يعمر من أحد وإنما سماه معمراً بما هو صائر إليه فإن قلت: إنسان إما معمر أي طويل العمر: أو منقوص العمر أي قصيره. فأما أن يتعاقب عليه التعمير وخلافه فمحال فكيف صح قوله {وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره} قلت: هذا من الكلام المتسامح فيه ثقة في تأويله بأفهام السامعين واتكالاً على تسديدهم معناه بعقولهم وأنه لا يلتبس عليهم إحالة الطول والقصؤ في عمر واحد. وعليه كلام الناس المستفيض. يقولون: لا يثيب الله عبداً ولا يعاقبه إلا بحق. وما تنعمت بلداً ولا اجتويته إلا قل فيه ثوائي وفيه تأويل آخر: هو أنه لا يطول عمر إنسان ولا مقصر إلا في كتاب وصورته: أن يكتب في اللوح: إن حج فلان أو غزا فعمره أربعون سنة وإن حج وغزا فعمره ستون سنة فإذا جمع بينهما فبلع الستين فقد عمر. إذا أفرد أحدهما فلم يتجاوز به الأربعون فقد نقص من عمره الذي هو الغاية وهو الستون. وإليه أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: إن الصدقة والصلة تعمران الديار وتزيدان في الأعمار وعن كعب أنه قال حين طعن عمر رضي الله عنه: لو أن عمر دعا الله لأخر في أجله فقيل لكعب: أليس قد قال الله {إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون} [يونس: 49] قال: فقد قال الله {وما يعمر من معمر} وقد استفاض على الألسنة: أطال الله بقاءك وفسح في مدتك وما أشبه. وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه: يكتب في الصحيفة عمره كذا وكذا سنة ثم يكتب في أسفبل ذلك: ذهب يوم ذهب يومان حتى يأتي على آخره. وعن قتادة رضي الله عنه: المعمر من بلغ الستين سنة والمنقوص من عمره من يموت قبل ستين سنة والكتاب: اللوح. عن ابن عباس رضي الله عنهما: ويجوز أن يراد بكتاب الله: علم الله أو صحيفة الإنسان. وقرئ: ولا ينقص على تسمية الفاعل من عمره بالتخفيف.

{وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شاربه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون} ضرب البحرين: العذب والمالح مثلين للمؤمن والكافر ثم قال على سبيل الاستطراد في صفة البحرين وما علق بهما من نعمته وعطائه {ومن كل} أي: ومن كل واحد منهما تأكلون لحماً طرياً وهو السمك {وتستخرجون حلية} وهي اللؤلؤ والمرجان} وترى الفلك فيه} في كل {مواخر} شواق للماء بجريها يقال: مخرت السفينة الماء. ويقال للسحاب: بنات مخر لأنها تمخر الهواء والسفن الذي اشتقت منه السفينة قريب من المخر لأنها تسفن الماء كأنها تقشره كما تمخره {من فضله} من فضل الله ولم يجر له ذكر في الآية ولكن فيما قبلها ولو لم يجر لم يشكل لدلالة المعنى عليه.

وحرف الرجاء مستعار لمعنى الإرادة ألا ترى كيف سلك به مسلك لام التعليل كأنما قيل: لتبتغوا ولتشكروا. والفرات: الذي يكسر العطش. والسائغ: المرئ السهل الانحدار لعذوبته.

وقرئ: سيغ بوزن سيد: وسيغ بالتخفيف وملح: على فعل والأجاج: الذي يحرق بملوحيته.

ويحتمل غير طريقة الاستطراد: وهو أن يشبه الجنسين بالبحرين ثم يفضل البحر الأجاج على الكافر بأنه قد شارك العذب في منافع من السمك واللؤلؤ: وجرى الفلك فيه والكافر خلو من النفع فهو في طريقة قوله تعالة {ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي

كالحجارة أو أشد قسوة} [البقرة: 74] ثم قال {وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله} [البقرة: 74].

{يولج اليل في النهار ويولج النهار في اليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ذالكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير} {ذلكم} مبتدأ. و{الله ربكم له الملك} أخبار مترادفة. أو الله ربكم خبران. وله الملك: جملة مبتدأ واقعه في قران قوله {والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير} ويجوز في حكم الإعراب إيقاع اسم الله صفة لاسم الآشارة. أو عطف بيان. وربكم خبراً. لولا أن المعنى {إن تدعوهم لا يسمعموا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير} إن تدعوا الأوثان {لا يسمعون دعاءكم} لأنهم جماد {ولو سمعوا} على سبيل الفرض والتمثيل ل {ما استجابوا لكم} لأنهم لا يدعون ما تدعون لهم من الإلهية ويتبرؤون منها. وقيل: ما نفعوكم {يكفرون بشرككم} أي بإشراككم وعبادتكم إياهم يقولون كنتم إيانا تعبدون {ولا ينبئك مثل خبير} ولا يخبرك بالأمر مخبر هو مثل خبير علام به. ويريد: أن الخبير بالأمر وحده هو الذي يخبرك بالحقيقة دون سائر المخبرين به. والمعنى: أن هذا الذي أخبرتكم به من حال الأوثان هو الحق لأني خبير بما أخبرت به. وقرئ: يدعون بالياء والتاء.

{يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز} فإن قلت: لم عرف الفقراء قلت: قصد بذلك أن يريهم أنهم لشدة افتقارهم إليه هم جنس الفقراء وإن كانت الخلائق كلهم مفتقرين إليه من الناس وغيرهم لأن الفقر مما يتبع قوله {وخلق الإنسان ضعيفاً} [النساء: 28] وقال سبحانه وتعالى {الله الذي خلقكم من ضعف} [الروم: 54] ولو نكر لكان المعنى أنتم بعض الفقراء. فإن قلت: قد قوبل الفقراء بالغنى فما فائدة الحميد قلت: لما أثبت فقرهم إليه وغناه عنهم - وليس كل غني نافعاً بغناه إلا إذا كان الغني جواداً منعما فإذا جاد وأنعم حمده المنعم عليهم واستحق عليهم الحمد ذكره الحميد ليدل به على أنه الغني النافع بفناه خلقه الجواد المنعم عليهم المستحق بإنعامه عليهم أن يحمدوه الحميد على ألسنة مؤمنيهم {بعزيز} بممتنع وهذا غضب عليهم لاتخاذهم له أداداً وكفرهم بآياته ومعاصيم كما قال {وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم} [محمد: 38] وعن ابن عباس رضي الله عنهما: يخلق بعدكم من يعبده لا يشرك به شيئاً.

{ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير} الوزر والوقر: أخوان ووزر الشيء إذا حمله. والوازرة: صفة للنفس والمعنى: أن كل نفس يوم القيامة لا تحمل إلا وزرها الذي اقترفته: لا تؤخذ نفس بذنب نفس كما تأخذ جبابرة الدنيا: الولي بالولي والجار بالجار. فإن قلت: هلا قيل: ولا تزر نفس وزر أخرى ولم قيل وازرة قلت: لأن المعنى أن النفوس الوازرات لا ترى منهن واحدة إلا حاملة وزرها لا وزر غيرها. فإن قلت: كيف توفق بين هذا وبين قوله {وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم} [العنكبوت: 13] قلت: تلك الآية في الضالين المضلين وأنهم يحملون أثقال إضلال الناس مع أثقال ضلالهم وذلك كله أوزارهم ما فيها شيء من وزر غيرهم. ألا ترى كيف كذبهم الله تعالى في قولهم {اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم} [العنكبوت: 12] بقوله تعالى {وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء} [العنكبوت: 12]. فإن قلت: ما الفرق بين معنى قوله {ولا تزر وازرة وزر آخرى} وبين معنى {وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء} قلت: ألول في الدلالة على عدل الله تعالى في حكمه وأنه تعالى لا يؤاخذ نفساً بغير ذنبها والثاني: في أن غيات يومئذ لمن استغاث حتى أن نفساً قد أثقلتها الأوزار وبهظتها لو دعت إلى أن يخفف بعض وقوها لم تجب ولم تغث وإن كان المدعو بعض قرابتها من أب أو ولد أو أخ. فإن قلت: إلام أسند كان في {ولو كان ذا قربى} قلت: إلى المدعو المفهوم من قوله

{وإن تدع مثقله}. فإن قلت: فلم ترك ذكر المدعو قلت: ليعم ويشمل كل مدعو. فإن قلت: كيف استقام إضمار العام ولا يصح أن يكون العام ذا قربى للمثقلة قلت: هو من العموم الكائن على طريق البدل. فإن قلت: ما تقول

فيمن قرأ: ولو كان ذو قربى على كان التامة كقوله تعالى {وإن كان ذو عسرة} [البقرة: 290] قلت: نظم الكلام أحسن ملاءمة للناقصة لأن المعنى على أن المثقلة إن دعت أحداً إلى حمهلا لا يحمل منه شيء وإن كان مدعوها ذا قربى وهو معنى صحيح ملتئم ولو قلت: نظم الكلام أحسن ملاءمة للناقصة لأن المعنى على أن المثقلة إن دعت أحداً إلى حملها لا يحمل منه شيء وإن كان مدعوها ذا قربى وهو معنى صحيح ملتئم ولو قلت: ولو وجد ذو قربى لتفكك وخرج من اتساقه والتئامه على أن ههنا ما ساغ أن يستتر له ضمير في الفعل بخلاف ما أوردته {بالغيب} حال من الفاعل أو المفعول أي: يخشون ربهم غائبين عن عذابه أو يخشون عذابه غائباً عنهم. وقيل: بالغيب في السر وهذه صفة الذين كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه فكانت عادتهم المستمرة أن يخشوا الله وهم الذين كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه فكانت عادتهم المستمرة أن يخشوا الله وهم الذين أقاموا الصلاة وتركوها مناراً منصوباً وعلماً مرفوعاً يعني: إنما تقدر على إنذار هؤلاء وتحذيرهم من قومك وعلى تحصيل منفعة الإنذار فيهم دون متمرديهم وأهل عنادهم {ومن تزكى} ومن تطهر بفعل الطابعات وترك المعاصي. وقرئ: من أزكى فإنما يزكى وهو اعتراض مؤطد لخشيهم وإقامتهم الصلاة لأنهما من جملة التزكي {وإلى الله المصير} وعد للمتزكين بالثواب. فإن قل -: كيف اتصل قوله {إنما تنذر} بما قبله قلت: لما غضب عليهم في قوله {إن يشأ يذهبكم} اتبعه الإنذار بيوم القيامة وذكر أهوالها ثم قال: إنما تنذر كأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسمعهم ذلك فلم ينفع فنزل {إنما تنذر} أو أخبره الله تعالى بعمله فيهم.

{وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الأحياء} الأعمى والبصير مثل للكافر والمؤمن كما ضرب البحرين مثلاً لهما أو للصنم والله عز وجل والظلمات والنور والظل والحرور: مثلان للحق والباطل وما يؤديان إليه من الثواب والعقاب.

والأحياء والأموات: مثل للذين دخلوا في الإسلام والذين لم يدخلوا فيه وأصروا على الكفر والحرور: السموم إلا أن السموم يكون بالنهار والحرور بالليل والنهار. وقيل: بالليل خاصة.

فإن قلت: لا المقرونة بواو العطف ما هي قلت: إذا وقعت الواو في النفي قونت بها لتأكيد معنى النفي. فإن قلت: هل من فرق بين هذه الواوات قلت: بعضها ضمت شفعاً وبعضها وتراً إلى وتر {إن الله يسمع من يشاء} يعني أنه قد علم من يدخل في إسلام ممت لا يدخل فيه فيهدي الذي قد علم أن الهداية تنفع فيه ويخذل من علم أنها لا تنفع فيه. وأما أنت فخفي مثل من لا يريد أن يسمع المقبورين وينذر وذلك ما لا سبيل إليه ثم قال {إن أنت إلا نذير} أي ما عليك إلا أن تبلغ وتنذر فإن كان المنذر ممن يسمع إنذار نفع وإن كان من المصرين فلا عليك.

ويحتمل أن الله يسمع من يشاء وأنه قادر على أن يهدي المطبوع على قلوبهم على وجه القسر والإلجاء وغيرهم على وجه الهداية والتوفيق وأما أنت فلا حيلة لك في المطبوع على قلوبهم الذين هم بمنزلة الموتى.

{إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمه إلا خلا فيها نذير} بالوعيد الحق وإن من أمة إلا خلا فيها نذير. والأخ الجماعة الكثيرة. قال الله تعالى {وجد عليه أمة من الناس} [القصص: 23] ويقال لأهل كل عصر: أمة وفي حدود المتكلمين: ألأمة هم المصدقون

بالرسول صلى الله عليه وسلم دون المبعوث إليهم وهم الذين يعتبر إجماعهم والمراد ههنا: أهل العصر. فإن قلت: كم من أمة في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ولم يخل فيها نذير قلت: إذا كانت آثار النذارة باقية لم تخل من نذير إلى أن تندرس وحين اندرست آثار نذارة عيسى بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم. فإن قلت: كيف اكتفى بذكر النذير عن البشير في آخر الآية بعد ذكرهما قلت: لما كانت النذارة مشفوعة بالبشارة لا محالة دل ذكرها على ذكرها لا سيما قد اشتملت الآية على ذكرهما.

{وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير} {بالبينات} بالشواهد على صحة النبوة وهي المعجزات {وبالزبر} وبالصحف {وبالكتاب المنير} نحو التوراة والإنجيل والزبور. لما كانت هذه الأشياء في جنسهم أسند المجئ بها إليهم إسناداً مطلقاً وإن كان بعضها في جميعهم: وهي البينات وبعضها في بعضهم: وهي الزبر والكتاب.

وفيه مسلاة لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

{ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلف ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور} {ألوانها} أجناسها من الرمان والتفاح والتين والعنب وغيرها مما يحصر أو هيئاتها من الحمرة والصفرة والخضرة ونحوها. والجدد الخطط والطرائق. قال لبيد: أو مذهب جدد على ألواحه ويقال: جده الحمار للخطة السوداء على ظهره وقد يكون للظبي جدتان مسكينتان تفصلان بين لوني ظهره وبطنه {غرابيب} معطوف على بيض أو على جدد كأنه قيل ومن الجبال مخطط ذو جدد ومنها ما هو على لون واحد غرابيب. وعن عكرمة رضي الله عنه: هي الجبال الطوال السود. فإن قلت: الغربيب تأكيد للأسود. يقال: أسود غربيب وأسود حلكوك: وهو الذي أبعد في السواد وأغرب فيه. ومنه الغراب: ومن حق التأكيد أن يتبع المؤكد كقولك: أصفر فاقع وأبيض يقق وما أشبه ذلك. قلت: وجهه أن يضمر المؤكد قبله ويكون الذي بعده تفسيراً لما أضمر كقوله النابغة: والمؤمن العائذات الطير.... وإنما يفعل ذلك لزيادة التوكيد حيث يدل على المعنى الواحد من طريقي الإظهار الإضمار جميعاً ولا بد من تقدير حذف المضاف في قوله تعالى {ومن الجبال جدد} بمعنى: ومن الجبال ذو جدد بيض وحمر وسود حتى يؤول إلى قولك: ومن الجبال مختلف ألوانه كما قال: ثمرات مختلفاً ألوانها {ومن الناس والدواب والأنعم مختلف ألوانه} يعني: ومنهم بعض مختلف ألوانه. وقرئ: ألوانها وقرأ الزهري: جدد بالضم: جمع جديدة وهي الجدة. يقال: جديدة وجدد وجدائد كسفينة وسفن سفائن. وقد فسر بها قول أبي ذؤيب يصف حمار وحش: جون السراة له جدائد أربع وروي عنه: جدد بفتحتين وهو الطريق الواضح المسفر وضعه موضع الطرائق والخطوط والواضحة المنفصل بعضها من بعض. وقرئ: والدواب مخففاً ونظير هذا التخفيف قراءة من قرأ: ولا الضالين لأن كل واحد منهما فرار من التقاء الساكنين فحرك ذاك ألوهما وحذف هذا آخرهما. وقوله {كذلك} أي كاختلاف الثمرات والجبال. المراد: العملاء به الذين علموه بصفاته وعدله وتوحيده وما يجوز عليه وما لا يجوز فعظموه وقدروه حق قدره وخشوه حق خشيته ومن ازداد به علماً ازداد منه خوفاً ومن كان علمه به أقل كان آمن. وفي الحديث: أعلمكم بالله أشدكم له خشية وهم مسروق: كفى بالمرء علماً أن يخشى وكفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعلمه. وقال رجل للشعبي: أفتني أيها العالم فقال: العالم من خشي الله. وقيل: هل يختلف المعنى إذا قدم المفعول في هذا الكلام أو أخر قلت: لا بد من ذلك فإنك إذا قدمت اسم الله وأخرت العلماء كان المعنى: أن الذين يخشون الله من بين عباده هم العملاء دون غيرهم وإذا علمت على العكس انقلب المعنى إلى أنهم لا يخشون إلا الله كقوله تعالى {ولا يخشون أحداً إلا الله} [الأحزاب: 39] وهما

معنيان مختلفان. فإن قلت: ما وجه اتصال هذا الكلام بما قبله قلت: لما قال {ألم تر} بمعنى ألم تعلم أن الله أنزل من السماء ماء وعدد آيات الله وأعلام قدرته وآثار صنعته وما خلق من الفطر والمختلفة الأجناس وما يستبدل به عليه وعلى صفاته أتبع ذلك {إنما يخشى الله من عباده العلماء} كأنه قال: إنما يخشاه مثلك ومن على صفتك: ممن عرفه حق معرفته وعلمه كنه علمه. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: أنا أرجو أن أكون أتقاكم لله وأعلمكم به. فإن قلت: فما وجه قراءة من قرأ إنما يخشى الله من عباده العلماء وهو عمر بن عبد العزيز ويحكي عن أبي حنيفة قلت: الخشية في هذه القراءة استعارة والمعنى: إنما يجلهم ويعظمهم كما يجل المهيب المخشي من الرجال بين الناس ومن بين جميع عباده {إن الله عزيز غفور} تعليل لوجوب الخشية لدلالته على عقوبة العصاة وقرهم وإثابة أهل الطاعة والعفو عنهم والمعاقب المثيب: حقه أن يخشى.

{إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور} {يتلون كتاب الله} يداومون على تلاوته وهي شأنهم ودينهم. وعن مطرف رحمه الله: هي آية القراء. وعن الكلبي رحمه الله: يأخذون بما فيه. وقيل: يعلمون ما فيه ويعلمون به. وعن السدي رحمه الله. عم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم. وعن عطاء. هم المؤمنون {يرجون} خبر إن. والتجارة: طلب الثواب بالطاعة. و{ليوفيهم} متعلق بلن تبور أي: تجارة ينتفي عنها الكساد وتنفق عند الله ليوفيهم بنفاقها عنده {أجورهم} وهي ما استحقوه من الثواب {ويزيدهم} من التفضيل على المستحق. وإن شئت جعلت {يرجون} في موضع الحال على: وأنفقوا راجين ليوفيهم أي فعلوا جميع ذلك من التلاوة وإقامة الصلاة والإنفاق في سبيل الله لهذا الغرض وخبر إن وقله {إنه غفور شكور} على معنى: غفور لهم شكور لأعمالهم.

والشكر مجاز عن الإثابة.

{والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقاً لما بين يديه إن الله بعباده لخبير بصير} {الكتاب} القرآن. ومن للتبيين أو الجنس. ومن للتبعيض {مصدقاً} حال مؤكدة لأن الحق لا ينفك عن هذا التصديق {لما بين يديه} لما تقدمه من الكتب {لخبير بصير} يعني أنه خبرك وأبصر أحوالك فرآك أهلاً لأن يوحي إليك مثل هذا الكتاب المعجز الذي هو عيار على سائر الكتب.

{ثم أورثنا الكتاب الذين اصفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخبرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير وقالوا الحمد الله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب} فإن قلت: ما معنى قوله {ثم أوثنا الكتاب} قلت: فيه وجهان أحدهما: إنا أوحينا إليك القرآن ثم أورثنا من بعدك أي حكمنا بتوريثه. أو قال: أورثناه وهو يريد نورثه لما عليه أخبار الله {الذين اصطفينا من عبادنا} وهم أمته من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم إلى يوم القيامة لأن الله اصطفاهم على سائر الأمم وجعلهم أمة وسطاً ليكونوا شهداء على الناس واختصهم بكراومة الانتماء إلى أفضل رسل الله وحمل الكتاب الذي هو أفضل كتب الله ثم قسمهم إلى ظالم لنفسه مجرم وهو المرجأ لأمر الله. ومقتصد: هو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً وسابق من السابقين. والوجه الثاني: أنه قدم إرساله في كل أمة رسولاً وأنهم كذبوا برسلهم وقد جاؤهم بالبينات والزبر والكتاب المنير ثم قال: إن الذين يتلون كتاب الله فأثنى على التالين لكتبه العاملين بشرائعه من بين المكذبين بها من سائر الأمم واعتراض بقوله {والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق} ثم قال {ثم أورثنا الكتاب الذي اصطفينا من عبادنا} أي من بعد أولئك المذكورين يريد

بالمصطفين من عباده: أهل الملة الحنيفية فإن قلت: فكيف جعلت {جنات عدن} بدلاً من الفضل الكبير الذي هو السبق بالخيرات المشار إليه بذلك قلت: لما كان السبب في نيل الثواب نزل منزلة المسبب كأنه هو الثواب فأبدلت عنه جنات عدن وفي اختصاص السابقين بعد التقسيم بذكر ثوابهم والسكوت عن الآخرين ما فيه من وجوب الحذر فليحذر المقتصد وذلك الظالم لنفسه حذراً وعليهما بالتوبة النصوح المخلصة من عذاب الله ولا يغترا بماوراه عمر رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له فإن شرط ذلك صحة التوبة لقوله تعالى: {عسى الله أن يتوب عليهم} [التوبة: 102] وقوله {إما يعذبهم} على حقيقة الأمر ولم يعلل نفسه بالخدع. وقرئ: سباق ومعنى {بإذن الله} بتيسيره وتوقيفه. فإن قلت: لم قدم الظالم ثم المقتصد ثم السابق قلت: للإيذان بكثرة الفاسقين وغلبتهم وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم والسابقون. وجنات عدن بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر أي يدخلون جنات عدن يدخلونها ويدخلونها على البناء للمفعول. ويحلون: من حليت: المرأة فهي حال {ولؤلؤاً} معطوف على محل من أساروه ومن داخله للتبعيض أي يحلون بعض أساور من ذهب كأنه بعض سابق لسائر الأبعاض كما سبق المسورون به غيرهم. وقيل: إن ذلك الذهب في صفاء الؤلؤ. وقرئ: ولولؤاً بتخفيف الهمزة الأولى وقرئ: الحزن والمراد: حزن المتقين وهو ما أهمهم من خوف سوء العاقبة كقوله تعالى {إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم} [الطور: 26 - 27]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: حزن الموت. وعن الضحاك: حزن إبليس ووسوسته. وقيل: هم المعاش. وقيل: حزن زوال النعم وقد أكثروا حتى قال بعضهم: كراء الدار ومعناه أنه يعم كل حزن من أحزان الدين والدنيا. حتى هذا. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في محشرهم ولا في مسيرهم وكأني بأهل لا إله إلا الله يخرجون من قبورهم وهم ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولن الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن وذكر الشكور: دليل على أن القوم كثير والحسنات المقامة: بمعنى الإقامة يقال: أقمت إقامة ومقاماً ومقامة {من فضله} من عطائه وإفضاله من قولهم: لفلان فضول على قومه وفواضل وليس من الفضل الذي هو التفضل لأن الثواب بمنزلة الأجر المستحق والتفضيل كالتبرع. وقرئ: لغوب بالفتح: وهو اسم ما يلغب منه أي: لا تتحكلف عملاً يلغبنا: أو مصدر كالقبول والولوغ أو صفة للمصدر كأنه لغوب لغوب كقولك: موت مائت فإن قلت: ما الفرق بين النصب واللغوب قلت: النصب التعب والمشقة التي تصيب المنتصب للأمر المزاول له.

وأما اللغوب فما يلحقه من الفتور بسبب النصب فالنصب نفس الكشقة والكلفة. واللغوب: نتيجة وما يحدث منه من الكلال والفترة.

{والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير} {فيموتوا} جواب النفي ونصبه بإضمار أن: وقرئ: فيموتون عطفاً على يقضي وإدخالاً له في حكم النفي أي: لا يقضي عليهم الموت فلا يموتون كقوله تعالى {ولا يؤذن لهم فيعتذرون} [المرسلات: 36] {كذلك} مثل ذلك الجزاء {نجري} وقرئ: يجارى. ونجزي {كل كفور} بالنون} يصطرخون} يتصارخون: يفتعلون من الصراخ وهو الصياح بجهد وشدة. قال: كصرخة حبلى أسلمتها قبيلها واستعمل في الاستغاثة لجهد المستغيث صوته. فإن قلت: هلا اكتفى بصالحاً كما اكتفى به في قوله تعالى {فارجعنا نعمل صالحاً} [السجدة: 12] وما فائدة زيادة {غير الذي كنا نعمل} على أنه على أنه يؤذن أنهم يعلمون صالحاً آخر غير الصالح الذي عملوه قلت: فائدة زيادة التحسر على ما عملوه من غير الصالح مع الاعتراف به. وأما الوهم فزائل لظهور حالهم في الكفر وركوب المعاصي لأنهم كانوا يحسبون أنهم على سيرة صالحة كما قال الله تعالى {وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً} [الكهف: 104] فقالوا: أخرجنا نعمل

صالحاً غير الذي كنا نحيبه صالحاً فنعمله} أولم نعمركم} توبيخ من الله يعني: فنقول لهم. وقرئ: وما يذكر فيه من أذكر على الإدغام وهو متناول لكل عمر تمكن فيه المكلف من إصلاح شأنه وإن قصر إلا أن التوبيخ في المتطاول أعظم. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة. وعن مجاهد: ما بين العشرين إلى الستين.

وقيل: ثماني عشرة وسبع عشرة و{النذير} الرسول صلى الله عليه وسلم. وقيل: الشيب.

وقرئ: وجاءتكم النذر فإن قلت: علام عطف وجاءكم النذير قلت: على معنى: أو لم نعمركم لأن لفظه لفظ استخبار. ومعناه معنى إخبار كأنه قيل: قد عمرناكم وجاءكم النذير.

{إن الله عالم غيب السموات والأرض إنه عليم بذات الصدور} {إنه عليم بذات الصدور} كالتعليل لأنه إذا علم مافي الصدور وهو أخفى ما يكوهن فقد علم كل غيب في العالم وذات الصدور: مضمراتها وهي تأنيث ذو في محو قول أبي بكر رضي الله لتغني عني ذا إنائك أجمعا المعنى ما في بطنها من الحبل وما في إنائك من الشراب لأن الحبل والشراب يصحبان البطن والإناء. ألا ترى إلى قولهم: معها حبل وكذلك المضمرات تصحب الصدور وهي معها وذو: موضوع لمعنى الصحبة.

{هو الذي جعلكم خلائف في الأرض فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً} يقال للمستخلف: خليفة فالخليفة تجمع خلائف والخليف: خلفاء والمعنى أنه جعلكم خلفاءه في أرضه قد ملككم مقاليد التصريف فيها وسلطكم على ما فيها وأباح لكم منافعها لتشكروه بالتوحيد والطاعة {فمن كفر} منكم وغمط مثل هذه النعمة السنية فوبال كفره راجع عليه وهو مقت الله الذي ليس وراءه خزي وصغار وخسارة الآخرة الذي ما بقي بعده خسار والمقت: أشد البغض. ومنه قيل لمن ينكح امرأته أبيه: مقتي لكونه ممقوتاً في كل قلب. وهو خطاب للناس. وقيل: خطاب لمن بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أي جعلكم فعليه جزاء كفره من مقت الله وخسار الآخرة كما أن ذلك حكم من قبلكم.

{قل أرءيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في} {أروني} بدل من أرأيتم: لأن المعنى: أرأيتم أخبروني كأنه قال: أخبروني عن هؤلاء الشركاء وعما استحقوا به الإلهية والشركة أروني أي جزء من أجزاء الأرض استبدوا بخلقه دون الله أم لهم مع الله شركة في خلق السموات أم معهم كتاب من عند الله ينطق بأنهم شركاؤه فهم على حجة وبرهان من ذلك الكتاب. أو يكون الضمير في {آتيناكم} للمشركين كقوله: تعالى {أم أنزلنا عليهم سلطاناً} [الروم: 35] أم آتيناهم كتاباً من قبله بل إن يعد بعضهم وهم الرؤوساء بعضاً وهم الأتباع {إلا غروراً} وهو قولهم {هؤلاء شفعاؤنا عند الله} [يونس: 18] وقرئ: بينات.

{إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً} {أن تزولا} كراهة أن تزولا. أو يمنعهما من أن تزولا: لأن الإمساك منع {إنه كان حليماً غفوراً} غير معاجل بالعقوبة حيث يمسكها وكانتا جديرتين بأن تهدا هدا لعظم كلمة الشرك كما قال {تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض} [مريم: 90]. وقرئ: ولو زالتا وإن أمسكهما: جواب القسم في} ولئن زالتا} سد مسد الجوابين ومن الأولى مزيدة لتأكيد النفي والثانية: للإبتداء. ومن بعده: من بعد إمساكه. وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال لرج لمقبل من الشام: من لقيت به قال: كعباً. قال: وما سمعته يقول قال:

سمعته يقول: إن السموات على منكب ملك. قال: كذب كعب. أما ترك يهوديته بعد ثم قرأ هذه الآية.

{وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن اهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً استكباراً في الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنت الأولين فلن تجد لسنت الله تبديلا ولن تجد لسنت الله تحويلا أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً} بلغ قريشاً قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم فقالوا: لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم فوالله لئن أتانا رسول لنكونن أهدى من إحدى الأمم فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كذبوه. وفي {إحدى الأمم} وجهان أحدهما: من بعض الأمم ومن واحدة من الأمم من اليهود والنصارى وغيرهم. والثاني: من الأمة التي يقال لها إحدى الأمم تفضيلاً لها على غيرها في الهدى والاستقامة {ما زادهم} اسناد مجازي لأنه هو لسبب في أنزادوا أنفسهم. نفوراً عن الحق وابتعاداً عنه كقوله تعالى {فزادتهم رجساً إلى رجسهم} [التوبة: 125]. {استكباراً} بدل من نفورا. أو مفعول له على معنى: فما زادهم إلا أن نفروا استكباراً وعلواً {في الأرض} أو حال بمعنى: مستكبرين وماكرين برسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين. ويجوز أن يكون ومكر السئ معطوفاً على نفوراً فإن قلت: فما وجه قوله {ومكر السئ} قلت: أصله: وأن مكروا السيئ أي المكر السيئ ثم ومكراً السيئ. ثم ومكر السيئ والدليل عليه قوله تعالى {ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله} ومعنى يحيق: يحيط وينزل. وقرئ: ولا يحيق المكر السيئ أي لا يحيق الله ولقد حاق بهم يوم بدر. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: لا تمكروا ولا تعينوا ماكراً فإن الله تعالى يقول {ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله} ولا تبغوا ولا تعينوا باغياً يقول الله تعالى {إنما بغيكم على أنفسكم} [يونس: 23]. وعن كعب أنه قال لابن عباس رضي الله عنهما: قرأت في التوراة: من حفر مغواة وقع فيها. قال: أنا وجدت ذلك في كتاب الله وقرأ الآية. وفي أمثال العرب: من حفر لأخيه جباً وقع فيه منكباً. وقرأ حمزة: ومكر السيئ بإسكان الهمزة وذلك لاستقاله الحركات مع الياء والهمزة ولعله اختلس فظن سكوناً أو وقف وقفة خفيفة ثم ابتدى {ولا يحيق}. وقرأ ابن مسعود: ومكراً سيئاً {سنت الأولين} إنزال العذاب على الذين كذبوا برسلهم من الأمم قبلهم وجعل استقبالهم لذلك انتظاراً له منهم وبين أن عادجته التي هي الانتقام من مكذبي الرسل عادة لا يبدلها ولا يحولها أي: لا يغيرها وأن ذلك مفعول له لا محالة واستشهد عليهم بما كانوا يشاهدونه في مسايرهم ومتاجرهم في رحلهم إلى الشام والعراق واليمن: من آثار الماضين وعلامات هلاكهم ودمارهم {ليعجزه} ليسبقه ويفوته.

{ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً} {بما كسبوا} بما اقترفوا من معاصيهم {على ظهرها} على ظهر الأرض {من دابة} من نسمة تدب عليها يريد بني آدم. وقيل: ما ترك بني آدم وغيرهم من سائر الدواب بشؤم ذنوبهم. وعن ابن مسعود: كاد الجعل يعذب في جحره بذنب ابن آدم ثم تلا هذه الآية. وعن أنس: إن الضب ليموت هزالا في جحره بذنب ابن آدم. وقيل: يحبس المطر فيهلك كل شئ {إلى أجل مسمى} إلى يوم القيامة {كان بعباده بصيراً} وعيد بالجزاء.

من قرأ سورة الملائكة دعته ثمانية أبواب الجنة: أن ادخل من أي باب شئت.